أُمبرتو إيكو

باودولينو

ترجمة: نجلا حمود و بسام حجار

رواية

علي مولا

المركز الثقافي العربي

أُمبرتو إيكو

باودولينو

هذا الكتاب ترجمة لرواية :

BAUDOLINO

Umberto Eco

© ROMANO BOMPIANI

الكتاب

باودولينو

المؤلف

أُمبرتو إيكو

ترجمة

نجلا حمّود وبسّام حجّار

الطبعة

الأولى، 2003

عدد الصفحات : 608

القياس : 14.5 × 21.5

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 2303339 ـ 2307651

فاكس : 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف : 750507 ـ 352826

فاكس : 343701 ـ 1 961+

إلى إمانويلي

لقد تمّت الترجمة بالاستناد إلى النسختين: الإيطالية الصادرة عن دار نشر بومبياني Bompiani، والنسخة الفرنسية الصادرة عن دار نشر غراسيه Grasset، علماً بأن حقوق النشر بالعربية الممنوحة لدار المركز الثقافي العربي قد تمّت بالاتفاق مع دار نشر بومبياني، لكن بسبب صعوبة ترجمة نصّ مليء بالدلالات، والمكتوب بلغة متعددة المستويات، كما هي أعمال أُمبرتو إيكو، والذي يتضمّن نصوصاً من لغات قديمة، دفعتنا للعمل على النصّين، الأصلي الصادر بالإيطالية والمترجَم إلى الفرنسية، وهي الترجمة التي تمّت بإشراف أُمبرتو إيكو نفسه. وقد جاءت استعانتنا بالنص الفرنسي لسببين: الأول، هو الخبرة المتاحة في الترجمة من الفرنسية إلى العربية. والثاني، لمعرفة إلى أي حدّ سمح إيكو للمترجم الفرنسي بالتصرّف، خاصة في العديد من الأسماء والعبارات التي نَحَتَ إيكو تركيبها بنفسه.

لذلك قامت السيدة نجلا حمّود بالعمل على النص الإيطالي وقام الشاعر بسّام حجّار بالعمل على النص الفرنسي، إضافة إلى كونه هو مَن قام بالصياغة العربية النهائية لهذا العمل.

نأمل أن نكون قد قدّمنا نصّاً خليقاً بجمالية النص الأصلي كما أراده أُمبرتو إيكو.

الناشر

1

باودولينو يبدأ بالتدوين

راتيسبون في سنة الرب شهر ديسمبر ألف ومائة وخمس وخمسين أخبار باودولينو بن آولاريو

أنا باودولينو دي غالياودو آل أولاريو على كتابة بدت لي نظما حسنا هاليلوليا فليتمجد اسم الخالق وليغفر لي

أنا ~~اقترفت~~ لقد ارتكبت أكبر سرقة في حياتي فالحاصل أني اختلست من درج الأسقف أوتو عددا من الرقوق ربما كانت ملكا ~~للكنصلية~~ للقنصلية الامبراطورية ومسحتها بكلّ ما أوتيت من قوة لكنّها لم تمسح جيدا لذا صار عندي من الطروس ما يكفي لكي أدوّن عليها ما شئت أي أخباري وان كنت لا أجيد سردها باللاتينية

واذا اكتشفوا فيما بعد أن الرقوق ليست هناك فمن يدري أي اضطراب سيلي وربما ظنّو أن الفاعل ربما كان أحد جواسيس الأساقفة الرومان الذين يضمرون الشرّ لأمبراطور فردريك

ولكن قد لا يبالون أحد في القنصلية فهم يدونون الكثير من دون طائل ومن يعثر عليها (الرقوق) ~~فلن ينتفع منها إلا لمسح دبره~~ لن يعلم ما نفعها

ncpit prologus de duabus civitatibus historiae AD mexliii conscript
saepe mulumque volvendo mecum de rerum temporalium motu ancipitq

هذه سطور كانت مدوّنة ولم أتمكن من مسحها جيدا وينبغي أن أتقافز عليها

إذا عثر على هذه الرقوق إذا بعد تدويني عليها فلن يفهم منها حرفا حتى القنصل لأنها لغة يتكلمها أهل فراكيستا ولكن أحد لم يكتبها من قبل

وباية حال إذا كانت لغة لم يكتبها أحد من قبل فسيفطنون إلى أني مدونها لأن الجميع يقولون إننا في فراكيستا نرطن بلغة ليست شيئا من المسيحية ولذا يجب أن أخبئها

يا الهي أي تعب يسببه التدوين لأصابعي

أنا أبي لطالما قال إنها لا بد أعطية من القديسة ماريا دي روبوريتو أني منذ نعومة أصفاري لا أكاد أسمع أحدا يردد ~~شيني كوينكوس~~ V عبارة ما حتى أردد ما قاله أكان من تردونا أو من غافي أو حتى لو كان قادما من ميديولانيوم ويتحدث بلهجة تعفّ عنها الكلاب الحاصل أني عندما التقيت الألمان الأوائل في حياتي وكانوا هم الذين حاصرو تردونا وكلهم tiusche ولئام وكانوا يقولون rausz و min got وإذا بي ولم ينقضي نصف نهار أقول راوس وماينغوت وحتام لو قالو لي kint اذهب واعثر لنا على frouwe جميلة لكي نتناكحها ولا باس إن لم تكن راغبة في ذلك يكفي أن تقول

لنا أين هي وسوف نمسكها نحن

ولكن ما هي ال frouwe هذه كنت أقول فيقولون لي دومينا سيدة انرأة du verstan ويومئون بأيديهم شكل ثديين كبيرين ذلك أننا لا نجد في هذا الحصار إناثا ونساء تردونا في الداخل لما ندخل دع الأمر لنا ولكن في الوقت الحالي من منهن في الخارج لا يظهرن إطلاقا ويطلقن علينا الشتائم واللعنات لعنات تقشعر لها الأبدان حتى بدني

يا لهم من شجعان خرائيين ما عليكم إلا تنتظرو حتى أخبركم أين هن ال frouwe فأنا مهما يكن لست جاسوسا وبالانتظار ما عليكم إلا أن تجلدو عميرتكم

يا ويلي كانو على وشك أن يمزقوني إربا

يمزقوني ويقتلوني أو ما يشبه والحال إني هنا أكتب باللاتينية ليس لأني لا أفقه اللاتينية ذلك أني تعلمت القراءة في كتاب لاتيني وعندما يحدثونني باللاتينية أفهم ولكن المشكلة في الكتابة فأنا لا اعرف كيف تكتب الأقوال

بين الاثنين أبدا لا أعلم إذا كان equus أو equum كما احتار عندنا كيف أن الحصان هو دائما الحصام ولكني لا أحتار لأن أحدا لا يكتب كبالوس أو كافال أو لا يكتب البتة لأنه لا يجيد القراءة

غير أن هذه المرة قضي الأمر ولم يمسو مني شعرة لأن في اللحظة وصل عساكر يصيحون هيا يا هيا نهاجم مجددا وبعد ذلك ساد هرج كما في مواخير الشيطان وما عدت أفهم شيئا إزاء الفرسان العابرين من هنا والرماة العابرين من هناك بأرياشهم وأصوات النفير

وأبراج الخشب العالية كأشجار بورنيا تتحرك مثل عربات عليها منجنيق وكرات حديد وآخرين يحملون السلالم وتنهمر عليهم السهام كأنها وابل برد والذين يرمون الحجارة الضخمة بما يشبه المغرفة وتصفر فوق رأسي وكلّ ما كان يرميه الدرتونيون من أعلى الأسوار، يا لها من معركة !

وأنا لبثت لساعتين تحت أكمة مبتهلا أيتها العذراء القديسة منك العون وهدأ كل شيء وراح قوم يتراكضون من حولي أولئك الذين يتكلمون كأهل بافيا يصيحون بأنهم ذبحوا من الدرتونيين أعدادا جعلت المكان بركة من الدماء وكانو مسرورون أيما سرور لأن ذلك سيلقن تردونا أن تؤازر الميديولونيين

وبما أن ألمان ال frouwe كانو عائدين أيضا ربّما بعدد أقل لأن الدرتونيين لم يتقهقرو قلت في سري فلأغادر هذا المكان فورا

ومشيت ومشيت الى أن وصلت الى داري عند انبلاج الصبح تقريبا وسردت على مسمع أبتي غاليادو كلّ ما جرى فقال لي إذا كنت ستحشر أنفك بين المحاصرين فسوف تنال طعنة في استك ذات يوم فأنت تعلم أنه أمر من تدبير الرب فدعهم يكوون بنارهم وأن علينا أن نفكّر في أبكا أبقارنا ، اننا أناس مجتهدون على الضدّ من فردريكوس الذي يجيء أولا ثمّ يذهب ثم يعود ولا يصنع شيئا في المرار الثلاث

غير أن تردونا لم تسقط لأنهم احتلو الدسكرة المحاذية وليس القلب وقد استمر الحال على ما هو عليه إلى أن أذنت نهاية أخباري عندما قطعو عنها الماء وهم عوض أن يشربو بولهم قالوا

لفردريكوس كفى لكن المدينة فاحرقها أولا ثم خربها حجرا حجرا وقد جرى ذلك كله على يد أهل بافيا الذين يحقدون على الدرتونيين فعندنا ليس الأمر كما عند الألمان النين يحبون بعضهم بعضا وهم كالاصبعين في يد واحدة ولكن عندنا لو رأى أهل غاموندو أحدا من أهل برغوليو لانتزعو بَيْضَةُ من فمه

لكني لا أتوضح أخباري إلا عندما أهيم في غابات الفراسكيستا خصوصا إذا كان ضباب ذاك الذي لا يرى المرء طرف أنفه في كنفه فتطالعك الأشياء بغتة لأنك لم تبصرها وهي وافدة إليك وآذاك تحضرني رؤى كتلك التي رأيت فيها وحيد القرن وتلك التي رأيت فيها القديس باودولينو الذي كلّمني وقال لي يا ابن الزانية مصيرك جهنم كما هو المصير في ختام قصة وحيد القرن فكما هو معروف أنه لصيد وحيد القرن يجب أن توضع عذراء من لم تفقد عذريتها عند جذع شجرة فيشتم الحيوان رائحة العذراء فيأتي ليضع رأسه على فرجها عندها جئت بمراهقة ف برغوليو التي كانت جاءت برفقة والدها لشراء بكرة بقرة من أبقار أبي وقلت لها تعالي إلى الغابة لكي نصطاد وحيد القرن ثم وضعتها تحت الشجرة لاقتناعي بأنها عذراء وقلت لها كوني جميلة هكذا وفرجي ساقيك لكي تفسحي موضعا حيث يضع الحيوان رأسه وكانت تقول أفرّج ماذا فاقول هنا هذا الموضع هاك فرجي جيدا وألمس الموضع فتزعق صياحا كمثل أنثى الماعز حين تضع ولا أعود أرى شيئا انتابني ما يشبه القيامة وبعد ذلك لم تعد طاهرة مثل زنبقة وآذاك قالت تبا ماذا سنصنع الآن لكي نستدرج وحيد القرن وفي تلك اللحظة سمعت صوتا من السماء قال لي إن وحيد القرن المحتمل الوحيد إثم

الأرض هو أنا ورحت اقفز بين الأكمات صائحا هيبهيييفررر كنت سعيدا أكثر من وحيد قرن حقيقي وضع قرنه في فرج العذراء ولهذا قال لي القديس باودولينو يا بني والخ لكنه بعد ذلك غفر لي ورأيته مرارا أخرى عند الليل الهابط ولكن فقط إذا كان هناك ضباب أو على الأقل حين لا يكون ضباب والشمس تلهب الأنحاء والثيران

لكني حين قصصت على أبي غالياودو اني رأيت القديس باودولينو أذبني بثلاثين ضربة عصا على مؤخرتي مرتدا يا ربي لم ابتليت أنا بصبي تتراءى له الرؤى ولا يعرف حتى كيف يحلب بكا بقرة فاما أن أشجّ رأسه بالعصا واما أن أهبه لأحد الذين يجولون بين البيوت والأسواق مرقّصي القرود الأفريقية كما صاحت التقيّة أمي في وجهي أنت الأدهى من بين الدواهي بم أذنبت يا ربي لكي أرزق ولدا يرى القديسين وأبي غالياودو قال ليس صحيحا أنه يرى القديسين انه أكذب من يهوذا ويختلق كلّ شيء لكي يمكث متبطلا

أسرد عليكم هذا الخبر والا لما أدرك أحد كيف جرى ما جرى في تلك الأمسية حيث كان ضباب كثيف تحتاج نصلا لكي تشقّه برغم أننا كنا أصبحنا في شهر نيسان ولكن عندنا يكون ضباب حتى في شهر آب ومن ليس من أهل الناحية من الطبيعي أن يضلّ طريقه بين بورميا وفاسكيتا خصوصا ان لم يكن هناك قديس يجزه من عنانه إذ كنت سائرا باتجاه داري عندما وجدتني أمام بارون على جواد مكسوّ بالدروع

البارون وليس الحصان كان مكسوا بالدروع ومع السيف الذي تمنطق به كان يبدو ملك راغون

فانتابتني وأمّاه شكّة في القلب اذ سوف ترين أنه بلا شك القديس باودولينو الذي سيحملني الى جهنم لكنه قال Kleine Kint Bitte

وادركت على الفور أنّه أحد الأعيان الألمان الذي ضلّ طريقه في هذا الضباب في الغابة وابتعد عن رفاقه وقد حلّ الليل وأراني قطعة نقدية قطعة نقدية لم أكن قد رأيت مثيلا لها من قبل ثم بدا مغتبطا لأني أجبته بلغته وقلت بال Diutsch إنه اذا تابعت طريقك بهذا الاتجاه لوجدت نفسك كما في وضح النهار وسط المستنقعات

ما كان ينبغي أن أقول في وضح النهار والضباب كثيف حتى يحتاج الى نصل لكي يشقّه لكنّه أدرك مع ذلك ما كنت أقصد بقولي

واذّاك قلت بأني أعلم أن الجرمان قادمون من بلاد كلّ فصولها ربيع وربّما يزهر فيها أرز لبنانوس ولكن عندنا في الباليا هناك الضباب وفي كنف الضباب هذا فلول من أبناء الوغد الذين هم أحفاد أحفاد العربيس الذين قاتلو شارلمانيوس وكلّ سفلة القوم الذين ما أن يروا حاجا حتّى يوسعونه ضربا بالعصي على أسنانه وينتزعون أيضا الشعور التي على رأسنا ولكن اذا جئت الى كوخ أبي غالياودو فسوف تجد لديه قصعة من الحساء الساخن وفراشا لتمضية الليل في الاسطبل وفي الغد مع انبلاج الصبح سوف أدلّك على الطريق خصوصا اذا كانت بحوزتك هذه القطعة النقدية فالشكر للرب نحن فقراء لكننا قوم شرفاء

هكذا اصطحبته الى دارة ابي ~~غاياودو~~ غالياودو الذي راح يصيح أيها الأبله لأنك لست سوى أبله ما الذي حشي به رأسك لماذا أفصحت

عن اسمي لعابر سبيل فمن يدري ما قد يحصل فقد يكون تابعا للماركيش دي مونفيزا الذي سيفرض علي عشرا آخر من الغلال والعلف والخضار أو اتاوة المهزوم، اتاوة المؤاكر، اتاوة الأبقار ها قد أفلسنا وها هو يهرع للاتيان بالعصا

أما أنا فقلت أن السيد ألماني وليس من مون فيزا فقال الأفضل أن يتابع طريقه في الليل ولكن عندما قلت شيئا عن نقوده هدأ روعه ذاك أن أهل مارنغو لهم عناد الثيران لكنهم أذكياء مثل حصان وأدرك أن بامكانه أن يصيب منه مغنما وقال لي أنت من تتكلّم بكل الألسن الأحرى أن تقول له هذا الأمر

برغم كل شيء نحن فقراء ولكننا شرفاء

هذا كنت قد قلته أنا له

وما الضير من المستحسن أن ترذد قولك على مسمعه وأيضا شكرا على صوله ولكن هناك العلف للحصان وأيضا قصعة الحساء الساخن التي أضيف اليها الجبن والخبز ~~وبنتة من النبيذ~~ الفاخر كما اني سأدعه ينام حيث تنام أنت قرب المود الموق الموقد أما أنت فاذهب الليلة الى الاسطبل فليرني نقوده لأني أبغي صولا جنويا وليعتبر نفسه في بيته لأننا في مارينغو نعتبر الضيف مقدسا

قال السيّد haha انّتم أقوياء الشكيمة يا أهل مرينكومْ ولكن المصلحة مصلحة فسأعطيك قطعتين من هذه النقود من دون أن تسأل اذا كانت صولا جنويا لأنني مقابل صول جنوي أستطيع أن kaufe منك الدار وكلّ بهائمك خذ هذه وأنت تعلم انّك الغانم

لبث أبي ساكتا والتقط القطعتين اللتين رما بهما السيّد على

الطاولة ذلك أن أهل مارينغو عنيدون كالحطب لكنّهم أذكياء وأكل مثل ذئب (السيد) لا بل مثل اثنين (من الذئاب) فيما أوى أبي وأمي الى الفراش لأنّهما كانا يكدّان طيلة النهار فيما كنت أتسكّع في نواحي الفراسكيتا قال ال herr انه لذيذ هذا النبيذ ثأمكث لكي أحتسي منه قليلا بعد قرب الموقد أمّا kint فاحك لي أحك لي كيف أنك تتحدّث بلغتي جيدا

ad petitionem tuam frater ysingrine carissime primos libros chronicae meae missur

ne humane pravitate

هنا أيضا لم أفلح في مسح الكتابة

الآن أستأنف خبر ذلك المساء بصحبة ذلك السيّد الألماني الذي كان يريد أن يعرف كيف لي أن أجيد لغته وهكذا أخبرته باني أمتلك موهبة تعلّم اللغات على غرار الرسل كما أني أعطيت ملكة الرؤى كالمجدليات لأني أجول في الغابة وأرى القديس باودولينو ممتطيا وحيد قرن حليبي اللون بقرنه اللولبي النابت من الموضع في وجه الحصام حيث الأنف في وجه الانسان

لكن الحصان ليس لديه أنف والا لنبت له تحته شاربان كشاربي هذا السيّد الذي كانت له لحية جميلة بلون وعاء من النحاس فيما الألمان الآخرون الذين رأيتهم كانت لهم شعور صفر حتّى المنابت

وهو قال لي حسنا ربّما كان ما تسميه وحيد قرن هو Monokeros ولكن كيف علمت أن هناك وحيدي قرن في العالم فقلت له أنني قرأت هذا في كتاب لناسك الفراسكيتا وهو يرمقني

بعينين جاحظتين كأنه طير هوام قائلا ولكن كيف تجيد أيضا أن تقرأ

حسنا قلت له سوف أحكي لك الحكاية

جرت القصة اذا على نحو أنه كان ثمة ناسك ورع بجوار بوسكو وكان الناس يأتونه بين الحين والحين بدجاجة أحراج أو بأرنب بريّ فيما هو منصرف الى الصلاة على كتاب مدوّن وعندما يمرّ الناس بناحيته يروح يقرع صدره بحجر ولكني أحسب أنها تلعة من تراب فبذلك لا يوجع نفسه كثيرا اذا في ذلك اليوم كنّا قد حظينا ببيضتين فجئته فيما هو يقرأ وقلت له واحدة لك وواحدة لي كما قد يفعل المسيحي الصالح اذ كفاه أنه لا يرى ولكني لا أدري كيف يتدبر أمره لأنه يقرأ فامسكني من ياقة ثوبي فقلت له هل تريد أن تقاسمني ثوبي فاستغرق هو بالضحك وقال هل تعلم أنك ولد نجيب تعال الي كل يوم لكي ألقنك القراءة

هكذا علّمني الحروف المكتوبة بعد لأي من شدّ الأذنين والضربات على الرأس وفقط حين صارت بيننا مودة راح يردّد على مسمعي أواه كم أنت مريد حسن الطلعة وكم أنت فتي يا لحسن رأسك كرأس الأسد هيا أرني ساعديك القويين وكيف هو نحرك دعني ألمسك هنا عند منبت الفخذين لكي أرى اذا كنت صحيح الجسم عندئذ أدركت مبتغاه فرضربته بركبتي على بيضتي صفنه أي بعبارة أخرى على خصيتيه فالتوى على نفسه من الألم قائلا سحقا ساقصد أهل مارينغو وأقول لهم أنك أصبت بمس شيطاني فيحرقوك لا باس عندي أقول لكني أولا ساخبرهم باني رأيتك خلال الليل وأنت تدسه في فم ساحرة هي الأكثر رجولة ثم

لنر من سيكون بنظرهم هو الممسوس عندئذ قال هو مهلا انما كنت أقول ذلك على سبيل المزاح لأتثبت من أنك تحيا في خشية الرب دعنا لا نتطرق الى الأمر مجددا تعال غدا لألقنك أصول الكتابة ذلك أن القراءة أمر لا يتطلّب جهدا ويكفي لذلك أن تنظر وتتمتم بشفتيك ولكن لكي تكتب في الكتاب تعوزك الرقوق والحبر والقلم وأن alba pratalia arabat et nigrum semen seminabat وأنه هو لا يتكلم الا باللاتينية

فقلت يكفي أن تجيد القراءة لكي تتعلم ما لم تكن تعرفه بعد وأنّك اذا كتبت انما تكتب ما تعرفه اذا صبرا الأفضل أن أبقى جاهلا الكتابة فالدبر هو الدبر

عتدما حكيت له هذا راح السيد الألماني يقهقه مثل معتوه قائلا يا فارسي المقدام الصغير كلّ الناسكين allesammt sodomiten ولكن قل لي ما رأيت قبل ذلك في الغابة وأنا ظننّا مني أنه أحد الذين يريدون اسقاط تردونا من أتباع الامبراطور فردريكوس قلت في سري ربما من الأفضل أن أجامله قليلا فربما أعطاني قطعة أخرى من النقود فقلت انني قبل ذلك بليلتين ظهر لي القديس باودولينو وقال لي ان الامبراطور سيحرز نصرا عظيما في تردونا لأن فردريكوس هو السيد المطلق الحق على لومبارديا التي تشتمل على الفراسكيتا

وعندئذ قال السيّد أنت kint مرسل من السماء هل تريد أن تاتي معي الى المعسكر الامبراطوري لتخبرهم بما قاله لك القديس باودولينو فقلت له انه اذا شاء حتى بامكاني أن أقول ان القديس باودولينو قد أخبرني بأن القديسين بطرس وبولس سيأتيان عند

الهجوم لقيادة جند الامبراطور فقال لي Ach mie Wunderbar قد يكفيني بطرس بمفرده

Kint تعال برفقتي لتفوز بقدرك

على الفور أو تقريبا على الفور صبيحة اليوم التالي قال هذا السيد لأبي انه سيصحبني الى مكان حيث يمكنني تعلم القراءة والكتابة وربما أصبحت ذات يوم خادما كهنوتيا

لم يكن أبي غالياودو ليدرك ما معنى هذا بل أدرك أن ذلك سيوفر عليه فما يطعمه وسيرفع عن كاهله غضة أن يراني متسكعا في الطرقات والأجمات لكنه فكر ان هذا السيد قد يكون لم لا أحد اولئك الذين يجوبون الأسواق والمهرجانات بصحبة قرد ولم لا يعمد فيما بعد الى التحرش بي وهذا أمر لا يستحسنه لكن السيد قال انه كبير الشان كبلاطين وأنه من بين الألمان ليس هناك من هم Sodomiten

ومن يكون هؤلاء اللوطيون قال أبي ففسرت له أنهم اللذين يهوون الاست دعك قال هواة الاست في كل مكان ولكن بما ان السيد قد عدّ خمس قطع نقدية أخرى غير قطعتي الأمس طار صواب أبي وقال يا بني هذه لك ثروة من حيث لا تعلم وربما لنا أيضا ولكن بما أن هؤلاء الألمان لا يكفون مهما حصل عن المرور بنا فهذا يعني انك من وقت لآخر ستعزج علينا فقلت له أقسم باني سافعل وذهبت ولكني كنت قلقاحزينا لأني رأيت أمي تنتحب كأنني ذاهب الى حتفي

هكذا انطلقنا وقال السيد من أي جهة هو Ost الامبراطوريين

أمر يسير جدا قلت يكفي أن نتبع الشمس أي بعبارة أخرى أن نتجه الى المكان الذي تأتي منه

وفيما كنا نسير كنا قد بدأنا نرى المعسكرات الى أن لاقتنا فرقة من الفرسان المدججين بالسلاح الذين ما أن رأونا حتى ترجلوا راكعين وقد نكسوا الرماح والبيارق ورفعوا السيوف فما الذي يجري بحق السماء قلت في سري فاذا بهم يصيحون قيصر Kaisar الميمنة و Keiser الميسرة و Sanctissimus Rex ويقبلون يد هذا السيد وكاد فكي السفل أن يقع لشدّة ما كان فاغرا من ذهولي مثل آتون ذلك أني عندها فقط أدركت أن هذا السيد ذا اللحية الصهباء هو الامبراطور فردريكوس بلحمه وعظمه وأنا قد استرسلت بسرد الأكاذيب طيلة المساء كأني أفعل على مسمع نكرة غريب

اذا سيامر بقطع رأسي قلت في سري مع أني كلّفته ثمنا باهظا. VII . قطع نقدية فلو أراد رأسي لقطعه أمس مجانا دونما تكلفة

وقال هو لا تفزعوا كل شيء على ما يرام اني أحمل أنباء عظيمة عن رؤيا يا صغير هلا أخبرتنا جميعا بالرؤيا التي تراءت لك في الغابة فأسقط على الأرض كأنّ بي المسّ الزائل فتجحظ عيناي ويزبد فمي وأصيح لقد رأيت رأيت وأروي قصة القديس باودولينو الذي يلهمني النبوءات فيسبحون ~~seignordeix~~ الاله الرب ويصيحون معجزة معجزة gottstehmirbei

وكان هناك أيضا مرسلو تردونا الذين لم يقر رأيهم بعد على التسليم أو عدم التسليم ولكنهم عندما سمعوا أقوالي ارتموا أرضا وقالوا انه اذا كان القديسون أنفسهم ضدهم فخير لهم أن يستسلمو لأن تسليمهم ليس باية حال سوى مسألة وقت قد نفد

ثم رأيت الدرتونيين وهم يخرجون جميعا من المدينة رجالا ونساء وأطفالا وشيوخا منتحبين في سزهم فيما الألمان يقتادونهم كأنهم نعععاج أو الأحرى كالنعاج أو Universa pecora فيما أهل بافيا يتدفقون يتدفقون داخلين الى ترتونا كالممسوسين حاملين العصي والمطارق والدبابيس والمعاول كما لو أن تقويض مدينة من أسسها يسزع انزال شهوتهم

عندما شارف المساء رأيت على طول الساحل دخانا عظيما وتردونا أو درتونا ما عادت موجودة تقريبا هكذا هي الحرب كما اعتاد أبي غالياودو أن يقول انها بهيمة هائلة قذرة

ومع ذلك لتكن نكبتهم لا نكبتنا

وعند المساء عاد الامبراطور الى خيمته وقرص خدي برفق كما اعتاد أبي أن يفعل حين كنت لا أزال طفلا ثم استدعى أحد أعوانه الذي كان القانوني الصالح راهوينوس وقال له انه يريد أن أتعلم الكتابة والحساب والنحو الذي كنت أجهل ما هو ولكني الآن شيئا فشيئا بتّ أعرف ما هو وما كان أبي ليتخيّل ذلك

كم هو رائع أن تكون عالما من كان ليصدق

شكرا لله domini dominus والحاصل فليتمجّد اسم الرب

غير ان تدوين خبر يستجلب نفحات من الحز حتى في عزّ الشتاء وذلك بسبب الخوف أيضا ذلك أن الشمعة تنطفئ وكما كان يقول صاحبنا ابهامي يؤلمني

2

باودولينو يلتقي نيسيتاس خونياتس

«ما هذا؟ سأل نيسيتاس بعد أن قلّب بين يديه الرقّ وحاول أن يقرأ فيه بعض السطور.

- إنه أول تمرين لي على الكتابة، أجاب باودولينو، ومنذ أن كتبته - كنت آنذاك، على ما أعتقد، في الرابعة عشرة وكنت لا أزال كائنا بريا - لطالما حملته معي، مثل حرز. فيما بعد سوّدت كثيرا من الرقوق الأخرى، يوميا أحيانا. كان يتراءى لي أنني موجود فقط لانني، عند المساء، أستطيع أن أروي ما خبرته أثناء النهار. ثمّ كان يكفيني أن أعود الى الخلاصات الشهرية، بضعة أسطر، لكي أتذكّر الأحداث الرئيسية. وكنت أقول في سرّي انني، عندما تتقدّم بي السنّ - وبإمكاننا أن نقول الآن اذا - سوف أدوّن انطلاقا من هذه الملاحظات «أخبار باودولينو». على هذا النحو حملت معي، في أسفاري، قصة حياتي. ولكن بفراري من مملكة الراهب جان. . .

- الراهب جان؟ لم أسمع من قبل بهذا الاسم.

- سوف أحدّثك عنه، وأكثر مما ينبغي ربّما. ولكنني كنت أقول. أثناء فراري فقدت هذه الصفحات. وكان ذلك أشبه بفقد حياتي.

- سوف تحكي لي ما تذكره. فتعاودني شذرات وقائع، أجزاء حوادث، فأبني عليها قصّة محبوكة بقدر الهي. فقد منحتني، أنت، بانقاذك

حياتي، القليل من المقبل المتبقي لي، أما أنا فسأظهر لك عرفاني بأن أعيد اليك الماضي الذي فقدته.

- ولكن ربّما كانت قصتي خالية من أي معنى...

- القصص الخالية من المعنى لا وجود لها. وأنا من طينة الذين يجيدون العثور على معنى ما، حتّى حيث لا يعثر الآخرون. بعد ذلك تصير القصة كتاب الأحياء، نفيرا صادحا يبعث من قبورهم أولاء الذين صاروا غبارا منذ عصور... فقط يعوزنا الوقت، ريثما تتضح السياقات، وتجمع، وتبيان الصلات فيما بينها، حتّى أكثرها خفاء. لكننا لا شاغل آخر لنا، فالجنويون، أصحابك، يقولون إنّ علينا أن ننتظر ما دام سعار أولئك الكلاب لم يهدأ.»

نيسيتاس خونياتس، الذي كان لعهد قريب خطيب البلاط، وقاضي الإمبراطورية الأول، قاضي الرهبنات، حافظ الأسرار، أي - بحسب اللاتينيين - كبير قضاة باسيليوس بيزنطة بالاضافة الى كونه مؤرّخ عدد من سلالة كومنينوس والملائكة، كان يرمق بفضول كبير الرجل الماثل أمامه. كان باودولينو قد أخبره انهما التقيا من قبل في غاليبوليا، في عهد الإمبراطور فردريك، ولكن اذا كان باودولينو حاضرا هناك ومحتجبا بين أعداد من أعوان البلاط أمثاله، فانّ حضور نيسيتاس، الذي ينطق باسم الباسيليوس، أكثر من لافت. أكان كاذبا؟ لقد كان بأية حال الرجل الذي أنقذه من غضبة الغزاة، واصطحبه الى ملاذ آمن، وجمع شمله بعائلته ووقطع له عهدا باخراجه من القسطنطينية... كان نيسيتاس يمعن النظر الى منقذه. صار في عينيه أشبه بعربي منه بمسيحي. سحنة ألهبتها الشمس، وندبة شاحبة وسمت خدّه بأكمله، وهامة من شعر ما زال ضاربا الى الصهبة تضفي عليه سمة هيثمية. وسوف يعجب نيسيتاس فيما بعد حين يبلغه أن هذا الرجل جاوز الستين. كانت يداه غليظتين وعندما يضمّهما فوق بطنه تظهر مفاصلهما البارزة العقد. يدا فلاح خلقتا للمعزقة لا للسيف.

ومع ذلك كان يتكلّم اليونانية بطلاقة من دون أن يتطاير نثار اللعاب من فمه عند نطقه بكلّ كلمة كما يفعل الغرباء عادة، وقد سمعه نيسيتاس للتوّ مخاطبا بعض الغزاة بلغة لهم، شعثاء، كان ينطق بها بيسر ونبر، كمن يجيد استخدامها حتّى لكيل الشتائم. وهو بأية حال، كان قد أسرّ اليه مساء امس أنه حُبِيَ بموهبة: اذ كان يكفيه أن يسمع شخصين وهما يتحدثان بلغة ما لكي يتمكّن تقريبا من النطق بلغتهما. انها موهبة فريدة كان نيسيتاس يحسب انها حكر على الرسل.

لقد علّمته حياة البلاط، وأيّ بلاط، أن يقدّر الناس بريبة رصينة. وما كان لافتا لدى باودولينو، مهما قال، هو أنه كان ينظر الى محدّثه خلسة كأنه يحذّره من مغبّة أخذ كلامه على محمل الجد. وهو أمر يمكن التغاضي عنه في التعاطي مع أيّ كان ما عدا من تتوقّع منه شهادة صادقة تصلح أن تكون خبرا. ولكن من ناحية أخرى، كان نيسيتاس فضوليا بطبعه. كان يعشق الاستماع الى الآخرين وهم يسردون الوقائع وليس فقط ما يجهله منها، بل حتى تلك التي سبق أن شهدها بأمّ عينيه؛ فعندما يعمد أحد ما الى سردها على مسمعه مجدّدا بدا له أنه يراها من وجهة أخرى كأنّه على قمّة جبل من جبال الأيقونات يرى الصخور كما الرسل من رفعتهم لا كما سواد المؤمنين من أسفل. ثمّ انه كان يهوى سؤال اللاتينيين المختلفين كلّ الاختلاف عن اليونانيين بدءا بلغاتهم الخاصة، وهي كلّها جديدة وكلّ واحدة منها مختلفة عن الأخرى.

كان نيسيتاس وباودولينو جالسين أحدهما قبالة الآخر في ردهة بُرَيْج ذي كوات ثنائية الفص مطلّة على جهات ثلاث. من جهة كان يبدو القرنُ الذهبي والضفة المقابلة من بيرا وبرج غالطة الذي ينبثق وسط ما يحوطه من قصبات وأكواخ؛ ومن جهة أخرى قناة المرفأ التي تصبّ في ساعد سان جورج؛ أمّا الجهة الثالثة أخيرا فتطلّ على الغرب، ومنها ترى القسطنطينية بأكملها. ولكن في ذلك الصباح كان لون السماء الشفيف ملبّدا بدخان كثيف يصّاعد من القصور والكنائس التي تلتهمها الحرائق.

كان ذاك هو الحريق الثالث الذي تشهده المدينة في غضون الأشهر التسعة المنصرمة؛ فقد أتى الأول على مخازن وأهراءات البلاط، من البلنشيرن الى أسوار القسطنطينية؛ وأتى الثاني على فنادق أهل البندقية والأملفيتيين وأهل بيتزا واليهود، من بيرانا الى الساحل تقريبا، ولم ينج منه سوى حيّ الجنويين المحاذي للأكروبول؛ أمّا الثالث فكان على أشدّه في تلك الأثناء.

في الأسفل كان نهر من اللهب؛ البوّابات تتساقط والقصور تتداعى والأعمدة تتقصّف وكرات النار التي تتطاير من وسط هذا الحريق تلتهم الديارات البعيدة، ثمّ تعود ألسنة اللهب، اذ تدفعها الرياح التي يحلو لها، بنزق، أن تؤجّج هذا الجحيم، لتأتي على ما أبقته في المرّة الأولى. في الأعلى، كانت سحب ملبّدة تصّاعد والوهج ما زال عند قواعدها بفعل انعكاسات النيران، لكن بألوان مختلفة ربّما بسبب الخلّب الذي تشيعه أشعّة الشمس البازغة أو ربّما بسبب التوابل والأخشاب والمواد الأخرى المحترقة. ليس هذا فقط: فبحسب اتجاه الريح كانت تهبّ من مختلف أرجاء المدينة روائح جوز الطيب والقرفة والبهار والزعفران والخردل الأسود أو الزنجبيل - على ذلك النحو كانت أجمل مدن العالم تحترق، طبعا، ولكن كمحرقة لنكهات باذلة عطورها. كان باودولينو موليا ظهره للنافذة الثالثة فبدا أشبه بظلّ أضفى عليه بصيص الصبح والنيران هالة. وكان نيسيتاس يصغي اليه قليلا وقليلا يستعيد في ذاكرته حوادث اليوم المنصرم.

بدءا بصبيحة ذلك اليوم، الأربعاء 14 نيسان من سنة الربّ 1204، أي ستة آلاف ومائة واثنتي عشرة من بدء الخليقة، بحسب التقويم المعتمد في بيزنطة، كان البرابرة قد استولوا تماما، منذ يومين، على القسطنطينية. وكان الجيش البيزنطي بشكّاته وتروسه اللامعة زمن العروض الاحتفالية، والحرس الإمبراطوري من المرتزقة الانكليز والدنمركيين المسلحين

بفؤوسهم المجنّحة المرهوبة الذين كانوا حتى يوم الجمعة يقاومون العدو ببسالة، قد استسلموا يوم الاثنين بعد أن تمكّن الأعداء من اختراق الأسوار. كان انتصارا مفاجئا بحيث إن المنتصرين، أنفسهم، أوقفوا زحفهم، عند حلول المساء، متوجّسين، خشية هجوم معاكس، لذا عمدوا، لكي يبعدوا عنهم المدافعين، الى اشعال الحرائق الجديدة. ولكن في صباح يوم الثلاثاء أدرك أهل المدينة جميعا أنّ مغتصب العرش، ألكسيس دوكاس مورسوفل قد فرّ تحت جنح الظلام الى داخل البلاد. وراح الأهلون وقد باتوا مهزومين لا سند لهم يصبّون اللعنات على سارق العروش ذاك الذي لم يكفوا عن الاحتفاء به حتّى الأمس، تماما كما راحوا يتملّقونه عندما قتل سلفه، أمّا وقد أسقط في يدهم (أنذال، أنذال، أنذال، يا لهذا العار، كان نيسيتاس يردّد في سرّه حيال مهانة مثل ذلك الاستسلام)، اجتمعوا في موكب ضخم، البطريرك والكهنة من كلّ عرق باللباس الكنسي، والرهبان ينعقون ويستجدون الرحمة، مستعدين للارتهان لذوي السلطان الجدد كما طالما ارتهنوا لسابقيهم، الصلبان وصور الربّ مرفوعة الى أعلى ما قد تبلغه صيحاتهم وشكواهم، وهبّوا الى ملاقاة الغزاة آملين بأن يحظوا برأفتهم.

أي جنون هذا الذي يجعلهم يأملون بالرأفة من قبل أولاء البرابرة الذين ما كانوا لينتظروا استسلام العدو لكي ينفذوا ما كانوا يحلمون به منذ شهور، أن يدمّروا المدينة الأرحب، التي تؤوي العدد الأكبر من السكان، الأغنى، الأكثر نبلا من بين مدن العالم، وأن يتقاسموا مغانمها.

وجد موكب النائحين الضخم نفسه بازاء كافرين مقطّبين غضبا وسيوف في أيديهم ما زالت دامية، وخيول ما زالت صاهلة. وكأنّ الموكب لم يكن، بدأ النهب.

أواه أيّها المسيح ربّنا، كم كان عظيما يأسنا وكم كانت عظيمة محنتنا! كيف ولماذا لم ينبئنا هدير البحر بشقائنا الأخير ولا اظلام شمسنا أو كسوفها الكلي، ولا هالة قمرنا الحمراء، ولا مدارات النجوم؟ هكذا

كان ينتحب نيسيتاس مساء يوم الثلثاء، هائما على وجهه في ما كان عاصمة الرومان الأخيرة، محاولا، من جهة، أن يجتنب حشود الكافرين، متلمّسا، من الجهة الأخرى، دربه التي دائما تقطعها عليه حرائق جديدة، يائسا من عجزه عن بلوغ دارته، وقلقا، في الوقت نفسه، من أن يكون بعض أولئك الرعاع قد تعرّض لأسرته.

أخيرا، عند الليل الهابط، وقد وجد أنّه لا يجرؤ على اجتياز المساحات المكشوفة بين القديسة صوفيا والهيبودروم، هرع باتجاه الهيكل اذ رأى أن بوّاباته الضخمة مشرّعة ظنّا منه أن هياج البرابرة مهما بلغ من جموحه فهو لن يفضي بهم الى تدنيس ذلك المكان.

ولكن ما إن خطا في داخله حتّى امتقع من هول ما ابصر. كانت الجثث منتشرة على أرضية المكان الفسيح، وفي وسطها خيّالة من الاعداء يتبخترون فوق صهوات جيادهم مخمورين على نحو فاضح. هناك كان الرعاع يحطمون بدبابيسهم بوّابة المنصّة الفضية الموشّاة بالذهب. فقد ربط المنبر بحبال لنزعه من منصّته وجرّه بواسطة عدد من البغال. وكان نفر من السكارى يهمزون البغال شاتمين، غير أن حوافر الدواب كانت تنزلق على البلاط المصقول فيما المسلّحون يلحّون في مسعاهم يحثونها بنغز الرماح تارة وشطب النصال تارة أخرى فتقذف مذعورة رشاشا من روثها، ويقع بعضها كاسرا احدى قوائمه، بحيث استحالت الفسحة المحيطة بالمنبر الى مستنقع من الدماء والروث.

مجموعات أخرى من طلائع المسيح الدجّال تلك انصرفت الى تخريب المذابح، فشهد نيسيتاس بأمّ العين منهم من يفتح درفتي بيت القربان مستوليا على كؤوس الذبيحة، مبعثرا على الأرض أعراض الخبز والخمر، ومن ينتزع بخنجره الفصوص الكريمة التي تزيّن الكأس ويدسّها طيّ ثيابه ثمّ يرمي بالكأس فوق كومة من المغانم جمعت لكي يتمّ صهرها. ولكن بعضهم كان يعمد قبل رمي الكأس الى الاستعانة بقارورة من النبيذ يستلّونها من سرج جوادهم، ليملأ الوعاء المقدّس ويرشف منها

محاكيا، بسخرية، أداء الكاهن خلال الذبيحة الالهية. بل أدهى من ذلك، كانت مومس شبه عارية قد وقفت على المذبح الرئيسي المنهوب، وراحت ترقص لشدّة سكرها، حافية القدمين، على الطاولة المباركة ساخرة في ايماءاتها من الشعائر المقدّسة فيما راح رجال مقهقهون يحثّونها على خلع ما تبقّى من مسوح تستر عريها؛ جعلت الراقصة تتعرّى شيئا فشيئا وهي تؤدّى قبالة المذبح رقصة الاباحة القديمة المحرّمة قبل أن تتهالك، أخيرا، منهوكة ناخرة على كرسي البطريرك.

هرع نيسيتاس، دامع العينين لهول ما رأى، الى مؤخّر قاعة الهيكل حيث ينتصب ما كان الإيمان الشعبي يسمّيه «العمود الراشح» - والذي يبذل بالفعل عرقه الصوفي الدائم لمن يلمسه، ولكن هذه الدوافع الصوفية لم تكن هي التي حدت بنيسيتاس لأن يهرع لبلوغه. واذ أصبح في منتصف الطريق اليه اعترضه رجلان ضخمان من الغزاة - فبديا في عينيه عملاقين - وصاحا به بلهجة آمرة. ما كان نيسيتاس يحتاج لأن يكون ضليعا بلغتهما لكي يدرك أنهما، نظرا لملابس البلاط التي يرتديها، حسباه المكلّف بالذهاب أو أنه يستطيع أن يخبرهما في أي موضع خبّأه. فشعر نيسيتاس في تلك اللحظة أنه هالك لا محالة، ذلك أن ما شهده خلال فراره لاهثا في أحياء المدينة المنكوبة جعله موقنا أنه لن ينجو لمجرّد اقراره بأنه لا يحمل سوى بعض النقود أو أن ينكر امتلاكه كنزاً ما مخبّأً في مكان ما: أعيان ذلوا، وشيوخ انتحبوا، ومالكون فقدوا ملكياتهم وعذّبوا حتى الموت كي يعترفوا أين خبّأوا مقتنياتهم، وقتلوا اذا كانوا فقدوا مقتنياتهم ولم يتمكنوا من الاعتراف بمكانها، وتركوا سوية التراب اذا اعترفوا ولكن بعد تلقيهم من فنون العذاب ما لن يستطيعوا النجاة من تبعاته، فيقضون فيما معذّبوهم يرفعون حجرا من هنا أو يهدمون جدارا من هناك، أو ينتزعون سقفا مزيّفا ويمدّون أياديهم الكاسرة لاختطاف آنية ثمينة أو حرائر ناعمة الملمس أو أقمشة من قطيفة، أو لمداعبة فراء وثيرة أو تحسّس الحلي والأحجار الكريمة، أو استنشاق دوارق ومظاريف العقاقير النادرة.

هكذا رأى نيسيتاس نفسه، في تلك اللحظة هالكا. فبكى حزنا على أسرته التي فقدته، وسأل الرب الكلي القدرة مغفرة خطاياه. وكان ذلك في اللحظة التي خطا فيها باودولينو الى داخل كنيسة القديسة صوفيا.

بدا بهيّ الطلعة كصلاح دين، ممتطيا جوادا مجلّلا، وعلى نحره صليب أحمر، شاهرا سيفه، صائحا «ايّها المنافقون، الكفرة، الأنجاس، المدنّسون، خنازير المتاجرة بالمقدسات، أهكذا يعامل ملك الرب إلهنا؟» وراح يضرب بسيفه كلّ أولئك الكافرين الذين يرتدون شارة الصليب مثله، سوى أنه لم يكن مخمورا بل حانقا جدا. ولمّا بلغ المومس المتهالكة على كرسي البطريرك أمسكها بشعرها وراح يجرّها في روث البغال شاتما الرحم الذي أنجبها بأقذع العبارات. غير أن من ظنّ أنّه يقتصّ منهم، من حوله، كانوا امّا مخمورين تماما وامّا منهمكين بنزع الفصوص الكريمة من كلّ آنية مرصّعة بها فلم يتنبّهوا الى صنيع باودولينو.

هكذا وجد نفسه أمام العملاقين اللذين كانا على وشك الفتك بنيسيتاس، فرمق البائس الذي راح يتوسّل رأفتهما وأفلت من قبضته شعر الغانية التي سقطت على الأرض مجدوعة الأطراف وصاح بيونانية فصيحة: «بحق الملوك المجوس الاثني عشر، أنت السيّد نيسيتاس، وزير قيصر بيزنطة الباسيليوس! قل لي ماذا أفعل من أجلك؟

- يا أخي في المسيح، كائنا من كنت، صاح نيسيتاس قائلا، نجّني من هؤلاء البرابرة اللاتينيين الذين يريدون قتلي، خلّص جسدي فتخلّص روحك!» لم يفقه الحاجّان اللاتينيان حرفا واحدا من ذاك التنابر المشرقي فاستفسرا باودولينو عن الأمر وقد بدا لهما من جماعتهما، بعد أن خاطباه بالبروفانسية. وبلكنة بروفانسية لا شوبَ فيها صاح بهما باودولينو قائلا إنّ الرجل هو سجين الكونت بودوان سيّد الفلاندر والهينو، الذي تقضي أوامره بأن يسوقه هو شخصيا اليه، ولأن الأمر يتعلّق بالأسرار الإمبراطورية فانّ رتيبين بائسين مثلهما لن يفهما حقيقة ما يجري. لبث الرجلان مذهولين هنيهات ثمّ قرّرا أن الجدال لن يجدي نفعا والأحرى أن يصرفا

وقتهما الثمين في البحث عن كنوز أخرى أيسر منالا، فابتعدا باتجاه المذبح الرئيسي.

لم يرتم نيسيتاس على قدم مخلّصه ليلثمها، اذ كان طريح الأرض منذ البداية، غير أن حال التشوّش الهائلة التي ألمّت به حالت دون تصرّفه بكرامة تليق بمكانته: «أواه يا سيّدي الطيّب، شكرا لعونك، فليس اللاتينيون كلّهم اذا من طينة الضواري الجامحة التي يعشّش الحقد في ألبابها. حتّى المسلمين لم يقترفوا مثل هذا عندما غزوا القدس، عندما رضي صلاح الدين بحفنة من النقود مقابل تركه الأهلين يخرجون بسلام! أي عار للمسيحية جمعاء، اخوة يعادون اخوة، حجّاج كان الحري بهم استعادة الضريح المقدّس فاذا بهم يستوقفهم الجشع والحسد فيدمّرون الإمبراطورية الرومانية! أيا قسطنطينية، قسطنطينية، أمّ الكنائس، أميرة الدين، مرشدة الآراء السديدة، مرضعة العلوم قاطبة، مرتع الحسن كلّه، لقد تجرّعت اذا من يد الله كأس الغضب، واشتعلت بنيران أعظم من النيران التي أحرقت بنتابوليس! أي أبالسة طامعين، قساة القلوب، أمطروك بشراهة ثمالتهم، وأيّ طامعين بك وبهم مسّ وبغضاء قد أوقدوا شعلة زفافك؟ يا أمّا كانت بالأمس رافلة بالتبر والأرجوان الملكي، واضحت اليوم مدنّسة شاحبة ثكلى أبنائها، مثل طيور حبيسة القفص لا نعثر على وسيلة لمغادرة هذه المدينة التي كانت مدينتنا، كما لا نقوى على البقاء فيها، بل اننا، لشدّة ما أخطأنا، نهيم على وجوهنا كما النجوم الهائمة.

- سيّدي نيسيتاس، أجابه باودولينو، لقد نمي اليّ أنكم، أنتم اليونانيون، تكثرون من الكلام وعن كلّ شيء، لكنّي لم أحسب أنكم تفعلون بمثل هذا المقدار. فالمسألة الملحّة علينا الآن هي أن نتدبّر أمر انتقالنا من هنا الى أبعد مكان ممكن. من جهتي أنا، أستطيع أن أوفّر لك ملاذا في حارة الجنويين، ولكن عليك أولا أن ترشدني الى الطريق الأقصر والأكثر أمانا والذي يفضي الى الحيّ الجديد، ذلك أن الصليب الذي أحمله على صدري يشكّل حماية لي وليس لك: فمن حولنا ههنا أناس

فقدوا صوابهم، واذا ما شاهدوني مع يوناني أسير فسيعتقدون أنّه يساوي شيئا فيختطفونه مني.

- تريد طريقا، أعرف طريقا آمنا لكنّه لا يحاذي الشوارع، قال نيسيتاس، لذا سيتوجّب عليك أن تتخلّى عن حصانك...

- فلنتركه اذا» قال باودولينو بلامبالة أدهشت نيسيتاس لأنّه لم يكن يعلم بعد كم كان بخسا الثمن الذي سدده الآخر مقابل ركوبته.

عندئذ نهض نيسيتاس بمساعدة باودولينو ثمّ أمسك بيده واقترب، حذراً، من العمود الراشح. تلفّت من حوله: على اتساع ردهة الهيكل كان الحجّاج الذين يبدون من بعد، ناغلين كالنمال، منهمكين بسرقة أخرى ولا أحد منهم يعيرهما انتباها. ركع وراء العمود ودسّ أصابعه في شقّ متخلخل في بلاطة من بلاطات الأرضية. «ساعدني، قال لباودولينو، فربّما تمكّنا من زحزحتها نحن الاثنين.» وبالفعل، بعد بذلهما جهدا متكرّرا، رفعت البلاطة كاشفة عن فتحة مظلمة. «هناك سلالم، قال نيسيتاس، سأهبط أنا أولا لأني أعلم أين مواطئ الأقدام. وبعد ذلك يحين دورك وتعيد البلاطة الى مكانها اثر نزولك.

- والآن ماذا نفعل؟ سأل باودولينو.

- ننزل، قال نيسيتاس، ثمّ نتلمّس طريقنا الى أن نعثر على كوة وسنجد فيها مشاعل وقدّاحا.

- إنّها لمدينة جميلة هذه القسطنطينية، ومليئة بالمفاجآت، قال باودولينو معقّبا فيما كان يهبط ذاك السلم اللولبي. انه لغبن حقّا ألا يترك فيها أولئك الخنازير حجرا على حجر.

- أولئك الخنازير؟ سأل نيسيتاس. ألست واحدا منهم؟

- من؟ أنا؟ أجاب باودولينو مندهشا. لا ليس أنا. واذا كنت تقصد هذه الملابس التي أرتديها، فقد استعرتها. إذ عندما دخل هؤلاء الى المدينة كنت داخل أسوارها. ولكن أين هي تلك المشاعل؟

– صبرا، لم يبق سوة بضع درجات. من أنت؟ وما اسمك؟

– باودولينو الاسكندري، لا أقصد تلك المدينة المصرية، بل تلك التي تسمّى اليوم قيصرية، ولكن قد تكون أضحت فاقدة أي اسم الآن، وقد يكون أحد ما أحرقها كما حلّ بالقسطنطينية. هناك بين جبال الشمال والبحر، بالقرب من ميديولان، أتعرفها؟

– بلغني شيء عن ميديولان. فقد دمّر الألمان، ذات مرّة أسوارها. وفيما بعد منح الباسيليوس أهلها مساعدات لكي يسهم في اعادة تشييدها.

– هذا ما كنت أقصده تماما، لقد كنت تابعا من أتباع إمبراطور الألمان قبل وفاته. التقيته خلال عبوره بحر مرمره منذ خمسة عشر عاما.

– فردريك بربروس. انه أمير نبيل وعظيم، متسامح ورحيم. ما كان ليفعل ما يفعله هؤلاء...

– لم يكن ليبدي رأفة، هو أيضا، اذا ما استولى عنوة على مدينة.»

أخيرا بلغا كعب السلّم. عثر نيسيتاس على المشاعل، وإذ حمل كلّ منهما مشعلا ورفعه عاليا فوق رأسه، سلكا معا سردابا الى أن شاهد باودولينو قاع مدينة القسطنطينية، هناك حيث تقوم، تقريبا تحت أعظم كنيسة في العالم، كاتدرائية أخرى، غير مرئية؛ غابة كثيفة من الأعمدة التي تترامى في العتمة، كأنّها أشجار غابة مائية باسقة من المياه. كاتدرائية أو كنيسة دير غريقة بأكملها لأنّ النور الذي كان يلامس بالكاد تيجان الأعمدة منحلاّ في ظلال عقود القباب العالية، لم يكن منبعثا من نجميّات الزجاج أو الزجاجيات المزخرفة بل من الأرضية المغمورة بالمياه التي تعكس شعلة الزائرين الراعفة.

«قاع المدينة مليء بخزّانات المياه، قال نيسيتاس. فحدائق القسطنطينية ليست من أعطيات الطبيعة بل هي صنعة الفنّ. واذا كنت ترى أن المياه الآن لا تصل الا لأعلى ربلة الساق فلأنّها استخدمت كلّها تقريبا لاخماد الحرائق. واذا خرّب الغزاة قنوات الجرّ أيضا، فسيقضي الجميع

عطشا. في العادة لا يمكن السير هنا على الأقدام بل تحتاج الى فُلك.

– هل تفضي هذه الى المرفأ؟

– لا، انها تنتهي قبل المرفأ بمسافة طويلة؛ لكني أعرف مسالك وسلالم تصل بينها وبين خزّانات أخرى، ومجاري أخرى، بحيث إننا نستطيع أن نتابع سيرنا تحت الأرض ليس حتّى الحي الجديد ربّما ولكن على الأقل حتّى الحيّ القديم. غير أني، قال نيسيتاس وقد بدا عليه القلق كأنّه تذكّر أمرا آخر في تلك اللحظة بالذات، لن أستطيع أن أذهب معك. سوف أدلّك على الطريق ولكن بعد ذلك عليّ أن أعود أدراجي. يجب أن أعثر على مكان آمن لعائلتي التي لجأت في الأثناء الى دارة صغيرة خلف كنيسة القديسة ايرينا. فالحقيقة أن قصري قد هدم خلال الحريق الثاني، حريق شهر آب...

– يا سيّد نيسيتاس، لا بدّ انك معتوه. اولا، تأتي بي الى هنا، في الأسفل، وأترك جوادي، في الوقت الذي كنت فيه قادرا، من دونك، على بلوغ الحيّ الجديد سالكا شوارع المدينة. ثانيا، أتحسب أنك ستصل الى عائلتك قبل أن يستوقفك مجددا اثنان على شاكلة اللذين كانا معك عندما التقيتك؟ عاجلا أم آجلا سيعثر عليك أحد ما، واذا كنت تريد أن تأخذ عائلتك وترحل، فالى أين؟

– لدي أصدقاء في سلمبره، قال نيسيتاس مرتبكاً.

– لا أدري أين تقع سلمبره هذه، ولكن لتصل اليها عليك أولا أن تفلح في الخروج من المدينة. اصغ قليلا، أنت لن تجدي عائلتك نفعا. في المقابل، اذا رافقتني الى حيث أنا ذاهب فسوف نعثر على أصدقاء جنويين متنفذين في هذه المدينة، واعتادوا التعامل مع المسلمين ومع اليهود ومع الرهبان ومع الحرس الإمبراطوري، ومع التجار الفرس، وفي الوقت الحاضر مع الحجّاج اللاتين. انهم قوم محنّكون، فتخبرهم بمكان وجود عائلتك وهم يأتون بها اليك في اليوم التالي. كيف سيتدبّرون ذلك؟ لا أدري. ولكني واثق من أنهم سيفعلون. سيفعلون لأجلي بأية حال،

لأني صديق قديم، ولوجه الله بالتأكيد، ولكنّهم، مهما كان، جنويون ولا بأس على الاطلاق ان بادرت الى تخصيصهم بهدية. بعد ذلك نمكث هناك حتّى تهدأ الأمور، ففي العادة لا يدوم نهب مدينة أكثر من بضعة أيام، صدّقني، فقد شهدت مثل هذا، الى اليوم، الكثير. بعد ذلك اذهب الى سلمبره أو حيثما شئت.»

أبدى نيسيتاس امتنانه مقتنعا بما قيل له. وفيما كانا يتابعان طريقهما سأله ما الذي أتى به الى المدينة ان لم يكن حاجّا اتخّذ شارة الصليب.

«وصلت اليها بعد أن نزل اللاتينيون على الضفة الأخرى، وكنت بصحبة آخرين... ما عادوا الآن هنا. كنّا قد أتينا من مكان بعيد.

- ولم لم تغادروا المدينة حين كان الأمر متاحا؟»

تردّد باودولينو قليلا قبل أن يجيب: «لأنه... لأنه كان عليّ أن أبقى لكي أدرك أمرا.

- وهل أدركته؟

- أجل، ولكن للأسف لم أدركه قبل اليوم.

- سؤال آخر. لم تتكبّد كلّ هذه المشقة من أجلي؟

- إني أفعل ما يليق بالمسيحي الحق. ولكن، في الحقيقة، ربّما كنت على حق. كان الأجدر بي أن أخلّصك من ذينك الوغدين ثمّ أدعك لمصيرك واذا بي ألازمك مثل علقة. أوتدري يا سيد نيسيتاس اني أعلم أنّك أخباريّ من طينة الأسقف أوتون دي فرايسنغ. ولكن عندما تعرّفت الى الاسقف أوتون كنت لا أزال حدثا، ولم يكن لديّ خبر، وانما كنت راغبا في الاطلاع على أخبار الآخرين. الآن بإمكاني أن تكون لي قصة هي قصتي أنا؛ ومع ذلك فعلاوة على أني فقدت كل ما دونته عن ماضي، أجدني مشوّش الذهن كلّما حاولت أن أستذكر ماضيّ. لا لأني لا أذكر وقائعه، بل لأني عاجز عن ايجاد معنى له. ولكن بعد ما رأيته اليوم، أشعر بحاجة للتحدّث الى أحد ما والا فقدت صوابي.

- ما الذي جرى لك اليوم؟ سأل نيسيتاس وهو يتقدّم بمشقة كبيرة مخوّضا في الماء - لقد كان أصغر سنا من باودولينو ولكنّ حياة المتأدّب ورجل البلاط التي عاشها جعلته على قدر من السمنة والبلادة والكسل.

- لقد قتلت رجلا. و هو نفسه الذي اغتال منذ خمسة عشر عاما أبي بالتبني، أفضل الملوك قاطبة، الإمبراطور فردريك.

- ولكن فردريك مات غرقا في كيليكية!

- هذا ما اعتقده الجميع. ولكنّه، في الحقيقة، مات اغتيالا. يا سيّدي نيسيتاس، لقد رأيتني، هذا المساء في كنيسة القديسة صوفيا، أعمل سيفي حانقا، ولكن اعلم أني لم يسبق لي، في حياتي كلّها، أن أرقت دم أحد. إني رجل مسالم. ولكن هذه المرّة كان علي أن أقتل لأني كنت الوحيد القادر على إحقاق العدالة.

- سوف تحكي لي فيما بعد. ولكن قل لي كيف وصلت بمشيئة الله الى كنيسة القديسة صوفيا لكي تنقذ حياتي؟

- عندما شرع الحجّاج بنهب المدينة لذت بمكان معتم. ولم أخرج منه إلاّ بعد أن أعتمت الدنيا، منذ ساعة تقريبا، واذا بي على مقربة من الهيبودروم. هناك فوجئت بجموع من اليونانيين المولولين وهم يتراكضون فرارا، فلجأت الى كنّة دار لم يأت عليها الحريق كلّها، خشية أن تدهسني الأقدام، ولمّا ابتعدت الجموع قليلا رأيت الحجّاج يطاردون فلولهم. فأدركت حقيقة ما يجري، وسرعان ما مثلت في ذهني تلك البديهة الساطعة: إني وان كنت لاتينيا لا أمتّ ليوناني بصلة، ولكن لا فرق بيني وبين أي يوناني ميت ما لم يتنبّه هؤلاء اللاتينيون، الذين استحالوا بهائم جامحة، الى حقيقة الأمر، والأرجح انهم لن يفعلوا. كما لا يعقل، قلت في سرّي، أن يعمد هؤلاء الى تدمير أعظم المدن المسيحية قاطبة توّا اثر استيلائهم عليها... ثمّ تردّد في رأسي ما كنت أعرفه عن أسلافهم عندما دخلوا، في عهد غودوفروا دي بويون، الى القدس، وعمدوا، برغم أن المدينة صارت لهم، الى قتل كل ما فيها، نساء وأطفالا وحيوانات اليفة،

وكانت معجزة حقا أنهم لم يعمدوا، في معرض ذلك، الى احراق الضريح المقدّس. صحيح أنّهم، حينها، كانوا مسيحيين يستولون على مدينة كفّار، ولكني خلال أسفاري كم شهدت مسيحيين يتذابحون فيما بينهم لخلاف على كلمة؛ ونحن نعلم جيدا أنّ كهنتنا يجادلون كهنتكم، منذ أعوام طويلة، حول قضية صدور الروح القدس عن الآب والابن. فالحال أنه مع دخول المحارب الى مدينة ما يبطل أي اعتبار للدين.

- وماذا فعلت عندئذ؟

- غادرت مكاني تحت الكنّة، وسرت بمحاذاة الجدران الى أن وصلت الى الهيبودروم. وهناك شهدت الروعة فاقدة رونقها بعد أن استحالت كتلة صمّاء. فلقد دأبت، مذ حللت في المدينة، على أن أقصد، بين الحين والآخر، ذلك المكان، لكي أستغرق في تأمل تلك الفتاة، تلك التي جعلت قدماها آية الصانع، وذراعاها كالثلج ناصعتين، وشفتاها حمراوين، وابتسامتها تلك، وثدياها، وأثوابها وشعرها المتطاير في الهواء، بحيث إن الناظر اليها من بعد لا يحسب انها مصنوعة من البرونز، لأنها تبدو من لحم ودم. . .

- انه تمثال هيلانة طروادة. ولكن ماذا جرى؟

- في غضون ثوان معدودات رأيت العمود الذي نحتت فيه ينقصف مثل شجرة مقطوعة من الجذع ويهوي أرضا، رافعا مكانه عمودا من الغبار. فاستوى على الأرض حطاما؛ على مقربة مني جذع التمثال، وعلى بعد خطوتين الرأس، وعندها فقط أدركت كم كان ضخما ذلك التمثال. فما كان لأحدنا أن يطوّق الرأس بجماع ساعديه، وكان يرمقني بنظرات مواربة، كما قد يفعل المستلقي، الأنف أفقي والشفتان عموديتان تشبهان، والمعذرة على ما أقول، المشفرين اللذين في فروج النساء، وقد قذفت الحدقتان من المحجرين، فبدت، فجأة، عمياء، وحقّ الرب يسوع، مثل هذا الرأس!» وقفز الى الخلف على نحو مباغت، ناثرا رذاذ المياه من حوله، لأن مشعله قد أنار فجأة تحت المياه، رأساً من حجر، بضخامة

عشرة رؤوس بشرية، كان هناك ليسند عمودا، وكان ذلك الرأس، هو أيضا، ملقيا على الأرض وشفتاه كالمشفرين منفرجتين، وعدد من الأفاعي على هامته بمثابة خصلات شعر، وشحوب موات هو شحوب عاج عتيق.

ابتسم نيسيتاس: «هذا الرأس موجود هنا منذ قرون من الزمن؛ انها رؤوس الميدوزا التي لا أعرف مصدرها بالضبط وقد استخدمها بناة المكان كقواعد للعمد. إن أقلّ الأمور يرعبك. . .

– لا يرعبني شيء. المسألة أني رأيت هذا الوجه من قبل. في مكان آخر.»

حيال اضطراب باودولينو، آثر نيسيتاس أن يتحدّث عن أمر آخر: «كنت تخبرني بأنهم حطموا تمثال هيلانة. . .

– ليت الأمر اقتصر على ذلك. لقد حطموها كلّها، تلك المنتصبة بين الهيبودروم والقاعة الكبرى، أو على الأقلّ ما كان منها من المعدن الصلب. كانوا يتسلقونها ويربطونها بحبال أو سلاسل من العنق، ومن الأسفل حيث يقفون يشدون على الحبال بواسطة ثورين أو ثلاثة. لقد رأيت كل تماثيل الحوذيين وهي تهوي، وتمثال العنقاء، وفرس نهر وتمساح مصريين، وذئبة هائلة الحجم وعلى ضرعيها رومولوس وريموس، وتمثال هرقل؛ وقد لاحظت أنه هو أيضا تمثال ضخم بحيث إن إبهام يده يضاهي جذع رجل عادي. . . ثمّ تلك المسلّة البرونزية بكلّ نقوشها، تلك التي يعلوها جذع امرأة يدور بحسب وجهة الرياح. . .

– «رفيقة الريح». يا لها من خسارة فادحة. بعض هذه التماثيل كان تحفا من إبداع نحّاتين وثنيين، أقدم من الرومان أنفسهم. فبربّك لماذا، لماذا؟

– لكي تصهر. فأول ما تصنعه عندما تنهب مدينة، هو أن تصهر كل ما لا تستطيع حمله. جعلت المصاهر في كلّ الأرجاء، ولك أن تتخيّل كم من البيوت تحترق هنا، فتجعل أفران صهر طبيعية. كما انك رأيتهم في الكنيسة، ولا تحسب انهم سيجولون علانية حاملين الكؤوس والأواني

التي غنموها من خزانة القربان المقدس. الصهر، ينبغي صهرها على الفور. فالنهب، قال باودولينو شارحا بثقة من يجيد مهنته، أشبه بقطاف العنب، وفيه ينبغي توزيع المهام أيضا، هناك من يعصرون العنب بأقدامهم، وهناك من ينقلون العصارة الى الدنان، وهناك من يعدون الطعام للمنهمكين بالعصر، وهناك من يستولون على نبيذ العام الفائت الفاخر... ولا غرو في أن النهب عمل جاد - على الأقل إذا شئت ألاّ يبقى من المدينة حجر على حجر، كما جرى على عهدي بميدولان. ولكن مثل هذا الأمر يتطلّب بافيزانيين، فأولاء يعرفون كيف تزال مدينة من الوجود. أما هؤلاء فما زال يعوزهم المراس، فهم كانوا يوقعون التماثيل أرضا ثم يجلسون على حطامها يعاقرون الخمرة، ثم يأتي أحد منهم، في الأثناء، ممسكا بشعر فتاة صائحا إنها عذراء فيهرع الجميع لدسّ أصابعهم في فرجها للتثبّت من ذلك... ففي النهب الذي يجرى على أصوله يجب أن تستولي على كلّ شيء، بيتا بعد بيت، وبعد ذلك تنصرف للهو والمتعة والا سبقك الى الأثمن من هو أكثر دراية منك. لكن مشكلتي، في المحصّلة، هي أني كنت لا أمتلك متسعا من الوقت لكي أشرح لهؤلاء اني مولود، أنا أيضا، في معسكر الماركيز دي مونفيرّا. لذا لم يبق أمامي سوى خيار وحيد. كمنت عند ناصية زقاق الى أن همّ بسلوكه فارس أفقده الشراب وعيه فما عاد مدركا أي اتجاه يسلك فترك العنان لحصانه. لم يتطلّب الأمر مني سوى أن أجذبه من ساقه فهوى على الأرض. فنزعت عنه خوذته وأسقطت حجرا على رأسه...

- أقتلته؟

- لا؛ كان حجرا هشّا، فأفقدته الضربة وعيه. لكنّ خوفي كان عظيما لأن صاحبنا راح يستفرغ قيئا قرنفليا، فنزعت عنه سترته المشبّكة وسرواله وأسلحته، واستوليت على حصانه، وسلكت الأحياء الى أن بلغت بوابة القديسة صوفيا. هناك رأيت أنهم يدخلونها وهم يجرّون بغالا، ثمّ مرّت بقربي ثلّة من الجند المحمّلين بشمعدانات فضّة بسلاسلها الغليظة

عشرة رؤوس بشرية، كان هناك ليسند عمودا، وكان ذلك الرأس، هو أيضا، ملقيا على الأرض وشفتاه كالمشفرين منفرجتين، وعدد من الأفاعي على هامته بمثابة خصلات شعر، وشحوب موات هو شحوب عاج عتيق.

ابتسم نيسيتاس: «هذا الرأس موجود هنا منذ قرون من الزمن؛ انها رؤوس الميدوزا التي لا أعرف مصدرها بالضبط وقد استخدمها بناة المكان كقواعد للعمد. إن أقلّ الأمور يرعبك...

- لا يرعبني شيء. المسألة أني رأيت هذا الوجه من قبل. في مكان آخر.»

حيال اضطراب باودولينو، آثر نيسيتاس أن يتحدّث عن أمر آخر: «كنت تخبرني بأنهم حطموا تمثال هيلانة...

- ليت الأمر اقتصر على ذلك. لقد حطموها كلّها، تلك المنتصبة بين الهيبودروم والقاعة الكبرى، أو على الأقلّ ما كان منها من المعدن الصلب. كانوا يتسلقونها ويربطونها بحبال أو سلاسل من العنق، ومن الأسفل حيث يقفون يشدون على الحبال بواسطة ثورين أو ثلاثة. لقد رأيت كل تماثيل الحوذيين وهي تهوي، وتمثال العنقاء، وفرس نهر وتمساح مصريين، وذئبة هائلة الحجم وعلى ضرعيها رومولوس وريموس، وتمثال هرقل؛ وقد لاحظت أنه هو أيضا تمثال ضخم بحيث إن إبهام يده يضاهي جذع رجل عادي... ثمّ تلك المسلّة البرونزية بكلّ نقوشها، تلك التي يعلوها جذع امرأة يدور بحسب وجهة الرياح...

- «رفيقة الريح». يا لها من خسارة فادحة. بعض هذه التماثيل كان تحفا من إبداع نحّاتين وثنيين، أقدم من الرومان أنفسهم. فبربّك لماذا، لماذا؟

- لكي تصهر. فأول ما تصنعه عندما تنهب مدينة، هو أن تصهر كل ما لا تستطيع حمله. جعلت المصاهر في كلّ الأرجاء، ولك أن تتخيّل كم من البيوت تحترق هنا، فتجعل أفران صهر طبيعية. كما انك رأيتهم في الكنيسة، ولا تحسب انهم سيجولون علانية حاملين الكؤوس والأواني

التي غنموها من خزانة القربان المقدس. الصهر، ينبغي صهرها على الفور. فالنهب، قال باودولينو شارحا بثقة من يجيد مهنته، أشبه بقطاف العنب، وفيه ينبغي توزيع المهام أيضا، هناك من يعصرون العنب بأقدامهم، وهناك من ينقلون العصارة الى الدنان، وهناك من يعدون الطعام للمنهمكين بالعصر، وهناك من يستولون على نبيذ العام الفائت الفاخر. . . ولا غرو في أن النهب عمل جاد - على الأقل إذا شئت ألاّ يبقى من المدينة حجر على حجر، كما جرى على عهدي بميدولان. ولكن مثل هذا الأمر يتطلّب بافيزانيين، فأولاء يعرفون كيف تزال مدينة من الوجود. أما هؤلاء فما زال يعوزهم المراس، فهم كانوا يوقعون التماثيل أرضا ثم يجلسون على حطامها يعاقرون الخمرة، ثم يأتي أحد منهم، في الأثناء، ممسكا بشعر فتاة صائحا إنها عذراء فيهرع الجميع لدسّ أصابعهم في فرجها للتثبّت من ذلك. . . ففي النهب الذي يجرى على أصوله يجب أن تستولي على كلّ شيء، بيتا بعد بيت، وبعد ذلك تنصرف للهو والمتعة والا سبقك الى الأثمن من هو أكثر دراية منك. لكن مشكلتي، في المحصّلة، هي أني كنت لا أمتلك متسعا من الوقت لكي أشرح لهؤلاء اني مولود، أنا أيضا، في معسكر الماركيز دي مونفيرّا. لذا لم يبق أمامي سوى خيار وحيد. كمنت عند ناصية زقاق الى أن همّ بسلوكه فارس أفقده الشراب وعيه فما عاد مدركا أي اتجاه يسلك فترك العنان لحصانه. لم يتطلّب الأمر مني سوى أن أجذبه من ساقه فهوى على الأرض. فنزعت عنه خوذته وأسقطت حجرا على رأسه. . .

- أقتلته؟

- لا؛ كان حجرا هشّا، فأفقدته الضربة وعيه. لكنّ خوفي كان عظيما لأن صاحبنا راح يستفرغ قيئا قرنفليا، فنزعت عنه سترته المشبّكة وسرواله وأسلحته، واستوليت على حصانه، وسلكت الأحياء الى أن بلغت بوابة القديسة صوفيا. هناك رأيت أنهم يدخلونها وهم يجرّون بغالا، ثمّ مرّت بقربي ثلّة من الجند المحمّلين بشمعدانات فضّة بسلاسلها الغليظة

كمثل ذراع، وكانوا يتحدّثون بلهجة حسبت أنها اللومباردية. لدى شهودي ذاك الخراب، ذاك الكفر، ذاك النهب، طار صوابي لأن من يرتكبون تلك المجزرة انما هم أبناء بلادي، أبناء حبر روما الورعون...»

هكذا، مستغرقين بتبادل أطراف الحديث، وقد أوشكت المشاعل على لفظ أنفاسها الأخيرة، تمكنا من الخروج من باطن الخزّان تحت ستار الليل الذي صار في الأثناء حالكا، وعبر الأزقّة المقفرة، بلغا دارة الجنويين.

طرقا الباب فنزل أحدهم اليهما، واستقبلا بحفاوة وأطعما بمودّة سخية. كان باودولينو يتصرّف كأنّه بين أهله وسط هؤلاء الناس، وسرعان ما أوصى بنيسيتاس. فقال أحدهم: «أمر بسيط، اتركا المسألة لنا، والآن اذهبا الى الفراش»، وكان في نبر القول من الثقة مقدار جعلهما، أي ليس باودولينو وحسب، بل نيسيتاس أيضا، يقضيان ليلة هانئة.

3

باودولينو يفسر لنيسيتاس ما كان يكتبه، نمنمة

في صبيحة اليوم التالي، كان باودولينو قد استدعى اليه الاكثر حذقا وخفّة من بين الجنويين، بيفيريه وبوياموندو وغريلو وتارابورلو. وكان نيسيتاس قد أطلعهما على المكان الذي قد تكون عائلته مختبئة فيه، فانطلقوا على الفور بعد أن طمأنوه مجددا. عندها طلب نيسيتاس نبيذا وسكب منه قدحا لباودولينو: «ان كان يسوغ لك مثل هذا النبيذ المنكّه بالراتنج. كثير من اللاتينيين يرون أنه مقزّز، ويزعمون أنّ له طعم العفن». واذ أجابه باودولينو مؤكدا أن هذا الشراب اليوناني اللذيذ هو شرابه المفضّل، بدا نيسيتاس مستعدّا لسماع قصته.

كان باودولينو يبدو متلهفا للتحدّث الى أحد ما، كأنّه يريد أن يسرّ بأمور كتمها لوقت طويل. «هاك يا مولاي نيسيتاس»، قال وهو يفتح جرابا صغيرا من الجلد كان متدليا من رقبته بسير، وناوله رقًا. «إنه مطلع قصتي.»

حاول نيسيتاس - الذي يجيد قراءة الأحرف اللاتينية - أن يفكّ طلاسم الحروف لكنّه لم يفهم شيئا.

«ما هذا؟ سأله قائلا. أقصد: بأي لغة دوّنت هذه الكتابة؟

- اللغة، لا أدري. لنبدأ كما يلي يا سيدي نيسيتاس. ألديك أدنى فكرة أين تقع ايانوا، أي جنوى، وميدولان أو مايلاند كما يسمّيها

الثيوتونيون أو الجرمان، أو الألمان كما تسمونهم أنتم. في وسط المسافة بين هاتين المدينتين، هناك نهران، التنارو والبورميدا، وبين النهرين هناك سهل حيث ان لم يكن قيظ يثقب الهامات كان ضباب، وان لم يكن ضباب كان ثلج، وان لم يكن ثلج يكون صقيع، وان لم يكن صقيع يكون برد قارس. هناك ولدت، في ارض تسمّى «فراسكيتا مارينكانا»، وحيث يوجد أيضا مستنقع جميل بين النهرين. لا يسعني القول إن بلادي تقع على سواحل مرمره بالضبط...

- أحسب ذلك.

- غير أني كنت أعشقها. إنه موطن يلازمك. لقد سافرت كثيرا، ياسيدي نيسيتاس، ربّما بلغت بي أسفاري أقاصي الهند...

- ألست واثقا من ذلك؟

- لا، لا أدري بالضبط الى أين وصلت؛ ولكني بلغت البلاد التي يحيا فيها بشر ذوو قرون، وآخرون جعلت أفواههم عند بطونهم. لقد قضيت أسابيع سائرا في صحاري لا تخوم لها، وفي مروج ممتدة لا يحدّها البصر، ولطالما شعرت بأني رهين أمر ما يتخطى طاقات مخيلتي. بالمقابل، عندما تجوب الغابات في نواحي بلادي، في كنف الضباب، يخيّل اليك انك ما زلت تسير في بطن أمك، لا تخشى شيئا وتشعر بأنّك طليق. حتى عندما لا يكون ضباب، فعندما تسير وتشعر بالظمأ فما عليك الا أن تنتزع قطعة ثلج عن أحد الأغصان، ثمّ تنفخ على أصابعك لأنها مكسوة بالتشققات...

- ومن يكون أولاء... الرسل الاصبعيون؟

- لا، لم أقل aggeloi! هنا بلغتكم لا وجود لهذه اللفظة، لذا كان عليّ أن أستخدم عبارة من لغتي أنا؟ انها ضرب من القروح التي تظهر على الأصابع وما بينها بسبب البرد القارس، وهي تحكّ وان حككتها أوجعت...

- تتحدّث عنها وكأنّك تحفظ عنها ذكريات طيبة. . .

- البرد جميل.

- لكلّ امرئ شغف بمسقط رأسه. َهيّا تابع كلامك.

- حسنا؛ اذا هناك حلّ الرومان، أهل روما، الذين يتكلمون اللاتينية، وليس الرومان كما تزعمون الآن تسمية لأنفسكم، أنتم، من تتكلّمون اليونانية ومن نسمّيكم، نحن، بالومانيين، أو الغريكيين، اذا أجزت لي القول. ثمّ دالت إمبراطورية الرومان أولئك: ولم يبق في روما سوى البابا، أمّا في سائر أنحاء ايطاليا فما عاد هناك الا أناس من اصول مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة. فأهل فراسكيتا يتكلمون لغة ولكن أهل تردونا يتكلمون لغة مختلفة. وخلال أسفاري بمعية فردريك في أنحاء ايطاليا سمعت لغات رقيقة الألفاظ حتى اذا ما قورنت بلغتنا، نحن، في ناحية فراسكيتا، لما بدت لغتنا لغة حتى، بل أشبه بنباح كلب، ولا أحد يكتب بها لأننا نكتب باللاتينية. لذا حين بدأت خربشة هذا الرقّ ربّما كنت أوّل من بادر الى الكتابة على نحو ما نتكلّم. بعد ذلك أصبحت متأدبا وصرت أكتب باللاتينية.

- ولكن هاهنا، ماذا تقول؟

- كما ترى، انّ عشرتي للفقهاء جعلتني أدرك في أي عام كنّا. كنت أكتب في شهر كانون الأول من السنة الميلادية 1155 ؛ أجهل كم كان عمري آنذاك؛ كان أبي يقول اني في الثانية عشرة، فيما أمي تؤكّد اني في الثالثة عشرة، وذلك، بلا ريب، لأن ما بذلته في تربيتي تربية صالحة قد أطال في المدّة فأشكل عليها الأمر. وعندما شرعت في التدوين كنت قد بلغت، بالتأكيد، الرابعة عشرة. بين نيسان وكانون الأول كنت تعلّمت الكتابة. وانكببت عليها بشغف بعد أن اصطحبني الإمبراطور في عداد حاشيته، باذلا لها وفيها كلّ أوقاتي وحيثما كنت، في برّ ما أو تحت خيمة ما، أو حتّى متكئا على حائط منزل متداع. غالبا ما كنت أدوّن على ألواح صغيرة من الآجر، ونادرا ما كنت أفعل على رقّ. وكنت قد اعتدت أن

أحيا مثل فردريك، الذي لم يقم في المكان عينه أكثر من بضعة أشهر، ودائما في الشتاء، فقط في الشتاء، أما بقية أشهر العام فكان يقضيها على الطرقات لا يلبث في المكان الواحد الا مبيت ليلة.

- حسنا، ولكن ما الذي تريد قوله؟

- في مطلع تلك السنة، كنت لا أزال أحيا في كنف أمي وأبي ويضع بقرات ومسكبة خضار. كان ناسك من تلك النواحي قد علّمني القراءة. كنت أجوب الغابة والمستنقع، وكنت ولدا خصب المخيلة، أبصر وحيد قرن، و (أزعم) أن القديس باودولينو يظهر لي في الضباب...

- لم أسمع من قبل بهذا القديس. وهل كان يظهر لك حقا؟

- انه قديس من ناحيتنا، كان أسقف فيلا دل فورو. أمّا أنني كنت أراه، فتلك حكاية أخرى. يا مولاي نيسيتاس، المشكلة أنني، في حياتي كلّها، لطالما اختلط علي الأمر بين ما كنت أبصره حقا وبين ما كنت أودّ أن أبصره...

- هذه حال كثيرين...

- بلى، ولكن ما خبرته دائما هو أني ما إن أقول بأني رأيت أمرا، أو بأني وجدت هذه الرسالة التي تتضمن كذا (مع احتمال أن أكون، أنا نفسي، كاتبها) حتّى يرى الجميع من حولي ما أراه. أوتدري يا سيدي نيسيتاس، أنه عندما تخبر عن شيء تكون قد تخيّلته، ثمّ يأتي الجميع ليقولوا صدقت، ينتهي بك الأمر أن تصدّق، أنت نفسك. هكذا كنت أجوب أنحاء فراسكيتا، وأبصر قديسين ووحيدي قرن في الغابة، وعندما التقيت الإمبراطور، ومن دون أن أعلم من يكون حقا، خاطبته بلغته، وقلت له إن القديس باودولينو أخبرني بأنه سيستولي على تردونا. كان غرضي مما قلته له هو أن أثلج قلبه، غير أن مصلحته كانت تقضي بأن أردد ما قلته له أمام الجميع، وخصوصا أمام موفدي تردونا لكي يقتنعوا بأنّ حتّى القديسين ضدّهم، ولهذا الغرض ابتاعني من أبي لا بحفنة النقود التي تركها له بل لأنه أعفاه من فم يطعمه. وهكذا تغيّرت حياتي.

- هل أصبحت خادمه؟

- لا، صرت ابنه. ففي تلك الفترة لم يكن فردريك قد رزق ولدا بعد، وأحسب أنّه حباني بعطفه لأنني كنت أصارحه بما يكتمه عنه الآخرون. عاملني كأني من صلبه، وكان يغدق علي المديح لما أسوّده على الرقوق أو حين أجريت، للمرّة الأولى، حسابا مستعينا بأصابع يديّ، أو لما بدأت أتعلمه من الألفاظ عن أبيه، وعن أبي أبيه... وكان أحيانا، ربّما لظنّه أني لا أفهم ما يقول، يسرّ الي بمكنونات نفسه.

- ولكن هل كنت تحبّ هذا الأب أكثر مما أحببت أباك الحقّ، أم أنك كنت مبهورا بجلالته؟

- يا سيّد نيسيتاس، لم أسأل نفسي، الى اليوم، ما اذا كنت قد أحببت يوما أبي غالياودو. جلّ ما كنت أفعله هو الحرص على أكون في متناول ضرباته، ركلا أو بالعصا، وبدا لي ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لابن حيال أبيه. امّا اذا كنت أحبّه بالتالي، فاني لم أدرك ذلك الا بعد وفاته. قبل ذلك لا أذكر أنني قبّلت أبي ذات يوم. فالحقّ اني كنت ألوذ منتحبا بحضن أمي، تلك المسكينة، التي كان لديها من البهائم ما يستنفد جهدها كلّه فلا يبقى متّسع لديها لتكفكف دمعي. كان فردريك بهيّ الطلعة، ذا وجه أبيض مائل الى الحمرة وليس بلون الجلد كما هي السحن عندنا؛ وكان اصهب الشعر واللحية، مديد الأطراف، مستدقّ الأصابع، مقلّم الأظافر، وكان واثقا من نفسه ويوحي بالثقة، وكان فرحا جسورا يشيع من حوله الفرح والجسارة، وكان مقداما ويوحي بالاقدام... شبل أنا، أسد هو. كان يجيد القساوة، بيد أنّه لطالما بذل من رقّته لمن أحبّهم. أنا أيضا أحببته. فقد كان أوّل من أصغى الى ما كنت اقول.

- كان يستخدمك كما لو كنت صوت الشعب... فالراعي الصالح لا يكتفي بالاصغاء الى محظييه بل يسعى الى فهم الطريقة التي يفكّر بها رعاياه.

- بلى، ولكني، فيما يعنيني أنا، كنت قد بلغت حدّا أجهل معه من

أكون أو أين اكون. فمنذ لقائي الإمبراطور، من نيسان الى أيلول، تمكّن الجيش الإمبراطوري من اجتياز ايطاليا مرتين؛ مرة من لمومبارديا حتى روما، ومرة في الاتجاه المعاكس، زاحفا كالأفعوان من اسبولتيا الى أنكونيا، ومن هناك حتى آبولي، ثمّ في أرجاء رومانيا، وأيضا الى فيرونا وتريدنتوم وبازانوم، مجتازا، أخيرا، الجبال في طريق عودته الى ألمانيا. وهكذا بعد اثني عشر عاما كنت قضيتها بالكاد بين نهرين، وجدت نفسي وقد قذفتني الوقائع الى مركز الكون.

- ما بدا لك كذلك.

- أعلم يا سيد نيسيتاس أن مركز الكون هو أنتم، ولكن العالم أوسع من إمبراطوريتكم، فهناك أقاصي توليا، في أقصى الشمال، وهناك أيضا بلاد الأسبات. فمقارنة بالقسطنطينية من المؤكد أن روما ليست سوى كومة من الخرائب وليست باريس سوى قرية موحلة، ولكن هناك أيضا تقع الوقائع بين الحين والحين، وفي أصقاع شاسعة من العالم ليست اليونانية هي اللغة المتداولة، حتى أن هناك أناسا يقولون oc اذ يريدون العبارة عن موافقتهم.

- Oc؟

- Oc.

- أمر عجيب. ولكن أكمل.

- سوف أكمل. كنت أكتشف ايطاليا بأسرها، أماكن وسحنات جديدة، أزياء لم أر مثيلا لها من قبل؛ دمقسيات ومطرّزات، ومشامل مذهّبة، وسيوف ودروع؛ وكنت أسمع أصواتا أعجز، الا بمشقة كبيرة، عن مجاراتها يوما بعد يوم. لم أحتفظ الا بذكرى مشوّشة من لحظة تلقي فردريك تاج الحديد من ملوك ايطاليا في بافيا، والتي تبعها هبوطنا باتجاه ايطاليا المسمّاة «محاذية»، وسيرنا على طول الخط الفرنسي، والإمبراطور الذي يلتقي البابا أدريان في سوتري، وحفل التتويج في روما...

- ولكن قيصرك، أو إمبراطورك كما تسميه، أين توّج؟ في بافيا أم في روما؟ ولم توّج في ايطاليا، اذا كان قيصرا على الألمان؟

- لنضع الأمور في نصابها أولا يا سيد نيسيتاس، عندنا، نحن اللاتينيين، لا تجري الأمور بمثل السهولة التي تجري عليها عندكم، أنتم، معشر الرومانيين. عندكم يكفي أن يفقأ أحد عيني القيصر الحالي ليصبح بدوره قيصرا، ويقبل الجميع بذلك حتى أن بطرك القسطنطينية يفعل ما يطلبه منه القيصر والا فقأ القيصر عينيه هو أيضا...

- دعك من المغالاة الآن.

- وهل أغالي؟ عندما وصلت الى هنا قيل لي على الفور إنّ قيصركم، الباسيليوس ألكسيس الثالث قد استولى على العرش بعد أن أعمى الباسيليوس الشرعي، أي شقيقه اسحق.

- وعندكم ألم يحدث أن تخلّص ملك من سلفه لكي يستولي على عرشه؟

- بلى، لكنّه في هذه الحال يقتله اثر منازلة أو بالسمّ أو طعنا بالخنجر.

- هذا يعني أنكم برابرة عاجزون عن اعتماد وسيلة أقل دموية لتسوية أمور حكمكم. ثمّ ان اسحق كان شقيق ألكسيس ولا يعقل أن يقتل أخ أخاه.

- لقد أدركت ذلك؛ كان عملا رحيما. الأمور لا تجري على هذا النحو عندنا. فإمبراطور اللاتينيين، الذي ليس لاتينيا، هو منذ عهد شارلمان خليفة أباطرة الرومان، أهل روما، أقصد ليس أباطرة القسطنطينية. ولكن للتثبّت من أنه كذلك يجب أن يجعل تتويجه على يد البابا لأنّ شرعة المسيح قد محت شرعة المخادعين والدجّالين. ولكن، لكي يتمّ تتويجه على يد البابا، يجب أن يحظى الإمبراطور باعتراف مدن

ايطاليا التي تعمل كلّ منها وفق ما تمليه مصالحها الخاصة: عندئذ سيتوّج ملكا على ايطاليا - ولكن طبعا شريطة أن يصطفيه أمراء المشيئة الالهية. هل صار الأمر واضحا؟»

كان نيسيتاس قد تعلّم منذ دهر بأن اللاتينيين، وان كانوا برابرة، على قدر كبير من التعقيد؛ ذلك أنهم جهلة من حيث دقة المحاججة وحسن التمييز اذا تعلّق الأمر بمسألة لاهوتية، لكنهم مفرطون في التدقيق اذا تعلّق الأمر بمسألة حقوقية. وهكذا ففيما صرف رومانيو بيزنطية كلّ العهود في عقد المجامع الكنسية للبتّ بطبيعة المسيح، ولكن من دون البحث في السلطان الذي ما زال يستمدّ من قسطنطين مباشرة، ترك الغربيون اللاهوت لرهبان روما وصرفوا أزمنتهم في تبادل الدسائس والطعنات كلّ بدوره للتأكيد بأن الإمبراطور لم يزل موجودا ومن يكون، وكانت المحصّلة المشرّفة: ان الإمبراطور الحق لم يعد موجودا.

«كان ينبغي اذاً أن يتوّج فردريك في روما. لا بدّ أنه كان احتفالا مهيبا...

- الى حدّ ما. أولا، لأنّ كاتدرائية القديس بطرس في روما هي، اذا ما قورنت بكنيسة القديسة صوفيا، أشبه بكوخ، لا بل بكوخ خرب. ثانيا، لأنّ الأوضاع في روما كانت غامضة؛ ففي تلك الأيام كان البابا يلبث منعزلا بقرب كنيسة القديس بطرس وبقرب قصره، في الوقت الذي بدا فيه أن الرومان، على الضفة الأخرى من النهر، قد أصبحوا أسياد المدينة. ثالثا، لأنّه كان يستحيل القول يقينا ما اذا كان البابا هو الذي يكيد للقيصر أم الإمبراطور هو الذي يكيد للبابا.

- بأي معنى؟

- بمعنى انني اذا أصغيت الى ما يتناقله أمراء البلاط وأساقفته، وجدت أنهم حانقون للطريقة التي يتعامل فيها البابا مع الإمبراطور. اذ كان مرتقبا أن يجرى التتويج يوم الأحد، فعمدوا الى اجرائه يوم السبت؛ وكان من المفترض أن يمسح الإمبراطور بالزيت المقدّس أمام المذبح الرئيسي،

فمسح أمام مذبح جانبي، ولم يمسح على الرأس كما تقضي الأعراف، بل بين الذراعين وبين عظمي الكتف، وليس بالميرون بل بزيت المتنصّرين - أنت قد لا تدرك الفرق، كما لم أدركه، أنا نفسي، آنذاك، ولكن أجواء البلاط كانت مكفهرّة. وكنت أتوقع أن يكون فردريك، هو أيضا، غاضبا مثل أوس، لكنه لم يبد حيال البابا الا الكياسة الجمّة والمجاملة بحسب الأصول، فكان الضيق ظاهرا على البابا كأنّي به مرتكب فعلة. سألت فردريك صراحة لم أرى البارونات يجهرون بتذمّرهم أما هو فلا، فأجابني بأنه ينبغي أن أفهم الرموز الطقوسية حيث من شأن أتفه الأمور أن يغيّر كلّ شيء. ذلك أن جلّ مراده كان أن يتمّ التتويج، وعلى يد البابا، ولكن من دون افراط في مظاهر الاجلال والا بدا الأمر وكأنّه لم يصبح إمبراطورا الا بمباركة البابا، في حين أنه كان إمبراطورا فعليا قبل ذلك بمشيئة الأمراء الجرمانيين. فقلت له إنّه حقّا ماكر مثل نمس لأنّه، بسلوكه هذا، كأنّه يقول: اصغ أيّها البابا أنت لا تؤدي في كلّ هذا سوى دور المصادقة على المواثيق، أما المواثيق نفسها فقد سبق أن عقدتها، بنفسي، مع الآب السرمدي. فجعل، هو، يضحك مربّتا بباطن كفّه على قمة رأسي، وقال: عافاك، انك تجد على الفور أفضل أسلوب للتعبير عن الأشياء. ثمّ سألني عمّا فعلت في روما طيلة هذه الأيام، لأنّه، لكثرة انهماكاته، لم يرني كثيرا. لقد شهدت تلك الاحتفالات التي أقمتها، قلت له. ذلك أن الرومان - و أقصد أهل روما - لم يستحسنوا كثيرا قصة التتويج هذه في كاتدرائية القديس بطرس لأن مجلس الشيوخ الروماني الساعي وراء نفوذ أوسع من نفوذ الحبر الأعظم، كان يودّ تتويج فردريك في الكابيتول. لكن فردريك رفض: فلو أنه راح يخبر، فيما بعد، أنه توّج من قبل الشعب، فلسوف يجاب، وليس من قبل الأمراء الجرمانيين وحدهم، بل أيضا من طرف ملكي فرنسا وانكلترا، أيا للمباركة التي حبتك بها قداسة الدهماء؛ أما اذا قال إن البابا هو الذي باركه فان الجميع سيأخذون الأمر على محمل الجدّ. غير أن الأمور كانت أكثر تعقيدا مما يبدو، ولم أدرك ذلك الا فيما

بعد. فقبل الحادثة بزمن غير قصير، كان الأمراء الجرمانيون قد شرعوا بتداول ما أسموه «الانتقال الإمبراطوي»، ما يعني في الخلاصة أن ميراث أباطرة روما قد انتقل اليهم. والحال انه اذا جرى تتويج فردريك على يد البابا، أمكن الزعم بأنّ حقّه هذا قد لقي اعترافا من قبل من ينوب عن المسيح الرب على الأرض، ولا ينتقص من هذا الحق شيئا سواء أقام في أديسّا أو في راتيسبوم أو سواهما. في حين أنه لو توّج من قبل مجلس الشيوخ والشعب الروماني، فان ذلك يكون بمثابة تأكيد بأنّ الإمبراطورية ما زالت هناك وانه لم يحصل «انتقال». هنيئا لك أيّها الشحرور، كما كان أبي، غالياودو، يقول وعافى مكرك. وطبعا، لم يوافق الإمبراطور على اقتراح مجلس الشيوخ. لهذا السبب، وخلال المأدبة الحافلة التي أقيمت لمناسبة التتويج، عبر الرومان الحانقون نهر التيبر ولم يكتفوا بقتل بعض الرهبان، فمثل هذا يحدث كلّ يوم، بل قتلوا اثنين أو ثلاثة من الحرس الإمبراطوري. فأعمى الغضب عيني فردريك وأمر بوقف المأدبة وبقتل الزاحفين جميعا والتنكيل بهم، فكان أن فاقت الجثث سمك نهر التيبر عددا في ذلك اليوم، ولم يحلّ مساؤه حتّى أدرك الرومان من هو السيّد المطلق، أمّا الاحتفال، بما هو احتفال، فلم يكن، بالتأكيد، من ذاك القبيل الذي يضرب به المثل. من هنا ضيق فردريك بأهل المناطق المحاذية من ايطاليا، وما حدا به، عندما بلغ أبواب اسبوليتيا في أواخر شهر حزيران وطالب أهلها بحسن الوفادة فافتعل الاسبوليتيون الفوضى والتشوّش، لأن يستشيط غضبا أضعاف ما جرى له في روما فقتل منهم مقتلة كبيرة أين منها مقتلة القسطنطينية... الأحرى أن تدرك يا سيد نيسيتاس أن على الإمبراطور أن يتصرّف كإمبراطور دونما اعتبار لمشاعره... لقد تعلّمت أمورا كثيرة خلال تلك الأشهر؛ بعد اسبوليتيا، كان لقاء موفدي بيزنطية في أنكونا، ثمّ العودة باتجاه ايطاليا الداخلية حتى سفوح الألب التي كان أوتون يسمّيها البيرينيه، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يتاح لي فيها أن أشاهد قمم الجبال مكسوة بالثلوج. وطوال

تلك الفترة، كان الكاهن القانوني راهوين يدرّبني، يوما بعد يوم، على فنون التدوين.

- كانت مسيرة شاقة بالنسبة لولد طريّ العود. . .

- لا، لم تكن شاقة. لا أخفي عليك بأنّ الكاهن القانوني راهوين كان يلكمني بجماع قبضته على رأسي كلّما أخطأت، لكنّ ضرباته كانت بردا وسلاما قياسا لما كنت أناله من لطمات أبي، ولكن بالمقابل، كان الجميع رهنا بما أقول. فلو خطر ببالي أن أقول إنني شاهدت حورية بحر - بعد أن أتى بي الإمبراطور اليهم بوصفي من يظهر له القديسون - كانوا يصدّقون ويصيحون مدهش مدهش. . .

- لا بدّ أن ذلك علّمك أن تكون حريصا في ما تقول.

- على الضد من ذلك، علّمني الا أكون حريصا على الاطلاق. فبأية حال، قلت في سّري، كلّ ما أنطق به صحيح لأني أنطق به. . . فخلال سيرنا الى روما، كان راهب يدعى كونراد يحكي لي عجائب تلك المدينة، آليو الكابيتول السبعة الذين يمثلون أيام الأسبوع وقد زوّد كلّ منهم بجرس يؤذن بقيام عصيان في ولاية من ولايات الإمبراطورية، أو تماثيل البرونز التي تتحرّك من تلقائها، او القصر المليء بالمرايا السحرية. . . ثمّ وصلنا الى روما، وفي اليوم الذي دارت فيه المقتلة على طول ضفة التيبر، أطلقت ساقيّ للريح متسكّعا في أنحاء المدينة. فمشيت ومشيت ولم أر سوى قطعان خراف وسط الخرائب القديمة، وتحت الكنن أناس من عامة الشعب يرطنون بلغة اليهود ويبيعون الأسماك، لكني لم أر من الأعاجيب شيئا ما عدا نصب حصان عند الكابيتول حتى أنه لم يبد لي ذا شأن عظيم. غير أني في طريق عودتي وقد بادرني الجميع بالسؤال عمّا شهدت، أكان بإمكاني أن أقول إني لم أر في روما الا خرافا وسط خرائب وخرائب وسط خراف؟ ولو فعلت لما صدّقني أحد. لذا رحت أسرد على مسمعهم ما حكي لي عن الأعاجيب وزدت عليها بعضا من عندي، فقلت مثلا، اني رأيت في قصر لاتران مذخرا ذهبا مرصّعا بالماس وفي داخله سرّة

الربّ يسوع وقلفته. فذهل الجميع مستزيدين ومتحسّرين لأن عليهم في ذلك اليوم أن يذبحوا الرومان ولن يتسنى لهم شهود تلك الأعاجيب. وهكذا بقيت لأعوام طويلة أسمع حكايات عن عجائب مدينة روما، في ألمانيا وفي بورغونيا، وحتى هنا، وذلك، ببساطة، لأني كنت من رواها.»

في الأثناء كان الجنويون قد عادوا مرتدين مسوح رهبان، راجّين أجراسا صغيرة في أيديهم وهم يتقدّمون نفرا من الناس المكسوين بملاءات بيض متسخة تغطيهم حتّى أعلى الهامة. كان هؤلاء هم زوجة نيسيتاس الحامل، وبين ذراعيها وليدها الرضيع، وباقي أبنائها وبناتها الفتيّات المشيقات، وبعض الأقارب بالاضافة الى عدد قليل من الخدم. لقد اصطحبهم الجنويون عبر شوارع المدينة كأنهم عصبة من المجذومين، فتنحّى الجميع من دربهم حتّى الحجّاج.

«كيف انطلت عليهم الخدعة؟ سأل باودولينو ضاحكا. لنسلّم جدلا أن هؤلاء نفر من المجذومين، ولكن أنتم، حتّى بارتدائكم هذه المسوح لا يبدو عليكم أنكم رهبان!

- مع احترامي لشخصك فانّ الحجّاج ليسوا أكثر من قطيع حمقى، قال تارابورلو. ثمّ إننا، بعد العمر الذي قضيناه هنا، تعلّمنا نحن أيضا تلك الشوية المتداولة من اليونانية. فكنّا نردّد «كيرياليسون بيغيه بيغيه» بصوت واحد خفيض وكأنّها لازمة صلاة، فكانوا يتنحون من دربنا ومنهم من يرتسم بشارة الصليب ومنهم من يشير الى القرون ومنهم من يتلمّس دورق زيته المبارك.»

كان أحد الخدم قد أحضر لنيسيتاس علبة فاختلى نيسيتاس بنفسه في مؤخّر الردهة ليفتحها. ثمّ عاد حاملا بضع قطع من النقود أعطاها الى أرباب البيت الذين أفاضوا في التبريك وأكّدوا له أنّه حتّى يأذن موعد رحيله هو ربّ الدار لا هم. ووزّع أفراد العائلة الكثر على المساكن

المجاورة، في أزقة على قدر من القذارة حيث لن يخطر ببال لاتيني أن يطأها بحثا عن غنيمة.

أمّا وقد استكان روعه، استدعى نيسيتاس بيفيريه الذي بدا الأبلغ سطوة من بين مضيفيه، وقال له إنه اذا كتب عليه أن يبقى مختبئا فهذا لا يعني، بأية حال، انّه سيتخلّى عن متعه المعتادة. صحيح ان المدينة تحترق ولكن مراكب التجار ما زالت ترسو في الميناء، ومراكب الصيادين تضطر الى التوقف عند القرن الذهبي من دون أن تتمكّن من تسليم حمولاتها الى الفنادق. ومن ملك المال يستطيع أن يبتاع كلّ ما يحتاجه بأثمان بخسة فينعم برغد العيش. أمّا بشأن المطبخ فمسألة من اليسير حلّها، لأنّ بين الناجين من أفراد العائلة، هناك صهره تيوفيل الذي يعدّ طاهيا ممتازا، فما عليه الا أن يعدّد ما يحتاجه من المؤن. وهكذا تمكّن نيسيتاس، بحلول ما بعد الظهر، أن يولم لمضيفه وليمة حقّة. وكانت عبارة عن جدي محشوّ بالثوم والبصل والكرّاث، ومسقّى بمرق السمك المملّح.

«منذ نحو مئتي عام، قال نيسيتاس، قدم الى القسطنطينية، بصفته سفيرا لملككم أوتون، أحد أساقفتكم، ويدعى ليوتبراند، وحلّ ضيفا على الباسيليوس نيسيفور. لم يكن لقاء محمودا، وعلمنا، فيما بعد، أن ليوتبراند قد كتب تقريرا عن رحلته، وصفنا، نحن الرومان، فيه بأننا منفّرون وغلاظ ومتوحشون، نرتدي أثوابا بالية. حتى أنه لم يكن ليتذوّق النبيذ المنكّه بالراتنج، وبدت له أطعمتنا كلّها مغرّقة بالزيت. ومع ذلك فقد كان الشيء الوحيد الذي امتدحه هو هذا الطبق.»

كان باودولينو قد استطيب كثيرا طبق الجدي، وواصل الاجابة عن أسئلة نيسيتاس.

«اذا خلال عيشك مع جيش تعلّمت الكتابة. غير أنك كنت تعرف القراءة.

– أجل، ولكنّ الكتابة أصعب. وخصوصا اللاتينية. ذلك أنه لو شاء

الإمبراطور طرد جند كلّمهم بالألمانية، ولكنه لو أراد أن يكتب للبابا أو لابن عمّه ياسورميغوت، فقد كان عليه أن يفعل ذلك باللاتينية، وكذلك الأمر بالنسبة لوثائق ديوان القنصلية. كنت أجد مشقّة كبيرة في خطّ الحروف الأولى، وأنسخ مفردات وعبارات لا أفقه معناها، ولكن، في المحصّلة، لم تبلغ تلك السنة ختامها الا وقد تعلّمت الكتابة. ومع ذلك لم يتمكّن راهوين، لضيق الوقت، من تلقيني قواعد الصرف والنحو. كنت أجيد النسخ ولا أجيد التعبير عن ذات نفسي. لذلك كنت أكتب بلغة الفراسكيتا. ولكن أكانت تلك حقا لغة الفراسكيتا؟ كنت أخلط ما أستذكره من لهجات كنت أسمعها من حولي، لهجات البافيزانيين والميلانيين والجنويين، وهم أناس لا يفهمون أحيانا لهجاتهم المتبادلة. فيما بعد، شيّدنا في تلك النواحي مدينة أمّها ناس من كلّ حدب وصوب واجتمعوا لرفع برج، وراحوا يتكلّمون، جميعا، على النحو ذاته. وأعتقد أنّه كان تقريبا النحو الذي ابتكرته أنا.

- لقد كنت مشرّعا، قال نيسيتاس.

- لا أدري ماذا يعني ذلك، ولكن لم لا. فقد كتبت الرقوق التالية، بأية حال، بلاتينية لا بأس بها. كنّا في تلك الأثناء قد بلغنا راتيسبون، وأقمنا في دير ساكن جعل في رعاية الأسقف أوتون، وفي ظلّ ذاك السكون كان لديّ الكثير لأقرأه... كنت أتعلّم. سوف تلاحظ من دون شك أن الرقّ لم يمسح جيدا وبقي فيه أثر من نصّ سابق كان مدوّنا عليه. بامكانك القول اني كنت على قدر كبير من الحقارة، اذ وجدتني أسرق ما لمعلّمي، وقضيت ليلتين منكبّا على مسح ما كنت أحسبه كتابات قديمة، لكي أحظى بمساحة أدوّن عليها. في الأيام التالية بدا الأسقف أوتون قانطا لأنه لا يعثر على الصيغة الأولى من Chronica sive Historia de duabus civitatibus الذي كان منكبّا على تدوينه منذ أكثر من عشرة أعوام، وراح يتّهم راهوين، المسكين، بأنّه فقده خلال الرحلة. بعد ذلك بعامين اقتنع بضرورة اعادة تدوين «أخباره» وعملت نسّاخاً لديه من دون أن

أجرؤ على الاعتراف بأني مسحت صيغة الـ «Chronica» الأولى. كما ترى، هناك عدالة ما: فأنا أيضا فقدت مدوّنة «أخباري» والفارق هو أنني ما عدت أملك القوة على اعادة تدوينها. غير أني أعلم أن أوتون قد غيّر شيئا ما وهو يعيد تدوينها...

- كيف؟

- ان قرأت الـ «Chronica»، وهي تاريخ للعالم، سترى أنّه، اذا جاز القول، لم يكن متفائلا في نظرته الى العالم والى البشر. فجائز أنّ العام كان حسن البدايات، لكنّه مال الى السوء مع التقادم، ففي المحصلة، mundus senescit، العالم يشيخ، ونحن على وشك بلوغ النهاية... ولكن في ذلك العام بالذات الذي شرع فيه أوتون في اعادة تدوين أخباره، طلب منه الإمبراطور أن يحتفي أيضا بمآثره، فشرع أوتون في تدوين الـ «Gesta Friderici»، مآثر فردريك، الذي لم يتمكّن من انجازه لوفاته بعد أقلّ من عام؛ فتولّى راهوين مهمّة انجازه. ولا يقدر أحد أن يسرد مآثر مليكه ان لم يكن مقتنعا بأنّ توليه العرش كان فاتحة عهد جديد، وأنّ عهده هو historia iucunda...

- يمكن أن يدوّن المرء تاريخ أباطرته من دون التخلّي عن الصرامة، وشرح الأسباب التي أودت بهم الى الخراب...

- ربّما كان ذاك أسلوبك أنت يا سيّد نيسيتاس، لكنّه بالتأكيد لم يكن أسلوب أوتون الطيّب، وأنا هنا لا أخبرك الا بحقيقة ما جرى. وهكذا كان ذلك الرجل الصالح يدوّن من جهة «أخباره» حيث العالم يسير من سيء الى أسوأ، ومن الجهة الأخرى، يدوّن «المآثر» حيث لا يعقل الا أن يكون العالم سائرا من حسن الى أحسن. سوف تقول: انه يناقض نفسه. ليت الأمر اقتصر على ذلك. ذلك اني أرتاب في أنّ الصيغة الأولى من «الأخبار» ربّما كانت أكثر تشاؤما في نظرتها الى العالم، وفي أنّ أوتون المسكين قد عمد، في معرض اجتنابه قدرا أكبر من التناقض، الى اظهار المزيد فالمزيد من التسامح حيالنا نحن البشر. وكنت أنا من تسبّب في ذلك

بمسحي الصيغة الأولى. فلو أن الصيغة المذكورة بقيت لما كان أوتون قد تجرّأ على تدوين «المآثر»، وبما أن كلّ ما سوف يؤثر عن فردريك، وما صنعه وما لم يصنعه، انّما سيؤثر اعتمادا على هذه «المآثر»، فإنّ ما كان سيتأتّى من عدم مسحي الصيغة الأولى هو الاعتقاد بأنّ فردريك لم ينجز شيئا مما نزعم أنّه من صنيعه.»

«انّ مثلك مثل الكريتي الكذّاب، اذ تقول لي إنّك أبرع الكاذبين وتزعم بأني أصدّق ما تقول. تريدني أن أعتقد بأنّك كذبت على الجميع ما عداي أنا. انّ السنوات الطويلة التي قضيتها في بلاط الأباطرة علّمتني أن أحسن تدبير أمري حيال الأشراك التي ينصبها أمامي سادة في الخديعة أبرع منك... فبحسب ما أقررت به، طائعا، أنت نفسك ما عدت تعرف من تكون، وذلك، من دون ريب، لكثرة ما تفوّهت بالأكاذيب، حتّى أنك كذبت على ذات نفسك. وها أنت تسألني أن أحبك لك قصّة لا تدرك، أنت، معناها. سوى أني لست كاذبا من طينتك. لقد صرفت عمري مدقّقا في مسارد الآخرين لكي أستخلص منها الحقيقة. ربّما كنت تطلب مني قصّة تغفر قتلك رجلا ثأرا لمقتل فردريك. وها أنت تحبك، خيطا فخيطا، قصّة حبّك لإمبراطورك تلك، لكي يأتي تفسيرك لواجب الثأر لمقتله في سياقة طبيعية. بالاصرار على كونه قتل وعلى كون قاتله هو من قتلت.»

ثمّ التفت نيسيتاس الى الخارج: «لقد بلغت النيران الأكروبول»، قال.

– اني جالب الشؤم على المدن.

– تحسب أنّك كلّي القدرة. وهذه خطيئة كبرياء.

– لا انّه فعل ندامة، ان جاز القول. لا أذكر في حياتي كلّها أنني اقتربت من مدينة الا وجعلت خرابا. لقد نشأت في بقاع تكثر فيها الضياع وفيها عدد من القصور المتواضعة، حيث كنت أسمع التجار الجوّالين يمتدحون محاسن المدن المديولانية، ولكني كنت أجهل كلّ الجهل ما قد تكون عليه مدينة، حتّى أني لم أر تردونا التي كنت أرى أبراجها منتصبة

في البعيد؛ وكنت أحسب أن آستيا أو بافيا تقعان على حدود الفردوس الأرضي. ولكن فيما بعد صودف أن كلّ المدن التي عرفتها كانت موشكة على التعرض للتدمير أو أنّها سبق أن أحرقت: تردونيا، اسبوليتيا، كيميا، ميلانو، لودي، قونيه، ومن ثمّ بندابتزيم. وهذا ما ستؤول اليه حال هذه المدينة. فهل شاءت المصادفة أن أكون - بحسب قولكم، أنتم معشر اليونانيين - ناحس مدن بفعل لامّة؟

- لا تجعل مثلك مثل الذي يحاسب نفسه.

- أنت محق. فعلى الأقلّ هناك مدينة، هي مدينتي، تمكّنت من انقاذها بكذبة. أتعتقد أن استثناء واحدا كفيل بطرد اللامّة عني؟

- هذا يعني أنّ لا وجود للقدر المحتوم.»

لبث باودولينو صامتا لهنيهات. ثمّ استدار ونظر طويلا الى ما كان، منذ بعض، هو القسطنطينية. «مع ذلك أشعر بأني مذنب. من يرتكبون كلّ هذا هم من اهل البندقية وأهل الفلاندر، وخصوصا فرسان شامباني وبلوا وأورليان وسواسون، هذا اذا أغفلنا المونفيريين. كنت لأفضّل أن يكون الأتراك هم من يدمّرون هذه المدينة.

- الأتراك ما كانوا ليفعلوا ذلك مطلقا، قال نيسيتاس. اذ تربطنا بهم علاقات ممتازة. كان علينا أن نرهب جانب المسيحيين. ولكن لربّما كنتم يد الله، وهو الذي أرسلكم للاقتصاص من خطايانا.

- صنيع الله على يد الفرنكة»، قال باودولينو.

4

باودولينو يتحدّث الى الإمبراطور ويقع في غرام الإمبراطورة

في غضون ساعات ما بعد الظهر استأنف باودولينو سرده بوتائر أسرع، وكان نيسيتاس قد قرّر الا يقاطعه. كان يودّ أن يصل في سرده الى فترة شبابه حيث بدأت الوقائع. وما كان يدرك لم لم يصل باودولينو بعد الى الوقائع، فيما الغرض من سرده هو الوصول اليها.

كان فردريك قد عهد بباودولينو الى الأسقف أوتون ومعاونه، الكاهن القانوني راهوين. وكان أوتون هذا من أسرة بابنبرغ، وهو خال الإمبراطور، وان كان يكبره بالكاد عشر سنوات. انّه رجل عالم، كان درس، في باريس، على يد أبيلار العظيم، ثمّ سيم كاهنا سيسترسيا. وكان لا يزال شابا حين رفّع الى رتبة أسقف فرايسنغ. ولم يكن ذلك لأنّه بذل الكثير من طاقته لتلك المدينة الشريفة، قال باودولينو لنيسيتاس شارحا، بل لأنّ السائد في الكنيسة الغربية أن يجعل أبناء الأسر العريقة أساقفة على هذا المكان أو ذاك من دون الاقامة فيه، مكتفين بالتمتّع بالريع المتعلّق به.

لم يكن أوتون قد بلغ الخمسين عاما بعد، ولكنّ مظهره كان يوحي بأنّه بلغ المئة، اذ لا تفارقه الكحّة، والعرج، غالبا، بسبب أوجاع الورك، حينا، أو أوجاع الكتف، أحيانا، ومعاناته من حصاة المثانة، أغمص لفرط

ما ينكبّ على القراءة سواء تحت نور الشمس أو على نور شمعة؛ سريع الغضب على غرار المصابين بنقرس القدم، حتّى أنه خاطب باودولينو، لأوّل مرّة، بما يشبه التذمّر، قائلا: «لقد حظيت بدالة الإمبراطور لأنّك أسمعته الكثير من ترّهاتك، أليس بلى؟

- أحلف يا معلّمي أنني لم أفعل»، قال باودولينو معترضا. فقال أوتون: «تماما، الكاذب الذي ينفي انّما يؤكّد. هيا اتبعني. سوف ألقنك ما أعرف.»

ما يبرهن على أن أوتون، في المحصلة، من طينة البشر الصالحين، وسرعان ما صار عطوفا في تعامله مع باودولينو لأنّه وجد أنه ألمعي، وقادر على أن يحفظ غيبا كلّ ما يسمعه. ومع ذلك لاحظ أن باودولينو كان يذيع على مسمع الجميع لا ما لقنه وحسب بل ما لفّقه أيضا.

«باودولينو، كان يقول له، أنت كذّاب بالفطرة.

- لم تنعتني بمثل هذه النعوت يا معلّمي؟

- لأنّها الحقيقة. ولكن لا تحسبنّ أنّ في ذلك مأخذا. ان أردت أن تصبح متأدّبا، أو أرفع شأنا، اذا أردت أن تكتب ذات يوم أخبارا، سيتوجّب عليك أن تكذب، وأن تختلق بعض الحكايا، والا كان «تاريخك» مضجرا. ومع ذلك ينبغي أن تكذب باعتدال. العالم يبغض الكاذبين الذين لا يفعلون شيئا سوى الكذب، حتّى في الأمور التافهة التي لا شأن لها، ويكافئ الشعراء الذين يكذبون في أمور ذات شأن.»

كان باودولينو يحصّل فائدة جمّة من دروس معلّمه، وكم كان هذا الأخير كاذبا، فقد أدرك ذلك شيئا فشيئا عندما لاحظ كيف يناقض نفسه بنفسه في انتقاله من «Chronica sive Historia de duabus civitatibus» الى «Gesta Friderici». ولهذا السبب قرّر أنه اذا أراد أن يصبح كذابا بارعا، عليه أن يصغي أيضا الى كلام الآخرين لكي يرى كيف يقنع الناس بعضهم بعضا بمسألة أو بأخرى. وعلى سبيل المثال، شهد باودولينو عددا من الحوارات المختلفة بين الإمبراطور وأوتون بشأن المدن.

«كيف لامرئ أن يكون على القدر من البربرية؟ ليس مستهجنا أن ملوكهم كانوا يضعون، فيما مضى، تاجا من حديد! كان فردريك يقول بشيء من النفور. ألم يعلّمهم أحد أنّ من الواجب احترام الإمبراطور؟ هل تتخيّل ذلك يا باودولينو؟ انّهم يطبّقون الـ regalia!

- وما هي هذه الـ regalioles يا أبي العطوف؟» فاستغرق الجميع بالضحك، وكان أكثرهم قهقهة أوتون، لأنّه يعلم، بوصفه عالما باللاتينية القديمة، اللاتينية الحقّة، بأنّ الـ regaliolus هو عصفور صغير.

«Regalia, regalia, iura regalia، يا باودولينو يا غليظ الذهن! صاح فردريك قائلا. إنّها الحقوق المتوجّبة لي، مثل تعيين القضاة، وجباية الضرائب على الطرقات العامة وعلى الأسواق والأنهر الصالحة للملاحة، وحقّ سكّ النقد، و... و.... وماذا أيضا يا رينالد؟

-... الأرباح المتوجّبة من الغرامات والأحكام، واستملاك التركات البلا ورثة شرعيين أو المصادرة لأنشطة اجرامية، أو بسبب زيجات بمحرّم، وحقوق ايرادات المناجم والملاّحات وأحواض السمك، والنسب المئوية على الكنوز التي يعثر عليها في مكان عام» تابع قائلا رينالد دي داسيل الذي سيعيّن، قريبا، قنصلا أي الشخصية الثانية في الإمبراطورية.

«هذه هي. وهذه المدن استولت على حقوقي كلّها. انّهم لا يمتلكون حسّ ما هو عادل وصالح، فأيّ شيطان أفسد عقولهم الى هذه الدرجة؟

- يا ابن أختي ومولاي، قال أوتون مقاطعا، انّك تنظر الى ميلانو وبافيا وجنوى وكأنّها أوُلْم أو آوغسبورغ. لقد ولدت مدن جرمانيا بمشيئة ملك، وهي ترى ذاتها في مليكها مذ وجدت. أمّا شأن المدن تلك فمختلف كلّ الاختلاف. لقد نشأت جميعها فيما كان الأباطرة الألمان منهمكين بشؤون أخرى، وعظمت مستغلّة غياب أمرائها. وعندما تحدّث الناس عن المحافظين الذين تودّ أن تفرضهم عليهم، يشعرون بأنّ الـ potestatis insolentiam، نظام المحافظة العدلية المفروض عليهم بمثابة نير لا يطاق، فينتدبون لحكمهم قناصلة ينتخبونهم بأنفسهم.

- ألا يصبون الى الشعور بحماية الأمير والشراكة في رفعة الإمبراطورية ومجدها؟

- يصبون الى ذلك كثيرا، ولا يرضون بمغانم الدنيا عن ذلك بديلا، والا صاروا فريسة ملوك آخرين، كإمبراطور بيزنطه أو حتّى سلطان مصر. ولكن شريطة أن يبقى الأمير بعيدا عنهم. أمّا أنت، فأنت تعيش محوطا بنبلائك، وقد تكون غافلا عن أن العلاقات في تلك المدن مختلفة. انّها لا تعترف بالمقطعين الكبار مالكي الحقول والغابات، لأنّ الحقول والغابات ملك أيضا للمدن - طبعا، ما عدا أراضي الماركيس دي مونفيرّا ونفر قليل من الآخرين. ليكن معلوما لديك، أنّ في المدن شبّانا يزاولون فنون الميكانيكا، وأنّهم لن يتاح لهم في حياتهم أن يطأوا عتبة بلاطك، في حين أنهم يتولون القيادة وأنّهم يرفّعون أحيانا الى مرتبة فرسان. . .

- اذا فالعالم يسير مقلوبا! صاح الإمبراطور.

- لا يا أبي العطوف، قال باودولينو رافعا اصبعه، لكنّك تعاملني كأني أحد أفراد أسرتك، وبالأمس فقط كنت لا أزال أحيا في زريبة بهائم. اذا؟

- اذا، أنا لو شئت لأسبغت عليك لقب دوق، لأني الإمبراطور وبإمكاني أن أسبغ شرف النبالة على من أريد وبقرار مني. ولكنّ هذا لا يعني أن باستطاعة من يشاء أن يسبغ لقب النبالة على نفسه! ألا يدرك هؤلاء أنه اذا بدأ العالم بالسير مقلوبا فذلك يعني أنهم سائرون الى هلاكهم؟

- الظاهر أنّهم حقا لا يدركون، يا فردريك، قال أوتون مقاطعا. انّ هذه المدن قد اغدت، بفضل أسلوب حكمها، المكان الذي تعبره كلّ الثروات، فالتجار الوافدون من كلّ أصقاع العالم يقصدونها، أسوارها أجمل وأمتن من أسوار كثير من القصور.

- الى جانب من تقف يا خالي؟ صاح الإمبراطور.

- الى جانبك أنت، يا ابن أختي المبجّل، ولذلك من واجبي أن أعينك على فهم مقدار القوة التي يتمتّع به عدوك. فإن عقدت العزم على أن تنال من هذه المدن ما لا تقبل هي بمنحك ايّاه، فسوف تصرف عمرك كلّه في حصارها والتغلّب عليها ثمّ رؤيتها، في غضون أشهر، متعافية بكبرياء جديد، فتعاود اجتياز الألب مرّة اخرى لتخضعها من جديد، في حين أن قدرك الإمبراطوري في مكان آخر.

- وأين عساه يكون، قدري الإمبراطوري هذا؟

- يا فردريك، لقد ذكرت في «أخباري» - التي، لظروف يصعب تفسيرها، اختفت، وعليّ أن أعاود تدوينها، لعنة الله على الكاهن القانوني راهوين الذي لا شكّ عندي في أنه المسؤول عن هذه الخسارة - ذكرت اذا أنّه فيما مضى، وفي عهد بابوية أوجين الثالث، روى أسقف غالدا السوري الذي كان يقوم بزيارة للبابا برفقة بعثة أرمنية، على مسمع الحبر الأعظم، أنه في الشرق الأقصى، في البلاد المتاخمة للفردوس الأرضي، تزدهر مملكة الـ Rex Sacerdos، الراهب الملك، الراهب يوهانّس، ملك مسيحي بالتأكيد، وان كان من أتباع البدعة النسطورية، واسلافه كانوا المجوس، ملوكا وكهنة هم أيضا، لكنّهم امتلكوا حكمة قديمة جدا، الذين زاروا الطفل يسوع.

- وما شأني أنا، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، بالراهب جان هذا، حفظه الله ملكا وراهبا وأمدّ بعمره طويلا هناك حيث، بحقّ الشيطان، أقام وسط مسلميه؟

- أرأيت يا ابن أختي العَلَم، انك تقول «مسلمين» وتفكّر كما يفكّر الملوك المسيحيون الآخرون الذين يستميتون في الدفاع عن القدس - وهذا دليل تقوى لا أنكره عليهم، ولكن لندعه لملك فرنسا، خصوصا أن الفرنكة هم الذين يتولون زمام الأمور في القدس اليوم. إنّ قدر المسيحية وقدر كلّ إمبراطورية تريد أن تكون مقدّسة ورومانية، يكمن في ما وراء المسلمين. هناك مملكة للمسيحية في ما وراء القدس وأرض الكفّار.

والإمبراطور الذي ينجح في توحيد المملكتين سيؤتى له أن يحيل الكافرين وحتّى إمبراطورية بيزنطه، جزيرتين مهجورتين، تائهتين في بحر مجده الشاسع!

– تخيّلات يا خالي العزيز. أرجوك، دعنا نبقي أقدامنا على الأرض. ولنحصر موضوعنا في تلك المدن الايطالية. فسّر لي يا خالي العزيز، لم يرغب بعضها، اذا كانت أوضاعها مزدهرة كما أسلفت، في التحالف معي ضدّ بعضها الآخر، ولا تتحالف جميعها ضدّي.

– على الأقل، الى اليوم، قال رينالد معلّقا بشيء من الحذر.

– اكرّر ما قلت، أجاب أوتون شارحا، انها لا تريد أن تتنكّر لصلة الخضوع التي تربطها بالإمبراطورية. ولهذا السبب تطلب مساعدتك عندما تضطهد مدينة مدينة أخرى، كما تفعل ميلانو بلودي.

– ولكن اذا كان الشرط المثالي هو في أن تكون مدينة، لم تسعى كلّ واحدة منها الى اضطهاد جارتها، كأنّها تريد أن تبتلع أرضها وتتحوّل الى مملكة؟»

اذّاك أدلى باودولينو بدلوه، بحكمة المخبر المحلّي التي كانت له. «أبتاه، المسألة تكمن في أنّ القصبات أيضا، لا المدن وحدها، فيما وراء الألب تستمتع في أن تدسّ... آاي!... (ذلك أن أوتون كان، في خبره التربوي، يستخدم أيضا القرص)... باختصار، تعمد الواحدة الى اذلال الأخرى. ففي بلادنا تجري الأمور على هذا النحو. قد يمقت الغريب، ولكن أكثر ما يمقت هو الجار. واذا أعاننا الغريب على الحاق الضرر بجارنا، أحسنّا وفادته.

– ولكن لماذا؟

– لأن الناس لئام، كما كان يقول أبي، غير أن أهل آستي هم أكثر لؤما من ذي اللحية الصهباء.

– ومن يكون ذا اللحية الصهباء هذا؟

- انّه أنت، يا أبتي، هكذا يسمّونك هناك، واني لا أجد، بأية حال، ضيرا في ذلك، لأنّ اللحية التي لك هي حقا صهباء، وهي تليق بمظهرك على أحسن ما يكون. ثمّ لو قالوا عنك إنك ذو اللحية النحاس، أيليق بك لقب «اللحية النحاس»؟ بالنسبة لي ما كان ليقلّل من اجلالي وحبي لشخصك أن تكون لحيتك سوداء، ولكن نظرا لكونها صهباء فلا أرى داعيا لأن تجعل من نعتهم لك باللحية الصهباء قضية. ما أردت أن أقوله لك لو لم تغضب بسبب لحيتك، هو أنّ بإمكانك أن تلبث مطمئنّ البال: لأنّ هذه المدن، برأيي، لن تجتمع ضدك. فهي تخشى، لو قيضت لها الغلبة، أن تغدو احداها أقوى من الأخريات. وفي مثل هذه الحال هي تفضّل أن تكون أنت الأقوى، شريطة الا تثقل عليها بالاتاوات.

- لا تصدّق كلّ ما يقوله باودولينو، قال أوتون متبسّما. انّه ولد كذّاب بالفطرة.

- لا يا سيّدي، أجاب فردريك، انّه لا يقول، في العادة، عن ايطاليا الا الأمور الدقيقة جدا. فهو يقول لنا اليوم، على سبيل المثال، انّ فرصة النجاح المحتملة والوحيدة مع المدن الايطالية، هي في أن نعمل، قدر المستطاع، على زرع الشقاق فيما بينها. ولكن المشكلة هي أنك أبدا لا تدري أيّها الى جانبك وأيّها ضدك!

- اذا كان صاحبنا باودولينو محقّا، قال رينالد دي داسيل على سبيل السخرية، فانّ وقوفها الى جانبك أو وقوفها ضدك أمران لا صلة لهما بك أنت، بل بالمدينة التي يضمرون لها الشرّ في هذه الفترة بالذات.»

كان باودولينو متألما لموقف هذا الفردريك، المديد القامة، العريض المنكبين، ذي الجبروت، والذي يعجز عن تقبّل الطريقة التي يفكّر بها هؤلاء الرعايا بالذات. في حين أنّ ما يعرف عنه، هو أنّه يقضي من أوقاته في شبه الجزيرة الايطالية أكثر مما يقضيه في بقاعه. فهو، قال باودولينو في سرّه، يكنّ المودّة لأناسنا لكنّه لا يفهم لم هم يخونونه. ولهذا السبب، ربّما، يعمد الى قتلهم مثل الزوج الغيور.

بيد أنه لم يتح لباودولينو، خلال الشهور التالية، أن يلتقي الا مرارا قليلة جدا فردريك الذي انهمك في الاعداد لهيئة تشريعية في راتيسبون، ثمّ أخرى في فورمس. وكان عليه أن يسترضي اثنين من أقربائه المرهوبي الجانب وهما: هنري لو ليون، الذي اقتطعه في آخر الأمر دوقية بافيير، وهنري ياسورميغوت، الذي تطلّب منه استرضاؤه ايجاد دوقية لم تكن موجودة هي دوقية النمسا. وفي مطلع ربيع السنة التالية، كان أوتون قد أزفّ لباودولينو نبأ انتقالهم جميعا، في حزيران، الى هربيبوليس، حيث سيعقد فردريك قرانه السعيد. وكان الإمبراطور قد حظي من قبل بزوجة لكنّه انفصل عنها منذ أعوام، وهو يعدّ العدّة الآن للزواج مرّة ثانية من بياتريس دي بورغوني التي جلبت له بمثابة بائنة تلك المقاطعة امتدادا حتّى بروفانس. مثل تلك البائنة حدت بأوتون وراهوين للظنّ بأنّه زواج مصلحة، ولم يكن بعيدا من هذا الظنّ أيضا باودولينو الذي كان يعدّ نفسه، وقد زوّد بملابس جديدة تليق بالمناسبة، لرؤية أبيه بالتبني متأبطا ذراع عانس بورغوندية أحسن ما فيها لا حسن طلعتها بل أملاك أجدادها.

«كنت أشعر بالغيرة، أعترف بذلك، قال باودولينو لنيسيتاس. ففي قرارة نفسي، كنت اقول إنني ما كدت أعثر على أب ثان حتّى اختطف مني، ولو جزئيا، على يد زوجة أب.»

هنا توقّف باودولينو عن الكلام، مبديا بعض الحرج، متلمّسا ندبته بطرف اصبع، ثمّ باح بالحقيقة المرعبة. عند وصوله الى المكان الذي أقيم فيه العرس، تبيّن له أن بياتريس دي بورغوني كانت صبية في العشرين من عمرها رائعة الجمال - أو في الأقل، هكذا بدت في عيني باودولينو الذي حالما رآها صار عاجزا عن الحركة، ولبث يرمقها بعينين محملقتين. لقد حبيت بشعر متألّق كأنّه ذهب، وبوجه مشرق وفم منمنم بحمرة ثمرة ناضجة، وأسنان لؤلؤية، وقامة مشيقة ونظرة خفرة وعينين نيّرتين. لقد كانت، بنطقها الحيّ المقنع، وقامتها الفارهة، تشيع حضورا من الأناقة

المتألقة طاغيا على من حولها. كانت تجيد الظهور (وهي الفضيلة المثلى لملكة عتيدة) بمظهر الرضوخ لزوجها الذي كانت تبدي خشيتها منه كسيّد، ولكنّها كانت مليكته اذ تبدي له مشيئتها في أن تكون زوجة بدراية بالغة الاناقة بحيث إنّ كلّ رجاء منها يفهم على أنّه أمر. واذا كان لا بدّ من تذييل ما سبق بمديح أخير، ينبغي القول انها كانت شغوفة بالأدب، بارعة في تأليف الموسيقى، وعذبة في انشادها. حتّى أنها، أضاف باودولينو خاتما، تليق بالاسم الذي تحمله، بياتريس، لأنّ فيها من النعمى قدرا كبيرا.

كان ذلك كافيا لكي يدرك نيسيتاس أنّ الفتى قد أغرم بزوجة أبيه من النظرة الأولى، سوى أنه - ولأنّه يغرم للمرّة الأولى - كان يجهل ما الذي أصابه. فأمر جلل قد لا تحمد عقباه أن يغرم المرء للمرة الأولى، وهو فلاّح، بفلاّحة مدبّرة لحيمة يكسو حبّ الشباب وجهها، فكيف اذا وقع فلاّح في غرام إمبراطورة في العشرين من عمرها وبشرتها ناصعة مثل اللبن.

سرعان ما أدرك باودولينو أن شعوره ذاك كان بمثابة سرقة يرتكبها في حقّ أبيه، فراح يقنع نفسه بأنه، نظرا لحداثة سنّ زوجة أبيه، يرى فيها اختا. والحال فانّه، وان لم يتعمّق كما يجب في درس لاهوت الأخلاق، قد أدرك أنه غير مباح له حتّى أن يحبّ أختا - على الأقل، بالرعشات ولوعة الشغف التي أوحتها له رؤية بياتريس. لذا أحنى رأسه مداريا احمرار وجهه، في اللحظة التي كان فيها فردريك يعرّفها بصغيره باودولينو (عفريت سهل البو، الغريب المحبوب، كما كان يقول لها) فيما تمدّ بياتريس يدها برقّة لتداعب خدّه أولا ثمّ قمّة رأسه.

كاد باودولينو يفقد وعيه، اذ أظلمت الأنوار فجأة من حوله، وراحت أذناه تطنّان مثل أجراس الفصح. أيقظته يد أوتون الثقيلة اذ راح يلطمه على قذاله ويهمس بغضب: «اركع، يا بهيمة!» فتذكّر انه واقف أمام الإمبراطورة الرومانية المقدّسة، الى كونها ملكة ايطاليا، فثنى ركبتيه،

وبدءا بتلك اللحظة راح يتصرّف كما ينبغي لأهل البلاط أن يفعلوا، سوى أن النوم كان يجافيه آناء الليل وبدل أن يبتهج لهذه الهداية التي لا يجد لها تفسيرا، جعل يبكي لشدّة ذلك الشغف المجهول.

كان نيسيتاس يرمق محدّثه الهيثمي بنظرات فاحصة، معجبا بلطافة تعابيره، وبلاغته المدروسة بيونانية شبه فصيحة، وكان يسأل في سرّه الى أي عرق من الكائنات ينتمي ذاك الجالس قبالته، القادر على استخدام لغة أهل الكهف حين يتحدّث عن بلاده، وبلغة الملوك حين يتحدّث عن أهل التيجان. أيملك روحا، كان يسأل نفسه، ذلك الشخص الذي يطوّع سرده كيما يعبّر عن أرواح مختلفة؟ واذا امتلك أرواحا مختلفة، فمن فم أيّ منها، لمّا ينطق، سوف يسرّ الي بالحقيقة، اذا أسرّ، يوما، بالحقيقة؟

5

باودولينو يبذل من حكمته نصحاً سديداً لفردريك

في صبيحة اليوم التالي كانت المدينة لا تزال مكتنفة بسحابة من الدخان الأسود. وكان نيسيتاس قد بلّ ريقه ببعض الفاكهة، وراح يذرع الردهة جيئة وذهابا بادي القلق، ثمّ سأل باودولينو اذا كان بالامكان ايفاد أحد الجنويين لاحضار المدعو آركيتا لكيّ ينظّف له وجهه.

إنّه لأمر عجب حقّا، قال باودولينو في سرّه، لقد أهلكت هذه المدينة نفسها وذبح فيها الناس في الشوارع، ومنذ يومين فقط كاد صاحبنا هذا يفقد أسرته كلّها، وها هو الآن يريد من ينظّف له وجهه. من الواضح أنّ أهل البلاط، في هذه المدينة الفاسدة، اعتادوا نحوا مماثلا من العيش - ولو صادف فردريك رجلا مثل هذا لرمى به من النافذة على الفور.

فيما بعد وصل آركيتا حاملا قفّة من الأدوات الفضية والدوارق الصغيرة التي تحتوي على عطور نادرة. كان فنّانا مالكا حرفته، اذ يعمد أولا الى ترطيب الوجه وتليينه بواسطة فوط ساخنة، ثمّ يكسوه بطبقة من بالمراهم الملطّفة، ويعمد، من ثمّ، الى تمليسه وازالة كلّ شوب، قبل أن يغطّي التجاعيد بالمساحيق ويكحّل العينين بكحل خفيف، ويحمّر الشفتين قليلا، وينتف الشعيرات من باطن الأذنين، الى ما يفعله عادة بالذقن والشعر. كان نيسيتاس مسترخيا مغمض العينين، مستسلما لمداعبة اليدين الخبيرتين، مهدهدا بصوت باودولينو الذي تابع سرد قصّته. لا بل انّه كان

يتوقّف عن السرد، بين الفينة والفينة، لكي يستفهم عمّا يصنعه حرفي الحسن، مثلا عندما يستخرج هذا الأخير، من أحد دوارقه، عظاية، فيقطع رأسها وذيلها ويفرمها قطعا صغيرة كأنّه يطحنها ثمّ يضعها في مقلاة فخّار مليئة بالزيت لطهوها. ولكن، بربّك، أيّ سؤال هذا، ألا ترى انها الخلاصة التي تحفظ ما تبقّى منتثرا وقليلا من شعر نيسيتاس، ولجعله لامعا ومعطّرا. وهذه الدوارق؟ انها خلاصات جوز الطيب أو الهال أو ماء الورد، وكلّ واحدة منها تستخدم لانعاش موضع من الوجه؛ فمن فوائد معجونة العسل تلك تقوية الشفتين، وتلك الأخرى، التي لن يبوح بمكوّناتها، فتقوّي اللثة.

عند الفراغ من تنظيف وجهه بدا نيسيتاس مشرق الطلعة كما ينبغي لقاضي الحجاب المقدّس وحافظ الأسرار أن يكون. وكأنّه ولد من جديد، بدا متألّقا بوهج سنائه الخاص في تلك الصبيحة المكفهرّة، وفي خلفيّته البعيدة بيزنطه التي كانت يصّعد احتضارها دخانا. وكان باودولينو يعتوره شيء من الحرج وهو يسرد على مسامعه حوادث مراهقته في دير للاتين، بارد غير مضياف، حيث كان فرضا عليه أن يشارك أوتون المعتلّ الصحة طعامه المكوّن من أعشاب مطبوخة وأنواع من حساء القطاعة.

في ذلك العام، لم يقض باودولينو في البلاط الا أوقاتا قليلة (وكان حريصا، في فترات وجوده فيه، على أن يجول في أرجائه حذرا لأنّه يخشى، ولكنّه، في الوقت نفسه، يتمنّى، أن يلتقي بياتريس، ومثل هذا، له، أمرّ العذاب). كان على فردريك أوّلا، أن يسوّي مسألة البولنديين (بولنديو بولنده، كتب أوتون ذات مرّة، شعب من البرابرة دأبه القتال)، وفي آذار دعا الى عقد مجلس تشريعي جديد في فورمس للاعداد لحملة جديدة على ايطاليا حيث تبدي ميلانو، دائما ميلانو، وبعض جوارها التابع، مزيدا من علامات التمرّد، ومجلس تشريعي آخر في هربيبوليس، في شهر أيلول، وآخر في بيزونسون في شهر تشرين الأول؛ أي باختصار،

كان مهتاجا كأنّه أصيب بمسّ. بالمقابل كان على باودولينو أن يقيم، معظم الوقت، في دير موريمون بصحبة أوتون، فيدرس على راهوين ويعمل نسّاخا لدى الأسقف الذي كانت حاله الصحية في تدهور مستمر.

عندما شرعا في ذلك المؤلّف المسمّى «أخبار» حيث يؤتى على ذكر الراهب يوهانس، سأله باودولينو ماذا يعني أن يكون المرء مسيحيا نسطوريا. وهل يعني هذا أنّ أولئك النسطوريين كانوا مسيحيين في وجه من معتقدهم وغير مسيحيين في وجه آخر منه؟

«يا بني، يمكن القول، في الخلاصة، إن نسطور كان هرطوقيا، ولكنّا ندين له بدين كبير. فليكن معلوما لديك أنّ النساطرة، على أثر تبشير الرسول توما، هم الذين نشروا الديانة المسيحية في الهند وحتّى تخوم البلاد البعيدة التي جاءت منها هذه الطائفة. لقد اقترف نسطور خطأ واحدا، ولكنه خطأ فادح، حول ربّنا يسوع المسيح وأمّه الكلية القداسة. فنحن كما تعلم، نؤمن بثبات بأنه لا توجد سوى طبيعة الهية واحدة وحيدة، وبأن الثالوث، مع ذلك، في وحدانية هذه الطبيعة، يتألف من ثلاثة أقانيم مختلفة، الآب والابن والروح القدس. كما نؤمن أنّ في المسيح لم يكن هناك سوى شخص واحد، هو الالهي، وطبيعتين، الانسانية والالهية. أمّا نسطور فكان يزعم، على الضدّ من ذلك، بأنّ للمسيح طبيعتين بالتأكيد، الانسانية والالهية، لكنّه شخصان. وبالتالي لم تلد السيدة العذراء الا الشخص الانساني، فلا يجوز القول بأنها أمّ الله بل هي فقط أمّ يسوع ابن الانسان؛ ليست اذا Theotokos، والدة الاله، بل هي في أحسن الأحوال Christokos.

- وهل القول بمثل هذا أمر خطير؟

- انه، في وقت معا، خطير وهيّن... أجاب أوتون بشيء من الضيق. فبإمكانك أن تحبّ العذراء مريم حتّى لو كنت مؤمنا بما آمن به نسطور، ولكنّك، في هذه الحال، سوف تحيطها بقدر أقلّ من التبجيل. ثمّ إن الشخص هو الجوهر الفردي لكائن عاقل، واذا صحّ أنه كان في

المسيح شخصان فهل هذا يعني انه كان هناك جوهران فرديان لكائنين عاقلين؟ والى أين يفضي بنا ذلك؟ أيفضي الى القول بأنّ المسيح كان يفكّر في يوم على نحو ما، ويفكّر على نحو مغاير في يوم آخر؟ برغم ذلك فانّ الراهب يوهانس ليس بالتأكيد هرطوقيا مخادعا، وقد يكون مفيدا أن تقام صلة بينه وبين إمبراطور مسيحي يهديه الى الايمان الحقّ، ولأنّ لا شكّ في كونه رجلا صادقا، فسوف يلتحق بجادة الحقّ. ومع ذلك فالمؤكّد أيضا أنك ان لم تبادر فورا الى درس اللاهوت ولو قليلا، فانّك لن تدرك هذه الأمور على الاطلاق. انّك مريد حاذق وراهوين استاذ ذو مقدرة في مجال القراءة والكتابة والضروري من علم الحساب وقواعد اللغة، غير أن التمييز بين ما هو قويم وبين ما هو منحرف لهو أمر آخر، ولكي تتمكّن من اللاهوت عليك أن تدرس الجدل، وكلّ هذا لن تتمكّن من تحصيله هنا في موريمون. سيكون عليك أن ترتاد مدرسة، Studium، من تلك المدارس التي لا يعثر عليها الا في المدن الكبرى.

- ولكنّي لا أرغب في ارتياد مدرسة، حتّى أني لا أعرف ما هي المدرسة.

- عندما تدرك ما هي المدرسة حقا، فسوف تسرّ بارتيادها. اعلم يا بني بأنّ المجتمع البشري يقوم على ثلاث قوى، المحاربين والرهبان والفلاحين. وهذه حقيقة بقيت سارية حتّى الأمس القريب. لكنّنا اليوم نحيا أزمنة جديدة حيث بات العالم يحظى باعتبار مماثل، حتى لو لم يكن راهبا؛ العالم الذي يدرس القانون والفلسفة وحركة الأفلاك وسواها الكثير، من دون أن يكون مجبرا على اطلاع أسقفه أو ملكه على ما يفعل. ثمّ إن المدارس التي صارت منتشرة في بولونيا وباريس هي أماكن لنشر العلم ونقله، والعلم شكل من أشكال السلطان. لقد كنت أحد تلامذة أبيلار العظيم، ليشمل الله برأفته هذا الرجل الذي أثم كثيرا لكنّه تعذّب كثيرا وكفّر كثيرا عن خطاياه. ففي اثر الشقاء، وبعد أن أفقده انتقام حقود رجولته، صار راهبا وناسك دير وعاش في عزلة عن العالم. لكنّه في ذروة

مجده، كان مدرّسا في باريس يعشقه طلابه ويجلّه أصحاب السلطان بسبب علمه، وفقط بسبب علمه.»

قطع باودولينو على نفسه عهدا ألا يفارق أوتون الذي ما زال يتعلّم منه الكثير. ولكن قبل أن تطرح الأشجار براعمها للمرّة الرابعة منذ لقائهما، كانت الحمّى البردائية قد جعلت أوتون كطيف يغالب الحياة، جرّاء أوجاع المفاصل والتهابات الشعب الهوائية، وبالطبع، جرّاء حصاة المثانة. أطبّاء كثر، من بينهم عرب ويهود، أي أفضل ما يمكن أن يوفّره إمبراطور مسيحي لأسقف، أنهكوا بالعلاج جسمه الذي صار واهنا مكسوّا بالعلق، ولكن - لأسباب عجز جهابذة العلم أولاء عن تفسيرها - بدت حاله، بعد أن صفّوا دمه كلّه تقريبا، أسوأ مما كانت عليه من قبل.

كان أوتون قد استدعى راهوين الى فراش احتضاره ليسرّ اليه بتتمة سرده لمآثر فردريك، قائلا انّ الأمر بسيط: فما عليه الا أن يسرد الوقائع وأن يضع على لسان الإمبراطور مقتطفات من نصوص قديمة. بعد ذلك استدعى اليه باودولينو. «Puer dilectissime، يا بنيّ الحبيب، قال له، اني مدبر، ويمكن القول أيضا اني مقبل، ولا أدري أي العبارتين أصوب، كما اني لا أدري يقينا أيّهما أصوب، سردي لخبر المدينتين أم سردي لمآثر فردريك...» (أنت تعلم يا سيّد نيسيتاس، ان حياة الفتى قد تتأثّر بالغ التأثّر باعتراف معلّم على فراش الموت ما عاد قادرا على التمييز بين حقيقتين.) «لا لأني مغتبط لادباري أو اقبالي، لكنّها مشيئة الله، وان سألت الله، عزّ وجلّ، عن مشيئته صعقت للتوّ، فالأحرى أن أغتنم الهنيهات المتبقيّة. اسمع. أنت تعلم اني حاولت أن أفسّر للإمبراطور وجهة نظر المدن التي تقع وراء جبال الألب البيرينية. ولا يملك الإمبراطور الا أن يسعى لاخضاعها لسيطرته، غير أن للاخضاع ألف طريقة، ولا شكّ في أننا قد نعثر على طريقة ما غير الحصار والقتل. عليك اذا، وأنت ابن تلك البقاع، وتلقى اذنا صاغية من قبل الإمبراطور، أن تبذل ما وسعك للتوفيق بين شروط مولانا ومطالب مدنك بحيث يزهق

العدد الأقلّ من أرواح الأهلين، وبحيث يحظى الجميع بمرادهم. ومن أجل ذلك عليك أن تحسن المحاججة والتفكير، وقد طلبت من الإمبراطور ايفادك الى باريس لطلب العلم فيها. لم أختر بولونيا، لأنّ فيها لا يعنون الا بتدريس القانون، ولا ينبغي لشاطر مثلك أن يحشر أنفه في مدوّنة القوانين، لأنّ القانون والكذب لا يتفقان. في باريس سوف تدرس البلاغة وسوف تقرأ الشعراء: البلاغة هي فنّ القول الحسن أي ما لا نعلم يقينا اذا كان حقّا، ومن واجب الشعراء أن يختلقوا الأكاذيب. بعد ذلك سيكون من المفيد أن تدرس شيئا من اللاهوت، ولكن من دون سعي لأن تصبح فقيها، لأنّ لا سبيل للخفّة في أمور الله القدير. اجعل انكبابك على التحصيل، يا بنيّ، فرضا كيما تحتلّ مكانة في مراتب البلاط، وسوف ترقى، بالتأكيد، الى منصب رفيع هو أرفع ما قد يصبو اليه ابن فلاح، ستكون بمثابة فارس نظير ما لا يحصى من النبلاء، فيمكنك أن تخدم أباك بالتنبّي على أكمل وجه. افعل كلّ هذا اكراما لذكراي، وليغفر لي يسوع ان كنت قد استخدمت، من دون قصد مني، عباراته.»

ثمّ أطلق حشرجة ولبث ساكنا بلا حراك. واذ همّ باودولينو بأن يطبق براحته أجفانه ظنّا منه أنه لفظ أنفاسه الأخيرة، عاود أوتون فجأة تحريك شفتيه هامسا، مستغلاّ بقية رمق واهن: «باودولينو، تذكّر دائما مملكة الراهب يوهانس، فوحده السعي للعثور عليها سوف يتيح لرايات المسيحية أن تصل الى ابعد من بيزنطه وأورشليم. لقد أصغيت اليك وأنت تختلق عدا من القصص التي صدّقها الإمبراطور. لذلك، ان لم يبلغك عن هذه المملكة أخبار أخرى، اختلقها. ولكن حذار، أنا لا أسألك أن تشهد على ما ترى أنه زور، فتلك تكون خطيئة، وانما أسألك أن تشهد زورا على ما تؤمن بأنه صحيح - وهذا صنيع فاضل لأنّه يعوّض غياب البراهين على أمر لا يرقى الشكّ الى وجوده أو الى أنّه وجد. أتوسّل اليك: من المؤكّد أن يوهانس موجود فيما وراء أرض الفرس والأرمن، فيما وراء بكتا وأكبتانا وبرسيبوليس وسوس وأربيل، وهو سليل المجوس... حثّ

فردريك على السير شرقا، لأنّ من هناك يشرق النور الذي سيجعله الأعظم بين الملوك قاطبة. . . أنقذ الإمبراطور من هذا المستنقع الممتدّ بين ميلانو وروما. . . فمن شأنه أن يبقى غارقا في وحله حتّى مماته. ليبق بعيدا عن مملكة يمسك بقيادها أيضا حبر أعظم. ففيها لن يكون سوى نصف إمبراطور. تذكّر يا باودولينو. . . الراهب يوهانس. . . طريق الشرق. . .

- ولكن لم، يا معلّمي، اخترتني، أنا، لتخبرني بكلّ هذا، وليس راهوين؟

- لأنّ راهوين لا يمتلك مخيّلة، ولا يقدر أن يسرد الا ما شهده، واحيانا لا يفلح حتّى في هذا لأنّه لا يدرك دائما حقيقة ما يشهد. بالمقابل أنت قادر على تخيّل ما لم تشهده. أواه، من أين حلّ علينا مثل هذا الظلام؟

فقال له باودولينو، وهو كذاب بفطرته، ألا يشغل باله، فانّما هذا الليل قد حلّ. عند انتصاف النهار، أطلق أوتون شخيرا من حنجرته وبقيت عيناه محملقتين جامدتين، كأنّه يرمق الراهب جان على عرشه. أطبق باودولينو براحته أجفانه؛ وجعل يبكي ذارفا دمعا حرّا عليه.

كان باودولينو المحزون لموت أوتون قد عاد للعيش، لبضعة أشهر، في بلاط فردريك. وكان يعزّي نفسه في البداية أنه بعودته الى البلاط فسوف يلتقي مجددا الإمبراطور، ولكنّه أيضا سيرى الإمبراطورة. التقاها مجددا، وزاد حزنه أضعافا. اذ ينبغي الا ننسى أن باودولينو أصبح في السادسة عشرة من عمره، وأن ما بدا في بادئ الأمر ناجما عن انفعال عابر، ما كان هو نفسه ليدرك من معناه الا القليل، قد أصبح في سنّه هذه رغبة واعية ولوعة تامّة.

ولكي لا يضنى مقيما في البلاط، كان يتبع فردريك في حملاته المتتالية، الأمر الذي أرغمه على أن يشهد من الحوادث ما لم يكن راغبا في شهوده. فقد دمّر الميلانيون لودي للمرّة الثانية، أي أنّهم عمدوا،

أولا، الى نهبها، وسلب كلّ بيت من بيوتها ما فيه من البهائم والشوفان والأثاث والأدوات، ثـمّ طردوا كـلّ أهـل الـمـديـنـة الـى خـارج الأسـوار متوعّدين بأنّهم ان لم يذهبوا الى الجحيم فسوف يعملون السيف في رقابهـم، نساء وشيوخا وأطفالا بمن فيهم الرضّع. لم يخلّف اللوديون وراءهم سوى كلابهم، وفروا جميعا عبر الحقول، سيرا على الأقدام، تحت المطر، وسادتهم أيضا، وقد سلبوا جيادهم، ونساؤهم حاملات صغارهنّ، متعثّرات في سيرهنّ أو متدحرجات في حفر لئيمة. ولجأوا الى بقعة بين نهري أدّا وسيريو، حيث أقاموا، بأعداد كبيرة، في بضعة أكواخ متداعية.

لكنّ ذلك لم يشف غليل الميلانيين الذين عادوا الى لودي وأسروا من تبقّى فيها من القلائل الذين رفضوا أن يغادروا ديارهم، وجزّوا الكروم والمزروعات وأشعلوا النيران في البيوت، وقتلوا أيضا من الكلاب عددا كبيرا.

مثل هذه الحوادث يضيق بها صدر الإمبراطور، ولذلك جرّد حملة جديدة على ايطاليا بجيش جلّ قوامه من البورغنديين وأهل اللوران والبوهيميين والمجريين والسوءاب والفرنكة وكلّ من قد يخطر ببال أحد. في البداية عمد الى تشييد لودي جديدة في مونتيغيتسوني، ثمّ أقام معسكره على أبواب ميلانو مستعينا بحماسة أهل بافيزان وكريمونيا وبيزا ولوكوا وفلورنسا وسيينّا وفيشنتا وتريفيزا وبادو وفيرارا ورافنينتا ومودينا... وسواهم، من المتحالفين مع الإمبراطور شريطة أن يعمل على اخضاع ميلانو.

وقد أخضعها بالفعل وأذلّها. اذ استسلمت المدينة في أواخر فصل الصيف. ولكي يتمكّن الميلانيون من انقاذ مدينتهم رضخوا لاجراء مهين، في نظر باودولينو برغم أنّه لا يمتّ اليهم بصلة. فقد أرغم المهزومون على ان يمرّوا في صفّ طويل بمنصّة سيّدهم، كمن يطلب الغفران، حفاة، مرتدين المسوح، والأسقف في عدادهم، فيما المسلّحون منهم

يحملون سيوفهم متدلية من أعناقهم. وعندها فقط بدا فردريك رحيما وحبا المهزومين بقبلة السلام.

«أكان الأمر يستحق كلّ هذا العناء، راح باودولينو يقول في سرّه، التمادي أوّلا في لعبة السيطرة على أهل لودي، ثمّ خفض الجناح، فيما بعد، حتّى المذلّة؟ وما جدوى العيش في هذه الأرض حيث نذر الجميع، على ما يبدو، أنفسهم للانتحار، وحيث يستعين البعض بالبعض للتذابح فيما بينهم؟ كم أودّ أن أرحل بعيدا من هنا.» والحقيقة أنّه كان يودّ أيضا أن يرحل بعيدا عن بياتريس لأنّه قرأ مؤخّرا، في كتاب ما، ان البعد قد يشفي أحيانا مرض الحبّ (وكان لم يقرأ بعد كتبا أخرى قد جاء فيها، على الضدّ من ذلك، أن البعد هو الذي يؤجّج نار الهوى). فسارع الى لقاء فردريك ليذكّره بوصيّة أوتون الذي نصح بايفاده الى باريس.

كان الإمبراطور حزينا، غاضبا، يذرع الحجرة جيئة وذهابا فيما انتحى رينالد دي داسيل ركنا بعيدا منها ريثما تهدأ ثورة غضبه. برهة ثمّ توقف فجأة، ونظر طويلا في عيني باودولينو ثمّ خاطبه قائلا: «أنت شاهد على ما يجري، يا بني، اني أبذل المستطاع لكي أجعل كلّ مدن ايطاليا خاضعة لشرعة واحدة، ولكنّي كلّما أفلحت في ذلك توجّب عليّ أن أتكبّد ذلك العناء من جديد فأعاود الكرّة. أتكون شرعتي هي الخاطئة؟ ومن يؤكّد لي أن شرعتي صائبة؟» فأجابه باودولينو توّا، كأنّه لم يمعن التفكير في ما يقول: «يا مولاي، اذا شرعت في اعتبار الأمور على هذا النحو، فانّك لن تصل الى نتيجة، في حين أن الإمبراطور موجود تحديدا لمثل هذا الغرض، فهو ليس إمبراطورا لأنّ الأفكار الصائبة تراوده، بل ان الأفكار صائبة لأنها صادرة عنه، وكفى.» رمقه فردريك طويلا ثم خاطب رينالد قائلا: «ان هذا الفتى ينطق بالأشياء أفضل مما تفعلون جميعا! فلو صيغت أقواله بلاتينية صحيحة لبدت مذهلة!

– Quod principi plaquit legis habit vigorem، مـا يـسـتـهـوي

الأمير له قوة القانون، قال رينالد دي داسيل. انّ ما يقوله يبدو حكيما وحاسما. ولكن يجب أن يكون مكتوبا في الانجيل والا كيف السبيل الى اقناع كلّ الناس بتقبّل هذه الفكرة الرائعة؟

– لقد شهدنا جميعا ما الذي جرى في روما، قال فردريك، فان قبلت ببركة البابا، أكون قد اعترفت، تلقائيا، بأنّ سلطته أرفع من سلطتي، وان أمسكت بالبابا من قذاله ورميته في التيبر صرت لعنة من لعنات الربّ أين مني المرحوم آتيلا. . . فبربّكم من أين لي بمن يقدر أن يعيّن لي حقوقي من دون أن يزعم بأنّه أرفع مرتبة مني؟ مثل هذا الشخص لا وجود له في العالم بأسره.

– ربّما لا وجود لمثل هذه السلطة، أجابه باودولينا قائلا، ولكنّ المعرفة موجودة.

– ماذا تقصد؟

– عندما حدّثني المعلّم أوتون عن «المدرسة» قال لي ان هذه الجماعات المؤلّفة من معلمين وتلامذة انّما تعمل لحسابها الخاص: فالتلامذة يتوافدون اليها من أرجاء العالم كلّه دونما اعتبار لملوكهم؛ هم يسدّدون نفقات دروسهم لمعلّميهم مباشرة فلا يرتهن هؤلاء لغير تلامذتهم. هكذا هي حال معلّمي القانون في بولونيا، كما هي الحال في باريس حيث كان المعلمون فيما مضى يدرّسون في مدرسة الكاتدرائية ويخضعون لسلطة الأسقف، ثمّ ذات يوم ذهبوا للتدريس على قمة جبل سانت جنفياف، ساعين لاكتشاف الحقيقة من دون الاصغاء لما يقوله الأسقف أو يقوله الملك.

– لو كنت أنا ملكهم لأذقتهم ما لم يعلموا. ولكن ماذا لو جرت الأمور على هذا النحو؟

– سوف تجرى الأمور على هذا النحو اذا أصدرت قانونا تعترف بموجبه بأنّ معلمي بولونيا مستقلّون فعلا عن أي سلطة من خارجهم، أي عن سلطتك أنت كما عن سلطة البابا وكلّ مليك آخر، وأنّهم فقط في

خدمة القانون. وما إن تعطى لهم هذه المرتبة الفريدة في العالم، يعمدون هم الى التأكيد - وفق ما يمليه العقل المنصف والعلم الطبيعي والأعراف - بأنّ الشرعة الوحيدة هي الشرعة الرومانية، وبأنّ من يمثّلها هو الإمبراطور الروماني المقدّس؛ وطبعا، كما قال السيّد النبيل رينالد، «ما يستهوي الملك له قوة القانون»

- ولم يناط بهم، هم، أن يعلنوا ذلك؟

- لأنّك أنت من يمنحهم الحقّ في اعلانه، وهذا ليس أمرا قليل الشأن. هكذا تكون قد نلت، أنت، ما تريد، وهم نالوا ما يريدون، وكما كان أبي غالياودو يقول، تكون أنت وهم في مأمن كأنّكم في برميل من حديد.

- لن يقبلوا بالاقدام على أمر مثل هذا، غمغم رينالد قائلا.

- بلى، خلافا لما تقول - وبدا وجه فردريك مشرقا - اؤكّد لك بأنهم سيقبلون. سوى أنهم ينبغي أن يبادروا أولا الى اعلان الأمر، وعلى الأثر أمنحهم استقلالهم، والا حسب الجميع أنّ اعلانهم هذا جاء مقابل هبة.

- برأيي أنه مهما طال الأخذ والردّ حول المسألة، فانّ من يبغي القول بأنّ الاعلان هو حصيلة تواطؤ، سوف يفعل بأية حال، قال باودولينو معلّقا ومتشكّكا. ولكني لا أعتقد أن هناك من سيجاهر بالقول انّ رأي علماء بولونيا باطل خصوصا بعدما قصدهم الإمبراطور بتواضع للوقوف على رأيهم. عندئذ لا شكّ عندي بأن كلامهم سيكون له وقع الانجيل.»

وهذا ما جرى بالفعل. ففي العام نفسه عقد في رونكاليا، ولأوّل مرّة، مجلس تشريعي واسع. ولكنّ المناسبة كانت في عيني باودولينو أشبه باحتفال مشهدي هائل. فقد شرح له راهوين - لكي لا يحسب ان كلّ ما يراه هو مجرّد سيرك براياته المصطفقة في الهواء، ولافتاته وخيمه الملوّنة وباعته ومشعبذيه - أنّ فردريك أمر بأن يقام ثانية، على احدى ضفتي نهر

البو، معسكر روماني نموذجي للتذكير بأنّ مكانته مستمدة من روما. في وسط المعسكر نصب الجناح الإمبراطوري، مثل هيكل، ومن حوله، على هيئة تاج، جعلت خيم أصحاب الاقطاعات والمقطعين والأتباع. على الجانب الذي أقام فيه فردريك اجتمع كلّ من رئيس أساقفة كولونيا، وأسقف بامبرغ، ودانيال دي براغ وكونراد دوغسبورغ، وآخرون كثر. على الجانب الآخر من النهر اجتمع كلّ من الكاردينال القاصد الرسولي، وبطريرك أكيليا ورئيس أساقفة ميلانو، وأساقفة تورينو وآلبا وايفري وآستيا ونوفاري وفركايل وتردونا وبافيا وكوما ولودي زكريمونيا وبليزانس وريغيو ومودينا وبولونيا. . . ومن عساه يذكر كلّ الآخرين. متصدّرا هذا المجلس المهيب والشامل حقّا، أمر فردريك بافتتاح المناقشات.

باختصار (قال باودولينو الذي كان يحرص على تجنيب نيسيتاس تحف الفصاحة الإمبراطورية والتشريعية واللاهوتية)، دعا الإمبراطور أربعة من علماء بولونيا، والأكثر شهرة من بينهم لكونهم تلامذة ايرنيريو الكبير، الى الادلاء برأي عقديّ لا يدحض بشأن سلطاته؛ فأدلى ثلاثة منهم، هم بولغارو وجاكوبو وأوغو دي بورتا رافينيانا، بآراء مطابقة لما يريده فردريك، أي الرأي القائل بأن حقوق الإمبراطور مستمدّة من القانون الروماني. ولكنّ المدعو مارتينو، وحده، خالفهم الرأي.

«وهو الذي أمر فردريك باقتلاع عينيه، قال نيسيتاس معقّبا.

- كلا، والف كلا، يا سيّد نيسيتاس، فأنتم معشر الرومانيين قد تقتلعون عيني بطرس وبولس وما عدتم تعلمون أين يكمن الحقّ؛ لقد نسيتم جوستنيانوس. على الأثر أصدر فريدريك قرارا تأسيسيا يعترف بوجبه باستقلال الجامعة البولونية، واذا كانت الجامعة تنعم بالاستقلال يحقّ لمارتينو أن يجاهر بما شاء ولن يستطيع أحد، حتّى الإمبراطور أن يمسّ شعرة من رأسه. فان مسّ أحد شعرة من رأسه فهذا يعني أن الجامعة لا تتمتع باستقلال ذاتي، واذا كانت الجامعة كذلك كان الرأي الذي أعلنته بلا قيمة، واذّاك يكون فردريك مغتصب سلطة.»

عظيم، قال نيسيتاس في قرارة نفسه، ان السيد باودولينو، يودّ الايحاء بأنّه هو من أسّس الإمبراطورية، وبأنه - لا يكاد ينطق بعبارة ما، مهما كانت - حتّى تستحيل حقيقة، ومن هنا ينبع سلطانه. فلنصغ الى التتمة.

في تلك الأثناء دخل الجنويون محمّلين بسلال الفاكهة، لأنّ نيسيتاس يحبّ أن يجدد قواه عند منتصف النهار بتناوله بعض الفاكهة. أخبرهما الجنويون بأنّ عمليات السلب والنهب مستمرة في المدينة، وأنّه من الأفضل أن يبقوا جميعا حيث هم. فاستأنف باودولينو روايته.

كان فردريك قد اتخذ قراره: اذا كان حدثا في مثل سنّه، شبه أمرد بعد، ويدرس على يد أحمق مثل راهوين، يستطيع أن يستنبط مثيل تلك الأفكار الصائبة، فكيف اذا أوفدته للدراسة في باريس. كان قد قبّله بحنوّ، بعد أن أوصاه بأن يصبح عالما بحقّ، نظرا لكونه، هو، أخفق في ايجاد متسع من الوقت لتثقيف نفسه كما ينبغي، لانهماكات الحكم الكثيرة والحملات العسكرية المتكرّرة. أمّا الإمبراطورة فقد ودّعته بقبلة على جبينه (فلنتخيّل، بالتالي، حال الاغماء التي ألمت بباودولينو) وقالت له (هذه المرأة المذهلة؛ فبرغم كونها سيّدة فاضلة وملكة، انها تجيد القراءة والكتابة): «كاتبني لتخبرني ماذا يحلّ بكّ وماذا تفعل. ان الحياة في القصر رتيبة ومملّة. فرسائلك سوف تكون عزاء لي.

- أقسم بأني سأكتب لك»، قال باودولينو بلهفة كان من شأنها أن توقظ الارتياب في روع الحاضرين. لكنّ الريبة لم تساور أحدا (فمن ذا الذي سيلتفت الى انفعال حدث على أهبة السفر الى باريس؟)، باستثناء بياتريس ربّما. فقد رمقته، بالفعل، بنظرات كأنّها تراه للمرة الأولى، ولم يلبث وجهها الناصع أن أكتسى بحمرة مفاجئة. ولكنّ باودولينو كان قد انحنى في الأثناء وغادر الردهة مطرقا فلم تلحظ عيناه شيئا مما جرى.

6

باودولينو يذهب الى باريس

كان باودولينو قد وصل الى باريس متأخرا بعض الشيء، لأنّ ارتياد تلك المدارس، كما جرت العادة، يبدأ من سنّ الرابعة عشرة، وكان هو قد تجاوزها منذ عامين. غير أن ما درسه على أوتون كان يتيح له الا يتابع الدروس كلّها ما أفسح أمامه في المجال للانكباب على أمور أخرى، كما سنرى.

كان لباودولينو رفيق في سفره هو ابن فارس من كولونيا آثر امتهان الصنائع الشريفة بدلاً من الجيش برغم معارضة والده الشديدة، لكنّه حظي بتأييد والدته التي طالما امتدحت مواهبه المبكّرة كشاعر، حتّى أن باودولينو كان ينسى اسمه، هذا اذا كان عرفه ذات يوم. كان يسمّيه الشاعر، وما لبث أن شاع لقبه هذا بين الذين عرفوه فيما بعد. لكن، سرعان ما أدرك باودولينو بأنّ الشاعر لم ينظم، من قبل، ولو قصيدة واحدة، بل كان يكتفي بالقول إنّه سينظم واحدة. ولمّا كان لا يكفّ عن تلاوة قصائد الآخرين، اقتنع والده أخيرا أنه من المستحسن أن يدع ابنه هائما اثر ربّات الشعر، وأذن له بالسفر مزوّدا ايّاه بما يعينه، بالكاد، على عيش كفاف، ظنّا منه، على خطأ بالطبع، ان القليل الذي يكفي للعيش في كولونيا هو أكثر من كاف للعيش في باريس.

لم يكن لباودولينو فور وصوله الا شاغل وحيد: الامتثال لمشيئة

الإمبراطورة، فحرّر لها عددا من الرسائل. حسب في البداية أنّه بامتثاله لطلبها هذا، انّما يسكّن أشواقه، لكنّه سرعان ما أدرك كم هو شاق أن يكتب لها من دون أن يبوح لها بما يعتمل، حقا، في نفسه، مرغما على تحرير رسائل خالية من أي هوى وفيها الكثير من المجاملة: كان في رسائله يصف باريس، المدينة الغنية بكنائسها الجميلة، حيث ينعم المرء بهواء منعش تحت سماء شاسعة صافية، الا حين تمطر وهو أمر لا يحدث الا مرّة أو اثنتين في اليوم الواحد، لكنّها، في نظر الوافد اليها من بلاد الضباب شبه الدائم، تعتبر مدينة الربيع السرمدي. فيها نهر متعرّج المجرى وجزيرتان في وسطه، والمياه عذبة صالحة للشرب، أمّا خارج أسوارها فتترامى مساحات شذية كتلك المرجة بجوار دير السان جرمان حيث يمكن للمرء أن يقضي ساعات رائعة وهو يلعب الكرة في فترات ما بعد الظهر.

كتب لها عن المشقّات التي تكبّدها في أيام اقامته الأولى، فقد كان عليه أن يعثر على غرفة لسكنه مع رفيقه من دون التعرّض لابتزاز المالك. لكنه اهتدى اخيرا، وبسعر مرتفع جدّا، الى حجرة فسيحة بعض الشيء، فيها طاوله ومقعدان ورفّان للكتب وصندوق للملابس؛ كما فيها سرير مرتفع عليه لحاف من ريش النعام، وآخر وطيء بدواليب صغيرة وعليه لحاف من ريش الأوز ويمكن اخفاؤه، خلال النهار، تحت السرير الأوّل. لكنّه لم يذكر في رسالته أنّه تمّ الاتفاق، بعد خلاف وجيز على كيفية توزيع السريرين، أن يتبارى شريكا السكن، كلّ مساء، بلعبة الشطرنج لكي يعرف من منهما سيحظى بالسرير الوثير؛ لكنّه أحجم عن ذكر ذلك لأنّ أوساط البلاط ترى أن لعبة الشطرنج لعبة غير مستحبّة.

في رسالة أخرى حكى لها أنّه يستيقظ باكرا عند الصباح لأنّ الدروس تبدأ عند السابعة ولا تنتهي الا قبيل المساء. وجرت العادة أن يتزوّد التلاميذ بجراية لا بأس بها من الخبز وملء جفنة من النبيذ للاستعانة بها على مكابدة الاصغاء الى المعلّمين في ما يشبه الاسطبل حيث يقتعدون حفنة من الجفيف والبرد أشدّ مما هو عليه في الخارج. تأثّرت بياتريس لما

بلغها من حاله وأوصته بألاّ يفرط في احتساء النبيذ لأنّ من شأن ذلك أن يحرف مزاجه طيلة النهار؛ كما أوصته باستئجار خادم ليس فقط لكي يحمل كتبه، وهي ثقيلة جدا وحملها بنفسه أمر لا يليق بشخص في مثل مكانته، بل أيضا لكي يبتاع الحطب ويوقد المدفأة خلال النهار بحيث تكون الحجرة دافئة مع حلول المساء. أمّا التكاليف فلا داعي للقلق بشأنها لأنّها بعثت له أربعين صولا سوسيا، أي ما يفي بشراء ثور.

لم يستأجر الخادم، ولم يوفّر الحطب لأنّ اللحافَيْن كانا أكثر من كافيين لبرد الليل، وأنفق النقود لاحتياجات أخرى، نظرا لأنّ الليل كان يقضيه في الخمّارات التي كانت مزوّدة بتدفئة حسنة وتعين المرء على استدراك ما بذل من الطاقة طوال يوم من التحصيل وهو يداعب مؤخّرات النادلات. كما أنّ المرء يستطيع، في مثل تلك الأماكن المختصّة بتقديم الوجبات المبهجة، كالأيكودارجان أو لاكروا ديفير أو أوترواكانديرال، أن يتغذّى، بين جفنتي النبيذ و الجفنتين التاليتين، بعصيدة الخنزير أو الدجاج، بزوج من الحمام أو بأوزة مشوية، وفي حال ضيق اليد، بطبق من الكرش أو لحم الضأن. وكان باودولينو يحرص على أن لا يعتاش الشاعر، المفلس، على طبق الكرش وحده. غير أن الشاعر كان صديقا مكلفا لأنّ كمية النبيذ التي يحتسيها قد أصابت ثور سوس بالهزال.

بعد أن أغفل باودولينو ذِكْر كلّ هذه التفاصيل، انتقل الى الحديث عن معلّميه الجدد والأمور الجميلة التي يتعلّمها. وكانت بياتريس شغوفة بتلك الأخبار التي كانت تستجيب لتوقها الى المعرفة، فكانت تقرأ مرارا وتكرارا الرسائل التي يتحدّث فيها عن النحو والجدل والبلاغة والحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك. غير أنّ شعور باودولينو بأنه جبان كان يزداد مع مرور الوقت لأنّه يكتم عنها ما يعتمل حقّا في قلبه كما يكتم عنها كلّ ما يفعله خارج أوقات الدرس من أمور لا يمكن البوح بها لا لأمّ ولا لأخت ولا لإمبراطورة، فكيف الى امرأة يعشقها.

من بين الأمور المذكورة تأتي، أوّلا، مزاولة الكرة، بالتأكيد، ولكن

أيضا ما يتبعها من عراك بالأيدي مع نزلاء دير سان جرمان، أو بين تلاميذ من أصول مختلفة، مثلا عراك أهل بيكار مع النورمانديين، وكان يحرص من قبل الجميع أن يتمّ تبادل الشتائم باللاتينية لكي يفهم كلّ معنيّ الشتيمة الموجهة اليه. وما كان ذلك ليلقى استحسان الحاكم العام الذي يسارع الى ايفاد قوّاسيه لمكافحة أعمال الشغب. ولا حاجة هنا الى القول انّ الطلاب كانوا يتناسون عندئذ انقساماتهم ويجتمعون على التصدّي للقوّاسين.

لم يكن بين الأنام قاطبة من هم أكثر فسادا من قوّاسي الحاكم العام: لذا ففي حال اعتقالهم أيّا من التلاميذ كان على رفاقه أن يبذلوا من نقودهم رشوة لاطلاق سراحه. الأمر الذي كان يضاعف الأكلاف المترتبة على الملذّات الباريسية.

وفي المرتبة الثانية يأتي تعرّض التلميذ الذي لم تؤثر عنه تجاربه الغرامية لسخرية رفاقه. والمؤسف أنّ أبعد الأمور نوالا بالنسبة لتلميذ هي النساء. كان من النادر جدا أن تصادف تلميذة، وكانت لا تزال رائجة تلك الأساطير التي نسجت حول الويز الحسناء التي تسبّبت بفقد حبيبها أعضاءه الحميمة، وان كان ما قد يؤخذ على تلميذ، سيئ السمعة وغير مأخوذ بالشدّة تعريفا، لا يضاهي ما تعرّض له معلّم مثل أبيلار العظيم والتعس الحظ. أمّا الغرام المرتزق فمن غير المتاح فيه أي استزادة على السجية لأنّه باهظ الثمن، لذا كان السعي الحثيث وراء المكتنزات من نادلات النزل، أو وراء فتاة من عامّة أهل الناحية، سوى أن الناحية كانت دائما تعجّ بالتلاميذ أكثر منها بالفتيات.

الا اذا قيض التسكّع، بعدم اكتراث ظاهر ونظرات سوقية، في نواحي جزيرة لاسيتيه، وأمكن اغواء السيّدات الميسورات. كانت المشتهيات من بينهنّ زوجات جزّاري لاغريف، أولاء الذين كفّوا عن التعاطي بالذبائح، بعد سنوات طويلة من مزاولتهم المشرّفة للمهنة، وسيطروا على سوق اللحم وباتوا يتصرّفون كسادة. بازاء أزواج فطروا على معالجة شقاق

اللحم البقري، ولم يحظوا برغد العيش الا في سنّ متقدّمة، كانت الزوجات ضعيفات حيال فتنة التلاميذ وحسن مظهرهم. غير أنّ أولئك النساء كنّ يرتدين فساتين باذخة مزيّنة بالفراء، وأحزمة من الفضّة، والحليّ، ما يجعل التمييز شاقًا، للوهلة الأولى، بينهن وبين البغايا المترفات اللواتي كنّ، برغم المحظور الذي ينصّ عليه القانون، يرتدين أزياء مماثلة. وهو الأمر الذي كان يوقع التلاميذ، أحيانا، في مواقف حرجة وما كان يجلب لهم سخرية رفاقهم.

أمّا اذا قيض لأحد أن يفوز بسيّدة حرّة أو، لحسن طالعه، بفتاة، فلن يلبث الآباء والأزواج أن يتنبّهوا الى الأمر عاجلا أو آجلا، ويصبح العراك، اذا أغفلنا اللجوء الى السلاح، أمرا لا مفرّ منه، وتكون الحصيلة قتيلا أو جريحا، هو في الأغلب الأب أو الزوج، ويصير حتما على المعنيّ أن يؤدي الحساب أمام قوّاسي الحاكم العام. باودولينو لم يقتل أحدا، ويحرص، في العادة، على البقاء بمنأى عن الشجارات، لكنّه ابتلي بواقعة مع أحد الأزواج (وجزّار، للمناسبة). فعندما دخل الزوج الى الحجرة شاهرا خطّافه الذي به يعلّق الذبائح، هرع صاحبنا، باودولينو، الجسور في الغرام والمنكفئ في العراك، محاولا القفز من النافذة. غير أنّه في تريّثه لقياس علوّ المكان بحساب دقيق، تلقّى على خدّه ندبة سوف تعتلم وجهه الى الأبد بأثر يليق بالمحاربين.

الى ذلك فانّ الفوز بفتيات من عامة الشعب لم يكن، هو أيضا، بالأمر اليسير، فقد كان يتطلّب ساعات طويلة من الرصد (على حساب الدروس) وأيّاما بطولها من التلصّص عبر النافذة، وهذه مجلبة للملل. لذا، كان التخلّي عن أحلام الغواية هو الأغلب فينصرف المعني الى دلق المياه على المارة أو رمي النساء بالحمّص اليابس بواسطة أنبوبة، أو يعمد الى اللحاق بالمعلّمين المارين من هناك هازئا بهم وان غضبوا لحقوا بهم زرافات الى عتبات بيوتهم، راشقين نوافذهم بالحصى، لأنّ التلاميذ كانوا، بأية حال، هم الذين يبذلون النقود، مما يمنحهم بعض الحقوق.

على ذلك النحو أسرّ باودولينو الى نيسيتاس بما أخفاه عن بياتريس، أي باختصار كيف كان يحيا تحوّله الى واحد من أولئك المثقفين الذين يدرسون الصنائع الحرّة في باريس أو الحقوق في بولونيا أو الطبّ في ساليرنيا أو السحر في توليدو، لكنّهم في هذه كلّها لا يتلقنون حسن السلوك والسيرة. وما كان نيسيتاس ليدري حقا، اذا كان ينبغي له أن يكون حانقا أو مندهشا أو مستحسنا. فليس في بيزنطه سوى مدارس خاصّة لأبناء الأسر الميسورة، حيث يلقّنون، منذ نعومة أظفارهم، قواعد اللغة، وحيث يقرأون المؤلّفات الدينية وأبرز مصنّفات الثقافة الكلاسيكية؛ بعد سنّ الحادية عشرة، يلقّنون الشعر وعلوم البلاغة وأساليب الانشاء التي تحاكي النماذج الأدبية المشهورة لدى القدماء: وكلّما كانت التعابير المستعملة نادرة، وكلّما زاد تعقيد التراكيب النحوية، صار التلميذ أكثر استعدادا لمستقبل زاهر في الديوانية الإمبراطورية. ولكن، بعد ذلك، امّا يصبح التلميذ عالما في أحد الأديرة، وامّا ينكبّ على تحصيل علوم أخرى كالقانون وعلم الفلك على معلّمين خاصّين. وبرغم ذلك يدرسون بجدّ، في حين أن جمهور التلامذة في باريس كان منكبّا، فيما يبدو، على كلّ شيء الاّ الدرس.

قاطعه باودولينو مصوّبا: «في باريس، كنّا ندرس بجد. مثلا، بعد السنوات الأولى، كانت تتاح لنا المشاركة في المجادلات، وبالمجادلة نتعلّم طرح الاعتراضات ومنها الانتقال الى التعيين، أي الى الحلّ النهائي للمسألة. هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فمن الخطأ الاعتقاد بأنّ الدروس هي الأهمّ بالنسبة للتلميذ، أو أن الخمارة هي المكان الذي يهدر المرء فيه وقته. انّ أحسن المدارس هي أن تتعلّم، بالتأكيد، على يد أساتذة، ولكن أيضا، وأكثر ربّما، بمعية رفاق، خصوصا من يكبرك منهم سنّا، عندما يحكون لك ماذا قرأوا فتكتشف أن العالم يجب أن يكون زاخرا بأمور مذهلة وأنّك لكي تعرفها كلّها، ولأنّ حياتك لن تكفي لتجوب العالم بأسره، لم يبق الا أن تقرأ كلّ الكتب.»

كان باودولينو قد قرأ كثيرا من الكتب في فترة درسه على أوتون، لكنّه ما كان ليتخيّل أنّ في العالم كتبا بمقدار ما تحتويه باريس منها. ولم تكن هذه بمتناول الجميع، غير أن حسن الطالع، أي حسن مواظبته على ارتياد الدروس، جعله يلتقي عبدول.

«لكي أوضّح الصلة بين عبدول والمكتبات، سيتوجّب عليّ أن أرجع قليلا الى الوراء، يا سيّد نيسيتاس. اذا، بينما كنت أتابع درسا من الدروس، منكبّا على النفخ على أصابعي كيما تدفأ، وعجيزتي مقرسة لفرط ما لسعها البرد لأنّ الجفيف لا يكفي لعزل الأرضية، مجمّدا كما كانت باريس كلّها في أيام الشتاء تلك، لاحظت، ذات صباح، صبيا بقربي، تدلّ سمرة سحنته على أنّه مشرقي، سوى أن صهبة شعره لا تمتّ بصلة الى مظهر المسلمين. لم أكن موقنا مما اذا كان منتبها الى الدرس أم مستغرقا في أفكاره، غير أنّه بدا ساهيا شارد الذهن. وكان، بين الفينة والفينة، يقفّ مرتعدا متلحّفا بثيابه، ثمّ يعود الى سهوه، وأحيانا يخطّ أشكالا على لوحه. مطّطت عنقي لاستراق نظرة عليه فلاحظت أنّه خطّ، على معظم اللوح، ونيم الذباب الذي يسمّى حروفا عربية، أمّا الباقي فسوّده بلغة شبيهة باللاتينية لكنّها ليست لاتينية ذكّرتني بلهجات بلادي. باختصار، اغتنمت انتهاء الدرس للتحدّث اليه، وبدا ودودا باستجابته كأنّه كان يصبو، منذ وقت طويل، الى العثور على من يتحدّث اليه؛ سرعان ما توطّدت صداقة بيننا ورحنا نتنزّه على طول ضفّة النهر، وجعل يحكي لي قصّته.»

كان الفتى يدعى عبدول، كما يتسمّى المسلمون تماما، سوى أنّه مولود لأمّ متحدّرة من بلاد الشتاء الطويل، ايبيرنيا، وهذا ما يفسّر صهبة شعره لأنّ كلّ المتحدرين من تلك الجزيرة لهم سمات مماثلة؛ كما يؤثر عنهم أنّهم غريبو الأطوار وحالمون. والده كان بروفانسيا ومن أسرة

استقرّت فيما وراء البحار بعد غزو القدس، أي منذ أكثر من خمسين عاما. فبحسب عبدول الذي حاول تفسير ما جرى، كان أولئك الفرنكة الذين أقاموا في ممالك ما وراء البحار أن يتآلفوا مع عادات الشعوب التي غزوها، فكانوا يرتدون العمامات وغيرها من الأزياء التركية، ويتكلّمون لغة أعدائهم، حتّى كادوا يتبعون تعاليم القرآن. وهذا ما جعل ايبيرنيا (أو نصفه على الأقل) مثله، يولد بشعر أصهب، واسمه عبدول، وبسحنة ملوّحة بشمس سوريا حيث رأى النور. كان يفكّر بالعربية ويروي بالبروفانسية أخبار الأسر العريقة في بحار الشمال المجمّدة التي حكتها له أمّه.

لم يلبث باودولينو أن سأله عمّا اذا كان قد جاء الى باريس ليغدو، من جديد، مسيحيا صالحا فيتحدّث كما يأكل، أي بلاتينية صحيحة. بقي عبدول متكتّما بعض الشيء حول أسباب مجيئه الى باريس. كان يتحدّث عن أمر خبره، مقلق على ما يبدو، كأنّه اختبار فظيع خضع له في صغره، ما حدا بوالديه ابعاده الى باريس لتجنيبه انتقاما لا أحد يدري ما هو. كانت سحنة عبدول تكفهرّ كلّما أوغل في سرده، ويحتقن وجهه ما أمكن لوجه مشرقي أن يحتقن، وتسري الرعدة في يديه، ما حدا بباودولينو الى متابعة الحديث عن أمور أخرى.

كان الفتى على قدر من النباهة؛ فبمضيّ بضعة شهور على اقامته في باريس أتقن التحدّث باللاتينية كما باللغة السوقية الدارجة. وكان يقيم لدى أحد أعمامه، وهو راهب قانوني في دير سان فيكتور، أحد معاقل المعرفة في المدينة (وفي العالم المسيحي قاطبة، بالتأكيد) الذي يشتمل على مكتبة أغنى من مكتبة الاسكندرية. هكذا يتضح كيف تمكّن باودولينو أيضا والشاعر، وبفضل عبدول، من بلوغ هيكل المعرفة الكونية ذاك.

سأل باودولينو عبدول عمّا كان يدوّنه في أثناء الدرس، فأخبره رفيقه بأن الملاحظات التي دوّنها بالعربية تتصل بأمور قالها المعلّم حول الجدل، لأنّ العربية هي، بالتأكيد، أكثر اللغات مراسا بالفلسفة. أمّا البقية فدوّنها

بالبروفانسية ولا يرغب في الحديث عنها، وحاول التملّص من الاجابة مرارا، ولكن على غرار من تطلب عيناه أن يلحّ السائل بسؤاله، وفي آخر الأمر رضخ وراح يترجم. كانت أبياتا من الشعر بما معناه: Amors de terra lonhdana -- Pers vos totz lo cors mi dol...، «أنّى اتجه بي الحبّ العذب، أفي مرجة أو تحت فيء خيام، أواه يا غريبتي، أواه يا صحبتي.»

«أتنظم شعرا؟ سأل باودولينو.

- بل أنشد أغاني. أنشد ما أعاني. اني أشق أميرة بعيدة.

- أميرة؟ من هي؟

- لا أدري. لقد أبصرتها - أو الأحرى لم أبصرها حقا، بل كأني أبصرتها - عندما كنت سجينا في الأراضي المقدسة... أي باختصار، عندما كنت أعيش تجربة لم أحدّثك عنها بعد. شغفها قلبي، ونذرت لتلك السيّدة حبّا سرمديا. كرّست لها حياتي. ربّما سألتقيها مجددا ذات يوم، ولكنّي أخشى أن يحين ذاك اليوم. فجميل جدا أن يسقمك حبّ مستحيل.»

كاد باودولينو يصيح به قائلا: هنيئا لك أيّها الشحرور، كما كان يقول أبوه، لكنّه سرعان ما انتبه الى أنّه هو أيضا يعاني سقام حبّ مستحيل (وان كان، فيما يعنيه هو، قد أبصر بياتريس، وصورتها لا تفارق خياله)، فشعر بتعاطف كبير حيال معاناة عبدول.

على مثل ما سبق تقوم الصداقات الحقّة. في مساء اليوم نفسه، جاء عبدول الى حجرة باودولينو والشاعر حاملا آلة لم يسبق لباودولينو أن رأى مثلها من قبل؛ كانت على هيئة ثمرة لوز شدّت عليها أوتار عديدة؛ وراح يداعب هذه الأوتار بأصابعه منشدا:

«عندما من الينبوع ينطلق

النشيد للقاء الربيع،

وتشرق زهرة النسرين،
وعندما العندليب على الغصين
يلطّف ويجمل ويدوزن
تغريده العذب، يأذن الوقت
لكي أدوزن، بدوري، انشادي

أيا عشق البقاع النائية
لأجلك ينتحب فؤادي؛
عبثا أبحث عن دواء
ما لم أحظ منك بالتجاء
أنّى اتجه بي الحبّ العذب
أفي مرجة أم تحت فيء خيام
بصحبة من أتوق اليها

ما دمت لم أحظ بالوصال
فمن قد يعجب لحالي
لأنّ ما ألمّ بي -
بمشيئة الربّ -
لم يلمّ لا بمسيحي
ولا بيهودي أو بمسلم؛
دائما كأنّ طعامه المنّ
من يظفر بشارة من حبّه.

أبدا يصبو فؤادي
الى من أحبّ بين الأنام؛

واذا كنت أرىٰ أنّ نيل المراد اغترار،
والتوق أشهى من بعيد،
فلأنّ أشقى الألم
ألم يداوى بالفرح؛
فلأدع عنّي الشكوى اذا.»

كان اللحن عذبا، والنغمات توقظ الأهواء المجهولة أو المستكينة، فتذكّر باودولينو بياتريس.

«بحقّ يسوع الربّ، صاح الشاعر قائلا، لم لا أستطيع، أنا، أن أنظم أبياتا بمثل هذه الروعة؟

– لا أريد أن أصير شاعرا. اني أنشد لنفسي، لا أكثر. وان شئت أهديتك هذه الأبيات، أجابه عبدول مشفقا.

– من المؤكّد، أجابه الشاعر، أنني لو ترجمتها من البروفانسية الى الجرمانية، لاستحالت هراء...»

كان عبدول قد أصبح ثالث تلك الصحبة، وعندما أفلح باودولينو في تبديد صورة بياتريس من ذهنه، تناول ذلك العربي اللعين ذو الشعر الأصهب آلته وجعل ينشد من الأغاني ما يؤجّج اللوعة في قلب باودولينو:

«عندما يبذل العندليب بين الأياك
حبّا، نسأل ونُعطى،
وعندما يصدح بتغريد البهجة والفرح
ويشمل معشوقته بنظرات وداد،
وعندما تكون السواقي صافية والمروج ضاحكة
بالحبور السيّد،
يفعم قلبي بالغبطة.

اني راغب في صحبة،

وليس عندي أغلى
هي مرامي والمبتغى
لأنّها رشيقة، مشيقة القوام،
ولا ما يفسد حسنها
وهواها ألذّ الأطايب وأعذبها.»

كان باودولينو يردّد، في قرارة نفسه، أنّه ذات يوم سينظم، هو أيضا، أغاني لأجل الإمبراطورة البعيدة، لكنّه ما كان يدري كيف تنظم الأغاني لأنّه لم يسمع يوما ذكر الشعر لا على لسان أوتون ولا على لسان راهوين، ما عدا تلقينه بعض الأناشيد الدينية. غير أنّه اكتفى من عبدول، في تلك الآونة، بأن يسهّل له ارتياد مكتبة سان فيكتور، حيث كان يقضي، عوض ارتياده الدروس، ساعات طويلة، كلّ صباح، منكبّا بنهم، مفترّ الشفتين، على قراءة النصوص المذهلة، لا مصنّفات النحو، بل أخبار بلّينوس، وقصّة الاسكندر، وجغافية سولينوس والاشتقاقات لايزيدوروس...

كان يقرأ أخبارا عن الأراضي النائية حيث تحيا التماسيح والثعابين المائية الضخمة التي، بعد التهامها البشر، تبكي وتحرّك فكّها الأعلى، والتي ليس لها لسان؛ وحيث عجول النهر، نصفها آدمية ونصفها حصان؛ والحيوان الغول، جذع حمار ومؤخّر أيّل، ونحر الأسد ووركيه، وقوائم حصان، وقرن مفلوق وفم مشقوق حتّى الأذنين يصدر عنه صوت شبه آدمي، وعوض الأسنان عظم وحيد. كان يقرأ أخبار بلاد يحيا فيها بشر بلا مفصل عند الركبة؛ بشر من دون لسان؛ بشر بآذان ضخمة يلتحفون بها اتقاء للبرد؛ وذوو الورك الوحيدة يتراكضون على ساق واحدة.

بما أنّه لم يكن بمستطاعه أن يبعث لها بأغنيات ليست من نظمه (وحتّى لو نظمها لما تجرّأ أيضا)، عقد العزم على أن يهديها، بدل الورود

والحليّ التي يبعث بها عادة الى الحبيبة، كلّ تلك الأعاجيب التي قرأ عنها كأنّه حقّا رآها. هكذا حدّثها عن أصقاع تنبت فيها أشجار الدقيق والعسل، وعن جبل أرارات الذي من قمّته يستطيع المرء أن يرى، أيّام الصحو، سفينة نوح، ومن بلغوا القمّة يزعمون أنهم لمسوا باصبعهم الثقب الذي فرّ منه الشيطان عندما تلا نوح صلاة المائدة. وحكى لها عن ألبانيا حيث الناس أشدّ بياضا من سواهم ولهم شعر قليل حتّى أن شاربي أحدهم كشاربي القط؛ وعن بلد اذا وقف فيه أحد قبالة الشرق وجد ظلّه عن يمينه؛ وعن آخر يقطنه أناس مفرطون في الضراوة، حيث يعلنون الحداد اذا أنجبت النساء أطفالا، ويقيمون الاحتفالات اذا ماتوا؛ وعن بقاع تنتصب فيها جبال شاهقة من الذهب تحرسها نمال حجم احداها بمثل حجم كلب، وحيث تحيا الأمازونيّات، النساء المحاربات اللواتي يبقين الرجال منفيين في المنطقة الحدودية، واذا انجبت احداهن مولودا ذكرا ألحق بأبيه أو قتل، واذا أنجبت مولودا أنثى يبترن بنصل محمّى ثديها الأيسر اذا كانت من أسرة نبيلة، كي يتاح لها أن ترتدي المجنّ، والأيمن اذا كانت من العامّة كي يتاح لها أن ترمي بالقوس. وأخيرا حكى لها عن النيل، أحد الأنهر الأربعة التي تنبع من جبل الفردوس الأرضي: فمجراه يعبر صحارى الهند، ويغوص في باطن الأرض، ثمّ ينبجس عند سفح جبل الأطلس، ثمّ يصبّ في البحر بعد أن يعبر مصر.

ولكن عند ذكره الهند، كاد باودولينو ينسى بياتريس تماما، وانهمكت نفسه بتخيّلات أخرى، لأنّه كان قد أقنع نفسه أنّ هناك تقع، اذا قيض لها أن توجد حقّا، مملكة الراهب يوهانس الذي حدّثه عنها أوتون. لم يكفّ باودولينو لحظة واحدة عن التفكير بيوهانّس: كان يذكره كلّما قرأ خبرا عن بلد مجهول، ويجاوز الأمر مجرّد التفكير اذا شاهد على رقّ منمنمات ملّونة لكائنات غريبة، كالآدميين ذوي القرون، أو أقزام البيغميه الذين يصرفون أعمارهم في قتالهم ضدّ طيور الكركيّ. كان الأب جان لا يفارق تفكيره بحيث بات يحدّث نفسه عنه كما لو أنه صديق العائلة. ولذا كان

العثور على المكان الذي يقيم مسألة حاسمة بالنسبة له، وان لم يكن حقّا في أي مكان، كان ينبغي اختلاق هند ما يكون مقيما فيها، لأنّه يشعر بأنّه قطع على نفسه عهدا (وهو عهد لم يقطعه في الحقيقة) أمام الأسقف العزيز على فراش موته.

عن الراهب المذكور كان تحدّث أيضا الى رفيقيه اللذين سرعان ما راقتهما اللعبة، فراحا ينقلان الى باودولينو كلّ ذكر مبهم أو خبر غريب قد يتّصل، ولو من بعيد، ببخور الهند، خلال قراءاتهم في المخطوطات. وراودت عبدول خاطرة بأنّ أميرته البعيدة، اذا كان لا بد لها أن تكون بعيدة، فينبغي أن تخفي روعتها أبعد البلدان الممكنة.

«حسنا، أجاب باودولينو، ولكن أيّ درب نسلك للذهاب الى الهند؟ الأرجح أنها ليست بعيدة عن الفردوس الأرضي، أي أنها ليست بعيدة عن الشرق، هناك حيث تنتهي اليابسة ويبدأ الأوقيانوس...»

لم يكن باودولينو قد بدأ دروس علم الفلك ولم تكن لديه سوى أفكار مشوّشة حول شكل الأرض. من جهته، كان الشاعر مقتنعا بأنّها مساحة شاسعة منبسطة وعند نهايتها تتساقط مياه الأوقيانوس ولكنّ الله وحده يعلم الى أين. مع أن راهوين كان قد أخبر باودولينو - وان أبقى قوله مشوبا ببعض الريب - أنّ ليس كبار الفلاسفة القدماء، أو بطليمس أبو علماء الفلك وحسب، بل ومعهم القديس ايزيدوروس، قد أكّدوا أن الأرض كروية الشكل، لا بل ذهب ايزيدوروس في يقينه المسيحي من ذلك الى حدّ تعيين مقاييس خطّ الاستواء بثمانين ألف غلوة. هذا علما بأنّ بعض آباء الكنيسة، ومنهم لاكتانس الكبير، قال راهوين مضيفا على سبيل التحوّط، قد ذكروا بأنّ الأرض، بحسب ما ذكر في التوراة، أشبه بالمشكاة فوجب أن ترى السماء والأرض على شاكلة قوس، أو على شاكلة هيكل بقبّته الجميلة ورصفه، أو كعلبة هائلة الحجم، ولكن ليس ككرة بأية حال. كان راهوين، بأمانته للحذر الذي أثر عنه، يميل الى قول

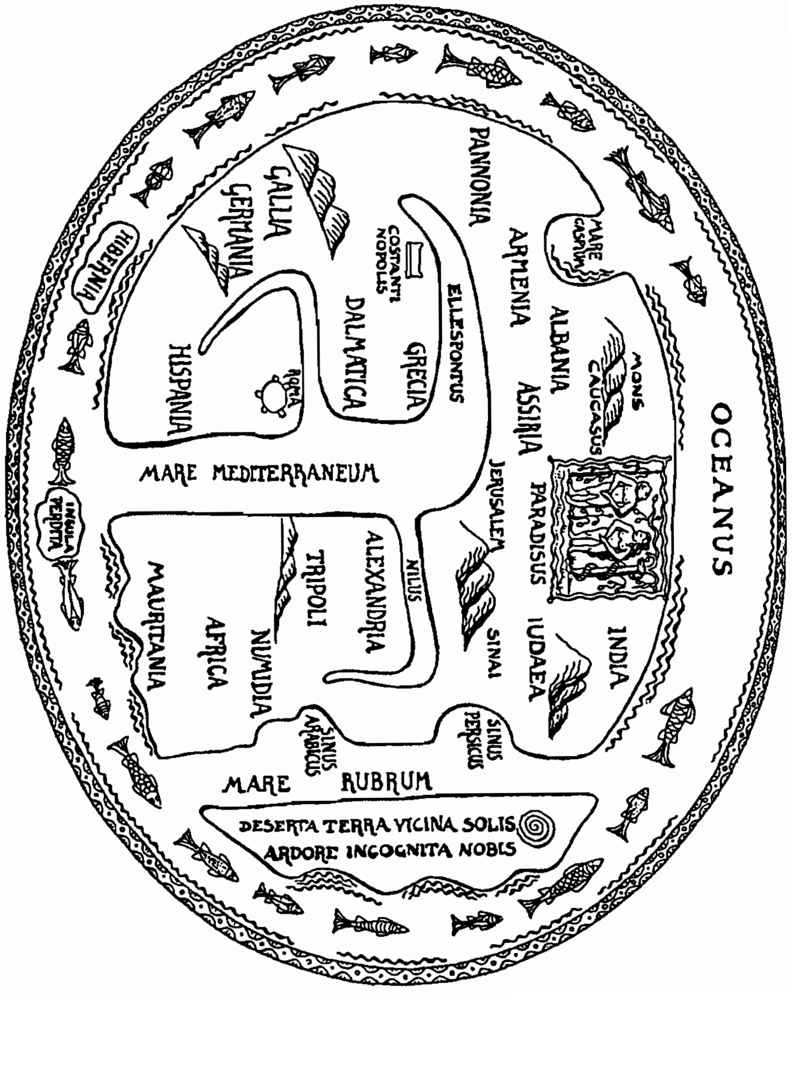
OCEANUS
PANNONIA
GALLIA
GERMANIA
HIBERNIA
COSTANTINOPOLIS
ARMENIA
MARE CASPIUM
ELLESPONTUS
DALMATICA
GRECIA
ALBANIA
MONS CAUCASUS
HISPANIA
ROMA
ASSIRIA
MARE MEDITERRANEUM
JERUSALEM
PARADISUS
INSULA PERDITA
ALEXANDRIA
TRIPOLI
NILUS
MAURITANIA
AFRICA
NUMIDIA
SINAI
IUDAEA
INDIA
SINUS ARABICUS
SINUS PERSICUS
MARE RUBRUM
DESERTA TERRA VICINA SOLIS
ARDORE INCOGNITA NOBIS

القديس أغسطينوس في المسألة ومفاده أن الفلاسفة الوثنيين قد يكونون على حقّ، والأرض كروية حقّا، أمّا التوراة فقد ذكرت فيه الخيمة بوصفها كناية، غير أن العلم بشكل الأرض لا يؤدّي الى حلّ المسألة الجدية الوحيدة في نظر كلّ مسيحي صالح، أي كيف يحقّق خلاص روحه، وعليه فانّ كلّ وقت يصرف، ولوكان نصف ساعة لا غير، في السجال حول شكل الأرض هو وقت ضائع.

«يبدو لي هذا مقنعا، قال الشاعر الذي كان يتوق للذهاب الى الحانة، ومن غير المجدي البحث عن الفردوس الأرضي لأنه لا بدّ أن يكون من عجائب الحدائق المعلّقة، وأنه بقي مهجورا منذ عهد آدم، ولم يعن أحد، منذ ذلك العهد، بتدعيم شرفاته بسياج من أسلاك شائكة وبالحباك، ولا بدّ أنّه انهار كليا في عهد الطوفان وغرق في الأوقيانوس.»

بالمقابل كان عبدول موقنا كلّ اليقين من أنّ الأرض لها شكل كرة. فلو كانت حقّا امتدادا مسطّحا، قال محاججا بدقّة لا سبيل الى دحضها، لكان بصري - جعله الحبّ ثاقبا كما أبصار كلّ العاشقين - قادرا على اشتمال البعيد البعيد وللاحت له شارة ما من المكان الذي أقامت فيه الحبيبة، هناك حيث انحناءة الأرض تحجبها عن أشواقي. كان عبدول قد فتّش طويلا بين أوراق مكتبة دير سان فيكتور، حيث عثر على خرائط أعاد ترسيمها جزئيا في ذاكرته لكي يطلع رفيقيه عليها.

«الأرض تقع في مركز حلقة الأوقيانوس الواسعة، وتقسمها ثلاثة مجار كبيرة للمياه، الهلّيسبونتوس، والأبيض المتوسّط والنيل.

- مهلا، أين يقع الشرق؟

- هنا، في الأعلى طبعا، حيث تقع آسيا، وعند أقصى الشرق، تماما حيث تبزغ الشمس، يقع الفردوس الأرضي. الى اليسار يقع جبل القوقاس، وهنا على مقربة منه بحر قزوين. والآن يبقى أن تعلموا أنّ من الهند هناك ثلاث، هند كبرى، مناخها حارّ، وتقع الى يمين الفردوس

مباشرة، وهند شمالية، ما وراء بحر قزوين، فاذا هنا، الى اعلى الميسرة، حيث يسود البرد وتستحيل المياه بلّورا، وحيث أمّة يأجوج ومأجوج التي حبسها الاسكندر الكبيرخلف سور؛ وهناك أخيرا الهند المتوسّطة، بقرب أفريقيا. ونرى أفريقيا في الأسفل الى اليمين، نحو الوسط، حيث يجري النيل وحيث يطلّ الخليج العربي والخليج الفارسي مباشرة على البحر الأحمر، وما وراء هذا البحر تقع الأرض الصحراء القريبة جدا من شمس الاستواء، والتي، لشدّة قيظها، لا يقصدها أحد. الى غرب أفريقيا، بجوار موريتانيا، تقع الجزر السعيدة، أو الجزر المفقودة، التي اكتشفها منذ قرون قديس من بلادي. في الأسفل، عند الشمال، تقع الأرض التي نقطنها، نحن، والقسطنطينية على الهلّيسبونتوس واليونان وروما، والى أقصى الشمال الجرمان وجزر ايبيرنيا.

– ولكن كيف لك أن تأخذ خارطة مثل هذه على محمل الجدّ، قال الشاعر ساخرا، خارطة تمثّل أرضا مسطّحة وأنت تؤكّد بأنّها كروية؟

– بالله عليك، قل لي كيف تفكّر؟ أجاب عبدول حانقا. أبإمكانك أن تتخيّل كرة تتيح لك ابصار كلّ ما على سطحها؟ ان الخارطة الجغرافية وضعت لكي تساعد على الاستدلال على الطرق. فعندما تسير لا ترى الأرض كروية، بل مسطّحة. ثمّ حتّى لو كانت كرة، فكلّ الجزء السفلي منها غير مأهول، حيث لا يوجد سوى الأوقيانوس: فلو كان على أحد أن يقطنها لاضطرّ الى السعي على رأسه لا على قدميه. لذلك، فلكي نمثّل على الجزء الأعلى منها، تكفي دائرة مثل هذه. غير أني أودّ أن أدقّق على نحو أفضل في خرائط الدير، لأني تعرّفت في المكتبة أيضا على كاتب أكليركي يعرف كلّ شيء عن الفردوس الأرضي.

– من المؤكّد أنه كان هنا عندما أعطت حواء التفاحة الى آدم، قال الشاعر.

– ليس من الضروري أن يكون المرء في مكان لكي يعرف كلّ شيء

عنه، أجاب عبدول، والا لكان البحارة أكثر علما من اللاهوتيين.»

كلّ هذا، قال باودولينو مفسّرا لنيسيتاس، لأصف لك كم كان صاحباي الأمردان بعد، ومنذ السنوات الأولى في باريس، مأخوذين بهذه الحكاية التي ستفضي بهما، بعد ذلك بسنوات طويلة، الى أقصى أقاصي الأرض.

7

باودولينو يكتب رسائل حبّ ينسبها الى بياتريس وقصائد ينسبها الى الشاعر

مع حلول الربيع أدرك باودولينو أنّ حبّه يكبر ويكبر، كما يحدث في العادة للعشّاق في مثل هذا الفصل، ولم تطمئنّ نفسه بأية حال عقب مغامراته الكئيبة مع فتيات نكرات، لا بل على الضدّ من ذلك، راح ذاك الحبّ يتعاظم حتّى صار ولها، لأنّ بياتريس جمعت في شخصها، الى ميّزات النعمى والذكاء والبركة الإمبراطورية، ميزة الغياب. وحول مفاتن الغياب، لم يكفّ عبدول عن تعذيبه مقضّيا أمسياته وهو يداعب أوتار آلته، منشدا أغنيات أخرى، حتّى أنّ باودولينو بات يجيد البروفانسية أيضا لكي يتذوّق معانيها.

Lanquam li jorn son lonc en may...
كم هي متطاولة أيّام شهر أيّار
تغريد الطير من البعيد يروق لي
فلمّا رحلت، بقيت في روعي
ذكرى ذلك الحبّ البعيد.

فأمضي اذا حاصِراً، سقيما، مطرقا،
لا طير، لا زعرور، يروقني الشتاء القارس. . .

كان باودولينو غارقا في أحلامه. وكان يردّد في قرارة نفسه بأنّ عبدول سوف يقنط ذات يوم من الأمل الذي يراوده برؤية أميرته المجهولة. فيا لسعده! انّ حالي لأشقى؛ فحتم أن أرى معشوقتي ذات يوم، وليس لي حظّ ألاّ أراها ما حييت، بل نكد أن أعرف من تكون وكيف هي. واذا كان عبدول قد وجد سبيلا للعزاء في سرده أحوال شقائه، فلم لا أسعى، أنا، وراء عزائي بأن أحكي شقائي لها؟ أي أنّ باودولينو، بعبارة أخرى، كان قد أدرك بالهام حدسه أنّه قادر على تهدئة اختلاجات قلبه بتدوينه ما يعاني، ولا بأس، اذّاك، أن يفقد غرامه كنوز حنانه تلك. لذا انكبّ باودولينو، في ساعة متأخرة من الليل، على الكتابة، فيما كان الشاعر غارقا في سبات عميق.

«النجم ينير القطب، والقمر يلوّن الليل. أمّا أنا فأهتدي بكوكب وحيد، واذا بزغت نجمتي، وقد توارى الليل، من الشرق، فانّ نفسي لن تبالي بظلمات السقام. أنت نجمتي الرافلة بالنور، التي ستبدّد الليل، ومن دونك حتّى النور يكون ليلا، وبصحبتك يستحيل الليل أنوارا مشعّة.»

ثمّ: **«ان جعت أنت وحدك تشبعين جوعي؛ ان ظمئت أنت وحدك تروين ظمئي؛ ولكن مهلا، تراني ماذا أقول؟ أنت تنعشين الرمق ولكن لا شبع منك. لم أشبع يوما منك، وأبدا لن أشبع. . .»** وأيضا: **«جمّة هي عذوبتك، معجب وفاؤك، معجز نبر صوتك، ومثيلاهما حسنك ولطفك اللذان يتوّجانك، وكم يعجز اللسان عن عبارتهما. هلاّ تأجّجت أيضا وأيضا تلك الشعلة التي تضنينا، وليكن وفيرا وقده، ولتستعر أيضا ولتخدع العاذلين والمخاتلين ما دامت خافية، وليس خابية، عن أعينهم، بحيث يبقى الشكّ قائما محيّرا، أيّنا في حبّ الآخر أشغف، وبحيث تدوم بيننا مساجلة البوح الرائعة نفوز بسبقها، على التتالي، معا. . .»**

كانت رسائل جميلة، وكانت رعشة تسري في جسد باودولينو كلّما عاود قراءتها، مرارا وتكرارا، فيزداد ولها بتلك البرية التي أوحت اليه بمثل تلك اللواعج. وقد بلغ به الأمر حدّا لم يستطع معه القبول بأن يبقى على حاله، جاهلا بما قد تكون عليه ردود فعل بياتريس حيال احتدام مشاعره، فصمّم على حثّها على الاجابة. وهكذا راح يكتب لنفسه مقلّدا، ما استطاع، خطّها وأسلوبها:

«للحبّ الذي يفيض من سريرتي، والذي يطيّب أكثر من أي طيب، تلك التي هي ملك لك روحا وجسدا، تتمنّى لأزاهير صباك العطشى عذوبة هناء سرمدي. . . اليك، أيا بهجة رجائي، أهدي وفائي، وبكلّ ما ملكت من الورع، أهديك، ما حييت، ذات نفسي. . .»

«أواه»، كتب لها بمثابة جواب، **«اعتني بنفسك، لأنّ بك متاعي من الدنيا، وبك رجائي وطمأنينتي. فما أكاد أصحو حتّى تلاقيك روحي، أنت التي حفظت ذكراك روحي. . .»**

فتجيب هي بكثير من الجرأة: **«منذ التقينا للمرّة الأولى، وددتك أنت وحدك، واذ وددتك ابتغيتك، واذ ابتغيتك سعيت وراءك، واذ سعيت وراءك وجدتك، واذ وجدتك أحببتك، واذ أحببتك اشتهيتك، واذ اشتهيتك جعلتك في قلبي أغلى من كلّ شيء. . . وتذوّقت شهدك. . . سلامي لك، يا فؤادي، يا بدني، يا بهجتي الوحيدة. . .»**

تلك المكاتبة التي استمرّت بضعة أشهر، حبت نفس باودولينو المهتاجة ببعض السكينة أوّلا، ثمّ أشاعت فيها حبورا غامضا، ثمّ ما يشبه الخيلاء المتوقدة، ذلك أنّ العاشق ما كان ليدرك مقدار حبّ المعشوقة له. فقد غدا باودولينو، كسواه من العشّاق، مغترّا، وكسواه من العشاق، كان يكتب بأنّه يودّ أن يستمتع مع حبيبته، وحدهما، بسرّهما المشترك، ولكنّه، في الوقت عينه، كان مصرّا على أن يكون العالم بأسره شاهدا على سعادته ومذهولا حيال رقّة المرأة التي يحبّ.

هكذا أطلع رفيقيه، ذات يوم، على تلك الرسائل. طبعا، آثر أن

يبقى متكتما، متحفّظا حول الظروف التي جرى فيها تبادل الرسائل. لم يكذب على الاطلاق، بل انه حتّى قال انّه يطلعهما على هذه الرسائل لأنّها، بالضبط، صنيع مخيّلته. غير أنّ الآخرين استنتجا بأنّه يكذب، تحديدا، بهذا الشأن بالذات، ما ضاعف شعورهما بأنهما يحسدانه لما هو فيه. وكان عبدول، في قرارة نفسه، قد نسب تلك الرسائل الى أميرته، وراح يتحرّق لهفة كأنّها أرسلت اليه هو. أمّا الشاعر الذي كان يتظاهر بعدم الاكتراث بتلك السلوى الأدبية (فيما هو يأتكل، في قرارة نفسه، حسدا، لأنّه لم يكتب رسائل جميلة استدعت أجوبة أجمل منها)، فقد أغرم، ما دام لم يغرم بأحد بعد، بالرسائل نفسها - وهو أمر، بحسب نيسيتاس الذي علّق على الموقف متبسّما، لا يدعو الى العجب اطلاقا، فطبيعيّ أن يميل المرء في صباه لأن يحبّ الحبّ.

ربّما لكي يستلهم أفكارا جديدة لأغنياته، حرص عبدول على نسخ الرسائل ليعاود قراءتها، ليلا، في سان فيكتور. وثابر على ذلك الى أن اكتشف، ذات يوم، أنّها فقدت، وصار أخشى ما يخشاه هو أن تكون وقعت بين أيدي راهب فاسق لم يتوان، بعد أن تلجلج بقراءتها لاهيا، عن دسّها بين آلاف المخطوطات التي تحتويها مكتبة الدير. فما كان من باودولينو الاّ أن أخفى رسائله داخل صندوق ملابسه، وأحكم اقفاله، ولم يكتب، منذ ذلك اليوم، أي رسالة لكي لا يتسبّب بأي حرج للمرأة التي تكاتبه.

غير أنّ حاجته الى البوح بما يعتور عامه السابع عشر من اضطراب، جعلته منكبّا على نظم الشعر. ولئن كان في رسائله ينشد الحبّ المفرط في نقائه، فقد انصرف في نظمه الى التمرّس بشعر الحانات الذي من خلاله كان مثقفو ذلك الزمان يحتفون بأسلوب عيشهم المنحلّ، اللامبالي، وان ضمّنوه، أحيانا، بعض الاشارات التي لا تخلو من الأسى لأنّهم يهدرون حياتهم عبثا.

وفي معرض الاتيان ببرهان قاطع على موهبته، راح يتلو على مسامع نيسيتاس، بعضا من الشطور:

Feror ego veluti – sine nauta navis,
ut per vias aeris – vaga fertur avis...
Quidquit Venus imperat – labor est suavis,
Quae nunquam in cordibus – habitat ignavis.

وإذ أدرك أن نيسيتاس لا يجيد اللاتينية، ترجم ما جاء في الشطور على نحو تقريبي فقال: «أسير على غير هدى كسفينة من دون نوتيّ، كما يحوّم طير في دروب السماء... ولكن أيّ مشقّة مستحبّة في انصياعي لمشيئة فينوس، تلك التي تجهلها النفوس الضعيفة...»

عندما أطلع باودولينو رفيقه الشاعر على تلك الأبيات وسواها، احتقن وجه صاحبنا حسدا واستحياء، وبكى، وأقرّ بالجفاف الذي أنضب قريحته، لاعنا عجزه، مردّدا بأعلى صوته أنه يؤثر ألف مرّة أن يكون عاجزا عن ولوج امرأة بدل أن يجد نفسه عاجزا عن التعبير عمّا يعتمل في قرارته - وهو ما كان باودولينو قد عبّر عنه بدقّة وأمانة حتّى بدا له أنّه يقرأ سطور قلبه. ثمّ تنبّه أنّ أباه كان ليفخر به كثيرا لو أنّه يجيد حقّا نظم مثل تلك الأبيات، باعتبار أنه سيتوجّب عليه، عاجلا أو آجلا، أن يبرّر لأسرته، وللعالم أجمع، لقب الشاعر هذا، الذي يحمله بفخر، والذي يجعله، في الوقت نفسه، أشبه بشاعر منتحل، متشدّق يغتصب مكانة ليست له.

لمّا ألفاه باودولينو على ذلك القدر من القنوط وضع الرقّ بين يديه، واهبا ايّاه قصائده لكي يطلع والديه عليها على أنّها من نظمه هو. كانت هدية ثمينة بالتأكيد، خاصة أنّ باودولينو، ورغبة منه في اطلاع بياتريس على أمور جديدة، كان بعث اليها بتلك الأبيات ناسبا ايّاها الى صديقه الشاعر. فقرأتها بياتريس على مسامع فردريك فسمعها رينالد دي داسيل

الذي قال، وهو المتأدّب الذي تشغله دسائس السلطة، انّه ليكون من دواعي سروره أن يلحق الشاعر في عداد العاملين لأجله. . .

كان رينالد قد عيّن، في ذلك العام بالذات، في منصب رئيس أساقفة كولونيا، وما كان احتمال أن يصبح شاعر رئيس الأساقفة، وبالتالي، شاعرا رئيسا، كما كان يحلو له أن يردّد بمزيج من الخيلاء والمزاح، الاّ أن يلاقي استحسان الشاعر؛ هذا فضلا عن أنه لم يكن شديد الحماسة لمتابعة دروسه، والنقود التي يرسلها اليه والده غير كافية، كما أنّه كان مقتنعا بأنّ شاعر البلاط لا عمل له سوى الأكل والشراب طيلة النهار وليس عليه أن يقلق لأي أمر آخر.

سوى أنّه لكي يكون شاعر بلاط عليه أن ينظم الشعر. كان باودولينو قد قطع على نفسه عهدا أن ينظم له اثنتي عشرة قصيدة على الأقل، ولكن ليس دفعة واحدة: «اعلم أنّ الشعراء الكبار لا تفيض قرائحهم في كلّ وقت ومناسبة، فأحيانا يصابون بالامساك، وهؤلاء هم الأعظم قاطبة. يجب أن تبدو مؤرّقا منهمّا بسعيك وراء ربّات الشعر، عاجزا عن الاتيان بأكثر من بيتين من وقت الى آخر. هكذا تستطيع، بما سأزوّدك به، أن تصمد بضعة أشهر، ولكن امنحني بعض الوقت، لأني ان لم أكن مصابا بالامساك فهذا لا يعني أني مصاب بالاسهال. أجّل رحيلك لبعض الوقت، وابعث لرينالد ببعض الأبيات بمثابة اختبار. وفي الأثناء سيكون من المستحسن أن تذهب اليه حاملا هدية، هي عبارة عن قصيدة مديح بمن أحسن اليك.»

قضى ليلته منكبّا على نظم القصيدة، وعند الصباح أعطاه بعض الأبيات في مديح رينالد:

presul discretissime – veniam te precor
morte bona morior – dulci nece necor
meum pectum sauciat – puellarum décor,
et quas tacto nequeo – saltem chorde mechor,

أي ما معناه: «أيّها الأسقف الجليل أرجو المعذرة، ذاك أني أجبه موتا جميلا، ويضنيني جرح بالغ العذوبة: انّ حسن العذارى يصيب من قلبي الصميم، ومن منهنّ لا أظفر بلمسة، أحظى بهنّ بالفكر، على الأقلّ.»

كان حال الأساقفة اللاتين قد لفت نيسيتاس، إذ إنّهم يستمتعون بالأغاني التي لا تمتّ بصلة الى الدين، غير أن باودولينو أوضح له بأنه ينبغي، أوّلا، أن يدرك من يكون هذا الأسقف اللاتيني الذي لا يفرض عليه بالضرورة أن يكون انسانا ورعا، خصوصا اذا كان، في الوقت نفسه، قنصل الإمبراطورية، وثانيا، من يكون رينالد الذي لا يملك من صفات الأسقف الا القليل لكنّه يملك الكثير الكثير من صفات القنصل، وهو، برغم ميوله الأكيدة لتذوّق الشعر، فانّ ميوله الغالبة هي أن يستغلّ حتّى مواهب الشاعر من أجل مآربه السياسية، كما سيفعل في وقت لاحق.

«اذا طارت شهرة الشاعر بفضل أبياتك.

– بالضبط. ثابر الشاعر، طوال ما يقرب العام، على ارفاق رسائله الورعة التي كان يبعث بها الى رينالد، بأبيات كنت أنظمها له تباعا، وفي آخر المطاف أمر رينالد بأن تلحق به هذه الموهبة الفذّة بأي ثمن. غادر الشاعر وفي جعبته زاد لا بأس به من القصائد من شأنه أن يكفيه عاما بأكمله اذا زعم بأنّه شاعر مصاب بامساك. وكان ذلك بمثابة انتصار له. وعلى الرغم من أني لم أفهم يوما كيف للمرء أن يفاخر بصيت أغدق عليه احسانا، فانّ الشاعر كان بذلك راضيا مرضيّا.

– مقابل ما يثير عجبك هناك ما يثير عجبي، ذلك أني لا أفهم المتعة التي كنت تشعر بها من خلال نسبتك ابداعاتك الى شخص آخر. أليس جائرا أن يهب أب ثمرة أحشائه الى آخر ولو على سبيل الاحسان؟

– انّ قدر شعر الحانات هو أن تتناقله الألسن، انّه بهجة سماعه

انشادا، ويكون من قبيل الأنانية المفرطة التفاخر به لأغراض تتعلّق بمجد شخص بعينه.

- لا أعتقد انك على هذا القدر من التواضع. انّك مغتبط جدا لأنّك استطعت، مرّة أخرى، أن تكون أمير الكذب، وانك لفخور بذلك، كما انك تأمل أن يعثر أحد، ذات يوم، على رسائل الحبّ التي كتبتها، بين مخطوطات سان فيكتور، وأن ينسبها الى أحد ما.

- ليس في نيتي أن أبدي تواضعا. وانما أهوى أن تجري أمور أكون أنا وحدي العالِمُ بأنّها من صنيعي.

- يا صاحبي، هذا لا يبدّل شيئا مما أنت فيه، قال نيسيتاس. لقد ألمحت، بشيء من المراعاة، الى أنّك أردت أن تكون أمير الكذب، أمّا الآن فتودّ أن تفهمني بأنّك تودّ أن تكون الله.»

8

باودولينو في الفردوس الأرضي

كان باودولينو يتابع تحصيله العلمي في باريس، غير أنّه لم ينقطع عمّا يجري في ايطاليا وفي جرمانيا. فراهوين تابع تدوين «مآثر فردريك»، تنفيذا لأوامر أوتون، لكنّه قرّر التوقف عندما وصل الى الكتاب الرابع، لأنّه ارتأى بأنّ تجاوز عدد الأناجيل هو من قبيل الهرطقة. ثمّ هجر البلاط مكتفيا بما أنجزه، وها هو الآن يعاني اليأس والملل في أحد الأديرة البافارية. بعث له باودولينو برسالة يخبره فيها أنّ بمتناول يده كلّ المؤلّفات التي اشتملت عليها مكتبة سان فيكتور الضخمة، فطلب منه راهوين، في رسالة جوابية، أن يعدّد له عناوين بعض المؤلّفات النادرة التي من شأنها أن تغني معارفه.

ارتأى باودولينو الذي كان يشاطر أوتون رأيه فيما يختصّ بفقر المخيّلة لدى الراهب القانوني المسكين، أنّه ربّما كان من المفيد مساعدته على اغنائها قليلا، وبعد أن زوّده ببعض عناوين المخطوطات التي عاينها، ذكر له بعض العناوين التي اجتهد في اختلاقها، مثلا كمخطوطة «De optimate triparum» للجليل Beda، و «Ars honeste petandi» و «De modo cacandi» و «De castramentadis crinibus» و «De patria diabolurum». وهي مؤلّفات قد أثارت اهتمام راهوين الذي سارع الى طلب نسخ من تلك الكنوز المجهولة للعلم. وكان باودولينو

ليلبّي هذا الطلب، بطيب خاطر، تكفيرا عن مسحه رقّ أوتون، لكنّه احتار فيما عساه ينسخ، فاضطرّ الى الزعم بانّ هذه الأعمال موجودة فعلا في دير سان فيكتور، لكنّ شبهة الهرطقة تحفّ بها، ولذا لا يسمح الرهبان لأحد بالاطلاع عليها.

«بلغني فيما بعد، قال باودولينو مخاطبا نيسيتاس، أنّ راهوين بعث برسالة الى أحد الفقهاء الباريسيين من معارفه، سائلا ايّاه أن يستحصل على هذه المخطوطات من الفيكتوريين الذين لم يعثروا على أثرلها بالطبع. فاتهموا أمين مكتبتهم بالاهمال فراح المسكين يقسم لهم بأنّه لم يرها من قبل. وأحسب أنّ أحد الرهبان الكتبة عمد، في آخر المطاف، وسعيا منه لوضع الأمور في نصابها، الى تأليف هذه المؤلّفات بالفعل، وآمل أن يعثر عليها أحد، ذات يوم.»

في تلك الأثناء كان الشاعر يطلعه تباعا على أخبار فردريك. فالمدن الايطالية لم تلتزم جميعها بالعهود التي قطعتها في مجلس رونكاليا. وكانت المواثيق تقضي بأن تعمد المدن الحانثة بالعهود الى تفكيك منشآتها وتدمير معدّاتها الحربية، لكنّ أهل تلك المدن كانوا يتظاهرون بأنّهم يطمرون الأخاديد حول المدينة فيما تبقى الأخاديد على حالها. فأوفد فردريك عددا من القاصدين الرسوليين الى كريما لدعوة أهلها الى الاسراع في تنفيذ بنود المواثيق، لكنّ هؤلاء هدّدوا بذبح الموفدين الإمبراطوريين الذين كانوا معرّضين للذبح حقّا لولا فرارهم. ثمّ أوفد الى ميلانو رينالد، بشخصه، وأحد أعيان البلاط لكي يعيّنا الضبّاط العدليين، اذ لم يكن يحقّ لأهل ميلانو الزعم بأنهم يعترفون بالحقوق الإمبراطورية ثمّ يعمدون الى التفرّد في انتخاب قناصلهم. وهناك أيضا نجا الموفدان من الموت بأعجوبة برغم كونهما رفيعي المستوى، فأحدهما قنصل الإمبراطورية والآخر واحد من أعيان القصر! ولم يكتف أهل ميلانو بما فعلوا، بل عمدوا الى محاصرة قصر تريزو، وأحرقوا حاميته. وأخيرا هاجموا مجددا

لودي، وعندما تمسّ لودي تقدح عينا الإمبراطور شررا. وهكذا، لكي يجعلها عبرة لمن اعتبر، أقام الحصار على كريما.

في البداية أقيم الحصار وفق معايير الحرب بين مسيحيين. فتمكّن أهل الكريما، بمعونة الميلانيين، من اختراق الحصار مرارا وأسروا عددا من الجنود الإمبراطوريين. أمّا أهل كريمونيا (الذين كرها بأهل كريما انضموا الى الإمبراطورية، ومعهم أهل بافيزا وأهل لودي) فقد ابتكروا آلات للهجوم شديدة الفعالية - قتلت من بين المحاصَرين أكثر مما قتلت من المحاصِرين، ولكن على الأمور أن تجري مجراها. شهدت الواقعة التحامات باهرة، كان الشاعر يروي بمتعة بادية، وكان كلّ ما جرى هناك يذكّر بالواقعة التي استحصل فيها الإمبراطور على مئتي برميل فارغ من أهل لودي، لكي تملأ بالتراب وترمى في الأخاديد، ثمّ غطّاها بمزيد من التراب وبكميّات من الخشب التي تولّى أهل لودي نقلها بواسطة ما يزيد عن ألفي عربة، الى أن صار متاحا عبورها مع المنجنيق أو المطارق العملاقة لدكّ الأسوار.

لكن عندما شنّ الهجوم بواسطة أضخم الأبراج الخشبية، وقد بناه الكرمونيون، راح المحاصرون يرمونه بوابل من حجارة المنجنيق حتّى كادوا يسقطونه، فطار صواب الإمبراطور لشدّة غيظه؛ وأمر بأن يوثق أسرى حرب من أهل كريما وميلانو عند مقدّم البرج وعلى جنباته، ظنّا منه أنّ المحاصرين لن يتجرّأوا على قذف الحجارة عندما يرون اخوتهم وأبناء عمومتهم وأبناءهم وآباءهم عرضة لضرباتهم. غير أنّه لم يحسب حسابا لما يعتمل في صدور أهل كريما من الغيظ والحنق - سواء الذين أقاموا على الأسوار أم الذين أوثقوا الى مقدّم البرج. اذ راح الأخيرون يصيحون باخوانهم ألا يبالوا بهم، فيما راح المدافعون عن الأسوار، قَتَلة أهلهم في ذروات تشنّجهم، يواصلون قذف البرج بالحجارة، ذارفين الدمع غزيرا، فقتلوا تسعة من جماعتهم.

كان بعض التلاميذ الميلانيين الذين قدموا الى باريس، قد أقسموا إنّ

المهاجمين أوثقوا الى البرج عددا من الناس من بينهم أطفال، لكنّ الشاعر سارع الى طمأنته بأنّ الشائعة هي محض افتراء. فما جرى حقّا، هو أن الإمبراطور نفسه قد تأثّر مما شهد فأمر باطلاق السجناء المتبقين. ومع ذلك، عمد بعض الميلانيين والكريميين الساعين الى الانتقام لما حلّ برفاقهم، الى أسر بعض الألمان واللوديين المقيمين في المدينة، ثمّ نقلوهم الى الأسوار وقتلوهم ببرودة أعصاب على مرأى من فردريك. عندئذ أمر فردريك باحضار أسيرين كريميين، وحاكمهما عند أسفل السور بتهمة اللصوصية والحنث باليمين، وأصدر حكما بقتلهما. فأبلغه الكريميون أنّه اذا شنق السجينين، فسوف يعمدون الى شنق من تبقّى من جماعته لديهم كرهائن. فأجابهم فردريك أنّه يودّ أن يشهد ذلك، وشنق السجينين. جاء ردّ الكريميين على ما جرى، أنّهم شنقوا، بحضور الأهلين، كلّ الرهائن. على الأثر أمر فردريك، الذي بدا فاقدا صوابه، باحضار كلّ الكريميين الأسرى المتبقين، كما أمر بنصب غابة من المشانق قبالة المدينة، استعدادا لشنقهم جميعا. فهرع الأساقفة والرهبان الى المكان متوسّلين اليه، وهو من هو، منبعا للرأفة، الاّ يردّ على قسوة أعداده بقسوة أشدّ منها. وقد كان لتوسّط هؤلاء أثر كبير في نفس فردريك، لكنّه لم يستطع التراجع عن قراره، فأمر باعدام تسعة على الأقل من بين أولاء التعساء.

بكى باودولينو لسماعه ذلك كلّه. ليس فقط لأنّه، بطبعه، رجل مسالم، بل أيضا لما بلغه من أنّ أباه بالتبنّي قد لطّخ يديه بذاك القدر من الجرائم، ما أقنعه، أوّلا، بالبقاء في باريس لمتابعة دروسه، وأقنعه، ثانيا، وان على نحو غامض لم يدركه، هو، جيّدا، بأنّه لم يرتكب ذنبا في عشقه الإمبراطورة. فاستأنف تحرير الرسائل بشغف متعاظم، وتحرير الرسائل الجوابية أيضا والتي من شأنها أن تقضّ مضاجع أكثر النسّاك زهدا. غير أنّه آثر هذه المرّة أن يخفي الأمر عن رفيقه.

مع ذلك لم ينج من الشعور بالذنب، فعقد العزم على أن يأتي بأمر

ليسبّح الله فحسب. كان أوتون قد أودعه وصية مقدّسة وهي أن يخلّص الراهب جان من ظلمة الأقاويل. فكرّس باودولينو جهوده بحثا عن الراهب المجهول الذي هو - بحسب أوتون - في الوقت نفسه ذائع الصيت.

لمّا أنهى باودولينو وعبدول سنتي الدراسة التمهيدية، وتلقنا أصول المساجلة، كان أوّل الأسئلة التي طرحاها على نفسيهما: أهناك حقّا من يدعى الراهب جان؟ غير أنّ مباشرتهما السؤال جرت في ظروف يتحرّج باودولينو من ذكرها على مسامع نيسيتاس.

فعلى أثر رحيل الشاعر، انتقل عبدول للسكن مع باودولينو. واذ عاد باودولينو الى الحجرة، ذات مساء، ألفى عبدول منشدا، بمفرده، احدى تلك الأغنيات العذبة التي يعبّر فيها عن توقه للقاء أميرته البعيدة، لكنّه، في توهّمه أنّها باتت في متناوله، شعر فجأة بأنّه يمشي القهقرى. ولم يدر باودولينو اذا كانت الموسيقى، أم الكلمات، هي التي جعلت طيف بياتريس ماثلا أمام عينيه وهو يصغي الى تلك الأغنية، ثمّ يحتجب متلاشيا في العدم. كان عبدول ينشد بعذوبة بالغة كما لم ينشد يوما.

ما كاد عبدول ينهي غناءه حتّى تهالك، منهوكا، في مطرحه. خشي باودولينو لوهلة من أن يغمى عليه فانحنى فوقه، لكنّ عبدول سرعان ما بدّد خشيته، ورفع احدى يديه كما ليطمئنه، وراح يضحك بصوت خفيض، بمفرده، بلا سبب. كان يضحك مرتعدا من قمة رأسه حتّى قدميه. حسب باودولينو أنّه مصاب بالحمّى، فقال له عبدول، من دون أن يتوقّف عن الضحك، ان يدعه وشأنه ريثما يهدأ، وانّه يدرك جيّدا ما أصابه. لكنّه، في آخر الأمر، رضخ لالحاح باودولينو، وقرّر أن يبوح بسرّه.

«اسمع يا صديقي. لقد تناولت قليلا من العسل الأخضر، قليلا منه فقط. أعلم جيّدا انّها تجربة من الشيطان، لكنّ العسل مفيد ويعينني أحيانا على الغناء. اصغ جيّدا ولا تلمني. منذ عهد طفولتي في الأرض المقدّسة وأنا أسمع تكرارا حكاية مذهلة ورهيبة. اذ يحكى أنّه على مقربة من

انطاكيه كانت جماعة من المسلمين تقيم على قمة جبل في قصر تعجز النسور عن بلوغه. وكان سيّدهم يدعى علاء الدين وكان مرهوب الجانب من قبل أمراء المسلمين وامراء المسيحيين على حدّ سواء. وكان يقال في الحقيقة، أنّه، في وسط قصره، توجد حديقة عامرة بكلّ صنوف الفاكهة والورود، وحيث قنوات يجري فيها الخمر واللبن والعسل والماء، ومن حولها ترقص وتغنّي فتيات فاتنات الحسن. ولا يقدر على العيش في تلك الحديقة سوى فتيان كان علاء الدين يأمر بخطفهم، ويمرّسهم، في دار النعيم ذاك، بالملذّات. وأقول ملذّات لأنّ أولئك الفتيات، كما نمي الي من أحاديث البالغين همسا - فتحمرّ وجنتاي حياء واضطرابا -، كنّ سخيّات، مقبلات على إرضاء ضيوفهنّ، ومنحهم ما يتوقون إليه من المباهج التي لا توصف، والتي، كما يخيّل إليّ، لا تخلو من الإثارة، بحيث إن الداخل إلى ذاك المكان، ما كان ليغادره بأي ثمن.

- صاحبك علاء الدين هذا، أو مهما كان اسمه، شخص لافت حقّا، قال باودولينو متبسّما، ماسحا جبين رفيقه بخرقة رطبة.

- هذا ما يخيّل إليك، قال عبدول، لأنّك تجهل حقيقة ما جرى. فذات صباح مشرق استيقظ أحد أولئك الفتيان في فِناء خرب يكويه قيظ الشمس، حيث ألفى نفسه مغلولا بسلاسل. بقي أيّاما على تلك الحال إلى أن اقتيد ليمثل أمام علاء الدين، وهناك ارتمى على قدمي هذا الأخير مهدّدا بالانتحار، متوسّلا أن تعاد إليه الملذّات التي حرم منها والتي بات لا يطيق الاستغناء عنها. فصارحه علاء الدين عندئذ بأنّه أغضب الرسول وبأنّه قد ينال رضاه مجدّدا إذا أبدى استعداده للقيام بعمل عظيم. وأعطاه خنجرا من ذهب وأمره بأن يشدّ رحاله على الفور، قاصدا بلاط سيّد من أعدائه ليقتله. ذاك هو السبيل الوحيد لكي يستحقّ مجدّدا ما كان يبغيه، وحتّى لو قتل في الأثناء، فمصيره الجنّة التي تشبه في كلّ شيء المكان الذي طرد منه، لا بل أفضل منه بما لا يقاس. لهذا السبب كان علاء الدين يتمتّع بسلطان كبير ويثير الخوف في روع الأمراء من جيرانه، سواء

كانوا مسلمين أو مسيحيين، لأنّ المرسلين من قبله مستعدّين للقيام بأية تضحية.

– الأحرى إذا أن يكتفي المرء بأحد مواخير باريس، وفتياته اللواتي لا يشترطن عهدا للظفر بهنّ. ولكن ما صلتك أنت بهذه الحكاية؟

– لي صلة بها لأنّي حين كنت في العاشرة من عمري تولّى رجال علاء الدين تربيتي. ولبثت معهم خمسة أعوام.

– وفي العاشرة تمتّعت بكلّ العذارى اللواتي حدّثتني عنهنّ؟ وهل كلّفت، بعد ذلك، بقتل أحد؟ ما هذا الهراء الذي تنطق به يا عبدول؟ قال باودولينو بشيء من التوجّس.

– لقد حالت حداثة سنّي دون أن أكون في عداد المحظوظين من الشبّان، فألحقت في خدمة أحد خصيان القصر الذي كان يعمل على توفير المتعة لهم. ولكن اسمع جيّدا ماذا وجدت. فأنا لم أر، طيلة الأعوام الخمسة في الحديقة، أيّا من الفتيان لأنّهم كانوا دائما مقيّدين بالأغلال، في صفّ طويل، في ذلك الفِناء الذي يلهبه القيظ. وكلّ صباح، كان الخصيّ يأخذ من خزانة وضعت هناك، دوارق فضّة تحتوي على معجونة لزجة مثل العسل، لكنّ لونها مائل إلى الاخضرار، ثمّ يتوقّف عند المساجين ويطعمهم، الواحد تلو الآخر، من تلك المادّة. فكانوا يتذوّقونها ويشرعون في سرد حكايات لأنفسهم وللآخرين عن الملذّات التي تحكي عنها الأسطورة. صدّقني، كانوا يقضون نهارهم مستيقظين، متبسّمين، مغتبطين. وقبيل المساء يحسّون أنفسهم مرهقين، فيستغرقون في الضحك، في سرّهم أحيانا وصهصلة أحيانا أخرى، ثمّ يغرقون في سبات عميق. هذا الأمر جعلني أدرك، مع الوقت، الخدعة التي يمارسها عليهم علاء الدين: فقد كانوا يحيون، مقيّدين في أغلالهم، وَهْمَ العيش في الفردوس، ولئلاّ يفقدوا تلك الحظوة، يصبحون أدوات ثأر في يد سيّدهم. وإذا تمكّن أحدهم من العودة سالما من مهمّته، عاد إلى سابق

عهده وأقام، في القيد، على رؤية وعلى سماع ما يثيره فيه العسل الأخضر من أحلام.

- وأنت؟

- أنا؟ ذات يوم، فيما كان الجميع نياما، تسلّلت إلى المكان الذي تحفظ فيه دوارق الفضّة التي تحتوي على العسل الأخضر، وذقته. أأقول ذقته؟ لا بل ابتلعت منه ملعقتين كاملتين، وعلى الفور تراءت لي أمور عجيبة...

- هل شعرت بأنك في الحديقة؟

- لا، فمما لا شك فيه أنّ الآخرين كانوا يحلمون بالحديقة لأنّ علاء الدين كان يحدّثهم عنها فور وصولهم. أعتقد أن العسل الأخضر يري المرء ما يودّ المرء أن يراه من أعماق قلبه. أنا كنت أراني في صحراء، أو في أفضل الأحوال في واحة، وأرى قافلة رافلة بالجلال متقدّمة في اتجاهي، نوقها مسربلة بالزينة، وموكب أعراب بعمائمهم الزاهية الألوان ضاربين الطبل والصنج. ومن ورائهم، على هودج محمول على مناكب أربعة عمالقة، مقبلة هي، الأميرة. لا أستطيع الآن أن أقول لك كيف كانت، كانت... كيف لي أن أقول... مشرقة، ولا أذكر إلاّ انبهارا، روعة متألّقة...

- ولكن كيف كانت طلعتها، هل كانت جميلة؟

- لم ألمح وجهها. كانت محتجبة.

- إذا، أغرمت بمن؟

- بها، لأني لم أرها. صدّقني، إنّ رقّة لا متناهية تسرّبت إلى قلبي، ههنا، وخدر لم أشف منه بعد. تابعت القافلة طريقها مبتعدة باتجاه الكثبان، فأدركت أنّ تلك الرؤية لن تعاودني مرّة ثانية، ورحت أقول، في سرّي، ربّما كان ينبغي أن ألحق بتلك البرية، ولكن قبيل الصبح جعلت أضحك، وحسبت أني أضحك من البهجة، لكنّه من تأثير العسل الأخضر

عندما يزول مفعوله. استيقظت وقد صارت الشمس في كبد السماء، ولو بكر الخصيّ قليلا لألفاني متهالكا في الموضع نفسه. منذ ذلك الحين صمّمت على الفرار بأي ثمن لكي أعثر على الأميرة البعيدة.

- غير أنّك أدركت أنّ ذلك كلّه كان من تأثير العسل الأخضر...

- أجل، كانت الرؤية وهما، سوى أنّ ما بدأت أشعر به لم يكن وهما؛ كان شوقا حقّا. فالشوق حين تشعر به لا يكون وهما، بل يكون حقيقة.

- سوى أنه كان شوقا لوهم.

- لكنّي منذ ذلك الحين لم أرد أن أفقد ذاك الشوق. كان كافيا لأن أكرّس له حياتي.»

بالاختصار، تمكّن عبدول من الاهتداء إلى سبيل للفرار من القصر، والانضمام إلى عائلته التي كانت تعدّه مفقودا. وقد خشي والده انتقام علاء الدين فأبعده عن الأرض المقدّسة بإيفاده إلى باريس. كان عبدول، قبل فراره من علاء الدين، قد استولى على أحد دوارق العسل الأخضر، لكنّه، قال شارحا لباودولينو، لم يذق منها شيئا، منذ ذلك الحين، خشية أن تعيده تلك المادة اللعينة إلى الواحة إيّاها، لكي يحيا وجده إلى ما لا نهاية. وهو لا يدري إذا كان قادرا على مقاومة ذلك الشعور. فقد غدت الأميرة معه، وإلى الأبد، وما عاد باستطاعة أحد أن ينتزعها منه. فالأحرى به أن يملّي عينيه منها كمنتهى بدل أن يمتلكها في ذكرى كاذبة.

ثمّ مع الوقت، ولكي يقوى على إنشاد أغنياته، حيث الأميرة حاضرة، ماثلة في نأيها، راح يخاطر أحيانا بتذوّق القليل من العسل، شويّة من طرف الملعقة ما يكفي لتخدير اللسان بنكهته. وكان حين يفعل تنتابه فترات وجيزة من الوجد، وهذا ما جرى له في ذلك المساء.

أثارت قصّة عبدول فضول باودولينو، وأغواه احتمال رؤيا، ولو

وجيزة، تتراءى له الإمبراطورة من خلالها. لم يستطع عبدول أن يرفض طلبه. لكنّ باودولينو لم يشعر، على الأثر، إلاّ بخدرة طفيفة، وبرغبة في الضحك. غير أنّه شعر بأنّ نفسه مستثارة. والمفارقة أنّ ذلك لم يكن بسبب بياتريس بل بسبب الراهب جان - حتّى اختلط عليه الأمر وسأل نفسه مرارا عمّا إذا كان غرض شوقه الحقّ هو المملكة التي يستحيل بلوغها، وليس المرأة التي احتلّت قلبه. ولم يكن أمره مختلفا تلك الليلة. استأنف عبدول الذي زال عنه مفعول العسل، وباودولينو الذي كان يستشعر خدرا طفيفا، نقاشهما حول الراهب جان، خصوصا مسألة وجوده. وبمّا أنّه كان واضحا أنّ من فضائل العسل الأخضر جعله كلّ ما لا يرى ملموسا، مالا إلى الإقرار بوجود الراهب.

إنّه موجود، خلص باودولينو إلى القول، لأنّ لا أسباب تحول دون وجوده. إنّه موجود، خلص عبدول إلى القول، لأنّه سمع مثقفا إكليريكيا يقول إنّ ما وراء بلاد الميديين والفرس هناك ملوك مسيحيون يقاتلون الوثنيين في تلك البقاع.

«ومن القائل؟ سأل باودولينو بحماسة.

- يدعى بورون»، أجابه عبدول. ولم يبزغ شمس اليوم التالي حتّى انصرفا إالى البحث عن بورون.

وبورون هذا مثقّف من مونبيليار، وإذا كان تجواله المستمرّ، على غرار أقرانه، قد قاده في تلك الأيام، إلى باريس (وكان يتردّد فيها على مكتبة سان فيكتور) فلا أحد يدري إلى أين سيفضي به تجواله في أيّام أخرى؛ ذلك انّه كان يسعى إلى إنجاز عمل يبقيه طيّ الكتمان. كان رأسه ضخما ومتوّجا بشعر أشعث، وعيناه محتقنتين لطول ما يقرأ مستضيئا بمصباح، غير أنّ مظهره يوحي بأنّه، حقّا، بحر علوم. فتنهما منذ لقائهم الأوّل، في حانة طبعا، من خلال طرحه عليهما أسئلة دقيقة كانت لتستغرق من أساتذتهما أيّاما وأيّاما من النقاش: إذا كان يمكن للمني أن يجمد؛ إذا كان يمكن للمومس أن تحبل؛ إذا كان تعرّق الرأس يسبّب

وخما أشدّ مما يسبّبه تعرّق باقي أعضاء الجسم؛ إذا كانت الأذنان تحمرّان في حال الخجل؛ إذا كان الرجل يحزن لموت معشوقته أكثر مما يحزن لزواجها؛ إذا كان ينبغي للنبلاء أن يمتلكوا آذانا متدلية أو إذا كان المعتوهون تسوء حالتهم حين يكون القمر بدرا. أمّ السؤال الذي كان يثير فضوله أكثر من سواه فيتعلّق بوجود الفراغ، وكان يزعم أنّه أعلم بهذه المسألة من أي فيلسوف آخر.

«لا وجود للفراغ، كان بورون يقول وقد انتفخ خدّاه، لأنّ الطبيعة تضيق بوجوده. كونه غير موجود هو أمر بدهيّ لأسباب فلسفية، ذلك أنّه لو كان موجودا فإمّا أن يكون جوهرا وإمّا أن يكون عرضا. وهو ليس جوهرا ماديّا وإلاّ كان جسما واحتلّ حيّزا؛ وهو ليس جوهرا مفارقا وإلاّ كان، مثل الملائكة، عاقلا. وهو ليس عرضا لأنّ الأعراض موجودة فقط بوصفها صفات للجواهر. وثانيا، لا وجود للفراغ لأسباب فيزيائية: خذ، مثلا، وعاء أسطوانيا. . .

- ولكن، قاطعه باودولينو قائلاً، لِمَ انهماك بالرهان على أنّ الفراغ غير موجود؟ فما الذي يعنيك منه؟

- يعنيني الكثير، يعنيني الكثير. لأنّ الفراغ إمّا أن يكون بَيْفَرجيّاً، أي حادثاً بين فرجتين أو بين خليتين حيتين في عالمنا الأرضي، وإمّا أن يكون ممتدّاً، فيما وراء الكون الذي نشهده، محتوىً في فلك الأجرام السماوية. وإذا كان كذلك، فقد يوجد في هذا الفراغ عوالم أخرى. ولكن إذا برهنّا على الفراغ البينفرجي غير موجود، فالأولى أن يكون الفراغ الممتدّ غير موجود.

- ولكن ما شأنك أنت بوجود عوالم أخرى؟

- إنّه شأني، إنّه شأني. لأنّها لو كانت موجودة، لكان على ربّنا يسوع أن يفتدينا في كلّ منها، وفي كلّ منها أن يكرّس الخبز والنبيذ. وعليه فإنّ الغرض الأسمى، وهو شهادة وأثر من تلك المعجزة، لن يكون فريدا، بل سيكون هناك كمّ من النسخ. وما قيمة حياتي إن لم أكن موقنا

من أنّ، في مكان ما، هناك غرض أسمى يجب أن أعثر عليه؟

- وما عساه يكون هذا الغرض الأسمى؟»

هنا حاول بورون أن يُسكته بنبرة حازمة: «هذا شأني أنا، قال، إنّها قصص لا تُسرد على مسامع الفانين من البشر. فلنتحدّث عن أمور أخرى: لو كان هناك عوالم متعدّدة لكان هناك عدد مماثل من الإنسان الأوّل؛ لكان هناك أكثر من حواء، وأكثر من آدم، اقترفوا عددا لا يحصى من الخطايا الأصلية. ولكان هناك كثير من الفراديس الأرضية التي طردوا منها. هل يمكنكما أن تتخيّلا أنّ أمراً ساميا كالفردوس الأرضي قد يوجد منه الكثير، كما يوجد كثير من المدن فيها نهر وهضبة كما في سانت جنفياف؟ لا وجود إلاّ لفردوس أرضي واحد، وفي بقاع بعيدة، أبعد من مملكة الميديين والفرس.»

هاهنا أصاب المبتغى، فأَطلعا بورون على ما يحسبانه من أمر الراهب جان. بلى، كان بورون قد سمع بعض الأقاويل عن قصّة الملوك المسيحيين في الشرق هذه، عن لسان أحد الرهبان. كما قرأ ملّخصا كتبه، منذ سنوات بعيدة، أحد بطاركة بلاد الهند للبابا حول زيارة كان قد قام بها إلى هناك. وقد ذُكر في هذا الوصف مقدار الصعوبة التي لاقاها البابا في التفاهم معه بسبب الاختلاف الكبير في لغتيهما. كان البطريرك قد وصف مدينة هولنا حيث تجري أنهار نابعة من الفردوس الأرضي، كنهر فيزون، الذي يسمّيه البعض نهر الغانج، وحيث على قمّة جبلٍ منتصبٍ خارج المدينة أقيم المزار الذي سجّي فيه جثمان الرسول توما. كان الجبل منيعاً لا سبيل لبلوغه لأنّه منتصب وسط بحيرة، غير أنّ المياه تنحسر عن سفحه لثمانية أيّام في السنة، فيتمكّن المسيحيون الصالحون، في تلك الناحية، أن يقصدوا المزار متعبّدين لجثمان الرسول الذي بقي على حاله كأنّه لم يمت، لا بل إنّ وجهه، كما يزعم النصّ، بقي مشرقاً مثل نجم، وشعره الأصهب مسترسلا حتّى الكتف، وثيابه كأنّها لم تبلَ أو بالكاد.

«ومع ذلك، ما من دليل على أنّ البطريرك المذكور هو نفسه الراهب

جان، خلص بورون إلى القول بكثير من الحذر.

- طبعا لا، أجاب باودولينو، ولكنّ هذا يعني أنّ أقاويل كثيرة راجت هنا وهناك، ومنذ زمن بعيد، حول وجود مملكة نائية، مجهولة وهانئة. ففي مؤلّفه «Historia de duabus civitatubus» يذكر الأسقف العزيز جدّا، أوتون، أنّ المدعو هيوز دي جابالا يقول إنّ جان قد سعى، بعد إلحاقه الهزيمة بالفرس، إلى مدّ يد العون إلى مسيحيي الأرض المقدسة، غير أنّه اضطرّ إلى التوقف عند ضفاف نهر دجلة، لأنّه لم يحظ بسفن لاجتيازه مع رجاله. إذا جان يحيا فيما وراء دجلة. أتوافقني على ما أقول؟ ولكنّ الأطرف من هذا كلّه هو أنّ الجميع كانوا على علم بأمر الراهب جان حتّى قبل أن يتحدّث هيوز عنه. لندقّق قليلا في ما كتبه أوتون المشهود له بأنّه لا يدوّن الأمور كيفما اتفق. لمَ كان على هيوز أن يشرح للبابا الأسباب التي حالت دون قيام جان بمساندة مسيحيي أورشليم، كأنّ من واجبه تبرير ذلك؟ طبعا، لأنّه كان في روما من يحرص على تغذية هذا الرجاء. وعندما يذكر أوتون بأنّ هيوز يسمّي جان، يشير إلى أنّه sic enim eum nominare solent، كما درجوا على تسميته. فماذا تعني صيغة الجمع هذه؟ واضح أنّ هيوز لم يكن هو الوحيد، بل هناك آخرون، درجوا - أي كانوا قد اعتادوا منذ ذلك الوقت - على تسميته بهذا الاسم. ودائما بحسب أوتون: فهو يذكر بأنّ هيوز يؤكّد بأنّ جان، شأنه شأن المجوس الذين يتحدّر منهم، كان يريد الذهاب إلى أورشليم، ثمّ لا يذكر بأنّ هيوز يزعم بأنّه لم يفلح في مسعاه ذاك، بل fertur، أي أنّه يُقال، إنّ البعض، في صيغة الجمع، يقولون إنّه لم ينجح في ذلك. هكذا نتعلّم من معلّمينا، خلص باودولينو إلى القول، أنّه ما من برهان على الحقيقة أفضل من تواتر الخبر.»

همس عبدول في أذن باودولينو قائلا إنّه من الجائز أن يكون الأسقف أوتون قد تعاطى، بين الحين والآخر، شيئا من العسل الأخضر، غير أنّ باودولينو عاجله بلكزة بمرفقه على جنبه.

«ما زلت لا أفهم، قال بورون، لمَ تعلّقون هذا القدر من الأهمية على قصّة هذا الراهب؛ ولكن إذا كان لا بدّ من البحث عنه، فلا ينبغي البحث عنه على ضفّة نهر ينبع من الفردوس الأرضي، بل في الفردوس الأرضي بالذات. ولديّ الكثير لأرويه لكما في هذا الشأن. . .»

حاول باودولينو وعبدول حثّ بورون على سرد المزيد مما يعرف عن الفردوس الأرضي، غير أنّ بورون كان قد أفرط في شرب نبيذ التروا كانديرابل، وزعم أنه لا يذكر شيئا آخر. فما كان من باودولينو وعبدول، كأنّ خاطرة عبرت رأسيهما معاً من دون تشاور، إلاّ أن حملا بورون ممسكين به من إبطيه، واقتاداه إلى حجرتهما. وهناك قدّم له عبدول، وإن بتقتير ملحوظ، شويّة من العسل الأخضر على طرف ملعقة، كما اقتسم شوية أخرى مع باودولينو. وإذّاك بدأ بورون، إثر هنيهات من الذهول متلفّتا من حوله كأنّه لا يدري أين حلّ به المصير، بشهود ملمح من الفردوس.

راح يحكي ويحكي عن رجل يدعى تاغدالوس بدا أنّه قد زار جهنّم والفردوس. أمّا جهنم فلا داعي لوصفها، لكنّ الفردوس مكان حافل بالإحسان والبهجة والخفّة والاستقامة والجمال والقداسة والوئام والوحدة والإحسان والخلود الذي لا يحدّ، مصون بسور ذهبي يمكن للمرء إذا تجاوزه أن يبصر عددا من الكراسي المرصّعة بأحجار كريمة حيث يجلس رجال ونساء، شبّاناً وشيباً، رافلين ببرودٍ من حريرٍ، مشرقي الوجه كالشمس، وشعورهم مذهّبة نقيّة، منشدين «هليلوليا» قارئين في كتاب موشّى بحروف من ذهب.

«والحال، قال بورون بتعقّل، الناس جميعا بإمكانهم أن يذهبوا إلى جهنم، وليس عليهم لكي يفعلوا إلاّ أن يرغبوا في ذلك، وأحياناً يعود من كان فيه ليحكي لنا شيئا عنه، في هيئة منحدر، أو في هيئة مرتفع، أو أي شكل آخر من أشكال الرؤى المعذّبة. ولكن هل يمكن الإقرار حقّاً بأنّ من رأى هذه الأشياء كلّها قد ينعم بحلوله في الفردوس الأرضي؟ وحتّى لو

أمكن ذلك، فإنّ أحدا من الأحياء لن يكون من الوقاحة بحيث يحكي كلّ هذا، لأنّه ينبغي لبعض الأسرار أن تبقى طيّ كتمان من شهدها إذا كان من شهدها متواضعا وصادقا.

- لتكن مشيئة الربّ الاّ يظهر على وجه البرية كائنٌ على هذا القدر من الغرور، علّق باودولينو قائلا، لئلاّ يخون الثقة التي حباه بها الربّ إلهنا.

- لا بدّ إذاً أنكما سمعتما بقصّة الإسكندر الكبير، الذي زعموا أنّه وصل إلى ضفاف الغانج وبلغ سوراً سار بمحاذاته على طول مجرى النهر، لكنّه كان سوراً خلواً من أي باب، وبعد ثلاثة أيّام من الملاحة في مياه النهر أبصر في السور كوّةً أطلّ منها شيخٌ؛ طالب المسافرون بأن تؤدّي المدينة جزيةً للإسكندر، ملك الملوك، غير أنّ الشيخ أجاب بأنّ هذه المدينة هي مدينة الأبرار. من غير الممكن أن يكون الإسكندر، وهو ملك عظيم لكنّه وثني، قد وصل إلى المدينة السماوية، لذا فإنّ ما شهده، وشهده تاغدالوس، هو الفردوس الأرضي. وهو ما أراه أنا في هذه اللحظات...

- أين؟

- هناك، وأشار إلى ركن من الحجرة. أرى مطرحاً تعشب فيه المروج نزِهةً ومخضرّة، مزيّناً بالورود والأعشاب العطِرة، ومن حوله تفوح الروائح الحلوة أنشقها فتزول عني كلّ حاجة إلى طعام أو شراب. هناك مرجة مزهرة فيها أربعة رجال تلوح عليهم سيماء الجلال، رئيسهم متوّج بالذهب وأغصان نخيل بيديه... أسمع إنشادا، أشتمّ رائحة بخور، آه، يا ربّي، في فمي طعم عسل حلو المذاق... أرى كنيسةً من بلّور وفي وسط مذبحها ينبجس ماءٌ ناصع كالحليب. تبدو الكنيسة، من الناحية الشمالية، كأنّها حجر كريم، ومن الناحية الجنوبية، كأنّها في لون الدماء، ومن غربها ناصعة كالثلج، وفوقها تلمع نجوم لا تحصى أشدّ بريقا من النجوم التي نبصرها في سمائنا. أرى رجلا أبيض الشعر كالثلج، مكسوّاً

بأرياش الطيور؛ عيناه تكادان تكونان محتجبتين تحت حاجبيه الكثّين المسدلين. يدلّني باسطاً ذراعه على شجرة أبدا لا تشيخ وتبرأ من علّة أولاء الذين يفيئون إلى ظلّها، وعلى شجرة أخرى بوريقاتها الملّونة بكلّ ألوان قوس القزح. ولكن لمَ أرى، الليلة، كلّ هذه الأشياء؟

– ربّما قرأت عنها في كتاب ما، وجعلتِ الخمرةُ أن تطفو مجدَّداً على عتبة روحك، أجابه عبدول قائلا. ذاك الرجل الفاضل الذي عاش على أرض جزيرتي، والذي يدعى القديس براندان قد أبحر في كلّ البحار حتّى تخوم الأرض القصوى واكتشف جزيرة مكسوّة بالعنب الناضج، بعضه أزرق وبعضه بنفسجي وبعضه الآخر أبيض، وفيها سبعة ينابيع عجائبية وسبع كنائس، إحداها من البلّور والثانية من الجاد والثالثة من اللازورد والرابعة من الزبرجد والخامسة من الياقوت الأحمر والسادسة من الزمرّد والسابعة من المرجان، ولكلّ منها سبعة مذابح وسبعة مصابيح. وأمام الكنيسة، في وسط ساحة، ينتصب عمود من حجر خلقيدونية اليمان مثبت على قمّته دولاب يدور محمّلا بالجلاجل.

– لا، لا، ما أتحدّث عنه أنا ليس جزيرة، قال بورون حانقاً، إنّها أرض بجوار الهند حيث أرى بشراً لهم آذان أكبر من آذاننا، ولسان مزدوج يتيح لهم أن يتحدّثوا إلى شخصين في وقت معاً. وكم من المحاصيل، حتّى كأنها تنمو من تلقائها...

– طبعاً، قال باودولينو متأوّلا، فينبغي ألاّ ننسى ما جاء في سفر الخروج حيث وعِد شعب الله بأرض **تَدُرُّ لبناً حليباً وعسلاً**.

– دعونا لا نخلط بين أمرين، قال عبدول، بين سفر الخروج وأرض الميعاد، وهي أرض صارت موعودة بعد السقوط في حين أنّ الفردوس الأرضي كان أرض أجدادنا قبل السقوط.

– يا عبدول، لسنا هنا في معرض المساجلة، disputatio؛ كما لسنا في معرض تعيين مكان نقصده، بل أن نفهم كيف ينبغي أن يكون المكان الذي يودّ كلّ واحد منّا أن يذهب إليه. فمن البديهيّ أنّه إذا كانت عجائب

الدنيا هذه قد وجدت ولم تزل، ليس فقط في الفردوس الأرضي بل أيضاً في الجزر التي لم تطأها أقدام حواء وآدم من قبل، فلا بدّ أن تكون مملكة الراهب جان شبيهة بها. امّا ما يعنينا نحن، فهو أن نفهم كيف يمكن أن توجد مملكة للوفرة والفضيلة حيث لا وجود للكذب والجشع والفسق. أي بمعنى آخر: لمَ ينبغي للمرء أن يصبو إليها بوصفها المملكة المسيحية بامتياز؟

- ولكن من دون مغالاة، قال عبدول موصياً، وإلاّ لما آمن أحد بوجودها: أقصد، أنّ أحدا لن يصدّق بعد ذلك أنّه من الممكن الذهاب إلى هذا الحد من البعد.»

قال: «بعد». قبل ذلك بقليل كان باودولينو قد حسب، لفرط ما أوغلا في تخيّل الفردوس الأرضي، أنّ عبدول نسي، لأمسية على الأقل، هواه البعيد. لكن لا. كان لا يزال ماثلا في ذهنه. كان يرى الفردوس لكنّه يبحث فيه عن أميرته. والحقّ أنّه كان يهمس، وقد بدأ مفعول العسل بالزوال شيئل فشيئا، «ربّما ذات يوم سوف نذهب إلى هناك، lanquan li jorn son lonc en may، أوتعلمين، حين تتطاول الأيّام في شهر أيّار...»

جعل بورون يضحك بصوت خفيض.

«هاكَ يا سيّد نيسيتاس، قال باودولينو، كنت حين أنصرف عن ملذّات هذه الدنيا، أصرف لياليّ في تخيّل عوالم أخرى. مستعينا ببعض الخمر أحياناً، وببعض العسل الأخضر أحياناً. ليس هناك ما هو افضل من تخيّل عوالم أخرى، قال، لكي ننسى كم هو شاق العالم الذي نحيا في كنفه. أو في الأقلّ، هذا ما كنت أراه آنذاك. فلم اكن قد أدركت بعد، أنّك لفرط تخيّلك العوالم الأخرى، ينتهي بك المطاف إلى تغيير هذا الذي تعيش فيه أيضا.

- فلنسعَ، في الوقت الحاضر، إلى العيش بصفاء في هذا العالم

الذي حبتنا به المشيئة الإلهية، قال نيسيتاس. فالجنويون، أصحابنا الذين لا يضاهون، قد أعدّوا لنا الكثير من أطايب مطبخنا. تذوّق هذا الحساء المكوّن من صنوف متنوّعة من السمك النهري والبحري. ربّما كانت لديكم، في بلادكم أيضا، أسماك لذيذة، لكنّي أحسب أن مناخكم البارد لا يتيح لها أن النماء على نحو ما يتاح لها في بروبونتس مرمرة. نحن نعمد إلى إضافة البصل المقلي بزيت الزيتون إلى الحساء، ونخلطه بالشمرة وبأعشاب أخرى، إلى كأسين من النبيذ الصرف. ثمّ يسكب الحساء على شرائح الخبز هذه، وقد تضيف عليها، إذا شئت، بعضاً من الأفغولمون، ذاك المرق المكوّن من صفار البيض وعصير الليمون الحامض، والممزوج بقليل من خلاصة الدسم. اعتقد أنّ آدم وحواء كانا يأكلان، في الفردوس الأرضي، طعاماً كهذا. ولكن قبل الخطيئة الأصلية. أمّا بعدها، فقد اضطرّا، من دون شك، إلى التهام الكرش، كما في باريس.»

9

باودولينو يوبّخ الإمبراطور ويغوي الإمبراطورة

كان باودولينو يقضي، في باريس، شتاءه الرابع، بين دروس ليس فيها مشقّة وبين تخيّلات جنّة عدن، عندما الحّت عليه رغبة في لقاء فردريك مجدّداً، ولقاء بياتريس، خاصّة، التي فقدت في ذهنه المتعطّش إليها أي قوام دنيوي لتغدو نزيلة ذلك الفردوس على غرار أميرة عبدول النائية.

كان رينالد قد طلب من الشاعر، ذات يوم، أن ينظم قصيدة للإمبراطور. فراح الشاعر يماطل، وقد أسقط في يده، مستمهلاً سيّده ريثما يهلّ عليه الإلهام المناسب، وبعث لباودولينو مستنجداً. وكان صاحبنا هذا قد نظم قصيدة عصماء، Salve mundi domine، جعل فيها فردريك في مرتبة يقصر عنها الملوك الآخرون، وحيث يوصف نيره بأنّه النير الأرقّ. غير أنّه ما كان ليثق بتوسّط رسول يحملها إليه، فآثر أن يعود إلى إيطاليا التي كانت، في الأثناء، قد شهدت أحداثاً جساماً يجهد باودولينو في سردها على مسامع نيسيتاس.

«كان رينالد قد كرّس حياته لرسم صورة للإمبراطور بوصفه سيّد العالم، وأمير السلام، ومصدراً لكلّ شرعة من دون أن يكون خاضعاً لأيّ منها، الملك والكاهن معاً، على غرار ملكيصادق؛ ومن كان على هذه الصورة لا يعقل ألاّ يجبه البابا. والحال أنّ فترة حصار كريما شهدت وفاة

البابا أدريان، الذي توّج فردريك في روما، وانتخب الكرادلة في غالبيّتهم خلفاً له هو الكاردينال باندينلّي الذي صار البابا ألكسندر الثالث. واعتبر رينالد أنّ ما جرى بمثابة نكسة وسوء طالع بحقّ لأنّه كان على خصام دائم مع باندينلّي الذي لا يقبل جدالاً في أولوية رئاسة البابا. لا أدري ما هي الخطّة التي رسمها رينالد، غير أنّه نجح في حثّ عدد من الكرادلة وأعضاء مجلس الشيوخ على انتخاب بابا آخر، هو فيكتور الرابع، يستطيع هو وفردريك أن يمليا علَيه قراراته. طبعاً، سارع ألكسندر الثالث إلى إصدار حَرْم كنسي يشمل فردريك وفيكتور معاً، ولم يكن كافياً الاحتجاج بأنّ ألكسندر ليس البابا الفعلي وأنّ حَرْمَه باطلٌ، ذاك أنّ ملوك فرنسا وإنكلترا كانوا يميلون إلى الاعتراف به، هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى، فإنّ مدن إيطاليا كانت لترحّب، بأية حال، بحبرٍ قد يعلن بأنّ الإمبراطور منشقّ، وعليه فإنّ الولاء له ليس متوجباً على أحد. وفضلا عن ذلك، راجت أنباء مفادها أنّ ألكسندر لجأ إلى الدسّ لدى قيصر كم مانويل، سعياً وراء إمبراطورية أوسع من إمبراطورية فردريك، يمكنه الركون إلى مساندتها. وإذا شاء رينالد أن يكون فردريك الوريث الوحيد للإمبراطورية الرومانية، فينبغي له أن يجد البرهان الملموس على نسبه الواضح. ولهذا السبب طلب من الشاعر أن ينكبّ على هذه المهمّة بأسرع وقت.»

كان نيسيتاس يجد مشقّة بالغة في تتبع قصّة باودولينو عاماً بعد عام. ولم يكن ذلك فقط لما بدا له من تشوّش في تسلسل الأحداث واختلاط ما قبل بما بعد، بل أيضاً لأنّه لاحظ تكراراً في الأحداث المنسوبة إلى فردريك، وهي دائما الأحداث نفسها، فما عاد يفهم متى عاود أهل ميلانو حمل السلاح، ومتى عاودوا تهديد لودي، ومتى سار الإمبراطور مجدّداً إلى إيطاليا. «فإذا كانت هذه مدوّنة وقائع، راح يقول في سرّه، لكفى قارئها أن ينتقي صفحة منها كيفما اتفق له، ليجد أن الأحداث هي هي. أشبه بتلك الأحلام التي تتكرّر فيها الحكاية نفسها، ولا يأتي الخلاص إلاّ باليقظة.»

على أيّة حال، كان على نيسيتاس أن يفهم بأنّ أهل ميلانو عادوا، منذ نحو عامين، إلى التسبّب بالمتاعب في صلتهم بفردريك، بين إثارة القلاقل والمناوشات، فعمد الإمبراطور، خلال السنة التالية، إلى محاصرتهم من جديد بمساندة أهالي نوفاريا وآستيا وفركوي، وبمساندة الماركيز دي مونفيرّا والماركيز مالاسبينا وكونت دي بياندراتي، ولوديا برغام وكريمونيا وبافيا وبعض المدن الأخرى. وذات يوم من أيّام الربيع، حمل باودولينو، الذي كان قد بلغ العشرين من عمره، قصيدته Salve mundi domine، في حقائبه، ومعها رسائل بياتريس التي آثر ألاّ يتركها في باريس عرضةً للصوص، ووصل إلى أسوار المدينة المحاصرة.

«أرجو أن يكون فردريك قد تعاطى مع ميلانو أفضل من تعاطيه مع كريما، قال نيسيتاس.

- بل أسوأ، بحسب ما قيل لي لدى وصولي. لقد أمر بأن تفقأ عيون ستّة أسرى من ملزو وورونكات، وأن تفقأ عين واحدة لميلاني لكي يتمكّن الأعور من سَوْق الآخرين إلى ميلانو، غير أنّه، عوض ذلك، جدع له أنفه. وكان حين يمسك بالذين يحاولون إدخال المؤن إلى ميلانو، يأمر ببتر أيديهم.

- إذاً، هو أيضا كان يفقأ العيون!

- كان يفقأ عيون العامّة لا السادة، كما تفعلون أنتم. وأعين أعدائه، لا أقربائه!

- أتبرّر له أفعاله؟

- الآن، ولكن ليس في ذلك الوقت؛ لقد أغضبني كثيراً. ولم أشأ حتّى أن التقيه. ولكن، بعد ذلك، كان ينبغي أن أقدّم له، بحسب الأعراف، آيات الولاء، فكان لا بدّ من لقائه.»

هـمّ الإمبراطور بمعانقته مغتبطاً لرؤيته بعد أعوام طويلة، لكنّ

باودولينو لم يستطع أن يتمالك نفسه، فتراجع إلى الوراء، وبكى، ناعتاً إيّاه بالسوء، قائلاً له إنّه لا يعقل أن يكون منهلاً للعدل إذا تصرّف كما يتصرّف الظالمون، وبأنّه يخجل أن يكون ابنه.

لو أنّ أحداً آخر تجرّأ على نعت فردريك بما نعته به باودولينو لكان تعرّض لا لاقتلاع عينيه وجدع أنفه وحسب، بل لجزّت أذناه أيضاً. لكنّ ما جرى هو أنّه أخذَ بغضب باودولينو، وحاول، هو الإمبراطور، أن يبرّر أفعاله. «إنّه عصيان، عصيان على القانون، يا باودولينو، وأنت كنت أوّل القائلين بأنّ القانون هو أنا. لا أستطيع أن أغفر، لا أستطيع أن أكون رحيماً. من واجبي أن أكون عديم الشفقة. أتظنّ بأنّ الأمر يستهويني؟

- إنّه يستهويك بالتأكيد، يا أبي؛ هل كان ينبغي لك حقّاً أن تقتل كلّ من قتلتَ في كريما، منذ عامين، وأن تقطّع في أجساد أولئك الميلانيين، لا أثناء معركة ما، بل بدم بارد، من أجل ردّ اعتبار، أو ثأر أو ردّ إهانة؟

- أفّ، إنّك تتبع مآثري، كأنّك توأم راهوين! إذا فاعلم أنّي ما فعلت لم يكن ردّاً لاعتبار بل للعبرة. إنّها الوسيلة الوحيدة لإخضاع المتمرّدين من الرعايا. أتظنّ أن قيصر أو أغسطس كانا أكثر تسامحاً؟ إنّها الحرب يا باودولينو، أتعلم، أنت، ما هي الحرب؟ أنتَ، من أراد أن يكون تلميذاً في باريس، أتعلم أنّك حين تعود سأجعلك بين معاونيّ في البلاط، وأنّني ربّما أسبغتُ عليك لقب فارس؟ أوتحسب أنّ بإمكانك أن تصحب الإمبراطور الروماني المقدّس في غزواته من دون أن تتسخ يداك؟ هل تأنف من الدماء؟ إذا قل لي هذا فأجعلك راهباً. ولكن في هذه الحال، انتبه جيّداً، سيكون عليك أن تنذر العفّة، خصوصاً أنّ ما بلغني من مغامراتك في باريس ليس مقنعاً، حقّاً، لكي أرى فيك راهباً. كيف أصبتَ بهذه الندبة؟ يدهشني حقّاً أنّها في وجهك، وليست في قفاك!؟

- ربّما يكون جواسيسك قد نقلوا إليك أقاويل عن مغامراتي في باريس، أمّا أنا، فبلغتني، دونما حاجة إلى جاسوس، وعن أكثر من لسان، تفاصيل قصّتك المشوّقة في أدريانوبوليس. فما أحلى مغامراتي مع

الأزواج الباريسيين مقارنة بمغامراتك، أنت، مع الرهبان البيزنطيين.»

بهتَ فردريك وامتقع وجهه. كان يعلم جيّداً عما يتحدّث باودولينو (وقد بلغه ذلك عن لسان أوتون). فعندما كان لا يزال دوق سواب ارتدى وشاح الصليب وشارك في الحملة الثانية ما وراء البحار، لنجدة مملكة أورشليم المسيحية. وفيما كانت الجيوش المسيحية تتقدّم بمشقّة بالغة، بجوار أدريانوبوليس، تعرّض أحد نبلائه، إذ ابتعد عن الركب، لهجوم، وقتل على يد أشقياء من الأهلين على الأرجح. وكان التوتّر سائداً، حتّى قبل الحادثة، بين اللاتينيين والبيزنطيين، فاعتبر فردريك الأمر إهانةً شخصية. وثارت ثائرته كما جرى في كريما وأمر بالهجوم على دير في الجوار وقتل كلّ الرهبان فيه.

بقيت الحادثة وصمة في سيرة فردريك؛ تظاهر الجميع بنسيانها، حتّى أوتون الذي أغفل ذكرها في Gesta Friderici، في حين أنّه ذكر، في الحقبة التي تلتها مباشرة، كيف تمكّن الدوق الشاب من النجاة من سيول عنيفة، على مقربة من القسطنطينية، وما في ذلك من دلالة على أنّ الربّ لم يتخلّ عنه. شخص واحد لم ينسَ، هو فردريك، وكان ردّ فعله دليلاً قاطعاً على أنّ جرح الحادثة لم يندمل. من الشحوب مالت سحنته إلى الاحمرار، وأمسك بشمعدان من البرونز وارتمى على باودولينو كأنّما يريد قتله. لكنّه تمالك نفسه، بمشقّة، ورمى الشمعدان من يده، جاذباً إيّاه بقوة من ياقة ثوبه، وقال له، كازّاً بشدّة على أسنانه: «بحقّ أبالسة جهنّم مجتمعين، إيّاك أن تتلفّظ مرّةً ثانية بما نطقت به لتوّك.» وعلى الأثر، غادر الخيمة مسرعاً. لكنّه التفت مجدّداً، عند العتبة وقال له: «اذهب لتقدّم آيات الولاء للإمبراطورة، ثمّ عد أدراجك إلى صحبك، أشباه النساء، في باريس.»

«سوف ترى إذا كنت، أنا، من أشباه النساء، سوف ترى ما أنا قادر على الإتيان به»، غمغم باودولينو قائلاً وهو يغادر المعسكر، وما كان

يدري، هو نفسه، ما الذي يقدر أن يصنعه، سوى أنّه كان يشعر بالكراهية حيال أبيه بالتبنّي، وبأنّه يودّ، من كلّ قلبه، أن يؤذيه.

كان لا يزال حانقاً لمّا بلغ مسكن بياتريس. لثَمَ، بكياسة، هُدبَ ثوب الإمبراطورة، ثمَّ يدها، وعجِبت لمرأى الندبة على وجهه، فبادرته، قلِقةً، بعددٍ من الأسئلة. أجاب باودولينو، متظاهراً بعدم الاكتراث، أنّ الأمر لم يعدُ كونه شجاراً مع نفرٍ من قطّاع الطرق، ومثل هذا يلقاه المرء غالباً خلال أسفاره في بقاع العالم، فحدّجته بياتريس بنظرات إعجاب، إذ ينبغي القول، صدقاً، إنّ ذاك الفتى ذا العشرين عاماً، بوجهه الهيثمي الذي زادته الندبة رجولة، قد صار، اليوم، ما يسمّى على جري العادة، بالفارس الوسيم. دعته الإمبراطورة إلى الجلوس لكي يطلعها على آخر أخباره. وبينما انصرفت هي إلى التطريز جالسةً تحت قبّة بغدادية فاخرة، افترش، هو، الأرض عند قدميها، وراح يحكي لها، من دون أن يدري حقّاً ماذا يقول، لكي يهدئ من روعه قليلاً. لكنّه فيما يستفيض بالسرد، متأمّلاً وجهها الرائع الحُسن، من أسفل إلى أعلى، كان يعاوده الشعور بكلّ أشواق تلك السنوات المنصرمة - مجتمعةً، مضاعفةً أضعافاً - ما لم تقل له بياتريس، وقد افترّت شفتاها عن واحدة من ابتساماتها الساحرة: «ولكنّك لم تكتب لي لا بقدر ما أوصيتك، ولا بقدر ما كنت أشتهي.»

ربّما تفوّهت بتلك العبارات بتلقائية العتاب الأخوي، أو ربّما فعلت لكي تجعل الحديث مشوّقاً، ولكن بالنسبة لباودولينو ما كانت بياتريس لتنطق بكلمةٍ إلاّ إذا كان كلامها بلسماً وسمّاً. فها هو، مرتعد اليدين، سحب من ثنية قميصه عند النحر، رسائله إليها، ورسائلها إليه، وإذ قدّمها لها، همس قائلاً: «لا، لقد كتبت كثيراً، وأنت يا سيّدتي، قد بعثت برسائل جوابية.»

لم تكن بياتريس مدركةً ما حقيقة الأمر، فأخذت الأوراق وشرعت في قراءتها، بصوت خفيض لكي يتاح لها أن تفكّ حروف تلك الكتابة المزدوجة. لبث باودولينو على بعد خطوتين منها، متعرّقاً، فاركاً كفّيه،

موبّخاً نفسه، في سرّه، ناعتاً فعلته هذه بالجنون المطبق، فماذا لو طردته مستعينةً بحرّاسها، وكم كان يودّ في تلك اللحظة أن تطول يده سلاحاً لكي يغرزه في صميم قلبه. كانت بياتريس تتابع القراءة، فيما يزداد احمرار خديها، ويرتعش صوتها إذ تتهجّى تلك العبارات المضطرمة، لكأنّها تحيي قدّاساً تجديفيّاً؛ ثمّ نهضت من مكانها، ولمرّتين على الأقلّ بدت مترنّحةً، ولمرّتين صدّت باودولينو الذي دنا منها ليسندها، ثمّ بصوت خافت، اكتفت بأن خاطبته قائلة: «آه، يا فتايَ يا فتايَ، ماذا صنعت؟»

اقترب منها باودولينو مجدداً لكي ينتزع الأوراق من يديها، مترنّحاً، ومترنّحةً مدّت يدها لكي تداعب قذاله، فاستدار هو، مجانبة، لأنّه لم يكن قادراً على النظر في عينيها، فلامست بطرف أصابعها ندبته. ولكي يجتنب هذه الملامسة أشاح بوجهه مجدّداً، لكنّها كانت قد اقتربت منه أكثر، فألفيا نفسيهما وجها لوجه، لا بل كاد وجهاهما يتلامسان. شبك باودولينو يديه خلف ظهره لكي لا تسوّل له نفسه معانقتها، ولكنّ شفاههما كانت قد تلامست وبعد تلامسها انفرجت قليلاً بحيث إنّه لهنيهةٍ ما، فقط لهنيهة واحدة من هنيهات نادرةٍ استغرقتها تلك القبلة، ومن خلال الشفاه المنفرجة، حدثَ أيضاً أن تلامس لساناهما.

وإذ انصرمت هذه الأبدية الخاطفة، تراجعت بياتريس قليلاً إلى الوراء، وقد غدت شاحبةً كأنّ بها علّة، وخاطبت باودولينو محملقةً بقسوة في عينيه، قائلة: «بحقّ أولياء الفردوس جميعا، لا تكرّر، ما حييت، مثل فعلتك هذه.»

نطقت بعباراتها تلك من دون غضب، بل بنبرة تكاد تكون خالية من أي إحساس، كأنّه على وشك أن يغمى عليها. ثمّ اغرورقت عيناها بالدموع، وأردفت قائلةً بعذوبة: «أرجوك!»

كان باودولينو قد هوى على ركبتيه منحنياً حتّى كاد جبينه يلامس الأرض، ثمّ غادر مسرعاً لا يلوي على شيء. فيما بعد أدرك أنّه اقترف، في لحظة واحدة، أربع جرائم: لقد أهان جلالَ الإمبراطورة، وتدنّس

بالزنا، وخان ثقة أبيه، واستسلم لإغواء الانتقام الدنيء. «انتقام، لانّه، كان يردّد في سرّه، لو أن فردريك لم يرتكب تلك المذبحة، ولو لم يشتمني، ولو لم يعتصر قلبي، أنا، ذلك الشعور بالكراهية، هل كنت لأفعل ما فعلت؟» وفي سعيه ألاّ يجيب عن هذا السؤال، أدرك أنّ لو كانت الإجابة عنه هي ما يخشى، يكون بذلك قد ارتكب الجريمة الخامسة، وهي أقبح الخطايا؛ يكون قد لطّخ، على نحوٍ لا لبس فيه، فضيلة الرجل الذي يعتبره مثالاً، فقط لكي يشبع ضغينته؛ يكون قد أحال ما صار الغاية من وجوده إلى مجرّد أداة بائسة.

«لقد لازمني هذا الشكّ، يا سيّد نيسيتاس، أعواماً طويلة، وإن كنت لم أستطع أن أنسى روعة تلك اللحظة الموجعة. كنت لا أزال أزداد عشقاً، ولكن هذه المرّة من دون أي رجاء، ولو في الحلم. ذلك أني لو كنت راغباً، حقّاً، بغفران ما، فينبغي أن تتبدّد صورة بياتريس حتّى من أحلامي. وفي قرارة نفسي، لطالما كنت أردّد، في ليالي الأرق التي لا تحصى، لقد نلتَ كلّ شيء، وليس لك أن تصبو إلى شيء آخر.»

كان الليل يهبط على القسطنطينية، وما عادت السماء موشومة باحمرار اللهب. كانت النيران على وشك أن تخبو، وفقط فوق بعض مرتفعات المدينة، كان يتراءى ومض الجمر لا ألسنة النيران. في الأثناء كان نيسيتاس قد طلب أن يؤتى لنا بكأسي نبيذ بالعسل. فراح باودولينو يرشف كأسه ساهياً في الفراغ. «إنّه نبيذ تاسوس. لقد وضع في الجرّة التي حفظ فيها، عجين الحنطة الرومية ممزوجاً بالعسل. بعد ذلك يمزج نبيذ صرف منكّه بنبيذ آخر أكثر سلاسة. إنّه سَلِس أليس كذلك؟» سأله نيسيتاس. «بلى، سلِس جداً»، أجابه باودولينو المقيم على سهوه كأنّه في مكان آخر. ثمّ وضع كأسه أمامه.

«في تلك الليلة، قال خاتماً، قرّرتُ ألاّ أبدي، ما حييت، رأياً بفردريك، لأني كنت أشعر بأنّي مذنب أكثر مما هو مذنب. فما هو

الأدهى، أن تجدع أنف عدوّ أو أن تقبّل زوجة المحسن إليك على فمها؟»

كان قد ذهب، في اليوم التالي، ليطلب الغفران من أبيه بالتبنّي للعبارات القاسية التي تلفّظ بها بحقّه، واحمرّ وجهه خجلاً حين ألفى فردريك يبدي له ندمه على ما فعل. عانقه الإمبراطور معتذراً لما أبداه من غضب، قائلاً له إنّه يفضّل على المرائين المئة الذين يحيطون به، إبناً مثل باودولينو، قادرا على مصارحته بالحقيقة حين يخطئ. «حتّى الكاهن الذي أعترف له بخطاياي لا يجرؤ على ذلك، قال له متبسّماً. أنت الشخص الوحيد الذي أثق بحكمه.»

بدأ باودولينو ينال جزاء جريمته بأن يكوى بنيران الخجل.

10

باودولينو يعثر على الملوك المجوس ويطوّب شارلمان قدّيساً

كان باودولينو قد بلغ أسوار ميلانو في الوقت الذي بات فيه أهل ميلانو عاجزين عن الصمود بسبب خلافاتهم الداخلية أيضاً. وفي آخر المطاف أوفدوا وسطاء منهم للتفاوض بشأن استسلامهم، وكانت الشروط هي هي شروط مجلس رونكاليا، وكأنّ الحال بمضيّ أربع سنوات، وما رافقها من قتل وخراب، عادت إلى ما كانت عليه قبل أربع سنوات. لا بل إنّ الاستسلام الحالي أشدّ إذلالاً من سابقه. كان فردريك يميل إلى منحهم غفرانه، غير أنّ رينالد كان يقدح شرراً، ومن دون رأفة. إذ ينبغي أن يلقنوا درساً يكون عبرة للجميع، كما ينبغي إرضاء المدن التي ساندت الإمبراطور في معركته ليس حبّاً به بل بغضاً بأهل ميلانو.

«يا باودولينو، قال الإمبراطور، لا تلمني أنا هذه المرّة. فأحياناً حتّى الإمبراطور يجد نفسه مجبراً على مجاراة مستشاريه.» ثمّ أضاف قائلاً بصوت خفيض: «إنّ رينالد هذا يخيفني أنا أكثر مما يخيف الميلانيين.»

وهكذا أمر بأن تمحى ميلانو عن وجه الأرض، وأمر بإخراج كلّ الناس منها، نساءً ورجالاً.

بدت الحقول من حول المدينة تعجّ بالميلانيين الهائمين على وجوههم، بعضهم لجأ إلى المدن المجاورة، أمّا بعضهم الآخر فقد لبث

أمام الأسوار أملاً بأن يغفر لهم الإمبراطور ويسمح لهم بالعودة إلى ديارهم. كان المطر يهطل غزيراً واللاجئون يرتعدون من البرد ليلاً، والأطفال منهم يسقمون والنساء ينتحبن والرجال، وقد أسقط في يدهم، يتهالكون على جنبات الطريق رافعين قبضاتهم باتجاه السماء: إذ كان أرأف بهم أن يصبّوا اللعنة على خالقهم لأنّ رجال الإمبراطور يجولون في الأنحاءِ بينهم ويسألون عن أسباب شكاواهم الصارخة تلك.

كان فردريك قد حاول أوّلاً أن يفني المدينة المتمرّدة بحرقها، ثمّ ارتأى أنّه ربّما كان من الأفضل أن يترك أمرها للإيطاليين الذين يبزّونه حقداً على ميلانو. وهكذا ترك لأهل لودي أن يدمّروا المدخل الشرقي المسمّى باب رنزا، ولأهل كريمونيا أن يخرّبوا المدخل المسمّى باب روما، ولأهل بافيا الاّ يدعوا حجراً على حجر في باب بافيا، ولأهل نوفاريا أن يسوّوا باب فركوي بالأرض، ولأهل كوما أن يزيلوا باب كوما من الوجود، ولأهل سيبريو وأهل مارتيزانا أن يحيلوا باب نويفي إلى كومة واحدة من الركام. ومثل هذا التكليف ما كان إلاّ ليرضي أهل تلك المدن الذين لم يتوانوا حتّى عن بذل مبالغ طائلة للإمبراطور لكي يتمكّنوا أن يصفّوا حساباتهم، بأيديهم، مع ميلانو المهزومة.

غداة بدء أعمال التدمير، خاطر باودولينو بالتسلّل إلى داخل الأسوار. في بعض الأماكن لم تكن الرؤية ممكنة إذ غلّفتها سحابة من الغبار. ومن يخوض غمار الغبار قد يبصر، هنا، أنفاراً أوثقوا جبهةَ بناء بالحبال وراحوا يجذبونها، جماعةً، ريثما تهوي، وهناك، ثلّةً من البنّائين المهرة وقد تسلّقوا سطح كنيسة وراحوا يعملون المعاول فيه حتّى تمسي الكنيسة بلا سقف، فيعمدون، من ثمّ، إلى هدم جدرانها طرقاً ببيازرهم أو تعرية عُمُدها بحفرها عند القاعدة.

لبث باودولينو بضعة أيّام جوّالاً في الشوارع المقوّضة، وشهد انهيار برج الجرس لأكبر كنائس المدينة والذي كان آيةً في الجمال والحسن ولا مثيل له في إيطاليا بأسرها. كان أكثر هؤلاء هياجاً، أهل لودي الذين لا

يهدأ لهم بال إلاّ إذا نالوا ثأرهم: فقد كانوا سبّاقين إلى إنجاز حصّتهم من التدمير، ثمَّ هرعوا لمساعدة أهل كريمونيا في جعل باب روما سوية الأرض. ومع ذلك، بدا أهل بافيا الأكثر درايةً، فلا يخبطون خبط عشواء ويسيطرون على غضبتهم: فقد كانوا يحتّون المَلْتَ من بين الأحجار الملتصقة ببعضها البعض، أو حتّى يحكّون عند قاعدة الجدران، فيهوي البناء من تلقائه.

باختصار، ولمن لم يدرك، بعد، ما آلت إليه حال ميلانو، أقول إنّها كانت أشبه بورشةٍ نشطةٍ حيث الكلُّ يعمل بمرحٍ ولا يغفل عن تسبيح الله. سوى أنّ الزمان بدا فيها سائراً إلى الوراء: فعوضَ أن تنبثق من العدم مدينة جديدة، كانت مدينة عريقة تستحيل غباراً وأرضاً جرداء. مستغرقاً في وساوس مثل هذه، وفيما أمر الإمبراطور بأن تقام احتفالات باذخة في بافيا، يوم عيد الفصح، هرع باودولينو لاكتشاف عجائب مدينة ميلانو (mirabila urbis Mediolani) قبل أن تزول المدينة عن وجه الأرض. هكذا أتيح له أن يقف قبالة كاتدرائية رائعة بقيت على حالها، وأن يشهد من حولها أهل بافيا منهمكين بتدمير بناء ضخم لا تفتر لهم همّة حتّى في يوم عيد. ومنهم بلغه أنّ الكنيسة المعنية هي كاتدرائية سان-أوستورج، وأنّهم غداً سيتدبّرون أمرها: «إنّها أجمل من أن تظلَّ قائمة، أليس كذلك؟» قال له أحد المخرّبين بنبرة أرادها مقنعة.

دخل باودولينو إلى حرم الكاتدرائية فألفاه بارداً، ساكناً، وخاوياً. كانت نُهبت كلّ المذابح والخلوات الملحقة بها؛ ثمّ أوَت إليه كلابٌ لا أحد يعلم من أين جاءت، وإذ لقيت فيه أَنساً جعلته جحرها وراحت تبول أسفل العُمُد. بجوار المذبح الكبير، بقرة شاردة تئنّ. كانت دابّةً صبوحاً وكان مرآها سانحةً أوحت لباودولينو تأمّلاتٍ عميقة في الحقد الذي أعمى بصائر المنهمكين بتدمير المدينة لكي تفنى بأسرع وقت، وغفلوا عن مثل هذه الغنائم الشهية.

في خلوة للصلاة جانبية، بقرب تابوت من حجر، رأى راهباً عجوزاً

منتحباً نحيب يأسٍ أو الأحرى، أنينَ حيوان مجروح؛ كان وجهه أشدّ بياضاً من بياض عينيه، وجسمه الهزيل يرتعش على وقع أنينه. حاول باودولينو أن يسعفه فقدّم له قارورة ماء كان يحملها.

«شكراً لك أيّها المسيحي الصالح، قال العجوز، ولكن لم يبقَ لي، بعد الآن، إلاّ انتظار الموت.

- لن يقتلوك، قال باودولينو، لقد انتهى الحصار، وأبرم السلام، ومن هم في الخارج إنّما يريدون تدمير كنيستك لا أن ينتزعوا حياتك.

- وما قيمة حياتي من دون كنيستي؟ لكنّ هذا هو عقاب السماء العادل لأنّني منذ سنوات عدّة، أردتُ، وبدافع الطموح، أن تكون كنيستي هي الأبهى والأوسع شهرةً بين الكنائس، فاقترفت خطيئة.»

وما هي الخطيئة التي قد يرتكبها عجوز مثله؟ سأله باودولينو.

«منذ سنين مضت، اقترح عليّ رحّالة مشرقي أن أشتري أبهى ذخائر المسيحية قاطبةً، أي جثامين المجوس الثلاثة كاملة.

- الملوك المجوس الثلاثة؟ الثلاثة جميعهم؟ كاملةً؟

- المجوس الثلاثة وكاملةً. كانوا يبدون كأنّهم على قيد الحياة، أقصد أنّهم بالكاد يبدون أمواتاً. كنت أعلم أنّ مثل هذا الأمر يجافي العقل، لأنّ المجوس لم يؤتَ على ذكرهم إلاّ في إنجيل واحد، إنجيل متّى، ولا يسهب في الحديث عنهم. فلا يذكر كم كان عددهم، ومن أين أتوا، أو إذا كانوا ملوكاً أو علماء. . . يذكر فقط أنّهم وصلوا إلى أورشليم بعد أن تبعوا نجمة. ما من مسيحي يعلم من أين أتوا وإلى أين عادوا. فمن تُراه يعثر على ضريحهم؟ لهذا السبب لم أجرؤ يوماً على مصارحة الميلانيين بأنّي أحتفظ بهذا الكنز. كنت أخشى أن يدفعهم جشعهم إلى انتهاز الفرصة لجذب المؤمنين من سائر أنحاء إيطاليا متكسّبين من ذخيرة مزيّفة. . .

- إذاً أنت لم ترتكب خطيئة.

– خطيئتي أني خبأت الجثامين في هذا المكان المقدّس. لطالما انتظرت علامة من السماء، لكنّ العلامة لم تأت. والآن لا أريد أن يعثر عليها هؤلاء الهمجيون. فلربّما عمدوا إلى تقاسم الرفات لكي يضفوا جلالاً إلهيّاً على بعض هذه المدن التي تجهد اليوم في تدميرنا. أرجوك، امح كلّ أثر للحماقة التي ارتكبتها ذات يوم. استعن بآخرين، وعد هذا المساء لنقل تلك الذخائر غير الأكيدة، واعمل على إخفائها. فقليل المشقّة هذا وعد لك بسكنى الفردوس، وهي، لعمري، ليست بالأمر اليسير.»

«عندها، يا سيّد نيسيتاس، تذكّرت أنّ أوتون كان قد أتى على ذكر المجوس في معرض الحديث عن مملكة الراهب جان. طبعاً: لو كان الراهب المسكين قد أفشى سرّه وعرضها ببساطة كأنّها جاءته من عدم، لما صدّقه أحد. ولكن هل ينبغي، حقّاً، لذخيرةٍ ما أن ترقى إلى زمن القدّيس أو إلى زمن الحدث الذي كانت جزءاً منه، لكي تكون حقيقية؟

– طبعاً لا. إنّ عدداً كبيراً من الذخائر التي نحتفظ بها، هنا، في القسطنطينية، غير صريحة المصادر، ولكنّ المؤمن الذي يقبّلها يشعر بأنّها تنضح بشذا خارق. الإيمان هو الذي يجعلها حقيقية، وليست هي التي تجعل الإيمان حقيقياً.

– بالضبط. أنا أيضاً حسبتُ أنّ الذخيرة تكتسب قيمةً ما إذا وجدت مكانةً تليق بها في قصّة حقيقية. فلولا قصّة الراهب جان لما كان هؤلاء المجوس سوى خدعةٍ لفّقها تجّار النجود الجوّالين؛ ولكنّهم، في السياق الحقيقي لقصّة الراهب جان، يغدون شهادة حقّ. فالباب ليس باباً إلاّ بوجود بناء من حوله، ومن غير ذلك لا يكون الباب إلاّ ثقباً، لا بل لا يكون ثقباً حتّى، لأنّ الفراغ من دون قِوام من حوله لا يكون حتّى فراغاً. أدركت عندها أنّ لديّ القصّة التي فيها قد يعني المجوس شيئاً. وتراءى لي أنّني إذا كنت أريد أن أبوح بشيء عن الراهب جان لكي أمّهد سبلَ الشرق أمام الإمبراطور، فإنّ امتلاكي لبرهان الملوك المجوس، الوافدين

حتماً من الشرق، من شأنه أن يعزّز حجّتي. كان أولئك الملوك التعساء يرقدون في ضريحهم غافلين عن أهل بافيا ولودي المنصرفين إلى تدمير المدينة التي تحتضن رفاتهم من دون أن تعلم. ليسوا مدينين لها بشيء؛ إنّما هم عابرون، كأنّهم في نُزُلٍ، ريثما يتابعون طريقهم إلى مكانٍ آخر، فهم، في طبعهم، جوّابو آفاق، ألم يسلكوا درباً لا يعلم سوى الله إلى أين تفضي بهم، مقتفين أثر نجمة؟ وقد أنيط بي، أنا، أن أهدي هذه الجثامين الثلاثة إلى بيت لحم جديدة.»

كان باودولينو موقناً من أنّ ذخيرة ملائمة قد تغيّر مصير مدينة، وتجعل منها مقصداً لحجّ متواصل، وتحويل كنيسة الرعية فيها إلى مزار. ولكن من ذا الذي من شأنه أن يبدي اهتماماً بالمجوس؟ راوده اسم رينالد على الفور: صحيح أنّه عيّن رئيساً لأساقفة كولونيا، لكنّه لم يذهب إليها بعد ليثبّت في منصبه. ولا ريب في أن دخوله من باب كاتدرائيّته متبوعاً بالمجوس ليكون ذا وقع حاسم. لطالما سعى رينالد وراء رموز السلطة الإمبراطورية؟ وهاهو واجدٌ بين يديه لا أحد المجوس وحسب بل الملوك الثلاثة، جميعاً، الذين هم في الوقت نفسه رهبان. سأل الكاهن خادم الكنيسة إذا كان باستطاعته أن يرى الجثامين. غير أنّ الكاهن كان يحتاج العون لكي يزحزح غطاء الضريح ويكشف عن المثوى الذي سجيّت فيه الأجساد.

لم يتمكّنا من رفع الغطاء إلاّ بمشقّة كبيرة، لكنّ الأمر كان يستحقّ ما بذل لأجله من جهد. فيا للمعجزة: أجساد الملوك الثلاثة كانت تبدو كأنّ الحياة لا زالت تسري فيها برغم جفاف جلدها الذي صار أشبه بالرَقّ. لكنّه لم يستحل إلى السمرة التي التي تحلّ في الأجساد المحنّطة. إثنان من المجوس كانا لا يزالان يحتفظان بسحنة شبه لبنية، ولأحدهما لحية كثّة بيضاء تطاولت حتّى النحر، كاملة هي أيضاً، وإن قست حتّى بدت شعيراتها أشبه بأسلاك من السكّر، أمّا الآخر فكان أمرد الوجه. الثالث كان

ذا بشرة بلون الآبنوس، لا بسبب تقادم الزمن عليه، بل لأنّه كان، على الأرجح، داكن البشرة في حياته: كان أشبه بتمثال من الخشب، وبدا على خدّه الأيسر ما يشبه الشقّ. كانت له لحية قصيرة، فيما انفرجت شفتاه إلى الأعلى كاشفتين عن سنّين وحيدتين، ضاريتين وبيضاوين. كانت عيونهم جميعاً محملقةً، جاحظةً، مذهولة، وحدقات لامعة كأنّها من زجاج. وكانت أجسادهم مكسوة بمشامل أحدها أبيض والثاني أخضر والثالث أرجواني، وبدت تحت المشامل ثلاثة سراويل خيطت بحسب العادات البربرية لكنّها من الدمقس الخالص شُكّتْ بصفوف من اللآلئ.

هرع باودولينو عائداً إلى المعسكر الإمبراطوري، فالتقى رينالد وحدّثه عن الأمر. أدرك القنصل على الفور أهمية اللقية التي يتحدّث عنها باودولينو، فقال: «يجب أن يتمّ كلّ ذلك في الخفاء وبسرعة. لن نتمكّن من نقل الضريح كما هو، إذ يستحيل إخفاؤه عن أعين الفضوليين. ولو علم أحد من حولنا بحقيقة لقيتك فلن يتردّد في انتزاعه منّا لنقله إلى مدينته هو. سوف أعمل على تجهيز ثلاثة توابيت من الخشب العاديّ، وخلال الليل يتمّ نقل المجوس فيها إلى خارج الأسوار على أنّها جثث ثلاثة من الأصدقاء المقرّبين الذين سقطوا أثناء الحصار. وسوف تتولّى الأمر أنت والشاعر وأحد الخدم فقط. ثمّ نترك التوابيت حيث نضعها من دون إثارة أي شبهة. وقبل أن أعمل على نقلها إلى كولونيا يجب أن تتوفّر لدينا روايات موثّقة عن مصدر الذخيرة وعن المجوس أنفسهم. لذلك سوف تعود، في الغد، إلى باريس حيث لك صلات بأشخاص من العلماء الثقاة، لتحاول أن تجمع كلّ المتاح جمعه حول قصّتهم.»

تحت ستار الليل، تمّ نقل الملوك الثلاثة إلى مدفن كنيسة سان جورج خارج الأسوار. أراد رينالد أن يراهم، ولمّا كان له ذلك، راح يتلفّظ بعبارات لا تليق بمقام أسقف صائحاً: «بهذه السراويل؟ وهذه العمائم التي تشبه عَمْراتِ المهرّجين؟

- مولاي، رينالد، واضح أنّ حكماء الشرق كانوا، في ذلك الزمان،

يرتدون زيّاً مماثلاً؛ لقد أتيح لي لأعوام خلت أن أزور رافين وهناك شاهدت فسيفساء حيث نقشت على ثوب الإمبراطورة تيودورا رسوم المجوس الثلاثة وهم يرتدون زيّاً مشابهاً.

– هذا بالضبط ما من شأنه أن يقنع دهماء يونانيي بيزنطه. ولكن هل تتخيّل ردّ فعل أهل كولونيا إذا أحضرت لهم مجوساً يرتدون أزياء بهلوان؟ هيّا لنلبسهم ثياباً أخرى.

– ولكن ماذا نلبسهم؟ سأل الشاعر.

– بماذا؟ لقد عيل صبري وأنا أبذل لك الشراب والطعام مثل مُقْطَع مقابل بيتين من الشعر أو ثلاثة في العام والآن تقول لي إنّك لا تدري كيفَ تُلبسَ أوّل المؤمنين بسيّدنا يسوع المسيح؟! سوف تلبسه كما يتخيّله الناس، في زيّ أسقف أو بابا أو أرشمندريت، أو أي شيء من هذا القبيل.

– لقد نهبت الكنيسة كما نهب مقرّ الأسقفية. فربّما أمكننا أن نستعيد بعض الحلل الكهنوتية. سأحاول»، قال الشاعر.

كانت ليلة مرعبة. أمكن العثور على الحلل الكهنوتيّة، وحتّى على ما يشبه ثلاث عَمْرات مما يعتمره الأساقفة، غير أنّ الصعوبة الحقّة كانت في خلع ملابس المومياوات الثلاث. فإذا كانت الوجوه كأنّها لا تزال حيّة، اتّضح أنّ الأجساد – باستثناء الأيدي المتيبّسة كليّاً – استحالت هياكل من الأعواد والقشّ، تتفتّتُ لدى أي محاولة لنزع الثياب عنها. «لا بأس، كان رينالد يردّد قائلاً، فما إن تنقل إلى كولونيا، لن يرفع أحد غطاء الضريح عنها. قوّموها بأوتاد، بأي شيء قد يحفظ قوامها مستقيماً كما يُجْعَلُ لفزّاعات الحقول قواماً. ولكن بروية إجلال، رجاء، بإجلال.

– شفاعتك أيّها المسيح إلهي، كان الشاعر يردّد شاكياً، حتّى في سكرات الموت ما كنت لأحسب أنّي سوف، ذات يوم، سوف أدسّ أوتاداً في مؤخّرات المجوس.

– أغلق فمك ولبّسهم، قال باودولينو، فإنّما نسعى هنا لرفعة الإمبراطور.» غمغم الشاعر شتائم لم يقدر أن يكتمها، فيما أُلبسَ المجوس حلل كرادلة الكنيسة الرومانية المقدّسة.

في اليوم التالي، سافر باودولينو. وفور وصوله إلى باريس، تدبّر له عبدول، وهو الأدرى بأمور الشرق، لقاءً جمعه بأحد كهنة سان فيكتور وهو أكثر درايةً منه في هذا المجال.

«المجوس إذاً، قال. إنّ ذكرهم لا ينقطع في الموروث من الأخبار السلفية، كما أنّ عدداً من آباء الكنيسة حدّثنا عنهم، غير أنّ ثلاثة من الإنجيليين لا يأتون على ذكرهم، والشواهد المقتبسة عن إشعيا والأنبياء الآخرين تلمّح بشأنهم ولا تصرّح: فالبعض قرأها على أنّها تتحدّث عن المجوس لكنّها قد تكون تتحدّث عن أمر آخر. من كانوا، وما هي أسماؤهم حقّاً؟ يزعم البعض أنّهم: هُرمُزد سلوقيا، ملك فارس؛ ويزدجرد، ملك سبأ؛ وفيروز، ملك سيبا؛ ويزعم البعض الآخر أنّهم: هور وبسندر وقرندس. لكنّ مؤلّفين آخرين من الثقاة قالوا إنّهم: ملكون وغسبار وبلتاسار، أو ملكو وغسبار وفديزارده. أو حتّى: ماغالات وغالغات وساراسين. أو ربّما: أبيليوس، وأميروس ودمسكوس...

– أبيليوس ودمسكوس إسمان رائعان، إنّهما يذكّران بأرض بعيدة، قال عبدول ساهياً.

– ولِمَ لا يكون قرندس؟ قال باودولينو. ليس المطلوب أن أعثر على ثلاثة أسماء ترضيك، بل ثلاثة أسماء حقيقية.»

تابع الكاهن قائلاً: «أنا أميل إلى أسماء بيتيساريا ومليكيور وغاتاسبا، الأول ملك غودوليا وسبأ والثاني ملك نوبيا والجزيرة العربية والثالث ملك ثارسيس وجزيرة أغريزولا. هل كانوا يعرفون بعضهم البعض قبل سفرهم؟ لا؛ لقد التقوا في أورشليم وتعارفوا هناك بما يشبه المعجزة. غير أنّ آخرين يزعمون أنّهم كانوا علماء يحيون على جبل فيكتوريال، أو جبل

فاوس، الذي من قمّته كانوا يطالعون السماء، وإلى جبل فيكتوريال عادوا إثر زيارتهم يسوع، وفيما بعد تبعوا الإنجيلي توما للتبشير في بلاد الهند، سوى أنّهم لم يكونوا ثلاثة فقط، بل كانوا اثني عشر.

- كانوا اثني عشر مجوسيّاً؟ اليس عدداً كبيراً؟

- كان هذا رأي جان خروسستوموس أيضاً. وبحسب آخرين كانوا يسمّون جروند وهورمزد وأوستسب وآرسك وزروند وأريهو وأرثيست وأستنبوزن ومَهْرَوَق وأهسرس ونصرديه ومرودق. وبرغم ذلك يجب أن نلزم حذرنا مما سبق، لأنّ أوريجينُس قال إنّهم كانوا ثلاثة بعدد أبناء نوح، وثلاثة بعدد بلاد الهند التي وفدوا منها.»

حتّى لو كانوا اثني عشر مجوسيّاً، قال باودولينو موضحاً، فهذا لا يغيّر شيئاً من حقيقة أننا عثرنا في ميلانو على ثلاثة فقط، وعلى ثلاثة فقط يجب أن نبني قصّة قابلة لأن يصدّقها الناس. «لنقل أنّهم يدعَون غسبار وملكيور وبلتاسار، وهي أسماء أيسر على النطق من ذلك العطاس الذي ألمّ بأستاذنا الجليل منذ بعض الوقت. المشكلة تكمن في تفسير عثورنا عليهم في ميلانو.

- لا أجد في هذا الأمر مشكلة، قال الكاهن، بما أنّهم وصلوا إليها. فأنا واثقٌ من أن ضريحهم قد عثر عليه بفضل الملكة هيلانة، والدة قسطنطين. فلا بدّ أنّ امرأة مثلها، هي التي استطاعت أن تعثر على صليب المسيح، قد استطاعت أيضاً أن تعثر على المجوس الحقيقيين. وهيلانة هي التي نقلت الجثامين إلى كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية.

- كلاّ وألف كلاّ! ففي مثل هذه الحال سيسأل إمبراطور المشرق كيف استطعنا أن نستولي عليهم، قال عبدول.

- لا تخف، أجاب الكاهن. لقد كانوا في كاتدرائية سان أوستورج، ولا بدّ أنّ هذا الرجل القديس قد جلبهم إليها، هو الذي انطلق من بيزنطه ليحتلّ الكرسي الأسقفي في ميلانو، في عهد القيصر موريس، وذلك قبل

عهد شارلمان ببلادنا. ومن غير الممكن أن يكون أوستورج قد سرق المجوس، وهذا يعني أنّه تلقّاهم هديةً من قيصر المشرق.»

في نهاية العام عاد باودولينو إلى رينالد برواية متينة لا يرقى إليها الشكّ، وفي معرض ذلك ذكّره بأنّ المجوس، بحسب أوتون، هم أسلاف الراهب جان الذين خلعوا عليه مراتبهم ومهامهم. ومن هنا مصدر السلطة التي للراهب جان على الهند، ببلدانها الثلاثة، أو، في الأقلّ، على واحد منها.

كان رينالد قد نسي تماماً أقوال أوتون هذه، غير أنّ الحديث عن راهب يحكم مملكة، أي، مرّةً أخرى، ملك له صفة كهنوتية، بابا وعاهل في وقتٍ معاً، قد أقنعه توّاً بأنّ في هذا ما يضع ألكسندر الثالث على المحكّ: ملوك ورهبان هم المجوس، وملك وكاهن هو جان، فأيّ شخصية، أيّ كناية، أيّ عِرافة، أي نبوءة، أيّ استشراف لذاك الجلال الإمبراطوري الذي ينسجه، الخيط تلو الخيط، على منكبي فردريك!

«يا باودولينو، سارع إلى القول، دع لي أمر المجوس، أمّا أنت فينبغي أن تلتفت إلى مسألة الراهب جان. فبحسب أقوالك ليس لدينا إلى الآن سوى الأقاويل، وهذه لا تكفي. نحتاج إلى وثيقة تؤكّد وجوده، وتوضح من يكون، وأين يحيا وكيف.

- وأين أجد مثل هذه الوثيقة؟

- إن لم تجدها، ابتكرها. لقد حثّك الإمبراطور على تحصيل العلم، وقد آن الأوان لأن تؤتى ثمار مواهبك. ولكي تستحقّ لقب الفارس حالما تنهي تحصيلك الذي، برأيي، قد طال امده كثيراً.»

«هل فهمت يا سيّد نيسيتاس؟ قال باودولينو. فمنذ ذلك الحين، صار الراهب جان، بالنسبة لي، فرضاً وليس مجرّد لعبة. وما عاد البحث عنه

إكراماً لذكرى أوتون، بل انصياعاً لمشيئة رينالد. لقد صدق أبي فيما قاله بأن] لطالما أطعمت الثورَ الحساءَ والكلبَ جفنة الشعير. فعندما يفرضُ عليّ الإتيان بأمر ما، أفقد على الفور أي رغبة في إتيانه. أنصاع لمشيئة رينالد وأعود، من فوري، إلى باريس ودافعي إلى ذلك ألاّ ألتقي الإمبراطورة. كان عبدول قد استأنف نظم أغانيه، ولاحظت أنّ دورق العسل الأخضر قد فرغ من نصف محتواه. رحت أحدّثه مجدّداً عن خطّة المجوس، فأنشد مصاحباً بالعزف غناءه: «لن يعجب أحد إذا كنتُ، أنا، كما تعلم، - أعشق من لن تراني أبداً، - وقلبي لم يعرف عشقاً ذات يوم - إلاّ عشق من لم يبصر أبداً: - أحدٌ سواه لن يبهجني - ولا أدري ما غُنمي من عشقه، - آهِ، آه.» آهِ، آه... فأحجمتُ عن التطرّق معه إلى ما أعتزم القيام به في المستقبل؛ أمّا بشأن الراهب جان، فقد قضيتُ نحو العام لا أفعل شيئاً.

- وماذا عن الملوك المجوس؟

- إثر ذلك، وبمضيّ سنتين، كان رينالد قد رافق الذخائر إلى كولونيا، غير أنّه أبدى كرماً مفرطاً قبل أن يودع أجساد الملوك في مثوى كولونيا، فقد عمد، وهو الذي كان لسنوات خلت راعي كاتدرائية هيلديسهايم، إلى بتر إصبع من كلّ جثمان، وبعث بها هبةً إلى كنيسته السابقة. ولكن في الحقبة نفسها، كان على رينالد أن ينصرف إلى معالجة مشكلات أخرى ليست أقلّ شأناً. فقبل شهرين فقط من احتفاله بالنصر الذي حقّقه في كولونيا، توفي البابا المزعوم فيكتور. وكاد الجميع يتنفسون الصعداء لهذا النبأ الذي قد يتيح للأمور أن تعود، من تلقائها، إلى نصابها القويم، وهكذا قد يتاح لفردريك، حتّى، أن يجري صلحاً مع ألكسندر. سوى أنّ رينالد كان يتنفّس من هواء الشقاق، إذا كنت تدري ماذا أقصد يا سيّد نيسيتاس، ووجود حبرين يخدم خططه أكثر مما قد يخدمها وجود حبر واحد. فابتكر لنفسه بابا مزيّفاً آخر، هو بسكال الثالث، بابتداعه مجمعاً صوَريّاً للكرادلة يضمّه إلى أربعةٍ آخرين من رجال

الدين الذين لا شأن لهم. لم يكن فردريك مقتنعاً. فقد كان يقول لي. . .

- كنت، في الأثناء، قد عدت إليه؟»

فقال باودولينو متحسّراً: «أجل، لبضعة أيّام. ففي ذلك العام أنجبت الإمبراطورة إبناً لفردريك.

- بماذا شعرت؟

- أدركت أنّه ينبغي أن أنساها نهائيّاً. صمتُ سبعة أيّام، لم أذق خلالها سوى الماء، لأني كنت قد قرأتُ في كتاب ما أنّ الماء يطهّر النفس، ويجلبُ، مع الوقت، رؤىً.

- وهل كان ما قرأت صحيحاً؟

- صحيح جدّاً، سوى أنّها كانت ماثلةً في تلك الرؤى. عندئذ قرّرت أن أرى الطفل، لكي أتبيّن الحدّ بين الحلم والرؤيا. وعدت إلى البلاط. كانت مضت سنتان على ذلك اليوم الرائع الرهيب، الذي لم نلتق بعده. لم تكن بياتريس لتصرف انتباهها، ولو للحظة واحدة، عن الطفل، وبدا أن حضوري لم يسبّب لها أي اضطراب. فقلت، إذّاك، في قرارة نفسي، أنني وإن كنت لن أرضخ لفكرة التعامل مع بياتريس على أنها أمّي، فسوف أحبّ هذا المولود كأنّه أخي. ومع ذلك لم أستطع وأنا أرقب هذا الكائن الصغير في مهده، إلاّ أن أفكر بأنّ الأمور لو اختلفت قليلاً، لكان هذا الصغير ابني أنا. فمهما كان من أمر ما كان، لن أنجو من الشعور بأنّي مرتكب محارم.»

في غضون ذلك، كان فردريك منصرفاً إلى تدبير شؤون أخرى. كان يقول لرينالد إنّ بابا لا يحظى بإجماع لا يضفي إلاّ شرعية غير مؤكّدة على حقوقه، وإنّ فكرة الملوك المجوس سديدة بالفعل لكنّها غير كافية؛ لأنّ العثور على المجوس لا يعني بالضرورة أنّه يتحدّر منهم. فباستطاعة البابا، المحظوظ السعيد، أن يدّعي تحدّره من بطرس، وبطرس هو من عيّنه

المسيح نفسه، في حين أن الإمبراطور الروماني المقدّس ماذا يفعل؟ هل يزعم تحدّره من قيصر، وقيصر لم يكن يوماً إلاّ وثنياً؟

عندها نطق باودولينو بخاطرة تبادرت إلى ذهنه دونما تفكير مسبق، مفادها أنّ باستطاعة فردريك أن يرقى بنسبه إلى شارلمان. «ولكنّ شارلمان قد حظي ببركة البابا، أي أنّنا ما زلنا في إطار المشكلة نفسها، أجابه فردريك قائلاً.

- إلاّ إذا جعلت منه قديساً.» قال باودولينو. فردّ فردريك عليه بأنّه من المستحسن الإمعان في التفكير قبل التفوّه بحماقات. «ليست حماقة»، أجاب باودولينو الذي جاوز مجرّد التفكير، فتراءى له المشهد الذي قد ينجم عن تلك الفكرة، مجسّماً. «أصغ: سوف تقصد إكس لا شابيل، حيث ووري جثمان شارلمان، فتنبشه وتضعه في مذخر بهيّ وسط كنيسة بالاتين، وبحضورك، إلى جانب لفيف من الأساقفة الموالين بمن فيهم رينالد الذي، إلى جانب كونه رئيس أساقفة كولونيا، هو ميتروبوليت هذه المقاطعة، ومشفوعاً ببراءة من البابا بسكال تؤكّد شرعيّتك، يبادر إلى إعلان شارلمان قدّيساً. هل تصغي إليّ جيّداً؟ سوف تعلن قداسة منشئ الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، وحالما يُعلن قديساً، يغدو أرفع مكانةً من البابا، أمّا أنت، وبوصفك وريثه الشرعيّ، فتصبح متحدّراً من قديس، وفي حِلٍّ من كلّ سلطة، حتّى السلطة التي قد ترميك بالحرم.

- بحقّ لحية شارلمان، صاح فردريك قائلاً، وقد انتصب شعر لحيته من الانفعال، أسمعتَ يا رينالد؟ كم هذا الفتى دائماً على حقّ!»

وهكذا كان بالفعل، وإن اقتضى ذلك التريّث حتّى نهاية العام التالي، لأنّ حُسنَ الإعداد لبعض الأمور يستغرق ردحاً من الوقت.

لاحظ نيسيتاس قائلاً إنّ الفكرة، كفكرة، من قبيل الجنون، فأجابه باودولينو أنّها برغم ذلك تجسّدت في الواقع. وراح يرمق نيسيتاس بشيء من الخيلاء. طبيعيّ جدّاً، قال نيسيتاس في قرارة نفسه، أن يجاوز غرورك

كلّ حدّ، فقد تمكّنت من جعل شارلمان قديساً. ومِنْ قِبَلِ باودولينو كلّ شيء ممكن. «وماذا بعد؟ سأله

– فيما انصرف فردريك ورينالد إلى الإعداد لتطويب شارلمان، أدركت شيئاً فشيئاً أنّ لا تطويب شارلمان ولا ذخيرة المجوس يكفيان. هم يقيمون الآن في الجنّة، من المؤكّد أنّ المجوس هناك، ونأمل أن يكون شارلمان أيضاً هناك، وإلاّ كان الهرج العظيم هو مصير إيكس لا شابيل؛ لكنّ تمام الأمرين يكون بأمر ثالث على هذه الأرض حيث يستطيع الإمبراطور أن يقول إنّي هنا، ويجعل حقّه بدهيّاً لا لبس فيه. إنّ الأمر الوحيد الذي قد يعثر عليه الإمبراطور على هذه الفانية، كان مملكة الراهب جان.»

11

باودولينو يُشيّد قصراً للراهب جان

في صبيحة يوم الجمعة، جاء ثلاثة من الجنويين، بيفيريه وبوياموندو وغريلو، لتأكيد ما كان بادياً للعيان، حتّى من بُعْد. لقد خمدت الحرائق من تلقائها تقريباً لأنّ أحداً لم يكلّف نفسه عناء العمل على إخمادها. غير أنّ هذا لا يعني أنّه صار بالإمكان التجوّل في أنحاء القسطنطينية. بالعكس، فقد أتاح ذلك حرّيةً أكبر في الحركة في شوارع المدينة وساحاتها، فعمد الحجّاج إلى تكثيف مطارداتهم للأهلين الميسورين، وراحوا يهدمون، وسط الركام الذي ما زال ساخناً، ما تبقّى من المعالم السليمة، بحثاً عن آخر الكنوز الناجية من الغزوات الأولى. تنهّد نيسيتاس متحسّراً، مغتمّاً، وطلب قارورةً من نبيذ ساموس. وأمر أن يُقلى في وعاءِ زيتٍ بعضٌ من حَبِّ السمسم، لكي يُلاكَ بأناةٍ بين الجرعة والجرعة، ثمّ طلبَ بعضاً من الجوز والفستق، لكي يتاح له أن يصغي بإمعانٍ إلى تتمة الرواية التي دعا باودولينو إلى متابعة سردها.

ذات يوم، أوفد رينالد الشاعرَ إلى باريس في مهمّة خاصة، فانتهز الفرصة لمعاودة سهرات اللهو في الخمّارات الباريسية برفقة باودولينو وعبدول. كما تعرّف أيضاً إلى بورون، غير أنّ تهيؤاته حول الفردوس الأرضي لم تثر اهتمامه. لاحظ باودولينو أن حياة البلاط قد غيّرت

أحواله؛ لقد تصلّب عوده وإنْ كان لا يزال يستخفّه الشرابُ، لكنّه يحرص على عدم الإفراط فيه لكي يبقى على أُهبةٍ كأنّه يترصّد بفريسة عند المنعطف، موشكاً على الوثوب.

«يا باودولينو، خاطبه قائلاً ذات يوم، أنتم هنا تهدرون أوقاتكم من دون طائل. فما كان علينا أن نحصّله هنا، في باريس، قد حصّلناه وكفى. لكنّ هؤلاء العلماء جميعاً سوف يتبرّزون في سراويلهم غداً إنْ تقدّمتُ للمشاركة في نقاشٍ مرتدياً زيّ البلاط الرسمي متمنطقاً سيفي. لقد تعلّمت من حياتي في البلاط أموراً أربعة: إذا عاشرت العظماء تغدو، أنت أيضاً، عظيماً؛ العظماء هم، في الحقيقة، مفرطون في صَغارِهم؛ السلطة هي كلّ شيء، وما من سبب يحول دون أن تتولاّها، أنت، ذات يوم، أو، في الأقلّ، قسطاً منها؛ ينبغي للمرء، طبعاً، أن يجيد الانتظار شريطة ألاّ يفوّت الفرصة.»

ومع ذلك، لم يلبث أن أصاخ السّمع حالما استأنف صديقاه حديثهما عن الراهب جان. كان تركهما في باريس، يومَ غادرها، حين لم تكن هذه القصّة أكثر من خيال نسجته مخيّلة مدمني المكتبات والكتب، لكنّه، في ميلانو، عاد وسمع باودولينو يتحدّث عنها إلى رينالد بوصفها مسألةً قد تغدو رمزاً ملموساً للسلطة الإمبراطورية، لا تقلّ أهميةً، في أسوأ حال، عن بدعة المجوس. وفي مثل هذه الحال كان لا بدّ أن يولي الخطّة اهتمامه: وكان يسهمُ فيها كأنّه منصرفٌ إلى بناء آلة حرب. وكان كلّما استرسل في الحديث عنها، بدا أنّ أرض الراهب جان تستحيل، في عينيه، وعلى غرار أورشليم دنيوية، من مكانٍ للحجّ، إلى أرض للغزو.

هكذا لفت صديقيه إلى أن مسألة الراهب جان أضحت، بعد قضية المجوس، على قدر أكبر من الأهمية، وأنّه ينبغي أن يعلن عن نفسه كملك وكراهب. فبوصفه ملك الملوك، ينبغي أن يكون له قصر تبدو حياله قصور الملوك المسيحيين، بمن فيهم قيصر مُنشَقّي القسطنطينية، أشبه بمساكن متداعية؛ وبوصفه راهباً، ينبغي أن يكون له هيكل تبدو حياله

كنائس البابا أشبه بأكواخ متواضعة. يجب أن يشيّد له قصرٌ يليق به.

«المثال موجود، قال بورون، إنّها أورشليم السماوية التي ذكرها يوحنّا الإنجيلي في رؤياه. ينبغي أن يكون لها سور عظيم وعالٍ، واثنا عشر باباً بمثل عدد أسباط إسرائيل؛ من الجنوب ثلاثة أبواب، ومن الغرب ثلاثة أبواب، ومن الشرق ثلاثة أبواب، ومن الشمال ثلاثة أبواب...

- أجل، قال الشاعر ممازحاً، والراهب جان يلج من أحدها فيخرج من الآخر، وعندما تهبّ عاصفة تصطفق جميعها في وقتٍ معاً؛ أنت تدري كيف تكون مجاري الهواء، فمن جهتي أنا، ما كنت لألبث في قصر كهذا ولو جثّة هامدة...

- دعني أكمل. وأساسات السور من يشبٍ وياقوت أزرق وعقيق أبيض وزمرّد ويشبٍ أسمر وعقيق أحمر وزبرجد وزمردٍ سِلْقِيّ وياقوت أصفر وعقيق أخضر وأسمانجون وجَمَشْت. والإثنا عشر باباً اثنتا عشرة لؤلؤة، والسوقُ، أمام القصر، ذهبٌ نقيٌّ كزجاج شفّاف.

- لا بأس، قال عبدول، ولكنّي أعتقد أنّ المثال ينبغي أن يكون هيكل أورشليم، كما يصفه النبي حزقيال. غداً صباحاً سأصحبكما معي إلى الدير. فأحد الرهبان العلماء هناك، الفقيه ريشار دي سان فيكتور، منكبّ في هذه الأيّام على ترميم مخطّط الهيكل، باعتبار أنّ نصّ النبي يبدو غامضاً في بعض المواضع.»

«يا سيّد نيسيتاس، قال باودولينو، لا أدري إذا كنت عُنيتَ ذات يوم بمقاسات الهيكل.

- لا، لم أفعل إلى يومنا هذا.

- حسناً، إذاً إيّاكَ أن تفعل، ففي ذلك مذهبةٌ للعقل. في «كتاب الملوك»، ذُكِرَ أنّ الهيكل بلغَ ستين ذراعاً عَرْضاً، وثلاثين ارتفاعاً،

وعشرينَ عمقاً، والرواق بلغ عشرين ذراعاً عرضاً وعشر أذرع عمقاً. أمّا في «سفر الأخبار» فيذكر، برغم ذلك، أنّ الرواق بلغ مئةً وعشرين ذراعاً علوّاً. والحال أنّه إذا بلغ عشرين ذراعاً عرضاً ومئةً وعشرين علوّاً وعشر أذرع عمقاً، لبلغ الرواق من العلوّ أربعة أضعاف علوّ الهيكل برمّته، ولكان ضيّقاً هشّ البنيان إذا نفختَ عليه تقوّض. غير أنّ الأبدع من هذا كلّه يطالعك حين تقرأ رؤيا حزقيال. حيث لا يستقيم أيّ مقياس، ما حدا بعدد من رجال التقوى إلى الإقرار بأنّه لا بدّ أفرط في الشراب قليلاً، فصارت عيناه تبصر المقاييس مضاعفةً. ولا ضير في ذلك، فمن حقّ حزقيال المسكين ذاك أن يسرّي، هو أيضاً، عن نفسه، لولا أنّ ريشار دي سان فيكتور هذا سارع إلى الإتيان بالحجّة التالية: إذا كان كلّ شيء، كلّ رقم، كلّ مقدار نثرة قشّ في التوراة لها دلالة روحانية، فينبغي أن ندرك ماذا يعني ذلك حرفيّاً؛ فإنّما هو حساب، لجهة الدلالة الروحانية، قولنا إنّ شيئاً طوله ثلاث وآخر طوله تسع، باعتبار أنّ هذه الأرقام لها دلالات لدُنية مختلفة. مهما حاولت فلن أتمكّن من وصف المشهد يوم ذهبنا للاستماع إلى درس ريشار حول الهيكل. كان قد وضع كتاب حزقيال أمامه، وشرع في قيد المقاييس كلّها مستعيناً بحبل قصير. كان يرسم محيط البناء الذي وصفه حزقيال، ثمّ يأتي بعصيٍّ وألواح خشب طريّ ويعمد، بمعونة أكثر من مساعد، إلى تقطيعها ومحاولة ضمّها بعضاً إلى بعض بواسطة الصمغ والمسامير. . . كان يحاول بناء الهيكل مجدّداً، ويجعل للمقاييس نسباً موازية، فحيث يقول حزقيال ذراعاً كان يقطع بسَمْكِ إصبع. . . وكان كلّ شيء ينهار في غضون دقيقتين من الزمن، فيستشيط ريشار غضباً من معاونيه فيتّهمهم بأنهم لم يمسكوا الألواح جيداً أو أنّهم لم يستخدموا قدراً كافياً من الصمغ، أمّا هم، فيدفعون التهم عنهم قائلين بأنّ المقاييس التي افترضها خاطئة. ثمّ كان المعلّم غالباً ما يستدرك الأمر قائلاً إنّ النص يذكر كلمة «باب»، في الوقت الذي يقصد به هنا «الرواق»، وإلاّ لكان المقصود باباً يضاهي بحجمه الهيكل برمّته، وفي أحيان أخرى كان يمعن التفكير

ليقول على الأثر إنّه إذا لم يتطابق مقياسان فمعنى ذلك أنّ حزقيال قد استند، في المرّة الأولى، إلى قياس الهيكل ككلّ، فيما استند، في المرة الثانية، إلى قياس جزء منه فقط. أو إذا كان أحياناً يستخدم قياس الذراع على أنّها الذراع الهندسية التي تساوي ستّ أذرع تقليدية. باختصار، كان مسليّاً جدّاً، ولأكثر من صبيحةٍ واحدة، أن نتتبع مسعى هذا الرجل التقي الذي يستميت لإنجاح مخطّطه، فيما نحن نستغرق في الضحك كلّما تهاوى الهيكل المزعوم. ولكي لا يبدو سلوكنا هذا فاضحاً، كنّا نتظاهر بأننا ننحني لالتقاط ما أفلت من أيدينا عن الأرض، ولكن، في آخر المطاف، تنبّه أحد الرهبان إلى أنّنا نصرف الوقت كلّه تقريباً في التقاط أشياء عن الأرض، فطردنا من الدرس.»

خلال الأيّام التالية، اقترح عبدول، نظراً لكون حزقيال ينتمي إلى شعب إسرائيل، أنّنا قد نستنير برأيٍ لأحد أبناء دينه. ولمّا وجد أنّ رفيقيه استهجنا اقتراحه لأنّ الكتاب المقدّس لا يجوز أن يقرأ استناداً إلى مشورة يهودي، لما أثرَ عن هذه الملّة من سعي لحَرفِ النصوص المقدّسة في سعيها لمحو أيّ ذكر للمسيح الآتي، صارحهما عبدول بأنّ بعضاً من الثقاة من بين الأساتذة الباريسيين يستعين، من وقتٍ إلى آخر، ولو في الخفاء، بعلمِ احبار اليهود، على الأقلّ بشأن الفقرات التي لا تتطرّق لمجيء المسيح. وتشاء المصادفة أنّ الرهبان الفيكتوريين، قد دعوا، في تلك الأيّام بالذات، إلى ديرهم، أحد هؤلاء ممّن طارت شهرتهم برغم حداثة سنّه، ويدعى سليمان الجيروني.

طبعاً، لم يكن سليمان مقيماً في سان فيكتور: فقد تدبّر له الرهبان سكناً في غرفة معتمة رطبة في واحد من أردأ أحياء باريس. كان لا يزال في مقتبل العمر فعلاً وإن بدا منهوك الوجه لفرط انصرافه إلى التأمّل والمطالعة. وكان يتحدّثُ بلاتينية جيّدة ولكن على نحو غير مفهوم لأنّه كان يتميّز بميزة خاصّة: إذ كانت كلّ أسنانه، سواء تلك التي في فكّه

الأعلى أو تلك التي في فكّه الأسفل، بدءاً بالقواطع الوسطى إلى الجهة اليسرى من فمه، وما من سنّ واحدة إلى الجهة اليمنى. كان الوقت صباحاً غير أنّه يجد نفسه مرغما، نظراً لجوّ الغرفة المعتم، أن يقرأ على نور مصباح، وعندما وصل زوّاره بسط يديه فوق لفافة من الرقّ كانت أمامه، كأنّه يريد بذلك أن يحجب عنها كلَّ نظرة فضول - وإن كان سعيه هذا مجرّد عبث، لأنّ ما دوّن عليها كان باللغة العبرية. حاول الربّي أن يعتذر لأنّ ما يرونه أمامه، كما قال، إنّما هو، بالذات، الكتاب الذي يبغضه المسيحيون، أي الـ «Toledot Jeschu»، الذي يُروى فيه أنّ المسيح هو ابن محظيةٍ ومرتزق يُدعى بانتيرا. كان الرهبان الفيكتوريون أنفسهم، هم الذين طلبوا منه أن يترجم لهم فقرات من الكتاب المذكور لأنّهم يريدون التثبّت من الحدّ الذي قد يبلغه غدرُ اليهود. فسارع إلى القول إنّه إنّما يفعل ذلك طوعاً، لأنّه، فيما يعنيه شخصيّاً، يجد هذا الكتاب مفرطاً في أحكامه، لأنّ يسوع كان بالتأكيد إنساناً فاضلاً، حتّى لو زيّن له ضعفه البشري أنّه، فعلاً، المسيح، ولكن لا بدّ أن ذلك قد جرى بتأثير من أمير الظلمات، خصوصاً أنّ الأناجيل نفسها تقرّ بأنّه جاء ليوقعه في التجربة.

سئلَ عن شكل الهيكل بحسب حزقيال، فتبسّم وقال: «إنّ أكثر الشرّاح تدقيقاً في الكتاب المقدّس لم يفلحوا في تبيان الشكل الدقيق للهيكل. حتّى ربّي سليمان بن إسحاق المعظّم قد أقرّ بأنّ تتبع النصّ حرفياً لا يوضح أين تقع الحجرات الشمالية الخارجية، ومن أين يبدأ من ناحية الغرب، وكم بلغ امتدادها نحو الشرق، وسوى ذلك. أنتم المسيحيون لا تقرّون بأن يولد النصّ من صوت. فالربّ، ha-qadoch barúch hú ليكن القدّوس على الدوام مباركاً، حين يخاطب الأنبياء يُسمعهم أصواتاً، ولا يُريهم أشكالاً، كما تفعلون أنتم بصفحاتكم المزخرفة. من المؤكّد أنّ الصوت يثير في قلب النبيّ صوراً، غير أنّها صور ليست جامدة، إنّها تسيل، تغيّر شكلها بحسب نغمة ذلك الصوت،

ومن شاء أن يختزل بصورٍ كلامَ الربّ، تبارك اسمه دائماً وأبداً، كان كمن يعمل على تجميد ذلك الصوت، كما يستحيل الماء الزلال ثلجاً لا يروي العطشَ بل يخدّر الأعضاء في صقيع الموت. كان الراهب القانوني ريشار، ولكي يدرك المعنى الروحاني لكلّ جزء من أجزاء الهيكل، يسعى لبنائه كما قد يفعل بنّاء، فأبداً لن يكتب له النجاح. إنّ الرؤيا شبيهة بالأحلام، حيث تستحيل الأشياءُ أشياءَ أخرى، وليس على صورة كنائسكم حيث الأشياء دائماً تبقى مساويةً لذاتها.»

ثمّ سأل ربّي سليمان لِمَ يسعى زائروه لمعرفة شكل الهيكل، فقصّوا عليه حكاية سعيهم وراء مملكة الراهب جان. فأبدى الحبر اليهودي اهتماماً. «ربّما كنتم تجهلون، أنتم، أنّ كتبنا أيضاً تحدّثنا عن مملكة غامضة في الشرق البعيد، حيث ما زالت تقيم أسباط إسرائيل المفقودة العشرة.

– لقد بلغني بعضٌ من أخبار هذه الأسباط، قال باودولينو، ولكنّي لا أعرف بشأنها سوى القليل.

– كلّ الأخبار مدوّنة. فبعد موت سليمان، دخلت الأسباط الاثنا عشر التي ينتمي إليها شعب إسرائيل في نزاعات فيما بينها. فقط سبطان منها، بنو يهوذا وبنو بنيامين، أقاما على وفائهما لنسل داود، في حين هاجرت عشرة أسباط باتجاه الشمال، حيث شتّتها الأشوريون واتّخذوا من بنيها رقيقاً. وبعد ذلك لم يعرف عنها شيء. إذ يقول عزرا إنّها رحلت إلى بلاد لم يقطنها بشر من قبل، تدعى أرساريث، وتنبأ آخرون أنّه سيعثر عليها ذات يوم، وأن عودتها إلى أورشليم سوف تكون مظفّرة. والحال أن أحد اخوتنا ويدعى ألداد، وهو من سبط دان، وصل، منذ ما يزيد عن المئة عام، إلى القيروان، في أفريقيا، حيث تقيم طائفة من شعب الله المختار، زاعماً أنّه قادم من مملكة الأسباط المفقودة العشرة، وهي أرض مباركة من السماء حيث يحيا الناس بسلام لا يعكّرها اعتداء، وحيث الأنهار حقّاً تجري لبناً حليباً وعسلاً. بقيت تلك الأرض معزولة عن أي

بقاع أخرى لأنّ حدّها نهر سمباتون الذي يفوق عرضه مدى السهم الذي تطلقه أمتنُ الأقواس، لكنّه من دون ماء، ولا تجري في مجراه سوى الرمال والأحجار التي تحدث دويّاً وقد يسمع دويّها الهائل من بعد مسير نصف نهار؛ وجريان هذا الجماد متدفّقٌ حتّى أنّه يودي بكلّ راغبٍ في عبور النهر. ولا يتوقّف هذا السيل الصخري إلاّ مطلع السبت، فيتاح عبوره فقط يوم السبت، غير أنّ أحداً من بني إسرائيل لن يجرؤ على انتهاك فرض الراحة يوم السبت.

- وهل يقدر المسيحيون؟ سأل عبدول.

- لا، لأنّ أخدوداً من النيران المشتعلة يحول، كلّ سبت، دون بلوغ ضفّة النهر.

- إذاً، ماذا فعل أَلدَاذ هذا لكي يصل إلى إفريقيا؟ سأل الشاعر.

- هذا ما أجهله؛ ولكن، كيف لمن هو مثلي أن يسائل الربّ، تبارك اسمه على الدوام، عن حكمةِ مشيئته؟ يا قليليّ الإيمان، قد يكون ألداد عبر النهر على جناحي ملاك. إنّ المشكل الذي واجه أحبارنا في نقاشهم الرواية والذي سرعان ما انصرفوا إليه، من بابل إلى أسبانيا، كان من طبيعة أخرى: فإذا كانت الأسباط العشرة قد عاشت بحسب شريعة الله، فهذا يعني أنّ شريعتهم ينبغي أن تكون، هي ذاتها، شريعة إسرائيل، في حين أنّها، بحسب رواية ألداد، مختلفة تماماً عنها.

- ولكن إذا كان ما يتحدّث عنه ألداد هو مملكة الراهب جان، قال باودولينو، لَوَجَبَ أن تكون شريعتها مختلفة عن شريعتكم، ولكنْ شبيهة بشريعتنا نحن، وإنْ كانت أفضل منها!

- وهذا بالذات ما ينأى بنا عنكم، أنتم، أيّها الوثنيون، قال ربّي سليمان. إنّكم تنعمون بحريّة ممارسة شريعتكم، ولقد أفسدتموها، وإن كنتم تبحثون عن مكان ما زالت سارية فيه. أمّا نحن فقد حافظنا على شريعتنا كما هي، ولكنّنا لا ننعم بحريّة أن نتّبعها. وبأية حال، ليكن معلوماً أنّ رجائي، أنا أيضاً، هو أن أعثر مجدّداً على هذه المملكة، فمن

الجائز أن تكون أسباطنا المفقودة والأمم الوثنية الأخرى تعيش في سلام هناك، وفي حال من التناغم حيث لكلٍّ حريّته في أن يمارس شريعته الخاصّة؛ ولربّما كان وجود تلك المملكة، مجرّد وجودها، مثالاً لكلّ أبناء الربّ المتعالي، ليكن مباركاً القدوس إلى الأبد. وفضلاً عن ذلك أقول إنني أودّ أن أعثر على هذه المملكة لسبب آخر. فبحسب ما أكّده لنا ألداد، إنّ الكلام هناك ما زال يجري باللغة القدسية، اللغة الأصلية التي وهبها الربّ المتعالي، تبارك اسمه إلى الأبد، لآدم، والتي ضاعت مع قيام برج بابل.

– هذا جنون مطبق، قال عبدول، لطالما حكَت لي أمّي أنّ لغة آدم قد أنشئت من جديد في الجزيرة التي جاءت منها، وهي اللغة الغايلية المؤلّفة من تسعة من اقسام الكلام على غرار ما كانت عليه المواد التسع التي تكوّن منها برج بابل، أي الخزف والماء، الصوف والدماء، الخشب والكِلْس، القار، الكتان والحُمَر. . . إنّ حكماء فنيوس الإثنين والسبعين هم الذين أنشأوا اللغة الغايلية عبر استخدامهم شذراتٍ من كلّ لسانٍ من الألسنِ التي نجمت عن اختلاط اللغات، ولذا فإنّ اللغة الغايلية تشتمل على أفضل ما في كلّ لغة ولمّا كانت لغة آدم على ذاتِ هيئة العالم المخلوقِ، فكلّ اسم فيها يعبّر عن ذات جوهر الشيء الذي يسمّيه.»

تبسّم ربّي سليمان بكثير من المداراة: «إنّ شعوباً كثيرة تعتقد بأنّ لغة آدم هي لغتها، غافلةً بذلك عن أنّ آدم ما كان لينطق إلاّ بلغة التُوراه، أسفار موسى الخمسة، وليس بلغة تلك الكتب التي تسرد حكايات آلهة مزيفين ودجّالين. فاللغات الاثنتان والسبعون التي نشأت بعد الاختلاط تجهل الحروف الأساسية: الوثنيون يجهلون الـ Het، والعرب يجهلون الـ Peh، ما أدّى إلى جعل هذه اللغات اشبه بنخير الخنازير، أشبه بنقيق الضفادع، أو قضقضة الكراكيّ، لأنّها خاصة بالشعوب التي انحرفت عن سبل الحياة القويمة. غير أنّ التوْراة الأصلية، في لحظة الخلق، كانت أمام الخالق، مبارك هو القدوس إلى الأبد، مكتوبة كنار سوداء على نار

بيضاء، وبحسب ترتيب ليس هو ترتيب التوْراة المكتوبة، كما نقرأها اليوم، والتي لم تظهر إلاّ بعد خطيئة آدم. وهذا ما يحدو بي كلّ ليلةٍ، ولساعات طويلة، إلى التلفّظ، وبتركيز كبير، بحروف التوراه المكتوبة لكي أمزجها فيما بينها، ولكي أديرها كدولاب المطحنة، فأجعلُ أن ينبثق منها مجدّدا النسق الأصلي للتوراه السرمدية، السابقة على الخلق والتي حبيَت بها ملائكة الخالق، ليكن مباركاً اسمه إلى الأبد. فلو كنت أعلم أنّ هناك مملكة بعيدة حفظَ فيها النسق الأصلي للغة التي كان يخاطب بها آدم خالقَه قبل أن يقترف خطيئته، لكرّستُ حياتي، طوعاً، للبحث عنها.»

فيما كان سليمان ينطق بتلك الكلمات بدا وجهه مشرقاً بهالةٍ من النور حدت بأصحابنا إلى التساؤل عمّا إذا كان من الأفضل أن يصارحوه بخططهم للمستقبل. وإذا بالشاعر يهتدي إلى الحجّة القاطعة: فلا ضير على الإطلاق من سعي هذا اليهودي للعثور على لغته وأسباطه العشرة في مملكة الراهب جان؛ ذلك أنّ الراهب جان لا بدّ أن يكون نافذ السلطانِ بما يمكّنه من حكم أسباط اليهود المفقودة، ولا سبب يدعونا إلى الاعتقاد بأنّه، خلافاً لسواه، لا يتحدّث بلغة آدم. إنّ المسألة الجوهرية تكمن أوّلاً في بناء هذه المملكة، ولغرض كهذا قد يكون اليهودي في مثل المنفعة المرجوة من مسيحي.

على الرغم من كلّ هذا، كانوا لم يقرّوا الرأي بعد حول الشكل الذي سيكون عليه قصر الراهب جان. لكنّهم توصّلوا إلى الحلّ في غضون ليالٍ، فيما كانوا مجتمعين في حجرة باودولينو. هناك قرّر عبدول، بإيحاء من أجواء المكان، أن يكشف للوافدين الجدد عن سرّ العسل الأخضر، قائلاً إنّه قد لا يعينهم على التفكير بل قد يعينهم على أن يروا بأمّ العين قصرَ الراهب.

بادر ربّي سليمان إلى القول إنّه يعرف طرُقاً أكثر زهداً للحصول على رؤى، وإنّه يكفيه، عند حلول الليل، أن يردّد متمتماً كلّ صيغ المحتملة لترتيب الحروف التي يتألّف منها اسم الربّ السرّي، مقلّباً إيّاها مثل لفافة

على لسانه، من دون توقّف، إلى أن تنبثق منها دوّامة أفكار وصور توقعه متصلّباً كالجماد في غبطة الإنهاك.

كان الشاعر يبدو حذراً في البداية، ثمّ قرّر أن يجرّب لكنّه، إذ حاول تلطيف مفاعيل العسل بالخمر، فقد، في آخر الأمر كلّ قدرة على التحفّظ وتفوّق بهذيانه على الآخرين.

وإذ بلغت حال السكر منهُ مبلغاً، وراح يخطّ على لوح كفّه خطوطاً مهتزّة بإصبعه المغمسة بقارة الخمر، اقترح أن يكون القصر على غرار القصر الذي شيّده الإنجيلي توما لجندفور ملك الهنود: سقف وعمُدٌ من خشب قبرص، سطح من الأبنوس، وقبّة تعلوها تفّاحتان من الذهب وعلى كلّ منها تلمع ياقوتتان حمراوان، بحيث يشعّ الذهب، نهاراً، تحت أشعة الشمس، فيما تشعّ الفصوص ليلاً تحت نور القمر. ثمّ كفّ عن الاستعانة بذاكرته وبسطوة توما؛ وراحت تتراءى له أبواب من عقيق سردينيا ممزوج بزباني أفعى مقرّنة تحول دون أن يجتازها حامل سمّ؛ ونوافذ من البِلّوْرَ، وموائد من ذهب على قوائم من العاج، وأنوار يغذّيها البلسم؛ وسرير الراهب من اللازورد لكي يصون عفّته، ذاك أنّ جان هذا - أضاف الشاعر مختتماً - قد يكون ملكاً على قَدْرِ ما تشاؤون، لكنّه أيضاً له جلال الكهنوت، فالنساء، إذاً، يجب أن يبقين خارج الموضوع.

«يبدو لي هذا جميلاً، قال باودولينو، ولكنّي قد أضع أيضاً في بعض الحجرات، ما دام الأمر يتعلّق بملك يسود على بقاع بمثل هذا الاتساع، عدداً من أولئك الآليين الذين كانوا، كما نميَ إليّ، يطلقون في روما نواقيس الإنذار في حال نشوب عصيان ما في إحدى المقاطعات البعيدة.

- لا أعتقد أنّ مملكة الراهب جان قد تشهد حركات عصيان، لاحظ عبدول قائلاً، لأنّ فيها يسود السلام والوفاق.» ومع ذلك فقد راقت له فكرة الآليين تلك، لأن الجميع يعلم أنّ إمبراطوراً عظيماً، سواء كان مسيحياً أو مسلماً، لا بدّ أن يكون في بلاطه آليّون. أبصرهم إذاً، وبوصفٍ حسّي مذهل جعل أصدقاءه يبصرونهم، هم أيضاً: «يقع القصر

على جبلٍ، والجبل هو المكوّن من عقيق، وقمّته مصقولة متألّقة مثل القمر. الهيكل مستدير، قبّته من الذهب ومن ذهب جدرانه المرصّعة بفصوص زاخرة بالأنوار بحيث إنّها تبعث الدفء في الشتاء وفي الصيف الطراوة. السقف مرصّع باللازورد الذي يجسّد السماء، والياقوت الذي يجسّد النجوم. شمس مذهّبة وقمر مفضّض، والآليّون يجوبون القبّة السماوية، طيور ميكانيكية تغرّد كلّ يوم، فيما يصاحبها، من الزوايا الأربع، أربعة من الملائكة من البرونز المذهّب بعزف قيثاراتهم. ينتصب القصر فوق بئر مخفيةٍ حيث جياد مقرونة تحرّك رحىً لكي يدور بحسب تبدّل الفصول، ويصير، على هذا النحو صورة للكون. تحت الأرضية البلّور تسبح أسماك وكائنات بحرية مذهلة. ومع ذلك فقد سمعت أنّ هناك مرايا يُمكَنُ أن يُرى فيها كلّ ما سيكون. ومرايا مثل هذه من شأنها أن تعين الراهب على السيطرة على أقصى أطراف مملكته...»

انكبّ الشاعر، وقد صار شغوفاً بهندسة المعمار، على رسم المرآة شارحاً: «سوف تثبّتُ عالياً، عالياً جدّاً، بحيث لا يبلغها أحد إلاّ إذا ارتقى مئةً وخمساً وعشرين درجةً من البرفير...

– والمرمر، قال بورون الذي كان تأثير العسل الأخضر عليه صمتاً.

– ليكن ذلك، من المرمر أيضاً. أمّا الدرجات العليا فسوف تكون من العنبر والأرقط.

– بربّك يسوع، ما الأرقط هذا؟ سأل باودولينو.

– لا تتظاهر بالحمق، لقد ذكره بلّينوس، إنّه حجر كريم متعدّد الألوان. ولكنّ المرآة في الحقيقة ترتكز إلى عمود وحيد. أو الأحرى، لا، هذا العمود يسند قاعدةً عليها يرتكز عمودان، وهذان العمودان يسندان قاعدةً ترتكز عليها أربعة عمد، وهكذا دواليك يزداد عدد العمد بحيث يرتكز على القاعدة الوسيطة أربعةٌ وستون عموداً. وهذه تسند قاعدة يرتكز عليها اثنان وثلاثون عموداً تسند قاعدة باثني عشر عموداً، وهكذا دواليك يتناقص العدد تباعاً، إلى أن نصل إلى عمود وحيد ترتكز عليه المرآة.

- أصغ جيداً، قال ربّي سليمان، إنّ حكاية العمد هذه تجعل المرآة قابلة للسقوطِ ما إن يأتي أحد ويمسّ القاعدة.

- أصمت أنت، أيّها المزيّف كروح يهوذا. تكون مسروراً إذا أبصر صاحبك حزقيال هيكلاً نجهل ما شكله؛ ولكن إذا جاء بنّاءٌ مسيحي ليقول لك إنّ البناء لن يستقيم أجبته بأنّ حزقيال كان يسمع أصواتاً ولا يولي الأشكال اهتماماً. أمّا أنا فلا ينبغي أن أضع سوى مرايا لا تسقط؟ في هذه الحال أضع اثنا عشر ألف مسلّح لحراسة المرآة، حول عمود القاعدة، وهم سيتولون إبقاءها في مكانها. فما رأيك؟

- حسناً، حسناً، سوف ندع لك المرآة»، قال ربّي سليمان مذعناً.

كان عبدول يتتبع هذا الحوار متبسّماً، ساهيَ النظرات، فأدرك باودولينو أنّه إنّما أراد أن يبصر في هذه المرآة أميرته النائية، وإذا عزّ عليه ذلك، ففي الأقلّ، خَيَالها.

«خلال الأيّام التالية كان علينا أن نسرع في إنجاز ما نسعى إليه، فقد أذِن موعد رحيل الشاعر، ولم يكن راغباً في الذهاب قبل الختام، قال باودولينو مخاطباً نيسيتاس. غير أننا كنّا قد أصبحنا على الدرب الصحيح.

- على الدرب الصحيح؟ لكنّي أرى أن ذاك الراهب لم يكن مقنعاً كما كان المجوس الذين ألبسوا ثوب الكرادلة، أو كما كان شارلمان مقنعاً وسط قافلة الملائكة...

- كان الراهب ليصير مقنعاً لو أنّه أظهر علامة على وجوده، هو شخصيّاً، عبر رسالةٍ منه موجّهةٍ إلى فردريك.»

12

باودولينو يكتب رسالة الراهب جان

لقد استُلهِمَت فكرةُ تحريرِ رسالةٍ من الراهب جان من حكايةٍ كان ربّي سليمان قد سمعها في أوساط عرب أسبانيا. بحّار، يدعى سندباد، وعاش في زمن الخليفة هارون الرشيد، قادته أسفاره، ذات يوم، إلى إحدى الجزر الواقعة عند خطّ الاعتدال، ما يعني أنّ الليل فيها، كما النهار، يدوم اثنتي عشرة ساعة. روى سندباد أنّه صادف، على الجزيرة، عدداً غفيراً من الهنود، فلا بدّ إذاً أنّ الجزيرة كانت قريبة من الهند. اقتاده الهنود للمثول أمام أمير سرنديب. وكان ذاك الأمير لا يتنقّل إلاّ محمولاً على عرش وُضعَ على ظهر فيل، علوّه ثماني أذرع، وعلى الجانبين يواكبه صفّان من الحاشية والوزراء. يتقدّمه بشيرٌ حاملاً رمحَه الذهب، ويتبعه آخر حاملاً كتلةً من الذهب جُعِلَت قمّتها زمردة. وعندما يترجّل عن عرشه المحمولِ ليتابع طريقه على صهوة جواد، كان يتبعه ألف فارس مكسوّين بالحرير والديباج، ويتقدّمه بشير آخر منادياً أنّ الوافدَ ملكٌ لم يحظَ سليمان بمثل تاجه. استقبل الأمير سليمان واستفسر منه مطوّلاً عن المملكة التي قدم منها. وفي آخر الأمر طلب منه أن يحمل معه لهارون الرشيد رسالةً مدوّنة على رَقّ من جلد الخروف بحبرٍ مجلوب عِبْرَ البحر، ونصّها التالي: «إني أبعث إليك بتحية السلام، أنا أمير سرنديب، الذي يتقدّم موكبه ألفٌ من الأفيال، وفي قصره جُعِلَت الشحارير من الجواهر. إنّنا

نعتبرك أخاً ونرجو أن نتلقّى منك جواباً. كما نرجو أن تتقبّل منّا هذه الهدية المتواضعة.» وكانت الهدية المتواضعة عبارة عن كأسٍ من الياقوت الأحمر، وجوفها مرصّع باللآلئ. تلك الكأس والرسالة قد زادتا اسم هارون الرشيد العظيم هيبةً ووقعاً في عالم المشرقيين.

«من المؤكد أن بحّارك هذا كان في مملكة الراهب جان، قال باودولينو؛ سوى أنّ العرب يطلقون عليه اسماً مغايراً. لكنّه كذب حين قال إنّ الراهب قد بعث برسائل وهدايا للخليفة، لأنّ جان مسيحي، لا بل هو نسطوري، وإذا كان ينبغي له أن يبعث برسالة لكان بعث بها الإمبراطور فردريك.

- إذاً هيّا، لنكتب هذه الرسالة»، قال الشاعر.

خلال سعيهم وراء أي خبرٍ من شأنه أن يسهم في بناء مملكة الراهب، التقى أصحابنا كيوت. وكان كيوت هذا متحدّراً من منطقة شامباني، وقد عاد لتوّه من رحلةٍ إلى بريتاني، وما زالت تلهب مخيّلته قصص الفرسان التائهين والمجوس والجنيّات والرقى المؤذية، التي يرويها أهل تلك البقاع في لياليهم الحالكة حول النار. وما كاد باودولينو ينبس بكلمة حول عجائب قصر الراهب الجان، حتّى صاح قائلاً: «لقد سمعت في بريتاني عن قصر مثل هذا، أو ما شابهه! فهناك يُحفَظ «الغرادال»!

- وما أدراك أنتَ بالغرادال؟ سأله بورون وقد بدت عليه بغتةً سمات الارتياب، كأن كيوت تدخّل فيما لا يعنيه.

- ما أدراكَ أنتَ بها؟ أجابه كيوت بقدرٍ مماثل من الريبة.

- الحاصل، قال باودولينو، أني أراكما ضنينين بالغرادال هذه. فما هي بالضبط؟ ففي حدود علمي أنّ الغرادال هي ضربٌ من القَصْعَة.

- القصعة، القصعة، ردّد بورون قائلاً ومتبسّماً بشيء من الحَرَج. الأحرى أنّها كأس.» ثمّ أضاف كأنّه عزم أخيراً على البوح بسرّه: «إني أعجبُ حقّاً إذ يتضح لي أنّكم لا تعلمون شيئاً عنها. إنّها أثمن ذخائر

المسيحية قاطبةً؛ الكأس التي فيها كرّس المسيحُ النبيذ خلال العشاء الأخير، والتي بها أيضاً تلقّفَ يوسف الرّامةِ الدمَ الذي سال من جنب المصلوب. البعض يزعم أنّ اسم هذه الكأس هو«الغرال المقدّس»؛ والبعض يزعم أنّ الإسم هو «سنغريال»، أي الدم الملكي، لأن من يمتلكها ينتمي إلى سلالة الفرسان المختارين من جبلّة داود وسيّدنا المسيح.

– أهو «غرادال» أم «غرال»؟ سأل الشاعر وقد لفته من الحديث ذكر هذا الشيء الذي من شأنه أن يضفي على مالكه بعض السلطان.

– لا أحد يدري يقيناً، قال كيوت. فهناك أيضاً من يسمونها «غرازال»، كما يسمّيها سواهم «غرالتز». ليس ثابتاً أنّها كأس. ومن رآها لا يذكر شكلها، لكنّه يعلم أنّها شيء حُبيَ بقدراتٍ خارقة.

– ومن رآها؟ سأل الشاعر.

– بالتأكيد الفرسان الذين حرسوها في بروسيلياند. ولكن هم أيضاً لم يعثر أحدٌ على أثرٍ منهم؛ وأنا، شخصياً لم ألتق سوى أناس حدّثوني عنها.

– ربّما كان من الأجدر أن يُحكى عنها القليل وأن يُسعى إلى مزيد من المعلومات عنها، قال بورون. لقد ذهب هذا الفتى لتوّه إلى بريتاني وما إن سمع شيئاً عنها حتّى راح يرمقني بنظرة غريبة كأنني أسعى لأن أسلبه ما لا يمتلكه. والجميع في هذا سواء. ما إن يؤتى على ذكر الغرادال حتّى يظنّ المرء أنّه وحده من سيجدها. أمّا أنا فقد مكثت في بريتاني وجزر عبرِ البحار خمس سنوات، من دون أن أنبس بكلمة، فقط سعيت للعثورِ...

– وهل وجدتها؟ سأل كيوت.

– ليست المشكلة في العثور على الغرادال، بل الفرسان الذين كانوا يعرفون أين هي. لقد جبتُ البقاع، وسألت، وأبداً لم أعثر عليهم.

فالأرجح أني لم أكن من بين المختارين. وها إني منكب الآن على البحث بين الرقوق لعلّي أعثر على أثر غفلت عنه أثناء تجوالي في تلك الغابات. . .

- ولكن ما جدوى الحديث عن الغرادال، قال باودولينو، سواء كانت في بريتاني أو في تلك الجزر فلا منفعة لنا بها لأنّ لا شأن لها بالراهب جان.» لا، قال كيوت، لأنّ المكان الذي يوجد فيه القصر والشيء الذي يحميه لم يتضح في يوم من الأيّام، ومن القصص الكثيرة التي سمعها، هناك قصّة تزعم بأنّ أحد أولئك الفرسان، ويدعى فايرفيز، كان قد عثر عليها ثمّ أعطاها لابنه وهو راهب سيصبح ملك الهند.

«ترّهات، قال بورون، أتراني بحثتُ لسنوات طويلة في المكان الغلط؟ من حكى لك قصة فايرفيز هذا؟

- كلّ قصة قد تكون صحيحة، قال الشاعر، ومن يدري ربّما تعثر على غرادالك هذا لو اتبعت قصة كيوت. غير أنّ ما يعنينا الآن ليس أن نجده بل التثبّت من أنّه يستحق العناء الذي يقتضيه إيجاد صلة ما بينه وبين الراهب جان. يا عزيزي بورون، نحن لا نبحث عن شيء، بل عن شخص يستطيع أن يتحدّث عن هذا الشيء.» ثمّ مخاطباً باودولينو أردف قائلاً: «فكّر قليلاً! الراهب جان يمتلك الغرادال، ومن هنا تنبع رفعة مكانته، وبإمكانه أن ينقل هذه الرفعة إلى فردريك بمنحه الغرادال كهبة!

- وقد تكون هي نفسها كأس الياقوت الأحمر التي بعث بها أمير سرنديب إلى هارون الرشيد»، قال سليمان مقترحاً وقد صدر صوته، لفرط حماسته، كالهسيس من جانب فمه الخالي من الأسنان. «المسلمون يجلّون يسوع بوصفه نبيّاً عظيماً، فَلِمَ لا يكونون هم الذين عثروا على الكأس، ومن ثمَّ أعطاه هارون بدوره إلى الراهب. . .

- أحسنتَ، قال الشاعر. وتكون الكأس بمثابة نبوءة باسترداد ما استولى عليه المسلمون زوراً وغصباً. إنّها لعمري أفضل من أورشليم!»

قرّ رأيهم على السعي في هذا الاتجاه. تمكّن عبدول، تحت جنح

الظلام، أن يختلسَ من ديوان دير سان فيكتور رقّاً فاخراً لم يمسح من قبل. ولم يبقَ سوى الختم لكي يبدو أنّه رسالة من ملك. وراح باودولينو، في تلك الغرفة التي تتسع في الأصل لاثنين وباتت تؤوي ستّة أشخاص جلسوا جميعاً إلى طاولة خفيضة، يملي نصّ الرسالة مغمض العينين كأنّه يملي بما يمليه عليه الوحي. وكان عبدول يدوّن لأنّ خطّه الذي تمرّس عليه في ممالك عبر البحار المسيحية، يُذكّر بخطّ مشرقي يخطّ حروفاً لاتينية. وقبل الشروع في التدوين كان اقترح على رفاقه أن يتجرّعوا ما تبقّى في القارورة من عسل أخضر لكي يؤتوا الإلهام في اللحظة الملائمة، لكنّ باودولينو اعترض على اقتراحه هذا بدعوى حاجتهم الليلة إلى الامتناع عن كلّ ما يعكّر صفاء الذهن.

لكن سرعان ما استوقفهم ميلهم إلى الاعتقاد بأنّ الراهب جان كان ليكتب بلغته الآدمية، أو، على الأقلّ، باليونانية، هذا قبل أن يخلصوا إلى أنّ ملكاً كالراهب جان لا بدّ أنّ له معاونين يجيدون كلّ لغة، وأنّه بدافع الاحترام لا بدّ أن يكتب لفردريك باللاتينية. هذا فضلاً عن أن الرسالة ينبغي أن تدهش وتقنع البابا والأمراء المسيحيين الآخرين، لذا ينبغي أن تكتب بلغة يفهمونها. وعلى هذا شرعوا في الكتابة.

من الراهب يوهانّس، بفضيلة وسلطان الربّ وسيّدنا يسوع المسيح ربّ أهل السلطان قاطبةً، إلى فردريك، المقدّس وإمبراطور الرومان، أمنياته بالعافية والرغد المقيم بالبركات الإلهية...

لقد نميَ إلى جلالتنا أنّك تقيم عظيم اعتبار لسيادتنا وأنّ خبراً عن كبير قدْرِنا قد بلغك. غير أننا علمنا عن لسان موفدينا أنّك أردت أن تبعثَ إلى سماحتنا بما يبهج ويروّح عن النفس. نقبل منك هذا بغبطةٍ وسرور، وبوساطة أحد موفدينا، نبعث إليك بعلامة من قبلنا، رغبةً منّا في التيقّنِ من حسنِ اتباعك سبل الإيمان القويم ومن إيمانك الذي لا يدحض بربّنا يسوع المسيح. ومن واسع سخائنا إذا منّيتَ

النفس بما فيه نفعك فاعلِمْنا سواء بشارة من رسولنا أو بخبرٍ من مودّتك. واقبل منّا جواباً...

«مهلاً، قال عبدول، قد تكون تلك هي اللحظة الملائمة التي يبعث فيها الراهب جان بالغرادال إلى فردريك!

- أجل، قال باودولينو، غير أنّ هذين المعتوهين، بورون وكيوت، لم يتّفقا بعد على رأي بهذا الشأن!

- لقد سمعا كثيراً من الروايات، وشهدا الكثير من الأحداث، فربّما كانا لا يذكران شيئاً عنها. ولهذا السبب كنت اقترحت العسل: يجب أن يتناولا ما يعينهما على إطلاق أفكارهما.»

ربّما كان على باودولينو الذي يملي و عبدول الذي يدوّن أن يكتفيا بالنبيذ، ولكن ما الضير في استثارة مخيّلة الشهود أو مصادر الوحي بقليل من العسل الأخضر. هكذا لم تمض هنيهات معدودة إلاّ وصار بورون وكيوت (إذ خبّلته أحاسيسه المستجدّة) والشاعر الذي سبق له أن ذاق طعم العسل، جالسين على الأرض، وقد نقشت على وجوههم ابتسامة ذهول، مستغرقين في أحاديث هاذية على غرار ما كان يهذي به أسرى علاء الدين.

«آهٍ بلى، كان كيوت يقول، هناك صالة فسيحة الأرجاء، ومشاعل تنيرها بإضاءة لا يمكن لأي مخيّلة أن تأتي بمثيلها. يظهر خادم وبيده حربةٌ هي من البياض بحيث تبرق بانعكاس نيران الموقد عليها. من سنّ الحربة تنبثق قطرة دمٍ تسيل على يد الخادم... ثمّ يصل خادمان آخران حاملَيْن شمعدانين منَ الذهب المنقوش وفي كلّ منهما تلمع عشر شموع على الأقل. الخدم وسيمون... وإذا بصبيّة تطلّ حاملةً الغرادال، فيغمر الصالة نورٌ باهر... ويشحب ضياء الشموع كما يشحب القمر وتشحب النجوم عندما تشرق الشمس. الغرادال مصنوعة من الذهب الخالص، وبها، مرصّعةً، أثمن الأحجار الكريمة، وأبهى ما يمكن أن يوجد منها أرضاً

وبحراً. . . الآز تدخل صبيةٌ أخرى حاملةً صحيفةً من فضّة. . .

- وما شكل هذه الغرادال اللعينة؟ صاح الشاعر قائلاً.

- لا أدري؛ إني لا أبصر إلاّ نوراً. . .

- أنت لا تبصر إلاّ نوراً، قال بورون عندئذٍ، أمّا أنا فأرى أشياء أخرى. . . مشاعل تنير الصالة، بلى، ولكنْ يُسمع الآن دويّ رعد، زلزلة مرعبة، كأنّما القصر يتداعى. تحلّ ظلمةٌ غامرة. . . لا، أشعّة شمس تنير الآن القصرَ سبعة أضعاف. أواه، ها هي الغرادال المغطّاة بنسيج من القطيفة أبيض تدخل، وعند دخولها تغشى البلاط كلّ عطور توابل الأرض. وفيما الغرادال تدور حول المائدة يرى الفرسان أطباقهم وقد امتلأت بكل ما يشتهونه من طيبات الأرض. . .

- ولكن ما شكل غرادال اللعنة هذه؟ قاطعه الشاعر صائحاً.

- إيّاك والتجديف، إنّها كأس.

- وكيف لك أن تعلم إذا كانت مغطّاة بنسيج من القطيفة؟

- أعلم ذلك لأني أعلم، أجاب بورون معانداً. لقد قيل لي ذلك.

- فلتحلّ عليك اللعنة أبدَ الدهرِ وليخالط بدنَك ألف شيطان! من يسمعك يحسب أنّك تبصر رؤيا ثمّ تروي ما قيل لك ولا تبصر؟ إنّك وربّي لأسوأ من حزقيال الأعشى ذاك، الذي ما كان يعلم ماذا يرى لأنّ اليهود البُعَداء أولاء لا ينظرون إلى الزخرفةِ ولا يصغون إلاّ إلى الأصوات!

- بالله عليك أيّها المجدّفُ، قاطعه سليمان قائلاً، إني لا أشاطرك رأيك، واعلم أنّ التوراة كتاب مقدّس حتّى في نظركم أنتم معشر الوثنيين!

- رويدكم، رويدكم، قال باودولينو. ولكن اسمع يا بورون. لنسلّم جدلاً بأنّ الغرادال هي الكأس التي بارك فيها سيّدنا النبيذ. فكيف يُمْكَنُ ليوسف الرّامةِ أن يتلقّف فيها دم المصلوب إذا كان أنزل يسوع عن الصليب بعد أن أسلمَ مخلّصنا الروح، وكما تعلم جيّداً إنّ الدماء لا تسيل من الموتى؟

– حتّى في موته كان يسوع قادراً على اجتراح المعجزات.

– لم تكن كأساً، قاطعهما كيوت قائلاً، لأنّ من روى لي حكاية فايرفيز قد أسرّ إليّ أيضاً بأنها حجر هبط من السماء، lapis ex coelis، وإذا كانت حقّاً كأساً فلأنّها نحتت من هذا الحجر السماوي.

– ولِمَ لا تكون سنّ الحربة التي طُعِنَ بها الجنب القدسيّ؟ سأل الشاعر. ألم تقل للتوّ إنّك رأيت خادماً يدخل إلى الصالة حاملاً حربةً دامية؟ حسناً، وأنا أرى لا خادماً واحداً فقط بل ثلاثةً من الخدم ورمحاً تسيل منه دماء. . . ثمّ أرى رجلاً في حلّة أسقف، بيده صليب، محمولاً على كرسيّ من قبل أربعة ملائكة يضعونه أمام المائدة حيث وضعت الآن الحربة. . . ثمّ أرى صبيّتين تتقدّمان حاملتين طبقاً وعليه رأسٌ مقطوعٌ لرجل ومغطّىً بالدماء. ثمّ الأسقف الذي يقيم القدّاس فوق الحربة، وفي القربان تبدو صورةُ طفل! الحربة هي الشيء المعجز، إنّها علامة السلطان لأنّها شارة القوّة!

– لا، الحربة ترشح دماً، غير أنّ القطرات تتجمّع في كأس، برهاناً على المعجزة التي كنت أتحدّث عنها، قال بورون. مسألة بسيطة. . . » وراح يبتسم.

«دعونا من هذا كلّه، قال باودولينو، عُذراً. لندع الغرادال وشأنها ولنتابع.

– يا أصدقائي، بادَرَ عندئذ سليمانُ إلى القول، بكلِّ التجرّد الذي قد يبديه من هو مثلي، بوصفي يهوديّاً لم تفحمه تلك الحجّة المقدّسة، يا أصدقاء، إنّ الزعمَ بأنّ الراهب قد أهدى الإمبراطور شيئاً مماثلاً لهو من أمر يبدو لي مفرطاً في غلوّه. هذا فضلاً عن أنّ من يقرأ الرسالة قد يطلب من فردريك أن يُريه هذا الشيء المعجز. ومع ذلك لا يمكننا أن نستبعد احتمال أن تكون الروايات التي سمعها كيوت وبورون ما زالت رائجةً في عدد من الأماكن، ولذا يكفي الإلماح بهذا الشأن وليفهم من يريد أن يفهم. لا تذكروا بالاسم الغرادال ولا حتّى الكأس، بل استخدموا عبارة

غير صريحة. فالتوُراهْ لا تذكر أسمى الأمور بالحرف بل بحسب المعاني اللدنية التي يفطن إليها القارئ الورع تدريجاً، تلك المعاني التي شاء الخالق، تبارك اسمه على الدوام، أن تدرك في نهاية الأزمان.»

قال باودولينو مقترحاً: «لنقل إذاً إنّه بعثَ إليه بعلبة نفائس، بصندوق مقفل، بفُلْكٍ؛ لنقل حرفياً accipe istam veram arcam، اقبل هذا الصندوق الحقّ...

- لا بأس، قال ربّي سليمان. عبارة تلمّح وتصرّح في آن معاً. وتمهّد السبيل لدوّامة التأويل.»

واستأنفوا الكتابة.

إذا شئتَ القدومَ إلى ديارنا، فلسوف نعدّ لكَ البلاط الأرحبَ والأبهى فيُمكنكَ التنعّمُ بنعمنا. ومن هذه النِعَمِ الوافرة بينا سوف تنال الكفايةَ إن شئتَ أن تعود إلى ملكِك. أذكُرَ على الدوام عواقب الإنسان الأربع، وإذ ذاك لن تقع في الخطيئة.

بعد أن أوصاه بالتقوى انتقل الراهب إلى وصف سلطانه.

«لا تدعوا أثراً لتواضع، نصحهم عبدول قائلاً، ذاك أنّ رفعة المقام التي للراهبِ تتيح له أن ما أمكن من كبرياء.»

حدِّث، إذاً، ولا حرج. لم يتردّد باودولينو لحظةً واحدة، فأملى ما يقتضيه المقام. فهذا المُلكُ الإلهي يتخطّى بسلطانه كلّ ملوك الأرض وموارده لا تنضب؛ ثلاثة وسبعون ملكاً يؤدون له الجزية؛ وتخضع له اثنتان وسبعون ولاية ليست كلّها مسيحية - ما أثلج صدرَ ربّي سليمان، لأنّ هذا يشمل أسباط إسرائيل المفقودة. يتّسع مُلْكُه ليشمل أصقاع الهند الثلاثة وتترامى أراضيه حتّى تخوم الصحارى الأكثر بعداً، حتّى برج بابل. يتعاقب على خدمة مائدة الراهب ثلاثة ملوك كلّ شهر، واثنان وسبعون

دوقاً وثلاثمائة وخمسة وستون كونتاً، وفي كلّ يوم، يجلس إليها اثنا عشر رئيساً للأساقفة، وعشرة أساقفة، وبطريرك القدّيس توما، ومتروبوليت سمرقند وكبير كهنة سوس.

«ألا ترون أنّ في هذا مبالغة؟ سأل سليمان.

– لا، لا، قال الشاعر، يجب أن نستثير حسد البابا وقيصر بيزنطه. أضف أنّ الراهب قد نذر على نفسه أن يزور الضريح المقدّس على رأس جيش جرّار ليسحق أعداء المسيح. وهذا لتأكيد ما قاله أوتون، وإسكات البابا في حال اعتراضه بالقول إنّه، مع ذلك، لم يفلح في عبور الغانج. ذلك أنّ جان سيحاول مجدّداً، ولهذا من المجدي السعي للعثور عليه وعقد تحالف معه.

– والآن أعطوني أفكاراً حول الكائنات التي من شأنها أن تعيش في المملكة، قال باودولينو. يجب أن يكون فيها أفيال وجمال وحيدة السَّنام وجمال ثنائية السَّنام وعجول نهر وفهود وحمير الوحش وأسود بيض وصُهْب وزيزان حصادٍ خُرس وعنقاوات مُغْرِب ونمور ومصّاصو دماء وضباع، وكلّ ما لا نراه عندنا ويكون جلده ثميناً لمن يريد الصيّد هناك. بالإضافة إلى بشرٍ لم يرَ لهم مثيل والذين يؤتى على ذكرهم في مصنّفات طبيعة الأشياء والكون...

– ساجيتاريوس، بشر بقرون، بشر برؤوس طيور، سَتير، أقزام، بشر برؤوس كلاب، عمالقة بقامات بعلوّ أربعين ذراعاً، بشر بعين وحيدة، قال كيوت على سبيل المثال.

– حسناً، حسناً، هيّا دوِّن يا عبدول، دوِّن»، قال باودولينو.

أمّا بشأن ما تبقّى فكان كافياً اقتباس الأفكار والأقوال التي تردّدت خلال الأعوام المنصرمة مع بعض التحسين. فأرض الراهب تجري بها أنهار العسل وتفيض لبناً حليباً – وكان ربّي سليمان مغتبطاً لما يتناهى إلى سمعه لأنّ فيه أصداءً من سفر الخروج ولاوي وسفر قانوني ثانٍ –، ولم يكن فيها لا أفاعٍ ولا عقارب، ويجري فيها نهر إيدونوس الذي ينبع

مباشرةً من الفردوس الأرضي، وفي مجراه. . . حصىً ورمل، قال كيوت غير جازم كأنّه يذكر هذه بمثابة اقتراح. لا، أجابه ربّي سليمان، إنّه نهر سمباتيونَ. والسمباتيون، ألا ينبغي أن نضعه فيها؟ بلى، ولكنْ تالياً، نهر إيدونوس ينبع من الفردوس الأرضي ويحتوي مجراه إذاً. . . على زمرّد وياقوت وعقيق وياقوت جمري ولازورد وزبرجد وعقيق يمان وزمرّد مصري ومعشوق، عدّد كيوت، الوافد الجديد الذي لم يدرك سبباً لامتعاض رفاقه (إذا ذكرت الياقوت مرّةً ثانية فسوف ابتلعه ثمّ ألفظه عبر النافذة، صاح باودولينو قائلاً)، ذلك انّهم لفرط ما جابوا جزراً زاخرة بالكنوز وفراديس أرضية، أصيبوا بتخمة الأحجار الكريمة وما عادوا يطيقون المزيد منها.

عندها، اقترح عبدول، وبما أن المملكة تقع في بلاد الشرق، أن يؤتى على ذكر التوابل النادرة، وقرّ قرارهم على الفُلفُل. فقال بورون إنّه ينبت على أشجار تغزوها الأفاعي ولمّا تنضج ثماره توقد النار في الأشجار فتهرب الأفاعي منسلّةً في جحورها، فتؤتى الأشجار وتُهزّ هزّاً لكي تسقط الثمار عن الأغصان المحترقة، ثمّ تطبخ على نحوٍ لا يعرفه أحد.

«والآن هل صار بإمكاننا أن نضع السمباتيون؟» سأل سليمان. «لنضعه إذاً، قال الشاعر، وهكذا يكون واضحاً أن الأسباط المفقودة تقيم وراء النهر، وربّما كان الأفضل أن نسمّيها بالاسم، وبذلك يحظى فردريك بغنيمة إضافية للتدليل على مجده.» لاحظ عبدول أنّ السمباتيون ضرورة لأنّه يمثل العقبة التي لا يمكن تذليلها والتي تتحدّى الإرادة وتستثير الرغبة، أي تستثير الغيرة. كما اقترح أحدهم أن يؤتى على ذكر ساقية جوفية زاخرة بالفصوص الكريمة. فقال باودولينو إنّ لعبدول مطلق الحرية في ذكرها غير أنّه، شخصيّاً، لا يريد أن تكون له صلة بالأمر لئلاّ يسمع مجدّداً من يأتي على ذكر الياقوت. واستناداً إلى ما ذكره كلّ من بلينوس وإيزيدوروس، صمّموا على جعل تلك الأرض عاجّةً بالسمندل والحيّات ذات القوائم الأربع التي لا تعيش إلاّ وسط نيران مستعرة.

«يكفي أن يكون الأمر صحيحاً فنضعه، قال باودولينو، المهمّ ألاّ نختلق قصصاً.»

كانت الرسالة تحرص أيضاً على التطرّق، قليلاً، إلى حال الفضيلة التي تسود تلك الأرض حيث يُلاقى زائرها بالإحسان، وحيث لا وجود لفقراء، ولا للصوص أو نهّابين أو بخلاء أو مارقين. كما يؤكّد فيها الراهب، بعد ذلك، اعتقاده بأنّ لا وجود لعاهلٍ، في الدنيا بأسرها، أوسع ثراءً منه وبمثل هذا العدد من الرعايا. وكدليلٍ على سعة هذا الثراء، وهو نظير ما رآه سندباد في سرنديب، هذا المشهد الجليل الذي يصف الراهب فيه نفسه خلال سيره لقتال أعدائه، مسبوقاً بثلاثة عشر صليباً مرصّعةً بالجواهر، كلّ واحد منها على عربة خيل، وكلّ عربة يتبعها عشرة آلاف محارب ومائة ألف من أجراء السلاح. ولكن بالمقابل، حين يسير الراهب في أوقات السلم يكون مسبوقاً بصليب من خشب، استذكاراً لشغف الربّ، وبآنية من ذهبٍ ملؤها تراباً لكي يتذكر هو ويتذكّر الجميع **أننا من التراب وإلى التراب نعود**. ولكنْ لكي لا يغيب عن بال أحد أنّ المارّ هو ملك الملوك كان ولم يزل، يكون الموكب مسبوقاً أيضاً بآنية من فضة ملؤها ذهباً. «إنْ وضعت فيها ياقوتاً حطّمت هذه القارورة على قمّة رأسك»، قال له باودولينو متوعّداً. ولم يضع عبدول، لهذه المرّة على الأقل، ياقوتاً فيها.

«إلى ذلك، اكتب أيضاً أنّها أرض من دون زناة، وأنّ لا أحد فيها يكذب، وأنّ الذين يكذبون يموتون على الفور، أو في المحصّلة كأنهم يموتون لأنّهم تُسقَط عنهم كلّ الحقوق ولا يعود أحد يبالي بهم.

– ولكني سبق وذكرت أنّ ليس فيها رذائل، وليس فيها لصوص...

– مهما يَكُنْ، لا ضيرَ في الإصرار، فيجب أن تكون مملكة الراهب جان مكاناً يتوصّل فيه المسيحيون إلى الالتزام بالتعاليم الإلهية في حين أنّ البابا عجز عن إلزام رعاياه بمثل ذلك، لا بل أدهى، إنّه يكذب، حتّى هو

يكذب، وأكثر من سواه. ثمّ إنّ الإلحاح على القول بأنّ لا أحد يكذب هناك يؤكّد، من جهةٍ أخرى، أنّ كلّ ما يقوله جان هو صحيح.»

ويتابع جان قائلاً إنّه يقوم كلّ عام، وعلى رأس جيش جرّار، بزيارة ضريح النبي دانيال في بابل الجرداء، وإنّ في بلاده يصطادون الأسماك التي يستخرج الأرجوان من دمها، وإنّ ملكه يمتدّ حتّى بلاد الأمازونيّات والبَرَهْميين. وقد بدت قصّة البرهميين ذات دلالة في نظر بورون لأنّ البرهميين قد شوهدوا من قبل الاسكندر الكبير عندما بلغ الطرف الأقصى من الشرق. ووجودهم إذاً دليل على أنّ مملكة الراهب قد شملت حتّى إمبراطورية الاسكندر.

بعد ذلك لم يبق إلاّ أن وصف قصره ومرآته السحرية، وبهذا الشأن كان الشاعر قد قال كلّ ما يمكن قوله خلال الأمسيات السابقة. سوى أنّه ردّد كلّ شيء همساً في أذن عبدول، لكي لا يسمع باودولينو ذكر الياقوت والزمرّد المصري مرّةً أخرى، وإن كان ذكرها هذه المرّة، لا يجافي مقتضيات السياق.

«أنا أعتقد أنّ من سيقرأ الرسالة سيتساءل من دون شكّ لمَ يكتفي ملك على هذا القدر من السلطان بأن يسمّي نفسه مجرّد راهب.

– أحسنتَ، قال باودولينو، وهذا ما يفضي بنا إلى الخاتمة. أكتب يا عبدول...»

إذاً لِمَ، يا عزيزي فردريك، لا تجيز لنا رفعتنا أن نتسمّى بما يفوق لقب الراهب رفعةً، ولعلّه السؤال الذي يراود تمامَ حكمتك فلا ريب أنّ في بلاطنا مقدَّمين أُغدِقَت عليهم مناصب وألقاب أرفع بكثير، وخصوصاً في ما يعني السلك الكهنوتي... إنَّ قهرماننا جثليق وملك، وملكٌ ورئيس أساقفة هو ساقينا، وأسقفٌ وملكٌ هو حاجب بلاطنا، ملكٌ وأرشمندريت هو بيطارنا، وملك وَرئيسٌ هو شيخ طهاتنا. هكذا إذاً ولأنّ سموّنا لن يرضى بأن يتسمّى بمثل هذه الألقاب إيّاها، أو أن

ينال رفعةً هي جاري المألوف في بلاطنا، شئتُ متواضعاً أن أتسمَّى باسمِ أقلّ شأناً وبمرتبةٍ أدنى. يكفيك في الوقت الراهن أن تعلم بأنّ أراضينا تمتدّ، من جهة، على مسافة أربعة أشهر من المسير، فيما تمتدّ، من الجهة الثانية، إلى حيث ما لا يدري أحدٌ إلى أين. فإنْ كنتَ، أنتَ، قادراً على عدٍّ نجوم السماء ورمل البحر، لأمكنك عندئذ أن تحصي ممتلكاتنا وسلطاننا.

كان الوقتُ فجراً عندما أنهى أصحابنا تدوين الرسالة. ومن منهم كان قد تناول عسلاً ألفى نفسه مقيماً على ابتسامته البلهاء، ومن منهم اكتفى بشرب الخمر كان ثملاً، أمّا الشاعر الذي جمع بين المُسْكِرَيْن فقد كان يجد مشقّةً في أن يستقيم على ساقَيْه. جابوا الأزقة والساحات منشدين جذلين ممسكين بالرقّ الذي باتوا يحسبونه، حقّاً، رسالةً من مملكة الراهب جان.

«هل أرسلتها فوراً إلى رينالد؟

– لا. فبعد رحيل الشاعر لبثنا لأشهر طويلة نقرأها ونعاود قراءتها، ساعين لأن نهتدي إلى الصياغة النهائية، نمسح عبارة من هنا ثمّ نعيد كتابتها؛ وأحياناً ينبري أحدنا لاقتراح إضافة ما عليها.

– ولكن رينالد كان ينتظر الرسالة، على ما أحسب. . .

– الحكاية أنّ فردريك كان، في الأثناء، قد أعفى رينالد من منصبه كقنصل إمبراطوري، وعيّن مكانه كريستيان دي بوخ. طبعاً بقي رينالد بوصفه رئيس أساقفة كولونيا، ورئيس قناصل إيطاليا، على قدرٍ كبير من النفوذ بدلالة أنّه هو من أعدّ للتطويب شارلمان، غير أنّ إعفاءه من منصبه كان يعني، أو على الأقلّ من وجهة نظري أنا، أنّ فردريك قد بدأ يشعر بأنّ رينالد صار شخصاً مزعجاً. وفي مثل هذه الحال كيف يُعقل أن تقدَّمَ

للإمبراطور رسالة كتبت، في الأصل، بطلبٍ من رينالد؟ وكدتُ أنسى: في السنة ذاتها التي أعلنت خلالها قداسة شارلمان، وضعت بياتريس مولودها الثاني، وهذا ما يفسر انشغال فردريك بمسائل أخرى، فضلاً عمّا كان يتناهى إلى سمعي من أخبار تتعلّق بالحال الصحيّة المتردية لابنه الأوّل. وهكذا بين أمرٍ وآخر، تصرّمَ ما يزيد على العام.

– ألم يكن رينالد ملحّاً في طلبها؟

– في البداية كانت هناك مخطّطات أخرى نصبَ عينيه. وبعد ذلك مات. ففيما توجّه فردريك إلى روما لطرد ألكسندر الثالث منها واستبداله على الكرسي البابوي ببابا آخر مزيّف، تفشّى وباء الطاعون، والطاعون كما تعلم يحصد الاثرياء كما الفقراء. فحصد رينالد أيضاً. أقعدتني صدمة وفاته لبعض الوقت، وإن كنت لا أستطيع الزعمَ بأنني أحببته يوماً. كان متغطرساً وحقوداً، ومع ذلك كان رجلاً صلباً وقاتل حتّى النهاية لنصرة سيّده. فلتنعم روحه بالسلام. ولكن يبقى السؤال، أما زال للرسالة أي معنى بعد وفاته؟ لقد كان الوحيد القادر بحنكته على تعميمها للتداول بين القناصل في العالم المسيحي بأسره.»

سكت باودولينو هنيهات: «ثمّ طرأت مسألة مدينتي.

– أي مدينة هذه، إذا كنتَ قد ولدتَ في مستنقع؟

– هذا صحيح، أحسب أني أستعجل الأمور. إذ ينبغي أن نبني المدينة قبل الحديث عنها.

– سوف تحدّثني أخيراً عن مدينة غير مدمّرة!

– أجل، قال باودولينو، من المفترض أن تكون هي المرّة الأولى واليتيمة في حياتي كلّها التي أشهد فيها مدينة تولد لا مدينة تموت.»

13

باودولينو يشهد ولادة مدينة جديدة

كان قد انقضى عشر سنوات على مجيء باودولينو إلى باريس، قرأ خلالها كلّ ما أمكن قراءته، وتعلّم اليونانية على يد بغيّ بيزنطية، وكتب قصائد ورسائل غرام سوف تنسب لسواه فيما بعد، كما شيّد، إذا جاز القول، مملكةً لا أحد يضاهيه، هو وأصدقاءه، علماً بها، غير أنّه لم ينه تحصيله العلمي. وكان يعزّي نفسه بالقول إنّ مجرّد الانتقال إلى باريس طلباً للعلم، هو في حدّ ذاته إنجاز لا يستهان به، هذا إذا أُخذ بعين الاعتبار أنّه ولد وسط قطيع من الأبقار، لكنّه سرعان ما كان يدرك أنّ الأحرى بأمثاله من الفقراء المفلسين أن يطلبوا العلم ما دام أبناء الأسياد ينصرفون إلى التمرّس بفنون القتال غافلين عن التمرّس بالقراءة والكتابة... أي أنّه باختصار لم يكن معتدّاً بما أنجزه.

ذات يوم تنبّه باودولينو، قبل شهر من ذكرى مولده، أنّه مقبلٌ على السادسة والعشرين من عمره: ونظراً لكونه رحل عن دياره حين كان لا يزال في الثالثة عشرة، فإنّ غيابه عنها، قد دام بالضبط ثلاثة عشر عاماً. انتابه شعور كنّا لنسمّيه طوعاً الحنين لمسقط رأسه لولا أنّه لم يشعر بمثله يوماً، ولذلك لا يعلم ما هو. ولعلّ هذا ما حدا به إلى الظنّ بأنّه يشعر بشوق لرؤية أبيه بالتبنّي، فصمّم على اللحاق به إلى بال حيث توقّف لبعض الوقت في طريق عودته، مرّةً أخرى، من إيطاليا.

لم يرَ فردريك منذ ولادة ابنه البكر. ففيما كان هو مستغرقاً في تدبيج رسالة الراهب، أنجز الإمبراطور ما ليس بالمستطاع، دائمَ التنقّلِ، كسمكِ السلّوْر بين الشمال والجنوب، مقيماً على صهوة جواده مثل أسلافه البرابرة، جاعلاً بلاطه الملكيّ حيثما حلّت به الرحال. كان في غضون تلك الأعوام قد عاد مرتين إلى إيطاليا. وفي طريق عودته من حملته الثانية على إيطاليا، تعرّض للمهانة في سوس حيث انتفض السكّان ضدّه وأجبروه على الفرار خلسةً متنكّراً، فيما بقيت بياتريس رهينةً لديهم. ثمّ عمد أهل سوس إلى إطلاق سراحها ولم يتعرّضوا لها بأي أذى، لكنّه في الأثناء أصابَ من المذلّة الكثير وتعاظمت بغضاؤه لأهل سوس. غير أنّ هذا لا يعني أنّه إذا اجتاز الألب استراح: فقد كان ينهمك هناك بالتخفيف من غلواء الأمراء الألمان.

وعندما التقى باودولينو الإمبراطور أخيراً، ألفاه مغتمّاً. وفهم منه أنّه بالغ القلق لاعتلال صحّة ابنه البكر - ويدعى فردريك هو أيضاً - ومن جهة أخرى لما آلت إليه الأمور في لومبارديا.

«إنّي أعلم يقيناً، وهذا لا أسرّ به إلى أحد سواك، لقد عمد الضبّاط العدول والقاصدين الموفدين من قبلي، ومحصّلو الضرائب والولاة لا لتحصيل ما يستحقّ لي من الضرائب بل سبعة أضعاف قيمتها، ففرضوا على كلّ أسرة سداد ثلاثة قروش بالعملة القديمة كلّ عام، وأربعة وعشرين دنيراً عن كلّ سفينة شراعية تبحر في المياه الصالحة للملاحة، وعلى الصيّادين ثلثَ صيدهم من الأسماك، إلى مصادرة ميراث من يموت من دون أولاد. كان يجدر بي أن أصغي للشكاوى التي بلغتني، أعلم ذلك، غير أني كنت منهمكاً في تدبير أمور أخرى... والآن يبدو أنّ المدن اللومباردية قد أقامت عصبةً فيما بينها، رابطة مناهضة للإمبراطورية، أتدرك معنى ذلك؟ وما الموضوع الذي احتلّ صدارة مناقشاتهم؟ العمل على إعادة بناء سور ميلانو!»

أن تكون المدن الإيطالية عاصية وغير وفيّة أمرٌ يمكن التعاطي معه،

ولكن أن تنشئ عصبةً فيما بينها فهو يعني بناء دولة أخرى. وعلى الرغم من أنّ عصبةً مثل هذه لن يكتب لها الدوام بالطبع، نظراً لما تبديه مدن إيطاليا من كراهية لبعضها البعض، فإنّ مجرّد قيامها يسيء إلى هيبة الإمبراطورية.

من كان سينتمي إلى العصبة؟ سرت شائعات أنّ في أحد الأديرة المجاورة لميلانو اجتمع ممثاون عن كريمونيا ومانتو وبرغام، وقيل إنّ ممثلين عن بليزانس وبارما شاركوا في الاجتماع، وإن لم يكن الأمر مؤكّداً. غير أنّ الشائعات لم تقف عند هذا الحدّ، بل أشيع بأنّ البندقية وفيرونا وبادو وفيشنسيا وتريفيزيا وفرّاري وبولونيا كانت ممثلة أيضاً. «بولونيا، تخيّل!» صاح فردريك بحنقٍ ذارعاً الحجرة جيئةً وذهاباً أمام باودولينو. «لا بدّ أنّك تذكر، أليس كذلك؟ فبفضلي أنا صار بإمكان أساتذتهم، عليهم اللعنة، أن يجنوا ما طابَ لهم من المال من طلابهم الذين عليهم ألف لعنة، من دون الرجوع لا إلى البابا ولا إليّ، وإذا اليوم ينضمّون إلى من أقاموا العصبة؟ أيعقل أن يكون هناك ما يفوق مثل هذا الصنيع وقاحة؟ لم يبق إلاّ بافيا!

- أو لودي، قال باودولينو مسهماً في التعداد، لكي يضيف إلى اللائحة مدينة على قدر من القوة والبأس.

- لودي؟! لودي؟! راح بربروس يردّد زاعقاً وقد احتقن وجهه كأنّه على وشك أن يصاب بذبحة صدرية. فإذا صدقت الشائعات التي بلغتني تكون لودي قد شاركت في القاء أيضاً! لقد كابدتُ الأمرَّين لكي أحمي أهلها، وأحمي خرافهم، ولولاي لكان الميلانيون قوّضوا بنيانها وجعلوه سوية الأرض كلّما ارتأوا أن يفعلوا، وهاهم اليوم يعتصبون في صفّ جلاّديهم ويآمرون ضدّ من أحسن إليهم!

- ولكن يا أبتي، سأله باودولينو قائلاً، ما قصّة القيل والقال هذه؟ أما عاد يبلغك خبرٌ يقين؟

– وهل نسيت، أنت الدّارس في باريس، كيف تجري الأمور في هذا العالم؟ إذا كان هناك عصبة، فهذا يعني أنّ هناك مؤامرة؛ وإذا كانت هناك مؤامرة فهذا يعني أن من كانوا في السابق في صفّك قد خانوك وهم يبلّغونك تماماً بعكس ما يتدبّرونه من وراء ظهرك، بحيث إنّ آخر من يعلم بما يضمرونه هو الإمبراطور، كما يحصل للأزواج الذين تخونهم زوجاتهم، إذ تعلم بأمرهنّ المقاطعة بأسرها، وهم، وحدهم، لا يعلمون!»

كان ذلك أسوأ مثلٍ للتدليل على حقيقة ما يجري، لأنّه ما كاد ينهي حديثه عن الزوجات والأزواج حتّى دخلت بياتريس التي كان بلغها نبأ قدوم باودولينو. جثا باودولينو على ركبتيه ليلثم يدها من دون أن ينظر إلى وجهها. لبثت بياتريس هنيهاتٍ متردّدةً. لعلّه تراءى لها أنها إنْ لم تبدِ ما تبديه في العادة حياله من ألفٍ وعطف، لبان اضطرابها واضحاً؛ لذا وضعت يدها الأخرى، بحركة أرادتها تلقائية، على قمّة رأسه مداعبةً شعره قليلاً – غافلةً عن كونها امرأة جاوزت الثلاثين من عمرها ولم يعد جائزاً لها أن تعامل على هذا النحو رجلاً لا يصغرها إلاّ قليلاً. ولكنْ، في أعين فردريك بدا الأمر طبيعياً، ما دام أباً هو وأمّاً هي، وإنْ بالتبنّي. أمّا الحيرة فكانت من نصيب باودولينو. فتلك اللمسة المضاعفة، قرب بياتريس التي فاح عطر ثوبها كأنّه عطر بشرتها، ورنّة صوتها – ولحسن الحظّ أنّه في انحنائه ما كان ليستطيع أن يحدّق في عينيها وإلاّ لانخطف لونه على الفور وسقط أرضاً مغشيّاً عليه – أفعمته بمباهج لا تُعَدُّ وإنْ كان يفسدها عليه إحساسُه بأنّه، عبر هذه التحية البسيطة، إنّما يخون للمرّة الثانية أباه.

ما كان باودولينو ليدري كيف يستأذن بالمغادرة لو أنّ الإمبراطور لم يطلب منه، أو الأحرى يأمره، ولا فرقَ بين الحالين، أن يسديه خدمةً. فلكي يتضح له واقع الحال السائدة في المدن الإيطالية، ونظراً لكونه فقد الثقة بما ينقله إليه موفدوه الرسميون ورسُله من الضبّاط، كان قد عقد العزم على إيفاد ثلّةٍ من الرجال من أهل الثقة إلى هناك، واختارهم من بين

العارفين بطبيعة البلاد وأهلها من دون أن يُعرفوا بأنّهم من رجال الإمبراطور، بحيث يُتاح لهم استكشاف الأجواء وجمع المعلومات التي لا يخالطها الخداع.

راقت في عيني باودولينو فكرة الابتعاد عن الحرج الذي يسببه له وجوده في البلاط، لكنّه سرعان ما انتابه شعور آخر: لقد شعر بتأثّر شديد لأنّه سيرى بلاده مجدداً، وأدرك أخيراً أنّ ذاك كان السبب الحقيقي لقيامه بالرحلة.

بعد أن جالَ في عدد من المدن، وصل باودولينو ذات يوم، وقد طالَ به سفَرُ الهوينى على ظهر بغلته متنكّراً في زيّ تاجر جوّالٍ بين القرى والدساكر، إلى مشارف تلك الهضاب التي وراءها، وبعد اجتيازه ناحيةً من أرض سهلٍ، سيتعيّن عليه عبور التنارو ليصلَ، بين أرضٍ بور ومستنقعات، إلى مسقط رأسه فراسكيتا.

وعلى الرغم من أنّ هجرَ الديار في ذلك الوقت كان هجْراً لا رجوعَ منه، كان باودولِينو يشعر للمناسبة أن خدراً يسري في عروقه، لأنّ توقاً ألمَّ به فجأةً هو أشبه باللهفِ لكي يعرف يقيناً ما الذي، بعد تلك الأعوام، حلَّ بوالديه.

ليس ذاك فقط، بل عاودته فجأةً وجوه فتيان آخرين من بلده، مازولو بانيتزا الذي كان يصحبه لنصب الفخاخ للأرانب البرية؛ وبورشيللي الملقّب غينو (أو لعلّه غيني الملقّب بورشيللو) الذي ما كان يلتقي به حتّى يبدأ التراشق بينهما بالأحجار؛ وآليرامو سكاكاباروزي الملقّب شيولا وكوتيكا دي كوارنيينتو عندما كانوا يصطادون السمك في البورميدا. «ربّاه، كان يقول في سرّه، لعلّها سكرات الموت تنتابني الآن، لأنّا فقط على مشارف الموت نلمحُ أشياء الطفولة...»

كانت تلك عشية الميلاد غير أنّ باودولينو كان غافلاً عن ذلك لأنّه خلال رحلته الطويلة فقد الإحساس بتعاقب الزمن. كان يرتعد برداً على

ظهر بغلته المرتعدة مثله مع أنّ السماء كانت خاليةً من الغيم في نور المغيب، صافيةً كما لا تكون سماء إلاّ حين يرود أرجاءها شميم ثلوج وشيكة. كان يعرف جيّداً تلك الأمكنة كأنّه مرّ بها أمس لأنّه يذكر اليوم الذي اجتازها فيه بصحبة والده لتسليم ثلاثة بغال ناهقةً من التعب في الدروب الصاعدة التي وحدها تنهك الأرجل، حتّى لصبي في مقتبل العمر، وكيف إذا كان مضطرّاً لجرّ بهائم في مسالكها وهي راغبة عن ذلك. غير أنهما قضيا وقتاً ممتعاً في طريق عودتهما متمتّعين بمنظر السهل من أعلى، ومتسكّعين طليقين في الدروب الهابطة. وتذكّر باودولينو أنّه على مقربةٍ من النهر، كان السهل يتحدّبُ لمسافة قصيرة على هيئة ثدي، ومن قمّة الثدي تراءت له، هذه المرّ، منبثقةً من وراء سَتْرٍ لابنٍ أبراج كنائس بعض القرى الممتدة على طول نهر برغوليو، ونهر روبيروتو، وأبعد منهما غامونديو ومارينغو ولابليا، أي منطقة المستنقعات والحصباء والكلأ تلك والتي على طرفها ربّما ما زالت قائمة خربة غالياودو الطيّب.

غير أنّه حين بلغ قمّة المرتفع الذي على هيئة ثدي، ترامى أمام ناظريه مشهد مختلف، كأنّ من كلّ جهة من حوله، على قمم الهضاب والسهول الأخرى، يسود الهَبوبُ العذب إلاّ في أجواء السهل الذي أمامه، التي بدت معتكرةً بأبخرة ضبابية، وبكتلٍ رمادية تطالعك بين الحين والحين في منتصف الدرب وتغطيك من كلّ جانب بحيث تُعدم الرؤية أمامك، ثمّ تتخطّاك متابعة طريقها كما جاءت - حتّى راح باودولينو يحدّث نفسه قائلاً: تخيّل أنّه قد يحلّ شهر آب في أي بقعة من بقاع العالم، ويبقى الضباب الأبدي مخيّماً على فراسكيتا كما الثلوج على قمم الألب البيرينية - وهو أمر لا يزعجه البتّة لأنّ من يولد في الضباب دائماً يرى في الضباب موطنه. سوى أنّه لمّا تابع طريقه منحدراً باتجاه النهر، أدرك أنّ هذا البخار لم يكن ضباباً كثيفاً بل هو، على العكس، سحب دخان تنقشع عن النيران التي تسببها. وبين نار ودخان، أدرك باودولينو أنّه حول ما كان يعرف فيما مضى بروبوريتو، وسط السهل فيما وراء النهر، تكاثرت البيوت، مثل

عناقيد الفطر، متعديةً على الأراضي الحرث، بعضها كان من حجر وبعضها الآخر من خشب، وأغلبها لم ينجز بناؤه بعد، ولجهة الغرب لاحت مداميك أسوار قيد الإنشاء لم تكن موجودةً هناك من قبل. فوق مواقد النار قدورٌ لتسخين المياه بلا ريب، لكي لا يجمد على الفور، فيما يُعمدُ، على مقربة، إلى دلقه في الحفر المملوءة بالكلس أو المَلْتِ لا فرق. باختصار، كان باودولينو قد شهد بدايات العمل لتشييد الكاتدرائية الجديدة في باريس، على الجزيرة وسط النهر، ويعرف جيّداً كلّ تلك الآليات والسقالات التي يستخدمها البنّاؤون: إذا صدق ظنّه مما يعرفه عن بناء المدن، فإنّ الناس هناك كانوا على وشك إيجاد واحدة من عدم، وهذا مشهد لا يشهده المرء - إذا أتيح له ذلك - إلاّ مرّة واحدة في حياته وكفى.

«إنّه أمر لا يصدّق، جنون مطبق، قال في سرّه، إن غفلت عينك عنهم هنيهة قلبوا الدنيا رأساً على عقب»، وهمز بغلته كي يبلغ الوادي بأسرع وقت. بعد أن عبر النهر على متن عبّارة تنقل أحجاراً من كلّ صنفٍ وحجم، توقّفَ بالذاتِ حيث يعمل بضعة عمّال، فوق سقالةٍ مترنّحةٍ، على إعلاء جدارٍ قليل السَّمكِ فيما آخرون على الأرض يرفعون لهم، بوساطة ملفاف، قففاً من حجارة الرصف. غير أنّ الحديث عن ملفاف لا يعدو كونه هنا تسميةً بلا مسمّى: إذ لا يعقل أن تفوقه أداة في بدائيته؛ لقد رُكِّبَ من عصيّ طويلة بدل الركائز الوطيدة، فكان مترجّحاً مهتزّاً على الدوام، فيما بدا الرجلان الواقفان على الأرض والعاملان على دفع الطّارة بدل جذب الحبلِ، منهمكين في تثبيت هذا الترجّح المدوِّخ. فما كان من باودولينو إلاّ أن قال في سرّه: «هنا الأمر واضح مثل عين الشمس، فعندما يودّ أهل الناحية أن ينجزوا عملاً ما أنجزوه على قدر من السوء أو أسوأ ما يكون؛ هل يعقل أن يتمّ العمل على نحو مماثل، واللهِ لو كنتُ سيّداً هاهنا لأمسكت برقابهم جميعاً ورميتُ بهم إلى النهر.»

لكنّه لم يلبث أن شاهد على مقربة مجموعةً أخرى من الرجال

المنكبّين على بناء مرقبٍ بأحجارٍ غير منحوتة، وركائز غير مستوية الجنبات وذات تيجان كأنّ بهائمَ قضّبتها. ولكي يتاح لهم رفع مواد البناء، كانوا قد ركّبوا، هم أيضاً، ما يشبه بَكَرةً وسرعان ما أدرك باودولينو بما لا يرقى إليه شكّ أنّ البنّائين الذين رآهم منكبيّن على تشييد جدار رفيع هم، مقارنةً بهؤلاء، حرفيون مهرة. ثمّ كفّ عن عقد المقارنات لمّا طالعته، على بعد خطوات فقط، مجموعات أخرى من العاملين الذين يبنون كما دَرَجَ الأطفال على بناء صروح من ترابٍ مبلول، ومن يرهم يحسب أنّهم يضعون الركلات (وليس اللمسات) الأخيرة على بناء مساوٍ للأبنية الثلاثة القائمة بجواره، والمبنية من طين وأحجار متعدّدة الأشكال والأحجام، وجعِلَت لها أسطحٌ من القشّ المضغوط كيفما اتفق: على نحو كذاك النحو كان يولد ما يشبه زقاقاً من الأكواخ المبنية على عَجَل كأنّ العمّال يتسابقون لإنجاز العمل قبل موسم الأعياد غافلين عن أصول الحرفة.

مع ذلك، فقد قيض له، خلال تفقّده تلك المنعرجات غير المنجزة لجهدٍ غير أكيد، أن يعثر، بين حين وآخر، على جدران مورّقة بدقّة الشاقول، وواجهات متينة الأسس، ومعاقل، وإن كانت غير منجزة، تبدو حصينة مدعّمة. كلّ هذا حدا به إلى الاعتقاد بأن من عملوا على تشييد المدينة ينتمون إلى أقوامٍ ومهارات مختلفة. وإذا كان بعضهم قليل الدراية في هذه المهنة، كالفلاّحين الذين يبنون بيوتاً على غرار الزرائب التي بنوها لماشيتهم، فإنّ بعضهم الآخر له دربة أكيدة في التعاطي مع الفنّ.

فيما انهمك باودولينو بالتدقيق في تلك المهارات المختلفة، اكتشفَ أيضاً عدداً من اللغات المحكية - ما يبرهن على أنّ ذاك الجمع من الحجرات القبيحة هو من صنيع غوغاء سوليرو، وأنّ ذاك البرج الشائه هو صنيع أهل مونفيرّا، وأنّ المَلتَ المذهل من صنيع أهل بافيزا، وأنّ ألواح الخشب تلك المقطوعة بمنشار هي صنيع أهل لاباليا الذين اعتادوا قطع الأشجار. غير أنّه حين كان يسمع أحداً يصدر الأوامر أو نفراً من الرجال يعملون بحسب الأصول، فإنّ الكلام يكون، حتماً، جنوياً.

«تراني هبطتُ وسط ورشة بناء بابل، كان باودولينو يسأل نفسه، أو ربّما في إيبيرنيا عبدول، حيث الاثنان وسبعون حكيماً أعادوا إنشاء لغة آدم من خلال جمعهم كلّ اللغات تماما كما يمزج الماء بالخزف، والقار بالملت؟ مع أنّ أحداً لا يتحدّث هنا بعدُ بلغة آدم، وبرغم أنّهم، معاً، يتكلّمون اثنتين وسبعين لغة، وبرغم أنهم من أعراق مختلفة، فإنّ مزيجهم هاهنا مذهلٌ حقّاً!»

كان اقترب من مجموعة تعمل، بدراية، على تغطية بناء بخرجات من الخشب، كما لو كان كنيسة في دير، مستخدمين رافعة رحوية هائلة الحجم لا تدار بقوة السواعد بل بواسطة حصان - ومن دون تعذيبه بالإكليل، الذي كان لا يزال رائجاً استخدامه في بعض الأرياف، والذي يضغط على وداجه، لأنّه كان يجرّ الطارة بيسر وقوة بفضل طوق خاص بالكتف. كان العمال في الأثناء يتحدّثون فيما بينهم بلكنة جنوية، فبادر باودولينو إلى مخاطبتهم بعاميّتهم - وإن كانت لكنته لا تتيح له الادّعاء بأنّه واحد منهم.

«ما هذا الذي تحسنون صنيعه؟» سأل راغباً في افتعال أي حديث معهم. فإذا بأحدهم يجيب وقد رمقه بنظرة لئيمة، إنّهم يصنعون آلة لحكّ القضيب. وفيما علت ضحكات الآخرين وكان جليّاً أنّهم يضحكون منه؛ أجابه باودولينو (الذي كان يشعر بضيق لا يوصف من اضطراره إلى التظاهر بأنّه تاجر أعزل فيما سيفه الذي يدلّ على مكانته كرجل بلاط ملفوف بالقماش بين متاعه) بلغة الفراسكيتا التي استعادها تلقائيّاً، بعد كلّ هذه الأعوام، موضحاً أنّه لا يحتاج إلى «ماكينة» لأنّ قضيبه، هو، والذي يسميه المهذّبون من الناس عصفورة، تحكّه له أمّهاتهم البغايا. لم يفهم الجنويون ما معنى كلامه حرفياً لكنّهم أدركوا المقصود منه. فهجروا أعمالهم وراح كلّ منهم يلتقط حجراً أو معولاً واصطفوا في نصف حلقة حول البغلة. وشاءت المصادفة أن يدنو منهم، في تلك اللحظة، عدد من الأشخاص الآخرين وفي عدادهم رجلٌ في زيّ فارس فخاطب الجنويين

بلغة فرنكية، نصفها لاتيني ونصفها بروفنسالي ونصفها لا- أحد- يدري- ماذا، قائلاً إنّ الحاج يتكلّم بلهجة من هو من الجوار ولذا من غير الجائز أن يعامل كمن لا يحقّ له أن يمرّ بالناحية. فسارع الجنويون إلى تبرير فعلتهم بالقول إنّه هو من شرع في طرح الأسئلة كأنّه جاسوس؛ فأجابهم الفارس أنّه لا بأس من أن يعمد الإمبراطور إلى إيفاد جواسيسه، فقد حان الوقت أن يعلم أنّ هاهنا تشيّد مدينة إنّما أنشئت لتجلبَ له الغمّ. ثمّ خاطب باودولينو قائلاً: «لم يسبق لي أن رأيتك، ولكن يبدو من مظهرك أنّك شخص عائد. هل جئت لتلتحق بنا؟

- يا سيّدي، أجاب باودولينو بكلّ صدق، لقد ولدتُ في الفراسكيتا، ولكنّي رحلت عنها منذ سنوات طويلة، وما كنت أعلم شيئاً عمّا يجري هنا. أُدعى باودولينو بن غالياودو أولاري...»

لم ينهِ كلامه حتّى انبرى من بين الوافدين الجدد عجوز، أبيض الشعر واللحية، رافعاً عصاه ملوّحاً بها، صائحاً يقول: «أيّها المنافق عديم القلب، فلتقتلع رأسك أعتى السهام، كيف تجرؤ على انتحال اسم ولدي المسكين باودولينو، ابني أنا المدعو غالياودو وأولاري على سبيل التأكيد، الذي هجر كنفي منذ سنوات بعيدة بصحبة سيّد ألماني يشبه الملكة اللوطية، ولعلّه، حقّاً من جبلّتهم، يُرقّص القرود لأنّي عن ولدي المسكين لم يبلغني شيء منذ زمن بعيد لعلّه ميت، وهو أمر يقضّ مضجعينا، أنا وزوجتي الصالحة، منذ ثلاثين عاماً، وكان الشقاء الأعظم في حياتنا التي ما كان يعوزها الشقاء ولكن فقد الولد هو العذاب الذي لا يعرف قسوته من لم يعرفه!»

فصاح باودولينو قائلاً: «أبي، أهذا حقّاً أنت!» وتهدّج صوته قليلاً واغرورقت عيناه بالدموع، لكنّها كانت دموع من لا يقوى على مداراة بهجته. وعلى الأثر أردف قائلاً: «ثمّ إنّه ليس عذاب ثلاثين عاماً لأني لم أرحل إلاّ منذ ثلاثة عشر عاماً، والأحرى أن تكون مبتهجاً لأني صرفتها في ما يجلب المنفعة لي، لقد غدوت رجلاً ذا شأن.» اقترب العجوز من

البغلة، وأمعنَ تفرّسه في وجه باودولينو وقال: «لكن أنتَ أيضاً هذا أنت. ومضيُ ثلاثين عاماً لم يفقدك نظرةَ الخبثِ تلك، لذا هلاّ أصغيت لما أقول؟ قد تكون غدوتَ رجلاً ذا شأن، غير أنّ هذا لا يجيز لك الإساءة إلى والدك، فإذا قلتُ إنّها ثلاثون عاماً فلأنها بدت لي، أنا، ثلاثين عاماً، وخلال ثلاثين عاماً كان الأجدر بك، أنتَ من لا يرجى منه نفعٌ، أن تبعث لنا بخبرٍ عنك، أنتَ خراب أسرتنا، هيّا ترجّل عن هذه الدّابة التي لا بدّ أنك سرقتها، ريثما أكسر هذه العصا على رأسك!» وكان في الأثناء قد أمسك بعقب باودولينو محاولاً جذبه عن سرج مطيّته عندما تدخّل شخصٌ بدت عليه سمات الرئاسة. «رويدك يا غالياودو، تلتقي ولدك بعد ثلاثين عاماً. . .

- ثلاثة عشر عاماً، قال باودولينو.

- اخرس أنت الآن، بعد ذلك سيكون لي شأن معك - تلتقي ولدك بعد ثلاثين عاماً، فالأحرى أن تأخذه في الأحضان وأن تشكر الربّ، بحقّ الربّ!» فترجّل باودولينو عن ظهر بغلته ولكنّه حين همّ بالارتماء بين أحضان والده الذي جعل يبكي، تدخّل السيّد الذي بدت عليه سمات الرئاسة ممسكاً برقبة باودولينو قائلاً: «ومع ذلك، إذا كان هناك من بين الحاضرين مَنْ ينبغي أن يؤدّى الحساب أمامه، فهو أنا.

- ومن تكون أنتَ؟» سأل باودولينو. «أنا أوبرتو ديل فورو، غير أنّك لا تدري، وربّما كنتَ لا تذكر شيئاً. لا بدّ أني كنتُ في العاشرة حين تكرّم والدي بالتعريج على داركم ليعاين عجولاً كان يودّ شراءها. كنتُ مرتدياً كما ينبغي لابن فارسٍ أن يرتدي ولم يشأ والدي أن أدخل معهما إلى الزريبة لكي لا تتسخ ملابسي. فرحتُ أدور حول المنزل فصادفتك خلفه دميماً وقذراً كأنّك خارجٌ للتوّ من كومة زبل. فاقتربتَ مني وحملقتَ فيّ ثمّ سألتني إذا كنتُ أودّ اللعبَ معك، وأنا كالأبله قلتُ بلى، فعاجلتني أنتَ بلطمة مباغتة أوقعتني في مزود الخنازير. وعندما رآني أبي على تلك الحال ساطَني بالسوط لأني أفسدتُ ثيابي.

– هذا ممكن، قال باودولينو، لكنّها حادثة ترقى إلى ثلاثين عاماً. . .

– إلى اليوم مضت عليها ثلاثة عشر عاماً، وأنا، منذ ذلك الوقت، أذكرها كلّ يوم، لأنّي لم ألقَ في حياتي كلّها ما لقيتُ من المهانة عندها؛ وكبرتُ معلّلاً نفسي بأني سألتقي ابن غالياودو، ذات يوم، وسأقتله.

– وتودّ قتلي الآن؟

– في الوقت الحاضرِ لا، أو الأحرى، ما عدتُ أريد ذلك في الوقت الحاضر، فنحن جميعاً هنا قد أوشكنا على الفراغ من تشييد مدينة لكي نقاتل الإمبراطور عندما تطأ قدماه هذه الأرض، فلا تحسبنّ لحظة واحدة أنني قد أهدر وقتي في قتلك أنت. طوال ثلاثين عاماً. . .

– ثلاثة عشر.

– طوال ثلاثة عشر عاماً حملت تلك الضغينة في قلبي، والآن، تَخَيَّلْ، زالت عنّي.

– ذلك أنّه أحياناً. . .

– دعكَ من التذاكي الآن. هيّا، قبّل أباك. ثمَّ إنْ اعتذرتَ لي عمّا جرى في ذلك اليوم، أمكننا الذهاب للاحتفال ببناءٍ أنجز للتوّ على مقربةٍ من هنا، والاحتفال عندنا يعني سكب النبيذ، والمعتّقُ منه فقط، من برميل مثقوبٍ، وهاتِ يا شرابُ، كما قال أسلافنا، وهاتِ يا سكر.»

ألفى باودولينو نفسه في قبو فسيح. فالمدينة لم يكتمل بناؤها بعد غير أنّ أولى الحانات فيها قد فتحت أبوابها بعريشها المتقنِ عند الفِناء، وإنْ جرت العادة في ذلك الزمان أن يأنسَ الشَّربُ إلى جلسة الداخل، في غارٍ لم يكن، في الحقيقة، سوى صفٍّ من البراميل وموائد خشبية طويلة رصفَت عليها أباريق أنيقة ونقانق من لحم الحمير هي (قال باودولينو مفسّراً لنيسيتاس الذي بدا مشدوهاً) على شاكلة قِرَبٍ منتفخة، فَتُبْقَرُ بضربة سكين ثمّ تُرمى لتقلى في الزيت والثوم لتغدو من أشهى المآكل. فلا

عجبَ إذا كان المحتفلون جميعاً مبتهجينَ ومُنْتِنين وسكارى. كان أوبرتو ديل فورو قد أعلنَ عن عودة ابن غالياودو أولاري، فلم يلبث البعض أن هرع إليه مربّتاً بقبضته على كتفيه فيما لبثَ باودولينو مشدوهاً محملقاً قبل أن يردّ التحية بسيلٍ من عبارات الامتنان التي لا تنتهي. «يا إلهي، لكن هذا أنتَ سكّاكاباروزي، وأنتَ كوتّيكا دي كوارنيانتو - وأنتَ، من عساكَ تكون؟ لا، مهلاً، دعني أحزر؛ بلى أنتَ سكوارشيافيكي! وأنتَ ألستَ غيني أو بورشيللي؟

- لا، لست أنا بورتشيللي، بل هو، كنتما دائما تتراشقان بالأحجار! أمّا أنا فكنتُ غينو غيني، والحقّ أني ما زلتُه إلى اليوم. كنّا نذهب سوياً للتزحلق على الجليد في فصل الشتاء.

- وحقّ يسوع هذا صحيح، أنتَ الغيني. ألم تكن ذاك الذي يستطيع أن يبيع أيّ شيء، حتّى روث ماعزك، كما فعلتَ ذات يوم زاعماً بأنّه رماد القديس باودولينو؟

- طبعاً، والحقيقة أنني اليوم تاجر: صدّق أنّه القدر. وذاكَ، هناك، حاول أن تحزر من يكون...

- أليس هو ميرلو! ميرلو، ماذا كنت دائماً أقول لك؟

- كنت تقول لي: يا لسعدكَ أنت الأحمق الذي لا يخاصم أحداً... أنظر، بدل أن أخاصم أحداً قد خاصمني أحدٌ» ورفع ساعده الأيمن الذي بدا بلا كفّ، «خلال حصار ميلانو، منذ عشر سنوات.

- هذا بالضبط ما كنت أودّ قوله، ففي حدود علمي أن أهل غامونديو وبرغوليو ومارنغو لطالما وقفوا في صفّ الإمبراطور. فما الذي جرى، اليوم، كي تعمدوا، أنتم الذين كنتم معه، إلى تشييد مدينة تناصبه العداء؟»

فإذا بهم، جميعاً، يحاولون تفسير ما جرى، غير أنّ الأمر الوحيد الذي فهمه باودولينو جيّداً هو أنّ مدينة جديدة نشأت حول كنيسة سانت ماري دي روبوريتو وقصرها العتيق، من أناسٍ وفدوا من البلدات

المجاورة، وتحديداً غاموندیو وبرغوليو ومارنغو، غير أنّهم انتقلوا إليها كمجموعاتٍ تتألّف من عائلاتٍ بأكملها من كلّ النواحي، من ريفالتا بورميدا ومن باسينيانا أو بيوفيرا، لبناء منازل يقيمون فيها. إلى أن عمد ثلاثةٌ منهم، هم رودولفو نيبيا وآليرامو دي مارنغو وأوبرتو ديل فورو، منذ شهر أيّار إلى إبلاغ موفدي المدن المجتمعين في لودي، بانضمام المدينة الجديدة إليهم، وإن كانت، في ذلك الوقت، موجودة في النوايا أكثر منها في الواقع، على طول ضفّة نهر تانارو. وعملوا جميعاً كالدواب، طيلة فصلي الصيف والخريف، وها قد أصبحت قائمةً تقريباً لتعترض طريق الإمبراطور حين يقرّر الزحف على إيطاليا، كما تسوّل له دائماً نفسه أن يفعل.

ولكن أيّ طريقٍ وأي اعتراض، سأل باودولينو مشكّكاً، يكفي أن يقوم بالالتفاف علينا... لا، لا، أجابوه قائلين، أنت لا تعرف الإمبراطور (دعْكَ من هذا الهراء)، مدينة تقام من دون علمه هي بمثابة عار لا يغسل إلاّ بالدماء، وسوف يجد نفسه مرغماً على حصارها (وهنا لم يخطئوا في شيء، فلا بدّ أنهم يعرفون جيّداً طباع فردريك)، ولهذا نحتاج أسواراً منيعة وشوارع مدروسة خصيصاً للحرب، ولهذا احتجنا إلى مساعدة الجنويين الذين برغم كونهم بحّارة فقد اشتهروا بأنّهم جابوا بلداناً بعيدة لبناء مدن جديدة، واكتسبوا خبرة في هذا المجال.

ولكنّ الجنويين ليسوا من طينة الناس الذين يؤدون الخدمات من دون مقابل، قال باودولينو. من أعطاهم المال مقابل ما فعلوا؟ هم أعطونا مالاً، لقد أعطونا قرضاً قدره ألف قرش جنوي، ووعدونا بمثله للعام القادم. وما معنى أنكم صمّمتم شوارع مدروسة خصيصاً للحرب؟ فليشرح لك ذلك إمانويلي تروتّي، فهذه من بنات أفكاره هو؛ هيّا تكلّم أنتَ يا خبير الحصارات!

– وما هو هذا الخَبرخْصار؟

– أصمُتْ يا بويدي، دع التروتّي يتكلّم.»

فقال التروتّي (الذي على غرار أوبرتو بدا أشبه بميليس، أي بفارس، أو تابعٍ مُقْطَعٍ على قَدْرٍ من الشأن): «يجب أن تكون المدينة منيعةً على العدوّ بحيث لا يتمكّن من تسلّق أسوارها، ولكن إذا شاء سوء الطالع أن يتمكّن من تسلّقها، فيجدر بالمدينة أن تكون قادرة على التصدّي له وقصم ظهره. فإنْ تمكّن العدو، داخل الأسوار، من الاهتداء فوراً إلى شبكةٍ من المسالك يتسلّل عبرها، فهذا يعني أنّك فقدتَ السيطرة عليه، فيسلك من هنا أو يسلك من هناك، وسرعان ما يتحوّل المدافعون إلى فئران محاصرة. بالعكسِ تماماً، ينبغي للعدو أن يجد أسفل الأسوار ساحةً وأن يلبث فيها مدّةً كافية لكي يُمطَرَ من الزوايا والكوى المقابلة بوابل من السهام والأحجار يقضي على نصف عديده قبلَ التمكّن من اجتياز تلك المساحة المكشوفة.»

(هذا ما كان ينبغي أن نفعله في القسطنطينية، قاطعه نيسيتاس قائلاً، ولكن، بالعكس، تُرِكَتْ شبكات المسالك عند أسفل الجدران لتشعّبها... بالتأكيد، همَّ باودولينو بالقولِ، ولكنّ الأمر كان يقتضي أناساً كشجعان قرانا، وليسَ بوّالين على أعقابهم أمثالَ حرسكم الإمبراطوري ذوي الهمم الرخوة - لكنّه آثر السكوت لكي لا يمسّ شعورَ محدّثه، واكتفى بقوله: صهِ! لا تقاطع حديث التروتّي، ودعني أكمل.)

وتابع التروتّي قائلاً: «ثمّ إذا تمكّن العدو من اجتياز المساحة المكشوفة وتسلّل عبر الشوارع والمسالك، فلا ينبغي أن تكون هذه مصمّمةً على أحسن نسقٍ، مستقيمةً ومنتظمةً، حتّى إذا شئتَ استلهام خططَ الرومان القدماء الذين كانوا يصمّمون المدنَ كشبكة مربّعات. ذاك أنّ الشارع المستقيم يتيح للعدو أن يعرف ما ينتظره على بعد أمتار، في حين أنّ الشوارع ينبغي أن تكون متعدّدة الزوايا، أو حتّى المنعطفات إذا شئنا. فيكمن المدافع يقظاً عند الزاوية، أو على السطح أو على الأرض، عالماً بما يخطّط له العدو، لأنّ على السطح المجاور - الذي يشكّل زاوية مع السطح الأوّل - هناك مدافع يبصره ويعطي إشارةً لمن لم يره بعد.

بالمقابل، لا يعرف العدوّ مطلقاً ما الذي ينتظره ممّا يرغمه على التباطؤ في تقدّمه. ولذا فإنّ المدينة الناجية ينبغي أن تكون منازلها سيئة التنظيم، متفرّقةً مثل أسنان عجوز، ما يجعلها تبدو دميمة ولكنّ خيرها يكمن في هذه الدمامة. وأخيراً، هناك السرداب المزيّف!

- لم تحدّثنا عن هذا من قبل، قاطعه بويدي قائلاً.

- طبعاً، لأنّي علمتُ به للتوّ عن لسان جنوي كان علم به بدوره عن لسان يوناني، وهو، في الأصل فكرة من ابتكار بيليسير قائد جيوش جوستنيانوس الإمبراطور. ما الذي يراود تفكير كلّ مُحاصِر؟ أن يحفرَ سراديب تحت الأرض تفضي به إلى وسط المدينة. وما هو حلمُه؟ أن يعثر على سردابٍ جاهزٍ لا يعلم عنه المحاصرون شيئاً. لذلك نسارع نحن إلى حفر سرداب يُفضي، من خارج الأسوار، إلى داخلها. كما نجعل طرفه الخارجي مموّهاً بين الصخور والجنبات، ولكن بما يكفي لأن يعثر عليه العدوّ ذات يوم. أمّا طرفه الآخر، الذي يفضي إلى داخل المدينة، فيجب أن يكون ذا فتحةٍ ضيّقة لا تتسع إلاّ لرجلٍ واحد أو اثنين على الأكثر، مسدودة بغطاءٍ مشبّك - بحيث يتمكّن أوّل الواصلين إليها من القول إنّ من يبلغ الفتحة المشبّكة بإمكانه أن يرى ساحةً، أو أي شيء آخر، زاوية كنيسة مثلاً، للتدليل على أن السرداب يؤدّي إلى وسط المدينة. وهناك، عند الفتحة، يجب أن يقف حارس للمراقبة، حتّى إذا ما وصل الأعداء كان عليهم أن يخرجوا أحدهم تلو الآخر، ولا يلبث الواحد أن يخرج حتّى يخرّ صريعاً...

- والعدوّ هو من الغباء بحيث إنّه يواصل الخروج من الفتحة من دون التنبّه إلى الذين تساقطوا مثل ثمار التين الجافة، غمغم بويدي قائلاً.

ومن قال لك إنّ العدو ليس غبياً؟ رويدك قليلاً. قد يتطلّب الأمر بعض التدقيق، لكنّها خطّة تستحقّ العناء.»

كان باودولينو قد انتحى جانباً بصحبة غيني الذي أصبح تاجراً ولا بدّ إذاً أن يتمتّع بشيء من التعقّل والواقعية، وليس من طينة أولئك الفرسان،

المُقطَعين أبناء المُقطَعين، الذين، في سعيهم وراء مجد عسكري، يندفعون حتّى لنصرة القضايا الخاسرة. «أصغ إليّ قليلاً يا غينام، أسكب لي مزيداً من هذا النبيذ، وفي الأثناء دعني أفهم. لقد أقنعني قولكم إن تشييد المدينة هنا سيرغم البربروس على حصارها حفاظاً على هيبته، وبفعلته هذه يوفّر لأنصار العصبة ما يحتاجونه من الوقت للهجوم عليه من الخلف بعد أن تكون قواه قد استنفدت خلال الحصار. ولكن من يتكبّدون ثمن هذه الخطّة هم سكان المدينة. فهل تريد أن تقنعني أن أهلنا غادروا الأماكن التي كانوا يحيون فيها، وبصرف النظر عن ظروف حياتهم تلك، لكي يأتوا إلى هنا ويقتلوا إرضاءً لأهل بافيا؟ وهل تريد أن تقنعني بأنّ الجنويين، الذين لن يبذلوا قرشاً واحداً لاسترداد أمّهاتهم من أيدي قراصنة مسلمين، يبذلون لأجلكم المال والعناء لكي يتاح لكم تشييد مدينة ليس قيامها، في أحسن الأحوال، إلاّ في صالحِ ميلانو؟

- يا باودولينو، قال الغيني، إنّ الأمر أكثر تعقيداً مما يخيّل إليك. انتبه جيّداً إلى الموقع الذي نحن فيه.» وغطّس إصبعه في النبيذ وشرع يخطّ علامات على الأرض. «هنا تقع جنوى، أليس كذلك؟ وهنا تقع تردونا، ثمّ بافيا، وبعدها ميلانو. هذه مدن غنية، وجنوى هي عبارة عن مرفأ. إذاً يجب أن تحظى جنوى بمعابر سالكة لتجارتها مع المدن اللومباردية، أليس كذلك؟ والمعابر تمرّ بوديان أوربا وليمّا وبورميدا وسكريفيا. وهذه أربعة أنهر - أليس كذلك؟ - وكلّها تتقاطع، إلى حدّ ما، هنا، عند ضفّة التانارو. وعلاوة على ذلك، إذا كان لديك جسر على التانارو تصبح الطريق سالكة للتجارة مع أراضي الماركيس دي مونفرّا، وربّك العليم ربّما إلى أبعد منها. هل هذا واضح إلى الآن؟ ولكنّ الحال أنّ جنوى وبافيا أقامتا على وفاقٍ ما بقيت هذه الوديان غير خاضعة لسيطرة أحد، أو إذا اقتضى الأمر تُبرم التحالفات المطلوبة، مع غافيا مثلاً أو مع مارنغو، فتجري الأمور على أحسن ما يرام... ولكن مع مجيء هذا الإمبراطور إلى هنا انتقلت بافيا من جهة، ومونفيرا، من جهة أخرى، إلى

صفّ الإمبراطورية، وبقيت جنوى معزولة إلى يسارها كما إلى يمينها، وإذا انتقلت إلى صفّ فردريك تفقد كلّ فرصةٍ للتعامل مع ميلانو. لذا كان عليها أن تُرضي تردونا ونوفيا اللتين تتيح لها إحداهما السيطرة على وادي سكريفيا، والأخرى على وادي بورميدا. ولكن أنت تعلم ما جرى؛ لقد عمد الإمبراطور إلى سحق تردونا، وسيطرت بافيا على التورتونيا حتّى جبال أبينان، وانتقلت بلداتنا للعيش في كنف الإمبراطورية، وقسماً بربّي كنت أودّ أن أرى كيف سيتاح لصغارِ القوم مثلنا أن يحيوا كرعايا إمبراطوريين. فما كان على الجنويين أن يقدّموا لنا لحثّنا على تغيير موقفنا؟ إنّه شيء لم نحلم يوماً في امتلاكه، أقصد: مدينة، بقناصلها وجنودها، بأسقفها وأسوارها؛ مدينة تستوفي مَكْساً على البشر والبضائع. تخيّل يا باودولينو، أنّك لمجرّد أن تسيطر على جسر على نهر التانارو، يتاح لك أن تجني القروش أكداساً، تبقى جالساً حيث أنتَ وتستوفي من هذا نقوداً ومن ذاك دجاجتين ومن ذلك ثوراً بتمامه، وهم يبذلون لك على الفور ما تريد؛ المدينة هي أرض النعيم، ولكي تدرك ذلك يكفي أن ترى الثراء الذي كان يتمتّع به أهل تردونا قياساً بما كنّا عليه نحن في الباليا. وهذه المدينة التي تلبّي احتياجاتنا نحن، تلبّي أيضاً خطط العصبة، وتستجيب لأمنيات جنوى، فكما قلت لك من قبل، إنّها مهما كانت ضعيفة فإنّ قيامها هنا وحده يقلب خطط الآخرين رأساً على عقب، ويضمن بقاء هذا النطاق خارج سيطرة بافيا أو سيطرة الإمبراطور أو الماركيس دي مونفيرا...

- بلى، ولكن في النهاية يأتي بربروس ويحيلكم إلى فِساءِ حمير، أو بكلام آخر يبدّدكم مثل ضريط أرنب.

- مهلاً. مَنْ قال لكَ هذا؟ المشكلة أنّه سيصل والمدينة قائمة هنا. بعد ذلك أنت تعلم جيّداً كيف تجري الأمور، فالحصار يكلّف وقتاً ومالاً، أمّا نحن فنقدّم له ميثاق رضوخٍ متقناً، الأمر الذي سيسعده (لأنّ الكرامة قبل كلّ شيء، بالنسبة لأمثاله) ويتابع طريقه إلى وجهةٍ أخرى.

- ولكن ماذا عن أعضاء العصبة وأهل جنوى، هم ينفقون أموالهم على بناء المدينة، وأنتم تخدعونهم بهذه البساطة؟

- هذا أمر مرتبط بموعد قدوم بربروس. أنت ترى جيداً أن هذه المدن تغيّر تحالفاتها بمضيّ ثلاثة أشهر لا أكثر، وكأنّ شيئاً لم يكن. لذلك نمكث هنا وننتظر. فمن الجائز عندما يحين الوقت أن تكون العصبة قد أصبحت في صفّ الإمبراطور.» (يا سيّد نيسيتاس، قال باودولينو، بعد ذلك بستّ سنوات، وأثناء حصار المدينة، رأيت، بعينيّ هاتين اللتين سيأكلهما الدود، رماةَ مقلاعِ جنويين يقاتلون إلى جانب فردريك؛ تخيّل، الجنويين أنفسهم الذين أسهمَوا في تشييدها!)

«وإلاّ، أردفَ الغيني قائلاً، نقاسي الحصار ونصمد، فتبّاً وتبّاً، في هذه الدنيا لا يُنال شيء بالمجان. ولكن قبل أن نتابع حديثنا، تعال انظر قليلاً. . .»

أمسك بيد باودولينو وخرج به من الحانة. وقفا أمام ساحة غير فسيحة الأرجاء تتفرّع منها، على ما تراءى، ثلاثة شوارع على الأقل، غير أنّ ناصيتين منها فقط، كانتا قد أنجز بناؤهما بمنازل وطيئة، مؤلّفة من طبقة واحدة، وأسطح من القشّ. كانت الساحة الضيّقة منارة ببضعةِ أنوارٍ منبعثة من نوافذ محيطة ومن مواقد آخر الباعة الذين كانوا ينادون بأعلى أصواتهم قائلين: يا نساء الناحية، يا نساء، الليلة المقدّسة أوشكت، ولن ترضى أيُّكنَّ أن يعود زوجها إلى الدار ولا يجد على مائدته من الأطايب شيئاً. وبجوار ما سيصبح الناصية الثالثة، وقف مجلِّخٌ يسنّ سكاكينه وباليد الأخرى يرشّ الماء على مِسَنّه. وعلى مبعدةٍ منه، امرأة تبيع على طبقٍ طحين القضاميّ والتين المجفّف وثمار الخرّوب؛ راع كِسْوَته جلدُ خروف يحملُ قفّةً منادياً: لكنَّ، يا نساء، أجود الجبن المسكربوني. وفي فسحةِ خلاءٍ بين منزلين، كان رجلان يساومان على سعر خنزير. وخلفهما، وقفت فتاتان متّكئتين بتكاسلٍ إلى صدعِ باب، وقد اصطكّت أسنانهما تحتَ وشاحٍ حاسرٍ عن نحريهما السخيينِ، وخاطبت إحداهما باودولينو

قائلةً: «كم أنت فاتن أيّها الفتى، لِمَ لا تقضي ليلة الميلاد بصحبتي، فأعلّمكَ لعبة الدابّة ذات القوائم الثماني؟»

انعطفا عند الناصية وإذا بحلاّج صوف ينادي بأعلى صوته أنّ أوان الفُرْش واللُحُف قد آن لكي يتاح للمرء أن ينام قرير العين في كنف الدفء ولا يجمد من البرد كالطفل يسوع؛ وبجانبه سقّاء يزعق؛ وكلّما سارا قُدُماً في الشوارع التي لم تكتمل معالمها بعد، كانا يصادفان أروقةً ما زالت قيد الإنجاز، فهنا نجّار ينجر الخشب، وهناك حدّاد يطرق سندانه فيتطاير من حوله الشرر، وهنالك آخرُ يُخرجُ خبزه من فرنٍ تستعر النار في جوفه كأنّه فوهة جهنّم؛ وكان هناك تجّار وفدوا من الأقاصي لإبرام صفقاتٍ عند هذه التخوم المستحدثة، أو أناس يقيمون عادةً في الغابة كالفحّامين وقاطفي العسل وصنّاع الرماد لطبخ الصابون، وجامعي الألياف لصنع الحبال أو دبغ الجلود، وبائعي جلود الأرانب، والسُّحَنِ الشاحبة لأولاء الذين قَدِموا إلى المستقَرِّ الجديد سعياً وراء ربحٍ أو مكسب، وأَكْتَعينَ وعُمْياً وسُلْعاً يدركون أنّ التسوّل في شوارع قَصَبةٍ أجدى من التسكّع على دروب الأرياف المقفرة.

كان نَزراً من نديفاتِ الثلج قد بدأ يتساقط، وما لبثَ أن اشتدّ وكسا، للمرّة الأولى، ببياضه تلك السطوح الفتيّة التي قد تنوء بثقله. فجأةً، وقد عاودته البدعة التي اختلقها في ميلانو المفتوحة، خيّل لباودولينو أنّ غشاوة انسدلت على بصره: ثلاثة تجّار يدخلون ممتطين ثلاثة حمير عبر قنطرة مستحدثةٍ في أحد الأسوار، متبوعين بخدم يحملون أواني وأقمشةً نفيسة. ووراءهم، على الضفّة المقابلة من التانارو، خيِّلَ إليه أنّه يرى قطعاناً تهبط سفوح الهضبة التي لاحت كسوتها الفضيّة، ورعاتها الذين ينفخون في الأبواق ومزامير القِرَب، وقوافل جمال شرقية ومشرقيين معتمرين العمائم المتعدّدة الألوان. عند الهضبة نيران قليلة تخبو جرّاء تساقط الثلج الذي ما زالَ يشتدّ، ولكنْ تراءى لباودولينو أنّه لمحَ في إحداها نجماً مذنّباً سائراً في كبد السماء باتجاه المدينة المستهلّة.

«هل رأيتَ كيف تكون المدينة؟ قال الغيني. فإذا كانت على ما شهدتَ وهي لم تكتمل بعد، فما بالكَ حين تكتمل: إنّها نمط آخر للعيش. كلّ يوم يطالعك أناس جدد - فبالنسبة للتجّار هي أشبه بأورشليم السماوية، أمّا الفرسان فكان الإمبراطور يحظر عليهم أن يبيعوا الأراضي لكي لا تتوزّع الإقطاعة على أكثر من مالك، وكانوا يموتون جوعاً في الأرياف، وإذا بهم اليوم على رأس فرقٍ من النبّالة، يتبخترون على الصهواتِ مصدّرين الأوامر يمنةً ويسرة. ولكن إذا جرت الأمور كما ينبغي فلن يكون المنتفعون هم التجّار والفرسان وحدهم، بل هي بمثابة خلاص لأناس مثل أبيك أيضاً، هؤلاء الذين لا يمتلكون مساحاتٍ من الأراضي، بل أعداداً قليلة من الماشية، وفي المدينة يسعى أناس في طلبها ويبذلون في المقابل مالاً؛ فهنا يتمّ التعامل بالنقود الراجحة وليس بالمقايضة: لا أدري إذا كنتَ تدرك المغزى المترتّب على ذلك، فإن أنتَ حظيتَ بدجاجتين مقابل ثلاثة أرانب، فسوف تعمد، عاجلاً أم آجلاً، إلى أكلهما خشيةَ أن تصبحا مسنّتين، في حين أنّك تستطيع أن تكتنز القطعتين النقديّتين حيث تنام، تحت الفراش، وستبقيان صالحتين حتّى بمضيّ عشرة أعوام، وإذا كنتَ حسن الطالع فسوف تحتفظ بهما حتّى لو دخل الأعداء إلى عقر دارك. ثمّ إنّ ما شهدته ميلانو كما لودي أو بافيا، سوف نشهده عندنا، نحن، أيضاً: فليس مقدّراً أن يبقى آل غيني أو آل أولاري صامتين بلا حول، فيما آل غواسكو أو آل تروتّي يتولون زمام الأمور، إننا، جميعاً، ننتمي إلى الجماعة التي تتخذ القرارات؛ تستطيع أن تغدو ذا شأن دونما حاجة لأن تكون نبيلاً، وهنا يكمن الجانب الحسن من المدينة، خاصةً لمن هم ليسوا نبلاء قطّ، لكنّهم مستعدون لأن يُقتَلوا، إذا اقتضى الأمر حقّاً (وإنْ لم يقتضِ، فمرحى)، لكي يتمكّن أبناؤهم من السعي بحرية قائلين: أنا أدعى غيني، وحتّى لو كنتَ تدعى تروتّي فأنتَ مع ذلك كومةَ خراء.»

بدا الأمر منطقياً لا يدحض، ما حدا بنيسيتاس لأن يسأل باودولينو

عن اسم تلك المدينة الفريدة. والحقُّ (وهنا تكمن براعة الراوي، ذاك الباودولينو الذي أبقى الاسم، حتّى اللحظةِ، طيّ الكتمان) أنّ المدينة كانت تتسمّى بعبارة عامّة هي «المدينة الجديدة»، وهذا اسم النوع لا الاسم الخاص. ذلك أنّ اختيار الاسم كان ليرتبط بمشكلة أخرى، ليست قليلة الشأن، وهي مشكلة الشرعية. فكيف لمدينة مستحدثة، بلا تاريخ وبلا ميراث نبيل، أن تكتسب حقّها في الوجود؟ ففي أفضل الأحوال يمكن أن يكون لها ذلك عبر اعتراف إمبراطوري، تماماً كما تجري الأمور عند منح لقب فارس أو بارون، ولكنّ المشكلة هنا تتعلّق بمدينة أنشئت رغماً عن مشيئة الإمبراطور. فما العمل إذاً؟ كان باودولينو وغيني قد عادا، في الأثناء، إلى الحانة وألفيا الجميع هناك يناقشون المشكلة نفسها.

«إذا قيض لهذه المدينة أن تولد بمعزلٍ عن الشريعة الإمبراطورية، فلن نتمكّن من إضفاء أي شرعيةٍ عليها إلاّ وفقَ شريعةٍ أخرى، تكون على قدْرٍ مماثل من السلطان والعراقة.

- ومن أين لنا بمثلها؟

- من شرعةِ قسطنطين، من الهبة التي منَّ بها قسطنطين على الكنيسة عندما حباها بالحقّ في أن تحكم البقاع. لذا نحن أيضاً سنقدّم المدينة هبةً للحبر الأعظم، ونظراً لكون الكرسيّ الرسولي يحتلّه اليوم حبران أعظمان، وكلّ في ناحيته، فسوف نهبها لمن منهما يؤازر العصبة، أي لألكسندر الثالث. وكما سبق أن أعلنّا في لودي منذ ثلاثة أشهر، سوف تسمّى المدينة الإسكندرية وسوف تكون إقطاعة بابوية.

- ريثما يتمّ لنا ذلك، كان الأحرى بكَ أن تبقي فمك مطبقاً في لودي، لأننا في ذلك الوقت لم نكن قد اتخذنا قراراً بهذا الشأن، قال بويدي، ولكن هذه ليست هي المسألة، لجهة كونه جميلاً فالاسم جميل، وهو بأية حال ليس أكثر قبحاً من سواه. ومع ذلك تبقى المسألة التي تجثم كالكابوس على صدري أننا عملنا حتّى انفلقت أدبارنا في بناء هذه المدينة وها نحن نهبها للبابا الذي يمتلك ما لا يحصى من مثيلاتها. وبعد ذلك،

سوف يتوجب علينا أن نؤدّي له الجزيةَ، ومهما كان من تقليبنا المسألة على أكثر من وجه، فالمحصلة ستكون هي هي، هناك أموال سنبذلها لأحدٍ ما فالأحرى أن نبذلها في هذه الحال للإمبراطور.

- أحسبُ يا بويدي أنّك أبداً لن تغيّر ما في نفسك، أجابه الكوتيكا قائلاً. أولاً، الإمبراطور لا يريد المدينة حتّى لو قدّمناها له، وإذا كان مستعدّاً للقبول بها فكان الأحرى ألاّ نبنيها. ثانياً، إنّ الامتناع عن بذل الجزية للإمبراطور الذي ينقضّ عليك ويقصم ظهرك قبل أن يُقطِّع أوصالك كما كان صنيعه بميلانو، هو أمر، وأمر آخر تماماً أن تمتنع عن بذل الجزية للبابا الذي يقيم على بعد ألف ميلٍ وألف شاغلٍ يشغله فلن يسيّر الجيوش ضدّنا لاستيفاء قرشين أو ثلاثة.

- ثالثاً، قاطعه باودولينو إذ ذاك قائلاً، إنْ أذنتم لي أن أدلي بدلوي حول المسألة، فقد درستُ في باريس، ولي خبرة واسعة في تحرير الرسائل والصكوك، لذا أقول إنّ هناكَ أشكالاً مختلفةً من الهبات. تعمدون إلى تحرير وثيقة تذكرون فيها، مثلاً، أن الإسكندرية قد شيّدت إكراماً للبابا ألكسندر وهي مكرّسة للقديس بطرس. وكبرهان على ذلك تشيّدون كاتدرائية تسمونها سان بيار على أرضٍ حرّة غير خاضعةٍ للالتزامات الاقطاعية، على أن يتمّ بناؤها على نفقة سكّان المدينة جميعاً. وعندئذٍ تقدّمونها هبةً للبابا مقرونةً بكلّ الشروط التي يرى كتابكم الشرعيون أنّها ملائمة وملزمة. وحسّنوا المحتوى بكلّ عبارات الرضوخ الرعوي، والمحبّة وما شاكلها من الترهات، وارسلوا الرقّ إلى البابا فتتنزّل عليكم بركاته. أمّا المدقّق، فيما بعد، في نصّ الرقّ باحثاً عن الهنة فيه فلسوف يكتشف أنّكم، في آخر الأمر، لم تهبوه سوى الكاتدرائية، وليس بقية المدينة، ولا يعقل أن يأتي البابا إلى هنا لينتزع كاتدرائيّته ويحملها معه إلى روما.

- لقد أحسنتَ القول، قال أوبرتو، فوافقه الجميع على ذلك. سنفعل كما أشار علينا باودولينو الذي أرى أنّه بالغ الحنكة آمل حقّاً أن

يلبث بيننا لكي يجود علينا بالمزيد من نصحه، هذا فضلاً عن كونه متفقّهاً وافداً إلينا من باريس.»

عندها، لم يبقَ على باودولينو إلاّ أن يتخطّى اللحظةَ الأشدّ حرجاً في ذلك النهار المتفائل، أي أن يكشفَ لهم، ومن دون أن ينبري أحدٌ، منهم، لتوبيخه أو وعظه، هم الذين أقاموا إلى وقتٍ قريب، على تأييدهم للإمبراطور، أنّه موظّف في بلاط فردريك الذي تربطه به صلات العاطفة البنوية - وأن يسترسل في سرد ما جرى له طيلة الأعوام الثلاثة عشر الرائعة، فيما غالياودو يتمتم قائلاً: «لو نُمي إليّ شيء من ذلك لما صدّقتُ»، وأيضاً: «ولكن انظروا إلى هذا الذي طالما حسبتُ أنّه أسوأ الأبناء قاطبةً، وأرى اليوم أنّه حقّاً صار من ذوي الشأن!»

«ربّ ضارّة نافعة، قال بويدي عندئذ. أحد أبنائنا صار من أهل البلاط حتّى قبل أن يستكمل بناء الإسكندرية. يا عزيزي باودولينو من واجبكَ ألاّ تخون إمبراطورك نظراً لما بينكما من أواصر العاطفة. غير أنّك ستكون بجانبه منحازاً إلى صفّنا كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. فهذه الأرض هي مسقط رأسك وليس مأخذاً عليك أن تدافع عنها، في حدود الولاءِ بالتأكيد.

- ومع ذلك، من الأفضل أن تذهب هذا المساء لتلاقي تلك المرأة التقية التي هي أمّك، ولا بأس أن تقضي الليلة في الفراسكيتا، قال أوبرتو بشيء من العطفِ، على أن ترحل في الغد، فبقاؤك هنا يعني أنّك ستطلع على رسم الشوارع وبِمَ ستدعّم الأسوار. ونحن موقنون أنّ حبّك لأبيك الذي أنتَ من صلبِه، سيدفعك إلى إخطارنا مسبقاً إذا تناهى إلى سمعك من أوساط البلاط أنّ خطراً ما يحدقُ بنا. ولكن إذا كانت العاطفة تحثّك على مثلِ ذلك، فقد تعمد ذات يوم، وللأسباب عينها، إلى تحذير أبيك بالتبنّي مما نعدّه من خطط لإيلامه. لذلك فإنّ علمكَ بالقليل هو خيرٌ لك.

- بلى يا بني، قال غالياودو عندئذ، قُم بهذا العمل الصالح في الأقلّ

عِوَضَ ما سقيتني من المرّ. أنا سأمكث هنا فأنتَ ترى جيّداً أننا نتداول في أمور خطيرة، ولكن لا تدع أمّك وحيدة، خاصةً هذه الليلة، لأنّ رؤيتكَ سوف تثلج صدرها فلا تتنبّه إلى غيابي. هيّا اذهب، وأصغِ إليّ: إنّي أمنحك رضايَ، فمن يدري حقّاً متى سنلتقي مجدداً.

- حسناً، قال باودولينو، في يوم واحد أهتدي إلى مدينةٍ ثمّ أفقدها. فسحقاً وبئسَ المصير، هل أنتم مدركون حقّاً أنني إذا أردتُ أن أرى أبي مجدداً سيكون عليّ أن أعود لأحاصره؟»

وهذا، شرحَ باودولينو مخاطباً نيسيتاس، ما حصلَ تقريباً. فبأية حال، لم يكن ممكناً تدبير الأمور بوسيلةٍ أخرى، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ تلك الأزمان كانت أزماناً صعبة.

«وبعد؟ سأل نيسيتاس.

- رحتُ أبحث عن دارنا. كانت طبقة الثلج التي غطّت الأرض تصل إلى منتصفِ الساق، أمّا الثلج الهاطل بشدّة فيدوّخ الأبصار ويشقّق الوجه؛ نيران المدينة الجديدة اختفت، ووسط ذلك البياض السفلي، وذاك العلوي، كنتُ لا أدري كيف أتجه. ظننتُ أني ما زلتُ أذكر المسالك القديمة، لكنّها، في تلك الحال، كانت حقّاً مسالك يصعب فيها التمييز بين اليابسة والمستنقع. فلكي يبنوا المنازل، كانوا عمدوا، بداهةً، إلى تحطيبِ غِياضٍ بأكملها فلم أهتدِ حتّى إلى خيالات تلك الأشجار التي كنت، فيما مضى، أعرفها غيباً. وضللتُ طريقي، كما ضلّ فردريك طريقه ليلةَ التقينا، سوى أنّ الليلة مثلجة، ولو كان الضباب هو الذي يكتنف الدروب لاهتديتُ إلى الدار دونما مشقّة. إنّها سالفة حقّاً يا باودولينو، رحتُ أردّد في قرارة نفسي، إنّك تائه في مسقط رأسك، لقد كانت أمي محقّة في قولها: من يجيدون القراءة والكتابة هم أكثر غباءً من سواهم؛ فما أنا بفاعل الآن، فإمّا أن أتوقّف حيث أنا وآكل بغلتي، وإمّا

أن يعثروا عليّ غداً، بعد نبشِ أكداس الثلوج، على هيئة جلد أرنب تركَ في العراء ليلةً بأكملها في أيّام الزمهرير؟»

إذا قيض لباودولينو أن يكون موجوداً ليسرد وقائع ما جرى فهذا يعني أنّه كُتِبَت له النجاة ولكن بفعلِ واحدة من تلك المصادفات التي تكون أشبه بالمعجزة. ذلك أنّه حين تاهَ في الأنحاء لا يهتدي بشيء، لاحَ له، مرّةً أخرى، نجمٌ في كبدِ السماء، نجمٌ شاحب مفرطٌ في شحوبه لكنّه، مع ذلك، مرئيّ؛ فتبعه، سوى أنّه ألفى نفسه في قعر وهدٍ وبدا النور بعيداً في الأعلى لأنّه، هو، كان في الأسفل، لكنّه ما إن تسلّق السفح حتّى راح النور يتضح أمامه ويتعاظم، حتّى أدرك أنّه ينبعث من أحد تلك الأروقة المقنطرة حيث تُزرَب البهائم حين لا يكون لها متسعٌ في الدار. وتحت الرواق كان هناك بقرة وحمار ينهقُ فزعاً، وامرأة دسّت يديها بين القائمتين الخلفيتين لنعجةٍ، والنعجة التي تجهدُ في وضعِ حَمَلٍ، تثغو ثغاءً يتردّد في الأرجاء.

فما كان منه إلاّ أن وقف عندَ العتبة ريثما يخرج الحَمَلُ كلّه، ثمّ برفسةٍ من رجله نحّى الحمار جانباً وارتمى في حضن أمّه صائحاً: «أمّي، يا أمّي المباركة»، وهي لهنيهاتٍ لبثت مذهولةً لا تدرك ما الذي يجري، إلى أن رفعت رأسه باتجاه الضوء ثمّ جعلت تبكي وتداعب شعره متمتمةً منتحبة: «لك الشكر يا ربّي، بهيمتان في ليلةٍ واحدة، واحدة ولدت والأخرى صعدت من دارة الشيطان، لكأنّما الميلاد والفصح اجتمعا في ليلة واحدة، هذا كثير يا ربّي، كثير على قلبي الواهن؛ اسندني، سوف يغمى عليّ؛ هيّا كفّ عن ذلك يا باودولينو، فالآن وقد سخّنت ماءً على الموقد لأغسل هذا الحمل المسكين، ألا ترى أنّك تلطخ ملابسك بالدم أنتَ أيضاً؛ ولكن من أين لك هذا الثوب الذي يليق بالسادة، هل سرقته أيّها الشقيّ؟»

وخيِّلَ لباودولينو أنّه يصغي إلى ترنيم الملائكة.

14

باودولينو ينقذ الإسكندرية ببقرة أبيه

«هكذا لكي ترى أباك مجدداً، كان عليكَ أن تعود لتحاصره، قال نيسيتاس قبيل هبوط الليل، فيما كان يذيقَ ضيفَه كعكَ الدقيق المخمّر والذي جُعِلَ خلال عجنه على هيئة أزهار ونباتات وأشياء مختلفة.

- لا، لم يحصل حقاً، لأنَ الحصار جرى بعد ذلك بستّة أعوام. إثر شهودي ولادة المدينة، عدتُ إلى بلاط فردريك وحكيت له كلّ ما جرى. وما كدت أفرغ من كلامي حتّى شَرِسَ واستشاط غضباً. كان يصيح قائلاً إنّ أيّ مدينة لا تقام إلاّ برضى الإمبراطور، وإنّها إذا قامت من دون رضاه فينبغي أن تُسوّى بالأرض قبل أن يرتفع بنيانها، وسوى ذلك يكون إعلاءً لمشيئة أيّ غفلٍ دونما حاجةٍ للمشيئة الإمبراطورية ويَعتورِها البطلان. بعد ذلك هدأ روعه ؛ غير أني كنتُ أعلم يقيناً أنّه لن يسامح. لحسن الطالع أنّه انصرف لستّ سنوات إلى تدبير شؤون أخرى. وكلّفني بعدد من المهام، من بينها استبيان نوايا أهل الإسكندرية؛ فقصدتها مرتين وغرضي التحقّق ما إذا كان أهل مدينتي يقبلون بشيء. وكانوا، هم، مستعدين للقبول بأشياء كثيرة، ولكنّ فردريك ما كان يبغي، في الحقيقة، إلاّ أمراً واحداً وهو أن تعود المدينة إلى العدم الذي انبثقت منه. ولك أن تتخيّل ردّ فعلِ أهل الإسكندرية، حتّى أني لا أجرؤ على ترداد ما كانوا يحمّلونني من أقوال لكي أرددها بدوري على مسامع الإمبراطور. . . أمّا أنا فقد

أدركت أخيراً أنّ هذه الأسفار لم تكن سوى ذريعة لكي أقضي أقلّ وقتٍ ممكن في البلاط، لأنّ البقاء فيه كان مصدراً لشقائي المقيم بين أن أنعم بلقاء الإمبراطورة وبين وفائي بالعهد الذي قطعته لنفسي. . .

– وهو عهد قد وفيتَ به، سأل نيسيتاس في ما يشبه التأكيد.

– عهد التزمت الوفاء به إلى الأبد. فأنا يا سيّد نيسيتاس قد أكون مزيّف رقوق ولكنّي أدرك جيّداً معنى الشرف. وهي ساعدتني على ذلك. لقد غيّرت الأمومة من أحوالها. أو، في الأقلّ، هذا ما كانت تبديه، ومنذ ذلك الحين ما عدت أعرف حقيقة مشاعرها نحوي. كنت أتألّم ومع ذلك كنت أشعر حيالها بامتنان عميق للنحو الذي أعانتني به على التصرّف بكرامة.»

في ذلك الوقت كان باودولينو قد جاوز الثلاثين من عمره، وصار يميل إلى الاعتقاد أنّ رسالة الراهب جان ترقى إلى طيش الصبا، وأنّها تمرين بلاغي على فنّ الرسائل، دعابة أو ألهية. ومع ذلك فقد التقى مجدداً الشاعر الذي ألفى نفسه، إثر وفاة رينالد، من دون ظهيرٍ، ولا يخفى على أحد كيف تجري الأمور في البلاط في حالة مماثلة: تفقد كلّ حظوة، ثمّ ياتي من يقول حتّى أنّ قصائدك لم تكن، في الحقيقة، عصماءَ كما قيل. ولئن ذاق الأمرّين جرّاء ذلك وأسقمته الضغينة، أقامَ في بافيا بضعةَ أعوام، ساهياً عن الدنيا، مستأنفاً ذاك النشاط الذي ما كان يجيد سواه، أي معاقرة الخمر وتلاوة قصائد باودولينو (وخاصةً منها ذلك الشطر التنبؤي الذي يقول quis Papie demorans castus habeatur، أو: مَنْ ذا يلوذُ بالعفّةِ وهو مقيم في بافيا؟). فاصطحبه باودولينو إلى البلاط، وبرفقته كان الشاعر يبدو واحداً من أتباع فردريك. إلى ذلك، كان والده قد توفي في الأثناء وترك له ميراثاً، فما عاد يُنظر إليه، حتّى من قبل ألدّ أعداء رينالد، بوصفه طفيلياً، بل بوصفه فارساً كسواه، ولا يسترعي الانتباه أكثر من سواه.

استعادا معاً ذكريات العهد الذي دوّنت فيه الرسالة مثنياً أحدهما على

الآخر لضلوعه في ذلك المخطّط. فالإقرار بأنّ اللعبة هي مجرّد لعبة لا يعني، بأية الحال، إحجاماً عن مزاولتها. كان باودولينو ما زال يشعر بحنين لتلك المملكة التي أبداً لم يرها، وكان بين حينٍ وآخر يتلو على نفسه مضمون الرسالة بصوتٍ عالٍ، ساعياً إلى تحسين بديعها.

«والبرهان على أني ما كنت لأنسى الرسالة مهما حاولت هو أني تمكّنتُ من إقناع فردريك بان يستقدم إلى بلاطه أصدقائي جميعاً، من باريس، مردّداً على مسامعه أنّه من المستحسن أن يشمل ديوان المستشارين لدى الإمبراطور أشخاصاً يعرفون بلداناً أخرى ولغاتها وتقاليدها. والحقّ أنّي أردتُ، وقد جعلني فردريك، في الآونة الأخيرة، أشبه بموفد خاص لمهامّه الكثيرة، أن أشكّلَ بلاطاً مصغّراً خاصاً بي ومؤلّفاً من الشاعر وعبدول وبورون وكيوت وربّي سليمان.

- لا تحاول إقناعي بأنّ الإمبراطور قبلَ بيهوديّ في بلاطه؟

- ولِمَ لا؟

- لم يكن مجبراً على الظهور في الاحتفالات الكبرى، أو على مرافقته إلى القدّاس هو وأساقفته. فإذا كان أمراء أوروبا بأسرها، بمن فيهم البابا نفسه، قد اتّخذوا لأنفسهم أطبّاء يهوداً، فما الضير في اتخاذ مستشار يهودي خبير في أحوال عيش عربِ أسبانيا وبأمورٍ كثيرة من أمور بلدان الشرق؟ ثمّ إنّ الأمراء الجرمانيين لطالما كانوا رحيمين باليهود أكثر من سواهم من الملوك المسيحيين. لقد حكى لي أوتون أنّه عندما انتزعت إديسّا من أيدي الكفّار وقاد عددٌ من الأمراء حملةً صليبية جديدة متّبعين إرشاد برنار دي كليرفو (وكانت تلك الحملة التي شارك فيها فردريك أيضاً)، قام راهب يدعى رودولف بتحريض الحجّاج على ذبح كلّ اليهود الذين يصادفونهم في المدن التي يجتازونها. وكانت حقّاً مذبحة. حتّى أن عدداً من اليهود طلبوا حماية الإمبراطور الذي سمح لهم باللجوء إلى مدينة نورمبرغ والعيش فيها.»

الخلاصة أنّ باودولينو تمكّن من جمع شمل أصدقائه من حوله. ولم تكن مشاغلهم في البلاط كثيرة. كان سليمان، في كلّ مدينة يجتازها فردريك، يقيم صلة بأبناء طائفته، وكان هؤلاء موجودين في كلّ مكان («بذرة فاسدة»، كان يقول الشاعر مشاغباً)، كما اتضح لعبدول أنّ البروفانسية التي ينشد بها أغنياته يفهمها الإيطاليون أكثر مما يفهمها الباريسيون؛ فيما بورون وكيوت ينهكان نفسيهما في خوض مناقشات جدلية لا تنتهي، إذ كان بورون يسعى لإقناع كيوت بانّ عدم وجود الفراغ أمر جوهري لاثبات وحدانية الغرادال، في الوقت الذي يصرّ فيه كيوت على أنّ الغرادال هي حجر هبطَ من السماء، lapis ex coelis، وأنّها، في رأيه قد تكون جاءت من كون آخر عابرةً فضاءاتٍ فارغة تماماً.

فضلاً عن تلك الهنات، كانوا غالباً ما يناقشون، مجتمعين، بشأن رسالة الراهب، وقد سألوا باودولينو مراراً لِمَ لا يحثّ فردريك على القيام بهذه الرحلة التي أسهموا في الاعداد لها على أحسن وجه. وفيما كان باودولينو منهمكاً ذات يوم في شرح الأمور التي تستأثر باهتمام فردريك في تلك السنوات ومنها المشكلات العالقة في لومبارديا وجرمانيا، قال له الشاعر إنّه ربّما كان من الأجدى أن يذهبوا، هم بأنفسهم، للبحث عن المملكة، وعلى مسؤوليتهم، دونما حاجة لإذن الإمبراطور: «من شأن الإمبراطور أن يجني من هذا السعي منفعةً مزدوجة. لنفترض أنّه وصل إلى أرضِ جان ولم يتّفق مع هذا العاهل. فسيعود أدراجه خالي الوفاض ونكون قد جلبنا عليه الأذية. ولكن بالمقابل إذا ذهبنا، نحن، إلى هناك، وعلى مسؤوليتنا، فسوف نعود، بأية حال، من أرض بمثل هذا الثراء بشيء غير عاديّ.

- بلى حقّاً، قال عبدول، كفى مماطلة، ولنرحل، فلنرحل بعيداً. . .»

«لقد انتابني، يا سيّد نيسيتاس، شعور بالإحباط حيال ما أبدوه،

جميعاً، من حماسةٍ لاقتراح الشاعر، وأدركتُ لِمَ كان ذلك. فبورون، مثله مثل كيوت، كانا يأملان في اكتشاف أرض الراهب بغيةَ الاستيلاء على الغرادال التي من شأنها أن تمنحهما ما لا يعلم إلاّ الله أيّ مجد وأي سلطان في تلك البقاع الشمالية حيث الجميع يسعى وراءها. ربّي سليمان كان سيعثر على الأسباط المفقودة، ما سيجعل منه ليس أحد أبرز أحبار أسبانيا وأكثرهم إجلالاً وحسب، بل أبرز أبناء إسرائيل قاطبةً. في حالة عبدول الأمر واضح لا يحتمل التفسير: لقد باتَ يماثل ما بين مملكة جان ومملكة أميرته، سوى أنّه - مع تقدّمه في العمرِ وخبرة العيش - ما عاد قانعاً كالسابق بالبعد، بل كان يتحرّق شوقاً، وليغفر له إله العاشقين، للمسة يدها. أمّا الشاعر فمن يدري ما اعتمل طويلاً في صدره خلال إقامته في بافيا. والآن وقد امتلك ثروةً صغيرة، بدا أنّه صار راغباً في العثور على مملكة جان من اجل نفسه لا من أجل الإمبراطور. من شأن هذا أن يفسّر لك لِمَ لفرطِ ما خاب ظنّي، لبثتُ سنواتٍ طويلة لم أفاتح فردريك، خلالها، بموضوع مملكة الراهب. فإذا كان ذاك هو الغرض منها بالأحرى أن تبقى المملكة حيث كانت، وبمنأى عن شهوات الذين لا يدركون عظمتها اللدنية. وهكذا غدت الرسالة في نظري حلماً شخصياً ما عدتُ أريد أن يدخله أحد سواي. كانت تعينني على تجاوز سقم غرامي التعس. فذات يوم، كنتُ أردّد في سرّي، سوف أنسى كلّ هذا لأنّ قدميّ ستقودانني إلى أرض الراهب جان... ولكن لنعد إلى شؤون لومبارديا.»

في الزمن الذي نشأت فيه الإسكندرية كان فردريك يقول لم يبقَ بعد إلاّ أن تنتقل بافيا إلى صفوف الأعداء. وبمضيّ عامين انضمّت بافيا، هي أيضاً، إلى العصبة المعادية للإمبراطورية. وشكّل انتقالها هذا ضربة قاسية للإمبراطور. لم يبدر منه أي ردّ فعل مباشر، ولكن في غضون السنوات التالية بلغَت حال الاضطراب في إيطاليا حدّاً جعلَ فردريك يسير إليها مجدّداً، وكان واضحاً في نظر الجميع أنّه يستهدف الإسكندرية بالذات.

«أرجو المعذرة، قال نيسيتاس مستفسراً، أكانت تلك هي المرّة الثالثة التي يعود فيها إلى إيطاليا؟

– لا، كانت المرّة الرابعة. أو لعلّها، مهلاً، عسى أن تسعفني الذاكرة... لا بدّ أنّها كانت المرّة الخامسة، على ما أعتقد. كان أحياناً يمكث فيها أربع سنوات، كما جرى خلال الحملة على كريما وتدمير ميلانو. أو لعلّه عاد إليها ثانيةً في الأثناء؟ لا أدري، المهمّ أنّه كان يقضي في إيطاليا فتراتٍ تفوق الفترات التي يقضيها في دياره، ولكن أين كانت دياره؟ فقد لاحظت أنّه، لفرط ما اعتاد السفر، ما كان ليطمئنّ في إقامته إلاّ بجوار مجرى ماء: كان سبّاحاً ماهراً، لا يخشى الجليد ولا المدّ ولا الأعاصير. يرتمي في مجرى المياه ويسبح، فيشعر عندها أنّه في بيئته. بأية حال، في المرّة التي أحدّثك عنها، سار إلى إيطاليا في ذروة غضبه مستعدّاً لحربٍ طويلة الأمد. وكان إلى جانبه الماركيس دومونفيرا، وألبيا وآكي وبافيا وكوما...

– ولكن قلتَ لي للتوّ إنّ بافيا كانت انتقلت إلى صفوف العصبة...

– هل قلت هذا حقّاً؟ آه، بلى، قبل ذلك ولكن في الأثناء عادت إلى صفّ الإمبراطور.

– وربِّ السماء، صحيح أنّ أباطرتنا كانوا يعمدون إلى فقء عيون بعضهم بعضاً ولكن ما إن يتولّى أحدهم، من بين المبصرين، كنّا نعلم، في الأقل، من يقف في صفّ من...

– أنتم تفتقرون إلى المخيّلة. إذاً من دون إطالة، في شهر أيلول من ذلك العام، كان فردريك قد هبط عبر جبل شينيس إلى سوس. وكان لا يزال حانقاً للإهانة التي تلقّاها قبل سبعة أعوام، فأعمل فيها الحديد والنار. أمّا آستيا فسرعان ما استسلمت ممهّدةً له الطريق فإذا به يقيم معسكره في الفراسكيتا، على طول نهر بورميدا، لكنّه وزّع رجاله هنا وهناك في الجوار حتّى ما بعد تانارو. فقد أذِنَ الوقت للاقتصاص من الإسكندرية. كنت في

الأثناء أتلقّى رسائل من الشاعر الذي رافق الحملة، ويبدو أنّ فردريك في ثورة غضبه كان يشعرٌ بأنّه العدالة الإلهية مجسّدةً.

- لِمَ لم تكن أنتَ معه؟

- لأنه رجل صالحٌ حقّاً. فقد أدرك كم سأعاني إن شهدت القصاص الذي سينزله بأهل منطقتي، فراح يحثّني بشتّى الطرق على البقاء بعيداً إلى أن تستحيل روبوريتو ركاماً من الرماد. كما ترى، لم يكن يسمّيها لا المدينة الجديدة ولا الإسكندرية، لأنّ مدينة جديدة لا تحظى برضاه لا يُكتب لها أن تكون. لذا كان يتحدّث دائماً عن روبوريتو، الدسكرة القديمة، كأنّ ما طرأ عليها ليس سوى القليل من التوسّع.»

كان ذلك في مطلع شهر تشرين الثاني. غير أن تشرين كان أشبه بطوفان في ذلك السهل. جعلت تمطر وتمطر حتّى استحالت الأرض المزروعة مستنقعاتٍ. وعلى الرغم من أنّ الماركيس دومونفيرا قد أكّد تكراراً على مسامع فردريك أنّ تلك الأسوار ليست سوى مداميك من الطين وأنّ من في داخلها، ليسوا سوى نفر من الرجال يبولون على أعقابهم لمجرّد سماعهم اسم الإمبراطور، فإنّ ذاك النفر قد انبرى منه، على الضدّ من ذلك، عدد من المدافعين الأشاوس، كما أبدت الأسوار صلابة عجزت دونها المقاليع وتكسّرت عليها قرون الناطحات. كان الرجال، كما الجياد، ينزلقون فوق الطين، فيما عمد المحاصَرون، في وقتٍ ما، إلى تحويل مجرى البورميدا، بحيث أغرقت السيول أفضل الفرسان الألمان حتّى الأعناق.

ثمّ عمد الإسكندريون، في آخر الأمر، إلى استخدام إحدى تلك الآلات التي شهدنا مثيلها في كريما: بناء من خشب مثبت بالأسوار، يُبسَطُ منه ممرٌّ بالغ الطول، أشبه بجسر منحني الطرف قليلاً يتيح الإطلالة على العدو من أعلى وخارج الأسوار. وعبر هذا الممرّ تُدحرج براميل معبّأة بالخشب اليابس والزيت والشحم والسّمن والقار السائل التي أضرمت

فيها النار. كانت البراميل تتدحرج بسرعة ثمّ تنقذف على الآليات الإمبراطورية أو على الأرض حيث تكمل تدحرجها ككتلٍ مشتعلة إنْ لم تصطدم بآلياتٍ أخرى.

حيال هذا، أصبحت المهمّة الرئيسية للمُحاصرين تنحصر في نقل براميل المياه لإخماد النيران. ولم تكن المشكلة في إمدادات المياه المتوفرة في الأنهر وفي المستنقعات، علاوة على ما يهطل منها من السماء؛ ولكنْ إذا كان الجند سينصرفون إلى نقل المياه، فمَنْ ذا الذي سيقتل الأعداء؟

ارتأى الإمبراطور أن يكرّس فصل الشتاء لإعادة تنظيم جيشه، وقد حثّه على ذلك مشقّة الهجوم على الأسوار عبر أرضٍ زلقةٍ يكسوها الجليد أو التوغّل في سبلٍ تكسوها طبقات من الثلج. ولكن لسوء الطالع كان شهر شباط قاسياً أيضاً في ذلك العام، وبدا الجيش فاقداً حماسته، والإمبراطور أيضاً. ذلك الفردريك الذي أخضع تردونا وكريما وحتّى ميلانو، تلك المدن العريقة المتمرّسة بالحروب، كان عاجزاً عن السيطرة على ذاك الركام من الأكواخ الوضيعة، التي بالكاد صارت مدينة أو ما يشبه المدينة، والتي يقطنها أناس لا أحد يدري من أين قدموا إليها ولِمَ يتمسّكون إلى هذا الحدّ بهذه المعاقل - التي، بأيّ حال، لم تكن ملكاً لهم قبل أن يحلّوا فيها.

بعد أن آثر البقاء بعيداً لكي لا يشهد إبادة أهله، عاد باودولينو وقرّر الالتحاق بتلك البقعة خشيةَ أن يتعرّض الإمبراطور للأذى من قبل أهله.

وإذا به أمام السهل حيث تنتصب المدينة التي شهد نشأتها الأولى. كانت ترفرف فوقها البيارقُ ذات الصلبان المحدّبة على خلفية مفضّضةٍ، وكأنّ الأهلون، وهم حديثو الشأن، أرادوا الاستقواء بما يشهرونه من شاراتِ نبالة عريقة. أمام الأسوار انتشرت غابة من المجانق والكُلاّبات والمقاليع والعرّادات والبراقيل، ووسط هذه الآلات تتقدّم ثلاثة أبراج نقّالةٍ

تجرّها الأحصنة من الأمام ويدفعها رجالٌ من الخلف، وعلى متنها أعداد من الرجال الصاخبين الملوّحين بنصالهم باتجاه الأسوار، كأنّهم يقولون: «ها قد جئنا نحن، وأذِنت ساعة الجدّ!»

لمح الشاعر الذي كان يرافق الأبراج، على صهوة حصانه المتقافز هنا وهناك كأنّه المشرف على حسن سير الأمور.

«من هم أولئك المجانين في أعلى البرج؟» سأل باودولينو.

«إنّهم قذّافون جنويون، أجاب الشاعر، وأشدّ القذّافين بأساً من بين قوّات الهجوم في حصار محكم كما ينبغي.

– الجنويون؟ قال باودولينو بدهشة. لكنّهم أسهموا في بناء المدينة!» ضحك الشاعر وقال إنّه منذ قدومه إلى هذا المكان، أي منذ أربعة أو خمسة أشهر، شهد اكثر من مدينة تبدّل ولاءً بآخر. في تشرين الأوّل كانت تردونا لا تزال مواليةً للعصبة، ثمّ بدأت تلحظ أنّ الإسكندرية صامدة بضراوة أمام الإمبراطور، فساورت أهلها شكوكٌ بأنّها قد تغدو قوية أكثر مما ينبغي، فعمد قسمٌ لا بأس به منهم إلى ممارسة الضغوط لكي تنتقل مدينتهم إلى صفّ فردريك. وكريمونيا كانت لا تزال، حتّى عهدنا باستسلام ميلانو، إلى جانب الإمبراطور، لكنّها انضمّت، في السنوات الأخيرة، إلى العصبة، سوى أنّها الآن، ولأسباب غامضة تخصّها، تتعامل مع الإمبراطوريين.

«لكن ما حال هذا الحصار؟

– حاله أسوأ حال. فإمّا أن يكون المدافعون داخل الأسوار هم خيرة المدافعين، وإمّا أن نكون نحن لا نجيد الهجوم. وبرأيي أنّ فردريك قد استقدم هذه المرّة مرتزقةً متعبين. إنّهم مخادعون يولون الأدبار حالما يُجبهون بصعوبة ما، فقد فرّ عدد منهم هذا الشتاء فقط بسبب البرد؛ أمّا إذا كانوا فلندريين فهم أيضاً لا يأتون، كلاّ وحاشا، من عرين الأسد. أضف إلى ذلك أخيراً أنّ الرجال في المعسكر يتساقطون كالذباب من ألف وباء

ووباء، وهناك، داخل الأسوار، لا أعتقد أنّ حالهم أفضل من حالنا لأنّ المؤن قد نفدت، على الأرجح، من مخازنهم.»

بعد ذلك مثل باودولينو أمام الإمبراطور. «لقد جئتُ يا أبي، خاطبه قائلاً، لأني أعرف الأمكنة هنا وقد يكون لوجودي بينكم نفعٌ.

- بلى، أجابه بربروس، ولكنّك تعرف الناس أيضاً وقد لا ترغب في أن يصابوا بأذى.

- أنت أعلم الناس بي؛ إذا كنت لا تثق بمكنون قلبي، فأنت تعلم أنّ بإمكانك الركون إلى كلامي. لن أؤذي أهلي ولكنّي لن أكذب عليك.

- بالعكس، سوف تكذب عليّ ولكنّك لن تؤذيني أنا أيضاً. سوف تكذب وسأتظاهر بأني أصدّق لأنّك دائما تكذب بحسن نية.»

كان رجلاً فظّاً، قال باودولينو لنيسيتاس مفسّراً، غير أنّه كان ذكيّ الفؤاد. «هل تقدر أن تتفهّم ما كنت أعانيه؟ فمن ناحية لا أريد أن يدمّر تلك المدينة، ومن ناحيةٍ أخرى كنت أحبّه، وكنت حريصاً على تمام مجده.

- كان يكفي أن تكون مقتنعاً، قال نيسيتاس، بأنّ مجده كان ليزداد تألّقاً لو أنّه جنّب المدينة الدمار.

- عافاكَ الله، يا سيّد نيسيتاس، كأنّك تقرأ الأفكار التي راودتني آنذاك. ومقتنعاً بأني قد أفلح في ذلك، رحتُ أتنقّل بين خيم المحاصرين وبين الأسوار. فقد اتفقت مع فردريك أنّه لا بدّ لي من الاتصال بأهل المنطقة، كأنّي، على نحوٍ ما، سفير أو مفاوض، غير أنّ تجوالي هذا ما كان ليبقى منزّهاً عن شكوكِ البعض. فثمة أناس في البلاط يحسدون ألفتي مع الإمبراطور، كأسقف سبيريا وآخر يدعى الكونت ديتبول وكان الجميع يسمّونه الأسقفة، ربّما بسبب شقرة شعره واللون الزهري الذي يسم وجهه كالغلام. وقد لا يكون استسلم لرغبات الأسقف لفرط ما كان يردّد اسم تكلا التي خلّفها هناك في أقصى الشمال. مَنْ يدري. . .؟ كان وسيماً

ولكنّه، لحسن الحظ، كان أيضاً على قدر من البله. فمثل هؤلاء هم الذين كانوا يوعزون لجواسيسهم بأن يرصدوا تحرّكاتي حتّى داخل المعسكر، ثمّ يسرّون للإمبراطور غداة كلّ ليلة أنني شوهدتُ متجهاً نحو الأسوار وأنني تحدّثت إلى أهل المدينة. ولحسن الحظّ كان الإمبراطور لا يصغي إلى وشاياتهم لأنّه يعلم حقّ العلم بأنّي أذهب إلى السور نهاراً وليس ليلاً.»

باختصار، كان باودولينو يذهب إلى أسفل الأسوار، وأحياناً إلى داخلها. في المرّة الأولى لم يكن الأمر يسيراً لأنّه فيما كان يتقدّم ممتطياً حصانه باتجاه الأبواب، سمع ونين حجر - علامة على أنّ المدينة باتت تقتصد باستعمال السهام، وتستخدم عوضاً عنها المقاليع اليدوية التي ثبُتَ، منذ عهد داود، أنّها فاعلة وقليلة الكلفة. فكان عليه أن يصيح بلهجة الفراسكيتا السوقيّة، مستعيناً بإيماءات من يديه العزلاوين، إلى أن قيضَ للتروتّي، برحمة الله، أن يتعرّف عليه.

«مرحى يا باودولينو، صاحَ التروتي من أعلى السور قائلاً، هل جئتَ لتنضمَّ إلينا؟

- لا تكن حماراً يا تروتي، أنت تعلم جيّداً أنني أنتمي إلى الجانب الآخر. ولكنني لم آتِ إلى هنا طبعاً لأغراض دنيئة. دعني أدخل لأسلّم على أبي. وأحلف بالعذراء مريم بأني لن أبوح بكلمةٍ عمّا أرى.

- إني واثق من ذلك. افتحوا الباب، هه، هل تسمعون ما أقول أم أنكم فقدتم رؤوسكم؟ هذا صديق. أو تقريباً صديق. أقصد: إنه واحد منهم من بيننا، أقصد إنّه واحد منّا بينهم، والخلاصة افتحوا هذا الباب أو أهشّم أفواهكم بقدميّ هاتين!

- حسناً، حسناً، أجابه المحاربون الحائرون، ما عاد أحد يعلم من ينتمي إلى هنا ومن ينتمي إلى هناك، فأمسِ بالذات خرج من هذا الباب شخص يرتدي زيّ أهل بافيا...

- اصمت يا حمار» صاح تروتي. و «آه آه، قال باودولينو مشاكساً،

أتبعثون بجواسيسكم إلى معسكرنا. . . ولكن لا تقلق، لقد قلت لك إني لا أرى شيئاً ولا أسمع. . .»

ها باودولينو مجدّداً بين أحضان غالياودو - القويّ الضّامر كأنّ الصوم قد أعاده فتيّاً - عند بئر الساحة الضيّقة داخل الأسوار؛ وها باودولينو مجدّداً يلتقي الغيني والساكّاباروزي أمام الكنيسة؛ وها باودولينو يسأل في الحانة أين السكوارشيفاكي فينتحب الجميع ويقولون له إنّه تلقّى سهما جنوياً في وجهه في الهجوم الأخير، فبكى باودولينو أيضاً، هو الذي لم يحبّذ الحرب يوماً، وهذه الحرب بالذات، ويؤرّقه قلقه على أبيه العجوز؛ ها باودولينو الذي يقف في الساحة الرئيسة، بهيّةً فسيحةً منوّرةً بشمس آذار، يرى الأولاد يحملون قففاً من الأحجار لتدعيم الدفاعات، وأباريق ماء للعسس، مسروراً بروحيّة الصمود التي عمّت سكان المدينة أجمعين؛ ها باودولينو متسائلاً مَنْ عساهم يكونون هؤلاء الناس الكُثُر الذين تزدحم بهم نواحي الإسكندرية، كأنّهم في عرس، فيجيبه أصدقاؤه أنّ هذه هي المأساة فقد وفد كلّ الفارّين من زحفِ الجيش الإمبراطوري من أهل الدساكر المجاورة ولجأوا إلى المدينة التي اكتظّت، بالتأكيد، بسواعد المشاركين في الدفاع عنها، لكنّها اكتظّت أيضاً بالأفواه الجائعة؛ ها باودولينو يتأمّل الكاتدرائية بإعجاب، فلربّما كانت متواضعة البنيان لكنّها حسنة الهندسة، فيقول: بحقّ السماء، حتّى المأطورة المثلّثة وعليها القزم المعتلي العرش، ومن حوله الجميع يردّدون: بلى، بلى، هل شهِدْتَ ما نقدر عليه، مع أنّه، يا للحمَقِ، لم يكن قزماً بل هو الربّ لم يفلح النحّاتون في تشخيصه كما ينبغي، ومع ذلك لو تأخّر فردريك في المجيء شهراً واحداً لشهدَ عليها يومَ الحساب الأخير مكتملاً وفيه عجائز القيامة؛ ها باودولينو يطلب أن يؤتى، على الأقلّ، بقربةٍ من النبيذ الفاخر فيرمقه الجميع كما يُرمق الوافد من المعسكر الإمبراطوري، لانّ النبيذ ما عاد متوفّراً منه ولو قطرة، رديئاً كان أو فاخراً، فهو أوّل ما يُسعَفُ به الجرحى كيما تشتدّ عزائمهم، وأوّل ما يُسقى لذوي القتلى كيما يعينهم

على السلوان؛ وها باودولينو مُحاطاً بسُحَنٍ ضامرةٍ فيسأل كم من الوقت بعد يمكنهم الصمود، فيرفعون أعينهم باتجاه السماء كأنّهم يقولون إنّ العلم عند الله؛ وأخيراً، ها باودولينو يلتقي أنسيلمو ميديكو على رأس مئة وخمسين محارباً بلاستتيّاً هرِعوا لمساندة المدينة

الجديدة، فثمّنَ باودولينو بادرة التضامن هذه، وأصدقاؤه من آل غواسكو وتروتي وبويدي وحتّى أوبرتو ديل فورو يقولون إنّ أنسيلمو هذا رجلٌ متمّرس بالحرب وخبير بشؤونها، لكنّ البلاسنتيين هم وحدهم هنا، فقد حثّتنا العصبة على العصيان لكنّها في الوقت الحاضر لا تأبه بنا، لذا فإني أضمن لك أننا، إذا خرجنا سالمين من هذا الحصار، فلن ندينَ لأحد بشيء، ولتتدبّر المدن الإيطالية أمورها مع الإمبراطور، آمين.

«ولكن كيف يعقَلُ أن يكون الجنويون ضدّكم وهم الذين أعانوكم على بناء المدينة بالمال والخبرات؟

– الجنويون يدركون ماذا يفعلون فلا تقلق بشأنهم؛ إنّهم الآن في صفّ الإمبراطور لأن مصالحهم تملي عليهم ذلك، لكنّهم يعلمون جيّداً بأية حال، أنّ المدينة التي ترى النور لن تزول أبدلً حتّى لو سويً بنيانها بالأرض، والدليل على ذلك لودي وميلانو. بعد ذلك يتريّثون بانتظار ما ستستقرّ عليه الأوضاع، وسيكون ما تبقّى من المدينة وسيلة بأيديهم للسيطرة على المعابر، وربّما أسهموا في إعادة إعمار ما اسهموا في تدميره، وفي الانتظار كلّ ما يجري هو ربح بربح وهم دائماً معنيون بالربح.

– يا باودولينو، خاطبه الغيني قائلاً، لقد وصلتَ للتوّ ولم تشهد هجمات تشرين الأول والأسابيع المنصرمة الأخيرة. إنّهم يقتحمون بقوّة، وليس الجنويين فقط، بل أيضاً أهل بوهيميا ذوو الشوارب البيضاء تقريباً الذين إنْ تمكّنوا من نصب السلّم على الأسوار، يصعب بالتالي صدّهم عنها... صحيح برأيي أنّ عدد القتلى في صفوفهم أكبر ممّا هو في صفوفنا، حتّى لو كانوا يستخدمون الأبراج النقّالة والقَفْعِ، فقد تلقّوا منّا

وابلاً من الاحجار على رؤوسهم. ولكن في المحصّلة الأوضاع صعبة ونحن نشدّ الأحزمة.

- لقد بلغتنا أنباء، قال التروتي، أنّ جيوش العصبة تتحرّك وستفاجئ الإمبراطور من خلفِ صفوفه. هل بلغك شيء من هذا القبيل؟

- لقد بلغتنا، نحن أيضاً، معلومات مماثلة، ولهذا السبب يسعى فردريك لإخضاعكم قبل فوات الأوان... ولكن انتم، وبسط ذراعيه مترجّحتين، أما من نيّةٍ لديكم للتوقّفِ عند هذا الحدّ، ألا سبيل إلى ذلك؟

- البتّة. لدينا من العناد ما لا يقوى عليه الصخر.»

وهكذا تابع باودولينو وساطته لأسابيع عديدة، وكان يعود، إثر كلّ اشتباك، إلى أهله لكي يحصي من قُتِلَ منهم (البيناتزا أيضاً؟ كان فتىً شجاعاً) ثمّ يعود أدراجه ليبلّغ فردريك بأنّ الآخرين لن يستسلموا. وحيال ذلك لم يكن فردريك، على جاري عادته، يسبّ أو يلعن خصومه، بل كان يكتفي بالقول: «ماذا افعل الآن؟»؛ فالواضح أنّه بات نادماً على تورّطه في مثلِ ذلك الموقف: كان جيشه يتفكّك أمام ناظريه، فيما الفلاّحون يخبّئون القمحَ والماشية في الأدغال لا بل في المستنقعات، ولا سبيل للتقدّم لا باتجاه الشمال ولا باتجاه الشرق من دون التعرّض لطلائع العصبة - وليس ذلك لأنّ تلك الدهماء كانت أشدّ بأساً من الكريماويين بل لأن سوء الطالع هو سوء الطالع. ومع ذلك لم يكن باستطاعته التراجع، لأنّ هيبته كانت على المحكّ.

أمّا بشأنِ الهيبة التي على المحكّ، فقد أدرك باودولينو ممّا ألمح إليه الإمبراطور في إشارته إلى اليوم الذي أنقذ فيه الموقف، وكان حدثاً بعد، بحثّه أهل درتونيا على الإستسلام، أنّه يودّ لو يتذرّع بعلامةٍ من السماء، أيّ علامة، ليعلنَ للقاصي والداني انّ السماء هي التي تشير عليه بالعودة إلى دياره، فيغتنم الفرصة...

ذات يوم، وفيما كان باودولينو يتحدّث إلى المُحاصَرين، قال له

غالياودو: «أنتَ الذي حُبيتَ بالذكاء، وحصّلتَ العلم في الكتب التي تحوي كلّ العلم، هلاّ اهتديتَ إلى فكرةٍ تُعيد الجميع إلى ديارهم؛ لقد اضطررنا إلى قتل كلّ أبقارنا إلاّ واحدة وحال الحصار هذه تثقل على صدر أمّك؟»

واهتدى باودولينو إلى خطّةٍ بدت له ناجعةً، فسارع إلى الاستفسار عمّا إذا كان السرداب الذي تحدّث عنه التروتي، قبل سنوات عدّة، قد أنجز، واتضح أنّه أنجز بالفعل ذلك السرداب الذي من شأنه أن يوهم الأعداء بأنّه يفضي بهم توّاً إلى قلب المدينة فيما هو يفضي بهم إلى كمين. «طبعاً، قال تروتّي، تعالَ انظر. فتحة السرداب هناك بين الأجمات على بعد مئتي قدم من السور، جعلناها تحت صوَّةٍ تبدو كأنّها في موضعها منذ ألف عام لكنّنا في الحقيقة نقلناها حديثاً من دارة ديل فورو. فمن يسلك السرداب يصل إلى هنا، خلف الغطاء المشبّك الذي منه يرى الحانة لا أكثر.

– والخارجُ منها مفقود؟

– المشكلة أنّ فتحة السرداب ضيّقة فلن تتيح للمحاصرين أن يعبروا منها إلاّ في غضون أيّام، لذا لا يسلكها إلاّ ثلة من الرجال يُكلّفون ببلوغ الأبواب وفتحها. ولكنْ فضلاً عن كوننا لا ندري كيف نُعلمُ العدوّ بوجود السرداب، وأننا في أفضل الأحوال لن نتمكّن من قتل عشرين أو ثلاثين بائساً منهم، فهل يستحقّ الأمر كلَّ هذا العناء؟ لا، لن يكون ذلك أكثر من خدعةٍ لئيمة.

– لكنّه قد يلقنهم درساً. الآن أصغِ لما أراه ماثلاً أمام عينيّ كأني أراه: ما ان يدخل الآخرون يسمع نفخُ أبواق، وبين شعلات عشرة مشاعل، يطلّ فجأةً من هذه الزاوية رجلٌ ذو لحية بيضاء طويلة مرتدياً مشمالاً أبيض، ممتطياً حصاناً أبيض، وبيده صليب كبير، صائحاً: يا أيّها الناس، يا أيّها الناس، العدوّ هنا في عقر الدار وعندها – وقبل أن يتمكّن الأعداء من التقدّم خطوة واحدة– يطلّ جماعتنا من النوافذ والسطوح كما

قلتَ. وبعد أن يتمّ أسرهم، يركع الجميع وهم يصيحون أنّ الرجلَ هو القديس بطرس شفيع المدينة، ثمّ يعيدون رجال الإمبراطور الأسرى إلى السرداب قائلين اشكروا الربّ لأننا عفونا عنكم وخبّروا معسكر بربروس أنّ مدينة البابا ألكسندر الجديدة محمية بشفاعة القديس بطرس شخصيّاً. . .

– وهل ستنطلي خديعة مثل هذه على بربروس؟

– لا، فهو ليس غبيّاً، ولأنّه لا يتصف بالغباء سيتظاهر بأنّه يصدِّق زعمكم، فهو، مثلكم، يودّ الخلاص مما هو فيه.

– لنسلّم جدلاً بأنّ الأمور ستجري كما تقول. ولكن من سيجعلهم يكتشفون السرداب؟

– أنا.

– وكيفَ لكَ أنتَ أن تعثر على الدبر الذي يؤخذ؟

– لقد عثرتُ عليه، لأنّه دبرٌ يؤخذ والخراء الذي يليق به، ولكن، كما اتفقنا، لن تقتلوا أحداً.»

كان باودولينو متوجّساً من ذاك المغرور الذي يدعى الكونت ديتبولد، ولكي يقدِمَ ديتبولد على أمرٍ ما كان ينبغي إقناعه بأنّه ليس في صالح باودولينو. فلم يبقَ إلاّ إخطار ديتبولد بوجود سرداب وبأنّ باودولينو لا يريد أن يفشوَ أمر وجوده. كيف؟ أمرٌ بسيط ما دام ديتبولد قد دسَّ عدداً من الجواسيس في أعقاب باودولينو.

عند هبوط الليل، وفي طريق عودته إلى المعسكر، سلك باودولينو ناحيةَ فُرجةِ الغابة، ثمّ توغلَ في دغلٍ، ولكنّه توقّفَ فجأةً وسط الأشجار ملتفتاً إلى الوراء في اللحظةِ التي أتاحت له أن يلمحَ، في ضوء القمر، خيالاً يدبّ على الأرض في أرض مكشوفة. كان ذاك، هو الرجل الذي أوعز إليه ديتبولد بتتبعه. فتريّث قليلاً بين الأشجار ريثما يقترب منه وعندها استلّ سيفه وسدّده إلى صدره، وفيما راح الرجل يغمغم متلجلجاً، صاح باودولينو بالفلمندية: «إني أعرف من تكون، أنتَ واحد

من جماعة البرباسون. ماذا تفعل خارج المعسكر؟ هيّا، تكلّم، أنا تابع الإمبراطور!»

قالَ له الرجل إنّه غادر المعسكر للقاء امرأة، وبدا مقنعاً في ما قاله. «حسناً، قال باودولينو، على أيّ حال، إنّه لمن حسن الحظّ أن تكون هنا. اتبعني، أحتاج إلى من يتولّى المراقبة فيما أنصرف أنا إلى إنجاز أمر ما.»

حلّت أمنية باودولينو على الرجل كالبَرَكَة، فهو، إلى كونه لم يفتضح أمره، سيتمكّن من مراقبة المعنيّ عن كثب. وصل باودولينو إلى مشارف الدغل الذي حدّثه عنه التروتي. ولم يكن عليه أن يتظاهر بشيء بل أن يبحثَ بجدّ لكي يعثر على موضع الصَوّة فيما هو يتمتم، كمن يخاطب نفسه، متحدّثاً عن معلومة تلقّاها من أحد مخبريه. وجد الصوّة التي بدت كأنّها نمت هناك من تلقائها، مع الأشجار، وحفر قليلاً من حولها منحيّاً أوراق الشجر حتّى انكشفت له سدّة مشبّكة. طلب من البرابنسوني أن يعينه على رفعها: تحت السدّة كانت هناك ثلاث درجات. «الآن أصغِ، قال للبرابنسوني. سوف تهبط من هنا وتسلك السرداب إلى نهايته. وعندما تبلغ نهايته قد تلمح أنواراً. احفظ جيّداً ما تراه ولا تغفل عن شيء. ثمّ عُد واخبرني. أنا سأبقى هنا متيقظاً.»

لَمْ يرَ الرجل في الأمر ما يدعو إلى العَجَب، وإنْ بدا مؤلماً، أن يطلبَ منه أحد الأسياد أوّلاً أن يبقي عينه متيقّظةً فيما ينصرفُ هو إلى شأنه، ثمَّ يتولّى هو المراقبة ويبعث به للمخاطرة بحياته. غير أنّ باودولينو لم يلبث أن استلّ سيفه لكي يوفّر له الحماية بالطبع، ولكن، مع الأسياد، لا أحد يدري. ارتسم الجاسوس بشارة الصليب وانطلق. ولمّا عاد بمضيّ عشرين دقيقة حكى لباودولينو ما كان باودولينو يعرفه تمام المعرفة، أنّ في نهاية السرداب هناك فتحة مسدودة بغطاءٍ مشبّك، لا يصعب انتزاعها، ومن بين أسياخ الحديد يمكن للمرء أن يرى ساحةً صغيرة مقفرةً، ما يعني أنّ هذا النفق يؤدي إلى وسط المدينة.

سأل باودولينو: «هل كان عليك أن تمرّ بمنعطفات أم أنّك سرتَ في طريق مستقيمة؟» «مستقيمة»، قال الآخر. فتمتم باودولينو كأنّه يخاطب نفسه: «إذاً المخرج يقع على بعد عشرات الأمتار تقريباً من الأبواب. لقد صدقَ ذاك المرتشي. . .» ثمّ مخاطباً البرابنسوني: «هل تدرك حقّاً ما اكتشفناه لتوّنا. عند أوّل هجوم مقبل على الأسوار، ستتمكن ثلّة من الرجال الشجعان من التسلّل إلى داخل المدينة وتشقّ طريقاً حتّى الباب وتفتحه، ويكفي أن تكون مجموعة أخرى عند الباب مستعدّة للدخول. سوف أُثرى بالتأكيد. أمّا أنت فلا ينبغي أن تخبر أحداً بما رأيته الليلة لأني لا أريد أن يستغلّ شخصٌ آخر اكتشافي هذا.» وبحركةٍ تنمّ عن سخاء دسّ قطعةً من النقود في يد الآخر، وكان الثمن المبذول لقاء الصمت من الشحّ بحيث إنّ الجاسوس لن يتردّد لحظة واحدة، إن لم يكن حبّاً بديتبولد فسعياً وراء الانتقام، في إفشاء كلّ ما لديه من معلومات.

هكذا مع حلول بعد ظهر الجمعة العظيمة لاحظ التروتي أنّ رجال الإمبراطور بدأوا، مع انسدال الظلام، يستعدون لأمر ما أمام الأبواب، فأدرك على الفور بأنّ للأمر صلة ما بالخطة التي أعدّها باودولينو في الخفاء. لذلك سارع، بعد مداولات لم تشمل سوى الغواسكو والبويدي وأوبرتو ديل فورو، إلى البحث عن قديس بطرس يكون مقنعاً، ووقع اختياره على أحد قناصل المحتد، ويدعى رودولفو نيبيا، ويتمتّع، من حيث المظهر، بكلّ الصفات المطلوبة. ولم يصرفوا سوى نصف ساعة في الجدال حول ما ينبغي أن يحمله المتجلّي بيده، الصليب أم المفاتيح الذائعة الصيت، ورجّحوا، آخر الأمر، الصليب لأنّه يُرى على نحو أفضل وخاصةً مع هبوط الليل.

كان باودولينو واقفاً على مقربة من الأبواب ليقينه أنّه لن يكون هناك معركة، لأنّ قبل اندلاعها سيخرج أحدٌ ما من السرداب زافّاً إليهم نبأ المعونة السماوية. والحقّ أنه لم يمضِ من الوقت اكثر مما تستغرقه تلاوة أبانا والسلام ونؤمن ثلاثاً، حتّى علت من داخل الأسوار أصوات هَرْجٍ،

ثمّ دوّى صوتٌ بدا للجميع أنّه ليس من طبيعة البشر، صائحاً: «انتبهوا، انتبهوا، يا أهل الإسكندرية المخلصين»، وجوقة من أصوات الفانين تردّد قائلةً: «إنّه القديس بطرس، يا للمعجزة، يا للمعجزة!»

غير أنّ أمراً طرأ في تلك اللحظة بالذات اعترض سير الخطّة المتفق عليها. فقد نميَ لباودولينو فيما بعد أنّ ديتبولد ورجاله وقعوا في الأسر توّاً إذ باغتهم الجميع زاعمين بأنّ القديس بطرس قد ظهر لهم. والأرجح أنّ الجميع صدّقوا ما قيل لهم ما عدا ديتبولد الذي كان يعلم يقيناً من أيّ مصدر بلغته المعلومة بشأن السرداب ولذا راودته شكوك - على الرغم من حَمَقِهِ - بأنّ باودولينو قد سخر منه. عندئذ تمكّن من الإفلات بالقوة من أسره وسلك زقاقاً وهو يصيح بأعلى صوت فلا يفهم أحدٌ بأي لغة يتكلّم، وتحت أنوار المغيب الكابية حسبَ الجميع أنّه واحدٌ منهم. ولكن لمّا بلغَ أعلى الأسوار اتضح لهم أنّه يخاطب المحاصِرين ليحذّرهم من شَرَكٍ - ولكن باللهِ عليكم من أيّ خطر يحذّرهم، ما دام مَنْ في الخارج سيبقى في الخارج إن لم تفتح له الأبواب وبالتالي لن يتعرّض لأي خطر. غير أنّ ديتبولد ملك الشجاعة لأن يفعل ذلك، تماماً لأنّه أحمق، فوقف على الأسوار منبهاً ملوّحاً بسيفه متحدّياً أهل الإسكندرية. وما كان هؤلاء ليرتضوا - حسبما تقتضي أعراف الحصار - بأن يبلغَ أحد الأعداء أسوارَهم، حتّى لو جاءها من الداخل، وإذا بهم بغتةً حيال ألماني في عقر دارهم وكأنّ شيئاً لم يكن؛ خاصةً أن قلّة منهم كانت تعلم بأمر الشَرَك. فارتأى أحدهم أنّه ربّما كان من الأفضل رمي الصائح برمحٍ في ظهره قاذفاً به إلى خارج السور.

حيال منظر رفيقه المحبوب هابطاً إلى أسفل السور جثّةً هامدة، تطاير الشرر من عيني أسقف سبيريا وأمر بالهجوم. كان الإسكندريون ليتصرّفوا على جري عادتهم في حال مماثلة، كأن يرموا على المهاجمين من أعلى الأسوار فيما العدو يحاول الاقتراب من الأبواب، ولكن شائعة كانت قد سرت في الأثناء بأنّ القديس بطرس ظهر وجنّب المدينة مكيدة مدبّرة وأنّه

يعدّ العدّة لخروجٍ مظفّر. وهذا ما حدا بتروتّي، الذي سعى لاستغلال ذلك اللبس، إلى حثّ بطرسه المزيّف على الخروج أوّلاً لكي يتبعه الآخرون.

في المحصّلة أدّت ترهات باودولينو التي كان يفترض بها أن تربك عقول المحاصِرين، إلى ارباك عقول المحاصَرين: فقد انقضّ الإسكندريون، مأخوذين بحميةٍ صوفية وحماسةٍ قتالية، كالضواري على صفوف الإمبراطوريين - وكان هجومهم على قدرٍ من العشوائية ومنافياً لأبسط قواعد فنون القتال بحيث أرغم أسقف سبيريا وفرسانه، المخيّبين، على التراجع وتقهقرت معهم صفوفُ الذين يجرّون أبراج القذّافين الجنويين التي تركت عند طرف الدغل القاتل. بدا الأمر أشبه بدعوةٍ مجانية للإسكندرية للاقتصاص: فهرع أنسيلمو ميديكو، على رأس أتباعه البلاستيين، إلى عبور السرداب الذي اتضحت، في ذلك الظرف، منافعه، فأفضى بهم إلى خلفِ أبراج الجنويين، يتبعهم عدد من الرجال الأشدّاء حاملين حراباً طويلة ثبّتت في أسنّتها كتلٌ من القار المشتعل. وهكذا اشتعلت أبراج الجنويين كأنّها حطب مواقد. وكان القذّافون يحاولون القفز منها غير أنّهم حالما يصلون إلى الأرض يتلقّون ضربات الدبابيس على رؤوسهم؛ وهناك برج مال قليلاً ثمّ وقعَ ناشراً نيرانه بين صفوف فرسان الأسقف، فهاجت الأحصنة كأنّما جنّ جنونها زارعةً المزيد من الفوضى في صفوف الإمبراطوريين لأنّ من كان من الرجّالة منهم راح يجوب صفوف الفرسان صائحاً بأنّ القديس بطرس، بشخصه، قد جاء، ومعه القديس بولس من دون شكّ، كما أن أحدهم رأى القديس سيباستيان والقديس ترسيس - أي أنّ أولمب المسيحية جمعاء قد انضمّ إلى تلك المدينة البالغة الدمامة.

بعد هبوط الليل حملَ أحدهم إلى المعسكر الإمبراطوري الذي يلفّه الحداد، جثة أسقف سبيريا الذي أصيب في ظهره أثناء فراره. أرسل فردريك في طلب باودولينو وسأله عن مقدار تورّطه في هذه المسألة وماذا يعرف عنها، وكان باودولينو يودّ أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، لأنّ عدداً من

الفرسان كان قد لقي حتفه في تلك الليلة من بينهم أنسيلمو ميديكو البليزانسي، وعدد من أعوانه، بالإضافة إلى أعدادٍ من الجند الرجّالين، وكلّ هذا بسبب خطّته المتقنة - والتي كان ينبغي أن تتمّ من دون أن تسقط شعرة واحدة من رأس أيّ كان. فارتمى بين قدمي فردريك معترفاً بالحقيقة كلّها: فقد خيّل إليه أنّه كان من المستحسن أن يوفّر له ذريعةً مقبولة لرفع الحصار ولكنّ الأمور جرت في النهاية على نحو ما جرت.

«إني شخص بائس يا أبي، قال، منظر الدماء يقززني وأردت أن تبقى يداي نظيفتين، وأن أتفادى إزهاق أرواح أخرى، ولكن أنظر المجزرة التي تسببت بها، كلّ هؤلاء القتلى عبء سوف يُثقل ضميري!

- لعنة الله عليك، أو على من أفسد الخطّة، أجاب فردريك الذي بدا محبطاً أكثر منه غاضباً لأنّه - وليبقَ الأمر سرّاً بيننا - ربّما كان نجاح تلك الذريعة في صالحي. لقد بلغني للتوّ أنّ العصبة في طريقها إلينا، وهذا يعني أننا، منذ الغدّ، سيكون علينا أن نقاتل على جبهتين. وكان من شأن بطرسك ذاك أن يقنع الجنود، ولكن الآن، وبعد سقوط هذا العدد الكبير من القتلى، فإنّ البارونات أتباعي، هم الذين يطالبون بالثأر. إنّهم يقولون ويرددون إنّها الفرصة المؤاتية لتلقين أهلِ المدينة درساً، إذ يكفي ما شهدناه عندما خرجوا إلينا، كانوا أشدّ هزالاً منّا، وبذلوا ما تبقّى لهم من بأس.»

كان ذلك بحلول سبت النور. بدا النسيم عليلاً، فيما الحقول ترفل بالأزاهير والأشجارُ تضجّ بحفيف الأوراقِ بهجةً. وفي الأنحاء كان يسود حزنٌ جنائزي: لدى الإمبراطوريين لأنّ لسان حالهم يقول إنّ الهجوم وشيك ولا أحد منهم يرغبُ في ذلك؛ ولدى الإسكندريين لأنّهم كانوا، بعد الجهد الذي بذلوه في خروجهم الأخير، في حالٍ من الغبطة والاسترخاء. وهذا ما حدا بباودولينو أن يقدحَ ذهنه الخلاّق مجدّداً.

سار مجدّداً باتجاه الأسوار وهناك ألفى التروتّي والغواسكو والقادة الآخرين متجهّمين. هم أيضاً علموا بمجيء العصبة، ولكن بلغهم من

مصادر أمينة أنّ المدن المنضوية تحت لواء العصبة تشهد خلافات فيما بينها بشأن ما ينبغي اتخاذه من خطوات، وأنّها متردّدة في قرار شنّ الهجوم الحاسم على فردريك.

«ذلك أنّه، أصغِ إليّ جيداً يا سيّد نيسيتاس، فهذه مسألة دقيقة، وربّما كان البيزنطيون لا يمتلكون قدراً من حدّة الذهن كافياً لفهمها، ذلك أنّ دفاعك عن نفسك عندما يحاصرك الإمبراطور هو أمر، وهو أمر آخر بالكلية أن تبادر إلى شنّ الهجوم عليه. ففي آخر الأمر، إذا ضربك والدك بحزامه كان من حقّك حتّى أن تحاول انتزاع الحزام من يده - هذا دفاع عن النفس - ولكن إذا بادرت أنت إلى ضرب والدك، عدّ ذلك جريمة لا تغتفر. وإنْ لم تحترم، على نحو فاضح ومتعمّد، الإمبراطور الروماني المقدّس، فبِمَ تحافظ على وحدة المدن الإيطالية؟ هل تفهم ما أعني، يا سيّد نيسيتاس، لقد كانوا هناك مجتمعين، هم الذين مزّقوا للتوّ جيش فردريك، ومع ذلك ما زالوا يعترفون بأنّه سيّدهم الأوحد، أي أنّهم كانوا لا يريدون أن يكون عقبةً في طريقهم ولكنْ يا لشقاءِ شقائهم إذا غاب عن الوجود: لتذابحوا فيما بينهم حتّى من دون أن يعلموا إذا كان صالحاً ما يقترفونه أو طالحاً لأنّ معيار الخير والشرّ كان، في آخر المطاف، هو الإمبراطور.»

«بناءً عليه، قال الغواسكو، إنّ خير الأمور هو أن يرفع فردريك حصاره عن الإسكندرية فوراً، وإذْ ذاك أؤكّد لك أن أهل المدن سيخلون له الطريق فيصل إلى بافيا.» ولكن كيف السبيل إلى إخراج ذلك بما يحفظ ماء الوجه؟ إنّ بادرة السماء التي توسّلوها من قبل كانت ناجعةً في إرضاء أهل الإسكندرية، ولكنّها أبقت الأمور عند نقطة البداية. لا شكّ في أنّ فكرة القديس بطرس كانت تنمّ عن بعض المغالاة، قال باودولينو مستدركاً، ثمّ إنّ الرؤية، أو التجلّي، لا فرق، هما أمران موجودان وغير

موجودين، وقد يتمّ إنكارهما في اليوم التالي. وما الحاجة، بأيّ حال، إلى إقلاق راحة القديسين؟ فأولئك المرتزقة أناس لا يؤمنون حتّى بربّ الملكوت، والأمر الوحيد الذي يؤمنون به هو أن تبقى كروشهم ملآنة وعصفورتهم منتصبة...

«افترض، قال غالياودو، عندئذ، بتلك الحكمة التي لا يهبها الله - كما نعلم جميعاً - إلاّ للعامة من الناس، افترض أنّ الإمبراطوريين استولوا على إحدى بقراتنا فوجدوا أنّ بطنها يكاد ينفلق لفرط ما أطعمت حنطة. وعندئذ سيظنّ بربروس وأعوانه أننا ما زلنا نملك من المؤن ما يعيننا على الصمود إلى دهر الداهرين، فيطالب قادة جيشه والجنود بالرحيل لأنهم إنْ لم يفعلوا قد يمرّ عليهم الفصح المقبل وهم يحاصروننا...

- لم أسمع يوماً أفكاراً بمثلِ هذا السخف»، قال الغواسكو، وأيّده التروتّي في ذلك، وقد مسّ صدغه بطرفِ إصبعه مشيراً إلى أنّ العجوز يخرّف. «ثمّ لو تبقّت بقرة حيّة واحدة لكنّا التهمناها، نيّئةً، أضاف بويدي قائلاً.

- ليس لأنّه أبي، ولكن يبدو لي، بخلاف ما قيل، أنّه ينبغي ألاّ نهمل هذه الفكرة، قال باودولينو. ربّما نسيتم، ولكن هناك بقرة متبقية، وهي «روزينا» بقرة غالياودو. المشكلة الوحيدة هي التثبّتُ من أنّكم ستعثرون في بيوت المدينة كلّها على ما يكفي من الحنطة لملء بطن البهيمة.

- المشكلة تكمن في التثبّتِ مما إذا كنت سأتنازل لك عن البهيمة، أيا بهيمة، صاح غالياودو حانقاً، لأنّه لكي يتثبّت الإمبراطوريون من أنّها محشوة بالحنطة، لا يكفي أن يجدوها بل أن يبقروا بطنها أيضاً، وروزينا بالذات لم نقتلها من قبل لأنّها بمثابة غبنة، لي ولأمك، بمثابة الابنة التي لم يشأ الربّ أن نُرزقها، لذا فلن يمسّها أحد، وإذا كان لا بدّ لأحد أن يقع في يد الجزّار فليكن أنتَ وقد هجرتَ الدار ثلاثين عاماً في حين أنّها لم تغادره يوماً ولم يختلّ عقلها.»

لم يشهد غواسكو والآخرون، الذين لم يروا، منذ هنيهة، في الخطّة سوى ترّهات خَرِف، ما شهدوه من اعتراض غالياودو حتّى اقتنعوا أنّها أفضل الخطط الممكنة، فراحوا يبذلون ما بوسعهم لإقناع العجوز بأنّه إذا اقتضى مصير المدينة التضحية ببقرته فلا بأسَ، ومن غير المجدي قوله إنّ باودولينو قد يحلّ محلها، لأنّ بطنَ باودولينو المبقور لن يقنع أحداً، في حين أنّ البقرة المبقورة ربّما أقنعت بربروس بالتخلّي عن حصاره. أمّا عن الحنطة، فالحقيقة أنّه لا يتوفّر ما يمكن تبديده منها، ولكن من المؤكّد أننا قد نحظى منها، هنا أو هناك، بمقدار ما نحتاجه لتسمين روزينا الصغيرة، وليس علينا أن ندقّق كثيراً في ما يحتويه من حشراتٍ مستدقّةٍ، فالتمييز مستحيل في ما يستقرّ أخيراً في المعدة بين القمح والنخالة، ولا داعيَ لتنقيته من بنات وردان وأبي المقصّ والعباقس، كما يسمونها، لانّ حنطةَ الخبزَ، حتّى الخبز، الذي يخبز في زمان الحربِ لا تخلو منها.

«كفَّ بربّكَ يا باودولينو، هيّا، لا تقل إنّكم جميعاً أخذتم تلك الحماقة على محمل الجدّ.

- لم نأخذها، نحن فقط، على محمل الجدّ، كما سترى، بل الإمبراطور أيضاً.»

هاكُمُ ما حدث فعلاً. نحو الساعة الثالثة من سبت النور ذاك، كان قناصل الإسكندرية وذوو الشأن من أهلها مجتمعين، كلّهم، تحت السقيفة التي رقدت في ظلّها بقرةٌ هي آيةٌ في الهزال ومحتضرة، وقد تقشّر جلدها وبدت قوائمها كالأعواد اليابسة، وضرعها جافّاً كالأذن، وأذناها كخِلْفَيْن، ونظراتها كابية، رخوة حتّى القرنين، والبقية هيكلاً أكثر منه جذعاً، طيف بقرة أكثر منها بقرة، حلوباً لرقصةِ الموت تسهر عليها، بحنوّ، أمّ باودولينو التي كانت تداعب رأسها مردّدة أنَّ ذلك ربّما كان خيراً لها، فهي، على الأقلّ، ستنجو من عذابها، وبعدَ أن تأكل حتّى التخمة، أي أنّها محظوظة اكثر من صاحبيها.

بجنبها كانت تكدّس أكياس الحبوب والبذار التي جمعت كيفما اتفق وبمشقّةٍ كبيرة، فيما غالياودو يقرّبها من خطم الدابّة البائسة حاثّاً إيّاها على أكلها. غير أنّ البقرة كانت ترمق العالم من حولها بأنَفةٍ يصاحبها الأنين فلا تستذكر حتّى معنى الاجترار. ما اضطرّ البعض، في آخر المطاف، وبحسن نيّةٍ، إلى تثبيت قوائمها كما تولّى بعضٌ آخر تثبيت رأسها، وآخرٌ فرّجَ ما بين فكّيها بالقوة، وفيما راحت تقاوم بخوار واهن، راحوا يحشون حلقها بالحنطةِ كما يزقَّمُ الإوزّ. عندها، ربّما مدفوعة بغريزة البقاء، أو بتذكار أيّامِ أفضل، راحت الدابة تلوك بلسانها ذاك الخليط، وبجهدٍ بذلته مضافاً إلىَ ما يبذله الآخرون، راحت تبتلع ما زُقِّمَتْهُ.

لم تكن وليمةً مبهجة، وخيّل للجميع، مراراً، أنّ روزينا سوف تسلم روحها الحيوانية إلى الربّ لأنّها كانت تأكل كما لو أنّها في المخاض، بين أنّةٍ وأخرى. ثمّ تغلّبت القوة الحيوية، فانتصبت الدابّة على قوائمها مستأنفةً وليمتها بمفردها، داسّةً خطمها مباشرةً في الأكياس التي كانت تُجعلُ تباعاً في متناولها. في النهاية، تراءى للجميع أنّ ما يمثل أمام أعينهم هو بقرة عجيبة، نحيلة مكتئبة، بارزة العظام عند الظهر كأنّها ستخترق الجلد الذي يغلّفها، فيما بدا بطنها مكتنزاً، مكوّراً، مستسقياً، منتفخاً كأنّها حبلى بعشرة عجول.

«لن تسري الخديعة على أحد، لن تسري على أحد، راح البويدي يهزّ رأسه مردّداً إزاء تلك الظاهرة البائسة، حتّى الغبيّ سيلاحظ أنّ هذه البقرة ليست سمينة، فهي ليست أكثر من جلد بقرة حُشيَ بالمؤن. . .

– حتّى لو اقتنعوا بأنها سمينة، قال الغواسكو، فكيف سيقتنعون بأنّ صاحبها ما زال، برغم الظروف، يسوقها إلى خارج الأسوار لكي ترعى، مجازفاً بحياته وبما يملك؟

– يا أصدقائي، قال باودولينو، يجب ألاّ ننسى أنّ هؤلاء الناس، وأيّاً كان من سيجدها، يعانون من جوعٍ مضنٍ فلن يتريّث أحد منهم لكي يتفحّص أيّ جنبٍ منها أكثر هزالاً منَ الآخر.»

كان باودولينو على حقّ. فما كاد غالياودو يعبر الباب، عند الساعة التاسعة، إلى مرجةٍ تبعد نصف فرسخ عن الأسوار حتّى اعترضه نفرٌ من البوهيميين كانوا ينصبون الشراك في دغلٍ محاذٍ لصيد العصافير هذا إنْ بقيت، في الجوار، عصافير على قيد الحياة. لمحوا البقرة ولم يصدّقوا أعينهم المتضوّرة جوعاً، فانقضّوا على غالياودو الذي سارع إلى رفعِ يديه عالياً، واقتادوه باتجاه المعسكر. ولم تنقضِ هنيهات حتّى احتشدت من حولهم جمهرةٌ من المحاربين ذوي خدودٍ هزيلة وعيون جاحظةٍ، ولم تلبث روزينا البائسة أن ذبحت على يد أحد الكوميين الذين يجيدون الجزارة لأنّه أنجز فعلته بضربة واحدة، ضربة واحدة، وبلمح البصر، كانت الروزينا على قيد الحياة ثمّ لم تعد. وذرف غالياودو عليها دموعاً صادقةً، فبدا الأمر تلقائياً لا تضمرُ منه خديعة.

لمّا بُقِرَ بطن الدابّة، حدث ما كان ينبغي أن يحدث: فإذا بكلّ المؤن التي ابتلعت على عَجَلٍ تندلق على الأرض وهي على حالها، ورأى الجميع أنّها حنطة من دون ريب. غلبت الدهشة على شهية المندهشين، فالجوع، بأية حال، لم يجرّد أولاء المحاربين من قدرة ولو بدائية على التفكير: أنّ تبذل المؤن للأبقار، دونما حساب، في مدينة محاصرة هو أمر يخالف كلّ قاعدة بشرية كانت أم إلهية. لكنّ رتيباً، من بين الحضور المفترس، استطاع أن يسيطر على أهواء فطرته وقرّر إبلاغ رؤسائه بالعجيبة الحاصلة. وسرعان ما بلغ النبأ الإمبراطور الذي كان بصحبة باودولينو المتوجّس، خلف قناع اللامبالاة، في انتظار الحدث.

اقتيد غالياودو مكبّلاً، وروزينا الذبيحة على نسيج من الكتّان جُمِعَ فيه ما اندلق من الأحشاء من حنطة، للمثول أمام الإمبراطور. نافقة، مبقورة البطن، لم تبدُ البقرة سمينة أو هزيلة، فما كان بادياً للعيان هو المؤن المجتمعة في بطنها وخارج بطنها. وهو الأمر الذي لفت فردريك فسارع إلى استجواب الشقيّ سائلاً: «من أنت، من أين جئت، ولمن هذه البقرة؟» وإذا بغالياودو الذي لم يفهم حرفاً واحداً مما قاله، يجيبه بلهجة

الباليا السوقية الصرف، لا أدري، لم أكن هناك، لا صلة لي بهذا، كنت مارّاً بمحض المصادفة من هناك ولم أر هذه البقرة من قبل، ولو لم تقل لي أنتَ ما هي لما علمت بأنّها بقرة. ولم يفهم فردريك حرفاً واحداً من الإجابة، فخاطب باودولينو قائلاً: «قل لي، أنتَ العليم بلغة البهائم هذه، ماذا يقول.»

حوار بين باودولينو وغالياودو، هذه ترجمته: «هو يقول إنّه لا يعلم شيئاً عن البقرة، سوى أنّ مزارعاً ميسوراً من أهل المدينة قد كلّفه بسوقها إلى المرعى، لا أكثر.

- ليَكُنْ، بحقّ الشيطان، ولكنّ البقرة محشوة بالحنطة، فاسأله كيف يُعْقَلُ ذلك.

- هو يقول إنّ كلّ الأبقار بعد أن تأكل، وقبل أن تهضم ما أكلته، تكون متخمة بما أكلته.

- قل له ألاّ يتظاهر بالغباء وإلاّ علّقته من عنقه بهذه الشجرة! أما زالوا في هذه الدسكرة، في مدينة الأشقياء هذه، يطعمون الأبقار حنطة؟»

غالياودو: «لمّا لا العلف ولا القشّ، المواشي تطعم القمح... وحتّى البزيلاّ.»

باودولينو: «يقول لا، فقط في الوقت الحاضر نظراً لنفاد العلف بسبب الحصار. ثمّ إنّ هذا ليس كلّه حنطة بل هو مخلوط بالبِسِلّة المجفّفة.

- بِسِلّة؟

- Erbse, pisa، بِسِلّة.

- وحقّ الشيطان، سأجعله طعاماً لصقوري، سأرميه لكلابي لكي تمزّقه إرباً، هل يقصد أنّ هناك شحّاً في العلف ووفرةً بالحنطة والبسلّة؟

- يقول إنّ المدينة جمعت فيها كلّ أبقار الإقليم، فبات متوفراً لديها ما يكفي من الشواء حتّى نهاية الأزمان، لكنّ الأبقار استهلكت كلّ كميات

العلف، وإذا كان بات متاحاً للناسِ أكل اللحم فقد حرموا أكل الخبز، أمّا البِسِلّة اليابسة فهي تؤكّد أنّهم يطعمون الأبقار قسماً من المؤن التي جمعوها، ويقول إنّ الأمور تختلف عمّا هي عليه هنا، عندنا، حيث لا يعوزنا شيء، فهناكَ عليهم أن يتدبّروا أمورهم بالتي هي أحسن لأنّهم ليسوا سوى مُحاصَرين بؤساء. ويقول إنّهم لهذا السبب أعطوه هذه البقرة ليسوقها إلى الخارج عساها ترعى العشب لأنّ صنف الطعام الأوحد يسقمها ويسبّب لها الدود الخبيث.

- يا باودولينو، هل تصدّق ترهات هذا الأبله؟

- أنا أكتفي بترجمة أقواله، فممّا أذكره من زمن طفولتي هو أنني لست واثقاً من أنّ الأبقار تستسيغ أكل الحنطة، لكنّ المؤكّد أنّ هذه، على ما شهدنا، كانت ملآنة بها، وما تشهده العين أبداً لا يدحض.»

راح فردريك يملّس لحيته، ثمّ غضّنَ جبينه ورمقَ غالياودو بنظراتٍ متفحّصة. «يا باودولينو، قال على الأثر، يخيّل إليّ أني التقيت هذا الرجل من قبل، ولكن ربّما كان ذلك منذ وقت بعيد. ألا تعرفه أنت؟

- يا أبتاه، إنّي أعرف كلّ أهل هذه الناحية تقريباً. غير أنّ المسألة الآن لا تكمن في أن نعرف من يكون هذا الرجل، بل إذا كان صحيحاً أنّهم في المدينة يمتلكون هذا العدد الكبير من الأبقار وتلك الكميات من الحنطة. ذلك أنّهم، إن أردتَ الصدقَ، ربّما حاولوا خداعك وحشوا تلك البقرة بآخر ما اجتمع لديهم من حبوب الحنطة.

- أحسنتَ، يا باودولينو. مثل هذا الأمر لم يخطر البتّةَ ببالي.

- أرجو من جلالتكم القدسية، قال الماركيس دو مونفيرا مقاطعاً، ألاّ تنسبوا إلى هؤلاء الأشقياء مقداراً من الحنكة لا يمتلكونها. إذ يبدو لي أننا أمام دليل واضح على أنّ المدينة مزوّدة بأكثر مما توقّعنا.

- بلى، بلى»، راح الأسياد الآخرون يردّدون كأنّهم جوقة أصوات، فخلُصَ باودولينو إلى أنّه لم يرَ يوماً أناساً على هذا القدر من سوء النية،

مجتمعين، وكلّ واحد منهم يدرك تماماً ما يضمره الآخر من سوء النية. وهذا، بأي حال، علامة على أنّ هذا الحصار يفوق طاقتهم واحتمالهم جميعاً.

«وعليه، يبدو لي أنا ما ينبغي أن يبدو لي، قال باودولينو بلباقة. إنّ جيش العدوّ يحتشد في أعقابنا. والاستيلاء على هذه الروبوريتو لن يجنّبنا المجابهة مع الجيش الآخر. كما أننا لا نستطيع حتّى التفكير في الاستيلاء على المدينة والتحصّن داخل أسوارها، لأنّ الاحتماء بأسوار سيئة البناء مثل هذه أمر يسيء إلى كرامتنا. ولهذا السبب، يا أسيادي الكرام، قرّرنا ما يلي: سوف ندع هذه الدسكرة البائسة لبقّاريها البائسين، وسوف نعدّ العدّة لمعركة مختلفة. فلتصدر أوامر بهذا المعنى.» ثمّ لدى مغادرته الجناح الملكي، خاطبَ باودولينو قائلاً: «أطلق سراح هذا الرجل ليعود من حيث أتى. من المؤكّد أنّه كاذب، غير أنّي لو عمدت إلى شنق كلّ الكذّابين، لغادرت أنت هذا العالم منذ زمن بعيد.»

«هيّا عد إلى الدار يا أبي، لقد حالفك الحظّ، أسرّ باودولينو هامساً وهو يفكّ قيود غالياودو، وقل للتروتّي إني أنتظر قدومه هذا المساء في المكان الذي يعرفه جيّداً.»

أنجز فردريك كلّ ترتيبات الانسحاب على عجل. إذ لم يكن بين تلك الخرَقِ، تلك الخيم الممزقة التي يتألّف منها المعسكر، نسيج كتّان واحد يمكن طيّه وحمله مجدداً. فأمر رجاله أن يصطفّوا في صفّ أحادي ثمّ أمرهم بأن يوقدوا النار في كلّ شيء. وعند منتصف الليل كانت طلائع الجيش تسير باتجاه معسكرات مارنغو. وفي البعيد، عند سفوح الهضاب المعوجّة، كانت تغمزُ أنوار نيران: هناك كان جيش العصبة ينتظر.

بعد أن استأذن الإمبراطور، امتطى باودولينو مبتعداً باتجاه سالي؛ وعند تقاطع طرق التقى تروتّي بصحبة قنصلين كريمونيين كانوا ينتظرونه. فساروا معاً مسافة ميل إلى أن بلغوا موقعاً متقدّماً للعصبة. وهناك عرّف

تروتي باودولينو بقائدي جيش العصبة، أزيلينو دا رامونا وأنسيلمو دا دوفارا. ثمّ دار بينهم حديث تلته مصافحة. وبعد أن عانق تروتي (كانت قصّة موفّقة، شكراً، لا بل شكراً لكَ)، عاد باودولينو أدراجه بالسرعة الممكنة لينضمّ إلى فردريك عند طرف فرجة وسط دغل. «لقد قضي الأمر، يا أبتي. لن يهاجموا. فهم لا تتوفّر لديهم لا الرغبة في ذلك ولا البأس. سوف نعبر، وهم سيقدّمون لك آيات الطاعة بوصفك سيّدهم.

– حتّى النزاع التالي، غمغم فردريك قائلاً. غير أنّ جيشنا متعب، وكلّما أسرعنا في بلوغ بافيا كان أفضل لنا. هيّا بنا.»

كانت تلك هي الساعات الأولى من يوم الفصح المجيد. ولو التفتَ فردريك آنذاك، لتراءت له، في البعيد، أسوار الاسكندرية منوّرةً بوهج نيران عظيمة. باودولينو التفتَ ورآها. كان يعلم أنّ معظم تلك النيران مصدرها حرائق آلات الحرب والخيم الإمبراطورية، لكنّه فضّلَ، في سرّه، أن يتخيّل من خلالها أهل الإسكندرية وهم يرقصون وينشدون احتفالاً بالنصر والسلام.

ساروا ميلاً واحداً وإذا بهم أمام موقع متقدّم للعصبة. وسرعان ما تنحّت ثلّة الفرسان مشكّلةً صفّين على الجانبين عبر الإمبراطوريون بينهما. لم يكن واضحاً إذا كانوا فعلوا لغرض التحية أم أنّهم تنحّوا تحسّباً لأمر ما. بعضهم رفع سلاحه عالياً وقد يفسّر ذلك بأنّه تحية. أو لعلّه علامة عجز، أو تهديد. فتظاهر الإمبراطور، مغتاظاً، بأنّه لا يراهم.

«لا أدري، قال، أشعر بأنّي فار، وهم يؤدون لي تحية السلاح. يا باودولينو، هل أنا مصيب في ما أفعل؟

– أجل، يا أبتي. لا أنتَ تستسلم ولا هم يستسلمون. إنّهم لا يريدون مهاجمتك في أرض ريفية مكشوفة، بدافع الاحترام. ويجب أن تكون ممتناً لهذا الاحترام.

– إنّه واجبهم، قال بربروس بعناد.

– إذا كنتَ تعتقد أنّه واجب عليهم نحوك، فاغتبط لأنّهم يؤدونه لك. فممَّ شكواكَ إذاً؟

– لا أشكو من شيء، البتّة، أنتَ المحقّ كالعادة.»

قبيل الفجر لاحَ لهم، وسط السهل البعيد، عديد الجيش الخصم وعدّته. كان حشداً ممتزجاً بالضباب الخفيف، ولم يكن واضحاً، هذه المرّة أيضاً، ما إذا كان يتراجع تحسّباً وحذراً من الجيش الإمبراطوري، أو إذا كان يؤدّي له واجب الاحترام أو يضيّق الطوق من حوله بنوايا عدائية. كان رجال العصبة يتنقلون في مجموعات قليلة العدد، تصحبُ الموكب الإمبراطوري لبعض الطريق حيناً، وحيناً تختار التمركز فوق تلّة لتراقب عبوره، وحيناً آخر تبدو كأنّها تفرّ من أمامه. كان الصمتُ مطبقاً لا يعكّره سوى خبط الحوافر وخطو حملة السلاح. ومن حينٍ إلى آخر كانت تلوح، في الضياء الشاحبِ لذاك الصباح، أعمدة دخان خفيف متصاعدة في السماء، كأنّ مجموعةً ترسل علامةً إلى مجموعة أخرى، من قمّة برجٍ ما محتجبٍ خلفَ الأشجار، في أعلى الهضاب.

قرّر فردريك هذه المرّة أن يفسّر ظروف عبوره على النحو الذي يرضيه: فأمر برفع الأعلام والبيارق، وعبر كأنّه أغسطس قيصر الذي أخضع البرابرة. ولكن مهما كان من أمر ما كان، فقد عبر بوصفه أباً لكلّ تلك المدن المحاربة التي كان بإمكانها، تلك الليلة، أن تُبيدَه.

لمّا سلك طريق بافيا، استدعى باودولينو إليه. «أنتَ الخبيث الذي أعرفه جيّداً، قال له. ولكن في الحقيقة كنت أبحث عن ذريعة للخروج من ذلك المستنقع. لذا أسامحك.

– تسامحني على ماذا، يا أبي؟

– أنا أعلم. ولكن لا تحسبنّ أني أسامح تلك المدينة البلا اسم.

– لها اسم.

- لا، ليس لها اسم، لأنّي، أنا، لم أمنحها اسماً. وعاجلاً أو آجلاً، سأضطرّ إلى تدميرها.

- ليس في الوقت الحاضر. لا، ليس في الوقت الحاضر. وقبل أن أفعل، يخيّل إليّ أنّك ستتمكّن من تلفيق كذبة من أكاذيبك. كان ينبغي لي أن أدرك تلك الليلة أنني أجلب الشرّير إلى عقر داري. وللمناسبة، لقد تذكّرت أين التقيت من قبل رجل البقرة!»

بيد أنّ حماسةً ما ألّمت فجأةً بحصان باودولينو فاضطرّ إلى لجم عنانه وتخلّفَ عن الركبِ قليلاً. وهكذا لم يستطع فردريك أن يسرّ إليه بما تذكّر.

15

باودولينو في معركة لينيانو

إثر رفع الحصار، انكفأ فردريك، كأنّ عبئاً زال عن كاهله أوّلاً، في نواحي بافيا، غير أنّه لم يكن راضياً. وتبع ذلك عامٌ من الشدائد. فابن عمّه، هنري لوليون كان يسبّب له المتاعب في ألمانيا، والمدن الإيطالية لبثت مقيمةً على عصيانها والتظاهر بالولاء كلّما عزمَ على تدمير الإسكندرية. كان عديد جيشه يتضاءل والتعزيزات لا تصل وإذا وصلت اتضحَ أنّها غير كافية.

كان باودولينو يشعر، على نحو ما، بأنّه مذْنِبٌ لاختلاقه قصّة البقرة. طبعاً، هو لم يخدع الإمبراطور الذي اكتفى بمجاراته في لعبته، غير أنّهما، هما الاثنان، باتا يبديان بعض الحَرَج كلّما التقت نظراتهما، كأنّهما ولدان اقترفا هفوةً يخجلان بها. كان باودولينو يشفقُ للحَرَج شبه الطفولي الذي يبديه فردريك وقد بدأ الشيب يغزو شعره، خصوصاً لحيته التي راحت، أوّلاً، تفقد ألقَها الهيثميّ.

كان باودولينو يزداد حبّاً لذاك الأب الذي يتابع حلمه الإمبراطوري مجازفاً أكثر فأكثر بخسارة بقاعه عبرَ الألب لكي يبقي تحت سيطرته إيطاليا العاصية عليه من كلّ ناحية. وذات يوم خيِّلَ إليه أنّ رسالة الراهب جان، في الموقف الذي يعترض فردريك، كان من شأنها أن تتيح له مخرجاً من المستنقع اللومباردي من دون أن يضطرّ، في الظاهر، للتخلّي عن أي

شيء. أي كان من شأن رسالة الراهب أن تكون أشبه ببقرة غالياودو. لذا حاول أن يفاتحه بالأمر غير أنّ الإمبراطور كان معتكرَ المزاج فأجابه بأنّ الأجدر به أن يعنى بأمور أخرى أكثر جدية من تلك الترّهات التي ابتدعتها مخيّلة العمّ أوتون رحمه الله. وعلى الأثر كلّفه بمهام أخرى عبر الألب استغرق إنجازها نحو اثني عشر شهراً.

في أواخر أيار من سنة الربّ 1176، بلغ باودولينو أنّ فردريك قد أقام معسكره في كوما، فأراد الانضمام إليه. ثمّ قيل له، فيما كان في طريقه إلى كوما، إنّ الجيش الإمبراطوري يتحرّك باتجاه بافيا؛ فحرف وجهته جنوباً، سعياً للقائه في منتصف الطريق.

لاقاه عند ضفّة الأولونا، على مقربة من قلعة لينيانو حيث التقى، خطأً، الجيش الإمبراطوري جيشَ العصبة، قبل ذلك ببضع ساعات، ولم يكن في نية أحدهما خوض المعركة غير أنّ الجيشين اضطرّا إلى القتال حفظاً للكرامة.

ما إن بلغَ باودولينو مشارف ساحة القتال حتّى فوجئ بمحارب رجّال يندفعُ باتجاهه شاهراً رمحه الطويل. فهمز حصانه مندفعاً نحوه ساعياً لأن يصدمه أو يخيفه. رُوِّع المحارب ووقع أرضاً بعد أن أفلت رمحه. فترجّل باودولينو عن صهوة حصانه فيما راح الآخر يصيح بأعلى صوته بأنّه سيقتله، ونهض واستلّ حربةً من حزامه. سوى أنّه كان يصيح باللهجة اللودية، وكان باودولينو معتاداً أن يكون أهل لودي حلفاء الإمبراطور، فأبقاه بعيداً عنه بسنّ الرمح لشدّة ما بدا موتوراً، وصاح به بدوره: «ماذا تفعل، أيّها الأحمق، أنا من رجال الإمبراطور!» فأجابه الآخر: «ولهذا سأقتلك!» عندها تذكّر باودولينو أن لودي انتقلت في الأثناء لتقف في صفّ العصبة، فاحتار في أمره، وسأل نفسه: «ماذا أفعل، هل أقتله ما دام الرمح أطول من الحربة؟ لكنّي لم أقتل أحداً من قبل!»

عندئذ، دسّ باودولينو الرمح بين ساقي الرجل فأوقعه أرضاً، ثمّ صوّب سلاحه إلى عنقه. «لا تقتلني، يا سيّدي، لديّ سبعة اولاد، وإن

متّ يموتون جوعاً عند صباح الغد، صاح اللودي متوسّلاً، دعني أذهب، ما دمتُ لا أشكّل أي خطر على جماعتك؛ لقد رأيتَ بعينيك هاتين أنّني لست سوى أخرق بائس!

- لجهة كونك أخرق أنت أخرق وهذا أمر لن يخفى على أحد، ولكنّي إن أطلقتُ سراحك وبيدك سلاح فسوف تؤذي أحداً. لذا عليك أن تخلع سروالك!

- سروالي؟

- أجل، سوف أبقيك حيّاً، ولكنني بالمقابل عليك التجوال عاري المؤخّرة. وبعد ذلك سأرى إذا كنت تملك الشجاعة لاستئناف القتال أم أنّك ستهرع على الفور إلى حيث أولادك يموتون جوعاً!»

خلع العدوّ سرواله وراح يعدو عبر الحقول، قافزاً فوق السياجات، ليس استحياءً بل خشيةَ أن يصادفه فارس من الأعداء من الخلف فيحسب أنّه يُظهر له عجيزته ازدراءً فيخوزقه كما يفعل الأتراك.

فيما كان باودولينو يبدي سروره لأنّه لم يضطرّ إلى قتل أحد، إذا بفارس، في زيّ فرنسي، يندفع نحوه؛ كان واضحاً إذاً أنّه ليس لومبارديا. فعزمَ باودولينو على المجابهة بأي ثمن واستلّ سيفه. مرّ الفارس بجانبه صائحاً: «ماذا تفعل أيّها المخبول، ألا ترى أننا اليوم قد لقنّاكم درساً، أنتم معشر الإمبراطوريين، هيّا، خير لك أن تعود إلى دارك!» وتابع طريقه من دون أن يسعى للاشتباك معه.

امتطى باودولينو حصانه حائراً إلى أين يتجه، فقد اختلطت عليه الأمور في تلك المعركة؛ فحتّى يومه ذاك لم يشهد سوى حروب الحصار، وفي الحصار من اليسير أن يعرف المرء مَنْ يقف في هذه الجهة أو تلك.

التفّ حول باقة من الأشجار، فلمح، وسط السهل، شيئاً لم يسبق له أن رآه من قبل: عربة ضخمة مكشوفة، مطلية بالأحمر والأبيض، وقد نصبت في وسطها ساريةٌ عملاقة، وحول منصّةٍ تحلّق عدد من الجند

حاملين أبواقاً طويلة كأبواق الملائكة، التي ربّما كانت تستخدم لحثّ رجالهم على القتال، حتّى قالَ في سرّه مؤنّباً نفسه، على جري عادة أهل بلاده: «هيّا كفّ عن ذلك!» فلبرهةٍ حسبَ أنّه حلّ فجأةً في مملكة الراهب جان أو، على الأقلّ، في سرنديب، حيث تخاض المعارك بعربات تجرّها الأفيال، سوى أنّ العربة التي رآها كانت تجرّها الثيران وإن كان الرجال على متنها يرتدون حلل الأسياد، ومن حول العربة لا أحد يقاتل. كان حملة الأبواق ينفخون فيها بين الحين والحين ثمّ يتوقّفون عن النفخ كأنّهم حائرون فيما ينبغي أن يفعلوا. أشار أحدهم إلى اشتباكٍ بين أناس عند ضفّة النهر يندفع بعضهم باتجاه البعض الآخر مطلقين صيحات مدوية قد توقظ الموتى، فيما حاول آخر أن يحثّ الثيران على الحركة غير أنّ الثيران الحذرة بطبعها ما كانت لترمي بنفسها وسط المعمعة.

«ماذا أفعل، تساءل باودولينو في سرّه، هل أرمي بنفسي وسط هؤلاء الموتورين ولا علمَ لي، إن لم ينطقوا أمامي، أيّهما العدو؟ وإن انتظرت ريثما أتبيّن نطقهم، ألن يبادروا، في الأثناء، إلى قتلي؟»

فيما كان غارقاً في حيرته تلك، رأى فارساً آخر مندفعاً نحوه، وكان ذاك أحد أعوان البلاط ممن يعرفهم جيّداً. والآخر عرفه أيضاً، فصاح به قائلاً: «يا باودولينو، لقد فقدنا الإمبراطور!

- ماذا تعني، وحقّ المسيح، بأنّكم فقدتموه؟

- لقد رأيناه يقاتل كالأسد وسط نفرٍ من الرجّالة الذين كانوا يدفعون حصانه باتجاه أيكةٍ هناكَ عند الطرف، ثمّ اختفوا جميعاً بين الأشجار. فذهبنا إليها ولم نعثر على أحد. لا بدّ أنّه حاول الفرار إلى جهة ما، لكنّه بالتأكيد لم يعد إلى حيث عديد فرساننا الأساسي...

- وأين هو عديد فرسانكم الأساسي؟

- هنا المأساة: ليس فقط أنّه لم ينضمّ إلى عديد الفرسان، بل إنّ هذا العديد نفسه ما عاد موجوداً. لقد كانت مذبحة في تلك الصبيحة المشؤومة. في البداية شنّ فردريك وفرسانه هجوماً على الأعداء الذين

بدوا جميعاً من الرجّالة المضعضعي الصفوف حول منصّتهم. غير أنّهم صمدوا جيّداً، إلى أن ظهر فجأة خيّالة اللومبارديين ووقع خيّالتنا بين فكي كمّاشة.

- باختصار، أنتم فقدتم الإمبراطور الروماني المقدّس! ثمّ تأتي لتخبرني بذلك، كأنّ شيئاً لم يكن، بهذه الوقاحة؟

- يبدو لي من مظهرك أنّك وصلت لتوّك، وما زلت منتعشاً كوردة، لكنّك لا تعلم ما قاسيناه نحن! فهناك حتّى من قال إنّه رأى الإمبراطور يقع عن حصانه، وأنّ حصانه جرجره بعدوه على الأرض لأنّ إحدى قدميه كانت لا تزال عالقةً في مرقاة السرج!

- وماذا يفعل جماعتنا في الوقت الحاضر؟

- إنّهم يفرّون، أنظر هناك، إنّهم يتشتتون بين الأشجار ويرتمون في النهر، فقد سرت شائعة بأنّ الإمبراطور مات، فراح كلّ منهم يحاول، بما استطاع، الوصول إلى بافيا.

- يا للجبناء! أما عاد أحد يبحث عن الإمبراطور؟

- لقد هبط الليل، وحتّى الذين تابعوا القتال سيتوقفون عنه الآن، فكيف يمكن العثور على أحد ما وسط هذه المعمعة، ولا أحد يدري أين يبحث؟

- يا للجبناء»، كان باودولينو يردد قائلاً وهو لم يكن رجل حربٍ بل كان رجلاً محبّاً. همز حصانه من الجنبين وانطلقَ شاهراً سيفه إلى حيث تكدّس العدد الأكبر من الجثث منادياً بأعلى صوته أباه الحبيب بالتبنّي. كان سعياً يائساً أن يبحث عن قتيل بين أعداد من القتلى، وأن يناديه أملاً في أن يتلقّى منه إجابة. وبدا ذلك للعيان بدليل أنّ مجموعات اللومبارديين المتأخّرة الذين صادفهم كانوا يحجمون عن اعتراض طريقه لاعتقادهم بأنّه أحد قديسي الفردوس وقد جاء لنصرتهم فيبادلونه شارات التحية المرحة.

في الموقع الذي شهد أكثر المعارك دموية، راح باودولينو يقلّب الجثث التي سقطت ووجوهها سوية التراب، وفي روعه مزيج من الأمل والخشية من أن يتعرّفَ في أحدها، في ضوء ذاك الغروب الباهت، على قسمات مليكه الحبيبة. كان يجوب الأرجاء على غير هدى منتحباً فارتطم بالعربة الضخمة التي تجرّها الثيران والتي، بطيئةً، كانت تغادر ساحة المعركة. «هل رأيتم الإمبراطور؟» صاحَ وقد هدّجت الدموع صوته من دون وعي منه أو تحفّظ. فضحكَ منه الآخرون وقالوا له: «بلى، كان هناك، عند تلك الأجمة، يضاجع اختك!» ونفخ أحدهم في بوقه ساخراً فأصدر أصوات قرقعة إباحية.

كان أولاء يسخرون منه، ومع ذلك ذهب باودولينو إلى الأجمة حيث أشاروا للتثبّت من صحّة أقوالهم. وجد فيها عدداً من الجثث؛ ثلاث منها ممددة على بطونها فوق رابعة ممددة على ظهرها. رفع الثلاث التي أولته ظهرها، وتحتها رأى فردريك بلحيته الحمراء لاصطباغها هذه المرّة بالدم. أدرك على الفور أنّه ما زال حيّاً إذ كانت تصدر حشرجات خفيفة من بين شفتيه. جُرْحٌ في شفته العليا كان لا يزال ينزف؛ وآخر بليغ في جبينه يمتدّ حتّى عينه اليسرى؛ كانت يداه ما زالتا منقبضتين وفي كلّ منهما حربة كأنّه، قبل أن يفقد وعيه، ثابر على طعن هؤلاء البائسين الثلاثة الذين حاولوا الإجهاز عليه.

طوّق باودولينو بساعده رأسه ورفعه قليلاً ثمّ راح يمسح له وجهه ويناديه باسمه ففتح فردريك عينيه وسأله أين هو. تحسّس باودولينو جسمه ليعرف إذا كان مصاباً بجراح أخرى. صرخ فردريك حين لمس قدمه، فربّما كان صحيحاً، آخر الأمر، أنّ الحصان جرجره وراءه بعضَ المسافة فانخلع رسغه. وفيما كان الإمبراطور يسأل أين هو، تمكّن باودولينو من إنهاضه وهو يتابع حديثه معه. وأخيراً تعرّف فردريك على باودولينو وعانقه.

«مولاي وأبي، قال باودولينو، الآن ستمتطي حصاني ولا ينبغي أن

تبذل الكثير من الجهد. لكن ينبغي أن نغادر هذا المكان، وأن نبقى على حذرنا؛ صحيح أنّ الليل قد حلّ ولكن من حولنا ليس هناك سوى جنود العصبة، وأملنا الوحيد أن يكونوا قد اجتمعوا الآن في بلدة ما للاحتفال، لأني أرى، وأرجو ألاّ يكون في قولي هذا إساءة، أنهم انتصروا. ولكن قد يكون بعضهم ما زال في هذه النواحي بحثاً عن قتلاه. يجب أن نسلك عبر الغابات والوديان، وأن نتجنّب الطرقات السالكة لكي نصل إلى بافيا حيث انكفأ أنصارك. أنت على الحصان بإمكانك أن تنام، وسأحرص ألاّ تقع.

- ومن سيحرص على ألاّ تنام أنت في سيرك؟» سأل فردريك مبتسماً بمشقّة كبيرة. ثمّ أردف قائلاً: «أتألّم كلّما ضحكت.

- الآن أعلم أنّك على ما يرام» قال باودولينو.

تابعا سيرهما طوال الليل، مترنّحين، متعثّرين بالجذوع والأغصان الوطيئة؛ مرّة واحدة لاحت لهما في الأفق نيران، فاضطرّا لسلوك درب طويل جداً للالتفاف من حولها واجتنابها. وخلال سيرهما لم يكفّ باودولينو عن الكلام لكي يبقى صاحياً كما بقي فردريك صاحياً لكي يبقي باودولينو صاحياً.

«إنّها النهاية حقّاً، قال فردريك، فلن يكون باستطاعتي أن أتحمّل عار هذه الهزيمة.

- لم تكن سوى مناوشة، يا أبتي. ثمّ إن الجميع يعتقدون أنك ميت، سوف تظهر مجدداً مثل لعازر الذي قام من بين الأموات، وإذ ذاك ما بدا لك هزيمة سيعتبره الجميع معجزة وسيرتلون باسم الربّ.»

الحقيقة أنّ باودولينو في قوله ذاك إنّما كان يواسي عجوزاً جريحاً ومهاناً. فقد كان ذلك اليوم امتحاناً قاسياً لهيبة الإمبراطورية التي لم تبقَ من بعده لا ملكاً ولا قدساً. إلاّ إذا أمكن أن يعود فردريك إلى الساحة مجلّلا بهالة مجد جديدة. وهنا لم يستطع فردريك إلاّ أن يستذكر مجدداً تهيؤات أوتون ورسالة الراهب.

«الواقع، يا أبي، قال، أنّ ما جرى ينبغي أن يعلّمك أمراً.

- وما الذي سأتعلّمه منك، يا سيّدي العالم؟

- ليس من فمي ما ينبغي أن تتعلّمه، والعياذ بالله، بل من فم السماء. يجبّ أن تضنّ بأقوال الأسقف أوتون كما يُضَنّ بكنز. ففي هذه الإيطاليا كلّما زاد إصرارك ازددتَ غوصاً في مستنقعها، ولن تكون إمبراطوراً حيث هناك بابا؛ وسوف تكون أنت الخاسر دائماً في تعاطيك مع هذه المدن لأنّك تريد أن تلزمها بالنظام الذي هو أمر مصطنع، في حين أنها، على الضدّ من ذلك، تصبو إلى العيش في الفوضى، وهي أمر الطبيعة - أو بكلام آخر، وبحسب الفلاسفة الباريسيين، إنّها شرط الـ yle، شرط الكاوس البدائي. عليك أن تيمّم شطر الشرق، فيما وراء بيزنطة، وتفرض مياسم ملكوتك على البقاع المسيحية التي تمتدّ ما وراء ممالك الكفّار، وذلك باتحادك مع الملك المقدّس الوحيد الذي يسود هناك منذ عهد الملوك المجوس. وفقط حين أقيم حلفاً معه أو حين، هو، يمنحك خضوعه لك، سوف تتمكّن من العودة إلى روما وتعامل البابا كأنّه واحد من خدمك، وملوك فرنسا وانكلترا كأنّهم سائسي خيلك. وعندها فقط سوف يخشاك غداً من انتصر عليك اليوم.»

كان فردريك قد نسي تماماً ما هي تنبؤات أوتون، فذكّره باودولينو بها. «هذا الراهب مجدّداً؟ قال. ولكن هل هو موجود؟ وأين يحيا؟ وكيف لي أن أجرّد حملةً للبحث عنه؟ سوف أغدو فردريك الأبله، وبمثل هذا النعت سأخلّد في ذاكرة الأزمان.

- لا، لن يحدث ما تقول إذا تمّ التداول في كلّ قنصليات الممالك المسيحية، بما فيها بيزنطة، برسالة كتبها هذا الراهب ووجّهها إليك أنتَ، وحدك، وفيها يعترف بك ندّاً له ويدعوك إلى توحيد مُلكيكما.»

ثمّ راح باودولينو، وقد حفظها غيباً، يتلو عليه، تحت جنح الليل، رسالة الراهب جان، وشرح له بأنّها الذخيرة الأغلى في العالم وأنّ الراهب قد أرسلها له في صندوق.

«ولكن أين هي هذه الرسالة؟ ألديك نسخة عنها؟ ألستَ أنتَ كاتبها؟

- أنا لم أفعل سوى صوغها مجدّداً بلاتينية صحيحة، لقد جمعت عناصر مبعثرة من أمور لطالما علم بها الحكماء وأعلنوها لكن لم يصغِ إليهم أحد. غير أنّ كلّ ما يرد في هذه الرسالة بمثل صحّة الإنجيل. ولأقل، إن شئتَ، إنّ يدي لم تضف عليها سوى ذكر عنوانك، كأنّ الرسالة قد وجّهت إليك.

- وهذا الراهب هو الذي سيعطيني، ما اسمه؟، ذلك الغرادال الذي احتوى دم المسيح؟ من المؤكّد أنّها ستكون المباركة القصوى، المثالية...» تمتم فردريك قائلاً.

وعلى ذاك النحو، تقرّر في تلك الليلة، مصير باودولينو مقروناً بمصير إمبراطوره أيضاً، وإن كان أيٌّ منهما لم يدرك بعد مآل الدرب التي يسلكانها.

في غمرة انشغالهما، أحدهما كما الآخر، بحلم المملكة البعيدة، بزغ الفجرُ عليهما عند قناة صغيرة للريّ حيث وجدا حصاناً فاراً من ساحة المعركة وبات عاجزاً عن الاهتداء إلى طريق العودة. وبفضل الحصانين غدت رحلتهما إلى بافيا، وبرغم اضطرارهما إلى الالتفاف ألف مرّة، أيسر وأسرع. وخلال سيرهما التقيا بنفرٍ من رجال البلاط المنسحبين، ولمّا تعرّف هؤلاء على الإمبراطور أطلقوا صيحات بهجة. وأسعفوهما بما توفّر لديهم من المؤن التي نهبوها من القرى في طريق انكفائهم، ثمّ هرعوا لإبلاغ من سبقوهم النبأ العظيم، وبمضيّ يومين فقط وصل فردريك إلى أبواب بافيا وقد سبقه إليها النبأ المفرح، حيث احتشد وجهاء المدينة ورفاقه الذين استقبلوه بحفاوة وإن كانوا لا يصدّقون حقّاً ما يشهدون.

كانت بياتريس، هي أيضاً، هناك، مجلّلةً بثياب الحداد بعد، لأنّ ما بلغها هو أنّ زوجها قد قتل. كانت ممسكةً بيدي ولديها، فردريك الذي بلغ الثانية عشرة من عمره وإن بدا في السادسة لشدّة ما عانى، منذ

ولادته، من المرض؛ وهنري الذي، بعكس أخيه، ورث كلّ قوة أبيه، لكنّه في ذلك اليوم كان يقف باكياً مرتبكاً يسأل عمّا جرى. هرعت بياتريس لاستقبال فردريك قبل أن يقترب من الأبواب؛ وراحت تعانقه باكيةً وتقبّله بشغف. وفقط حين قال لها بأنّه مدين بحياته لباودولينو، فطنت إلى وجوده بقربها، فاحتقنَ وجهها احمراراً ثمّ شحوباً، وبكت، ثمّ مدّت يدها أخيراً لامسةً صدره عند موضع القلب مبتهلةً إلى السماء أن يجازى صنيعه خيراً، واصفةً إيّاه بأنّه الابن والصديق والأخ.

«في تلك اللحظة أدركت، يا سيّد نيسيتاس، قال باودولينو، أني بإنقاذي حياة سيدي قد وفّيت ديني. ولكن لهذا السبب بالذات لم أعد حرّاً في أن أحبّ بياتريس. وهكذا أدركت بأنني ما عدت أحبّها. كانت كجرحٍ قد التأم؛ رؤياها تثير فيّ ذكريات جميلة لكنّها لا تثير فيّ الرعشة، وشعرتُ بأني صرتُ قادراً على البقاء قربها من دون عذاب وأن أبتعد عنها من دون ألم. فلا بدّ أني بلغت الرشدَ وخبت في داخلي كلّ انفعالات الصبا. ولم أشعر بألم، بل بحزنٍ خفيف. شعرت أني حمامة لبثت تبذل هديلها دونما حساب، غير أنّ موسم الحبّ قد انقضى الآن. وما ينبغي أن افعله هو أن أرحل، أن أذهب إلى ما وراء البحار.

- شعرتَ بأنّك لم تعد حمامة، بل سنونوة.

- أو طائر الكُرْكيّ.»

16

زوسيمَس يخدع باودولينو

صبيحة يوم السبت، جاء بيفيريه وغريلو لكيّ يبلّغاهما بأنّ الهدوء قد عاد، على نحو ما، إلى القسطنطينية. ولم يكن ذلك لأنّ شهوة النهبِ لدى أولئك الحجّاج قد هدأت، بل لأنّ قادتهم أدركوا أنّ المذكورين لم يتورّعوا أيضاً عن الاستيلاء على عدد من الذخائر المقدّسة؛ فقد يجوز التساهل بشأن كأس أو حلّة دمقسية، ولكنْ لا يجوز التفريط بالذخائر. لذا أمر القاضي الأوّل، الدوج داندولو بأن تجمع كلّ المسروقات الثمينة إلى كنيسة القديسة صوفيا لكي يتمّ توزيعها بإنصاف؛ ما يعني قسمتها بين الحجّاج وبين أهلِ البندقية الذين لم يحظوا بعد بأجور نقلِ الغزاة بسفنهم. هكذا سوف يُعمدُ إلى تقويم كلّ قطعة بما تساويه من الماركات الفضّة، ويحظى الفرسان بأربعة مقادير، والرتباء الخيّالة بمقدارين، والرتباء الرجّالة بمقدار واحد. وبذلك لا يبقى شيء لعامّة الجند، وهو أمر لن يرضيهم بالطبع.

وسرت أقاويل بانّ موفدي داندولو قد استأثروا، فعلاً، بخيول البرونز الأربعة التي نهبت من الهيبودروم، وأنّهم يعدّون لنقلها إلى البندقية، فسادت حالٌ من التذمّر لدى الجميع. عندئذ أمر داندولو، رداً على الأقاويل، بتفتيش كلّ حملة السلاح من الرتب كافّة، كما أمر بتفتيش أماكن سكنهم في بيرا. فكان أن عُثِرَ على قارورة في متاع أحد فرسان

الكونت دوسان بول. زعم الفارس أنّه عقار جَفَّ مع الوقت، ولكنهم حين حرّكوا القارورة قليلاً لاحظوا، ربّما بفعل حرارة أكفّهم، أنّ ما بداخلها هو سائل أحمر، واستنتجوا أنّه لا بدّ أن يكون الدم الذي سال من جنب المسيح. راح الفارس يصيح قائلاً إنّه اشترى بماله هذه الذخيرة من أحد الرهبان، قبل أن تبدأ عمليات النهب، لكنّه شنقَ للعبرة وعلّق مِجَنُّه وشعار نسبه في عنقه.

«تبّاً، لقد بدا كرنكة مقدّدة»، قال غريلو.

كان نيسيتاس يتتبع تلك الأنباء مغتمّاً، غير أنّ باودولينو، إذ أحسَّ فجأة بالحرج كأنّه هو المذنب في ما يجري، بادر إلى مقاطعة الحديث سائلاً إذا كان الوقت قد حان أخيراً لمغادرة المدينة.

«ما زالت الفوضى تعمّ أنحاء المدينة، ويجب أن نكون حذرين. إلى أين كنتَ تودّ الذهاب، أنتَ، يا سيّد نيسيتاس؟

- إلى سلمبريا، حيث لدينا أصدقاء أوفياء يستطيعون استضافتنا.

- إنّ بلوغ سلمبريا هذه ليس بالأمر اليسير، قال بيفيريه. إنّها تقع لجهة الغرب، بجوار السور الطويل. حتّى إذا استعنّا بالبغال سيستغرق السير إليها ثلاثة أيام، وأكثر من ذلك بالتأكيد لأنّ بينكم امرأة حامل. ثمّ إنّ اجتياز المدينة بموكب من البغال قد يوهم الحجّاج بأنّكم تملكون ما يستحقّ النهب فيعترضون طريقكم.» كان ينبغي إذاً إعداد البغال للرحيل خارج المدينة، وأن يجتازوا، هم، المدينة سيراً على الأقدام. كان ينبغي اجتياز سور قسطنطين ثمّ اجتناب الساحل الذي يعجّ بالناس بالتأكيد، ثمّ الالتفاف حول كنيسة القديس موسيوس والخروج عبر سور تيوديسيوس من باب بيجه.

«صعبٌ جدّاً أن تجرى الأمور على أحسن ما يرام فلا يعترض طريقكم أحد، قال بيفيريه.

- طبعاً، بإمكانهم أن ينالوا منكم بلمح البصر، خاصة أنّ بصحبتكم

هذا العدد من النساء اللواتي سيوقدنَ شبقهم.»

كانوا يحتاجون إلى يوم بأكمله لكي يعدّوا الشابات من النساء لعبور المدينة. فخدعة المصابين بالجذام ما عادت لتنطلي على الحجّاج الذين رأوا بأعينهم بأنّ المدينة خاليةً منهم. وقرّ الرأي أن تبقّع وجوههم ببقع صغيرة يعلوها القشر فيوهمن الناظر بأنّهن مصابات بالجرب فيغضّ الطرْفَ عنهنّ. ثمّ إنّ هذا العديد من الناس ينبغي له أن يأكل طوال ثلاثة أيام، فالجراب الفارغ لا يستقيم. فكان على الجنويين أن يُعدّوا قففاً ملأوها بِخَبْزَةٍ بأكملها من السكريبيليتا، طُلَم الدقيق والحمّص، القضيمة الرقيقة، التي تقطّع إلى شرائح صغيرة وتغلّف بالورق، ويكفي فيما بعد أن يرشّ عليها بعض الفلفل لتغدو وليمةً مشهيّة قد تشبع أسداً، وأشهى بما لا يقاس من شريحة لحم العجل المضهَّب؛ ومعها كميّات من الطلمِ بالزيت أو بالقويسة أو بالجبن، وكلّها متبلّة بالبصل.

لم يكن نيسيتاس من عشّاق تلك الصنوف من المآكل البربرية، فعقد العزمَ أن يصرف النهار المتبقّي في تذوّق المآكل المترفة التي أمكنَ تيوفيل أن يعدّها في ظلّ الظروف السائدة، وفي الاستماع إلى الفصول الأخيرة من مغامرات باودولينو، لأنّه لم يشأ أن يرحل في ذروة التشويق، جاهلاً بما سوف تكون عليه الخاتمة.

«حكايتي ما زالت طويلة، قال باودولينو. وبأيّ حال، سأرافقكم. لم يعد لديّ شأن في القسطنطينية، وكلّ ركن من المدينة يثير فيّ ذكرياتٍ غير محبّبة. لقد صرتَ رقّي، يا سيّد نيسيتاس، عليه أدوّن كثيراً من الأمور حتّى تلك التي نسيتها، وكأنّ اليد تكتب من تلقائها، أو ما شابه ذلك. إني أعتقد أنّ من يسرد القصص يجب أن يكون دائماً لديه من يستمع إلى سرده، وبهذه الطريقة يتاح له، أيضاً، أن يسردها، في الأثناء على نفسه. هل تذكر الفترة التي كنت أكتب فيها رسائل للإمبراطورة من دون أن يتاح لها أن تقرأها؟ فإذا كنت ارتكبت آنذاك حماقةً أن أطلع أصدقائي على مضمونها، فلأنّها، سوى ذلك، كانت لتفقد كلّ معانيها. ولكني حين

واجهتُ، أنا والإمبراطورة، لحظة القبلة تلك، لم أشأ أن أطلع أحداً عليها؛ أبقيتها في سرّي لأعوام طويلة، مستمتعاً بها أحياناً كأنّها نبيذك الممزوج بالعسل ذاك، وأحياناً كأنّها السمّ الزعاف في الفم. ولم اشعر بالارتياح قطّ إلاّ حين أخبرتك بشأنها.

- ولِمَ استطعت أن تخبرني بشأنها؟

- لأنّه في الساعة التي أسرد عليكَ أحداث ما جرى، لم يبقَ أحد من الذين عايشوها. بقيتُ أنا، وحدي. من الآن فصاعداً، صرتَ لي كالهواء الذي أتنشّقه. سأصحبك إلى سلمبريا.»

ما إن تعافى فردريك من جراحه التي أصيب بها في لينيانو حتّى استدعى إليه باودولينو ومعه القنصل الإمبراطوري كريستيان دي بوخ. فإذا كان لا بدّ من التعاطي جدياً مع رسالة الراهب جان، فالأحرى الشروع في إعداد الخطّة من دون مماطلة. قرأ كريستيان الرقّ الذي عرضه عليه باودولينو، وكقنصل محنّك أبدى بشأنها بعض الملاحظات. فقد ارتأى أوّلاً أنّ الخطّ الذي دوّنت به لا يليق بديوان قنصلية. فهذه رسالة سيتمّ التداول بها في البلاط البابوي كما في بلاطي فرنسا وإنكلترا، وستصل إلى باسيليوس بيزنطة، لذا ينبغي أن تنجز كما تنجز كلّ الوثائق المهمّة في العالم المسيحي قاطبة. ثمّ قال إنّ إعداد الأختام سيستغرق بعض الوقت لكي تبدو حقّاً كالأختام. فإذا شئنا أن ننجز عملاً على أكمل وجه، كان علينا أن ننجزه بتؤدّة.

كيف السبيل إلى إخطار دواوين القنصليات الأخرى بمضمون الرسالة؟ فإذا أرسلت مباشرةً من الديوان الإمبراطوري فقدت الكثير من صدقيّتها. بالله عليك، هل يعقل أن تتلقّى رسالة من الراهب جان يدعوك فيها لملاقاته على أرض مجهولة، لم يسمع بها أحد من قبل، فتعمد، أنتَ، مباشرةً وعمداً، lippis et tonsoribus، إلى إعلان الأمر لكي يسبقك أحد إلى هناك؟ يجب أن تسري شائعات حول الرسالة، هذا أمر

مؤكّد، ليس فقط لتبرير أي حملة مستقبلية، بل أيضاً لإدهاش العالم المسيحي بأسره. غير أنّ هذا كلّه يجب أن يتمّ تدريجاً، كما قد يفشو سرٌّ من أخطر الأسرار.

اقترح باودولينو الاستعانة بأصدقائه. فهم الوسطاء المثاليون لهذا الغرض، بوصفهم علماء من حلقة باريس الدراسية، وليسوا من أنصار فردريك. فبإمكان عبدول أن ينقل الرسالة، خلسةً، إلى ممالك الأراضي المقدسة؛ وبورون ينقلها إلى إنكلترا، كما باستطاعة ربّي سليمان أن يوصلها إلى اليهود الذين يحيون في الإمبراطورية البيزنطية.

هكذا كرّست الشهور التالية لإنجاز تلك المهام، وألفى باودولينو نفسه على رأس ديوان للنسخ يعمل فيه كلّ رفاقه القدماء. ومن وقتٍ لآخر كان فردريك يسأل عن آخر المستجدّات. حتّى أنّه اقترح بأن يرد ذكر الغرادال، كهدية من الراهب، واضحاً وصريحاً. فراح باودولينو يفسّر له لِمَ سيكون من الأفضل أن يرد ذكر الغرادال تلميحاً، لكنّه أدرك أنّ ذلك الرمز، رمز السلطان الملكي والقدسي، قد فتن الإمبراطور.

في غمرة انهماكه بخوض النقاشات المطوّلة بشأن الرسالة، واجه فردريك هموماً مستجدّة. فقد كان عليه الرضوخ، أخيراً، لفكرة الاتفاق مع البابا ألكسندر الثالث. ونظراً لكون البقية الباقية من العالم، لا تأخذ بأيّ حال، على محمل الجدّ أيّاً من الأحبار المزيفين المؤيدين للإمبراطور، ألفى الإمبراطور نفسه مرغماً على تبجيله والاعتراف بأنّه الحبر الروماني الوحيد، الشرعي - ومثل هذا يعتبر الكثير - لكن على البابا، بالمقابل، أن يتراجع عن أيّ دعم للمدن اللومباردية - وهذا أكثر من كثير. ولكن ما الداعي لاستفزاز البابا بتجديد الدعوة إلى اتحاد بين الملكِ والقداسة، في الوقت الذي تحاك فيه تلك الدسائس الحرجة؟ أو على الأقلّ هذا ما كان يردّده فردريك ومعه كريستيان؛ فيما باودولينو يعجز عن الاعتراض كاظماً غيظه حيال تلك المماطلة.

ما جرى هو أنّ فردريك أرغمه على تعليق خططه وأوفده لانجاز

مهمّات دقيقة في شهر نيسان من العام 1177، في البندقية. وكانت مهمّته أن يعمل بدراية على تنظيم المراحل المختلفة للقاء الذي سيتمّ في شهر تموز بين البابا والإمبراطور. إذ ينبغي أن يكون احتفال المصالحة منظّماً في أدقّ تفاصيله لا يعكّره أي حادث طارئ.

«كان كريستيان، على نحو خاص، متوجّساً من احتمال أن يلجأ قيصركم إلى إثارة بعض القلائل لإحباط اللقاء. أنتَ تعلم، بلا ريب، أنّ مانويل كومنينس كان يتآمر مع البابا لسنوات طويلة، وأيّ اتفاق بين فردريك وألكسندر من شأنه أن يعرقل خططه.

- لا بل يذروها أدراجَ الرياح. فمنذ عشر سنوات اقترح مانويل على البابا إعادة توحيد الكنيستين: هو يعترف بالمرجعية الدينية للبابا والبابا يعترف بباسيليوس بيزنطة إمبراطوراً رومانياً شرعياً وحيداً على الشرق كما على الغرب. ولكنّ اتفاقاً مثل ذاك ما كان ليمنح ألكسندر إلاّ فتات سلطان على القسطنطينية، كما لا يعينه على التخلّص من فردريك في إيطاليا، لا بل ربّما حرّض عليه ملوك أوروبا الآخرين. فما كان منه إلاّ أن اختار التحالف الذي يخدم مصالحه على نحو أفضل.

- ومع ذلك فإنّ قيصرك بعث بجواسيسه إلى البندقية. كانوا متنكّرين في زيّ رهبان. . .

- الأرجح أنّهم كانوا رهباناً. ففي إمبراطوريتنا يعمل رجال الكنيسة لصالح القيصر لا ضدّه. ولكن ما علمته آنذاك - وتذكّر أني في ذلك الوقت لم أكن قد صرتُ من خواصّ البلاط - أنّه لم يأمر بإثارة قلائل من أي نوع. لقد رضخ مانويل لما لا بدّ منه. وربّما أراد فقط أن يبلّغ بما يجري ليس إلاّ.

- يا سيّد نيسيتاس، لا أقصد التطاول على مقامك، وأنتَ حافظ الأسرار العالِم بما لا يحصى من خفايا الأمور والدسائس، إذ أقول لك إنّه حين يلتقي جواسيس الطرفين المتنازعين على أرض الخصومة المشتركة،

فإنّ الأمر التلقائي الذي يحدث هو انّهم يقيمون، فيما بينهم، علاقات صداقة ومودّة، وكلّ واحد منهم يسرّ للآخر بأسراره الخاصّة. فهكذا لا يضطرّ أحدهم إلى استدراج الآخر لانتزاع المعلومة منه، ويبقون جميعاً عند حسن ظنّ الذين أوفدوهم. وهذا ما جرى بالضبط بيننا وبين أولئك الرهبان: فقد تصارحنا منذ البداية بحقيقة الدوافع التي حملتنا إلى حيث اجتمعنا، نحن لكي نتجسس عليهم، وهم لكي يتجسسوا علينا؛ وبعد ذلك قضينا سوياً أوقاتاً ممتعة.

- مثل هذه الأمور قد يتوقّعها أي حاكم محنّك، ولكنْ ألديه خيار آخر؟ فلو عمد مباشرةً إلى سؤال الجواسيس الغرباء، وهو لا يعرف من هم، بأيّ حال، لما قالوا شيئاً. لذلك يبعث بجواسيسه هو، ويحمّلهم أسراراً قليلة الشأن ويوصيهم بأن يفشوها، وهكذا يعلم بما ينبغي أن يعلمه، وهو، في العادة، ما يعلمه الجميع إلاّ هو، قال نيسيتاس.

- من بين أولئك الرهبان كان ثمة راهب يدعى زوسيمَس الخلقيدوني. لفتني وجهه الضامر، وعيناه كياقوتتين حمراوين تدوران بلا هوادة في محجريهما مظلّلتين لحيته الكثّة السوداء وشعره الطويل. كان حين يتكلّم كأنّه يحاور مصلوباً نازفَ الكفّين على بعد شبرين من وجهه.

- أعرف هذه الجبلّة من الرهبان، فأديرتنا تعجّ بأمثالهم. إنّهم يموتون في سنّ مبكرة جرّاء الهزال...

- لا، ليس هو. لم أرَ قطّ أكولاً يضاهيه. ذات مساء اصطحبته للقاء عاهرتين من عاهرات البندقية، وهنّ، كما تعلم من دون ريب، ربّات هذه المهنة القديمة قدمَ العالم. عند الثالثة فجراً شعرت بأني ثمل فغادرت، أمّا هو فلبث هناك؛ بعد ذلك قالت لي إحدى الفتاتين إنّها لم تضطرّ يوماً إلى كبح جماح شيطان على شاكلة هذا الرجل.

- أعرف هذه الجبلّة من البشر، فأديرتنا تعجّ بأمثالهم. وهم يموتون في سنّ مبكرة جرّاء الهزال...»

إذا كان باودولينو وزوسيمَس لم يغدوا حقّاً صديقين، فهما، على

الأقلّ، صارا رفيقي قَصَفٍ ولهو. فقد نشأت صحبتهما، أوّل ما نشأت، إثر ليلةٍ أفرطا فيها في شرب الخمر، فعندها نطقَ زوسيمَس بتجديف مرعب إذ قال إنّه تلك الليلة كان ليعطي ضحايا مذبحة الأبرياء أجمعين، لقاءَ فتاة غير متزمّتة. وعند سؤاله عمّا إذا كان هذا ما يُلَقّنوه في أديرة بيزنطة، أجاب زوسيمَس قائلاً: «بحسب تعاليم القديس باسيل، إثنان من الأبالسة يستطيعان تعكير الفكر، إبليس الفسوق وإبليس التجديف. غير أنّ الثاني ذو تأثير قصير الأمد، والأوّل إنْ لم يشوّش الأفكار بالأهواء، لا يحول دون الاستغراق في الله.» فذهبا على الفور لأداء فروض الطاعة، من دون هوىً، لإبليس الفسوق، ولاحظ باودولينو أنّ في جعبة زوسيمَس لكلّ شأن من شؤون الحياة، مقولةٌ للاهوتيّ ما أو ناسك ما تعينه على الشعور بأنّ النعمة لم تفارق نفسه.

في مناسبة أخرى، كانا لا يزالان يحتسيان الشراب حين شرع زوسيمَس في تعداد محاسن القسطنطينية. وشعر باودولينو بالخجل لأنّه كان يعجز، بالمقابل، عن وصف شوارع باريس المكسوة بالبراز الذي يرميه الناس من نوافذهم، أو وصف مياه التانارو الآسنة التي لا تقارن، بأيّ حال، بمياه بروبونتس (مرمره) المذهّبة. كما كان لا يستطيع أن يصف له عجائب مدينة ميلانو لأنّ فردريك قد دمّرها جميعاً. ولم يدرِ كيف يسكته، فأطلعه على رسالة الراهب جان، كأنّه بذلك يريد أن يقول له إنّ هناك، على الأقلّ، في مكان ما من هذا العالم، مملكةً ليست مملكته، هو، ليست روما بإزائها سوى دغلٍ من الخَلَنج.

ما إن قرأ زوسيمَس السطر الأوّل منها حتّى بادر إلى السؤال: «الراهب يوهانس؟ ومن يكون هذا؟

- ألا تدري؟

- طوبى لمن بلغَ هذا الجهل الذي لا جهل بعده.

- بإمكانك أن تبلغَ ما هو أجهل منه. هيا، اقرأ، اقرأ.»

راح يقرأ بعينيه اللتين كانتا تزدادان انتباهاً كلّما تقدّم في القراءة، ثمّ

وضع الرقّ وقال بتجرّد: «بلى، الراهب جان، طبعاً، طبعاً، لقد سبق لي أن قرأت في الدير الذي أقيم فيه عدداً من كتب الأخبار وضعها رحّالة زاروا مملكته.

- لكنك قبل أن تقرأ الرسالة لم تكن تعرف من يكون هذا الراهب حقاً.

- إنّ طيور الكركيّ تخطّ حروفاً أثناء تحليقها وهي لا تجيد الكتابة. هذه الرسالة تتحدث عن راهب يدعى جان وهي تكذب، لكنّها تتحدّث عن مملكة موجودة وهي، بحسب كتب الأخبار التي قرأتها، مملكة سيّد بلاد الهند.»

كان باودولينو ليقسم بأنّ هذا اللصّ يحاول الخداع لكنّ زوسيمَس لم يترك له مجالاً للشكّ.

«الربّ يطالب من تلقّى سرّ العماد بثلاثة أمور: أن يكون مستقيم التقوى في نفسه؛ أن يكون صادق اللسان ؛ وأن يكون عفيف البدن. ولا يعقل أن يكون سيّد بلاد الهند هو كاتب رسالتك هذه لأنّها تحتوي على قدرٍ من المغالطات. مثلاً، يرد في سياقها ذكرٌ لكثير من الكائنات العجيبة، لكنّها أبداً لا تأتي على ذكر... دعني أفكّر قليلاً... الميتاغاليناري والتنسيراتي والكاميتيتيرني.

- وما هي هذه الكائنات؟

- ما هي؟! إنّ أوّل ما يصادف الواصلين إلى جوار الراهب جان هي التنسيراتي وإن لم يكن مستعداً للقائها... هممم... تبتلعه بلقمة واحدة. مهلاً ومهلاً ومهلاً، لا تحسب أنّ بإمكانك الذهاب إلى تلك النواحي كما قد تذهب إلى أورشليم حيث تعثر، على أبعد تقدير، على بضعة جمال وتمساح وفيلين، وكفى. ثمّ إنّ الرسالة تدعو إلى الارتياب لأنّه من المستهجن جداً أن توجّه إلى إمبراطورك بدل أن توجّه إلى قيصرنا، نظراً لكون مملكة هذا الجان أقرب إلى الإمبراطورية البيزنطية منها إلى إمبراطورية اللاتينيين.

- تتكلّم بثقة كأنّك تعلم أين تقع هذه المملكة.

- لا أدري بالضبط أين تقع، ولكنّي أعلم كيف الوصول إليها، فمن يعرف المقصد يعرف طريقه.

- إذاً، لِمَ لم يذهب إليها أحد منكم، أنتم يا معشر الرومانيين؟

- ومن قال إنّ أحداً لم يحاول الوصول إليها؟ فقد أقول لك، أنا، إنّه إذا كان الباسيليوس مانويل قد توغّل في أرض سلطان قونية فلكي يمهّد الطريق أمامه لبلوغ مملكة سيّد بلاد الهند.

- قد تقول ذلك، ولكنك لا تقول.

- ذلك أنّ جيشنا المظفّر قد هزم، منذ عامين، على تلك الأرض بالذات، في موقعة ميريوكفالون. ولذا سوف يستغرق قيصرنا بعض الوقت لكي يجرّد حملة جديدة. غير أني لو توفّر لي الكثير من المال ومجموعة من الرجال المدجّجين بالسلاح، والقادرين على جبهِ الصعاب الألف، فلن أتردد لحظة واحدة، وأنا أعرف الوجهة التي ينبغي أن أسلكها، في الذهاب إليها. ففي الطريق إليها بإمكانك أن تستدلّ قليلاً، أن تستعين بمن تصادفه من الأهلين لكي تستدلّ. . . وإن سلكتَ الاتجاه الصحيح فلسوف تصادف علامات كثيرة، منها الأشجار التي تبرعم فقط في تلك الأرض، أو الحيوانات التي لا تعيش إلاّ هناك، كالميتاغاليناري وسواها.

- فلتحيَ الميتاغاليناري!» صاح باودولينو رافعاً كأسه. فدعاه زوسيمَس لأن يشربا نخب مملكة الراهب جان. ثمّ، اقترح لاستفزازه، أن يشربا نخب مانويل؛ فأجابه باودولينو بأنّه موافق شريطة أن يشرب هو نخب فردريك. بعد ذلك شربا نخب البابا، ونخب البندقية، ونخب العاهرتين اللتين قضيا أمسية بصحبتهما منذ بضع ليالٍ، وفي آخر الأمر تهالك باودولينو، أوّلاً، متوسّداً الطاولة، فيما واصل زوسيمَس حديثه بما يشبه الغمغمة قائلاً: «إنّ حياة الراهب قوامها التالي: عدم اتباع الفضول؛ عدم اتباع الجور؛ عدم الامساك. . .»

في صبيحة اليوم، قال باودولينو ولسانه ما زال مبنّجاً: «يا زوسيمَس، أنتَ نذل بحقّ. ليست لديك أيّ فكرة عن مكان سيّد الهند هذا الذي تتحدّث عنه. كلّ مرادك هو أن تسير على غير هدى وعندما يقول لك أحد ما إنّه رأى في هذا الاتجاه أو ذاك ميتاغاليناريا سوف تسارع إلى سلوك الوجهة المشار إليها، فلا تلبث أن تصل إلى قصر مشيّد من أحجار كريمة، فما إن تلتقي شخصاً هناك حتّى تبادره بقولك عِمْ صباحاً أيّها الراهب جان، كيف حالك؟ مثل هذه الترهات قد تسردها على مسامع قيصرك وليس على مسامعي أنا.

– لكنّي، على الأقلّ، سأستعين بخارطة دقيقة»، قال زوسيمَس وقد بدأ يفتح عينيه.

فحاججه باودولينو بقوله إنّه حتّى لو امتلك خارطة فإنّ الأمور ستبقى غائمة ويصعب البتّ بصحتها، فالجميع يعلم أنّ الخرائط غير دقيقة، وخاصة في تلك الأماكن التي يمكن القول فيها، دونما حرج، إنّ القدم الوحيدة التي وطأتها هي قدم الإسكندر الكبير ولا أحد سواه. وحاول ما أمكنه أن يرسم الخارطة التي خطّها عبدول.

جعل زوسيمَس يضحك. ذلك أنّه إذا كان باودولينو يتّبع أكثر الأفكار هرطقةً وشذوذاً، أي تلك التي تقرّر بأنّ الأرض كروية، فهو لن يتمكّن حتّى من الشروع في رحلته.

«فإمّا أن تكون مؤمناً بالكتاب المقدّس وإمّا أن تكون وثنياً ما زال مؤمناً بما كان سائداً قبل زمن الإسكندر – والذي، بأي حال، لم يترك لنا أي خارطة. الكتاب يقول إنّه ليست الأرض وحدها، بل الكون بأسره، قد جعل على هيئة خيمة، أي أنّ موسى قد بنى خيمته على شاكلة الكون، على شاكلة الأرض عند القبّة السماوية.

– لكنّ الفلاسفة القدماء...

– الفلاسفة القدماء، الذين لم يعرفوا كلام الربّ، اختلقوا النقائض،

فيما ورد في «أعمال الرسل» أنّ الله استلّ من بشري واحد بشريتنا لكي تسكن وجه الأرض قاطبةً، وجه الأرض وليس أي جزء غير موجود منها. إنجيل لوقا يقول إنّ الربّ يسوع قد وهبَ تلاميذه أن **يدوسوا** الحيّات **والعقارب** سائرين، والسير يعني السير على وليس تحت شيء ما. ثمّ إنّه إذا كانت الأرض كروية سابحة في الفراغ، فلن يكون لها لا أعلى ولا أسفل، وبذلك لا تكون هناك وجهة للسير ولا سير في أي اتجاه. من حسبَ أن السماء كرة؟ الخطأة الكلدانيون من أعلى برج بابل، حالما تمكّنوا من تشييده عالياً، إذ خدعهم إحساسهم بالرعب الذي أثارته في روعهم السماء التي ظلّلته! أيّ فيثاغورس أو أي أرسطو استطاع التنبؤ بقيامة الموتى؟ وهل لجهلة مثل هؤلاء أن يدركوا إذا هيئة الأرض؟ هذه الأرض ذات الشكل الكروي كان من شأنها أن تعين على ترقّب شروق الشمس و غروبها، أو اليوم الذي يحلّ فيه الفصح، في حين أنّ أناساً بسطاء جدا، لم يدرسوا لا الفلسفة ولا علم الفلك، ويعلمون بدقّة متى تشرق الشمس ومتى تغيب، باختلاف الفصول، ويحسبون، في بلدان متباعدة ومختلفة، متى يحل الفصح، بالطريقة نفسها، ولا يخطئون؟ هل ينبغي أن نعرف هندسة أخرى غير تلك التي يعرفها النجّار، وعلم فلك آخر غير ذاك الذي يعرفه المزارع حين يبذر أرضه وحين يحصد غلاله؟ ثمّ عن أي فلاسفة قدماء تحدّثني؟ هل تعرفون أنتم، اللاتينيون، كسينوفون الكولوفوني الذي برغم قوله إنّ الأرض لامتناهية، قد أنكر بشدّة أن تكون كروية؟ يستطيع الجاهل القول إنّه إذا اعتبر الكون كخيمة سوف يستحيل علينا تفسير الكسوف أو الخسوف، واعتدالي الربيع والخريف. والحال أنّ في إمبراطوريتنا نحن الرومانيين، عاش منذ قرون حكيمٌ عظيم، هو كوسمَس إنديكوبلوتيس، كان قد سافر إلى أقاصي الأرض، وبرهن، على نحو قاطع، في كتابه «طوبوغرافيا المسيحية» بأنّ الأرض هي حقاً على هيئة خيمة، وأنّ هذا بالذات ما يجعلنا قادرين على تفسير أكثر الظاهرات غموضاً. فهل تريد ألاّ يتبع الأكثر مسيحية من بين الملوك، أقصد جان،

الأكثر مسيحية من بين الطوبوغرافيات، أي تلك التي لم يذكرها كوسمَس وحده بل الكتاب المقدّس أيضاً؟

- وأنا أقول لك إنّ الراهب جان الذي أتحدّث عنه لا يعلم شيئاً من طوبوغرافيا كوسمَس الذي تتحدّث أنت عنه.

- أنت، قلتَ لي، بلسانك، إنّ الراهب نسطوري. والحال أن النساطرة قد خاضوا نقاشاً محتدماً مع هراطقة آخرين هم دعاة مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح. وكان دعاة المذهب يقولون بأنّ الأرض كروية في حين أنّ النساطرة كانوا يقولون إنّها على هيئة خيمة. والمعروف أنّ كوسمَس كان نسطورياً، هو أيضاً، أو كان، بأية حال، من مريدي نسطور، تيودورس المبسويسي، وكرّس حياته للنضال ضدّ بدعة الطبيعة الواحدة التي نادى بها جان فيلوبونس الإسكندري الذي تتلمذ على تعاليم الفلاسفة الوثنيين أمثال أرسطو. كوسمَس كان نسطورياً، وكذلك الراهب جان، ولا يعقل لأحدهما إلاّ أن يؤمنا بشدّة بأنّ الأرض على هيئة خيمة.

- مهلاً. ليس لي إلاّ أن أسلّم جدلاً بأنّ كوسمَس والراهب هما نسطوريان. ولكن نظراً لكون النساطرة، على ما أعلم، مخطئين بشأن يسوع وأمّه، فلِمَ لا يكونون مخطئين في ما يتعلّق بشكل الكون. أليس بلى؟

- هنا تكمن حجّتي المُفحِمة! سوف أبرهن لكَ أنّه إذا شئت أن تعثر على الراهب جان فالأحرى، بأيّ حال، أن تتبنّى وجهة نظر كوسمَس وليس مزاعم الطوبوغرافيين الوثنيين. لنفترض أوّلاً أنّ كوسمَس قد دوّن أموراً خاطئة. حتّى في هذه الحال يبقى أنّ كلّ هذه الأمور قد رسخت في تفكير وفي أذهان شعوب الشرق التي زارها كوسمَس، وإلاّ لما كان نقلها عنها، في تلك البقاع التي وراءها تقع مملكة الراهب جان، وأهل هذه المملكة يؤمنون حتماً بأنّ الكون في هيئة خيمة، وهم يقيسون المسافات والتخوم ومجاري الأنهار واتساع البحار والسواحل والخلجان، ناهيك عن الجبال، وفق رسم الخيمة المذهل.

– مرّة أخرى لا أرى في كلامك حجّة مقنعة، قال باودولينو. فحقيقة اعتقادهم بأنّهم يحيون في خيمة لا يعني، بأي حال، أنّهم حقّا يحيون فيها.

– دعني اكمل كلامي. إن سألتني ما السبيل للوصول إلى خلقيدونيا، مسقط رأسي، لفسّرت لك بسهولة أي وجهة تسلك. وقد يكون حسابي الأيّام، في معرض ذلك، مختلفاً عن حسابك، أو قد أسمّي، أنا، يمنةً ما تسمّيه، أنتَ، يسرةً – ويقال، للمناسبة، إنّ المسلمين يرسمون خرائط حيث الجنوب في الأعلى والشمال في الأسفل، وتالياً فإنّ الشمس تشرق من ميسرة الأراضي التي تمثّلها. ولكن إنْ أنتَ قبلتَ طريقتي، أنا، في تصوّر مسار الشمس وشكل الأرض، واتبعتَ تعليماتي أمكنك الوصول، بالتأكيد، إلى حيثما أردتُ أن أوصلك، في حين أنّك لن تفقه من تعليماتي شيئاً إذا لجأتَ إلى خرائطك أنتَ. وعليه، خلص زوسيمَس إلى القول متفاخراً، إذا أردتَ أن تصل إلى أرض الراهب جان، كان عليك أن تستخدم خارطة العالم التي قد يستخدمها الراهب جان بنفسه، وليس خارطتك أنتَ: حتّى إذا كانت خارطتك أدقّ من خارطته.»

اقتنع باودولينو بنفاذ الحجّة وطلب من زوسيمَس أن يشرحَ له كيف يتصوّر كوسيمَس، وتالياً، الراهب جان، هذا الكون. «لا، قال زوسيمَس، أنا أعلم أين أجد الخارطة، ولكن ما الذي يدعوك إلى الظنّ بأني قد أعطيكما إياها، أنت وإمبراطورك؟

– إلاّ إذا وهبكَ ما يكفي من الذهب لكي تباشر رحلتك أنتَ ومجموعتك المسلّحة.

– بالضبط.»

بعد ذلك حرص زوسيمَس على اجتناب أي ذكر لخارطة كوسيمَس، باستثناء بعض التلميحات الغائمة التي كانت تصدر عنه في ذروة سكره، راسماً بإصبعه خطوطاً غامضة في الهواء قبل أن يحجم بغتةً لاعتقاده بأنّه قد أفشى اكثر مما ينبغي. راح باودولينو يسكب له المزيد من النبيذ ويطرح

عليه أسئلةً غير مترابطة في الظاهر. «ولكن حين نصل إلى الهند ويحبط الإنهاك خيولنا، فعندها سيتوجّب علينا ركوب الأفيال؟

- ربّما، كان زوسيمَس يقول، لأنّ في الهند تحيا كلّ الحيوانات التي ورد ذكرها في رسالتك، وسواها أيضاً، إلاّ الخيول. ومع ذلك قد تجد فيها خيولاً لأنّهم يستقدمونها من تزينيسترا.

- وأي بلاد تكون هذه؟

- بلاد يقصدها المسافرون من أجل دود القزّ.

- دود القزّ؟ ماذا يعني هذا؟

- هذا يعني أنّ في تزينيسترا هناك بويضات توضع في حِجْر النساء فتحييها الحرارة وتولد منها ديدان صغيرة. فتوضع هذه على أوراق شجر التوت لتغتذي منها. وعندما تكبر تنسج من حولها الحرير الذي يغلّفها ككفن. ومن ثمّ تتحول إلى فراشات متعددة الألوان فتثقب الشرنقة. وقبل أن تطير تنكح الذكور منها الإناثَ من الخلف: وتحيا الإناث والذكور بلا غذاء، في دفء عناقهما حتّى الموت، أمّا الأنثى فتموت وهي تحضن بيضها.»

«إنّ رجلاً يزعم أمامك بأنّ الحرير يستخرج من الدود ليس، بالتأكيد، أهلاً للثقة، قال باودولينو لنيسيتاس. كان يتجسّس لحساب الباسيليوس ولا يمانع في أن يموّل فردريك سعيه للعثور على سيّد بلاد الهند؛ وعندما ينال مراده يختفي عن الأنظار. ومع ذلك فقد كانت تلميحاته بشأن خارطة كوسيمَس تستثير فضولي. بدت لي تلك الخارطة أشبه بنجمة بيت لحم، سوى أنّها تسير في الوجهة المعاكسة. كان من شأنها أن تعينني على سلوك الطريق التي سلكها الملوك المجوس ولكن في الاتجاه المعاكس. وهكذا، ظنّاً مني بأنّي أوسع حيلةً منه، رحت ألحّ عليه بما يخرجه عن طوره ويجعله أكثر فظاظةً وثرثرة.

- ولكن؟

- ولكن على الضدّ مما حسبتُ، كان أوسع حيلةً مني. ففي اليوم التالي رحت أبحث عنه فلم اجده، وقال لي بعض أصحابه إنّه عاد إلى القسطنطينية. وترك لي رسالة وداع قال فيها: «كما الأسماك تنفق إن غادرت الماء، كذلك الرهبان خارج محابسهم يفسدون حميّا الاتحاد بالله. خلال الأيام المنصرمة يبست نفسي في خضمّ الخطيئة، فدعني أستعيد طراوة الينبوع.»

- ربّما كان صادقاً في قوله هذا.

- البتّة. فقد اهتدى إلى وسيلة تعينه على ابتزاز المال من قيصره. على حسابي.»

17

باودولينو يكتشف أنّ الراهب جان يراسل عدداً كبيراً من الناس

في شهر تموز التالي وصل فردريك إلى البندقية، وقد رافقه بحراً، من رافينيا إلى تشيوجا، إبن الدوج، ثمّ انتقل، يوم الأحد 24، إلى كنيسة سان نيكولاس أو ليدو، في ساحة سان مارك، حيث سجد عند قدمي ألكسندر. فهرع هذا الأخير إلى إنهاضه وعانقه بترحابٍ مبالغ فيه، فيما الحضور من حولهما ينشد «المجد لله». كان اللقاء انتصاراً ولكنْ لم يتضح، بالضبط، لصالح مَنْ منهما. ومع ذلك، كان خاتمةً لحربٍ دامت ثمانية عشر عاماً، ففي اليوم نفسه سيوقّع الإمبراطور على هدنة سلاح مدّتها ستّ سنوات مع المدن اللومباردية. وكان فردريك مغتبطاً بحيث إنّه عزم على البقاء في البندقية شهراً إضافياً.

ذات صباحٍ من شهر آب، استدعى كريستيان دي بوخ باودولينو وصحبه وطلبَ منهم أن يتبعوه للمثول أمام الإمبراطور، وحالما مثلوا جميعاً أمام فردريك، قدّم له، بحركة من يده مشحونة بالمعاني، رقّاً مكسوّاً بالأختام: «هاكم رسالة الراهب جان، قال، كما وصلتني، عبر قنوات سرّية، من بلاط بيزنطة.

- الرسالة؟ صاح فردريك قائلاً. لكننا لم نرسلها بعد!

- بالضبط، ولذلك هذه ليست رسالتنا، بل رسالة أخرى. وهي

ليست موجهة لك بل للباسيليوس مانويل. وسوى ذلك فإنّ محتواها مطابق لمحتوى رسالتنا.

- هذا الراهب جان، إذاً، يعرض عليّ أولاً التحالف ثمّ يعرضه على الرومانيين؟» قال فردريك حانقاً.

لبث باودولينو مذهولاً لأنّه واثق من أن رسالة الراهب جان لا يوجد منها سوى واحدة وهو كاتبها. إذ يجوز أن يكتب الراهب، إذا كان موجوداً بالفعل، رسالةً أخرى، لكنّه بالتأكيد لم يكتب هذه. فطلب أن يؤذن له بتفحّص الوثيقة، وبعد أن قرأ محتواها على عجل، قال: «ليست مطابقة تماماً، هناك بعض الفروق. أودّ، بعد إذنك يا أبي، أن أتفحصّها عن كثب.»

فاختلى، مع أصحابه، ومعاً قرأوا الرسالة مراراً وتكراراً. كانت ملاحظتهم الأولى أنّها، هي أيضاً، مدوّنة باللاتينية. أمر مستهجن، قال ربّي سليمان، ما دام الراهب جان يتوجّه بها إلى الباسيليوس اليوناني. فقد ورد في مطلعها:

من الراهب يوهانس بفضيلة وسلطان الربّ وسيّدنا يسوع المسيح ربّ أهل السلطان قاطبةً، إلى مانويل، حاكم الرومانيين، أمنياته بالعافية والرغد المقيم بالبركات الإلهية.

«الشبهة الثانية، قال باودولينو، في أنّها تنعت مانويل بحاكم الرومانيين وليس بالباسيليوس. فهي إذاً لم تكتب بيد يوناني من الحاشية الإمبراطورية. لقد كتبها شخص لا يعترف بحقّ مانويل بالملك.

- إذاً، خلص الشاعر إلى القول، كتبت بيد الراهب فعلاً، الذي يعتبر نفسه ملك الملوك.

- لنتابع، قال باودولينو، وسأبيّن لكم المفردات والعبارات التي لا ترد في رسالتنا.

لقد نمي إلى جلالتنا أنّك تقيم عظيم اعتبار لسيادتنا وأنّ خبراً عن كبير قدرنا قد بلغك غير أننا علمنا عن لسان رسلنا أنّكَ أردتَ أن تبعث إلى سماحتنا بما يبهج ويروّح عن النفس. ***بصفتنا البشرية*،** **نقبل منك هذا بغبطة وسرور، وبوساطة أحد رسلنا، نبعث إليكَ بعلامة من قبلنا، ورغبةً منا في التيقن من حسن اتباعك سبل الإيمان القويم ومن إيمانك الذي لا يدحض بربنا يسوع المسيح.** وفي حين أنّي أعلم جيّداً أنني إنسان يحسبُ رعاياك من دهماء اليونانيين أنّك إله، وإن كنّا نعلم جيّداً أنّك فانٍ وعرضة للفساد البشري. **ومن واسع سخائنا إذا منّيتَ النفس بما فيه نفعك فاعلمنا سواءً بشارة من رسولنا أو بخبر من مودّتك.**

هنا تبدو الشبهات عديدة، قال ربّي سليمان، فمن جهة يخاطب الباسيليوس وأتباعه من أشباه اليونانيين بازدراء وعجرفة، أي بما يشبه الشتيمة، ومن جهة أخرى يستخدم مفردات، كالرسول apocrisarium، التي تبدو لي يونانية.

- وهي تعني الساعي أو الرسول، قال باودولينو. ولكن لاحظوا جيّداً: حيث قلنا إنّ على مائدة الراهب قد جلس أرشمندريت سمرقند ورئيس أساقفة سوس، ذُكر في هذه الرسالة أنّه كان هناك protapaten Sarmagantinum و archiprotopaten de Susis. كما أنّ من بين عجائب المملكة يرد ذكر عشبة تدعى assidos، ومن فضائلها طرد الأرواح الشريرة. وهذه مجدداً ثلاث عبارات يونانية.

- ما يعني، قال الشاعر، أنّ يونانياً قد كتب الرقّ الذي، برغم ذلك، يسيء إلى اليونانيين. إني لا أفهم شيئاً.»

في الأثناء، كان عبدول قد أمسك بالرقّ: «هناك أمر آخر: حيث ذكرنا قطاف الفلفل، أضيفت تفاصيل أخرى. وهنا يرد أيضاً أنّ في مملكة جان عدداً قليلاً من الخيول. وهنا أيضاً، حيث لم نذكر، نحن، سوى

السمندل، يُذكَرُ أنّ هناك نوعاً من الديدان تغلّف نفسها بما يشبه الشرنقة كما تفعل الديدان التي تنتج الحرير، ثمّ تعمد نساء البلاط إلى غسل تلك الشرنقة لتنسج منها ثياباً وملاءات ملكية لا تغسل إلاّ بنار مستعرة.

– ماذا، ماذا؟ سأل باودولينو متوجّساً.

– وأخيراً، تابع عبدول قائلاً، في أنواع المخلوقات التي تحيا في المملكة، إلى جانب البشر ذوي القرون، والضواري والساتير والأقزام وكلبيّات الرؤوس، يرد ذكر الميتاغاليناري والكاميتيتيرني والتينسيراتي، وهي كائنات لم نأت نحن على ذكرها.

– وحقّ العذراء مريم! صاح باودولينو عَجَباً. إنّ حكاية الدود هذه قد رواها زوسيمَس! وزوسيمَس هو الذي قال نقلاً عن كوسمَس إنديكلوبلوتيس، ان لا خيول في الهند! وزوسيمَس هو الذي عدّد لي الميتاغاليناري والبهائم الأخرى! إبن الزانية، وعاء الخراء، الكاذب اللصّ الخبيث المزوّر النحّال الخائن الزاني الشره الجبان الفاسق الطمّاع الهرطوقي الداعر القاتل النهّاب المجدّف اللوطي المرابي السمعانيّ العرّاف باذر الشقاق النصّاب!

– رويدكَ، ما الذي نابكَ منه؟

– ألم تفهموا بعد؟ في الليلة التي أطلعته فيها على الرسالة، أسكرني ونسخها! ثمّ عاد إلى قيصره الخرائي وحذّره من أنّ فردريك على وشك إعلان نفسه صديقاً ووريثاً للراهب جان، وحرّروا رسالة أخرى موجّهة إلى مانويل، وعملوا على تداولها قبل رسالتنا! ولهذا السبب جعلت زاخرة بتعابير العجرفة حيال الباسيليوس، لكي لا يساوره الشكّ في أنّها من صنيع أحد أعوان ديوانه! ولهذا السبب اشتملت على هذا القدر من التعابير اليونانية، للإيهام بأنّ نصّها هو ترجمة لاتينية لأصلٍ كتبه الراهب جان باليونانية. وهي مكتوبة باللاتينية لأنّ القصد منها لا أن تقنع مانويل بمحتواها، بل أن تقنع ديوان الملوك اللاتينيين والبابا!

– هناك تفصيل آخر كنّا قد غفلنا عنه، قال كيوت. هل تذكرون قصّة

الغرادال التي من المفترض أن يرسلها الراهب إلى الإمبراطور؟ لقد اردنا ان نبقى حذرين ولم نذكرها إلاّ تلميحاً حين قلنا إنّه ...veram arcam صندوق حصين، فهل لمّحت بشأنها على مسمع زوسيمَس؟

– لا، لقد تكتّمتُ بشأنها، قال باودولينو.

– ها صاحبك زوسيمَس قد كتب yeracam. الراهب يرسل للباسيليوس yeracam.

– وما القصد من هذه العبارة؟ سأل الشاعر.

– زوسيمَس نفسه لا يدري، قال باودولينو. لاحظوا في نصّنا الأصلي: في موضع هذه العبارة يبدو خطّ عبدول غير واضح وتصعب قراءته. فلم يدرِ زوسيمَس ما المقصود بها، فظنّ أنّها هبة غريبة غامضة لا يعلم بها أحد سوانا؛ هذا ما يفسّر استخدامه العبارة المذكورة. تبّاً له من منافق! الذنب ذنبي أنا لأني بحت له بكل شيء: يا للعار، كيف لي أن أبلغ الإمبراطور بما جرى؟»

لم يكن ذلك أوّل عهدهم بالكذب. فشرحوا لكريستيان وفردريك لأي غرض كتبت الرسالة، بالتأكيد، من قبل شخص ما في ديوان مانويل، وخاصّة للحؤول دون الإعلان عن رسالته هو، لكنّهم أضافوا قائلين إنّ هناك خائناً، على الأرجح، في ديوان الإمبراطورية الرومانية المقدّسة، استطاع أن يزوّد القسطنطينية بنسخة من رسالتهم. فأقسم فردريك إنّه إذا قبض على الخائن فسيأمر باستئصال أحشائه.

بعد ذلك سأل فردريك إذا كان ينبغي له أن يقلق لأي خطوة محتملة قد يبادر مانويل إلى اتخاذها. وماذا لو كانت الرسالة قد كتبت بمثابة ذريعة لتجريد حملة على بلاد الهند؟ فلفته كريستيان بكثير من التعقّل إلى أنّ مانويل حاول منذ سنتين أن يجرّد حملةً على سلطان قونية السلجوقي، في فريجيا، غير أنّه مني بهزيمة نكراء في ميريوسيفالوم. وهذا كفيل بأن يبقيه بعيداً عن بلاد الهند لما تبقّى من حياته. لذلك فإننا إذا أمعنّا النظر قليلاً

لتراءى لنا أنّ هذه الرسالة ليست سوى محاولة منه، سخيفة، لاستعادة بعض الهيبة التي فقد مها الكثير.

ومع ذلك يبقى السؤال: أما زال مجدياً، وقد آلت الأمور إلى ما آلت إليه، تسريب الخبر عن الرسالة الموجّهة إلى فردريك؟ وهل ينبغي أن يُجرى فيها بعض التعديل لكي لا يظنّ الجميع أنّها نسخت عن الرسالة الموجّهة إلى مانويل؟

«هل كنتَ ملمّاً بهذه الحكاية يا سيّد نيسيتاس؟» سأل باودولينو.

ابتسم نيسيتاس وقال: «في ذلك الوقت لم أكن قد بلغتُ الثلاثين من عمري، وكنت أعمل على تحصيل الإتاوات في بفلاغونيا. ولو كنتُ آنذاك مستشاراً لدى الباسيليوس لأشرت عليه بعدم اللجوء إلى تلك الألاعيب الصبيانية. غير أنّ مانويل كان يصغي إلى عدد كبير من أهل الحاشية ومن فرّاشي وخصيان مخادِعه، وحتّى خدمه، وغالباً ما كان يقع تحت تأثير بعض الرهبان مدّعي الرؤى.

– لا أستطيع أن أصفَ الحنَقَ الذي كان يثيره فيّ أي ذكرٍ لذاكِ الرديّ. غير أننا لم ندرك أنّ البابا كان رديّاً أسوأ من زوسيمَس ومن السمندل، إلاّ بحلول شهر أيلول عندما تلقّى الديوان الإمبراطوري وثيقةً كانت على الأرجح قد وزّعت قبل ذلك على الملوك المسيحيين أيضاً وعلى الإمبراطور اليوناني. وكانت عبارة عن نسخة من رسالة كتبها ألكسندر الثالث إلى الراهب جان!»

لا بدّ أنّ ألكسندر كان تلقّى نسخة من رسالة مانويل، وربّما كان ملمّاً ببعثة هوغَس الجبْعي، أو ربّما كان يخشى أن يستغلّ فردريك وجود الملك الراهب لصالحه، فبادر، هو أوّلاً، لا إلى تلقّي النداء، بل إلى استدعائه مباشرةً، بدليل أن رسالته تقول إنّه أوفد، إلى جانب الرسالة، أحد مبعوثيه للتفاوض مع الراهب.

كان مطلع الرسالة على النحو التالي:

من ألكسندر، أسقفاً، وخادم خدمِ الربّ، إلى الأعزّ يوهانس، إبننا في المسيح، عاهل بلاد الهند المبجّل الذائع الصيت، ندعو لكم بالعافية ونبعث إليكم ببركتنا الرسولية.

بعد التوطئة يذكّر البابا بأنّ هناك كرسياً رسولياً واحداً (يقصد في روما) انتدبه بطرس ليكون رأس المؤمنين ومرشدهم. كما يذكر أنّ البابا قد سمع عن تقوى جان وورعه من طبيبه الشخصي، المعلّم فيليب، وأنّ هذا الرجل المتبصّر، المتحفّظ، الحصيف، قد سمع من ثقاةٍ أنّ جان راغبٌ في التحوّل إلى اعتناق العقيدة الحقّة الكاثوليكية الرومانية؛ ويأسف البابا لأنّه لن يتمكّن، في الوقت الراهن، أن يوفد إليه وجهاء من مراتب عليّة، ذلك أنّهم يجهلون اللغات البربرية والمجهولة linguas barbaras et ignotas، بل يوفد إليه فيليب، وهو رجل كتوم متوقّد الذكاء، لكي يلقنه العقيدة الحقّة. وعلى الراهب جان، فور وصول فيليب إلى بلاطه، أن يبعث للبابا برسالة نوايا و-ليعلم - أنّه كلّما اقتصد في عبارات التباهي بملكه وثرائه كان خيراً له إذا كان يريد حقّاً أن يرحّبَ به إبناً متواضعاً للكنيسة الرومانية المقدّسة.

كان باودولينو يكاد ألاّ يتمالك غضبه لمجرّد التفكير أنّ العالم قد يكون مكاناً صالحاً لمزوّرين من تلك الشاكلة. فيما راح فردريك يصيح حانقاً: «إبن الأبالسة! لم توجّه إليه أي رسالة، فيعمد هو، زوراً وبهتاناً، إلى الإجابة أوّلاً! حتّى أنّه لا يسمّي يوهانس في رسالته بالراهب، مجرّداً إيّاه من أي مكانة كهنوتية...

- إنّه يعلم أنّ جان نسطوري، أضاف باودولينو قائلاً، وهو يعرض عليه، من دون مواربة، التخلّي عن تجديفه والإذعان له...

- المؤكّد أنّها رسالة غطرسةٍ ما بعدها غطرسة، لاحظ القنصل كريستيان قائلاً، إنّه يخاطبه بـ «يا بنيّ»، ولم يبعث إليه حتّى بظلّ أسقف، بل أوفد طبيبه الشخصي. إنّه يعامله كطفلٍ يستحقّ التأنيب لكي يعود إلى رشده.

- يجب أن نوقف فيليب هذا، قال فردريك عندئذ. كريستيان، إبعث برسلٍ من قبلك، أو قتلة أو مهما شئت، وليعترضوا طريقه، ويخنقوه، ليقطعوا لسانه، فليُغْرَق في مياه شلال! يجب ألاّ يصل إلى هناك! فالأب جان لي، أنا، وحدي!

- إطمئنّ يا أبي، قال باودولينو، برأيي أنّ فيليب هذا لم ينطلق بعد برحلته، ولا أدري حتّى إذا كان موجوداً حقّاً. أوّلاً، ألكسندر يعلم يقيناً، برأيي، أنّ الرسالة الموجّهة إلى مانويل هي رسالة زائفة. ثانياً، انّه لا يدري على الإطلاق أين يقيم الراهب جان. ثالثاً، إنّه لم يكتب هذه الرسالة إلاّ لكي يعلن، قبل أن تعلنَ أنت، بأنّ الراهب جان له هو، ويدعوكما، أنتَ ومانويل، من بين آخرين، أن تنسيا حكاية الراهب الملك. رابعاً، حتّى لو كان فيليب هذا موجوداً، فلا بدّ أنّه الآن في طريقه للقاء الراهب، وفي حال كُتِبَ له أن يصل إلى هناك فعلاً، تخيّل لوهلةٍ ما قد يحدث لو أنّه عاد خالي الوفاض لأنّ الراهب جان رفض التخلّي عن مذهبه. فبذلك يكون ألكسندر كمن تلقّى صفعةً على وجهه. ولا أعتقد أنّه قد يغامر بالتعرّض لمثل هذا الموقف.»

ولكن بأيّ حال كان قد فات الأوان على إشهار الرسالة الوجّهة إلى فردريك، وكان باودولينو يشعر بإحباط عميق. لقد بدأ سعيه وراء مملكة الراهب منذ وفاة أوتون، أي منذ عشرين عاماً خلت... عشرون عاماً من اجل لا شيء...

غير أنّه لم يلبث أن تمالك نفسه: لا، إنّها تتلاشى هباءً، رسالة الراهب، أي أنّها تضيع بين عدد من الرسائل، فقد صار متاحاً لمن يرغب

من الناس أن يختلق رسائل غرامية مع الراهب، وإذا كنّا نحيا في زمن كذّابين أشِرين فهذا لا يعني بأي حال أنّه ينبغي التخلّي عن البحث عن مملكته. ففي آخر المطاف، ما زالت خارطة كوسمَس موجودة، ويكفي أن نعثر على زوسيمَس، وانتزاعها منه، ثمّ الرحيل طلباً للمجهول.

ولكن أين أضحت ديار زوسيمَس؟ وعلى افتراض أنّه يقيم، متنعّماً بالهبات، في بلاط قيصره، فكيف السبيل إليه هو المحاط بالجيش البيزنطي بأكمله؟ شرع باودولينو بالسؤال عنه بين المسافرين والرسل والتجّار، أملاً منه في تسقّط أخبار ذاك الخائن العقوق. وكان، في الأثناء، لا يكفّ عن تذكير فردريك بالخطّة: «يا أبي، كان يقول له، الآن صار الأمر أجدى من ذي قبل، ففي السابق كان مبرّراً لك أن تحسبَ بأنّ هذه المملكة من نسج خيالي أنا، أمّا الآن فأنتَ تعلم يقيناً أنّ قيصر اليونانيين وبابا الرومانيين يؤمنان بوجودها، وقد قيل لي تكراراً في باريس إنّه إذا كان الذهن قادراً على تصوّر أمرٍ لا يضاهى بعظمته، فلا بدّ أنّ يكون هذا الأمر موجوداً. إنّي اقتفي أثر من يستطيع أن يدلّني على الطريق التي ينبغي أن أسلكها، فهلاّ أذنت لي بإنفاق بعض المال.» وهكذا استطاع أن يحظى من الذهبِ على ما يكفي لرشوة كلّ اليونانيين المزعومين الذين يمرّون بالبندقية، كما أتيح له أن يتصل بأناس مقرّبين من القسطنطينية، ولبث منتظراً ما قد يتناهى إلى سمعه من الأنباء. وفور حصوله عليها لا يبقى إلاّ أن يقنع فردريك باتخاذ قرار.

«أعقب ذلك سنوات أخرى من الانتظار، يا سيّد نيسيتاس، وفي الأثناء، كان قد توفيّ، أيضاً، مانويل، قيصركم. حتّى في ذلك الوقت، وكنت لم أطأ بعدُ أرض بلادكم، كنت أعلم أنّه برحيل القيصر سوف يُنكّل بكلّ المخلصين له. كنت أصلّي وأبتهل للقديسة مريم وللقديسين قاطبةً ألاّ يكون زوسيمَس قد قُتِل؛ لا بأس عندي إذا انتزع منه بصره، فكلّ المطلوب منه هو أن يعطيني الخارطة، وبعد ذلك أستطيع أنا أن أفكّ

رموزها. ولكن فيما كنت على هذه الحال من الترقّب والانتظار كانت أعوامي تنسلّ مني كأني أنزف دماً.»

دعا نيسيتاس باودولينو الاّ يستسلم الآن للقنوط الذي ألمّ به فيما مضى. وطلب من طاهيه وخادمه أن يبذل أقصى مستطاعه لكي يعدّ له وليمةً هي الأخيرة له تحت سماء القسطنطينية ولتكن خير ما سوف يحفظه من ذكرى أطايب بحرها وبرّها. فقد أراد على مأدبته الكركند والمقرّنات الأذناب، وسرطانات البحر المسلوقة، والسلطعون المقلي، والعدس المطبوخ بالمحار والصدفيات وبلح البحر، مرفقة بهريسة الفول والأرزّ بالعسل، ومحاطة بإكليل من بيض السمك، ومع هذا كلّه أفخر أنواع النبيذ من كريت. غير أنّ ما سبق ذكره لم يكن سوى طبق المشهيّات. إذ تلاه طبق مكمور ذو رائحة شهية: فمن قصعةٍ كان بخارٌ يتصاعد من أربعةِ قلوبِ كَرْنَب جميلة متماسكة وبيضاء كالثلجِ، وسمكة شبّوط وإلى جانبها نحو عشرين من سمك الاسقمريّ، وشرائحَ السمك المملّح، وأربع عشرة بيضة، والقليل من جبن الماعز، وقد تبّلت جميعها بالزيت ورشّت بالفلفل ونكّهت باثني عشر حصّا من الثوم. وطلب أن يُقدَّم له مع هذا الطبق نبيذٌ من غانوس.

18

باودولينو وكولَندرينا

من فِناء الجنويين كانت تتناهى شكاوى بنات نيسيتاس اللواتي لم يردنَ أن تُلَطّخ وجوههنّ، وقد اعتدنَها مصبوغةً بحمرةِ المساحيق القانية. «إهدأنَ، هيّا اهدأن، كان غريلو يردّد قائلاً، الحسنُ وحده لا يجعلكنّ نساءً.» ويفسّر لهنّ أنّه ليس واثقاً حتّى من أنّ هذا القليل من المسحوق والقشر الذي يطلي به وجوههنّ كفيل بأن يبعد عنهنّ حاجّاً في ذروة هياجه - فمثل هؤلاء يشتهون ما وقعت عليه أيديهم، شابات أو عجائز، متعافيات أو معتلاّت، يونانيات أو شرقيات أو يهوديات، فلا حسابَ للدين في حال كهذه. ولكي تبدين مقزّزات فعلاً ينبغي أن تكون بشرتكنّ مكسوة بالدمامل مثل مبرد. وكانت زوجة نيسيتاس تعينه، برفق، على تبشيع بناتها، مضيفةً أثر جرح على الجبين أو قطعةً من جلد دجاجة على الأنف لكي يبدو منخوراً.

كان باودولينو يرقب بحزن تلك العائلة الجميلة، وإذا به يقول فجأة: «وهكذا، لمّا كنتُ حائراً في الأثناء لا أدري ماذا أفعل، اتخذتُ لي زوجة أنا أيضاً».

وراح يسرد حكاية زواجه بشيء من المرح الصّاخب كأنّها ذكرى أليمة.

«في ذلك الوقت كنت دائم التنقّل بين البلاط والإسكندرية. كان

فردريك مقيماً على موقفه الرافض حيال تلك المدينة فيما كنتُ، أنا، أسعى إلى وصلِ ما تقطّع من الصلات بين مواطنيّ والإمبراطور. فقد بدا الموقف مواتياً أكثر من ذي قبل. خاصّة بعد وفاة ألكسندر الثالث، وفقدت الإسكندرية، برحيله، حاميها. كما تمكّن الإمبراطور من عقد المزيد من مواثيق التحالف مع المدن الإيطالية، وما عاد بإمكان الإسكندرية أن تزعمَ بأنّها قلعة العصبة. فجنوى انتقلت إلى صفّ حلفاء الإمبراطورية وكان من شأن الإسكندرية أن تغنمَ الكثير جرّاء بقائها في صفّ الجنويين، في حين أنّ لا مصلحة لها في أن تبقى المدينة الوحيدة التي تحظى بنقمة فردريك. وكان ينبغي التوصّل إلى حلّ مشرّف للطرفين. وهكذا فيما كنتُ أقضي أيّامي بين التفاوض مع مواطنيّ والعودة إلى البلاط لكي أستطلع مزاج الإمبراطور بهذا الشأن، لفتني حضور كولَندرينا. كانت إبنة غواسكو، وكبرت مع الأيام أمام ناظريّ ولم انتبه من قبل أنّها أصبحت إمرأة. كانت آيةً في العذوبة، وفي حركتها مزيجاً من الرشاقة والخفر. وبعد فترة الحصار كان أهل المدينة ينظرون إلينا، أنا وأبي، كمخلّصين، فكانت، هي أيضاً، ترمقني بنظراتٍ كأنّي القديس جورج. وإذا ألفتني منهمكاً في التحدّث إلى أبيها، لبثت أمام عينيّ، لامعة العينين، مصغيةً كأنّها تنهل كلماتي نهلاً. كنت في مثلِ سنّ أبيها؛ فهي لم تبلغ الخامسة عشرة بالكاد، فيما كنت أنا قد بلغت الثامنة والثلاثين. لا أستطيع القول إنّي وقعتُ في غرامها، غير أنّي كنت أعشق أن أراها بقربي، حتّى أني رحت أروي للآخرين مآثر لا تصدّق لكي تسمعني. لاحظ الغواسكو، هو أيضاً، حقيقة ما يجري، وبرغم كونه فارساً، أي أعلى مرتبةً من التابع الذي كنته أنا (فضلاً عن كوني ابن فلاح)، غير أنّي، كما قلت لك من قبل، كنت الابن المدلّل لأهل المدينة، وأسير بينهم متمنطقاً بسيفي، وأحيا في البلاط... فلم تبد مصاهرتي صفقةً خاسرة، ولذا بادرني الغواسكو، ذات يوم، بقوله: لِمَ لا تتزوّج الكولندرينا، وقد غدت خرقاء ساهيةً، تسقط الأواني من يديها إذا كنت هنا، وإذا كنت غائباً تصرف

أيّامها خلف النافذة مترقّبةً مجيئك. وكان حفل عرس مشهوداً، في كنيسة القديس بطرس، الكاتدرائية التي وهبناها للبابا الراحل والتي لا يعلم البابا الجديد حتّى بوجودها. كما كان زواجاً غريباً، لأنني اضطررت، صبيحة ليلة الزفاف، أن ألتحق بفردريك، وبقينا على تلك الحال نحو السنة، لي زوجة لا أراها إلاّ إذا توفي أسقف ما، وكان لقاؤها مؤثراً في كلّ مرّة لفرط بهجتها لرؤياي.

- هل كنت تحبّها؟

- أعتقد أنني أحببتها؛ سوى أنّها كانت المرّة الأولى التي أتخذ فيها زوجة وما كنت أدري ماذا أصنع بها، ما عدا تلك الأمور التي يفعلها الزوجان ليلاً، ولكن أثناء النهار ما كنت أدري حقّاً إذا كان ينبغي لي أن أداعبها كطفلة أو أعاملها كسيّدة، أو أوبّخها على ارتباك سلوكها، لأنّها كانت تحتاج إلى أب، أو أغفر لها كلّ شيء فأسد تربيتها بالدلال. إلى أن أخبرتني ذات يوم من نهاية ذلك العام بأنّها تنتظر مولوداً، وإذ ذاك صرت أنظر إليها كأنّها العذراء مريم، فعندما أعود من سفر أطلب منها أن تسامحني لأنني ابتعدت عنها، وأصطحبها إلى قدّاس الأحد لكي يرى الجميع أنّ زوجة باودولينو المحبوبة سوف تنجب له ابناً، وخلال الأمسيات النادرة التي كنّا نقضيها سوياً كنّا نتحدّث عمّا سنفعله بهذا الباودولينو الكولَندريني الذي تحمله في أحشائها؛ وكانت تقول أحياناً إنّ فردريك سيخلع عليه دوقيّة، حتّى أكاد أصدّق، أنا نفسي، ما تقول. وكنت أحدّثها عن مملكة الراهب جان فتجيبني بأنّها لن تدعني أرحل وحيداً ولو مقابل ذهب الدنيا كلّها، لأنّ الله وحده يعلم كم يوجد هناك من النساء الحسناوات، ولأنّها تودّ أن ترى ذلك المكان الذي لا بدّ أن يكون أبهى وأوسع من الإسكندرية وسوليرو مجتمعتين. ثمّ كنت أحكي لها عن الغرادال، فتجحظ عيناها: فكّر قليلاً يا باودولينو، يا حبّي، سوف تذهب إلى هناك، وتعود بالكأس التي شرب منها الربّ فتغدو الفارس الأوسع شهرة في ديار المسيحية، ثمّ تشيّد كنيسة صلاة لهذه الغرادال في

مونتي كاستيلو، فيقصدها المؤمنون محجّةً من أبعد البقاع حتّى من كوارنينتو. . . كنّا نطلق العنان لمخيّلتنا كالأطفال، وكنت أقول في سرّي: كم أنتَ مسكين يا عبدول، إذ تحسب أنّ الحبّ هو أميرة بعيدة، وحبّي أنا، قريبة منّي حتّى أني قادر على لمس ظاهر أذنها، فتضحكَ وتقول لي إنّي أدغدغها. . . غير أنّ هذا كلّه لم يدم طويلاً.

- لماذا؟

- لأنّ في فترة حملها كان الإسكندريون قد أقاموا حلفاً مع الجنويين في وجه سيلفانو أوربا. كانوا حفنةً من الرجال، لكنّهم في الأثناء جعلوا يطوفون حول المدينة لنهبِ الفلاحين. وفي ذلك اليوم، كانت كولندرينا قد ابتعدت عن سور المدينة لكي تقطفَ وروداً لأنّها علمت بقدومي. وتوقّفت قرب قطيع من النعاج تمازح الراعي الذي كان واحداً من أتباع والدها، وإذا بنفرٍ من اولئك الأشقياء يندفعون لنهب القطيع. ربّما لم يتعمّدوا إيذاءها هي، غير أنّ تدافعهم أوقعها أرضاً وراحت النعاج الهاربة فزعاً تدوس على جسدها. . . فرّ الراعي مولياً أدباره، أمّا هي فقد عثر عليها بعض الأهل محمومةً في ساعةٍ متأخرة من الليل، عندما تنبهوا لاحظوا أنّها لم تعد إلى الدار. على الأثر أوفد الغواسكو رسولاً في طلبي، وعدتُ أدراجي مسرعاً ولكنّي لم أصل إلاّ بمضيّ يومين. ألفيتها في الفراش، تُحتَضر، ولمّا رأتني بذلت ما وسعها لكي تعتذر مني لأنّ الطفلَ، كما قالت، ولدَ قبل أوانه ومات، متحسّرةً لأنّها لم تدرِ حتّى كيفَ تنجب لي ابناً. كانت أشبه بعذراء من شمع، وكان عليّ أن أقرّب أذني من فمها لكي اسمع ما تقول. لا تنظر إليّ يا باودولينو، كانت تردد قائلةً، لقد ذبل وجهي لفرط ما بكيت، فإلى كوني أمّاً سيئة، فلا بدّ أنّك ترى فيّ الآن، امرأة دميمة. . . ماتت وهي تسألني الغفران فيما كنت أنا أسألها الغفران بدوري لأنّي لم أكن إلى جانبها أثناء المحنة. بعد ذلك طلبت أن يحضروا لي الطفل الميت، فرفضوا أن يدعوني أراه. كان. . . كان. . .»

سكت باودولينو. كان يُبقي رأسه مرفوعاً إلى أعلى كأنّه لا يريد أن

يرى نيسيتاس عينيه. «كان عبارة عن وحش صغير، تابع قائلاً بعد وقت، كتلك اوحوش التي كنّا نتخيّل أنها موجودة في بلاد الراهب جان. وجه ذو عينين ضئيلتين كأنّهما ثقبان مواربان، ونحر هزيل، مفرط في هزاله، وذراعان نحيلتان تبدوان لشدّة نحولهما أشبه بمجسّات أخطبوط. ومن البطن حتّى القدمين كان مكسواً بفراء أبيض كأنّه نعجة. لم أستطع أن أنظر إليه طويلاً، فأمرت أن يدفن، ولم أدر حقّاً إذا كان ينبغي لي أن أستدعي كاهناً للصلاة عليه. ثمّ خرجت من المدينة وجلتُ، طوال الليل، في أنحاء الفراسكيتا، محدّثاً نفسي بأني صرفت، إلى الآن، عمري وأنا أتخيّل مخلوقات تنتمي إلى عالم آخر، وأنّها، في مخيّلتي، كانت تبدو آياتٍ مذهلة تشهد، في تنوعها، على قدرة الخالق التي لا تحدّ، ولكني، حين طلب مني الربّ أن أفعل ما يفعله الخلق جميعاً، لم أنجب آية بل مخلوقاً مرعباً. كان ابني كذبة من أكاذيب الطبيعة، وأوتون كان محقّاً، ولكن أكثر مما كان يعلم، كنت كاذباً وعشتُ كاذباً حتّى أنّ بذرتي أنجبت كذبةً. كذبة ميتة. وعندها، فهمت...

- أي أنك قرّرت، قال نيسيتاس متردداً، أن تغيّر حياتك...

- لا، يا سيّد نيسيتاس. قرّرت أنّه إذا كان ذاك هو قدري، فلا جدوى من أي محاولة لكي أغدو كالآخرين. فمنذ ذلك الحين صرتُ مكرّساً للكذب. إنّه لأمر شاق حقّاً أن أفسّر لك ما كان يدور في رأسي. كنت أقول في سرّي: لمّا كان ينبغي لك أن تختلق فقد كنت تختلق أموراً غير حقيقية، غير أنّها تغدو حقيقية. القديس باودولينو جعلته يظهر، وأوجدتَ مكتبة في سان فيكتور، وجعلت المجوس يجوبون العالم، وأنقذت مدينتك بتسمينك بقرة ضامرة، وإذا وجد علماء في بولونيا فإنما ذلك بفضلك أنت، كما أظهرت في روما عجائب ما كان أهلها ليحلموا بأن يحلموا بها، وانطلاقاً من دعابة لذاك المدعو هوغس الجبالي أنشأت مملكة ذات بهاء لا يضاهى، حتّى أنّك أحببتَ امرأةً طيفاً جعلتها تكتب رسائل لم تكتبها قطّ، وكان يفتن بها كلّ من يقرأها، حتّى هي التي لم

تكتبها قطّ، برغم أنّها كانت إمبراطورة. بالمقابل، ففي المرّة الوحيدة التي أردت فيها أن تفعل شيئاً حقّاً، مع امرأةٍ هي غاية في الصدق، أخفقتَ: وأنجبتَ شيئاً لا يستطيع أحد أن يصدّقه أو قد يرغب في أن يكون. فالأحرى إذاً أن تعتزل في عالم أعاجيبك، لأنّ في عالمك هذا، يمكنك، في الأقلّ، أن تقرّر، أنتَ، كم هي عجائبية هذه الأعاجيب.»

19

باودولينو يغيّر اسمَ مدينته

«مسكين أنتَ، يا باودولينو، راح نيسيتاس يردّد قائلاً فيما تتواصل الاستعدادات للرحيل، متحسّراً على خسارة المرء زوجةً وابناً، في مقتبل العمر. وأنا أيضاً قد أفقد غداً أولادي وزوجتي الحبيبة على يد واحدٍ من أولئك البرابرة. أواه، يا قسطنطينيتي الغالية، أيا ملكة المدن، بيت الله الخالق، قبلة أنظار مواليك، بهجة الغرباء، إمبراطورة المدن الإمبراطورية، نشيد الأناشيد، روعة الروائع، المشهد النادر للأشياء النادرة، ما الذي سيحلّ بنا نحن وقد أصبحنا على أهبة الرحيل عنك، عراةً كما ولدتنا أمّهاتنا؟ متى سنراكِ مجدّداً، لا كما هي حالك اليوم، وهدفاً للدموع، وقد داستك أقدامُ الجنود؟

– أصمت، يا سيّد نيسيتاس، قال له باودولينو، وإيّاك أن تنسى أنّها ربّما كانت هذه هي المرّة الأخيرة التي ستُطعَمُ فيها هذه المآكل الشهيّة التي تليق بأبيشيوس. ما هي هذه الكرات من اللحم التي تفوح منها رائحة سوق التوابل عندكم؟

– إنّها الكَفْتَة، Keftedes، أمّا الطَّعْمُ فهو طعمُ الكافور، والقليل من النعناع الذي يمزج بها، أجابه نيسيتاس، وقد انفرجت أساريره بعض الشيء. وليومنا الأخير هذا، تمكّنت من الحصول على بعض شراب الأنيسون الذي ينبغي أن يحتسى بعد أن يمزج بالماء كسحابة.

- إنّه لذيذ، ولا يدوّخ، تشعر كأنّك في حلم، قال باودولينو. لو قيض لي أن أشرب منه إثر وفاة كولندرينا لسلوتُ عن حسرتي ربّما، كما تسلو أنتَ الآن عن مآسي مدينتك وتزول عنك كلّ خشيةٍ مما قد يحدث في الغد. عوض ذلك رحتُ أغرق حزني بنبيذ بلادنا الذي ينيمك على الفور، وعندما تستيقظ تكون حالك أسوأ مما كانت عليه من قبل.»

لم يبرأ باودولينو من جنون الحزن الذي انتابه إلاّ بمضيّ عام؛ عامٌ لا يذكر منه شيئاً إلاّ تجواله لساعات ممتطياً حصانه، عبر الغابات والسهول، وتوقّفه بعد ذلك في مكان ما حيث كان يعاقر الخمر حتّى يغرق في نوم عميق ومضطرب. وفي أحلامه كان يرى أنّه التقى زوسيمَس أخيراً، وأنّه انتزع منه (لحيته) والخارطة ليصل إلى مملكةٍ حيث كلّ المواليد هم من التينسيراتي والميتاغاليناري. كما انّه لم يعد خلال ذلك العام إلى الإسكندرية، خشية أن يأتي أحد من أهله، أبوه أو أمّه أو الغواسكو، على ذكر كولندرينا وذاك الابن الذي لم يولد قطّ. كان في معظم الأحيان يلجأ إلى فردريك الذي أحاطه برعاية وتفهّم أبويين، وسعى لمواساته عبر أحاديثه المتصلة عن مهامّ فعلية منَ شأنه أن ينجزها لما فيه خير الإمبراطورية. إلى أن جاء يوم صارحه فيه بأنّه عازم على إيجاد حلّ لخلافه مع الإسكندرية، وبأنّه فيما يعنيه، لم يعد غاضباً من أهلها، وكرمى لعيني باودولينو يودّ حقاً أن يعالج هذا **الجرح**، **vulnus**، من دون اللجوء إلى تدمير المدينة بالقوة.

وكانت تلك المهمّة بمثابة حياة جديدة لباودولينو. فالآن وقد بات فردريك مستعداً للتوقيع على معاهدة سلام نهائي مع المدن اللومباردية، لم تعد المسألة، في نظر باودولينو، إلاّ مسألة كرامة. ذلك أنّ فردريك ما كان ليقبل بمدينة شيّدت من دون علمه، وأطلق عليها، وهنا الطامة الكبرى، اسم عدوّه ألكسندر. لذا فقد يكمن الحلّ في أن يبارك فردريك نشأة هذه المدينة مرّة ثانية، في المكان نفسه ولكن باسم آخر، كما بارك، من قبل، نشأة لودي للمرّة الثانية، في مكان آخر وبالاسم نفسه! أمّا أهل

الإسكندرية فما الذي يصبون، هم، إليه؟ أن تكون لهم مدينة يقيمون فيها تجارتهم الخاصّة. وشاءت المصادفة، المصادفة فقط، أن يطلقوا عليها اسم ألكسندر الثالث الذي توفي الآن ولن يشعر، تالياً، بالإهانة إذا عمدوا إلى تغيير اسمها. وعليه تكون الخطّة كالتالي. صبيحة ذات يوم يقيم فردريك، بصحبة فرسانه، معسكره أمام أسوار الإسكندرية، وبينما يخرج منها كلّ سكانها، يعمد موكب من الأساقفة إلى الدخول إلى المدينة، ويبطلون البركة القديمة التي حُبيَت بها، هذا إذا كانت قد حبيت ببركة ما، أو يبطلون اسمها المكرّس ويطلقون عليها اسم قيصرية، مدينة قيصر، وعلى الأثر يمرّ الأهالي من أمام الإمبراطور ليقدّموا له آيات الولاء والتحية، ثمّ يدخلون مجدداً للاستيلاء على المدينة الجديدة، كأنّها مدينة أخرى، أنشأها الإمبراطور، فينعمون في سكناها برغد العيش والحبور.

كما نلاحظ، كان باودولينو يبرأ من مصابه بمكيدةٍ أخرى يدبّرها خياله المتوقّد.

لم يرفض فردريك الخطّة سوى أنّه كان يواجه، في ذلك الوقت، صعوبات جمّة قد تعترض طريق عودته إلى إيطاليا، لاضطراره إلى تسوية بعض الشؤون المهمّة مع مُقْطَعيه الألمان. فتولّى باودولينو أمر المفاوضات. وقف متردداً قبل دخوله المدينة، لكنّ أبويه كانا ينتظرانه عند الباب، فذرفوا، هم ثلاثتهم، دموعَ الخلاص. أمّا رفاقه القدامى فقد عاملوه كأنّه لم يتزوّج قطّ، واصطحبوه، قبل الشروع في الحديث عن المهمّة، إلى الحانة المعهودة، وسقوه من نبيذ «غافي» الأبيض المزّ، من دون إفراطٍ فلم ينم بل استثيرت عبقريّته. وعندئذ راح باودولينو يحكي لهم عن خطّته.

كان غالياودو أوّل من بادر إلى التعليق فقال: «لفرط ما عاشرته أرى أنّك أصبحت بمثل غبائه. لنفترض قليلاً أننا لعبنا لعبتك، نخرج نحن أولاً ثمّ ندخل مجدداً، فرينننن وفرينننن وفروننننن، أخرج أنتَ لأدخل أنا، لا شكراً، هيا أنتَ، فلا يعوزنا في الهرجة كلّها إلاّ نفخ المزامير ورقصة

التريسكا لعيد القديس باودولينو. . .

- لا، لا بأس بها كفكرة، قال البويدي، ولكن بعد ذلك لن نعود أهل الإسكندرية بل أهل قيصرية، وأنا أخجل من اسم كهذا، ثمّ كيف لي أن أواجه أهل آستيا بحكاية مثل هذه.

- دعك من تفاهات الأسماء تلك، أجابه أوبرتو ديل فورو قائلاً، لن أمانع مطلقاً في أن يسمّي المدينة بما يشاء، لكنّ المسألة، في نظري، تكمن مسخرة تقديم الولاء: ففي آخر الأمر نحن الذين هزمناه، وليس هو الذي هزمنا، فلا داعي إذاً لأن يبدي كلّ هذا الاستبداد.»

الكوتّيكا دي كارنيينتو قال إنّ الاسمَ ليس عائقاً، فلا فرق أن تسمى المدينة قيصرةً أو قيصرية، ولا بأس إذا سميت قيصير، أو أوليفيا أو سوفرونيا أو أوتروبيا، لكنّ المهمّ أن نعلم إذا كان فردريك سيبعث بواليه أو أنّه سيكتفي بمباركة القناصل الذين سيعيّنونهم هم.

«عُد أدراجك واسأله»، قال الغواسكو. فأجاب باودولينو: «هكذا إذاً، سأصرف أيّامي مجتازاً الألب البيرينية جيئةً وذهاباً إلى أن يؤتى لكم الاتفاق على رأي واحد. لا وألف لا أيّها السادة؛ ما ستفعلونه هو أنّكم ستفوّضون اثنين منكم بصلاحية مطلقة للتفاوض والقرار، وسيرافقانني إلى بلاط الإمبراطور حيث سنتوصّل إلى حلّ يلائم الجميع. وكونوا على ثقة بأنّ فردريك لن يكون سعيداً قط بأن يلتقي مجدداً اثنين من أهل الإسكندرية، وقد يسارع إلى القبول بأي اتفاق لكي يبعدهما عن ناظريه في أسرع وقت ممكن.»

وهكذا رافقه في طريق العودة موفدان من أهل المدينة، هما انسيلمو كونزاني وتيوبالدو، أحد أفراد أسرة الغواسكو. والتقيا الإمبراطور في نورمبرغ وأُبرِمَ الاتفاق. حتّى مسألة القناصل كان حلّها يسيراً، فقد كان الغرض إنقاذ المظاهر لا أكثر، فلينتخبهم الإسكندريون إذاً، ويكفي أن يصدر الإمبراطور، بعد ذلك، قراراً بتعيينهم. أمّا حول مسألة تقديم

الولاء، فقد انتحى باودولينو بفردريك جانباً وقال له: «يا أبي، الأفضل ألاّ تأتي أنتَ، ويجب أن توفد أحد أعوانك. وليكن هذا أنا. ففي آخر الأمر أنا أنتمي إلى حاشية بلاطك، وبوصفي كذلك أنعمت عليّ بحزام الفرسان فأصبحت فارساً، Ritter، كما يقال هنا.

- بلى، بلى، غير انّك ما زلت تنتمي إلى نبالة الخدمة، وبإمكانك أن تحظى بإقطاعات ولكنك لا تستطيع منحها، كما لا تتيح لك مكانتك بأن يكون لك أتباع، و . . .

- وما شأن أهلي بكلّ هذا، أهلي الذين يرون بأن من يمتطي الفرس هو القائد حتماً؟ هم يقدّمون الولاء لمن يمثّلك، إي لك، غير أنّ ممثلك هو أنا، أي انّه واحد منهم، لذا لا يشعرون بأنّهم يقدمون لك الولاء. أمّا إذا كنت مصرّاً على المواثيق المدوّنة وما إليها، فقد يتولّى ذلك وكيلٌ من ديوانك الإمبراطوري، ولن يدرك أحد من الأهالي من منّا هو الأرفع شأناً. فمن الأهمية بمكان أن تفهم طبائع الناس. فإذا تمكّنا، بهذه الطريقة، من تسوية هذه المسألة نهائياً، ألا تعتقد أنّ ذلك قد يكون لخير الجميع؟»

جرى الاحتفال في أواسط شهر آذار من العام 1183 ؛ كان باودولينو مرتدياً زيّه الرسمي، فبدا أرفع شأناً من الماركيس دو مونفيرّا، ولبثَ أبواه يملّيان أعينهما منه وقد أسند يده إلى مقبض سيفه، ممتطياً فرساً حروناً لا تهدأ. «إنّه مزركش مثل كلب نبيل»، راحت الأمّ تردّد في سرّها لشدّة عجبها. وما عادت تلقي بالاً إلى الأمور الأخرى التي لا تقلّ عجباً، كأن يحيط به من الجانبين حملة بيارق الإمبراطورية، ورودولف، وكيل الديوان الإمبراطوري، وعدد من النبلاء والأساقفة الذين يضيق المجال بتسميتهم جميعاً. غير انّ هؤلاء لم يكونوا وحدهم، بل كان هناك أيضاً ممثلون عن المدن اللومباردية الأخرى، أمثال لانفرانكو الكومي، وسيرو ساليمبيني البافي، وفيليبو الكاسالي، وجيراردو النوفاري، وباتينيرو الأوساني، ومالافيسكا البريشي.

لمّا وقف باودولينو قبالة باب المدينة، خرج أهل الإسكندرية جميعاً

في صفّ واحد حاملين صغارهم على الأذرع، جارين عجائزهم من سواعدهم، وحتّى مرضاهم الذين نقلوا على عربات، والحمقى والعُرْج، وأبطال الحصار الذين فقدوا ساقاً أو ذراعاً، والمُقْعَد على لوحٍ ذي عجلات يدفعها بيديه. ولأنّهم لم يدروا كم من الوقت ستطول إقامتهم في العراء حمل عددٌ منهم صنوفاً من الطعام كالخبز والنقانق والدجاج المحمّر وسلال الفاكهة، فبدا الأمر كأنّهم في نزهة جماعية في الهواء الطلق.

الحقيقة أنّ البرد كان لا يزال قارساً والحقول مكسوةً بجليد أبيض، وكان جلوسهم على الأرض بمثابة عذاب. لذا لبث أهل المدينة، وقد اقتلعوا موقتاً من مُلْكِهم، واقفين يخبطون الأرض بأقدامهم وينفخون في راحاتهم المضمومة، فيما راح بعضهم يقول ببرَمٍ ونفاد صبر: «متى ستنتهي هذه المهزلة، لقد تركنا القِدْرَ على النار؟»

دخل رجال الإمبراطور إلى المدينة، ولم يرَ أحد ما صنعوا فيها، حتّى باودولينو الذي لبث منتظراً في الخارج لكي يتقدّم موكب العودة. ولم يطل انتظاره، فإذا بأسقف يخرج معلناً أنّ المدينة قد سميت مدينة قيصرية ببركة الإمبراطور الروماني المقدّس. رفع رجال الإمبراطور الذين وقفوا وراء باودولينو بيارقهم وأسلحتهم عالياً مهلّلين هاتفين باسم فردريك العظيم. وهمز باودولينو حصانه متقدّماً خبباً واقترب من صفوف الأهلين الأولى معلناً، بصفته موفد الإمبراطور، أنّ فردريك أنشأ تلك المدينة النبيلة لأهل الدساكر السبع: غامونديو ومارنغو وبرغوليو وروبوريتو وسوليرو وفورو وأوفيليو، وأطلق عليها اسم قيصرية ومنّ بها على اهالي الدساكر المذكورة، المجتمعين ههنا، داعياً إيّاهم إلى الاستيلاء على هذه الهبة الحصينة.

تلا وكيل الديوان الإمبراطوري عدداً من بنود الاتفاق، غير أنّ الجميع كانوا يرتعدون لشدّة البرد: فانتقل على الفور إلى تلاوة بنود الهبة والإشراف والمكس، والأمور المماثلة التي تجعل الاتفاق مبرماً. «هيّا يا رودولف، خاطب باودولينو الوكيل الإمبراطوري قائلاً، أنت تعلم أنّ كلّ

هذا ليس أكثر من إجراء شكلي ومهزلة، وكلّما أسرعت بالخاتمة كان ذلك أفضل.»

سلك المنفيون طريق العودة، جميعهم، إلاّ أوبرتو ديل فورو الذي رفض، هو المنتصر على فردريك، الانصياع إلى مهانة ذاك التكريم، وأوفد ممثلين عنه هما أنسيلمو كونزاني وتيوبالدو غواسكو. لدى مرورهم من أمام باودولينو كان وجهاء قيصرية الجديدة يتلون قسماً رسمياً، لكنّه قسم باللاتينية التي كانوا يتلفّظون بها على أسوأ وجه، حتّى إذا زعموا، فيما بعد، أنّهم أقسموا على الضدّ من مقاصدهم، لما كذّبهم أحد. أمّا الآخرون فكانوا يتبعونهم باذلين أقلّ الجهد لتحيته، وكان بعضهم يقول له: «مرحى، باودولينو، كيف حال باودولينو، عاش عاش باودولينو، وحدها الجبال لا تلتقي، وها نحن هنا، هنا، أليس كذلك؟» ولدى مروره، غمغم غالياودو قائلاً إنّ الأمر ليس جدياً، ومع ذلك رفع قبّعته لداعي الكياسة، ونظراً لكونه يرفعها تحيةً لابنه العقوق فإنّ بادرته تلك أشقى عليه من ارتمائه عند قدمي فردريك.

فور انتهاء الاحتفال، غادر اللومبارديون والتيوتونيون على جناح السرعة كأنّهم يخجلون بما جرى. أمّا باودولينو فقد رافق أهله إلى داخل الأسوار، وسمع البعض يقول:

«ولكن أنظر كم هي جميلة هذه المدينة!

- كأنّها الأخرى، ما اسمها، تلك التي كانت هنا من قبل؟

- يا لبراعة هؤلاء الألمان، في أقلّ من برهتين شيّدوا مدينةً يجللها البهاء!

- أنظر هناك، ذلك البيت، كأنّه بيتي، لقد أعادوا بناءه كما كان بالضبط!

- مهلاً يا إخوان، صاح باودولينو قائلاً، عليكم بالشكر لأنّكم حظيتم بملكٍ من دون مقابل، فقط لأنّكم تظاهرتم بأنكم حمير!

- وأنتَ، لا تغترّ بنفسك كثيراً، وإلاّ أهلكك العُجْبُ.»

كان نهاراً حافلاً. خلع باودولينو عنه كلّ شارات السلطان والتحقَ بالآخرين حيث أقاموا احتفالاً. عند ساحة الكنيسة كانت الفتيات قد عقدن حلقة الرقص، واصطحب البويدي باودولينو إلى الحانة، وكان الجميع، في تلك الكنّة العابقة برائحة الثوم، يغرفون النبيذ بأنفسهم من البراميل، لأنّ الناس في ذلك اليوم كفّوا عن كونهم أسياداً أو خدماً، وخاصةً نادلات الحانة وقد صار بعضهنّ في مخادع الحجرات العليا، لأنّ الرجل، كما هو شائع، قنّاص ملذّات.

«إنّه دم يسوع المسيح»، قال غالياودو وقد سكب قليلاً من النبيذ على كمّه ليبرهن على أنّ القماش لا يمتصّه بل يبقى قطرة مركّزة ذات انعكاسات خمرية، ما يؤكّد أنّه من افخر أنواع النبيذ. «الآن سنبقي، لبضع سنوات، على اسم قيصرية، في الوثائق التي ينبغي أن تُمهر بأختام على الأقلّ، أسرّ البويدي في أذن باودولينو هامساً، ولكن بعد ذلك سنعاود تسميتها كما في السابق، ولا أعتقد أنّ أحداً سيلحظ مثل هذا التغيير.

- أجل، قال باودولينو، بعد ذلك تسمونها كما كنتم تسمونها، لأنّ كولندرينا، الملاك، كانت تسمّيها على ذلك النحو، وهي الآن في الفردوس، وقد تخطئ العنوان إذا بعثت لنا ببركاتها.»

«يا سيّد نيسيتاس، كنت أشعر بأني على وشك التصالح مع مآسيّ لأنّي تمكّنت، على الأقل، أن أعطي الابن الذي لم أنجبه قطّ والزوجة التي لم تكن لي إلاّ للفترة وجيزة، مدينةً لن يهدمها أحد. فلربّما، أردف باودولينو قائلاً وقد فاحت منه قريحة شراب الأنيسون، قيض للإسكندرية أن تصبح ذات يوم، قسطنطينيةً جديدة، أو روما ثالثة، عامرةً بالأبراج والكنائس، وآية من آيات الدنيا.

- وليكن ذلك بمشيئته تعالى»، قال نيسيتاس متمنياً، رافعاً كأسه.

20

باودولينو يلتقي زوسيمَس مجدّداً

في شهر نيسان، توصَّل الإمبراطور وعصبة المدن اللومباردية إلى اتفاق نهائي في كونستاس. وفي شهر حزيران، بلغته أنباء متضاربة من بيزنطية.

كان مانويل قد توفي منذ ثلاثة أعوام، وخلفه ابنه ألكسيس الذي لم يكن سوى طفل. طفل سيئ التربية، لاحظ نيسيتاس قائلاً، يقضي أيامه على أهون ما يكون غير مُدركٍ بعدُ للأفراح أو الأتراح، منصرفاً إلى الصيد والرحلات، ملتهياً بصحبة فتيانٍ أغرار، فيما يسعى مَنْ في القصر إلى استمالة زوجة القيصر، أمّه، بالتطيّب كالمخنثين والتقلّد بالعقود كما تفعل النساء، وآخرون يبدّدون المال العام وكلٌّ يسعى إلى مآربه ويكيد للآخر - كأنّ دعامة من الأسس اقتلعت فمالَ البنيانُ على نفسه.

«النبوءة التي ظهرت عند وفاة مانويل قيّض لها أن تتحقّق، قال نيسيتاس. فقد وضعت امرأة ابناً مختلّ الأطراف قصيرها، ضخم الرأس، وكان ذلك نذير فساد المُلك الذي هو رحمُ الفوض.

- ما بلغني على الفور عن لسان جواسيسنا، هو أنّ أحد أبناء عمّه، أندروميكُس، كان يتآمر عليه في الخفاء، قال باودولينو.

- كان ابن أحد أشقّاء والد مانويل، أي أنه كان بمثابة عمٍّ لألكسيس الصغير. وكان قد لبث حتى ذلك الحين منفياً لأن مانويل رأى فيه خائناً

مخادعاً. غير أنه تقرّب بدهاء من ألكسيس زاعماً أنه نادم على أخطائه ويودّ أن يوفّر له حمايته، وشيئاً فشيئاً تمكّن من الاستحواذ على المزيد فالمزيد من النفوذ. ومن تآمر إلى سمّ مدسوس تابع تسلّقه المراتب وغرضه الاستيلاء على العرش الإمبراطوري إلى أن جاء يوم، وقد شاخَ وتآكله الحقد والحسد، حثَّ فيه أهل القسطنطينية على العصيان، معلناً نفسه قيصراً. وفيما كان يتناول القربان المقدّس أقسم إنّه يتولّى مقاليد الحكم لحماية نسيبه الذي ما زال في مقتبل العمر. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى عمدت روحه الملعونة متلبِّسة بالمدعو ستيفانس أجيوكريستوفوريتس، إلى خنقِ الفتى ألكسيس بِوَتَرِ قوس. ولمّا جيء بجثة الفتى البائس إليه، أمر أندروميكُس بأن تُرمى في قاع البحر بعد أن يفصل عنها الرأس الذي خُبِّئ فيما بعد في مكان يُدعى كتباتُس. ولم أدرِ لماذا هناك، خاصة وأن المكان المذكور هو عبارة عن دير خَرِبٍ منذ مدّة غير قصيرة، ويقع خارج أسوار القسطنطينية.

– أنا أدري لماذا. فقد بلغني عن لسان بعض المخبرين أنه إلى جانب الكريستوفوريتس، كان هناك راهبٌ ممسوس جعله أندروميكُس، إثر وفاة مانويل، مقرَّباً منه بوصفه عالِماً باستحضار الموتى. وتشاء المصادفة أن يكون اسمه زوسيمَس الذي ذاع صيته لقدرته على استحضار الموتى بين خرائب ذلك الدير حيث أقام بلاطه الملكي الخاص، ولكن تحت الأرض... كنت قد عثرت إذاً على زوسيمَس، أو، في الأقلّ، اهتديت إلى مكانه. وكان ذلك في شهر تشرين الثاني من العام 1184، عندما توفيت، على نحوِ مباغت، بياتريس دي بورغوني.»

فاصل آخر من الصمت. واحتسى باودولينو جرعة متمادية من كأسه.

«بلغني نبأ وفاتها كأنه عِقابٌ لي. إذ توّاً بعد وفاة الثانية، ترحل أيضاً أوّل امرأة في حياتي. كنت آنذاك قد جاوزت الأربعين من عمري. وكان بلغني أنّ في ترودنا هناك كنيسة (أو كانت هناك كنيسة) تمنح من يتلقّى العمادَ فيها أن يعيش حتى سنّ الأربعين. وقد جاوزتُ، أنا، الحدَّ الذي

يُعطى لمن حَبَتْهم المعجزة. لذا كان بمستطاعي أن أموتَ قرير العين، ولكن ليس بمستطاعي أن أشهدَ الحال التي صار عليها فردريك: فمنذ وفاة بياتريس، صار واهن القوى، وانصرف إلى رعاية ابنه الأوّل الذ بلغ العشرين وبقي اعتلال صحته على حاله، كما انصرف إلى إعداد ابنه الثاني، هنري، لخلافته، بروِيّة، عبر تتويجه ملكاً على إيطاليا. أبي المسكين، الذي صار عجوزاً، وغدا ذا اللحية البيضاء...

كنت في الأثناء قد عدتُ مراراً إلى الإسكندرية وفي كلّ مرّة كنت ألاحظ أنّ أبويَّ الطبيعيين يتقدمان في السنّ. إنّهما باتا أشيبين، أشعثين، ضامرين كتلك الكرات البيضِ الرّخصةِ، التي نصادفها في فصل الربيع، متدحرجةً على أرض الحقول، محنييّ القامة كشجيرتين لوت جذعيهما الريح، ويقضيان جلّ أوقاتهما بجنب المدفأة يتشاجران لأنّ قصعةً ما ليست في موضعها أو لأنّ أحدهما أوقع بيضةً على الأرضية في غفلة منه. وكانا لا يكفّان عن لوْمي، كلّما جئتُ لزيارتهما، على هجرهما وإهمالي زيارتهما. فقرّرت عندئذ أن أقايض حياتي بأبخس الأثمان، وأن أقصد بيزنطية للبحث عن زوسيمَس، وإن كلّفني ذلك قضاء ما تبقّى من عمري متخفياً، ضالاً في بقاع الدنيا.»

كان الذهاب إلى القسطنطينية دونه المخاطر الجمّة لأنّ أهل المدينة كانوا، لسنوات خلت، قد ثاروا، بتحريض من أندرومِيكُس قبل استيلائه على العرش، ضدّ اللاتينيين المقيمين هناك، وقتلوا منهم مقتلةً ونهبوا كلّ منازلهم وأجبروا أعداداً كبيرة منهم على اللجوء إلى جزيرة الأمراء. وعلى الرغم من أنّ أهل البندقية وجنوى وبيزا، قد سمح لهم، على ما يبدو، بالتجوال مجدداً داخل المدينة، فإنّ غليوم الثاني، ملك صقلية، شرع في التحرّك ضدّ بيزنطية، فما عاد أشباه اليونانيين يفرّقون بين بروفنسي وألماني وصقلي أو روماني. فقرّروا إذ ذاك أن يبحروا من البندقية وبلوغ القسطنطينية من طريق البحر على أنّهم قافلة تجّار قادمين (وتلك كانت

فكرة عبدول) من طبروبان. أين تقع طبروبان هذه، قليل جداً من الناس يعلمون، وربّما لا أحد يعلم البتّة، وليس هناك في بيزنطة من يعلم أي لغة هي المتداولة هناك.

هكذا ارتدى باودولينو زيّ وجيه فارسي، وربّي سليمان، الذي لن يخفى على أحد أنّه يهودي حتّى في أورشليم، ادّعى أنّه طبيب القافلة، وارتدى للمناسبة سيماراً جميلاً مزركشاً بالشارات الفلكية، فيما بدا الشاعر بقفطانه الأزرق الفاتح كأنّه تاجر تركي، أمّا كيوت فبدا أشبه بلبناني، من أولئك الذين لا يعتنون بهندامهم لكنّ متاعهم مليء بالنقود الذهب، وعبدول الذي حلق شعره لكي لا يبين لونه الأصهب، فبدا أشبه بخصيٍّ من علية القوم وبورون تابعه.

أمّا اللغة، فقد أقرّوا الرأي على استخدام المحكية التي يستخدمها لصوص باريس والتي يجيدونها، جميعاً، بطلاقة - ما يدلّ دلالة واضحة على التطبيقات التي انصرفوا إلى دراستها خلال أيّامهم الهانئة تلك. فهذه اللغة التي يعجز الباريسيون أنفسهم عن فهمها، لا بدّ أن تبدو للبيزنطيين بأنّها حقّاً لغة طبروبان.

إثر انطلاقهم مطلع الصيف من البندقية، بلغهم، خلال توقفهم في أحد المرافئ في شهر آب، أنّ الصقليين استولوا على تسالونيكي، وربّما حشدوا قواتهم على طول الساحل الشمالي لبحر بروبونتس (مرمره)؛ ما حدا بالقبطان، بعد أن دخل هذا الممرّ البحري ليلاً، إلى الالتفاف عبر خطّ طويل باتجاه الساحل المقابل، لكي يتاح له فيما بعد أن يتجه مباشرةً إلى القسطنطينية كأنّه قادم من خلقيدونية. وكان وعدهم، كعِوَض عن هذا الالتفاف الطويل، بأن ينزلوا في الميناء كما يليق بقيصر أن يَنزل، لأنّ القسطنطينية - قال - يجب أن تؤتى على هذا النحو، أي أن تقترب منها وفق مسارٍ يجعلك مقابلاً لها عند بزوغ الشمس.

عندما صعد باودولينو وصحبه إلى ظهر السفينة قبيل الفجر، خاب رجاؤهم قليلاً لأنّ الشاطئ بدا مكتَنَفاً بضباب كثيف، غير أنّ القبطان سارع

إلى طمأنتهم بأنّ هذا الأمر معتاد لدى الاقتراب، وئيداً، من المدينة، ولن يلبث هذا الحجاب الذي بدأ ضياء الفجر يتخلّله، أن ينقشع تدريجاً.

بمضيّ ساعة أخرى من الملاحة، أشار القبطان إلى بقعةٍ ضئيلةٍ بيضاء، فاتضح أنّها قبّة تراءت من خلال الضباب... وسرعان ما لاحت، وسط ذلك البياض، أعمدة بعض القصور على طول الشاطئ، كما لاحت ألوان بعض المنازل، وأبراج الأجراس بألوانها الزهرية، وفي الأسفل تنتصب الأسوار بأبراجها العديدة. فجأة لاح ظلّ هائل، هناك، ما زال مكسواً بغلالات من الغبش المنبثق من قمّة ربوة، هائماً في الفضاء، إلى أن تتراءى جاثمةً، متناسقةً ومتألّقةً تحت أشعّة الشمس، قبّة كنيسة القديسة صوفيا كأنّها انبثقت، فجأة، من سديم.

إذ ذاك فقط، راحت المناظر تترى متتالية، فتلوح أبراج أخرى وقباب كأنّها انبثقت في قلب سماء منقشعةٍ تدريجاً، بين مساحات خضرٍ وأعمدة مذهّبة، بين الباحات المعمّدة البيض والرخام الزهري، والأبّهة الماثلة لقصر بوكوليون الإمبراطوري بسرواته المنسّقة حول متاهاتٍ متعدّدة الألوان من الحدائق المعلّقة. ثمّ مدخل القرن الذهبي والسلسلة الضخمة التي تسدّ ممرّه، وبرج غلاطا الأبيض إلى يمينه.

كان باودولينو يحكي بتأثّر واضح، فيما نيسيتاس يردّد، بأسى، كم كانت القسطنطينية جميلة عندما كانت جميلة.

«آهِ، كانت مدينة زاخرة بالأحاسيس، قال باودولينو. فما كدنا نطأ أرضها حتّى أدركنا حقيقة ما كان يجري فيها. وبلغنا الهيبودروم في الوقت الذي كان أعدّ فيه لتعذيب أحد أعداء الباسيليوس حتّى الموت...

- كان أندروميكُس كمن فقد صوابه. كان جماعتكم، لاتينيو صقلية، قد أحرقوا تسالونيكي ونكّلوا بأهلها، فأمر أندروميكُس، في البداية، بإقامة بعض التحصينات، لكنّه سرعان ما أهمل الأمر وصار غافلاً عن الخطر المحدق. وانغمس في حياة اللامبالاة واللهو وفي ظنّه أنّ العدو

لا يشكّل تهديداً، وراح ينكّل بكلّ الذين كان من شأنهم أن يكونوا خير عون له، كما درَجَ على الابتعاد عن المدينة برفقة الغواني والمحظيّات، فيوغل في الوديان والغابات كما تفعل الضواري متبوعاً بعشيقاته كما تتبع الدجاجات ديكها، وكما تتبع الكاهنات ديونيزوس، ولم يبقَ إلاّ أن يرتدي جلد الرشأ والثوب المزعفر. وكان السكارى وبنات الهوى هم خاصّة صحبه؛ وكان فاسقاً كسردنابولس، خليعاً كأخطبوط، استنفدت الملذّات ماءَ رجولته فاستعان عليها بأكله حيواناً عجيباً من النيل، شبيهاً بالتمساح، قيل إنّ لحمه يقوّي الباه... ومع ذلك، لا أريد أن تفهم من كلامي بأنّه حاكم سيئ. إذ يؤثر عنه أنّه أتمّ عدداً من المنجزات الحسنة، منها الحدّ من الإتاوات، وإعلانه مراسيم تحظر السعي في المرافئ لإغراق المراكب الشراعية التي تعترضها إشكالات بغية نهبها؛ كما أمر بترميم قنوات الريّ الجوفية القديمة، وترميم كنيسة الأربعين شهيداً من القديسين...

- أي أنّه كان، في المحصلة، رجلاً صالحاً...

- لا تقوّلني ما لم أقله. ولكن المسألة أنّ الباسيليوس قد يستغلّ سلطانه للإتيان بما هو خيّر، ولكن يتعيّن عليه أن يرتكب الشرور لكي يحافظ على ملكه. أنت أيضاً عشت بجوار رجلٍ ذي سلطان، وأنتَ أيضاً أقررتَ بأنّه قد يكون نبيلاً ونزقاً، جائراً ومندفعاً لما فيه الصالح العام. إنّ الوسيلة الوحيدة لاجتناب أي خطيئة، هي أن تعزل نفسك على قمّة عمود كما كان يفعل الآباء القدّيسون قديماً، غير أنّ هذه الأعمدة قد تهاوت منذ ذلك الحين.

- لا أريد أن أناقشك بالوسائل التي ينبغي أن تُحكَمَ بها هذه الإمبراطورية. فهذه إمبراطوريتكم أنتم، أو في الأقلّ، كانت إمبراطوريتكم. لذا سأتابع قصّتي. جئنا إذاً لنقيم هنا، عند الجنويين، لأنّهم، كما أصبحت تعلم بلا ريب، كانوا هم جواسيسي الثقاة. وذات يوم، علم بوياموندو أنّ الباسيليوس سيقصد، مساء ذلك اليوم نفسه، مدافن دير كتاباتَس ليشهد طقوساً إلهية وسحرية. وإذا كان الغرض من

مجيئنا هو العثور على زوسيمَس، فتلك هي، من دون شكّ، الفرصة المواتية.»

عند هبوط الليل، توجّهوا إلى سور قسطنطين حيث توجد مقصورة متواضعة على مقربة من كنيسة القديسين الرسل. وقال بوياموندو إننا من هناك سوف نتمكّن من بلوغ المدافن مباشرة، فلا نضطرّ للمرور بكنيسة الدير. ثمّ فتح باباً وجعلهم يهبطون بضع درجات زلِقة، فألفوا أنفسهم في ممرّ مكسوة جنباته بعفونة دَبِقة.

«هاكم، قال بوياموندو، تابعوا السير قليلاً فتبلغوا المدافن.

- ألن تأتي معنا؟

- لن أذهب إلى أماكن تؤتى فيه أفعال بالموتى. فلكي آتي بفعلة أفضّل أن تكون فعلة بأحياء، والنساء من الأحياء لا غير.»

تقدّموا وحدهم؛ اجتازوا حجرة ذات قناطر وطيئة حيث بدت أسرّة ثلاثية على هيئة نضوة الفرس، غير مرتّبة، وبضع كؤوس مهملة على الأرضية، وقصعات غير مغسولة فيها بقايا طعام. فمن المؤكّد أنّ زوسيمَس الشرِه لم يكن يمارس فقط شعائره مع الموتى، بل أيضاً شعائر أخرى ما كان لبوياموندو إلاّ أن يستحسنها. بيد أنّ تلك العدّة التهتكية كلّها كانت كأنّها كدّست على عجل في الزوايا المعتمة من المكان، لأنّ زوسيمَس كان في ذلك المساء على موعد مع الباسيليوس لكي يتيح له التحدّثَ إلى الموتى لا إلى الغواني، فالشائع، قال باودولينو، أنّ الناس قابلون لأن يؤمنوا بأي شيء شريطة أن نحدّثهم عن الموتى.

لمّا اجتازوا تلك الحجرة لاحت لهم أنوارٌ، وإذ تبعوا مصدرها ألفوا أنفسهم وسط مدفن دائري تنيره ضرمتان فوق منصبين. كان المدفن محاطاً بصفّ من الأعمدة، ووراء الأعمدة تتراءى فتحات بعض الممرات أو الأنفاق التي يعلم الله وحده إلى أين تفضي.

وسط المدفن حوض مليء بالمياه جعلت حوافّه على هيئة قناة تمتدّ

دائرياً حول سطح الماء، وهي مليئة بسائل أشبه بالزيت. قرب الحوض، على عمود صغير، وُضعَ شيء ما لم تتضح معالمه وقد غطّيَ بقُماش أحمر اللون. أدرك باودولينو، وبحسبَ ما نُمي إليه من مصادر شتّى، أنّ أندروميكُس، وبعد أن لجأ إلى المقماقين والفلكيين، وبعد أن سعى عبثاً للعثور، في بيزنطة، على من يتنبأ بالمستقبل، على غرار اليونانيين القدماء، عبر زجر الطير، وبعد أن وهنت ثقته ببعض التعساء المتشدّقين بتفسير الأحلام، قرّر الاستعانة بقارئي الماء، أي أولئك الذين، على غرار زوسيمَس، يجيدون قراءة الطالع عبر تغطيسهم في الماء شيئاً من متعلّقات أحد الأموات.

كانوا قد بلغوا المساحةَ الخالية خلف المذبح، لمّا استداروا فرأوا الحاجب الأيقوني وعلى معظمه رسمُ للمسيح المخلّص محملقاً بهم، صارمَ النظرات، جاحظ العينين.

وسرعان ما نبّههم باودولينو إلى ما قاله بوياموندو، وإذا صحّت أقواله فهذا يعني أنّ أحداً ما سيأتي قريباً، ولذا من المستحسن أن يتواروا عن الأنظار. فاختاروا ناحيةً من صفّ الأعمدة لا تبلغها إضاءة الضرمة، ولاذوا بها مسرعين لأنّهم سمعوا في الأثناء وقعَ أقدامٍ تقترب.

من الجانب الأيسر للحاجب الأيقوني، رأوا زوسيمَس وهو يدلف إلى المكان مشتملاً بسيمار شبيه بذاك الذي يرتديه ربّي سليمان. فانتفض باودولينو على الفور بحركة غريزية تنمّ عن ضغينة مبيّتة كأنّه أراد أن يخرج من مخبئه للإمساك بذلك الخائن. كان الراهب، في مشيته البادية الحفاوة، يتقدّم رجلاً في ملابس فخمة ويتبعه شخصان آخران. وكان واضحاً من مسعى المرافقين والرهبة التي طبعت سلوكهما، أنّ الأوّل هو الباسيليوس أندروميكُس.

توقّف العاهل فجأةً، وقد لفته ترتيب المشهد والمكان. ثمّ ارتسم، بورع، بشارة الصليب أمام الحاجب الأيقوني وسأل زوسيمَس قائلاً: «لِمَ جئتَ بي إلى هنا؟

- يا مولاي، أجاب زوسيمَس، لقد جئت بك إلى هذا المكان لأنّ شعائر عِرافة الماء الحقّة التي تتيح صلةً متينة بعالم الموتى لا تقام إلاّ في أماكن مقدّسة.

- أنا لستُ جباناً، قال الباسيليوس مرتسماً، مرة أخرى، بشارة الصليب، ولكن ماذا بشأنك أنتَ، ألا تخاف من استحضار الموتى؟»

فضحك زوسيمَس كَفافاً: «مولاي، في استطاعتي أن أرفع يديّ هاتين وإذا بنيام العشرة آلاف مدفن في القسطنطينية يتدافعون، طائعين، للسجود عند قدميّ. غير أني لا أحتاج الآن إلى إحياء كلّ هذه الأجساد. فأنا أمتلك هذا الشيء المعجز الذي سأستخدمه لإقامة صلة عاجلة بعالم الظلمات.»

أوقد عوداً من إحدى الضرمتين، وقرّبه من حافة الحوض. بدأ الزيت يشتعل، وسرى تاج من الشعلات الضئيلة الزاحفة حول سطح الماء، وأناره بانعكاسات متراوحة.

«ما زلت لا أرى شيئاً، قال الباسيليوس وقد انحنى فوق الحوض. اسأل ماءك عمّن يعدّ العدّة للحلول في مكاني. إنّي استشعر فتنةً وبلبلة في المدينة، وأريد أن أعلم من ذا الذي ينبغي لي أن أسحقه كي لا يتعيّن عليّ أن أخشاه.»

اقترب زوسيمَس من الشيء المغطّى بقماش أحمر اللون، والذي وضِعَ على عمود صغير، ورفع الغطاء بحركة مسرحية ثمّ مدّ للباسيليوس يديه اللتين حملتا شيئاً شبه كرويّ. لم يكن باستطاعة أصحابنا أن يتبيّنوا ما هو، غير أنّهم رأوا الباسيليوس وهو يقفز إلى الوراء منتفضاً، مرتعداً، كمن يكشح من أمامه رؤية لا تطاق. «لا، لا، ردّد قائلاً، ليس هذا! لقد طلبته منّي لكي تستخدمه في شعائرك، ولكنّي ما كنت أدري أنّك ستظهره مجدداً أمامي!»

كان زوسيمَس قد رفع الرأس بيده وراح يعرضه على جمع متوهّم كأنّه معرض القربان المقدّس، ويدور به كأنّما ليتيح رؤيته من كلّ موضعٍ

في ذلك الغار. كان رأس ميتٍ في مقتبل العمر، باديَ القسمات كأنّه فُصلَ للتوّ عن جذعه، مغمض العينين، متّسع المنخرين على أنفٍ منمنم مستقيم، رقيق الشفتين وقد انفرجتا قليلاً كاشفتين عن صفّ من الأسنانّ الحليبية السليمة. كان سكون التقاطيع يضاعف من جمودها، وإن أوهمَ الناظر إليه ببقية حياة لاصطباغه بمسحةٍ مذهّبةٍ جعلته مشرقاً في انعكاس الشعلات التي راح زوسيمَس يقرّبه منها.

«كان ينبغي لي أن استخدم رأس ألكسيس، ابن أخيك، قال زوسيمَس للباسيليوس، لكي تكتمل الشعائر. كانت تربطك بألكسيس روابط الدم، وبوساطته يمكنك أن تتحد بمملكة الفوات.» وعلى الأثر راح يغطّس في السائل ذلك الشيء المرعب، حتّى جعله في قعر الحوض الذي انحنى فوقه أندروميكُس بالقدر الذي يتيحه تاج النار. «المياه تغدو عكرة»، قال متهدّجاً. «لقد وجدت لدى ألكسيس العنصر الترابي الذي كانت تنتظره، وهي تُسائله، همسَ زوسيمَس قائلاً. فلننتظر ريثما تتبدّد هذه السحابة.»

لم يكن باستطاعة أصحابنا أن يروا ما الذي يجري داخل الماء، لكنّهم أدركوا أنّها، في لحظة ما، استعادت صفاءها، وبدا من خلالها وجه ألكسيس مستقراً في القعر. «أنظر إليه، بحقّ الجحيم، إنّه يستعيد لون بشرته، غمغم أندروميكس قائلاً، وأقرأ علامات ظهرت على جبينه... آهٍ للمعجزة... ايوتا، سيغما...»

لا يحتاج المرء لأن يكون عرّافَ ماءٍ لكي يسمع ما جرى. لقد أخذ زوسيمَس رأس الإمبراطور الطفل ووسم جبينه بحرفين، ثمّ كساه بمادة مذهّبة يزيلها الماء. أمّا وقد زال الطلاء بدت الضحية البائسة وكأنّها تحمل للمحرّض على قتلها رسالةً يودّ زوسيمَس، أو من حثّه على ذلك، أن يوصلها إليه.

وبالفعل، تابع أندروميكُس هجاء الحروف: «ايوتا سيغما، اس...

اس. . .» ثمّ استقام في وقفته، وفتل شعيرات لحيته مراراً حول أصابعه، وراحت عيناه تقدح شرراً، ثمّ أطرق قليلاً كأنّما ليمعن التفكير، وسرعان ما رفعه كجوادٍ حرون على أهبة العدو: «اسحق! صاح قائلاً. العدوّ هو اسحق كومنين! ما هي الدسائس التي يعدّها، هناك، في قبرص؟ سوف أعدّ أسطولاً لمحاربته وأسحقه قبل أن يتمكّن هذا البائس من التحرّك، !»

ظهر أحد المرافِقَين من الظلّ، ولاحظ باودولينو أنّه كانت له سحنة مَنْ لا يحجم عن التهام أمّه إذا خلت المائدة من اللحوم. «مولاي، قال المرافق، إنّ قبرص بعيدة جداً، وسوف يتعيّن على أسطولك أن يغادر البروبونتس وأن يمرّ بالمواقع التي يحتشد فيها جيش ملك صقلية. ما يعني أنّك إذا كنت لا تستطيع أن تذهب إلى اسحق فهو أيضاً لا يستطيع أن يأتي إليك. لا أظنّ أنّه كومنين، بل هو اسحق أنج، المقيم في المدينة، وأنت تعلم كم يبغضك.

- يا ستيفانوس، قال أندرومكس متهكّماً، هل تشير عليّ بأن اسحق أنج هو الرجل الذي ينبغي لي أن أخشاه؟ كيف يُعقل أن تحسب، ولو مجرّد حسبان، أنّ قليل الموهبة هذا، العنّين، العاجز الذي لا نفع منه، قد يجرؤ على التفكير، مجرّد التفكير، في تهديد سلطاني؟ زوسيمَس، يا زوسيمَس، خاطب مُستَحْضِرَ الأموات قائلاً، إنّ هذا الماء وهذا الرأس يشيران إمّا إلى شخص بعيد جداً وإمّا إلى شخص أحمق! فما جدوى عينيك إذا كنت لا تزال عاجزاً عن القراءة في هذا الحوض الممتلئ ببول الدواب؟». أدرك زوسيمَس أنّه موشكٌ على فقد بصره، ولكن لحسن طالعه أن ستيفانوس هذا قد أدلى بدلوه أوّلاً. وقد أدرك باودولينو على الفور أنّ المعنيّ، وقد بشّر بجرائم جديدة، لا بدّ أن يكون هو المدعو ستيفانوس أجيوكريستوفوريتس، روح أندروميكُس الملعونة، الذي خنق ألكسيس الطفل وقطع رأسه.

«يا مولاي، لا تقلّل من قدْرِ الخوارق. لقد رأيت بأم العين أنّ علامات ظهرت على وجه الصبيّ لم تكن موجودة في حياته. واسحق أنج

قد يكون رجلاً وضيعاً رعديداً، غير أنّه يبغضك. وهناك رعاديد كثر من أمثاله شكّلوا خطراً على حياة عظماء شجعان من أمثالك، هذا إذا كان لمَثَلِكَ مِثلٌ. . . لو تأذن لي أن اعتقل أنج الليلة وأقتلع عينيه بيديّ هاتين وأشنقه على عمود من عُمُدِ قصره. وسوف نعلن للشعب أنّك تلقيّت علامة من السماء. فالأحرى أن نزيل من الوجود خصماً لا يشكّل تهديداً بعدُ، عوض أن ندعه على قيد الحياة فيشكّل، ذات يوم، تهديداً. فلتكن ضربتنا هي المباغتة.

- أنت تريد أن تستغلّني لكي تشبع بعض أحقادك، أجاب الباسيليوس قائلاً، سوى أنّ ارتكاب الشرور أحياناً قد يكون لنصرة الخير. لذا، خلّصني من اسحق. ومع ذلك هناك أمر يشغلني. . .» ورمق زوسيمَس بنظرات جعلته يرتعد كورقة في مهبّ الريح، «وهو أنّه إذا مات اسحق لن يتاح لنا أن نعلم يقيناً إذا كان حقّاً ضالعاً في مؤامرة ضدّي، وبالتالي، إذا كان هذا الراهب صادقاً في ما يقول. سوى أنّه استطاع، برغم كلّ شيء، أن يثير ارتياباً في روعي، وسوء الظنّ دائماً هو خطوة لبلوغ الصواب. يا ستيفانوس، نحن مرغمون على إبداء امتناننا لما فعله. واحرص على أن ينال كلّ ما يطلبه.» وأشار إلى مرافقيه مغادراً، مخلّفاً وراءه زوسيمَس الذي كان يجهد في استعادة أنفاسه تدريجاً من حال الرعب التي جمدت أوصاله بقرب الحوض.

«الحقّ أنّ الأجيوكريستوفوريتَس كان يبغض اسحق أنج فعلاً، وبديهيّ أن يكون اتفق مع زوسيمَس للنيل منه، قال نيسيتاس. غير أنّه، في انصياعه لمآربه الخاصة، لم يعمل لصالح سيّده، لأنّه بذلك، كما ستعلم، سيسرّع في خراب ملكه.

- أعلم ذلك، قال باودولينو، ولكني في تلك الليلة لم أكن، إذا أردت الصدقَ، معنياً كثيراً بفهم ما جرى. كان يكفيني أنني عثرت على زوسيمَس وأنّه بات بمتناول يدي مقيّد اليدين والقدمين.»

لم يستطع زوسيمَس أن يتنفس الصعداء إلاّ بعد أن خفت وقع أقدام الزائرين الملكيين المبتعدين ثمّ تلاشى. ففي آخر المطاف كانت التجربة ناجحة. وراح يفرك كفّيه راضياً متبسّماً، ثمّ انتشل رأس الصبيّ من الحوض وأعاده إلى حيث كان. وعلى الأثر راح يجيل أبصاره في أرجاء المدفن كلّه، رافعاً صوته مقهقهاً على نحو هستيري، صائحاً: «إنّي أسيطر على القيصر! من الآن فصاعداً لن أخشى شيئاً حتّى الموتى!»

ما كاد ينهي كلامه حتّى خرج أصحابنا، بهدوءٍ، من مخبئهم. والمفارقة أنّ من يركن إلى السحر في سعيه، ينتهي به المطاف إلى الاقتناع بأنّه وإنْ كان، هو، لا يؤمن بالشيطان، فإنّ الشيطان يؤمن به. ولدى رؤيته زمرة الأشباح تلك التي قامت كأنّها في يوم القيامة، كان ردّ الفعل الذي أبداه زوسيمَس، برغم ما قد يتّسم به من الوضاعة، مثالياً في تلقائيّته. فلم يسعَ إلى إخفاء أحاسيسه، بل فقدها كلّها، وأغميَ عليه.

لم يصحُ إلاّ بعد أن رشّ الشاعر ماءً مباركاً على وجهه. فتح عينيه فألفى نفسه على بعد شبر واحد من أنف باودولينو الذي بدت سحنته مرعبةً رعباً يفوق ما تثيره سحن العائدين من الموت. في تلك اللحظة أدرك زوسيمَس أنّ ما يشهده ليس نيران جهنّم التي لا برهان مؤكّداً على وجودها، بل هو الثأر الموعود، والمؤكّد جداً، لضحية أحابيله السابقة.

«كان غرضي أن أحسن خدمة مولاي، سارع إلى القول، وأن أخدمك أنتَ أيضاً، عندما روّجت لرسالتك على نحو أفضل مما تستطيع أنت. . .» فقال باودولينو: «صدقاً يا زوسيمَس، أني لا أقول هذا بدافع اللؤم، ولكنّي لو توخيت مرضاة الربّ فيك لكسرت شكيمتك الآن. غير أن هذا دونه جهد لا تستحقّه، وكما ترى، إني أحاول أن أتمالك نفسي.» وبظاهر يده عاجله بصفعةٍ كادت تلوي عنقه.

«أنا من أتباع الياسيليوس، وإنْ مسستم بشعرة من لحيتي، فأقسم بأ. . .» أمسك الشاعر بشعره وقرّب وجهه من النار التي كانت لا تزال مشتعلة عند حافة الحوض، وراح الدخان يتصاعد من لحية زوسيمَس.

«أنتم معتوهون»، صاح زوسيمَس ساعياً للتفلّت من قبضتي عبدول وكيوت اللذين كانا، في الأثناء، قد أمسكا به وثبّتا ذراعه خلف ظهره. فعاجله باودولينو بلطمةٍ على قذاله، أرغمته على إطفاء حريق لحيته في الحوض، ثمّ أمسكه بقوة لكي يبقي وجهه مغموراً بالماء، وإذ ذاك غفل زوسيمَس عن حريق لحيته وانهمك بالماء الذي أرغم على ابتلاعه.

«بحسب الفقّاعات التي أحدثتها على سطح المياه، قال باودولينو وقد جذبه من شعره ليرفع رأسه من الماء، أتوقّع أنّك لن تموت الليلة بسبب حريق لحيتك، بل بسبب حريق قدميك.

– يا باودولينو، صاح زوسيمَس منتحباً وهو يستفرغ ما ابتلعه من المياه، يا باودولينو، مهلاً، ما زال الاتفاق بيننا ممكناً... دعني أسعل، أرجوك، فلا مجال للفرار، ماذا تريدون، كلكم مجتمعين ضدّي، أليس في قلوبكم شفقة؟ اسمعني يا باودولينو، أنا أعلم أنّك لا تسعى للثأر من لحظة الضعف التي ألمت بي آنذاك؛ فما تسعى إليه هو العثور على الراهب جان، وقد قلت لك إني أستطيع أن أحصل على الخارطة التي تعينك على بلوغ مرادك. ولكن إنْ رميتَ الرماد على الموقد أخمدتَ نارها.

– ماذا تقصد بقولك هذا، أيّها السافل؟ كفّ عن أقوالك المأثورة!

– أقصد أنّك إنْ قتلتني لن تتمكّن من الاطلاع على الخارطة قط. فقد يحدث أن تتخطّى الأسماك، في معرض لهوها، أن تبتعد عن النطاق التي لا تكتب لها الحياة إلاّ في إطاره. أنا أستطيع أن أوفّر لك فرصة الذهاب بعيداً. لنعقد صفقة بين شرفاء. أنت تبقيني الآن على قيد الحياة، وأنا أدلّك إلى حيث يمكن العثور على خارطة كوسمَس الأنديكوبلوتس. حياتي مقابل مملكة الراهب جان. ألا تعتقد أنّها صفقة منصفة؟

– كنت أودّ أن أقتلك، قال باودولينو، غير أنّ بقاءك على قيد الحياة قد يسعفني في الحصول على الخارطة.

– وبعد حصولك على الخارطة؟

- بعد ذلك سنبقيك مقيّداً وملفوفاً في حصير ريثما نهتدي إلى سفينة تنقلنا من هنا، وعندها فقط نبسط الحصير، لأننا إن أطلقنا سراحك الآن فلن تتوانى عن إرسال كلّ القتلة المأجورين في المدينة لتعقّبنا.

- وهل ستبسطون الحصير في الماء. . .

- كفّ عن هذا الهراء، نحن لسنا قتلة. لو كان في نيّتنا أن نقتلك فيما بعد لما كنت صفعتك اليوم. وليكن معلوماً لديك، أنني أفعل ذلك لمتعتي الشخصية، باعتبار أنّ الأمر لن يتعدّى ما هو عليه.» وراح يكيل له الصفعات ببرودة أعصاب، صفعة أولى، ثمّ أخرى، من هذه اليد ثمّ الأخرى؛ مرّةً تطيح الصفعة برأسه يساراً، ومرّة تطيح به يميناً، ومرّتين بجماع راحة الكفّ، ومرّتين أخريين بالأصابع المنبسطة، مرّتين بظاهر اليد، ومرّتين بحرفها، ومرّتين بجماع القبضة، إلى أن مالت سحنة زوسيمَس إلى الازرقاق، ووهنت مفاصل باودولينو. وعندئذ قال: «لقد آلمتني يداي، ولذلك سأكفّ عن صفعك. فلنذهب الآن للاطلاع على الخارطة.»

أمسك عبدول وكيوت بإبطي زوسيمَس وراحا يجرّانه سوية الأرض، فقد بات عاجزاً عن السير بمفرده، ولا يستطيع أن يدلّهم على الطريق إلاّ مشيراً بإصبعه المرتعدة، فيما راح يتمتم قائلاً: «إنّ الراهب المحتقر ويصبر على الاحتقار هو كالنبتة التي تسقى كلّ يوم.»

كان باودولينو يخاطب الشاعر قائلاً: «علّمني زوسيمَس، فيما مضى، أنّ الغضب، والغضب وحده من بين الأهواء، يخضّ النفس ويشوّشها، لكنّه أحياناً يكون عوناً لها. فعندما نستخدمه، برويّة، ضدّ الكفّار والخطأة، لكي نخلّصهم ونحرج سعيهم، إنّما نبذل الدعة لأنفسنا لأننا بذلك نتجه مباشرة إلى غاية العدل.» فقال ربّي سليمان ملاحظاً: «كما جاء في التلمود، إنّ من القصاص ما يغسل، في البشر، كلّ إثم.»

21

باودولينو ومباهج بيزنطية

كان دير كتاباتس خرباً، وقد اعتاد الناس على كونه مبنىً مهجوراً، غير أنّ عدداً من صوامع الرهبان كانت لا تزال قائمةً في الطبقة الأرضية، فيما جُعِلت قاعة المكتبة القديمة قاعةً للطعام. وكان زوسيمَس يقيم هناك، بصحبة قِندلَفتَين أو ثلاثة، ولا يعلم إلاّ الله أيّ ضَرْبٍ من الممارسات الكهنوتية كانوا يزاولون فيه. وعندما صعد باودولينو ورفاقه مجدّداً إلى وجه الأرض مصحوبين بسجينهم، كان القندلفتان غارقين في سبات عميق، وقد اتضح في صبيحة اليوم التالي أنّهما نالا من فجورهما قَدْراً من الخَبَلِ كافياً لجعلهما عاجزين عن الإتيان بأي ردّ فعل. فقرّر أصحابنا المبيت في قاعة المكتبة. كان نوم زوسيمَس مضطرباً، وقد استلقى على الأرضية بين كيوت وعبدول اللذين أصبحا ملاكيه الحارسين.

عند الصباح تحلّق الجميع حول طاولة وطُلِبَ من زوسيمَس أن يبدأ بشرح الوقائع.

«الواقع، قال زوسيمَس، أنّ خارطة كوسمَس موجودة في بوكوليون، في مكان أعرفه جيّداً ولا يستطيع أحد سواي أن يبلغه. سوف نذهب إلى هناك الليلة، في ساعة متأخّرة.

- زوسيمَس، قال باودولينو، أرى أنّك تحاول التلاعب بنا. فما عليك في الأثناء إلاّ أن تشرح لي ما الذي تتضمنه هذه الخارطة.

- لكنّ الأمر واضح، أليس كذلك؟ قال زوسيمَس وقد أمسك برقّ وقلم. قلت لك إنّه يتعيّن على كلّ مسيحي يتبع العقيدة الحقّة أن يقبل بواقع أن الكون/ العالم مخلوق على هيئة الخيمة التي ورد ذكرها في الكتاب المقدّس. والآن أصغوا جيّداً لما سأقول. ففي الجزء السفلي من الخيمة كانت هناك مائدة وضع عليها اثنا عشر رغيف خبز واثنتا عشرة ثمرة، كلّ واحدة منها لأجل شهر من شهور السنة، وللمائدة إكليل من ذهبٍ على **محيطها** وحول الإكليل، إطار بعرض شبرٍ يمثّل أرض الماوراء، حيث في شرقها يقع الفردوس الأرضي. والقبّة تمثّل السماء التي تستند بالكليّة إلى أطراف الأرض، ولكن بين القبّة والقاعدة بُسِطَ حجاب القبّة الزرقاء الذي بعده يقع العالم السماوي الذي لن نراه إلاّ في يوم الحساب. والحقّ أنّ أشعيا كان مصيباً بقوله إنّ الله هو الجالس على الأرض وأهلها ليسوا إلاّ جراداً، وهو الذي رفَعَ السماء مثل حجاب رقيق وبسطها مثل خيمة. كما يمجّد داود النبي من بسط السماء مثل سرادق. ثمّ وضع موسى، تحت الحجاب، إلى الجنوب منارةً تنير كلّ ما في الأرض من متّسعٍ، وصنع سُرُجَها سبعةً تمثّل أيام الأسبوع السبعة وكلّ ما في السماء من أنجم.

- لكنّك تشرح لي على أي هيئةٍ جعلت الخيمة، قال باودولينو، لا على أي هيئة جُعِلَ الكون.

- الكون جُعِلَ على هيئة الخيمة، ولذا حين أشرح لك كيف كانت الخيمة أشرح في الوقت نفسه، كيف كان الكون. كيف يعقل أن تكون عاجزاً عن إدراك مسألة بسيطة مثل هذه؟ أنظر...» وخطّ رسماً على الرقّ.

كان الرسم يصوّر الكون تماماً على هيئة هيكل، بقبّته المقوّسة بدقّة، ويبقى الجزء الأعلى منه محجوباً عن أعيننا بحجاب القبّة الزرقاء. وفي الجزء السفلي تمتدّ المسكونة، أي الأرض التي نحيا عليها والتي، مع ذلك، ليست منبسطة بل تستند إلى المحيط الذي يحيط بها، وترتفع على

نحو منحنٍ غير منظور ومتّصل باتجاه أقصى الشمال وباتجاه الغرب، حيث ينتصب جبلٌ هو من العلوّ بحيث لا تلحظ أعيننا وجوده فيما تمتزج قمّته بالغيوم. أمّا الشمس والقمر اللذان يسيّرهما الملائكة - الذين أيضاً يجلبون المطر والزلازل وكلّ الظواهر المناخية الأخرى- فينتقلان من صباح الشرق إلى الظُهرِ، أمام الجبل، وينيران العالم؛ وعند المساء يصعدان مجدداً باتجاه الغرب ويحتجبان وراء الجبل فنحسب نحن أنّهما يغربان. وهكذا حين يهبط الليل عندنا، يطلع الصباح على المقلب الآخر من الجبل، غير أنّ أحداً لا يبصره، لأنّ المقلب الآخر من الجبل هو صحراء لم يقصدها أحد من قبل.

«وهل سيعيننا هذا الرسم على بلوغ أرض الراهب جان؟ سأل باودولينو. فلتعلم جيداً يا زوسيمَس أن الاتفاق بيننا ينص على مقايضة حياتك بخارطة موثوقة، أمّا إذا اتضح أن الخارطة غير موثوقة فسوف أكون في حلّ من أي اتفاق.

- رويدكَ، رويدك. بما أنّ فننا يبقى عاجزاً، بشأن تمثيل الخيمة كما هي، عن إظهار كلّ ما يبقى محتجباً وراء جنباتها ووراء الجبل، خطّ كوسمَس خارطة أخرى تمثّل الأرض كما لو أننا ننظر إليها من الأعلى، سابحين في القبّة الزرقاء، أو ربّما كما يراها الملائكة. وتظهر هذه الخارطة المحفوظة في البوكوليون، مواضع البلاد التي نعرفها، والواقعة ضمن إطار المحيط، وفما وراء المحيط البلادَ التي قطنها البشر قبل الطوفان، ولكن لم يطأ أرضها أحد بعد نوح.

- إني أحذّرك للمرة الثانية يا زوسيمَس، قال باودولينهو متوعداً، فإذا كنت تظنّ أنّك بسردك حكايات عن أمور لا نراها ولا تظهرها لنا...

- ولكني أرى هذه الأمور كأنّها ماثلة أمام ناظريّ، وسوف ترونها، أنتم أيضاً، عمّا قريب.»

بدا زوسيمَس ذو الوجه الضامر الذي جعلته القروح والكدمات متألماً ومثيراً للشفقة، وقد برقت عيناه بما يراه هو وحده، بدا زوسيمَس إذاً،

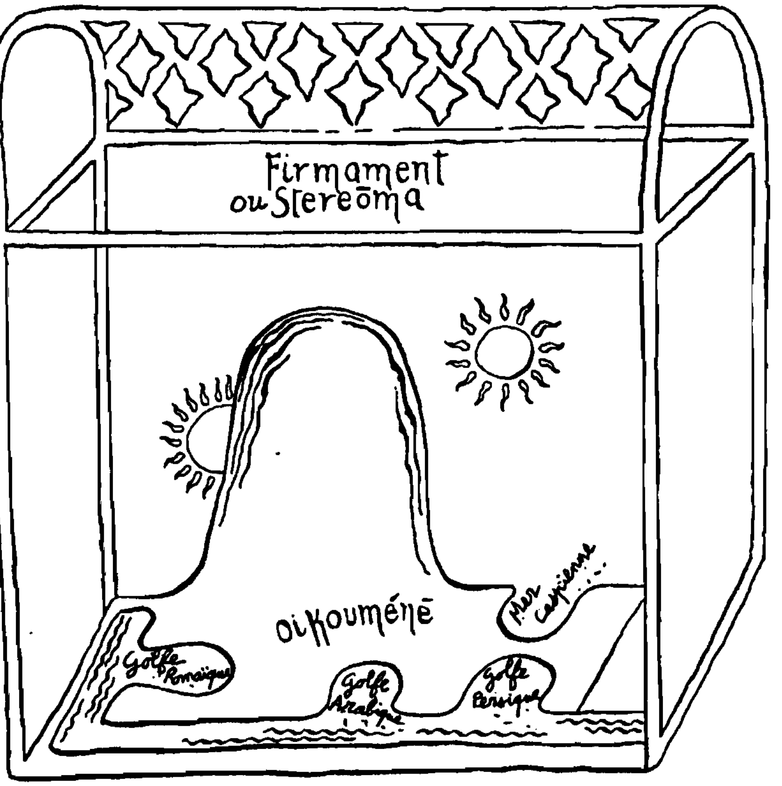
Firmament
ou Stereōma
Oikouménē
Golfe Romaïque
Golfe Arabique
Golfe Persique
Mer Caspienne

مقنعاً في ما قاله حتّى لمن يرتاب في قدرته على الصدق. وكانت تلك قوّته، خاطب باودولينو نيسيتاس مفسّراً، وبهذه الطريقة استطاع أن يستدرجه في المرّة الأولى، ويستدرجه الآن وسيستدرجه لبضع سنواتٍ أخرى. بدا مقنعاً جداً حتّى أنّه استطرد في شرحه كيف يمكن، من خلال خيمة كوسمَس، أن يفسّر الخسوف غير أن باودولينو لم يكن مكترثاً للخسوف. وما كان يقنعه فعلاً هو أنّ الحصول على الخارطة الأصلية قد يعينه في بحثه عن الراهب.

«- حسناً، قال، لننتظر حلول المساء.»

أمر زوسيمَس أعوانه بأن يحضروا لهم بعض الخضار والفواكه، وأجاب الشاعر الذي كان يسأل إذا كان بإمكانهم أن يحضروا له شيئاً آخر، قائلاً: «إنّ طعاماً بسيطاً، منتظماً في مواقيته، من شأنه أن يفضي بالكاهن إلى برّ العصمة.» فأجابه الشاعر بأنّ يذهب إلى الجحيم، وإذ لاحظ أنّ زوسيمَس مقبل على التهام طعامه بشهية، أمعن النظر في ما يحتويه طبقه تحت الخضار، فتبيّن أنّ معاونيه قد وضعوا تحتها، وله وحده، شرائح من لحم الضأن المسمّن، فاستبدل طبقاً بطبق.

كانوا يعدون العدّة لقضاء بقية نهارهم منتظرين، عندما دخل عليهم قندلفت من معاوني زوسيمَس وقد بقدا عليه الذعر ليخبرهم بما كان يجري في الأثناء. ففي الليلة المنصرمة إثر انتهاء الشعائر، قصد ستيفانوس آجيوكريستوفوريتس، على رأس مجموعة من الرجال المسلحين، منزل اسحق آنج الواقع قرب دير بريبليبتوس، أو العذراء ذات السمعة، وأمره صائحاً بأعلى صوت بالخروج من داره، لا بل سرعان ما أمر رجاله باقتحام الباب واعتقال اسحق من لحيته وقذفه، رأسه أولاً، إلى خارج الدار. غير أنّ اسحق الذي ذاع صيته بين الناس جميعاً بأنّه رجل متردّد وجبان، كان قد قرّر أن المسألة مسألة حياة أو موت: فامتطى في الفِناء حصاناً، شاهراً سيفه، شبه عارٍ تحت رداءٍ ذي لونين، مثير للضحك، يكاد لا يغطّي خصره، وباغت أعداءه بالخروج عليهم. ولم يتسنَّ

لآجيوكريستوفوريتس أن يشهر سلاحه وعاجله اسحق بضربة واحدة من سيفه شقّت رأسه إلى نصفين، وسرعان ما ارتدّ على أعوان هذا الخصم الذي بات ذات رأسين، فانتزع أذن أحدهم قبل أن يولي الآخرون الأدبار مذعورين.

كان قتل أحد خاصّة أتباع الإمبراطور شرّاً مطلقاً، ويستدعي تدابير وقائية ذات طابع مطلق. وقد أبدى اسحق، من هذه الناحية، سرعة بديهة وحدساً صائبين في طريقة التعامل مع عامة الناس، فهرع إلى كنيسة القديسة صوفيا، طالباً اللجوء إليها بحسب ما جرت عليه التقاليد في حالات القتل، مستجيراً بأعلى صوته طالباً الغفران لما اقترفته يداه من إثم. وراح يمزّق عن جسده شبه العاري القليل مما يستره وينتف بيديه شعر لحيته، طالباً الرأفة، زاعماً بأنّه فعل ما فعله دفاعاً عن النفس، مذكّراً الجميع بآثام القتيل.

«هذه القصّة لا تدعو إلى التفاؤل» قال زوسيمَس وقد هزّته تلك الميتة المباغتة لحاميه المشؤوم. ولم يجعله أفضل حالاً ما بلغه فيما بعد، وما تلاه ساعة بعد ساعة. فقد انضمّ إلى اسحق، في كنيسة القديسة صوفيا، عدد من الأعيان المشاهير أمثال يوهانّس دوكاس، فيما كان هو يواصل إلقاء خطبه الموجّهة إلى حشود الناس المتزايدة. وعند المساء كان عدد كبير من أهل المدينة قد اعتصموا إلى جانب اسحق لحمايته، وساد همس بين البعض بأنّه قد آن الأوان للتخلّص من الطاغية.

وسواء كان اسحق ضالعاً في الإعداد لما جرى منذ بعض الوقت كما أكّد زوسيمَس في قراءة الطالع، أم مستغلاً للخطأ الذي وقع فيه خصومه، فقد بدا واضحاً أنّ عرش أندرونيكس قد بدأ بالترنّح كما بدا واضحاً أيضاً، في حال مماثلة، أنّه من الجنون المطبق السعي لدخول البلاط الملكي الذي قد يتحوّل، بين لحظة وأخرى، إلى مسلخ عمومي. فقرّ رأي الجميع على البقاء في كتاباتس ريثما تنجلي الأحداث وما قد تسفر عنه.

في صبيحة اليوم التالي، احتشد نصف سكان المدينة في الشوارع هاتفين مطالبين بسجن أندرونيكس وتولي اسحق العرش الإمبراطوري. وقد هاجمت الحشود السجونَ وحرّرت عدداً من ضحايا الطغيان الأبرياء الذين ينتمون إلى أسر عريقة والذين سارعوا إلى الانضمام إلى حركة التمرّد. ولكن المسألة تخطّت حدود التمرّد واستحالت عصياناً، لا بل ثورة، ومحاولة للاستيلاء على السلطة. كان الأهلون يتجولون في أنحاء المدينة مسلّحين بالسيوف والدروع، أو بالدبابيس والعصي. كما ارتأى البعض، ومن بين هذا البعض أعيان الإمبراطورية، أنّ الوقت قد حان لاختيار حاكم آخر، فأنزلوا تاج قسطنطين الأكبر الذي كان معلّقاً فوق المذبح الكبير وتوّجوا به اسحق.

وإذ تفرّقت الحشود إلى مجموعات مقاتلة لدى خروجها من الهيكل، ضربت حصاراً حول القصر الإمبراطوري، فحاول أندرونيكس، يائساً، أن يقاوم برميه بعض السهام من أعلى أبراج قصره، ويدعى الكنتيناريون، لكنّه سرعان ما أرغم على الاستسلام أمام اندفاع رعاياه الغاضبين. وقيل إنّه انتزع الصليب من عنقه وخلع الوشاح القرمزي، واعتمر لبادةً مقرّنةً كتلك التي يعتمرها البرابرة، وصعد، سالكاً متاهات البوكوليون، إلى متن مركبه مصطحباً معه زوجته والمومس مارابتيكا التي كان مولعاً بحبّها. ودخل اسحق البلاط مظفراً، واجتاحت الحشود شوارع المدينة وهاجمت مقرّ الخزانة، أو كما كانت تسمّى: «حمّام الذهب»، ودخلت إلى مخازن السلاح وعمدت إلى نهب كنائس البلاط نازعة كلّ المزركشات التي تزيّن صور القديسين.

كانت الأنباء الواردة تضاعف من مخاوف زوسيمَس، خصوصاً ما أشيعَ عن أنّ أحد أعوان أندرونيكس قد عثرت عليه الجموع وقُتِلَ على الفور. كما أنّ باودولينو وصحبه ارتأوا ألاّ يجازفوا في الوقت الراهن بسلوك أروقة البوكوليون. وهكذا لبثوا في كتاباتس لأيّامٍ عديدةٍ أخرى، لا شاغل لهم سوى تدبير الطعام والشراب.

إلى أن بلغهم أنّ اسحق قد انتقل من البوكوليون إلى قصر البلاشيرن، عند أطراف المدينة الشمالية. الأمر الذي أدّى إلى تخفيف الحراسة على البوكوليون و (بما أنّها صارت خالية مما قد ينهب ويخرَّب) أقفرت من الناس. وفي اليوم نفسه اعتقل أندروميكس عند شاطئ بونتوكسين، واقتيد إلى مجلس اسحق. وهناك استقبلته الحاشية بالضرب والرفس، ونتفت لحيته، وانتزعت أسنانه من فمه، وحلق شعر رأسه، ثمّ بترت يده اليمنى قبل أن يرمى في السجن.

ولمّا بلغهم أنّ الاحتفالات جارية في المدينة على قدم وساق، وأنّ الشوارع تغصّ بالراقصين والمحتفلين، ارتأى باودولينو أنّ بإمكانهم، وسط هذا الهرج، المجازفة بالوصول إلى بوكوليون. فنبّههم زوسيمَس إلى أنّهم ربّما صادفوا أحداً يعرفه، فأجابه أصحابنا ألاّ يقلق لهذا الأمر. وعمدوا بما توفّر لهم من أدوات إلى حلقِ رأسه ولحيته وهو يصرخ منتحباً بأنّهم يلحقون به المهانة لأنّهم يزيلون عنه كلّ شارات الرهبة الكهنوتية. والحقّ أنّ زوسيمَس، وقد نتف مثل بيضة، بدا من دون ذقن، و بدت شفته العليا بارزة على نحو منفّر، وأذناه مقرّنتين كأذني كلبٍ، وبدا، لاحظ باودولينو قائلاً، أشبه بشيكينيسيو، الأحمق الذي كان يجوب شوارع الإسكندرية مخاطباً الفتيات بعبارات نابية، منه إلى الزاهد الملعون الذي طالما حاول أن يظهر، في أعين الناس، بمظهره. وإذ سعوا لتدارك ما افتعلوه به طلوا وجهه بالمساحيق، فبدا، في نهاية المطاف، أشبه بمتشرّد، وهو شخص اعتاد الصبية في لومبارديا اللحاق به وقذفه بالحجارة والثمار الفاسدة صائحين مولولين، لكنّه في القسطنطينية يمثّل مشهداً يومياً مألوفاً، يقابله، قال باودولينو، تجوالك في الإسكندرية مرتدياً زيّ بائع الزبادي الجوّال، أو بائع القريشة كما يسمونها، هم.

كانوا قد اجتازوا المدينة ورأوا أندروميكس محمولاً على ظهر جمل أجرب مقيّداً بالأغلال، وقد بدا أجرب مثل ركوبته، شبه عارٍ، وقد غطي معصمه الأيمن المبتور بجلطةٍ من الخرق الدامية، فيما تخثّر الدم الجامد

على خدّيه الضامرين وقد فقئت إحدى عينيه. واجتمع من حوله سكان المدينة الأكثر حرماناً الذين كان، لوقت طويل، سيّدهم وحاكمهم الأوحد؛ جزّارون ودبّاغون وحثالة كلّ الحانات، اجتمعوا كما تجتمع أسراب الذباب في الربيع حول روث الخيل، وراحوا يضربون رأسه بعصيهم، ويدسون في منخريه زبل البقر، ويضغطون على انفه بالإسفنج المبلل ببول الدواب، ويشكّون فخذيه، والأكثر رأفةً من بينهم يقذفونه بالحجارة وهم ينعتونه بالكلب السعران وابن كلبة حائلة. من نافذة أحد المواخير دلقت عليه بغيّ محتوى قِدْرٍ من الماء المغلي، ثمّ ازداد هياج الجموع، فسُحِبَ من على ظهر الجمل وعلّق من رِجْليه بين عمودين قريبين من نصب الذئبة التي ترضع رومولوس وريموس.

أندروميكس الذي لم تبدر منه شكوى، بدا بأفضل حال من جلاّديه. كان يكتفي بالتردادِ متمتماً: «كيريالايسون، كيريالايسون»، ويسأل لِمَ التنكيل بجثمان ميت. فقد نزعت عنه، وهو المعلّق من رجليه، البقية المتبقية من ثيابه، ثمّ عمد أحدهم إلى بتر أعضائه التناسلية بسيفه، وشكّه آخر برمحه في فمه، غارزاً إيّاه حتّى أحشائه، فيما آخر يخوزقه من دبره. وكان بينهم لاتينيون يتدافعون، شاهرين سيوفهم العريضة من حوله، راقصين ملوّحين بها نازعين لحمه عن عظامه، وربّما ملكوا، هم وحدهم كلّ الحقّ في الثأر نظراً لما أنزله أندروميكس من صنوف التنكيل بسلالتهم لسنوات مضت. وفي آخر الأمر، تمكّن البائس، وهو على الرمق الأخير، أن يرفع معصمه الأيمن المبتور إلى فمه كأنّه يريد أن يشرب من دمه لكي يعوّض ما يفقده منه نزفاً. وعلى الأثر، مات.

لم يتوقف أصحابنا لشهود ما جرى وحاولوا عبثاً أن يصلوا إلى نواحي بوكوليون وأدركوا أنّ الوصول إليه مستحيل. فقد أمر اسحق الذي هالته أعمال التخريب والنهب، حراسه بأن يضربوا طوقاً من حوله لحمايته، ومن يجازف بخرق الطوق يقتل على الفور.

«ومع ذلك بإمكانك أنتَ يا زوسيمس أن تمرّ، قال باودولينو. الأمر

بسيط جداً، تدخل وتأخذ الخارطة ثمّ تأتي بها إلينا.

- وماذا لو ذبحوني؟

- في حال تمنّعك سنذبحك نحن.

- قد تكون التضحية بنفسي مبرّرة لو أن الخارطة موجودة في القصر. ولكن، إن أردتم الحقّ، الخارطة ليست هناك.»

رمقه باودولينو بنظرات من يستهول قولاً سفيهاً كهذا. «هل يعني هذا، أجابه ساخطاً، أنّك الآن تنطق أخيراً بالحقيقة؟ ولِمَ واصلت كذبك إلى الآن؟

- كنت أحاول كسب الوقت. وكسب الوقت ليس خطيئة. الخطيئة في نظر الكاهن الحقّ هو هَدر الوقت.

- لنقتله حالاً، قال الشاعر. لن تسنح فرصة أفضل من هذه حيث المقتلة على أشدّها، والضحايا كثر. فلنقرّر من سيقتله خنقاً، وينتهي الأمر.

- مهلاً، قال زوسيمس. لقد علّمنا الربّ كيف نحجم عن الإتيان بما لا منفعة لنا منه. لقد كذبت، هذا صحيح، ولكني فعلت ذلك لصالحِ ما.

- أي صالحِ هذا؟ صاح باودولينو حانقاً.

- لصالحي أنا، أجاب زوسيمس. فقد كان لي كلّ الحقّ في انقاذ حياتي التي كنتم تريدون انتزاعها مني. فالكاهن، شأن الكروبيين والساروفيم، يجب أن يكون بصيرةً كلّه، أي بعبارة أخرى (وهذا ما أفهمه من كلام الآباء القديسين في الصحراء) يجب أن يُعْمِلَ الحيلة والدهاء في مواجهة العدو.

- لكنّ العدو الذي كان آباؤك يتحدثون عنه هو الشيطان لا نحن! قال باودولينو وقد استشاط غيظاً.

- إنّ أحابيل الشياطين لا عدّ لها ولا حصر: إنها تظهر في المنامات، وتولّد الهذيان، وتسعى في خداعنا، وقد تستحيل ملائكةً من

نور وقد تجنّبك التجربة لحين كيما تشعرك بطمأنينة كاذبة. فما عساكم بفاعلين لو كنتم مكاني؟

- ما عساكَ بفاعلٍ أنتَ الآن، أيّها اليوناني المقزّز، لكي تحفظ حياتك مرّة أخرى؟

- سوف أنطق بالحقيقة، على جري عادتي. إنّ خارطة كوسمس موجودة بالتأكيد، ولقد رأيتها بعينيّ هاتين. أمّا أين هي الآن، فهذا ما لا أعرفه ولكني أقسم بأني أحفظها مرسومة، كما هي، في ذهني. . .» وراح يلطم جبينه الأملس الذي أزيل عنه الشعر. «بإمكاني أن أطلعكَ، يوماً بيوم، المسافات التي تفصلنا عن بلاد الراهب جان. فالحال، أني لا أستطيع، طبعاً، البقاء في هذه المدينة، وأنتم أيضاً ما عدتم تحتاجون إلى البقاء فيها، بما أنكم جئتم إليها للعثور عليّ، وقد عثرتم عليّ، وللعثور على الخارطة ولن تعثروا عليها. إن قتلتموني، لن يتبقّى شيء لكم. أمّا إذا اصطحبتموني معكم فأقسم بالرسل القديسين بأني سأكون عبداً لكم وبأني سأكرّس أيامي لإيجاد طريق تفضي بكم مباشرةً إلى بلاد الراهب. إن عفوتم عنّي لن تخسروا شيئاً إلاّ فماً إضافياً لتطعموه. وإن قتلتموني خسرتم كلّ شيء. والقرار بيدكم.

- إنّها وربّي أشدّ الوقاحات وقاحة، لم أشهد لها مثيلاً في حياتي كلّها»، قال بورون الذي وافقه الجميع على قوله. كان زوسيمس ينتظر الجواب صامتاً، مصطنعاً بعض الرصانة. همّ ربّي سليمان بالقول: «إنّ القدوس الذي تبارك. . .»، لكنّ باودولينو قاطعه قائلاً: «دعنا من الأمثال، يكفينا ما سمعناه عن لسان هذا الدجّال الماكر. إنّه ثعلب دجّال لكنّه على حقّ. يجب أن نصطحبه. وإلاّ عدت إلى بلاط فردريك خالي الوفاض ولحسب إذ ذاك أننا أنفقنا ماله على مباهج الحياة في الشرق. فلنعد إليه بسجين على الأقلّ. ولكن عليك أن تحلف يا زوسيمس، عليك أن تحلف الآن بأنك لن تحاول أن تخدعنا ثانية. . .

- أحلف بالرسل الاثني عشر جميعاً، قال زوسيمس.

– إنهم أحد عشر رسولا أيّها البائس، أحد عشر، صاح به باودولينو ممسكاً بياقة ثوبه، فإنْ قلت اثني عشر كان يهوذا في عدادهم!

– حسناً إذاً: أحد عشر، أحد عشر.»

«هكذا إذاً، قال نيسيتاس، تلك كانت رحلتك الأولى إلى بيزنطية. فلا عجب، بعد ما شهدت، أن تعتبر بأنّ ما يجري الآن هو تطهير للماضي.

– اعلم يا سيّد نيسيتاس، قال باودولينو، أني لم أكن يوماً من محبّذي عمليات التطهير كما تسمّيها. قد تكون الإسكندرية ليست أكثر من دسكرة بائسة، ولكننا، في ديارنا، عندما لا يروقنا حاكمنا نقول له عم مساءً ونعيّن قنصلاً آخر. حتّى فردريك، قد يكون غضوباً متقلّب المزاج، لكنّه لا يعمد إلى خصي أبنا عمومته إذا سببوا له إزعاجاً، بل يهبهم دوقية إضافية. غير أنّ هذه ليست هي المسألة. المسألة هي أني كنت قد بلغت التخوم القصوى للعالم المسيحي، وكان يكفي أن أتجه شرقاً أو جنوباً لأصل إلى بلاد الهند. ولكننا كنا قد أنفقنا كلّ مالنا، ولذلك لكي أذهب إلى الشرق كان ينبغي لي أن أعود إلى الغرب. وكنت قد بلغت الثالثة والأربعين، وأنا أسعى وراء الراهب جان منذ كنت في السادسة عشرة أو نحوها، وكان عليّ أن أؤجّل رحلتي مرّة أخرى.»

22

باودولينو يفقد أباه ويعثر على الغرادال

كان الجنويون قد أوفدوا بوياموندو برفقة تيوفيل للقيام بجولة تمهيدية في المدينة واستطلاع الأحوال فيها، لعلّها صارت مواتية. وكانت الأحوال مواتية، بحسب ما نقلوه لدى عودتهم، ذلك أنّ السواد الأعظم من الحجاج بدا منصرفاً إلى اللهو في الحانات، أمّا المتبقون فقد اجتمعوا في كنيسة القديسة صوفيا لكي يشاهدوا بأعينهم الشرهة كنز الذخائر التي كدّست فيها.

«منظر يخلب البصر!» قال بوياموندو. سوى أنّه أردف قائلاً إنّ جمع الغنائم قد استحال هرجاً لغوغاء. كان البعض يتظاهر بتسليم غنيمته فيضع فوق الكومة حفنةً من الخردوات لكنّه يختلس، في الخفاء، عظمَ قديس ويدسّه بين ثنيات ثوبه. لكن، وبما أنّ لا أحد منهم كان يرغب في أن يقبض عليه متلبساً بسرقة ذخيرة، تشكّلت عند مدخل الهيكل سوق مرتجلة صغيرة يرتادها الميسورون من أهل المدينة وبعض المهرّبين الأرمن.

«وهكذا، قال بوياموندو ساخراً، كان اليونانيون الذين نجوا ببعض النقود البيزنطية لأنهم أخفوها في مواضع حميمة من أجسادهم، ينفقونها في شراء عظم الساعد للقديس باخوس الذي ربّما لا بل من المؤكّد أنّه طالما كان موجوداً في الكنيسة المجاورة! ولعلّهم كانوا بدورهم يعاودون بيعه للكنيسة، من يدري؟ فاليونانيون لا تنقصهم الحيلة. إنّه معلف هائل،

ثمّ يزعمون أنّ هاجسنا، نحن الجنويين، النقود، والنقود فحسب.

– ولكن ما الذي كانوا يجلبونه إلى الكنيسة؟» سأل نيسيتاس. الحقّ أن رواية تيوفيل الموجزة كانت على قدر أكبر من الدقّة. لقد رأى العلبة التي تحتوي على رداء المسيح القرمزي، وقطعة عمود الجَلْد، والإسفنجة التي علّقت على قصبة ورفعت إلى سيّدنا المحتضر، وإكليل الشوك، وجعبة حفظت فيها كسرة من خبز العشاء الأخير، تلك التي أعطاها يسوع ليهوذا. ثمّ جاء جامع ذخائر بشعيراتٍ من لحية المصلوب كان انتزعها اليهود بعد إنزال السيّد عن الصليب، وكان جامع الذخائر ذاك مرتدياً ملابس المسيح تلك التي اقتسمها حراسه بالقُرعة فيما بينهم. ثمّ عمود الجَلْدِ بأكمله.

«– حتّى أني رأيت خرقةً من ثوب العذراء، قال بوياموندو.

– إنّه لأمر محزن حقّاً! قال نيسيتاس متأسياً. إذا رأيت خرقة واحدة من الثوب فهذا يعني أنّهم تقاسموه. كان الثوب محفوظاً بأكمله في قصر البلاشيرن. فمنذ زمن بعيد ذهب المدعوان غالبيو وكانديدو في رحلة حج إلى فلسطين، ولدى وصولهما إلى كفرناحوم قيل لهما إنّ رداء العذراء محفوظ في دارة أحد اليهود. فتقرّبا منه وصادقاه وقضيا الليلة في ضيافته وعمدا خلسةً إلى أخذ مقاسات الصندوق الخشب الذي وضع فيه الرداء، وأوصيا، حال وصولهما إلى أورشليم على صندوق مماثل، ثمّ عادا إلى كفرناحوم واستبدلا الصندوق تحت جنح الليل وأحضرا الثوب إلى القسطنطينية، حيث شيّدت كنيسة الرسولين بطرس ومرقس لحفظه.»

وأضاف بوياموندو أنّ أقاويل سرت مفادها أنّ فارسين مسيحيين ما زالا ممتنعين عن إعادة رأسين للقديس يوحنا المعمدان كانا أستوليا عليهما في وقت سابق، واحتفظ كلّ منهما برأس زاعماً أنّه رأس المعمدان الحقيقي. تبسّم نيسيتاس كأنّه يتفهّم ما يشاع: «كنت أعلم أنّ أهل هذه المدينة يقدّسون الرأسين دونما تفريق؛ فقد أحضر تيودور الأكبر الرأس الأوّل ووضعه في كنيسة البشير. غير أنّ جوستنيانوس عثر على رأس آخر

في حمص. وأعتقد أنّه وهبه لأحد الأديرة النسكية، ثمّ قيل إنّه أعيد إلى هنا من دون أن يعلم أحد أين مكانه بالضبط.

– وهل يعقل أن ينسى أحد ذخيرة بكلّ ما تعنيه من قَدْرٍ وقيمة؟ سأل بوياموندو.

– إنّ ورع الناس على قَدْرٍ من التغيّر. فقد تمضي سنوات والناس يجلّون رفاتاً مقدّساً، ثمّ يتحوّل هذا الإجلال إلى أمر جديد أكثر إعجازاً، ويطوى الأوّل في غياهب النسيان.

– ولكن أيّ الرأسين هو رأس المعمدان حقاً؟ سأل بوياموندو.

– حين يجري الكلام على أشياء مقدّسة تبطل المعايير البشرية. فمتى مثلتُ أمام أحدهما، لا فرق، أؤكّد لك أنني في انحنائي للثمه أشتمُّ العبق الروحي الذي ينبعث منه، فأدرك حتماً أنّه رأس المعمدان الحقّ.»

في تلك اللحظة وصل بيفيريه هو أيضاً عائداً من المدينة. وزعمَ أنّ أموراً مذهلة تجري هناك. فقد أمر الدوج، للحؤول دون السرقات التي قد يرتكبها الجند مباشرةً من كوم الغنائم في كنيسة القديسة صوفيا، بأن يجرى إحصاء أوّلي عاجل للموجودات، كما استدعى بعض الرهبان اليونانيين للتعرّف على الذخائر المختلفة. وهكذا تبيّن، بعد أن أرغم معظم الحجاج على تسليم غنائمهم، ليس فقط أنّ بين ما جُمِعَ في الهيكل هناك رأسين ليوحنا المعمدان، فهذا أمر صار معلوماً، بل هناك أيضاً إسفنجتان للمرّ والخلّ، وإكليلان من الشوك، ناهيك عن الأشياء الأخرى. إنها حقاً لمعجزة، صاح بيفيريه وهو يرمق باودولينو مواربةً، فأثمن ذخائر بيزنطية قد تضاعف عددها كالخبز والسمك. بعض الحجاج رأى في ذلك علامة من السماء لنصرته، فراح يصرخ بأعلى صوته، أنّه الآن وقد تكاثرت هذه النفائس النادرة الوجود بهذا المقدار، يتعيّن على الدوج السماح لكلّ منا بأن يحتفظ بما غنمه.

«لكنّها معجزة في صالحنا، قال تيوفيل، فعلى هذا النحو لن يعلم اللاتينيون أيّ الذخائر هي الحقّة، وهكذا سيضطرون إلى تركها هنا.

- لستُ واثقاً مما تقول، قال باودولينو. فكلّ أمير أو ماركيس أو تابع سيسرّ طبعاً بالاحتفاظ لنفسه بذخيرة مقدّسة من شأنها أن تستقطب جموع المؤمنين والهبات. وإذا قيل فيما بعد إنّ هناك ذخيرة مماثلة على بُعد آلاف مؤلّفة من الأميال، قال الناس إنّها مزيّفة بالتأكيد.»

لبث نيسيتاس مطرقاً، مستغرقاً في التفكير. «إني لا أؤمن بهذه المعجزة. فالربّ لا يربك عقولنا بذخائر قديسيه... قل لي يا باودولينو، ألم تلجأ، خلال الأشهر المنصرمة، ومنذ قدومك إلى المدينة، إلى بعض الاعيبك بشأن الذخائر؟

- سيّد نيسيتاس، أرجوك!» قال باودولينو وقد شعر بالإهانة. ثمّ بسط يديه كأنّه يودّ بذلك أن يخفّف من غلواء محاوريه. «في نهاية المطاف، إذا كان ينبغي لي أن أحكي لك كلّ شيء فسأجدني مرغما على سرد قصّة الذخائر تلك. ولكنّي سأحكيها فيما بعد. ثمّ أنت، نفسك، قلت إننا حين نتحدّث عن الأمور المقدّسة ينبغي أن نبطل المعايير البشرية. أمّا الآن فقد تأخّر الوقت، وأعتقد أننا نستطيع أن ننطلق، تحت جنح الظلام، في غضون ساعة من الزمن. فلنبقَ على أهبَتِنا.»

كان نيسيتاس، طلباً لما يشدّد عزيمته قبل سفرته، قد أمر تيوفيل منذ ساعاتٍ بأن يعدّ له طبق **المونوكيترون**، الذي يستغرق طبخه بعض الوقت. وكان عبارة عن قِدْرٍ من البرونز يحتوي لحم العجل والخنزير، وبعض العظم الذي لم يجرّد اللحم عنه جيّداً، بالإضافة إلى الكرنب الإفريجي، وهذه كلّها مشبّعة بالدهن. ولأنّ الوقت كان داهماً لا يتّسع لعشاء باذخ بحسب الأصول، تخلّى الباحث في اللغات عن عاداته الحسنة وراح يغرف من القدر لا بثلاث أصابع وحسب بل بجماع كفّيه. كأنّه بذلك كان يستهلك ليلة العشق الأخيرة للمدينة التي يعشقها عذراءَ وبغيّاً وشهيدة. أمّا باودولينو ففقد شهيّته للتوّ واكتفى باحتساء النبيذ المنكّه بالراتنج، فمن يدري إذا كان سيجد نبيذاً مثله في سلمبريا.

سأله نيسيتاس عمّا إذا كان زوسيمَس ضالعاً، على نحو ما، في

حكاية الذخائر هذه، فأجابه باودولينو انّه يفضّل الشروع في سرد القصة بحسب ترتيب أحداثها.

«إثر الفظائع التي شهدناها هنا في المدينة، عدنا من طريق البرّ لأن ما تبقّى لدينا من المال لا يكفي تكاليف الرحلة بحراً. وقد أتاحت حال الفوضى السائدة آنذاك لزوسيمَس، وبمعونة أحد أعوانه الذي كان على وشك التخلّي عنه، أن يتدبّر، والله وحده يعلم كيف، عدداً من البغال. وخلال الرحلة تمكنا من تدبّر أمورنا، من خلال الصيّد في الغابات أحياناً، أو من خلال استضافتنا، في الطريق، في أحد الأديرة، وفي آخر المطاف وصلنا إلى البندقية، ومن ثمّ إلى السهول اللومباردية. . .

- وزوسيمَس، ألم يحاول الفرار؟

- لم يكن ذلك بمستطاعه. فمنذ ذلك الوقت، وإثر عودتنا، وخلال إقامتنا في بلاط فردريك، وأثناء رحلتنا إلى أورشليم التي قمنا بها فيما بعد، أي خلال أربع سنوات، بقي مقيّداً بالسلاسل. كنا نحرّره من قيده طالما هو معنا، ولكن حين نتركه وحده يبقى مقيّداً إلى السرير، أو إلى عمود، أو إلى شجرة، بحسب المكان الذي نكون فيه، أمّا إذا سرنا راكبين عمدنا إلى ربطه باللجام فإذا حاول الترجّل عن ظهر ركوبته جذبه إليه وإذا جذبه إليه عدت الدابة به حروناً لا تلوي على شيء. وخشية ألاّ يحول كلّ هذا دون تغافله عن واجباته، كنت أصفعه بجماع راحة يدي، كلّ مساء قبل أن يأوي إلى فراشه. حتّى أنّه اعتاد الأمر، وبات يتوقّعه قبل النوم، مثل قبلة الأمّ.»

في البداية، وطوال الرحلة، لم يكفّ أصحابنا عن حضّ زوسيمَس على استذكار الخارطة، وكان هذا الأخير يستجيب طوعاً لطلبهم، مستذكراً كلّ يوم تفصيلاً جديداً، إلى أن صار بمقدوره أن يجري حساباً دقيقاً على للمسافات الواقعية.

«هكذا، على مرمى النظر، كان يقول خاطّاً بإصبعه على تراب

الطريق، يتطلّب الذهاب من تزرينيستا، بلاد الحرير، إلى بلاد فارس، سيراً لمئة وخمسين يوماً، واجتياز فارس بأسرها ثمانين يوماً، وثلاثة عشر يوماً من التخوم الفارسية إلى سلوقية، ومئة وخمسين يوماً من سلوقية إلى روما إلى بلاد الإيبيريين. أمّا اجتياز العالم من طرفه إلى طرفه فيستغرق أربع مئة يوم تقريباً إذا قطعت ثلاثين ميلاً في اليوم. ناهيك عن أن الأرض طويلة أكثر منها عريضة - وسوف تذكر دائماً ما جاء في سفر الخروج من أنّ مائدة الخيمة طولها ذراعان وعرضها ذراعٌ واحدة. وهكذا من الشمال إلى الجنوب بمقدورنا إذاً أن نعدّ خمسين يوماً من المناطق الشمالية إلى القسطنطينية، وخمسين يوماً أخرى من القسطنطينية إلى الإسكندرية، وسبعين يوماً من الإسكندرية إلى أثيوبيا على الخليج العربي. أي ما مجموعه مئتا يوم تقريباً. وبالتالي، إذا انطلقت من القسطنطينية باتجاه أقصى بلاد الهند، وإذا وضعت في حسابك أنّك تسلك اتجاهاً منحرفاً، وأنّ عليك أن تتوقف مراراً لكي تهتدي إلى طريقك، ومن يدري كم مرّة ستعود أدراجك في الأثناء، فأقول إنّك سوف تصل إلى بلاد الراهب جان في غضون عامٍ واحد من المسير.»

أمّا عن الذخائر فقد سأل كيوت زوسيمَس إذا كان سبق له أن سمع شيئاً عن الغرادال. طبعاً، أجاب زوسيمَس، وعن لسان الغالاطيين الذين يقيمون في جوار القسطنطينية، أي أناس يعرفون جيّداً، بحسب التقليد، أخبار الرهبان القدماء في أقصى الشمال. وسأله كيوت إذا كان سمع شيئاً عن المدعو فايرفيز الذي قيل إنّه هو من أحضر الغرادال للراهب جان فقال زوسيمَس إنّه بالتأكيد يعرف عنه شيئاً، ولكنّ باودولينو بقي على ارتيابه في صدق ما يقول. «إذاً، وماذا يكون هذا الغرادال؟» سأله قائلاً. «إنّها الكأس التي بها كرّس المسيح الخبز والنبيذ، أنتَ أيضاً، قلت ذلك». خبز في كأس؟ لا، النبيذ، أمّا الخبز فوضع على طبق، على صينية الكأس، على صينية صغيرة. ولكن في هذه الحال، ماذا يكون الغرادال، أهو الطبق أم الكأس؟ الاثنين معاً، قال زوسيمس مجازفاً. بعد التفكير ملياً، قال الشاعر

وهو يرمقه بنظرات مرعبة، قد تكون الحربة التي طعن بها لونجينس جنب المسيح. هذا هو الصواب حقاً، إنّها الحربة، بدا له أنّه عثر على الجواب. عندئذ لطمه باودولينو بظاهر يده وإنْ لم يحن بعد ميقات النوم، غير أنّ زوسيمَس راح يبرّر ارتباكه: حسناً لم تكن الشائعات التي سرت مؤكّدة، غير أنّ شيوعها بين غالاطيي بيزنطية كان البرهان على أن الغرادال موجود بالفعل. وما بقي الحال على ما هو عليه لن يعرف عن الغرادال إلاّ ما يُعرف عنه الآن، أي القليل القليل.

«طبعاً، قال باودولينو، لو أنّي أحضرت الغرادال لفردريك بدل مستحقّ الشنق الذي هو أنت. . .

– ما زال بمقدورك أن تحضرها له، قال زوسيمَس. ما عليك إلاّ أن تجد الإناء الملائم. . .

– رائع، ذلك أنّها أصبحت إناء. ما سأفعله هو أني سأدسّها في إنائك أنتَ! أنا لست مزيّفاً مثلك!» رفع زوسيمَس كتفيه وراح يتحسّس ذقنه باتجاه وبر لحيته النابتة، لكنّه صار، بسحنته التي تشبه سمكةً بلا حراشف، أكثر دمامة مما كان عليه حين كان حليقاً نظيفاً أملسَ مثل كلّة.

– «ثمّ، قال باودولينو حانقاً، حتّى لو كنا نعلن أنّها إناء أو كأس، فما السبيل إلى التعرّف إليها حين نعثر عليها؟

– لا تقلق لهذا الشأن، قال كيوت مقاطعاً وقد تاهت عيناه في عالم أساطيره، سوف ترى النور، وسوف تنشق العطر. . .

– فلنأمل ذلك، فلنأمل»، راح باودولينو يردّد قائلاً. أمّا ربّي سليمان فراح يهزّ رأسه بقوة قائلاً: «لا بدّ أنّه شيء سرقتموه أنتم الوثنيين، من هيكل أورشليم عندما عمدتم إلى نهبه وشتّتمونا في جهات العالم الأربع.»

وصلوا فيما كانت الاستعدادات جارية لعقد قران هنري، الابن الثاني لفردريك، والذي توّج ملكاً على الرومانيين، على كوستانزا دالتافيلا.

وكان الإمبراطور قد بات يعلّق كلّ آماله على ابنه الأصغر ذاك. ليس لأنّه لا يكنّ حبّاً لابنه الأكبر، بل على الضدّ من ذلك، فقد عيّنه دوقاً على سواب، ولطالما أحاطه بحبّ يصحبه الحزن، كما يحبّ عادةً الأبناء الذين لم تكتب لهم حياة متعافية. ألفاه باودولينو شاحباً، سعّالاً، يغمز دائماً بجفنه الأيسر كأنّه يذبّ عنها الذباب. وحتّى أثناء تلك الاحتفالات الملكية، كان غالباً ما يخلو بنفسه وقد لمحه باودولينو مبتعداً سالكاً طريقاً ريفيةً وهو يضرب الأيك بسوط كأنّه بذلك يهدّئ أمراً يعتمل في أعماق نفسه ويضنيها.

«بمشقّةٍ يبقى على قيد الحياة»، قال له فردريك ذات مساء. كان ذو اللحية البيضاء يشيخ أكثر فأكثر، ويمشي كالمصاب بالإجْل. لم يتخلّ عن هواية الصيد، وكلّما صادف نهراً ارتمى، كسابق عهده، سابحاً في مياهه. غير أنّ باودولينو كان يخشى أن يصاب ذات يوم بلسعة الماء البارد التي تتسبّب بجلطة، وناشده التحوّط لأمر كهذا.

لكي يواسيه حكى له ما أحرزته رحلتهم من نجاح، واعتقالهم ذلك الكاهن المنافق، وحكى له أنّهم قريباً سيحصلون على الخارطة التي ستقودهم إلى مملكة الراهب جان، وأنّ الغرادال ليست مجرّد خرافة وأنّه ذات يوم سيضعها بين يديه. وكان فردريك يهزّ رأسه منصتاً. «الغرادال، أواهِ الغرادال، يتمتم قائلاً ساهمَ العينين، الله وحده يعلم أين هو، طبعاً إذا قيضَ لي أن أحصل عليه لتمكّنت... لتمكّنت...» ثمّ ينهمك برسالة مهمّة، فيزفر متحسّراً وينصرف لتدبير أمور بلاطه بمشقّة بادية.

كان بين الحين والحين يختلي بباودولينو ويسرّ إليه كم هو مشتاق لبياتريس. ولكي يعزّيه كان باودولينو يحكي له كم هو مشتاق لكولندرينا. «إيه، إني اعلم، كان فردريك يقول له، أنتَ من أحبّ كولندرينا، تدرك كم كان حبي عظيماً لبياتريس. ولكنك لا تدري، من دون شكّ، كم كانت بياتريس جديرة بأن تُحَبّ.» فيشعر باودولينو بأنّ جراحه القديمة قد نُكثت من جديد.

خلال فصل الصيف، عاد الإمبراطور إلى جرمانيا، لكنّ باودولينو لم يستطع اللحاق به. فقد بلغه أنّ أمّه توفيت. فهرع إلى الإسكندرية، وكان في طريقه لا يكفّ عن التفكير في تلك المرأة التي أنجبته والتي لم يظهر لها يوماً أي قدرٍ حقٍّ من الحنان، ما خلا ليلة الميلاد تلك، منذ سنوات عدة، حين ألفاها تولّد النعجة (وحقّ السماء، قال في سرّه، لقد مضى على ذلك أكثر من خمسة عشر عاماً، لا بل ربّما ثمانية عشر عاماً). لمّا وصل كانت أمّه قد دفنت والتقى غالياودو الذي كان قد هجر المدينة واعتزل في دارته القديمة في الفراسكيتا.

كان مستلقياً، بجنبه قصعةٌ خشبٌ مليئة بالنبيذ، خائراً، محرّكاً يده بمشقّة بالغة لذبّ الذباب عن وجهه. «يا باودولينو، بادره بالقول، عشر مرارٍ في اليوم الواحد كنت استشيط غضباً من تلك المرأة المسكينة، مستنزلاً عليها كلّ صواعق السماء. والآن وقد صعقتها السماء ما عدت أعلم ماذا أفعل. في الداخل، ما عدت أجد شيئاً من شيء، الأشياء كلّها هي التي كانت تضعها في أماكنها. ما عدت أجد حتّى المذرى لإزالة روث البقر، وفي الإسطبل الدواب صار الزبل أكثر من العلف. لذلك، ولأجل هذا، قرّرت أن أموت أنا أيضاً ولا بأس إن فعلت.»

عبثاً حاول الابن الاعتراض. «يا باودولينو، أنت تعلم أنّ الناس في ناحيتنا يتميّزون بالعناد، وعندما يصمّم أحدنا على أمر لا سبيل لانتزاعه من رأسه. أنا لست تنبلاً مثلك، يوم هنا ويوم هناك، أحيا حياة الأسياد المبهجة! لست من الناس الذين لا شاغل لهم إلاّ تدبير مقتلة الآخرين، وإذا قيل لهم ذات يوم أنّ ساعة الأجل قد حانت، بالوا في سراويلهم. بالعكس، لقد عشتُ ولم أصب ذبابة بأذى، بجانب امرأة كانت قديسة بحقّ، أمّا الآن وقد صمّمت على الموت فلأمت. وأنتَ دعني أرحل كما أريد، وأنا مسرور كلّ السرور، لأنّ الأسوأ بالنسبة لي هو أن أبقى على الحال التي أنا فيها.»

كان من وقتٍ لوقتٍ يتجرّع قليلاً من النبيذ، ثمّ ينام، ثمّ يفتح عينيه

مجدداً ويسأل: «هل متُّ؟» «لا يا أبي، يجيبه باودولينو، لحسن الحظّ أنك ما زلت على قيد الحياة.» «آه، يا لبؤسي، كان يقول، يوم آخر، ولكن غداً سأموت، اطمئنّ.» وكان يرفض بعناد أن يتناول أي طعام.

كان باودولينو يلامس جبين غالياودو ويطرد الذباب عنه، وإذ ملكته الحيرة فيما قد يفعل لمواساة أبيه المحتضر، واستبدّت به الرغبة في أن يثبت له بأنّه ليس ذاك الجحش الذي طالما حسب أنّه هو، راح يحكي له خطّته الجليلة التي كرّس نفسه لإنجازها منذ ردح غير معلوم من الزمن، والطريقة التي سيتبعها لبلوغ مملكة الراهب جان. «لو تعلم كم هي مدهشة تلك الأماكن التي سأكتشفها. هناك مكان يعيش فيه طائر لم يره أحد من قبل، الفينيق الذي يحلّق خمسين سنة. وفي ختام الخمسين سنة يعدّ الرهبان مذبحاً يرشون عليه التوابل والكبريت، وبعد ذلك يحط الطائر الذي يشتعل ويستحيل رماداً. وفي اليوم التالي، تولد بين الرماد دودة قزّ، وفي اليوم الذي يلي يكون طائر قد تخلّق، وفي اليوم الثالث ينطلق هذا الطائر محلّقاً. ليس أضخم حجماً من نسر، وعلى رأسه عرف أرياش مثل طاووس، عنقه ذهبي اللون، منقاره نيليّ، جناحاه أرجوانيان وذنبه مخطّط بالأصفر والأخضر والأحمر. هكذا لا يموت الفينيق أبداً.

- كلّ هذه ترهات في نظري، قال غالياودو. فما كنت أرجوه أنا هو أن تبعث لي روزينا من الموت، تلك البقرة المسكينة التي فزرتها لفرط ما حشوتها بالحنطة، وكانت نهايتها مروّعة بخلاف الفيليق الذي تتحدّث عنه.

- لدى عودتي سأحضر لك عسل الندى الذي لا يوجد إلاّ على جبال بلاد أيوب. إنّه أبيض اللون حلو المذاق، ومصدره الندى الذي يتساقط من السماء على العشب، ويجمد. إنّه ينقّي الدم ويطرد الكآبة.

- ينقّي خصيتيّ. قد يطيب هذا لأهل البلاط القذرين الذين لا يرجى نفعٌ منهم، والذين يأكلون دجاج الأرض ودجاج الماء.

- ألن تأكل ولو كسرة خبز؟

– لا يتسع وقتي لذلك، إذ ينبغي لي أن أموت غداً.»

في صباح اليوم التالي، حكى له باودولينو أنّه سيعطي الإمبراطور الغرادال، تلك الكأس التي شرب منها سيّدنا يسوع المسيح. «حقاً؟ وكيف هي هذه الكأس؟

– من الذهب المرصّع باللازورد.

– هل أدركت الآن أن رأسك هذا فارغ من أي عقل؟ إنّ سيدنا المسيح كان ابن نجّار وكان صحبه من الفقراء مثله؛ لقد ارتدى الثوب نفسه طيلة حياته، كما قال لنا الكاهن في القدّاس، ولم يكن في هذا الثوب خياطة لكي لا يبلى قبل أعوامه الثلاثة والثلاثين، ثمّ تأتي وتقول لي إنّه كان يحتسي النبيذ بكأس من ذهب ولاسَهْوَرد. كذبك غير متقن ومفضوح وواضح. لكانت رأفة من السماء لو أنّه امتلك قصعةً مثل هذه، نحتها أبوه من جذع يابس، كما فعلت أنا، قصعة متينة تدوم العمر كلّه ولا تنكسر، حتّى لو ضربت بدبّوس، وعلى ذكر القصعة، هاتِ اعطني جرعة أخرى من دم يسوع المسيح، لأنّه هو وحده يعينني على الموت بكرامة.»

بحقّ الأبالسة جميعاً، راح باودولينو يردّد في سرّه قائلاً. إنّه محق في ما يقول، إنّه محقّ هذا العجوز البائس. لا بدّ أنّ تكون الغرادال قصعة مثل هذه. بسيطة وفقيرة مثل السيّد المسيح. ولهذا قد تكون هنا في متناول الجميع، ولم يتعرّف عليها أحد من قبل لأنّهم قضوا أعمارهم باحثين عن شيء يبرق.

ليس ذلك لأنّ باودولينو كان، في تلك اللحظات، كثير الانشغال بالغرادال. لم يكن راغباً في رؤية أبيه محتضراً، غير أنّه بات مدركاً أنّه إذا ما تركه يموت إنّما يحقّق له مشيئته. بمضيّ بضعة أيّام ضمر جسم غالياودو العجوز وتقلّص فبدا أشبه بثمرة يابسة، وصار يتنفّس بمشقّة كبيرة، رافضاً حتّى أن يحتسي النبيذ.

«يا أبي، كان باودولينو يقول له، إذا كنت مصمّماً على الموت

تصالح مع سيّدنا يسوع، وسوف تدخل الفردوس الذي هوكبلاط الراهب جان. أنّ الله القدير سيكون جالساً على عرش مهيب عند قمّة برج، وعلى مسند العرش الخلفي ستكون تفاحتان من ذهب، وفي كلّ منهما ياقوتتان تبرقان طوال الليل. أمّا مسنداه الجانبيان فمن زمرّد. الدرجات السبع التي منها يرتقى العرش ستكون من عقيق يمان، وبلور، ويشب، وجمشت، ويشب أسمر، وعقيق أحمر، وزبرجد. ومن حوله أعمدة من ذهب صافٍ. وفوق العرش، يحوم ملائكة منشدين ترانيم عذبة. . .

- وسيكون هناك شياطين تطردني رفساً على مؤخّرتي لأنّ لا متسع في ذلك المكان لمن هو مثلي تفوح منه رائحة ماء المزابل. سدًّ فمك إذاً. . . »

ثمّ جحظت عيناه فجأة وقد أصرّ على إنهاضِ جسمه لكي يجلس فيما باودولينو يسنده. «يا إلهي، ها إني أموتَ الآن حقاً لأني أبصر الفردوس. آهٍ، كم هو جميل. . .

- ماذا تبصر يا أبي؟ سأل باودولينو منتحباً.

- إنّه تماماً كإسطبل دارتنا، لكنه نظيف، وفيه أيضاً روزينا. . . وفيه أمّك القديسة، أيتها البائسة هيا اخبريني الآن أين وضعت المذرى. . . »

أطلق غالياودو نخيراً وأسقط القصعة من يده، ولبث جاحظ العينين شاخصاً في إسطبله السماوي.

مسح باودولينو وجه أبيه براحة كفّه، وبرفق أغمض له عينيه، لأنّه بات قادراً على رؤية ما ينبغي له أن يراه، وهو مغمض العينين. ثمّ ذهب يخبر اهل الإسكندرية بما جرى. أراد الإسكندريون أن يقام للعجوز الكبير مأتم مهيب يليق بمقامه، لأنّه هو من أنقذ المدينة ذات يوم، وقرّ الرأي على رفع تمثاله فوق باب الكاتدرائية.

قصد باودولينو منزل ذويه مرّة أخرى بحثاً عن تذكار ما خاصةً بعد أن اتخذ قراراً بأنّه أبداً لن يعود إلى هناك. رأى قصعة ابيه على الأرضية،

فالتقطها برهبةٍ كأنّها ذخيرة نفيسة. شطفها بالماء جيّداً ليزيل منها رائحة النبيذ، ذلك أنّه إذا قيل ذات يوم إنّها الغرادال، راح يحدّث نفسه قائلاً، فينبغي، بمضي كلّ هذه السنوات منذ العشاء الأخير، أن تكون بلا رائحة، إلاّ تلك الروائح التي قد يشتمّها الناس ظنّاً منهم أنّها الكأس الأصلية. ثمّ لفّها بردائه وغادر.

23

باودولينو في الحملة الصليبية الثالثة

لمّا هبط الظلام على القسطنطينية انطلقوا سائرين. كانوا رهطاً كبيراً، ولكنْ، في تلك الأيام، كانت أرهاطٌ كثيرة من الناس الذين فقدوا منازلهم، ينتقلون، كالأرواح الهائمة من موضعٍ إلى آخر من أرجاء المدينة، بحثاً عن سقيفة تؤويهم لقضاء ليلتهم. وكان باودولينو قد خلع رداء الحجّاج ذي الصليب المخيط خشيةَ أن يستوقفه أحد سائلاً عن الجماعة التي ينتمي إليها فيوقع نفسه في ورطة. في طليعتهم كان يسير كلّ من بيفيريه وبوياموندو وترابولو وغريلو، متظاهرين أنّهم يسلكون الدرب نفسه بمحض المصادفة. غير أنّهم كانوا يتلفتون من حولهم عند كلّ مفترق وناصية، حاملين تحت مشاملهم خناجر طويلة وقد جرّدت من أغمادها.

قبيل بلوغهم كنيسة القديسة صوفيا، تقدّم جلفٌ ذو عينين زرقاوين وشاربين أصفرين، مقترباً من الرهط، وأمسك بيد إحدى الفتيات على الرغم مما بدا عليها من الدمامة والبثور، ساعياً لجذبها عنوةً نحوه. غير أنّ باودولينو قال في سرّه عندئذ أنّ ساعة القتال قد حانت، ومثله فعل الجنويون، لكنّ نيسيتاس فكّر في تدبير آخر ربّما كان أجدى. لقد لمح ثلّة من الفرسان تتقدّم من طرف الزقاق فجثا على ركبتيه مستصرخاً شرفهم أن يقيموا حدّ العدل والرأفة. وكان هؤلاء على الأرجح من رجال الدوج،

فعمدوا إلى زجر البربري بباطن سيوفهم وأرغموه على إعادة الفتاة إلى أهلها.

بعد اجتياز الهيبودروم ارتأى الجنويون أن يسلك الرهط دروباً أكثر أماناً: الأزقة الضيقة التي احترقت بيوتها أو التي تحمل آثاراً واضحة على تعرّضها لنهب منظّم ودقيق. فمثل هذا يؤكّد أن أنحاءها خالية من الحجّاج الذين لا بدّ أن يكونوا في مكان آخر طلباً لما تبقى من مغانم. وعند هبوط الليل كانوا اجتازوا سور تيودوس. وهناك كان ما تبقى من الجنويين في انتظارهم ومعهم البغال. فودّعوا حماتهم ضمّاً وتقبيلاً وأمنيات بالتوفيق، وسلكوا درباً جبلياً تحت سماء ربيعية، ينيرها قمر كأنّه علّق عند الأفق. ومن البحر القريب كان يهبّ نسيم عليل. كانوا قد أخذوا قسطاً من الراحة طوال النهار، ولم تكن الرحلة، فيما بدا، لتتعب زوجة نيسيتاس. أمّا هو فكان منهوكاً، يلهث لكلّ عثرة من دابته، ويطلب منهم، كل نصف ساعة تقريباً، أن يتوقفوا قليلاً ريثما يستعيد أنفاسه.

«لقد أفرطت في تناول الطعام يا سيد نيسيتاس، يقول له باودولينو.

- وهل كنت لتحرم منفياً من آخر أطايب بلاده التي تحتضر؟» يجيبه نيسيتاس. ثمّ يبحث عن جذع شجرة أو صخرة يقتعدها: «فإنّما استراحتي هذه لفرط ما أنا متشوق لسماع تتمة قصتك. أجلس هنا يا باودولينو. أصغ إلى هذه الدعة، وتمتع بروائح الريف العطرة. هيا لنسترح، ولتحكِ لي.»

ولأنهم كانوا يسيرون، خلال الأيام الثلاثة المتتالية، طوال النهار ويستريحون في الليل تحت جنح القمر، اجتناباً للأماكن المأهولة بما لا يعلم إلاّ الله، تابع باودولينو سرد قصته في الهواء الطلق، وفي ظلّ صمت مطبق لا يتخلّله سوى حفيف الأغصان أو هسيس مفاجئ لحيوان ليليّ.

في ذلك الوقت - وكنا في العام 1187 - كان صلاح الدين قد شنّ

حملته الأخيرة على أورشليم المسيحية. وانتصر. وعامل المغلوبين بنبل وبذل لهم الأمان مقابل قطيعة من المال، ولم يعمل السيف إلاّ بفرسان الهيكل جميعاً، أمام السور، لأنّه وإن أجمع الكلّ على نبل أخلاقه حقاً، فلم يكن بمقدور أيّ مرتزقٍ كونديتيير، جديرٍ بالإسم، أن يرأف بخاصة جحافل الأعداء الغزاة، وفرسان الهيكل كانوا هم أيضاً يعلمون ذلك، ويعلمون أنّ لهذه المهنة شروطاً وقبلوا بها: لا مجال للاحتفاظ بأسرى. وعلى الرغم مما أبداه صلاح الدين من النبل، فإنّ أركان العالم المسيحي بأسره قد اهتزّت لنهاية مملكة الفرنج عبر البحار والتي صمدت ما يقارب المئة عام. فدعا البابا كلّ ملوك أوروبا إلى تجريد حملة ثالثة باسم الصليب لكي يحرّر الحجاج مرّة أخرى أورشليم التي سقطت في يد الكفّار.

كان رجاء باودولينو أن ينضمّ إمبراطوره إلى الحملة لأنّها السانحة التي طالما لبث في انتظارها. فالحملة على فلسطين تعني التحرّك باتجاه الشرق على رأس جيش لا يقهر. ولن يستغرق استرجاع أورشليم لمحَ البصر، فلا يبقى بعد ذلك سوى متابعة الطريق باتجاه بلاد الهند. غير أنّه عندها فقط أدرك كم أنّ فردريك صار قانطاً وغير واثق مما سيفعل. كان فردريك قد أحلّ السلام في إيطاليا، لكنّه يخشى إذا ابتعد عنها أن يفقد فيها كلّ ما حقّقه من مكاسب. أو ربّما كان مضطرباً لفكرة القيام بحملة جديدة على فلسطين إذ تذكّره بجريمته خلال الحملة السابقة، عندما هدمَ، وقد استبدّ به الغيظ، ذلك الدير البلغاري. من يدري. كان متردداً. ولا يكفّ عن السؤال ما الذي يفرضه عليه واجبه، وعندما يبدأ المرء بطرح مثل هذا السؤال على نفسه (كان باودولينو يقول) فهذا يعني أنّه ما عاد هناك واجب يلزمه.

«كنت في الخامسة والأربعين، يا سيد نيسيتاس، وكنت بذلك أراهن على حلم العمر كلّه، أي العمر كلّه، باعتبار أنّ حياتي قد نشأت على

هوامش هذا الحلم. ولذا، قرّرت، بوعي كامل مني، واثقاً بحسن طالعي، أن أمنح أبي بالتبني أملاً، علامة سماوية لمهمّته. فبعد سقوط أورشليم كانت تتوافد إلى بلادنا أعداد من الناجين من ذلك الانهيار، وقد مرّ بجوار البلاط سبعة من فرسان الهيكل، والله وحده يعلم كيف، من الناجين من ثأر صلاح الدين. لم يكن هؤلاء من خيرة البشر، ولكنك تجهل ربّما من هم فرسان الهيكل: محبو شراب ونساء، وقد يبيعك أحدهم شقيقته إذا أتحت له أن يداعب شقيقتك - لا بل إذا أتحت له أن يداعب شقيقك الصغير. الخلاصة، أنّي عنيت بهم وأطعمتهم، ورآني الجميع وأنا أصحبهم إلى الخمارات. ولذلك لم أجد مشقّة في أن أقول لفردريك، ذات يوم، إنّ أتباع سمعان الساحر، الوقحين، هؤلاء قد سرقوا الغرادال. كما قلت له إنّ الفرسان كانوا مفلسين فأغدقت عليهم من مالي الكثير مقابلها فحظيت بها. طبعاً أبدى فردريك، للوهلة الأولى، دهشته الكبيرة. ألم تكن الغرادال بحوزة الراهب جان الذي كان يريد، تحديداً، أن يمنحه إياها؟ ألم يقترح عليه أن يذهب للبحث عن جان لكي يحظى منه بهذه التركة المقدّسة كهبة؟ بلى، يا أبتي، كلّ ما تقوله صحيح، ولكن لا بدّ أن أحد المعاونين المكارين قد سرقه من الراهب جان، وباعه لنفرٍ من فرسان الهيكل الذين ساقتهم الأقدار، طلباً للنهب، إلى هناك وهم لا يدرون إلى أين أفضت بهم أقدارهم. ولكن ما حاجتنا إلى فهم الأين والكيف. المهمّ أنّ سانحة أخرى، مذهلة، قد سنحت مجدداً للإمبراطور الروماني المقدّس: أن يسعى للبحث عن الراهب جان لكي يعيد إليه الغرادال. فهو إذ لا يستخدم هذه الذخيرة التي لا تضاهى، لكسب السلطان، بل لأداء واجب، إنما يحظى باعتراف الراهب وبشهرةٍ لا تأفل في سماء العالم المسيحي بأسره. فبين الاستيلاء على الغرادال وبين إعادته، وبين أن يجعل كنزاً وبين أن يحمل إلى حيث فقد، بين أن الاحتفاظ به وبين منحه، بين امتلاكه (كما يحلم الجميع) وبين القيام بتضحية التخلّي عنه التي لا تضاهى - أيّهما يكون الفعل المبارك؟ الأمر

جليّ كعين الشمس، مجد أن تكون الملك المقدّس الحقّ. فبذلك يصبح فردريك يوسف الرّاميّ الجديد.

- كنت تكذب على أبيك.

- كنت أفعل لصالحه ولصالح الإمبراطورية.

- ألم تسأل نفسك، يوماً، ماذا لو عثر فردريك على الراهب جان، وقدّم له الغرادال، ولم يستطع الراهب إلا أن يبدي دهشته حيال هذه القصعة التي لم يرها من قبل؟ فلو حصل ذلك لما قيض لفردريك أن يصبح مجد المسيحية مجسّداً بل مسخرة المسيحية مجسّدة.

- يا سيّد نيسيتاس، أنت أعلم مني بطباع البشر. تخيّل أنك الراهب جان، وأنّ إمبراطور الغرب يأتيك راكعاً بذخيرة مقدّسة مثل هذه، قائلاً إنها ملكك، فتجيبه أنت ساخراً بأنك لم تر من قبل هذا الطبق الذي يليق بحانة؟ هيّا، دعك من هذا! أنا لا أقول إنّ الراهب قد يدّعي بأنّه يعرفها. بل أقول إنّه، مبهوراً بالمجد الذي هبط عليه وهو يعلم يقيناً أنه حارسه، سيتعرّف إليها على الفور، ظنا منه إنّه لطالما امتلكها. هكذا مددت يدي باتجاه فردريك كما لو أنّي أحمل بها لقية ثمينة، وقدّمت له قصعة أبي غالياودو، وأؤكد لك أني في تلك اللحظة كنت أشعر بأني كاهن يقيم شعائره المقدسة. كنت أهب أعطية وذكرى أبي الجسماني إلى أبي الروحي، وكان أبي الجسماني على حقّ: فهذا الشيء الأشدّ تواضعاً بين الأشياء قاطبةً، والذي لازمه طيلة حياته الفانية، كان حقّاً وروحانياً الكأس التي استخدمها المسيح الفقير، الذي لقي الموت من أجل خلاص كلّ الخطأة. ألا يأخذ الكاهن، خلال القداس، الخبز الأردأ والنبيذ الأردأ، فيحيلهما دمَ المسيح وجسده؟

- ولكن أنتَ، لم تكن كاهناً.

- صدقتَ، ولكني لم أقل إنّ هذا الشيء هو دم المسيح، بل قلت إنه احتواه. لم أكن أزعم لنفسي أي سلطان قدسي. بل كنت أشهد.

- زوراً.

- لا. لقد قلتَ لي إنّنا إذا آمنا بأنّ ذخيرة ما أصيلة، أمكننا أن نشتمّ عطرها. نحن إنّما نعتقد بأننا، نحن، نحتاجِ إلى الله، ولكن غالباً ما يكون الله في حاجة إلينا. وفي تلك اللحظة فكّرتُ انه ينبغي أن أمدّ له يد العون. فلا بدّ أنّ تلك الكأس كانت موجودة، باعتبار أن سيّدنا المسيح قد استخدمها. وإذا كانت قد فقدت فالخطأ في ذلك يقع على أحد ما ممن لا شأن لهم. أمّا أنا فأعيد للمسيحية غرادالها. ولن يكذّبني الله في ذلك. والبرهان على ما اقول إنّ رفاقي، حتّى رفاقي، صدّقوا على الفور. فالآنية المقدّسة، كانت هناك، ماثلة أمام أعينهم، وقد غدت بين أيدي فردريك الذي رفعها نحو السماء كما في لحظة وَجْد، فيما خرّ بورون راكعاً وقد رأت عيناه، للمرّة الأولى، الشيء الذي طالما كان موضوع أحاديثه وهذيانه، وصاح كيوت قائلاً إنّه يتراءى له نور عظيم، وأقرّ ربّي سليمان أنه - حتّى لو لم يكن المسيح هو المخلّص الذي ينتظره شعبه - مما لا شكّ فيه أنّ هذا الوعاء ينضح برائحة البخور، وجحظت عينا زوسيمس الرائيتان، وارتسم بشارة الصليب معكوسةً على جري عوائد المنشقين أمثالكم، وراح عبدول يرتعد مثل ورقة تين ويتمتم قائلاً إنّ امتلاك هذه الذخيرة المقدّسة يساوي فتحَ كلّ ممالك عبر البحار - وفُهِم من قوله أنه كان يودّ لو يهب هذه الكأس كعربون حبّ لأميرته البعيدة. أنا، نفسي، اغرورقت عيناي بالدموع، ورحت أسأل في سرّي أي حكمة سماوية هي تلك التي شاءت أن أكون الوساطة في حدث معجز كهذا. أمّا الشاعر، فكان يقضم أظافره، حانقاً. وكنت أدرك مكنون أفكاره: أي أنني أحمق، وأنّ فردريك عجوز ولن يحسن استغلال هذا الكنز، فكان الأحرى بنا أن نحتفظ به لأنفسنا، ثمّ ننطلق باتجاه أرض الشمال، حيث نحظى بمملكة لنا. لقد عاودته أحلام السلطان إزاء ما تبدّى له من وهن الإمبراطور وضعفه. غير أن عزائي كان في إدراكي على الفور أنّ ردّ فعله ذاك هو خير دليل على أنّه بات يؤمن بأنّ الغرادال هو حقيقة وليس مجرّد وهم.»

كان فردريك قد حفظ الكأس، بحرص شديد، في علبة للنفائس، أقفلها، وعلّق مفتاحها في رقبته، ورأى باودولينو أنه خيراً فعل، لأنّه بات لديه شعور بأنّ الشاعر، لا بل كلّ رفاقه الآخرين، مستعدون لسرقة هذا الشيء لكي يتاح لهم أخيراً أن يخوضوا مغامرتهم الخاصة.

على الأثر، أكّد الإمبراطور، أنّ الأوان قد حان الآن للرحيل. وأنه ينبغي الإعداد للحملة على أحسن ما يكون. وخلال العام التالي، أوفد فردريك رسلاً إلى صلاح الدين، وطلب عقد لقاءات مع موفدين من قبل أمير الصرب، أتيان نيمانيا، والقيصر البيزنطي وسلطان قونيه السلجوقي، لتنظيم خطط عبوره أراضيهم.

فيما قرّر ملكا إنكلترا وفرنسا ركوب البحر، انطلق فردريك، في أيار 1189، سالكاً طريق البرّ، من راتيسبوم، على رأس خمسة عشر ألفٍ من الفرسان وخمسة عشر ألفٍ من حملة السلاح الرجّالة، حتّى قال البعض إنّ ما شوهد في سهول هنغاريا من العديد بلغ ستين ألف خيّال ومئة ألف من الجند الرجّالة. وذهب البعض الآخر، بعد وقت وجيز، إلى القول إنهم ستمئة ألفٍ من الحجاج، ومما لا شكّ فيه أنّ كلّ الأرقام مبالغ فيها، فحتّى باودولينو لم يكن قادراً على ذكر الرقم الصحيح، وربّما كان العديد بمجمله عشرين ألف رجل، غير أنّه، مهما قيل، يعدّ جيشاً جرّاراً. وإذا كان مستحيلاً عدّهم، رجلاً رجلاً، فإنّ اجتماعهم يشكّل حشداً قد يبصر الناظر أين تبدأ خيم معسكرهم لكنّه، بالتأكيد، لا يبصر أين تنتهي.

لم يشأ الإمبراطور، تفادياً للمذابح وأعمال النهب التي جرت في الماضي، أن يكون في عداد جيشه حشود المعدمين التي أهرقت، لمئة عام خلت، أنهاراً من الدماء في أورشليم. فالمهمّة ينبغي أن تنجز على يد أناس يجيدون خوض الحرب، لا على يد بائسين يندفعون إلى الحرب بذريعة طلب الجنّة ويرجعون إلى ديارهم محمّلين بما غنموه من يهوديّ ذبحوه في طريق ذهابهم أو إيابهم. لم يقبل فردريك في عداد حملته إلاّ من استطاع أن يكفي نفسه بنفسه لمدة عامين، امّا الفقراء من الجنود فقد

أعطي كلّ منهم ثلاثة ماركات فضّةً، لكي يتدبّروا أمر طعامهم خلال الحملة. فمن يرغب في تحرير أورشليم عليه أن يبذل من المال ما يكفي لهذا الغرض.

لقد انضمّ إلى الحملة عدد من الإيطاليين؛ وكان في عدادهم الكريمونيون بقيادة الأسقف سيكاردو، والرسكيانيون والفيرونيون بقيادة الكاردينال آديلاردو، وحتّى بعض الإسكندريين، من بينهم قدامى أصدقاء باودولينو كالبويدي والكوتيكا والكوارنينتو والبورشيلي وأليرامو سكاكاباروزي الملقب بالتشيولا، وكالندرينو شقيق كالندرينا، الذي كان هو صهره إذاً، وأحد أفراد أسرة التروتي، ثمّ البوتزي والغيليني ولانزافيكيا، وبيري وانفيزياتي وغمباريني وتشرميلي، وجميعهم جاؤوا على نفقتهم الخاصة أو على نفقة أهل المدينة.

كانت انطلاقة مزهوّة على طول ضفة الدانوب وصولاً إلى فيينا. ثمّ في براتيسلافا، في حزيران، التقى فردريك ملك هنغاريا. وبعد ذلك توغلوا في الغابة البلغارية. وفي شهر تموز، التقوا أمير الصرب الذي كان يسعى إلى تحالف ضدّ بيزنطية.

«أعتقد أن هذا اللقاء، قال باودولينو، قد أقلق قيصركم اسحق. فأخشى ما كان يخشاه هو أن تكون في نية هذا الجيش غزو القسطنطينية.

- ولم يكن مخطئاً في ظنّه.

- كان مخطئاً بفارق خمسة عشر عاماً. ففي ذلك الحين كان فردريك، يريد، فعلاً، بلوغ أورشليم.

- ولكن، نحن، كنّا قلقين.

- أفهم ذلك، جيش أجنبي جرّار كان على وشك اجتياز أرضكم، وأنتم، كنتم قلقين. غير أنّ المؤكّد هو أنكم كبّدتمونا الكثير الكثير من المشقّات. فعندما بلغنا سرديكا لم نعثر على الإمدادات المرتقبة. وفي

نواحي فيليبوبوليس جوبهنا من قبل قواتكم التي انكفأت، في آخر المطاف، مولية الأدبار، كما كانت الحال في كلّ المجابهات التي خاضتها معنا طيلة تلك الأشهر.

- أنت تعلم انني ذلك الوقت كنت حاكم فيليبوبوليس. وكانت تردنا من البلاط أنباء متضاربة. مرّة كان الباسيليوس يأمرنا بتشييد سور وحفر خندق استعداداً لمقاومتكم لدى وصولكم، وما إن ننجز بناء السور نتلقّى أمراً بأن نعمد إلى هدمه لكي لا يستخدم ما بنيناه فيما بعد ملاذاً لكم.

- لقد سددتم معابر الجبال بجذوع الأشجار التي كنتم تقطعونها هناك. وعمدتم إلى شنّ الهجمات على الفرق المعزولة من جيشنا الباحثة عن المؤن والطعام.

- كنتم تخرّبون أراضينا. لأنّكم رفضتم تسليمنا ما وعدتم به من المؤن. كان جماعتكم يدلّون من أعلى أسوار المدن سلال المؤن، غير أنّهم كانوا يمزجون الخبز بالكلس والمواد الضارة الأخرى. وصودف أنّ الإمبراطور قد تلقّى، خلال هذه الرحلة بالذات، رسالة من سيبيلا، ملكة أورشليم السابقة، حذّرته فيها من الأسلوب الذي كان صلاح الدين قد اتبعه من قبل، فلكي يوقف زحف الجيوش المسيحية أرسل إلى إمبراطور بيزنطية، أكيالاً من القمح المسموم، ودنّاً من النبيذ الممزوج بسمّ زعاف حتّى أنّ عبداً لإسحق قد خرّ صزيعاً على الفور لأنّه أجبر على شمّه.

- مجرّد ترهات.

- ولكن عندما أوفد فردريك مبعوثيه إلى القسطنطينية، أجبرهم قيصركم على الانتظار وقوفاً، ثمّ أمر باحتجازهم.

- ولكن فيما بعد أعيدوا إلى فردريك.

- لمّا دخلنا فيليبوبوليس، ألفيناها فارغة لأنّ الجميع تواروا. حتّى أنت لم تكن فيها.

- كان من واجبي أن أجتنب الأسر.

- ممكن. ولكن قيصركم لم يغيّر لهجته إلاّ إثر دخولنا فيليبوبوليس. لأننا هناك إلتقينا الطائفة الأرمنية.

- كان الأرمن يشعرون بأنكم اخوة لهم. إنهم، مثلكم، منشقون، ولا يقدّسون الصور القدسية، ويأكلون الخبز البلا خميرة.

- إنهم مسيحيون صالحون. وسرعان ما تحدّث إلينا بعضهم باسم أميرهم، لاوُن، ضامنين عبورنا ومساعدتنا، أثناء اجتيازنا بلادهم. غير أننا أدركنا أنّ الأمور لن تكون يسيرة علينا عندما بلغنا أدريانوبوليس، لـمّا وصل أيضاً رسول من قبل سلطان قونيه السلجوقي، قلج أرسلان، الذي كان قد أعلن نفسه سيّد الترك والسوريين، والأرمن أيضاً. من كان هو القائد، وأين؟

- كان قلج يسعى إلى الحدّ من غلبة صلاح الدين، وكان يودّ فتح المملكة المسيحية في أرمينيا، ولذا كان يأمل في أن يتمكّن جيش فردريك من مساعدته في مسعاه ذاك. وكان الأرمن يأملون في أن يتمكّن فردريك من احتواء أطماع قلج. كما أنّ قيصرنا، اسحق، الذي كانت لا تزال تقضّ مضاجعه الهزيمة التي أنزلها به السلاجقة في ميريوكفلون، يأمل في أن يجبه فردريك قلج، غير أنّه ما كان ليستنكر، في الوقت نفسه، أي مناوشات مع الأرمن الذين يسببون لإمبراطوريتنا متاعب جمّة. ولهذا كلّه، عندما علم بأن السلاجقة، شأنهم شأن الأرمنن يضمنون لفردريك ممراً آمناً عبر أراضيهم، أدرك أنّه لا ينبغي له أن يعرقل مسيرته، بل أن يمهّد طريقها، والسماح له بعبور مرمرة. فبذلك يكون قد مهّد طريقه لمواجهة أعدائنا، ويكون، في الوقت نفسه، قد أبعده عنّا.

- يا لأبي المسكين. لا أدري إذا كان يشتبه بأنّه سلاح بين أيدي عصبةٍ من الأعداءِ. أو ربّما أدرك وذلك، غير أنّه أمل بأن يكون قادراً على ردّ مكائدهم جميعاً. ما أعرفه هو أنّه في سعيه إلى التحالف مع مملكة مسيحية، أقصد الأرمنية، فضلاً عن بيزنطية، كان فردريك يرتعد نشوةً إذ يتراءى له أنه قادر على بلوغ غايته النهائية. لقد كان يحلم (وأنا كنت أحلم

معه) بأنّ من شأن الأرمن أن يمهدوا أمامه الطريق للوصول إلى مملكة الراهب جان. . . وبأي حال، كما قلتَ أنتَ، بعد موفدي السلاجقة والأرمن، أعطانا اسحقكم السفن. والتقيتك، أنت، في غاليبولي، في كاليوبوليس، عندما قدّمت لنا، باسم قيصرك، السفن الشراعية التي أقلتنا.

- لم يكن قراراً يسيراً علينا أن نتخذه، قال نيسيتاس، فقد كان من شأنه أن يسبّب خلافاً حاداً بين الباسيليوس وصلاح الدين. واضطرّ إلى إيفاد سفراء لكي يشرحوا له أسباب رضوخه. تفهّم صلاح الدين، وهو القائد النبيل، دوافعنا، ولم يبضمر لنا أية ضغينة. وأقول لك تكراراً، لم يكن لدينا ما نخشاه من قبل الترك: فلطالما كنتم، أنتم معشر المنشقين، مشكلتنا.»

ثمّ اتفق باودولينو ونيسيتاس على أنّ تبادل الاتهامات بخصوص هذه الحادثة التي أصبحت من الماضي، غير مجدٍ أو لائق. لربّما كان اسحق محقاً، فكلّ حاج يمرّ ببيزنطية يغويه التريّث فيها، حيث المباهج التي لا تنضب، وسرعان ما يفقد الحماسة لأن يعرّض حياته للخطر عند أسوار أورشليم. لكنّ فردريك كان عازماً، حقاً، على متابعة طريقه.

بلغوا غاليبولي، وهي، وإن لم تكن القسطنطينية، قد أغوت الجنود بالحركة الدائبة في مينائها المزدحم بالعبّارات والمراكب والعاملين الذين يحمّلون في عنابرهم الجياد والخيالة والمؤن. كان الأمر يتطلّب أكثر من يوم واحد، وفي الأثناء لم يكن أمام أصحابنا ما يفعلونه. منذ مطلع الرحلة، كان باودولينو قد صمّم على استخدام زوسيمس في أمر مفيد، فأرغمه على تلقين أصحابه اليونانية: «حيث نحن ذاهبون، كان يقول، لا أحد من الناس يجيد اللاتينية، فضلاً عن الألمانية أو البروفنسالية أو لغتي أنا. ولكن باليونانية هناك دائماً مجال للتفاهم.» وعلى هذا النحو لم يكن عبء الوقت ثقيلاً عليهم بين زيارة لأحد مباغي المدينة وبين قراءات مختارة لآباء الكنيسة الشرقية.

كانت في الميناء سوق مترامية الأنحاء، فصمموا على التجوال فيها، وقد لفتتهم بروق بعيدة وروائح توابل. راح زوسيمس الذي أطلقوا سراحه ليكون دليلهم (ولكن تحت رقابة بورون المتشددة الذي ما كان ليغفل عنه لحظة واحدة) يعظهم منبّهاً: «أنتم البرابرة اللاتين والألمان، تجهلون قواعد حضارتنا نحن معشر الرومانيين. يجب أن تدركوا أنكم، أولاً، لن ترغبوا في شراء شيء من أسواقنا لأنّهم يبالغون في أسعارهم، وإذا قبلتم على الفور بالسعر الذي يطلبونه، لن يحسبوا أنكم حمقى، لأنّهم رأوا بأم أعينهم أنكم كذلك، الأمر الذي لن يلقى منهم استحساناً، لأنّ بهجة التاجر تكمن في المساومة. لذلك ادفعوا قرشين عندما يطلب عشرة، وعندئذ سيخفض البائع السعر إلى سبعة، فادفعوا عندئذ ثلاثة، فيخفض إلى خمسة، وعندها تصرون على الثلاثة ما دام مصراً على خمسة منتحباً مستحلفاً زاعماً أنّه مهدد بالإفلاس والجوع هو ومعه أفراد أسرته بأكملها. عندئذ بإمكانكم أن تشتروا، ولكن كونوا على ثقة أن ما اشتريتموه يساوى قرشاً واحداً.

- في هذه الحال، لِمَ يتوجّب علينا أن نشتري؟ سأل الشاعر.

- لأنهم، هم أيضاً، لهم الحقّ في الحياة، وثلاثة قروش ثمناً لما يساوي قرشاً واحداً، تعتبر صفقة شريفة. غير أني سأبدي في الأمر رأياً آخر: ليس التجار وحدهم لهم الحق في الحياة، بل اللصوص أيضاً، وبما أنهم لا يستطيعون أن يسرقوا بعضهم بعضاً، سيسعون إلى سرقتكم، أنتم. فإذا تمكنتم من إحباط سعيهم كان هذا حقكم المكتسب، أما إذا أفلحوا في سعيهم، فليس لكم أن تشعروا بالغبن. لذا نصيحتي لكم أن تحملوا في جعبتكم قليلاً من المال، أي فقط المبلغ الذي قررتم إنفاقه، لا أكثر.»

منقادين وراء دليل واسع الاطلاع على عادات المكان وأعرافه، توغّل أصحابنا وسط بحرٍ من الناس الذين تفوح منهم رائحة الثوم، شأن الرومانيين جميعاً. اشترى باودولينو خنجرين عربيين حَسَنَي الصنع، يوضعان على جانبي النطاق ويستلاّن بخفّةٍ بعد شبك الساعدين. عبدول

عثر على مُدّخَرٍ شفّاف صغير يحتوي خصلة شعر (الله وحده يعلم لِمَنْ، ولكنّ ظنّه بادٍ لا يحتمل التأويل). أمّا سليمان فقد نادى الآخرين بأعلى صوته عندما اهتدى إلى خيمةِ فارسي يبيع جرعاتٍ عجائبية. عرض عليهم بائع الأكاسير دورقاً يحتوي، بحسب أقواله، عقاراً شديد الفعالية: إذا تجرّعه المرء بجرعات ضئيلة أنعش فيه الأنفس الحيوية، ولكن إذا تجرّعه كلّه دفعة واحدة، تسبّب في موته على الفور. ثمّ عرض عليهم دورقاً مماثلاً، يحتوي ترياقاً قوياً ضدّ السموم، من شأنه أن يبطل مفعول أي سمّ. فاشترى سليمان الذي كان يهوى، على غرار اليهود جميعاً، فنّ الطب، هذا الترياق. ونظراً لانتمائه إلى طائفة من الناس خبرت كثيراً من عادات الرومانيين، تمكّن من سداد ثمن الدورق قطعتين نقديتين عوض العشر التي طلبها البائع، وبقي متشكّكاً في نجاح صفقته خشيةَ أن يكون تكلّف ضعف ما تساويه.

حالما غادروا خيمة العطّار، عثر كيوت على وشاح فاخر، أمّا بورون، وبعد طول تفحّص وتقليب للبضائع، راح يهزّ رأسه متمتماً أنّهم أتباع إمبراطور يملك الغرادال، لذا فإنّ كلّ كنوز العالم ليست سوى خردة وما عاينه لا يختلف بشيء عنها!

التقوا البويدي الاسكندري الذي ألفوا صحبته منذ بعض الوقت، وصار واحداً من شلّتهم. كان قد افتتن بخاتم، ربّما كان ذهباً (فقد بكى البائع حين تخلّى له عنه لأنه خاتم أمّه)، ويحتوي فصّه ترياقاً عجيباً، جرعة منه تكفي لإحياء مصاب، وفي بعض الأحيان لبعث ميت. وقد اشتراه، لأنّه، كما قال، إذا كان ينبغي له أن يخاطر بحياته عند أسوار أورشليم، فالأحرى به أن يتخذ بعض وسائل الوقاية.

زوسيمَس كاد يغمى عليه لفرط حبوره أمام ختم يحمل حرف «زيتا»، أي الحرف الأول من اسمه، وهو معروض للبيع مع إصبع من الشمع لدمغ الأختام. كان حرف «زيتا» شبه ممحو، مُنحَتّاً إلى درجة قد لا يترك معها أي أثر مرئي على دمغة الشمع، لكنّ زوسيمس رأى في ذلك برهاناً

على قدمه وتالياً على علوّ قيمته. وطبعاً، بوصفه سجيناً لم يكن يملك نقوداً، غير أنّ سليمان أعجب بالختم واشتراه لنفسه.

انتبهوا في الأثناء، وقد فرّقهم الحشد المتدافع، أنّهم فقدوا الشاعر، ثمّ عثروا عليه وهو يساوم لشراء سيف يرقى، بحسب البائع، إلى فتح أورشليم. سوى أنه فيما كان يهمّ بفتح جعبته لينقده المال، أدرك أنّ زوسيمس كان على حقّ، وأنه، هو الألماني ذو العينين الزرقاوين الساهيتين، يجذب إليه اللصوص كالذباب. فتأثّر باودولينو أيما تأثّر وقدّم له السيف هدية.

في اليوم التالي، جاء إلى المهجع رجلُ يرتدي ملابس فاخرة، أنيق المظهر والخصال، يتبعه خادمان، وسأل عن زوسيمس. فتحدّث معه الكاهن لوقتٍ قصير ثمّ اقترب من باودولينو وقال له إنّ الرجل يدعى ماخيتار أرظروني، وهو نبيل من وجهاء الأرمن، مكلّف بمهمة خاصة من قبل الأمير لاوُن.

«أرظروني؟ قال نيسيتاس. لقد سمعت أقاويل عنه. جاء أكثر من مرّة إلى القسطنطينية، على عهد أندرونيكس. وأدرك جيداً سبب لقائه زوسيمس آنذاك، فقد اشتهر عنه أنه من هواة العلوم السحرية. أحد أصدقائي في سلمبريا، والله وحده يعلم إذا كنا سنلتقيه هناك، كان قد حلّ عليه ضيفاً، هو الآخر، في قصره في دادجيغ...

- نحن أيضاً، كما سأحكي لك، حللنا، لشقائنا، ضيوفاً عليه. كونه صديقاً لزوسيمس كان بالنسبة لي علامة شؤم، غير أني أعلمت فردريك بقدومه، فأراد أن يلتقيه. كان موفداً، ولم يكن موفداً من قبل لاوُن، أي أنه لو كان كذلك لتعيّن عليه أن يكتم الأمر. وقد جاء إلى هنا ليكون دليلاً للجيش الإمبراطوري عبر أرض الأتراك حتّى أرمينيا. كان أرظروني يتحدّث إلى الإمبراطور بلاتينية لا بأس بها، غير أنّه حين كان يسعى لأن يكون كلامه غامضاً وغير محدّد، كان يتظاهر بأنه لا يجد المفردة الملائمة

للتعبير. وكان فردريك يقول إنه مخادع مثل كلّ الأرمن، لكنّه في حاجةٍ إلى رجل مثله يعرف الأماكن جيّداً، فقرّر أن يضمّه إلى الجيش، مكتفياً بالطلب إليّ أن أراقبه جيداً وألاّ أغفل عنه. يجب أن أقول هنا إنّ سلوكه خلال الرحلة كان مثالياً، وكان يزودنا بمعلومات يتضح دائماً إنها صحيحة.»

24

باودولينو في قصر أرظروني

في شهر آذار عام 1190 دخل الجيش آسيا، فبلغ لاوديسيا وسار باتجاه مناطق الأتراك السلاجقة. كان سلطان قونيه العجوز يزعم أنه حليف فردريك، غير أنّ أبناءه نحّوه عن العرش وهاجموا الجيش المسيحي. أو ربّما لم تجر الأمور كما أسلفنا، وكان قلج هو الذي غيّر موقفه، لا أحد يدري. بين صدامات ومناوشات ومعارك طاحنة، كان فردريك يتقدّم منتصراً بيدَ أنّ جيشه قد أهلكه البرد والجوع وهجمات التركمان الذين كانوا يهاجمون، على حين غرّة، أجنحة الجيش الرجّالة ثمّ يتوارون سالكين دروباً يعرفونها جيّداً.

أثناء تقدّمهم، بمشقّة بالغة، عبر قفار يسحقها الحرّ، كان الجنود يشربون بولهم أو دماء الجياد. ولمّا بلغوا مشارف قونيه، كان جيش الحجّاج يقتصر على ما لا يزيد عن ألف خيّال.

ومع ذلك كان حصاراً بديعاً، أبلى خلاله فردريك السوابي، برغم حداثة سنّه ومرضه، بلاءً حسناً، إذ تولّى بنفسه قيادة الهجوم على المدينة.

«أنت تتحدّث ببرودة عن فردريك الإبن.

– كان لا يحبّني. كان حذراً حيال كلّ الناس، ويغار من أخيه الأصغر المنهمك في محاولة الاستيلاء على عرشه الإمبراطوري، ومما لا

شكّ فيه أنّه كان يغار مني لأنني لا تربطني به رابطة دم، ويغار من عطف والده عليّ. ربّما كان منذ طفولته يعجب للطريقة التي أنظر بها إلى أمّه، أو تلك التي تنظر بها، هي، إليّ. كان يغار من النفوذ الذي حظيت به عندما أعطيت الغرادال لأبيه، وهي الحكاية التي لم يفارقه الشكّ، يوماً، في صحّتها. وعندما كنّا نأتي أمامه على ذكر الحملة إلى بلاد الهند، كنت أسمعه يغمغم قائلاً بأنّه سينظر في الأمر في حينه. كان يشعر بأنّ الجميع يطمعون بالحلول في مكانه. ولهذا السبب أبدى ذاك اليوم، في قونيه، قدراً هائلاً من الشجاعة، على الرغم من الحمّى التي ألمت به. ولم أرَ بصيص بهجة في عينيه، إلاّ حين امتدح والده ما أبداه من بأس أمام باروناته مجتمعين. تلك كانت المرّة الوحيدة في حياته كلّها، على ما أعتقد. واقتربت منه لأقدّم له واجب الثناء، وكنت حقاً سعيداً لأجله، لكنّه شكرني ساهياً.

- إنك تشبهني يا باودولينو. أنا أيضاً دوّنت وما زلت أدوّن أخبار إمبراطوريّتي، ملتفتاً، بتريّث كبير، إلى مشاعر الحسد الوضيعة والأحقاد ومشاعر الغيرة التي تنخر أسر المقتدرين وتبلبل الخطط العظيمة والعامة. فالأباطرة هم بشر أيضاً، والتاريخ هو أيضاً تاريخ ضعفهم. ولكن، هيّا، تابع.

- إثر الاستيلاء على قونيه، سارع فردريك إلى إيفاد رسله إلى لاوُن الأرميني لكي يساعده في التقدّم عبر أراضيه. فقد كان بينهما تحالف، هم بادروا إلى الوعد في الوفاء به. ومع ذلك، لم يكن لاون، حتّى ذلك الوقت، قد أوفد أحداً لاستقبالنا. ربّما ساورته الخشية من أن يلقى مصير سلطان قونيه. هكذا سرنا قُدُماً ونحن لا نعلم إذا كنّا سنحظى بأي عون، وكان أرظروني يقود خطانا قائلاً بأنّ موفدي أميره لا بدّ أن يكونوا في طريقهم إلينا. وذات يوم، من شهر حزيران، أثناء سيرنا باتجاه الجنوب، وقد اجتزنا لارندا، وسلكنا دروب جبال طوروس، بدت لنا مدافن تعلوها صلبان. كنّا قد بلغنا كيليكيه، في الأرض المسيحية. وعلى الفور استقبلنا

سيّد سيبيليا الأرمني، وعلى مقربة، عند ضفّة نهر مشؤوم أردت أن أنسى اسمه، التقينا الوفد الذي انتدبه لاون لملاقاتنا. ما إن لمحهما أرظروني أحاطنا علماً بأنّه من المستحسن ألاّ يراه أحد، وتوارى عن الأنظار. فالتقينا اثنين من أصحاب المقامات العالية، هما كونستان وبودوان دي كمارديس، ولم أر في حياتي كلّها موفدين يتحدّثان بمثل الغموض الذي تحدّثا به. قال أحدهما إنّ لاوُن والكاثوليكوس غريغوريوس سيصلان عمّا قريب؛ فيما آثر الآخر أن يناور بقوله إنّ الأمير الأرمني راغب، بكلّ صدق، في مساعدة الإمبراطور، غير أنه لا يستطيع أن يظهر لصلاح الدين بأنّه يمهّد الطريق لأعدائه، لذا يتعيّن عليه أن يتصرّف بكثير من الحيطة والحذر.»

لمّا غادر الموفدان، ظهر أرظروني مجدداً، وانتحى جانباً لبعض الوقت بزوسيمس الذي اقترب، على الأثر، من باودولينو، ثمّ اقتربا معاً من فردريك.

«يقول أرظروني إنّه، ومعاذ الله أن يكون راغباً في خيانة سيّده، يعتقد أنّ لاوُن يريدك أن تتوقفّ هنا.

- وماذا يقصد بذلك، سأل فردريك، هل يريد أن يبذل لي النبيذ والحسان لكي أنسى أنّه يتعيّن عليّ الذهاب إلى أورشليم؟

- النبيذ، ربّما طبعاً، ولكن مسموماً. يقول تذكّر رسالة الملكة سيبيلا، قال زوسيمس.

- وما أدراه بهذه الرسالة؟

- الأقاويل شائعة بين الناس. إذا تمكن لاون من إيقاف زحفك، فهو بذلك يسدي صلاح الدين خدمة هائلة، وبالمقابل قد يساعده صلاح الدين في تحقيق أمنيته بأن يصبح سلطان قونيه، علماً بأنّ قلج وأبناءه قد منيوا بهزيمة نكراء.

- ولِمَ كلّ هذا الحرص الذي يبديه أرظروني، على حياتي، فيخون سيّده لأجلي؟

- وحده سيّدنا المسيح وهب حياته حبّاً بالبشر. إنّ بذرة البشر الذين ولدوا في الخطيئة شبيهة ببذرة الحيوانات: فالبقرة أيضاً لا تمنحك الحليب إلاّ إذا منحتها العلف. ما مغزى هذا المَثَل القدسي؟ أنّ أرظروني لا يمانع في أن يحلّ، ذات يوم، محلّ لاون. أرظروني يحظى بتأييد عدد كبير من الأرمن، أمّا لاون فلا. والحال إنه إذا حظي باعتراف الإمبراطور الروماني المقدّس، سيتاح له، ذات يوم، أن يعتمد على تأييد أكبر الأصدقاء سلطاناً. وعليه فهو يقترح عليك متابعة الطريق إلى قصره في دادجيغ، المطلّ على مروج هذا النهر، وأن تقيم معسكر رجالك هناك في محيطه. وريثما تتضح لنا حقيقة نوايا لاون، بإمكانك أن تقيم في ضيافته، وبمنأى عن أي مكيدة. كما يوصيك أنت بالذات، أن تكون، من الآن وصاعداً، شديد الحذر من أي طعام أو شراب قد يقدّمه لك أحد مواطنيه.

- تبّاً، تبّاً، صاح فردريك قائلاً، منذ عام وأنا أتنقّل بين أوكار الأفاعي هذه! أمرائي الألمان كانوا كمثل الحملان، مقارنةً بما ألقاه - ولأسرّ إليك بأمر - حتّى أهل ميلانو الذين أشقوني بخداعهم، كانوا، في الأقلّ، يقاتلونني علانيةً ولا يحاولون قتلي أثناء نومي! فما العمل؟»

اقترح ابن فردريك أن نقبل الدعوة. ذاك أنّ الحذر من عدوّ محتمل واحد، ومعروف، خيرٌ من أعداء كثرٍ ومجهولين. «إنّه محقّ، يا أبي، قال باودولينو. سوف تقيم في هذا القصر، أما أنا وأصدقائي فسنشكّل من حولك سوراً بحيث لا يتمكّن أحد من الاقتراب منك قبل أن يدوس على أجسادنا، ليلَ نهار. سنتذوّق أي مادة قبل أن تقدّم إليك. لا تقل شيئاً، لست شهيداً. بهذه الطريقة سيعلم الجميع أننا سنأكل ونشرب مما يقدّمونه قبلك، فلن يجد أحد أنه من الحكمة أن يموت أحدنا مسموماً لأنّ من شأن ذلك أن يثير أوج غضبك فتقتل كلّ نفر مقيم في هذه القلعة. رجالك يحتاجون إلى الراحة، وكيليكيه مأهولة بأناس مسيحيين، وسلطان قونيه ما

عاد يمتلك القوة اللازمة لاجتياز الجبال وقتالك مجدداً، أمّا صلاح الدين فما زال بعيداً جداً، كما أنّ هذه المنطقة هي منطقة جبال وعرة المسالك ووديان سحيقة، أي أنها حصن طبيعي ممتاز، ويتراءى لي أنها المكان الذي نحتاجه جميعاً لاستعادة قوانا.»

إثر يوم من السير باتجاه سلوقيه، سلكوا عبر مضيقٍ بالكاد يتسع لتتبع مجرى النهر. ثمّ فجأة ينفرج المضيق، وعبر مساحةٍ مسطّحةٍ فسيحة، يتيح جريان النهر الذي يتسارع تدفّقه وينحدر جارياً عبر مضيق آخر. على مقربة من الضفتين، ينتصب، منبثقاً من تلك المساحة المنبسطة كفطر، برجٌ غير متناسق الجنبات، يلوح أزرق فاتحاً لناظره الوافد من الشرق، فيما تغرب الشمس وراءه، ما يضفي عليه الغموض فلا يدري أحد يقيناً إذا كان صنيع الإنسان أو صنيع الطبيعة. ولن يتضح لنا، إلاّ حين نقترب منه، أنّه كتلة صخرية ضخمة شيّدت على قمته قلعةٌ مطلّة على السهل كما على ذرى الجبال المحيطة.

«ها قد وصلنا، قال، عندها، أرظروني، أمّا أنت، أيا سيّدي، فلك أن تقيم خيم جيشك عند السهل، وأشير عليك أن تجعلها هناك، عند أسفل النهر حيث المساحة التي تتسع للمهاجع، وحيث الماء للرجال والخيل. إنّ قلعتي ليست فسيحة الأرجاء، لذا أقترح أن تصعد إليها بمفردك بصحبة نفر من الرجال الذين لا يرقى إلى ولائهم أدنى شك.»

أمر فردريك ابنه بأن يشرف على إقامة المعسكر وأن يلبث مع الجيش. وقرّر ألا يصطحب سوى عشرة رجال، بالإضافة إلى مجموعة باودولينو وأصحابه. حاول الابن أن يعترض موضحاً أنه يود أن يبقى بجوار والده وليس على بعد ميلٍ منه. فقد كان يرى، على جري عادته، أنّ باودولينو وأصحابه ليسوا أهلاً للثقة، غير أن الإمبراطور كان حاسماً في جوابه. «سوف أقضي الليلة في هذه القلعة، قال. وغداً صباحاً سوف أسبح في هذا النهر، ولا أحتاج إليك لكي أفعل. سوف آتي إليك سابحاً لألقي عليك تحية الصباح.» فأجابه الابن، من دون اقتناع، بأنّ مشيئته لا تُرَدّ.

افترق فردريك عن عديد جيشه، مصحوباً برجاله العشرة المسلّحين، وتبعهم كلّ من باودولينو والشاعر وكيوت وبورون وعبدول وسليمان والبويدي الذي كان يجرجر زوسيمس وراءه مقيّداً بسلاسله. كان الفضول يساورهم جميعاً حول الوسيلة التي ستعينهم على الصعود إلى ذاك الملاذ، غير أنّهم بالتفافهم حول المرتفع الصخري وجدوا أخيراً أنّ حدّة الارتفاع، لجهة الغرب، تميل إلى الانحناء قليلاً، ما أتاح شقّ درب ضيّق ورصفه بدرجات سميكة لا تتسع لمرور أكثر من حصانين اثنين جنباً إلى جنب. وبذلك يتعيّن على قاصد القلعة بنوايا عدائية مبيتة أن يتسلّق السلّم الصاعد على مهل، فيكون باستطاعة نبّالين اثنين، إذا وقفا عند المرامي العالية للقلعة، أن يبيدا المهاجمين اثنين اثنين.

عند أعلى السلّم باب مفتوح يفضي إلى باحة. من خارج هذا الباب يتابع الدرب صعوده بمحاذاة الأسوار، ثمّ يضيق، صاعداً فوق خلاء سحيق، إلى باب آخر، أضيق من الأول، عند الجهة الشمالية، ثمّ ينتهي، فجأة، على حافة الخلاء.

دخلوا إلى الباحة التي تفضي إلى القصر الذي جعلت كوىً في جدرانه المسوّرة، هي أيضاً، بجدران تفصل الباحة عن الهاوية. وزّع فردريك حرّاسه على مواضع في الأسوار الخارجية لكي يراقبوا الدرب الصاعد من الأعلى. وبدا أنّ أرظروني ليس لديه حرّاس، ما عدا بضعة رقباء شاحبين يتولون حراسة الأبواب الكثيرة والممرات. «لا أحتاج هنا إلى جيش، قال أرظروني متبسماً بشيء من التفاخر. فالموقع عصيّ على أي هجوم. ثمّ هذا، كما سوف ترى، يا قداسة الإمبراطور، ليس مكاناً للحرب، بل هو الملاذ الذي أنصرف فيه إلى أبحاثي حول الهواء والنار والتراب والماء. تعالَ، سوف أريك أين تحظى بإقامة تليق بمقامك.»

تسلّقوا سلّماً ضخماً، وعند العطفة الثانية دخلا إلى ردهة سلاح فسيحة مؤثّثة ببضعة مقاعد مستطيلة، وأسلحة ولأمات على الجنبات. فتح أرظروني باباً من الخشب الثقيل المسمّر بالمعدن، وأدخل فردريك إلى

حجرة فاخرة الأثاث. كان فيها سرير مظلّل بقبّة، وخزانة رصفت فيها كؤوس وشمعدانات ذهباً، يعلوها تابوت من خشب داكن، لعلّه علبة حليّ مزخرفة أو بيت قربان، ومدفأة معدّة لأن توقد النار فيها، كدّست فيها جذوع أشجار صغيرة وقطع من مادة شبيهة بالفحم لكن مكسوة بمادة لزجة معدّة لإضرام النار على الأرجح، وقد نسّقت جميعها بعناية فوق طبقةٍ من الأغصان اليابسة، وغطّيت بأفنان ذات عنبيات معطِرة.

«إنها أفضل ما لديّ من الغرف، قال أرظروني، ويشرّفني أن أقدّمها لك. إذا كنت تقبل مني نصيحة، فأشير عليك ألاّ تفتح هذه النافذة. إنّها لجهة الشرق، وغداً صباحاً سوف تزعجك الشمس. ومن هذا الزجاج الملوّن، إحدى أعاجيب الفنّ الوافد من البندقية، سوف يرشح نور الشمس برفق.

- ألا يستطيع أحد الدخول من هذه النافذة؟ سأل الشاعر.»

فانصرف أرظروني إلى معالجة المغاليق الكثيرة المحكمة الإقفال وفتح الشبّاك. «لاحظ، قال له، إنّها عالية جداً. وخلف الباحة هناك الأسوار الخارجية التي يحرسها رجال الإمبراطور.» وكانت الأسوار الخارجية بادية، من هناك، بوضوح، ومسار الداورية التي يجتازها الحرس بين الفينة والفينة، وعلى مرمى سهم من النافذة، دائرتان كبيرتان، أو طبقان من معدن لامع، مقعّران على نحو بارز، وقد لحما على ركيزة بين كوى الرمي. فسأل فردريك عمّا يكون هذا الشيء.

«إنّها مرايا أرخميدس، قال أرظروني، التي بها دمّر هذا العالِم من العصور السحيقة، السفن الرومانية التي حاصرت سرقسطة. كلّ مرآة تلتقط وتعكس أشعة النور التي تضرب، متوازيةً، صفحتها، ولهذا السبب هي تعكس الأشياء. ولكن إنْ لم تكن صفحة المرآة مسطحة ومقعّرة على نحو ملائم، كما ينبئنا علم الهندسة، سيّد العلوم قاطبةً، لا تنعكس الأشعة متوازيةً، بل ستتضام وتتركّز جميعها على نقطة متعيّنة أمام المرآة بحسب تقوّسها. والحال أنك إذا وجّهت المرآة بحيث تلتقط أشعة الشمس في

لحظة من لحظات سطوعها الأشدّ، وجعلتها تنصبّ مجتمعةً على نقطة بعيدة، فإنّ مثل هذا التركّز لأشعة الشمس على نقطة محددة يولّد احتراقاً، وبإمكانك أن تحرق شجرة، أو ألواح السفينة الخشبية أو آلة حرب أو الدغل المحيط بأعدائك. المرايا المستخدمة هنا اثنتان، لأنّ إحداهما موجهة لكي تضرب على بعد، والثانية تحرق من قرب. وعلى هذا النحو استطيع حماية قلعتي بهاتين الآلتين البسيطتين أكثر مما قد يحميها ألف نبّال.»

قال فردريك إنّه يتعيّن على أرظروني أن يلقنّه سرّ هذا الاختراع، لأنّ به سوف تسقط أسوار أورشليم بأهون مما سقطت أسوار أريحا، وليس جرّاء نفخ الأبواق بل جرّاء أشعّة الشمس. فأجاب أرظروني إنّه حاضرٌ لخدمة الإمبراطور. ثمّ أغلق الشباك وأردف قائلاً: «من هنا لا مسرب للهواء، ولكنّه يهبّ من فجواتٍ أخرى. وعلى الرغم من أننا في عزّ الصيف، فقد تشعر بالبرد خلال الليل لأنّها سميكة. وبدل أن تشعل نار المدفأة التي ينبعث منها دخان مزعج، أنصحك بأن تتدثّر بهذه الجلود التي تجدها على السرير. واعذر لي غلظتي، غير أن الربّ خلقنا بأبدان: خلف هذا الباب الضيّق توجد خلوة جُعِلَ فيها كرسيّ ليس من مقام الحضرة الملكية، غير أنّ كلّ ما شاء بدنك أن يلفظه يسقط فوراً في حوض تحت الأرض، فلا تفسد الرائحة أجواء هذه الحجرة. لا يمكن الدخول إلاّ عبر هذا الباب الذي دخلنا للتوّ منه، وبعد رَتْجِ الباب من الداخل بإحكام، سوف يلبث أتباعك وراءه، في الخارج، طبعاً سيتعيّن عليهم اعتياد النوم على دِكاك الخشب هذه، غير أنّهم بذلك يضمنون سلامتك.»

كان قد لفتهم على بُرْقُع المدفأة نقشٌ بارزٌ دائريّ. كان النقش يمثّل رأس ميدوزا ذات شعر ملتفّ بعضه على بعض كما الأفاعي، وعينين مغمضتين وفم فاغر غليظ الشفتين يكشف عن جوفٍ معتم لا يتبيّن قعره («كتلك التي رأيتها حين كنّا معاً في الخزّان الجوفي، يا سيّد نيسيتاس»). وإذ أثار الأمر فضوله، سأل فردريك عمّا يكون هذا النقش.

قال أرظروني إنّها أُذُن ديونوسيوس: «واحدة من أعمالي السحرية. ما زال في القسطنطينية إلى اليوم أحجار من هذا النوع، ولم يكن عليّ إلاّ أن أحفر الفم جيّداً. هناك حجرة في الأسفل يجتمع فيها عادة أفراد حاميّتي القليلة العدد، ولكنّها ستبقى خالية طوال فترة إقامتك هنا يا سيّدي. كلّ ما يدور من أحاديث في الأسفل يخرج من هذا الفم، كأنّ المتكلّم يقف وراء فجوة في جدار. وهكذا إن شئت أمكنني أن أسمع ما يدور من أحاديث بين رجالي.

– حبّذا لو أستطيع، أنا، أن أسمع ما يدور بين أبناء عمومتي، قال فردريك. إنّك للقية حقاً يا أرظروني. سيكون بيننا حديث بهذا الشأن أيضاً. أمّا الآن فلنعدّ خططنا للغد. عند الصباح أريد أن أستحمّ في النهر.

– تستطيع أن تصل إلى النهر من دون مشقّة، راكباً أو سيراً على الأقدام، قال أرظروني، ولا حاجة بك حتّى إلى سلوك الباحة التي دخلت عبرها. فبعد باب ردهة السلاح يوجد سلّم ضيّق يفضي إلى الباحة الثانوية. ومن هناك بإمكانك أن تصل إلى الدرب الرئيسي.

– يا باودولينو، قال فردريك، أسرج بضعة خيول في تلك الباحة، ولتكن مستعدّة لصباح الغد.

– يا أبي، قال باودولينو، أعلم جيّداً أنك تهوى منازلة أشدّ المياه هياجاً. غير أنّك اليوم متعب من عناء السفر، وما كابدته في الأثناء من محن. أنت لا تعرف ما تخبّئه لك مياه هذا النهر التي تبدو لي كثيرة الدوّامات. لِمَ تصرّ على المخاطرة؟

– لأنّي لست عجوزاً بقدر ما تظنّ، يا ولدي العزيز، ولأنّي، لو لم يفت الأوان، لقصدتُ النهر في هذه اللحظة بالذات لشدّة ما أجدني متسخاً مغبّراً. فلا ينبغي للإمبراطور أن تنبعث منه الروائح الكريهة، إلاّ إذا كانت روائح الزيوت المباركة المقدّسة. أسرج الخيل.

– كما جاء في **سفر الجامعة**، قال ربّي سليمان بشيء من الوجل، أبداً لن تسبح عكسَ تيّار النهر.

– ومن قال إني سأسبح عكسه، قال فردريك ضاحكاً، سوف أتبعه.

– لا ينبغي للمرء إطلاقاً أن يفرط في الاغتسال، قال أرظروني، إلاّ تحت إشراف طبيب ماهر، ولكن هنا، أنت هو السيّد. والحقيقة أنّ الوقت ليس متأخراً، وسوف يشرّفني شرفاً لا أستحقّه أن أطوف بك لأعرّفك بأرجاء القصر.»

جعلهم يهبطون مجدداً السلّم الضخم، وفي الطبقة السفلية اجتازوا ردهةً مخصّصة للمآدب الليلية وقد أنيرت بعددٍ من الشمعدانات. ثمّ اجتازوا ردهة فسيحة وزّعت في أرجائها أعداد كبيرة من المناضد الخفيضة التي نحت جزء منها على هيئة قوقعٍ مقلوب، هيكل لولبي الشكل يضيق كفوهة قمع، وله ثقب في وسطه. «إنها ردهة الحرس التي حدّثتك عنها، قال، ومن يتكلّم منهم مقرّباً فمه من هذا الثّقب قد يُسمع كلامه في حجرتك.

– أودّ أن أختبر ذلك بنفسي.» قال فردريك. فأجابه باودولينو، على سبيل المزاح، أنّه سيأتي إلى هذه الردهة خلال الليل لكي يلقي عليه التحية أثناء نومه. فضحك فردريك وقال لا، لأنّ الليلة يريد الخلود إلى الراحة. «اللهمّ، أردف قائلاً، إلاّ إذا جئت لتحذّرني من أن سلطان قونيه قد تسلّل عبر برقع المدفأة.»

تقدّمهم أرظروني سالكاً أحد الممرات، فأفضى بهم إلى ردهةٍ ذات قباب رحبة، وكانت القباب لامعةً تنبعث منها نفثات من البخار. كانت الردهة تحتوي على سخّانات حيث تغلي مادة منصهرة، وعلى مقطّرات وأنابيق، وأوعية عجيبة أخرى. سأل فردريك إذا كان أرظروني ينتج ذهباً. فتبسّم أرظروني قائلاً إنّ هذه ليست سوى خرافات خيميائيين. علماً بأنّه يجيد طلاء المعادن بالذهب وانتاج إكسيرٍ إنْ لم يجعل العمر مديداً، فمن شأنه، في الأقلّ، أن يطيل قليلاً من ذلك العمر الوجيز الذي حُبِينا به. قال فردريك إنّه لا يريد أن يشرب منه: «الله كتب علينا طول أعمارنا، وعلينا أن نرضخ لمشيئته. قد أموت غداً، وقد أحيا مئة عام. كلّ ما فيها

بمشيئة الربّ.» لاحظ ربّي سليمان قائلاً إنّ هذه العبارات بالغة الحكمة، وراحا يتبادلان أطراف الحديث طويلاً حول مسألة المشيئة الإلهية، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها باودولينو رأياً لفردريك بمثل هذه المسائل.

فيما انصرف الاثنان إلى حوارهما، لمح باودولينو، من طرف عينه، زوسيمس وهو يدخل، عبر باب ضيّق، إلى حجرة مجاورة، وأرظروني يتبعه، وقد بدا عليه القلق. وخشيةَ أن يكون زوسيمس عالماً بوجود ممرات سرية في المكان قد تتيح له الفرار، سارع باودولينو إلى اللحاق بهما فألفى نفسه في غرفةٍ ملحقةٍ ليس فيها سوى منضدة وحيدة، وعلى المنضدة وضعت سبعة رؤوس مذهّبة. كانت كلّها تحمل الوجه الملتحي نفسه، وقد رصفت فوق مَرقىً. كان واضحاً أنها مذاخر تُعرَف، من بين أشياء أخرى، بأنّ الرأس قابل لأن يفتح مثل صندوق، غير أنّ أطراف الغطاء، حيث يرتسم الوجه، مثبتة على الجهة الخلفية بختمٍ من الشمع الداكن.

«عَمَّ تبحث؟» سأل أرظروني مخاطباً زوسيمس، غافلاً عن وجود باودولينو في المكان نفسه.

أجاب زوسيمس: «لقد قيل لي إنّك تصنع ذخائر دينية، وإنّ أباطيلك لطلي المعادن بماء الذهب هي لهذه الغاية. هذه رؤوس يوحنا المعمدان، أليس كذلك؟ لقد رأيت مثلها، والآن بتّ أعلم من أين مصدرها.»

تنحنح باودولينو بلباقةٍ فاستدار أرظروني مجفلاً، كاتماً فمه بيديه، متلفتاً، فَزِعاً: «أتوسّل إليك يا باودولينو، اكتم هذا الأمر عن الإمبراطور وإلاّ أمر بشنقي، قال بصوت خفيض. بلى، هذه مذاخر تحتوي الرأس الحقيقي للقديس يوحنا المعمدان. كلّ منها يحتوي جمجمةً عولجت بالتبخير بحيث يصغر حجمها وتبدو قديمة. إني أحيا على هذه الأرض بلا مورد، لا أملك حقولاً أزرعها ولا أملك مواشيَ، وثروتي محدودة جداً. لذا أصنع الذخائر الدينية التي يكثر الطلب عليها سواء من آسيا أو من

أوروبا. يكفي أن يوضع اثنان من هذه الرؤوس في مكانين تفصل بينهما مسافة بعيدة، مثلاً أن يوضع أحدهما في إنطاكيه والآخر في إيطاليا، لكي لا يتنبّه أحد إلى وجود رأسين لقديس واحد.» وكان يتبّسم بتواضع كاذب، كأنّه يطلب من محدّثه التغاضي عن خطيئة، هي في آخر الأمر، غير مميتة.

«لم أحسب يوماً أنك رجل فاضل يا أرظروني، قال باودولينو ضاحكاً. احتفظ برؤوسك، ولكن هيّا بنا نغادر هذا المكان فوراً، وإلاّ ثارت شكوك الآخرين، وريبة الإمبراطور.» وخرجوا فيما كان فردريك ينهي حواره التأمّلي مع سليمان.

سأل الإمبراطور مضيفه عمّا إذا كان يصنع أشياء معجزة أخرى من هذا القبيل، فسارع أرظروني إلى العودة بهم إلى الرواق لكي يبتعدوا عن تلك الردهة. ومن هناك أفضوا إلى باب مغلق، ذي مصراعين، وبجانبه مذبح على نحو ما يستخدمه الوثنيون لأضحياتهم، وكان باودولينو قد شهد عدداً من بقايا هذه المذابح الأثرية في القسطنطينية. على المذبح كانت هناك حزمٌ من الحطب والأغصان. دلق أرظروني عليها سائلاً دبقاً داكن اللون، ثمّ أمسك بمشعلٍ من المشاعل التي تنير الرواق وأضرم النار في كومة الحطب. اشتعل المذبح وفي غضون دقائق معدودة تناهى صوت غليان جوفي وئيدٍ، وصرير خافتٍ فيما راح أرظروني، وقد رفع ذراعيه عالياً، يتلو عبارات بلغةٍ بربرية ولكن من دون أن يغفل عن الالتفات، من حين إلى حين، إلى ضيوفه، كأنّه يريد أن يقنعهم بأنّه يجسّد عرّافاً أو مستحضِر أموات. أخيراً، ذُهِلَ الجميع إذ فتح مصراعا الباب من دون أن يمسّهما أحد.

«إنها عجائب الفنّ الهيدروليكي، قال أرظروني متبسّماً متفاخراً، هذا الفنّ الذي أدرسه باتباعي أعمال حكماء فنّ الميكانيكا الإسكندريين الذين عاشوا منذ بضعة قرون خلت. الأمر بسيط: تحت المذبح هناك مستوعب من معدن يحتوي ماءً، وهذا الماء يسخّن بفعل النار المشتعلة على

الهيكل. فيستحيل الماء بخاراً، وعبر رشّاف، وهو ليس في الحقيقة سوى أنبوب أعقف يكلِت الماء من وعاء إلى آخر، سوف يملأ هذا البخارُ دلواً، وهناك، بعد أن يبرد يستحيل البخار ماءً. ويؤدي ثقل الماء إلى تحريك الدلو إلى أسفل. وبهبوطه، بوساطة بكرة صغيرة عُلِّقَ بها، يتسبّب الدلو بتحريك اسطوانتين من الخشب اللتين تؤثّران مباشرةً على محاور الباب. فيفتح. أمر بسيط، أليس بلى؟

– بسيط؟ قال فردريك. مذهل! ولكن هل كان اليونانيون يتقنون حقاً مثل هذه الأعاجيب؟

– مثل هذه وسواها، والكهنة المصريون كانوا يتقنونها، فقد كانوا يستخدمون هذه الآلية لكي يأمروا بصوتٍ عالٍ بأن يفتح باب الهيكل، وكان المؤمنون يصيحون بأنّها معجزة.» قال أرظروني. ثمّ دعا الإمبراطور إلى اجتياز العتبة. ودخلوا: في وسط الردهة نصبت آلة مذهلة. كانت كرة من الجلد مثبتة إلى سطحٍ دائري بواسطة ما بدا أنّه كمّان مثنيان على شكل زاوية قائمة، والسطح يعيّن حدود حوض معدني وضعت تحته حزمة أخرى من الحطب. ومن الكرة، من أسفلها ومن أعلاها، ينبثق أنبوبان في طرفيهما صنبوران جُعِلا في اتجاهين متعاكسين. وإذا دقّق الناظر قليلاً لاحظ أنّ الكمّين اللذين يثبّتان الكرة بالمسطّح الدائري، هما، أيضاً، أنبوبان مدسوسان في الأسفل، في الحوض، وفي الأعلى يخترقان الكرة إلى جوفها.

«الحوض ملآن بالماء. والآن سنسخّن هذا الماء»، قال أرظروني، ومجدداً أضرم في الحطب ناراً مستعرة. وكان عليهم الانتظار لبضع دقائق ريثما يبدأ الماء بالغليان، سمعوا على أثرها صفيراً تناهى خافتاً في البداية ثمّ ازداد حدّة، وراحت الكرة تدور حول محوريها فيما راحت تنبعث من الصنبورين رشقاتٌ من البخار. دارت الكرة لبعض الوقت ثمّ بدأ دورانها يبطئ فسارع أرظروني إلى سدّ الأنبوبين بما يشبه الخزف الرخو. وقال: «هنا أيضاً المبدأ بسيط. الماء الغالي في الحوض يستحيل بخاراً. ويصعد

البخار إلى الكرة، لكنّه يخرج منها بقوة في اتجاهين متعاكسين، ما يجعلها تدور.

– وما المعجزة التي تزعم هذه الآلة اجتراحها؟ سأل باودولينو.

– إنّها لا تزعم شيئاً على الاطلاق، بل تبرهن على حقيقة عظيمة، ففي المحصّلة هذه التجربة تجعلنا نلمس بإصبعنا وجود الفراغ.»

ليس عسيراً علينا عندئذ أن نتخيّل حال بورون. فلدى سماعه ذكر الفراغ ساوره الشكّ على الفور وسأل كيف لحيلة السحر الهيدروليكي هذه أن تبرهن على وجود الفراغ. «الأمر بسيط، أجاب أرظروني، إنّ ماء الحوض يستحيل بخاراً ويتصاعد ليملأ الكرة، ثمّ يتسرّب البخار من الكرة فيجعلها تدور. وعندما يتبدّى أن الكرة ستتوقف عن الدوران فهذا يعني أنّه لم يعد هناك بخار بداخلها، فنقفل الصنبورين. عندئذ ما الذي يتبقّى في الحوض وفي الكرة؟ لا شيء، أي الفراغ.

– كم أودّ أن أبصره، قال بورون.

– لكي يبصره سيتعيّن فتح الكرة، وعندئذ سيدخل الهواء إليها. ومع ذلك هناك مكان بإمكانك أن تكون فيه وتشعر بوجود الفراغ. غير أنّك لن تشعر به إلاّ لوقت وجيز لأنّ انعدام الهواء لن يلبث أن يميتك اختناقاً.

– وأين يقع هذا المكان؟

– إنّها ردهة فوقنا. والآن سأبيّن لك كيف يمكنك أن تُحِلَّ الفراغ في هذه الردهة.» رفع مشعله ليريهم اختراعاً آخر كانت العتمة ما زالت تحجبه عن أنظارهم. كان أكثر تعقيداً بكثير من الاختراعين السابقين لأنّ له، إذا جازت العبارة أحشاءه الخاصّة باديةً للعيان. كانت هناك أسطوانة ضخمة من المرمر يتكشّف جوفها عن خيال غامضٍ لجسم آخر على شاكلة طبل يحتلّ الجوف بنصفه أمّا النصف الآخر فخارجه، وقد رُتِجَ في جزئه الأعلى إلى ما يشبه الساعد المفرط في طوله ويمكن تشغيله بيدي رجل، على غرار الرافعة. راح أرظروني يحرّك هذه الرافعة وإذا بالطبل يرتفع أولاً

ثمّ يهبط حتّى صار في جوف الأسطوانة بأكمله. الجزء الأعلى من اسطوانة المرمر كان مزوّداً بأنبوب ضخم مصنوع من رُقَعٍ من مثاناتٍ حيوانية خيط بعضها إلى بعض بعناية فائقة. وهذا الأنبوبُ يرتفع حتّى السقف ويلج ثقباً فيه. وعلى الجزء السفلي، عند قاعدة الاسطوانة، يوجد ثقب.

«إذاً، قال أرظروني مفسّراً، هنا ليس لدينا ماء بل هواء فقط. عندما يتمّ خفض الطبل في الداخل، يضغط الهواء الذي يحتويه جوف اسطوانة المرمر، ويطرده عبر الثقب السفلي. وعندما ترفع الرافعة الطبل يشغّل غطاءً صغيراً سوف يسدّ الثقب السفلي بحيث لا يتمكّن الهواء الذي طرد من اسطوانة المرمر من الرجوع إليها. عندما يرتفع الطبل تماماً يحرّك غطاءً آخر يتيح دخول الهواء الذي يأتي، عبر الأنبوب الذي ترونه، من الردهة التي حدّثتكم عنها. وعندما يهبط الطبل مجدداً يطرد أيضاً هذا الهواء. وشيئاً فشيئاً يمتصّ هذا الاختراع كلّ هواء الردهة العلوية ويخرجه من هنا، وبذلك يحلّ الفراغ في الأعلى.

– وفي هذه الردهة العلوية ألا يدخل الهواء من أي مكان؟ سأل باودولينو.

– لا. فما أن يتمّ تشغيل هذا الاختراع، وبفضل الحبال التي ربطت بالرافعة، تُسدّ كلّ فجوة أو فرجة قد يدخل الهواء منها إلى الردهة.

– هذا يعني أنّك باختراعك هذا تستطيع أن تقتل الشخص الذي قد يصادف وجوده هناك، قال فردريك.

– أستطيع ذلك، ولكنّي لم أفعل. غير أنّي وضعت فيها، ذات مرة، دجاجة. وبعد الاختبار صعدت لأرى فألفيتها نافقة.»

كان بورون يهزّ رأسه ويهمس في أذن باودولينو: «لا تثقوا بكلامه، إنّه يكذب. لو أنّ الدجاجة نفقت حقاً فإنّ هذا يعني أنّ الفراغ موجود. ولكن بما أنّ الفراغ غير موجود، فالدجاجة ما زالت حية. أو ربّما نفقت ولكن لما أنزل بها من عذابات.» ثمّ خاطب أرظروني قائلاً بصوت

مسموع: «ألم تسمع قطّ بأنّ الحيوانات تنفق أيضاً في قعر الآبار الجافّة، حيث تنطفئ شعلة الشموع؟ البعض يستخلص من ذلك بأنّ في قعر الآبار لا يوجد هواء، وأنّ ما فيها هو الفراغ إذاً. الحقيقة أنّ ما ليس موجوداً في قعر الآبار هو الهواء اللطيف، ولكن يبقى فيها الهواء الكثيف المنتن السام، وهذا الهواء هو الذي يخمد نفس البشر وشعلة الشمعة. ولا بدّ أنّ هذا بالضبط ما يجري في ردهتك. إنّك تمتصّ الهواء اللطيف ولكن يبقى فيها الهواء الكثيف الذي لا يمكن امتصاصه، وهو يكفي لقتل دجاجة.

- كفى، قال فردريك، كلّ هذه الحِيَل طريفة، لكن، باستثناء المرايا، لا يمكن استخدام أي منها في حصار أو معركة. فما النفع منها؟ هيّا، إني أشعر بالجوع. يا أرظروني لقد وعدتني بعشاء لذيذ. ويبدو لي أنّ أوانه قد حان.»

انحنى أرظروني سمعاً وطاعةً واصطحب فردريك وأتباعه إلى ردهة الولائم التي بدت، والحق يقال، فاخرةً، أو على الأقلّ هكذا بدت في عيني من قضوا أسابيع طويلة وهم يقتاتون بطعام المعسكر الشحيح. قدّم لهم أرظروني أفخر ما في المطبخ الأرمني والتركماني، بما فيها بعض الحلويات التي أشعرت الضيوف بأنهم يغرقون في بحارٍ من العسل. وكان باودولينو وأصحابه، كما تمّ الاتفاق بينهم، يتذوقون كلّ طبق قبل تقديمه إلى الإمبراطور. وخلافاً لما تقتضيه آداب البلاط (ولكن لهذه الآداب استثناءات جمّة في زمن الحرب) كانوا جالسين، جميعاً، إلى المائدة نفسها، وكان فردريك يأكل ويشرب مبتهجاً كأنّه واحد منهم، منصتاً، وقد أثاره الفضول، إلى نقاش دار بين بورون وأرظروني.

كان بورون يقول: «أنت مصرّ على الحديث عن الفراغ كما لو أنّه فضاء مجرّد من أي جسم آخر، حتّى لو كان هوائياً. غير أنّ الفضاء المجرّد من كلّ جسم لا يمكن أن يكون موجوداً لأنّ الفضاء هو علاقة بين الأجسام. هذا فضلاً عن أنّ الفراغ لا يقوى على الصمود لأنّ الطبيعة لا تطيق وجوده كما علّمنا كلّ الفلاسفة الكبار. إن امتصصت الهواء من قصبة

غطّس طرفها الآخر في الماء، فسوف يجري الماء في جوف القصبة لأنّه لا يسمح بوجود فضاءٍ خلوٍ من الهواء. وسوى ذلك، أصغ، إنّ الأشياء تسقط باتجاه الأرض، وتمثال من حديد يسقط أسرع من قَطعة قماش، لأنّ الهواء يحتمل بمشقّة ثقل الحديد، لكنّه يحتمل القماش بيسر. الطيور تحلّق لأنّها بتحريكها أجنحتها تحرّك الكثير من الهواء الذي يحملها برغم وزنها. الهواء يحملها كما الماء يحمل الأسماك. لو أنّ الهواء غير موجود لسقطت الطيور، ولكن، انتبه، بالسرعة الكبيرة التي تسقط بها كلّ الأجسام الأخرى. وعليه، لو كان الفراغ هو الحالّ في السماء، لكان للكواكب سرعة لانهائية لأنّ سرعتها في سقوطها، أو في دائرتها، لا يخفّفها الهواء الذي يقاوم ثقلها الهائل.»

وكان أرظروني يجيب: «من قال إنّ سرعة سقوط الجسم متناسبةً طرداً مع وزنه؟ فكما قال يوهانّس فيليبونوس، إنّ هذا الأمر مرتبط بالحركة التي دفعتها. ثمّ قل لي، لو لم يكن الفراغ موجوداً كيف للأشياء أن تنتقل؟ ففي هذه الحال سوف ترتطم بالهواء الذي سيحول دون مرورها.

- لا وألف لا! عندما يحرّك الجسم الهواء الذي كان حيث يذهب الجسم، فإنّ الهواء سيحلّ في المكان الذي غادره الجسم! ومثل ذلك مثل شخصين يسلكان، في اتجاهين متعاكسين، معبراً ضيّقاً. يجعلان، ما أمكنهما، جسديهما ضئيلين، ويلتصق كلّ منهما بالحائط، وما إن يفلح أحدهما في التسلّل إلى وجهة يكون الآخر قد تسلّل إلى الوجهة المقابلة، وفي آخر المطاف يحلّ كلّ منهما محلّ الآخر.

- بلى، لأنّ كلاً من الاثنين يحرّك جسمه الخاص بمشيئته الخاصّة. ولكنّ هذا الأمر لا ينطبق على الهواء الذي لا مشيئة له. إنّه يتحرّك وينتقل بسبب الاندفاع الذي ينقله إليه الجسم المصطدم به. غير أن الاندفاع يولّد حركةً في الزمن. ففي اللحظة التي يتحرّك فيها الجسم ويولّد اندفاعاً في الهواء الماثل أمامه، لا يكون الهواء قد حُرّك بعد، فهو إذاً لم يحلّ بعد

محلّ الجسم الذي غادر للتوّ لكي يدفعه. فما الذي يوجد في هذا المحلّ، ولو للحظة؟ الفراغ!»

إلى هنا كان فردريك مستمتعاً بالإصغاء إلى مجرى المساجلة، ولكن، في النهاية، عيل صبره: «كفى، قال. غداً فليحاول كلّ منكم البرهان على ما يزعم بوضع دجاجة في الردهة العلوية. أمّا في الوقت الحاضر، ولمناسبة تكرار ذكر الدجاج، دعوني ألتهم هذه التي بين يديّ، وأرجو أن تكون قتلت بليّ العنق كما شاء الله.»

25

باودولينو يشهد موت فردريك مرّتين

طال العشاء حتّى ساعة متأخرة من الليل، وأراد الإمبراطور أن يأوي إلى حجرته. رافقه باودولينو وصحبه إلى غرفته التي تفقدّوها مرّةً أخرى على ضوء مشعلين مثبتين في الجدران. أراد الشاعر أن يتفقّد أيضاً برقع المدفأة، غير أنّه كان يضيق من أعلى بحيث لا يفسح في المجال لعبور أي إنسان. «من هنا، حتّى الدخان قد يخرج بمشقّة»، قال. حتّى أنّهم تفقدوا خلوة الحاجات الطبيعية، واتضح لهم أنّ لا أحد يستطيع أن يصعد من قعر حوض المجاري.

قرب السرير، كان هناك كوز بجانب شمعة موقدة، فأراد باودولينو أن يتذوّق ماءه. كما لاحظ الشاعر أنّهم ربّما وضعوا مادة سامة على الوسادة حيث من الممكن أن يضع فمه أثناء نومه. لذا ربّما كان من المستحسن، أردف قائلاً، أن يكون دائماً في متناول الإمبراطور ترياق سموم، على سبيل الحيطة. . .

قال فردريك إنّ لا جدوى من المغالاة في المخاوف والشكوك، غير أنّ ربّي سليمان استأذنه، بتواضع، بالكلام. «مولاي، قال سليمان، أنت تعلم أنّي، على الرغم من كوني يهودياً، قد كرّست نفسي بولاء لا شوب فيه، للخطّة التي ستتوج مجدك. وإني لأضنّ بحياتك كما لو أنها حياتي. فأصغِ. لقد ابتعت من غاليبولي ترياقاً عجيباً. خذه، أردف قائلاً وقد

أخرج الدورق من سيماره، إني أهبك إياه لأني، في حياتي البائسة، لن يتاح لي غالباً أن يتربّص بي أعداء ذوو سلطان. فإنْ شعرت في ليلة من هذه الليالي بأنّك متوعّك، تجرّعه على الفور. وإذا سقوك ما قد يهلكك، فمن شأن هذا أن ينجّيك على الفور.

– إني أشكرك، يا ربّي سليمان، قال فردريك وقد غلب على نبرته التأثر، ولقد آلينا على أنفسنا، نحن التوتونيين، أن نحمي العرق الذي تنتمي إليه، وسوف نفعل طوال القرون المقبلة من الزمن، أقسم على ذلك باسم شعبي. إني أقبل منك سائلك الشافي، وانظر ما سأصنع به.» أخرج من جراب متاعه العلبة التي يحفظ فيها الغرادال والتي كان حريصاً على إبقائها معه أينما حلّ. «هاكَ، أنظر، قال، إني أسكب الشراب الذي أعطيتني إياه، أنتَ اليهودي، في الكأس التي احتوت دم المسيح.»

انحنى سليمان، غير أنّه همسَ، مرتبكاً، في أذن باودواينو قائلاً: «ترياقٌ يهوديٌّ يغدو دمَ المسيح الزائف... فليغفر لي القدّوس الذي تبارك على الدوام. غير أنّ حكاية المسيح هذه قد اخترعتموها، أنتم الوثنيون، وليس يشوع الناصري، الذي كان من عداد الأبرار، ويروي أحبارنا أنّه كان يدرس التلمود مع ربّي يشوع بن برآحيا. فمن أعماق القلب أحبّ إمبراطورك. وأحسب أنّ على المرء أن يتبع أهواء قلبه.»

أمسك فردريك بالغرادال وكان يهمّ بوضعه في الصندوق لمّا قاطعه كيوت. ففي تلك الليلة، كانوا يشعرون، جميعاً، بأنّ مخاطبة الإمبراطور أمر متاح لكلّ دونما استئذان: فقد سادت أجواء الألفة بين ذاك النفر من الأتباع الخلّص وبين مولاهم، وقد ألفوا أنفسهم معزولين في مكان لا يدرون يقيناً بعد إذا كان ملاذاً آمناً أو شركاً مميتاً. لذا، قال كيوت: «يا مولاي، لا أقصد التشكيك بربّي سليمان، ولكن قد يكون تعرّض هو أيضاً لخديعة. فاسمح لي أن أتذوّق هذا السائل.

– مولاي، أرجوك، دعه يفعل»، قال ربّي سليمان.

فوافق فردريك. رفع كيوت الكأس بحركة طقوسية، ثمّ قرّبها قليلاً

من فمه كأنّه يتناول القربان المقدّس. وفي تلك اللحظة تهيّأ لباودولينو أيضاً أنّ نوراً ساطعاً يكتنف الحجرة، والأرجح أنّه ناجم عن أحد المشعلين وقد اضطرمت شعلته التي بلغت منه موضعاً مكسواً بكثير من الراتنج. لبث كيوت لهنيهاتٍ منحنياً أمام الكأس، متلمّظاً كأنّه يحاول أن يبتلع جيّداً تلك القطرات القليلة التي ارتشفها من السائل. ثمّ استدار والكأس مضمومة إلى صدره، ووضعها، برفق، في الصندوق. وعلى الأثر أغلق بيت القربان بتؤدة لكي لا يُصدر أيّ جلبة.

«إنّي أشتمّ العطرَ، همس بورون قائلاً.

- أترون هذا الضياء؟ قال عبدول.

- كلّ ملائكة السماء تهبط علينا، قال زوسيمَس باقتناعٍ مرتسماً بشارة الصليب معكوسة.

- إبن المنحلّة، غمغم الشاعر هامساً في أذن باودولينو، كانت تلك ذريعة لكي يقيم قدّاسه المبارك مستخدماً الغرادال، وحالما يعود إلى دياره لن يكفّ عن التفاخر بذلك من مقاطعة شمبانيا وصولاً إلى بروتاني.» فأجابه باودولينو، هامساً هو أيضاً، أنّ لا شيء يدعو إلى التحامل بهذه الطريقة لأنّ كيوت كان يتصرّف كأنّه ارتقى، حقاً، إلى السماء السابعة.

«لن يُخْضِعنا أحد بعد الآن، قال فردريك عندئذ، وقد استبدّت به عاطفة صوفية جامحة. سوف تُحَرَّر أورشليم دونما إبطاء. وعلى الأثر سنذهب جميعاً لنعيد هذه الذخيرة المقدّسة إلى الراهب جان. إني شاكر لك يا باودولينو ما أعطيتنيه. إني ملك وراهب حقاً...»

كان متبسّماً وقد سرت في جسمه رعدة. وكان جلياً واضحاً أنّ ذاك الطقس المرتجل قد هزّ كيانه. «إني متعب، قال. يا باودولينو، سوف اختلي الآن في غرفتي وسوف أوصد الباب بإحكام. فالبثوا يقظين، وشكراً لإخلاصكم. لا توقظوني قبل أن تسطع الشمس في كبد السماء. وبعد ذلك سأذهب لاستحمّ في النهر.» ثمّ أردف قائلاً: «إني متعب جداً، وكم أودّ ألاّ أستيقظ لدهور ودهور.

– ليلة طويلة من الراحة سوف تكون شافية يا أبتي، قال باودولينو بكثير من العطف. لا ينبغي أن تذهب عند الفجر. حين تصبح الشمس ساطعة في كبد السماء، ستكون المياه أقلّ برودة. نم هانئاً.»

غادروا الحجرة. أغلق فردريك درفتي الباب وسمعت طقطقة الرتاج. فتوزّعوا على المقاعد من حوله.

«ليس هناك خلوة إمبراطورية مخصّصة لنا، قال باودولينو. فلنذهب لقضاء حاجتنا بسرعة في الباحة. أحدنا تلو الآخر، لكي لا ندع الحجرة بلا رقيب. قد يكون أرظروني هذا رجلاً صالحاً، ولكن علينا ألاّ نثق إلاّ بأنفسنا.» وبمضيّ دقائق معدودة كانوا قد عادوا جميعاً. أطفأ باودولينو السراج متمنياً لهم ليلة هانئة، وحاول أن ينام.

«كنتُ متوجّساً، يا سيّد نيسيتاس، مع أني ما كنت أجد سبباً موجباً لتوجّسي. كان نومي مضطرباً فأستيقظ إثر أحلام قصيرة مزعجة، كأني بذلك أنجو بنفسي من كابوس. في نومي المضطرب ذاك، كنت أرى كولندرينا المسكينة وهي تشرب من غرادال من حجرٍ أسود، وتخرّ صريعةً على الأرض. وبمضيّ ساعة، سمعت جلبةً. كانَ لردهة السلاح أيضاً نافذة يتسرّب من خلالها ضوء ليليّ بالغ الشحوب؛ أحسب أنّ قمراً هلالاً كان ينير السماء. أدركت أنّه الشاعر، وأنّه يحاول الخروج. فلا بدّ أنّه لم يتمكّن من قضاء حاجته كما ينبغي. بعد ذلك – ولا أدري بعد كم من الوقت بالضبط لأنني كنت أغفو وأستيقظ وفي كلّ مرة أشعر بأنّ الفاصل بين يقظتي ونومي قصير جداً، غير أنّ الأمر لم يكن كما أحسب بالتأكيد – خرج بورون. ثمّ سمعته عائداً أدراجه، وسمعت كيوت يقول له همساً إنّه هو أيضاً يشعر ببعض التوتّر ويريد أن يخرج لتنشّق بعض الهواء. غير أن مهمّتي كانت تقتصر على التصدّي لمن يحاول الدخول لا من يحاول الخروج، فأدركت أننا جميعاً نعاني من التوتّر. بعد ذلك ما عدت أذكر ما جرى، فلم أدرِ متى عاد الشاعر، ولكن قبيل الفجر، كانوا جميعاً غارقين

في سبات عميق، وألفيتهم على سباتهم العميق لمّا صحوتُ جيّداً مع شروق الشمس.»

كانت ردهة السلاح قد غمرها ضياء الصباح المشرق عندما أحضر الخدم نبيذاً وخبزاً وبعض الصنوف من فاكهة المنطقة. وعلى الرغم من تنبيهات باودولينو المتكرّرة بألاّ يحدثوا جلبة لكي لا يزعجوا الإمبراطور، فإنّ أحداً منهم لم يتوانَ عن التسبّب بما طاب له من الضجيج. بمضيّ ساعة، وعلى الرغم من توصية فردريك بألاّ يوقظوه، ارتأى باودولينو أنّ الوقت أصبح ملائماً. طرق الباب، فلم يحظَ بجواب. فطرقه مجدداً.

«إنّ نومه ثقيل، قال الشاعر ضاحكاً.

- أرجو ألاّ يكون متوعكاً»، قال باودولينو من دون أن يعني حقاً ما يقول.

طرقوا الباب تكراراً وبقوّة. وفردريك لم يجب.

«كان بالأمس يبدو منهوكاً حقاً، قال باودولينو. وقد يكون تعرّض لوعكةٍ ما. فلنقتحم الباب بالقوة.

- رويدكم، قال الشاعر، إنّ انتهاك خلوة الإمبراطور أشبه بتدنيس المقدّسات!

- فليكن، قال باودولينو. فهذه الحكاية تقلقني.»

ارتموا، كيفما اتفق، على الباب محاولين دفعه، غير أنّه كان حصيناً ولا بدّ أنّ الرتاج الذي يوصده كان محكم الإقفال.

«لنعيد الكرّة مجتمعين، عند إشارتي نصدمه معاً بأكتافنا»، قال الشاعر وقد أدرك أخيراً أنّ إمبراطوراً لا يستيقظ على جلبة اقتحام بابه، لا بدّ أن يكون غارقاً في سبات مشبوه. بقي الباب صامداً. فذهب الشاعر وفكّ قيد زوسيمس، ثمّ جعل الجميع في صفّين بحيث ينطلقون مجتمعين لدفعِ درفتي الباب بقوة. وفي المحاولة الرابعة انخلع الباب.

عندها ألفوا فردريك ساكناً بلا حراك، مستلقياً في وسط الحجرة،

شبه عار، تماماً كما خلد إلى سريره. وبجنبه الغرادال، فارغاً، ملقىً على الأرضية. ولم يكن في المدفأة سوى بقايا احتراق كأنّها أضرمت ثمّ خبت أخيراً. والنافذة كانت مغلقة. فيما عبقت أجواء الغرفة برائحة خشب وفحم محترق. فهرع بورون لفتح مصراعي النافذة لكي يدخل الهواء.

ظنّاً منهما أنّ المتسلّل إلى الغرفة ما زال فيها، سارع بورون والشاعر، وقد استلا سيفيهما، لتفقّد كلّ ركن فيما جثا باودولينو بقرب جثّة فردريك وأنهض رأسه الإمبراطوري قليلاً وراح يصفعه برفق. أمّا البويدي فتذكّر الشراب المنعش الذي ابتاعه من غاليبولي، وفتح فصّ خاتمه وفرّج بين شفتي الإمبراطور عنوة ثمّ سكب السائل داخل الفم. بقي جسد فردريك ساكناً بلا حراك. وكان وجهه مترباً. فانحنى ربّي سليمان فوقه وحاول أن يفتح له عينيه، وجسّ جبينه وعنقه ونبضه ثمّ قال متلجلجاً: «هذا الرجل قد فارق الحياة، فليتغمّد القدوس، المبارك أبداً، روحه برحماته.

- ولكن هذا مستحيل، بحق المسيح القدوس!» صاح باودولينو قائلاً. غير أنّه أدرك، وهو غير الملمّ بالطب، أنّ فردريك، الإمبراطور الروماني المقدّس، حارس الغرادال الكلي القداسة، ورجاء المسيحيين، والوريث الشرعي الأخير لقيصر وأغسطس وشارلمان القديس، قد فارق الحياة. بكى على الفور وغمر ذلك الوجه الشاحب بالقبل، مردداً جهاراً أنه ابنه المحبوب، لعلّه يسمعه، لكنّه أدرك أنّ هذا كلّه عبث.

ثمّ نهض وصاح برفاقه أن يفتّشوا في كلّ موضع، حتّى تحت السرير، ففتّشوا عن منافذ سرّية، وتفحّصوا كلّ جدار: فاتضح لهم بما لا يرقى إليه شكّ ليس فقط أنّ ما من أحد يختبئ هناك، بل إنّ أحداً لم يختبئ هناك قط. لقد مات فردريك بربروس في حجرة مقفلةٍ بإحكام من الداخل، ومحروسة من الخارج من قبل خاصّة أبنائه.

«نادوا على أرظروني، إنّه خبير في فنون الطبّ، صاح باودولينو قائلاً.

- أنا خبير في فنون الطبّ، قال ربّي سليمان متحسّراً، صدّقني، لقد مات أبوك.

- إلهي، إلهي، راح باودولينو يردّد متأسياً، لقد مات أبي! بلّغوا الحرس، واستدعوا ابنه. لنبحث عن الذين اغتالوه!

- رويدك، قال الشاعر. لم تتحدث عن اغتيال؟ لقد كان داخل غرفة مقفلة ومات. وأنت ترى عند قدميه الغرادال التي كانت تحتوي الترياق. لعلّه شعر بتوعّك فخشيَ أن يكون مسموماً فشرب الترياق. ثمّ من الواضح أنّ نار المدفأة كانت مضرمة، فمن سواه قد يكون أضرمها؟ لقد شهدتُ أناساً شعروا بألم حاد في الصدر وراح يتصبّب منهم عرقٌ بارد فسعوا لأن يحظوا ببعض الدفء بأيّ طريقة فيما تصطكّ أسنانهم، ولم يلبثوا أن فارقوا الحياة. وقد يكون دخان المدفأة فاقمَ من الوعكة التي ألمت به.

- ولكن ما الشراب الذي كانت الغرادال تحتويه؟ صاح زوسيمَس مديراً عينيه الجاحظتين في كلّ اتجاه، وممسكاً بربّي سليمان.

- كفّ أيّها المخادع، صاح به باودولينو قائلاً، لقد رأيت بأمّ عينيك أن كيوت قد تذوّق السائل لاختباره.

- القليل منه، القليل القليل منه، راح زوسيمس يردّد قائلاً وهو يهزّ سليمان بعنف. لا تكفي للثمالة جرعة واحدة! كم أنتم أغبياء لأنطم تثقون بيهودي!

- نحن حقاً أغبياء لأننا وثقنا بيوناني من أمثالك»، صاح الشاعر لاطماً زوسيمَس لإبعاده عن ربّي سليمان الذي كان يرتعد خوفاً.

في الأثناء كان كيوت قد التقط الغرادال عن الأرض بورعٍ شديد وأعاده إلى الصندوق.

«في المحصلة، سأل باودولينو الشاعر قائلاً، أنت تقصد أنه لم يقتل، وأنّه مات بمشيئة ربّنا؟

- أيسر علينا أن نخلص إلى هذا الاستنتاج، وإلاّ لتعيّن علينا أن

نفترض أنّ كائناً مصنوعاً من هواء قد اجتاز الباب الذي كنّا نحرسه جيّداً.

- إذاً ماذا ننتظر، فلنستدعِ الإبن والحرّاس، قال كيوت.

- لا، قال الشاعر. إننا، يا رفاق، منغمسون في قضيةٍ قد تطيح برؤوسنا. لقد مات فردريك ونحن نعلم أنّ لا أحد البتة يستطيع أن يدخل هذه الحجرة المقفلة. لكنّ الإبن والبارونات الآخرين، لا علم لهم بذلك. وفي نظرهم قد نكون نحن الجناة.

- يا لأفكارك البائسة!» قال باودولينو والدموع ما زالت تنهمر من عينيه.

قال الشاعر: «باودولينو، أصغِ جيداً: الابن لا يحبّك، ولا يحبّنا جميعاً، ولطالما كان حذراً حيالنا. نحن كنا نتولّى الحراسة ومات الإمبراطور، وبالتالي نحن مسؤولون عن موته. قبل أن يتاح لنا أن ننبس بحرف واحد سنجد أنفسنا معلّقين شنقاً على شجرة ما، وإذا عزّ الشجر في هذا الوادي البغيض، فسوف يشنقنا ويدلّي أجسادنا من أعلى السور. أنت تعلم جيداً يا باودولينو، أنّ الابن لم يرَ يوماً في حكاية الغرادال هذه سوى مكيدة لاستدراج والده إلى حيث لا ينبغي أن يكون. سوف يذبحنا، وبضربة واحدة، واحدة فقط، يتخلّص منا جميعنا. أمّا باروناته؟ لا شكّ في أنّ نبأ مقتل الإمبراطور سيجعلهم يتبادلون التهم فيما بينهم، فتكون مجزرة. نحن، نحن كبش الفداء المثالي الذي يُريح الجميع. من سيصدّق أقوال دعيّ مثلك، واعذرني لقولي هذا، من سيصدّق سكيراً مثلي، أو يهودياً أو منشقاً، وثلاثة متأدبين ضالين، ومن سيصدّق البويدي، الإسكندري، الذي يُفترض أنّ لديه ألف سبب ليبغض فردريك؟ لقد بتنا في عداد الأموات يا باودولينو، مثل أبيك بالتبني.

- ما العمل إذاً؟ سأل باودولينو.

- إذاً، قال الشاعر، الحلّ الوحيد هو أن نوهمهم بأنّ فردريك فارق الحياة بعيداً عن هذا المكان، حيث لم نكن مولجين بحمايته.

- ولكن كيف؟

- ألم يقل إنّه يريد الذهاب إلى النهر؟ سوف نلبسه ثيابه كيفما اتفق، ونلقي معطفه على ظهره. ثمّ ننزل به إلى الباحة حيث لا يوجد أحد، وحيث الجياد مسرجة منذ الأمس. فنثبّته على السرج ونقصد النهر، وهناك سوف تتكفّل المياه الجارية به. ميتة مجيدة لهذا الإمبراطور الذي، برغم تقدمه في السنّ، يجرؤ على تحدّي قوى الطبيعة. وعندها سيكون على الابن أن يقرّر إذا كان سيسير قدماً باتجاه أورشليم أو يعود أدراجه إلى الديار. أمّا نحن فنبلغه بأننا سنتابع سيرنا إلى بلاد الهند، للوفاء بآخر أمنيات فردريك. ولا يبدو أنّ الابن مؤمن بحقيقة الغرادال، فنأخذه نحن، وننطلق لإنجاز ما كان الإمبراطور يرغب في إنجازه.

- ولكن سيكون علينا أن نعدّ لميتة وهمية، قال باودولينو ساهياً.

- أهو ميت؟ إنّه ميت. الأمر يؤلمنا جميعاً لكنّه ميت. ألن ندّعي بأنّه ميت وهو لا يزال حياً يرزق؟ إنّه ميت، ولتحلّه رحمة الله بين قديسيه. كلّ ما في الأمر أننا سنزعم إنه مات غريقاً في النهر، في الهواء الطلق، وليس في هذه الحجرة التي كنا مولجين بحراستها. أكذبٌ ما سوف نزعمه؟ قدر من الكذب يسير. فإذا كان ميتاً، وهو كذلك، ما الفارق بين أن يكون قد فارق الحياة في الداخل أو في الخارج؟ هل قتلناه نحن؟ نعلم جميعاً أنّنا لم نفعل. وإنّما نجعله يموت في مكان يبعد عنّا وشاية المبغضين. يا باودولينو، إنّها الوسيلة الوحيدة، ما من وسيلة أخرى، إذا كنت حريصاً على حياتك وعلى أمنيتك في الوصول إلى بلاد الراهب جان وعلى الاحتفاء، في حضرته، بأوج ما بلغه فردريك من الأمجاد.»

كان الشاعر محقاً في ما يقول على الرغم مما كان يبديه باودولينو من احتقار لبلادة مشاعره، وكان الجميع يوافقونه الرأي. ألبسوا فردريك وحملوه عبر الباحة الصغرى، وأجلسوه على السرج وقد أسندوا ظهره

بدعامة وحبل على غرار ما فعله الشاعر بالمجوس الثلاثة، بحيث يبدو مستقيماً في جلسته على صهوة حصانه.

«وحدهما باودولينو وعبدول سيرافقانه إلى النهر، قال الشاعر، لأنّ مواكبةً مؤلّفةً من عدد أكبر من المرافقين قد تسترعي انتباه العسس الذين ربّما استحسنوا الانضمام إلى المجموعة. أمّا ما تبقّى منا فسنلبث أمام الباب تحسّباً لمجيء أرظروني أو أي شخص آخر بغية الدخول إلى الحجرة التي سنعمد، في الأثناء، إلى ترتيب ما فيها. لا بل ربّما كان من الأفضل أن أذهب، أنا، إلى الأسوار فألهي عناصر المواكبة ريثما تغادران.»

بدا واضحاً أنّ الشاعر كان الوحيد، من بينهم، الذي بقي قادراً على اتخاذ قرارات عملية. فانصاعوا جميعاً. ولم يلبث باودولينو وعبدول أن غادرا الباحة بتؤدة، ممتطيين حصانيهما جاعلين حصان فردريك بينهما. سلكا الدرب الطرفيّ حتّى بلغا الدرب الرئيسي، ثمّ هبطا الدرجات السميكة المتراصفة قبل أن ينطلقا عدواً في السهل باتجاه النهر. رجال السلاح، عند أعلى السور، سارعوا إلى تحية الإمبراطور. بدا لهما أن تلك الرحلة الصغيرة قد استغرقت دهراً، لكنّهما وصلا أخيراً إلى الضفّة.

احتميا وراء دغلٍ من الأشجار. «من هنا لن يلمحنا أحد، قال باودولينو. هناك تيّار قوي، ولن يلبث أن يأخذ الجثّة بعيداً. سوف نخوّض في مياه النهر على صهوة جوادينا سعياً لإنقاذه، غير أنّ المجرى الوعر سيحول دون ذلك. فنرضخ للأمر الواقع، ونحرص على تتبع الجثّة التي تجرّفها المياه من على الضفّة، مستغيثين طالبين العون... وبعد ذلك سيحمله التيّار إلى الضفة المجاورة للمعسكر.»

أنزلا فردريك عن حصانه، وخلعا عنه ملابسه ولم يبقيا منها إلاّ ما يليق بأن يحتفظ به إمبراطور أثناء الاستحمام صوناً للحياء. وما كادا يدفعانه إلى عرض النهر حتّى تكفّل به التيّار وحمل الجثّة بجريانه نحو

أسفل النهر. ثمّ خوّضا في مياه النهر وهما يجذبان الأعنّة لكي يزيدا من هياج الجوادين، سوى أنهما تراجعا بعد وقت، وصعدا إلى الضفّة متتبعين، عن بعد، الجثمان العائم بين المياه والصخور، وهما يستغيثان ملوّحين بأيديهما وصائحين بأعلى صوت لكي يتنبّه نزلاء المعسكر ويسارعوا لإنقاذ الإمبراطور.

من بعيد، تنبّه البعض إلى إيماءاتهما ولم يدركوا ما معناها. كانت جثّة فردريك عالقة وسط دوّامات النهر، تطفو قدماً ثمّ تدور على نفسها قبل أن تغمرها المياه ثمّ تظهر مجدداً على السطح لهنيهات. لم يكن ممكناً أن يتخيّل الناظر من بعد أنّ ما يراه هو رجل غريق. ولكن في آخر المطاف، أدرك أحدهم حقيقة الأمر، فهرع ثلاثة فرسان مخوّضين في مياه النهر لكنّ الجثة، حين اقتربت منهم، اصطدمت بحوافر خيولهم المهتاجة الخائفة، فابتعدت مجدداً. وهناك، تقدّم نفر من الجنود مخوّضين في الغمار واستعانوا برماحهم فتمكّنوا أخيراً من سحب الجثّة وإخراجها إلى الضفّة.

عندما وصل باودولينو وعبدول بدا جسم فردريك ملطّخاً بأثر الرضوض التي تسبّب بها ارتطامه بالصخور، وما كان أحد ليحسب آنئذ إنّه ما زال على قيد الحياة. علت أصوات النحيب من كلّ ناحية، وإذ بلغه الأمر، جاء الابن، شاحباً ومحموماً، مستنكراً رغبة أبيه في تكرار مغالبة مياه الأنهر بعناد. وصبّ جامَ غضبه على باودولينو وعبدول، لكنهما احتجّا بأنهما، مثل أهل البرّ قاطبةً، لا يجيدان السباحة، وبأنّه يعلم علم اليقين أنّ أحدا لا يقدر أن يحول دون تصميم الإمبراطور على خوض غمار النهر.

بدت جثّة فردريك، على مرأى الجميع، منتفخة بالماء، مع أنّه لا يعقل أن يكون ابتلع ماءً لأنّه توفي قبل ذلك بساعات. ولكنّ الأمور بمظاهرها، فإذا انتشلت جثّة ميت من مياه النهر تراءى لك أنّه مات غرقاً، وبدا في ناظريك على الحال التي يكون عليها الغرقى.

فيما كان فردريك السوابي والبارونات الآخرون يتفحّصون جثمان الإمبراطور ويتشاورون، متوجّسين، في ما عساهم يفعلون، وفيما كان أرظروني سارع إلى اجتياز الوادي على عجل وقد بلغه النبأ، عاد باودولينو وعبدول أدراجهما إلى القصر للتثبّت من أنّ الأمور تسير على خير ما يرام.

«تخيّل، يا سيّد نيسيتاس ما الذي جرى في الأثناء، قال باودولينو.

– الأمر لا يحتاج إلى براعة عرّاف، قال نيسيتاس متبسّماً. في الأثناء فقدت الكأس المقدّسة، فقدت الغرادال.

أحسنت. ولم يدر أحد منا إذا كان قد فُقِد أثناء انهماكنا بتثبيت فردريك على سرج الجواد، أو بعد ذلك، عندما انصرف الجميع إلى ترتيب محتويات الحجرة وتوضيبها كما كانت. كانوا منفعلين، دائبي الحركة مثل خلية نحل. ولم يكن الشاعر الذي ذهب لإلهاء الحرس، معهم لكي ينسّق انهماكهم برويّته وببرودة أعصابه. في لحظة ما، وفيما كانوا يهمّون بمغادرة الغرفة بعد أن أعادوا كلّ شيء فيها إلى سابق عهده كأنّ شيئاً لم يكن، ألقى كيوت نظرة على الصندوق ليتضح له أن الغرادال ما عادت موجودة فيه. وعندما جئتهم برفقة عبدول، كان كلّ واحد منهم يتّهم الآخر إما بالسرقة، وإما بالإهمال، وإن كانوا جميعاً لا يستبعدون احتمال أن يكون أرظروني قد تسلل إلى الغرفة أثناء انهماكنا في تثبيت فردريك على صهوة الحصان. ولكن لا، كان كيوت يردّد قائلاً، لقد ساعدتكم على حمل الإمبراطور ونقله إلى الأسفل، ولكنّي عدتُ مسرعاً للتثبّت من أنّ أحداً لن يأتي، وما كان أرظروني ليصعد إلى هنا خلال فترة غيابي الوجيزة. إذاً أنت سرقتها، قال بورون متوعداً قابضاً على عنقه. لا، الأحرى أن تكون أنت السارق، أجابه كيوت وقد دفعه بقوة ليبعده عنه، وربّما تكون استوليت عليها فيما كنت أرمي من النافذة الرماد الذي جمعته من جوار المدفأة. مهلاً، مهلاً، صاح الشاعر قائلاً، الأحرى بنا أن نعلم

أين كان زوسيمس حين كنّا، نحن، في الباحة؟ لقد صعدتُ معكم، قال زوسيمس حالفاً مستحلفاً، وأيّد ربّي سليمان كلامه. كان الأمر المؤكّد الوحيد هو أنّ أحداً ما استولى على الغردال، وليس مستبعداً بأية حال أن يكون سارق الغرادال هو قاتل فردريك أيضاً. ومهما ردّد الشاعر قائلاً إنّ فردريك مات ميتة طبيعية، وإنّ أحدنا قد انتهز الفرصة للاستيلاء على الغرادال، فإنّ أحداً منّا ما كان ليصدّق مزاعمه. يا صحب، قال ربّي سليمان ليخفّف من غلواء ثورتنا، لقد تخيّل الجنون البشري جرائم بشعة، وذلك منذ عهد قايين، ولكن لم يحظَ عقل بشريّ قدراً من المكر يتيح له أن يتخيّل جريمةً داخل حجرة مقفلة. أيها الرفاق، قال بورون، لمّا دخلنا كانت الغرادال هنا، والآن ما عادت هنا. ما يعني أنّها في حوزة واحد منا. وطبعاً سارع الجميع إلى القول إنّ متاعهم هنا فليتمّ تفتيشه، غير أنّ الشاعر ضحك طويلاً. فمن استولى على الغرادال لا بدّ أنه أخفاه في موضع ما من هذا القصر، على أمل استرداده فيما بعد. ما الحلّ؟ إن لم يبدِ فردريك السوابي أي اعتراض على مسعانا، نرحل جميعاً، جنباً إلى جنب، قاصدين مملكة الراهب جان، وبذلك لا يتخلّف أحد منا لكي يعود إلى هنا ويستردّ الغرادال من مخبئه. أنا أقول إنّها قصة محزنة، فالرحلة التي سنقوم بها لا تخلو من الأهوال، وكل واحد منا يحتاج إلى الآخر وينبغي أن يثق بمساندته ودعمه، ولكن في مثل هذه الحال، فكلّ واحد منا (باستثناء واحد فقط) سيشتبه بأنّ أحد الآخرين هو قاتل فردريك. قال الشاعر إمّا هذا وإما لا شيء، وكان لبؤس طالعنا، محقاً في ما يقول. فقد كان علينا أن ننطلق في رحلة لم يسبق لمسيحي أن قام بها، وفي روع كلّ منا أنّ الآخر ليس أهلاً للثقة.

- وهل انطلقتم؟

- لم ننطلق فوراً، وإلاّ لكان رحيلنا الفوري فسّر بأنه فرار. كان البلاط بأكمله يجتمع على الدوام لاتخاذ قرار بشأن مصير الحملة. كان الجيش يشهد حالاً من التفكّك، وكثيرون يريدون العودة إلى ديارهم من

طريق البحر، فيما البعض يفضّل الإبحار باتجاه إنطاكيه والبعض الآخر باتجاه طرابلس. أمّا فردريك الابن فقد اختار متابعة الطريق برّاً. ثمّ بدأت المداولات حول ما ينبغي فعله بجثمان فردريك: فاقترح البعض العمل فوراً على استخراج الأحشاء، أو أكثرها قابلية للتحلّل، ودفنها بأسرع ما يمكن؛ آخرون اقترحوا التريّث حتّى إذا بلغوا طرسوس، موطن بولس الرسول، أمكنهم التصرّف بالجثمان. غير أنّ الجثة، حتّى لو انتزعت أحشاؤها، لن تصمد طويلاً، وعاجلاً أم آجلاً سيتعيّن غليها بمزيج من الماء والنبيذ إلى أن ينفصل اللحم تماماً عن العظام، لكي يعمد إلى دفنها فوراً، أمّا الباقي فيوضع في ضريح في أورشليم بعد الاستيلاء عليها. ولكن في هذه الحال سيتعيّن تقطيع أوصال الجثّة قبل غليها. أمّا أنا فما كنت أريد أن أشهد مذبحة كتلك.

- لقد قيل لي ان لا أحد يعلم ما كان مصير العظام؟

- هذا ما تناهى إلى سمعي أيضاً؛ آهِ يا أبتي المسكين. حالما وصلنا إلى فلسطين توفي فردريك الابن بدوره، وقد أهلكته الآلام ومشقّات المسير. كما أنّ لا ريكاردوس قلب الأسد ولا فيليبوس أغسطس، تمكّنا من بلوغ أورشليم. كانت حقاً حملة مشؤومة بالنسبة للجميع. غير أنّ هذه الأمور لم تبلغني إلاّ هذا العام، منذ عودتي إلى القسطنطينية. ففي تلك الأيام السالفة في كيليكه، تمكّنت من اقناع فردريك السوابي بأنّ من واجبنا الذهاب إلى بلاد الهند تلبية لرغبة أبيه. فبدا الابن مرتاحاً لاقتراحي هذا. وإنما أراد أن يعلم كم نحتاج من الخيل والمؤن. اذهب برعاية الله يا باودولينو، وأحسب أننا لن نلتقي بعد اليوم. فقد كان يحسب بالتأكيد أنني سأضلّ الطريق في أرض تَيْهاء، وكان، البائس، هو من أضلّ الصواب. فالحقّ أنّه لم يكن لئيماً حتّى لو اعتملت في أعماقه كلّ مشاعر المهانة والحسد.»

كان على أصحابنا، الذين باتوا يتبادلون مشاعر الريبة والشكّ، أن

يقرروا من منهم سيكون في عداد الرحلة. لاحظ الشاعر إنّ عددنا ينبغي أن يكون اثني عشر. فإذا شئنا أن نعامل باحترام في طريقنا الطويلة إلى بلاد الراهب جان، فمن المستحسن أن يحسبنا الناس الاثني عشر ملكاً مجوسياً وهم يسلكون طريق العودة. ولكن بما أنّه لم يكن مؤكداً بأنّ الملوك كانوا اثني عشر أو ثلاثة، فإنّ أحداً منهم لن يؤكّد على نحو قاطع أنهم المجوس. لا بل إذا عمد أحد الناس إلى سؤالهم عن ذلك، أجابوا نفياً كأنّهم يحرصون على عدم البوح بسرّ عظيم. وهكذا ينكرون الأمر أمام كلّ الناس، أمّا من يريد أن يؤمن بأنهم المجوس فليؤمن. فإيمان الآخرين يجعل إنكارهم تكتّماً.

كان المعنيون بالرحلة هم باودولينو والشاعر وبورون وكيوت وعبدول وسليمان والبويدي. ولم يكن بإمكانهم الاستغناء عن زوسيمَس الذي ما كفّ يوماً عن التأكيد، بألف يمين معظّمة، أنه يحفظ خارطة كوسمَس غيباً، ومهما بلغ استياؤهم من كون هذا الفاسق سيظهر، في أعين الناس، بمظهر أحد الملوك المجوس، فقد كان عليهم أن يحسبوا للأمر ألف حساب. بقي العدد ناقصاً. إذ يحتاجون إلى أربعة أشخاص آخرين. غير أنّ باودولينو ما كان ليثق، في أمور مماثلة، بغير الإسكندريين، وكان، فعلاً، قد تحدّث عن خططه هذه إلى كلّ من الكوتيكا دي كوارنينتو، وشقيق كولندرينا، كولندرينو غواسكو، والبورتشيلي وآليرامو سكاكاباروتزي، الملقب طبعاً بالتشيولا، البغل، غير أنّ هذا البغل كان رجلاً قوي البنية، أهلاً للثقة، وغير فضولي. وافق هؤلاء جميعاً على أن يكونوا في عداد الركب، لأنّهم باتوا، هم أيضاً، مقتنعين بأنّ أحداً لن يصل إلى أورشليم. أمّا فردريك الابن فقد خصّص لهم عشرة جياد، وسبعة بغال، ومؤناً تكفي لمدّة أسبوع. وبعد ذلك، قال، سوف ترعاكم العناية الإلهية.

فيما كانوا منهمكين بالإعداد لرحلتهم، جاءهم أرظروني وخاطبهم بنبرة الإذعان اللبق التي كان في السابق يخاطب بها الإمبراطور.

«يا أصقائي الأعزاء، قال، أعلم أنّكم تعدون العدّة للسفر إلى مملكة بعيدة. . .

– وما أدراك أنت يا سيّد أرظروني؟ سأله الشاعر متوجّساً.

– الأنباء تشيع. . . كما أني سمعتُ أقاويل بشأن كأس. . .

– بشأن كأس لم ترها، أليس كذلك؟ سأله باودولينو مقترباً منه حتّى كاد وجهاهما يتلامسان، فأشاح أرظروني بوجهه قليلاً.

– لم أرها قط. ولكن بلغتني أقاويل بشأنها.

– ما دمتَ عالماً بكلّ هذه الأمور، سأله الشاعر عندها، ألم يبلغك، على سبيل المصادفة، أنّ شخصاً ما قد دخل هذه الحجرة فيما كان الإمبراطور يموت غرقاً في النهر في النهر؟

– وهل حقاً مات في النهر؟ سأل أرظروني. هذا ما يظنّه ابنه، في الوقت الحالي.

– يا رفاق، قال الشاعر، واضح جداً أنّ هذا الرجل يهدّدنا. ففي ظلّ حال الفوضى التي تعمّ الجوار بين المعسكر والقصر، لن يكون مستهجناً أن يتلقّى طعنة خنجر في الظهر، وأن تلقى جثّته، بعد ذلك، في ناحية مهجورة. ولكن قبل ذلك أودّ أن أعلم ما الذي يبتغيه منا. على الأثر لن أتوانى عن ذبحه بيدي.

– يا سيدي وصديقي، قال أرظروني، أنا لا أسعى وراء هلاككم، وإنما أريد أن أنجو بنفسي من الهلاك. لقد مات الإمبراطور على أرضي، فيما كان يأكل من طعامي ويشرب من نبيذي. والحال أني لا أتوقّع من أنصار الإمبراطور لا الحظوة ولا الحماية. وأكون ممتناً لهم إذا أبقوا عليّ سالماً. ولكن، ها هنا، أشعر بأني في خطر. فمنذ استضافتي فردريك والأمير لاون يعتقد أني أردت أن أستميله إلى صفي، أي ضدّه هو. غير أن لاون ما كان ليستطيع أن يتخذ أي إجراء ضدي طالما بقي فردريك على قيد الحياة – وهذا دليل على أنّ موت هذا الرجل كان أكبر المآسي بالنسبة

لي. والآن سيدّعي لاون أنّه، بسببي، لم يستطع، هو أمير الأرمن، أن يضمن حياة أبرز حلفائه. لم يعد أمامي أي باب للفرج. لذا ينبغي لي أن أتوارى عن الأنظار لمدة طويلة، وأن أعود فيما بعد بما يكسبني مجدداً المهابة والسلطان. أنتم على وشك الرحيل للعثور على بلاد الراهب جان، ونجاحكم في مسعاكم سوف يكسبكم مجداً لا يضاهى. أريد أن أرحل معكم. ولذلك سأبرهن لكم أني لم أسرق الكأس الذي تتحدثون عنه، لأني لو فعلت لآثرت البقاء هنا مستخدماً الكأس للمساومة عليه مع طرفٍ ما. إني أعرف جيداً البلاد ناحية الشرق، ووجودي معكم سيكون مفيداً لكم. كما أعلم أن الدوق لم يمنحكم مالاً، لذلك سأحمل معي القليل الذي أملكه من الذهب. وأخيراً، باودولينو يعلم أني أمتلك سبع ذخائر نفيسة، سبعة رؤوس للقديس يوحنا المعمدان، سوف نعمد إلى بيعها خلال الرحلة، رأس هنا، ورأس هناك، وهكذا...

- وإذا رفضنا، قال باودولينو، سوف تذهب إلى فردريك السوابي وتسرّ إليه بأننا نحن المسؤولين عن موت أبيه.

- أنا لم أقل هذا.

- أصغ جيداً يا أرظروني، أنت لستَ الشخص الذي قد اصحبه معي إلى أي مكان، ولكن في رحلتنا المشؤومة هذه كلّ واحد منا قد يغدو عدواً للآخر. ووجود عدو إضافيّ لن يغيّر في الأمر شيئاً.

- الحقيقة أنّ هذا الرجل سيكون عبئاً إضافياً، قال الشاعر، نحن، إلى الآن، اثنا عشر نفراً، والثالث عشر هو فأل شؤم.»

فيما كانوا يواصلون نقاشهم، كان باودولينو منصرفاً إلى التفكير في رؤوس يوحنا المعمدان. لم يكن مقتنعاً بأنّ هذه الرؤوس قد تخدع الناس حقاً فيحملونها على محمل الحدّ، ولكنّها إنْ خدعتهم لقدّر ثمنها بثروة طائلة. هبط إلى الغرفة الملحقة حيث رآها للمرة الأولى، وأمسك بواحد منها لكي يتفحّصه بعناية. ألفاها حسنة الصنع، فوجه القديس المنحوت بعينيه المحملقتين من دون بؤبؤ، يوحي بخواطر قدسية. طبعاً لا يعقل أن

يراها المرء مرصوفةً أحدها جنب الآخر، من دون أن يتيقن من زيفها، ولكنها إذا عرضت بالمفرّق، كل رأس على حدة، ربّما بدت مقنعة. فأعاد الرأس إلى منصّته، وعاد أدراجه إلى الطبقة العليا.

كان ثلاثة منهم قد وافقوا على اصطحاب أرظروني، وبقي الآخرون على تردّدهم. كان بورون يقول إنّ أرظروني يتمتّع، برغم كلّ شيء، بمظهر لائق، أمّا زوسيمَس فقد يظهر، ولو من قبيل الاحترام للأجلاّء الاثني عشر، بمظهر سائس خيلهم أو تابعهم. فاعترض الشاعر قائلاً إنّ المجوس إمّا أن يكون لواحدهم عشرة من الخدم وإما أنهم يسافرون بمفردهم بعيداً من الأنظار الفضولية، وخادم واحد لاثني عشر مجوسياً لن يؤدي إلاّ إلى فضح الأمور. أمّا بشأن الرؤوس فبإمكانهم أن يأخذوها حتّى لو لم يصطحبوا أرظروني معهم. عندها جعل أرظروني يبكي مردّداً أنهم بذلك يحكمون عليه بالموت. وفي النهاية اتفقوا على أن يبتوا في المسألة في اليوم التالي.

ما جرى، في اليوم التالي، أنّهم ما إن فرغوا تقريباً من الإعداد لرحلتهم الموعودة وكان الوقت قد قارب الظهر، حتّى تنبّه أحدهم، فجأة، أنّه لم يلمح زوسيمَس طيلة فترة الصباح. ففي غمرة انهماكهم خلال اليومين المنصرمين، غفلوا عن مراقبته، وكان هو نفسه يعينهم على إلباس الأفراس تجافيفها وتحميل البغال، فأهملوا تقييده بالأغلال. حذّرهم كيوت من أنّ أحد البغال مفقود هو أيضاً، فأدرك باودولينو، كأنّه حُبيَ بإلهام خاطف، حقيقة ما جرى. «الرؤوس، صاح قائلاً، الرؤوس! زوسيمَس كان الوحيد، فضلاً عنا نحن الاثنين، أرظروني وأنا، الذي يعلم أين كانت الرؤوس!» ثمّ هرع بهم جميعاً إلى الغرفة الملحقة حيث اتضح لهم أنّه لم يبقَ سوى ستة رؤوس.

فتّش أرظروني تحت المنصّة للتثبّت من أن الرأس المفقود لم يقع من تلقائه هناك، فوجد ثلاثة أشياء: جمجمة بشرية ضئيلة الحجم مسودّة، وختم عليه حرف «زيتا»، وبقايا من شمع دمغةٍ محرَّق. على هذا النحو

اتضحت، لأسفهم جميعاً، حقيقة الأمور. لقد اختلس زوسيمَس، منتهزاً بلبلة الصباح، الغرادال من الصندوق حيث وضعه كيوت، وبلمح البصر هبط مجدداً إلى هنا، وفتح أحد الرؤوس فأخرج منه الجمجمة وخبّأ الغرادال فيه، ثمّ أعاد غلق الغطاء بواسطة الختم الذي ابتاعه من غاليبولي، وأعاد الرأس إلى حيث كان، ثمّ سارع إلى الصعود مجدداً بريئاً كملاك، متحيّنا الفرصة الملائمة. وعندما تراءى له أنّ المسافرين ربّما عمدوا إلى تقاسم الرؤوس فيما بينهم، أدرك أنّ المزيد من التريّث قد يفقده غنيمته.

«ينبغي القول، يا سيّد نيسيتاس، إني، برغم الغضب الذي استبدّ بنا جميعاً، شعرت ببعض الارتياح، وأعتقد أنّ الجميع شعروا بارتياح مماثل. لقد اهتدينا إلى المذنب، وهو حقير لا غبار على حقارته، وما عدّنا مبتلين بوسوسة الشكّ في بعضنا البعض. كان فرار زوسيمَس يجعلنا حانقين غاضبين، غير أنّه في الوقت نفسه، كان يعيد إلينا ثقتنا ببعضنا البعض. لم يكن لدينا أي دليل على أن زوسيمَس، سارق الغرادال، ضالع أيضاً في موت فردريك، لأنّه في تلك الليلة بقي طوال الوقت مقيّداً إلى سريره، الأمر الذي يعيدنا إلى فرضية الشاعر، ومفادها أنّ فردريك لم يقتل غيلةً.»

اجتمعوا للتداول في الأمر. أولاً زوسيمَس يتقدّم عليهم باثنتي عشرة ساعة – لقد فرّ عند هبوط الليل. لفتهم البورشيلي إلى أنّهم يمتطون جياداً أمّا هو فيمتطي بغلاً، غير أنّ باودولينو لفته بدوره إلى أنهم محاطون بجبال، الله أعلم كم تبلغ مساحتها، وفي مثل هذه الحال الجياد أبطأ من البغال في سعيها في الدروب الجبلية. من المستحيل أن نلحق به بأقصى سرعة. لقد تقدّمنا بمسيرة نصف يوم، ومهما فعلنا سيبقى متقدماً علينا بنصف يوم. الحلّ الوحيد هو أن نتمكّن من تحديد وجهته فنسلك الوجهة نفسها.

قال الشاعر: «لا يعقل أن تكون وجهته هي القسطنطينية، أولاً لأنّ

الأجواء هناك غير مواتية ما دام اسحق آنج على العرش؛ ثانياً لأنّه سيتعين عليه أن يجتاز بلاد السلاجقة التي غادرناها للتوّ بعد أهوال ومشقّات، وهو يعلم حقّ العلم أنّهم، عاجلاً أم آجلاً، سينالون منه. إنّ أقرب الفرضيات إلى الحسّ السليم تفيدنا بما يلي: زوسيمَس يعرف الخارطة، ولأنه يعرفها جيّداً سيسعى وراء ما نسعى وراءه نحن: يصل إلى مملكة الراهب، ويدّعي بأنّه موفد فردريك أو موفد من لا يعلمه إلاّ الله، فيعيد إليه الغرادال، ويحظى بالأمجاد كلّها. لذلك، لكي نعثر على زوسيمَس يجب أن نسير باتجاه مملكة الراهب، ونتعقّبه طوال الطريق. نرحل، وفي طريقنا نسأل ونستفسر، فنحن نقتفي أثر راهب يوناني مزعوم يمكن التعرّف على ملّته على بعد أميال، وحالما يقع بين أيدينا دعوا لي متعة خنقه بيدي هاتين ثمّ نأخذ الغرادال ونتابع سيرنا.

- حسناً، قال بورون، ولكن أي اتجاه نسلك، فهو الوحيد الذي يحفظ الخارطة؟

- يا أصدقائي، قال باودولينو، هنا الحاجة إلى أرظروني. فهو يعرف الأماكن، ثمّ لم يبقَ منا سوى أحد عشر نفراً، لذا نحن في أمسّ الحاجة إلى الملك الثاني عشر.»

على هذا النحو صار أرظروني، لحسن طالعه، في عداد مجموعة المقدامين تلك. حول الوجهة التي ينبغي أن يسلكوها، قال أشياء لا تخلو من الفطنة: إذا كانت مملكة الراهب تقع في الشرق، على مقربة من الفردوس الأرضي، فسيتعيّن علينا أن نسير باتجاه المكان حيث تشرق الشمس. غير أنّ السير في طريق مستقيمة يفضي بنا إلى اجتياز بلاد الكفار، في حين أنّه، هو، يعرف سبلاً للسفر، على الأقلّ لبعض الوقت، عبر مناطق مأهولةٍ بأناس مسيحيين - كما ينبغي ألاّ ننسى رؤوس يوحنا المعمدان، التي لا يمكن بيعها للأتراك. وكان موقناً من أنّ زوسيمَس سيفكّر بالطريقة نفسها، وذكر بلاداً ومدناً لم يسبق لأصحابنا أن سمعوا بأسمائها. وبفضل مهارته كمعلّمٍ في فنون الميكانيكا، استطاع أن يصنع

دمية بدت شديدة الشبه بزوسيمَس، بشعره ولحيته الطويلة الشعثاء، مصنوعةٍ من الذرة البيضاء المسوّدة، ومن حجرين أسودين بمثابة عينين. كانت الدمية ذات ملامح رجلٍ ممسوس مطابقةٍ لملامح من تمثّله: «سنضطر إلى اجتياز مقاطعات حيث الناس يتكلمون لغات مجهولة، ولن يكون علينا عندئذ إلاّ أن نبرز هذه الصورة لكي نسأل عن زوسيمَس.» فأكّد له باودولينو أنّ اللغات المجهولة لن تكون مشكلة، لأنّه يستطيع، لمجرّد تبادله بضع عبارات مع البرابرة، أن يحدّثهم بلغتهم، غير أنّ الرسمَ سيكون، برغم ذلك، مفيداً، لأنّهم لن يتسنّى لهم التوقف في بعض المناطق الوقت الكافي لتعلّم لغة.

قبل الانطلاق، نزلوا جميعاً ليأخذ كل منهم رأساً ليوحنا المعمدان. كانوا، اثني عشر نفراً، وكان عدد الرؤوس ستّة. فقرّر باودولينو أن يستثني أرظروني، كما أنّ سليمان لن يرضى التجوال بين الناس حاملاً ذخيرةً مسيحية، أمّا الكوتيكا والتشيولا والبورشيلي وكولندرينو، فقد كانوا آخر الملتحقين بالمجموعة، لذا كانت الرؤوس من نصيبه هو والشاعر وعبدول وكيوت وبورون والبويدي. فهرع الشاعر أولاً لانتقاء الرأس الذي يريد، فلفته باودولينو ممازحاً أنّها جميعها متماثلة بأية حال، نظراً لكون زوسيمَس قد استولى منها على أرفعها قدراً وقيمة. اصطبغ وجه الشاعر بحمرة الخجل، وأفسح في المجال أمام عبدول بحركة مجاملةٍ مسرحية من يده. أمّا باودولينو فرضيَ بالرأس المتبقية، وعمد الجميع إلى وضع الرأس الذي انتقاه في خرجه.

«هذا كل شيء، قال باودولينو لنيسيتاس. نحو نهاية شهر حزيران من سنة الربّ ألف ومائة وتسعين، انطلقنا، اثني عشر نفراً على غرار الملوك المجوس، وإن كنّا أقلّ صلاحاً منهم، وأملنا أن نصل أخيراً إلى بلاد الراهب جان.»

26

باودولينو ورحلة الملوك المجوس

من هنا فصاعداً، جعل باودولينو سرده الوقائع على مسامع نيسيتاس، شبه متصل، ليس فقط أثناء الاستراحات الليلية، ولكن خلال النهار أيضاً، عندما تضطرّهم شكاوى النساء وبرمهنّ إلى التوقف، أو لحاجة الأولاد للتبول، أو لمّا تحرن البغال وترفض السير قُدُماً. كان، إذاً، سرداً متقطعاً على نحو سيرهم، حيث يحزر نيسيتاس مواضع الفراغ، والثغرات، والمساحات الشاسعة التي لا تُحدّ، والأزمان التي لا تنقضي. ولم يكن ذلك مستهجناً لأنّ رحلة الاثني عشر، كما رواها باودولينو، استغرقت نحو أربع سنوات، بين سير وتَوْهٍ وتوقّف قسري ومجرياتٍ أليمة.

فالأرجح أنّ سفرهم الطويل تحت شمس حارقةٍ، معرّضين للرياح الرملية، منصتين إلى لهجات جديدة، قد جعل المسافرين يشهدون أوقاتاً عاشوها كأنّهم أصيبوا بالحمّى، وأوقاتاً أخرى من الانتظار الرتيب. ولا بدّ أنهم كرّسوا أياماً لا تحصى سعياً وراء قوتهم، مطاردين الحيوانات التي تدفعها غريزتها إلى الفرار، مساومين أهل الناحية العلوج على فطير أو شقّة خروف، مهتدين إلى ينابيع جافّة في بلاد لا تمطر السماء فيها إلاّ مرّةً واحدة في السنة. ثمّ، كان نيسيتاس يقول في سرّه، إنّ السير تحت شمس تلهب الرأسَ، عبر الصحارى، يجعلك، على قولة المسافرين، عرضةً لتهيؤات السراب، وتسمع أصواتاً في الليل بين الكثبان، وعندما تعثر على

شجيرة أو جنبةٍ فتخاطر بتذوّق عنبياتها، فلن تنال منها عشاءً بل غشاوة.

هذا فضلاً عن كون باودولينو، كما يعرف نيسيتاس جيّداً، ليس صادقاً في طبعه، وإذا كان عسيراً عليك أن تصدّق كذاباً عندما يقول لك، مثلاً، إنّه كان في قونيه، فكيف تصدّق كلامه وإلى أي حدّ، عندما يخبرك بأنه شاهد كائنات تكاد تعجز عن تخيّلها أكثر المخيّلات تخريفاً، وهو نفسه ليس موقناً من أنه شاهدها؟

أمر واحد ارتأى نيسيتاس أن يصدّقه لأنّ شغف باودولينو بسرده كان خير شهادة على صحّته: وهو أنّ المجوس الاثني عشر كانوا طيلة رحلتهم منقادين، في صميم أعماقهم، برغبتهم في بلوغ غايتهم. وهي الغاية التي صارت، يوماً بعد يوم، لدى كلّ منهم مختلفةً عن غاية الآخر، كان بورون وكيوت لا يريدان سوى استعادة الغرادال حتّى لو لم ينته بها المطاف في مملكة الراهب؛ وكان باودولينو ما زال يرغب بقوة في العثور على هذه المملكة، ومثله ربّي سليمان لأنّه قد يعثر هناك على أسباطه المفقودة؛ أمّا الشاعر فقد كان يبحث عن مملكة، سواء كانت الغرادال هناك أو لم تكن. أرظروني كان الوحيد الذي يرغب في الفرار من المكان الذي قدم منه، وعبدول، كما نعلم، كان يحسب أنّه كلّما ابتعد اقترب من مبتغى مشاعره العفيفة.

بدا أفراد مجموعة الإسكندريين أنهم وحدهم الذين يشاركون في الرحلة من دون أوهام. لقد قطعوا عهداً لباودولينو وسوف يتبعونه تضامناً، أو ربّما، عناداً، لأنّه إذا كان لا بدّ من العثور على الراهب جان، فينبغي العثور عليه، وإلاّ، كما كان يقول آليرامو سكاكاباروتزي، الملقّب بالتشيولا، لكفّ الناس عن احترام مساعيك. ولكن ربّما تابعوا الطريق لأن البويدي كان عازماً، فور وصوله إلى هناك، على جمع ما أمكنه من الذخائر العجائبية (وليس المزيّفة كرؤوس يوحنا المعمدان)، وهكذا سيحملونها إلى الإسكندرية مسقط رأسهم، جاعلين من هذه المدينة التي لم تزل بلا تاريخ، إلى مزارٍ للمسيحيين لم يسبق له مثيل.

لكي يجنّبهم أيّ احتكاك بأتراك قونيه، قادهم أرظروني عبر شعابٍ ملتفّة حيث يمكن لأي جواد أن يقع ويكسر إحدى قوائمه، ثمّ جعلهم يسيرون طيلة ستة أيام بمحاذاة أكوام من الأحجار التي تتخلّلها جيف عظايات كبيرة بطول شبر، نفقت لشدّة تطلّعها إلى ضربة شمس. نشكر الله أنّ لدينا ما نأكله وأننا لن نضطرّ إلى التهام هذه البهائم المقززة، قال البويدي كأنما أصيب بالغثيان، وكان مخطئاً في قوله، لأنه، بعد ذلك بسنة، التقط عظايات أكبر حجماً ومقززة هي أيضاً وشواها بعد أن شكّها بغصن، فيما كان لعابه يسيل على ذقنه متلهفاً ريثما ينضج الشواء كما ينبغي.

كانوا اجتازوا، إثر ذلك، عدداً من القرى، وفي كلّ منها عرضوا على الناس دمية زوسيمَس. بلى، قال أحدهم، لقد مرّ كاهن على هذه الشاكلة بناحيتنا، ولبث فيها شهراً بأكمله قبل أن يفرّ يغادر فراراً لأنّه حبَّل ابنتي. ولكن كيف يعقل أن يكون توقف هنا طيلة شهر ونحن لم ننطلق في رحلتنا إلاّ منذ أسبوعين؟ مهلاً، لقد مضت سبعة أعياد فصح منذ ذلك الحين، وكما ترون، ذاك الولد، هناك، ذو الغُدَبِ، هو ثمرة تلك الخطيئة. إذاً من تتحدّث عنه ليس ضالتنا، وإن بدا لي أنهم كلّهم أوغاد أولئك الكهنة. أو: بلى، يبدو لنا أننا صادفنا شخصاً بلحية مماثلة، منذ ثلاثة أيام تقريباً، كان أحدباً لطيف المعشر... ولكن إذا كان أحدباً فهذا يعني أنّه ليس هو، يا باودولينو، أليس ممكناً أنّك لا تفهم اللغة فتترجم كيفما اتفق لك؟ أو أيضاً: بلى، بلى، لقد رأيناه بالتأكيد، كان ذاك الرجل - ويشيرون بإصبعهم إلى ربّي سليمان، ربّما بسبب لحيته السوداء. وفي آخر المطاف، أليس من المحتمل أنّهم كانوا يسألون أكثر الناس غباءً؟

فيما بعد، صادفوا أناساً يقطنون خيماً مستديرة، وبادروهم بالتحية قائلين «La ellec olla Sila, Makimet rores alla». فأجابوهم بأدبٍ مماثل بالألمانية، لأنّ أي لغة تقوم مقام أيّ لغة، ثمّ عرضوا عليهم دمية زوسيمس. ضحك الأهلون وراحوا يتكلّمون جميعاً دفعةً واحدة، وبدا

واضحاً من إيمائهم أنّهم تعرّفوا إلى زوسيمس: مرّ من هنا وعرض عليهم رأس قديس مسيحي للبيع، فهددوه، هم، بأنّهم سيدسون شيئاً ما في دبره. وعليه، أدرك أصحابنا أنّ الأقدار رمت بهم وسط أخوية من الأتراك المَهَرَةِ في استخدام الخوازيق، والذين انفضوا من حولهم مومئين بشارات التحية والمجاملة، وقد افترّت شفاههم المتبسّمة عن أسنانهم كلّها، فيما الشاعر يمسك بشعر أرظروني جاذباً رأسه وهو يقول له: أحسنتَ صنعاً، تدّعي أنك تعرف الطرقات جيداً ثمّ تقودنا إلى عقر دار الكفرة - فيفسّر له أرظروني متألماً بما يشبه النخير، أنّه لم يخطئ في اختيار الطريق، بل هم الذين أخطأوا طريقهم، لأنّهم رحَّل ولا أحد يدري أي الطرق يسلكها الرحّل في تجوالهم.

«بعد ذلك، طمأنهم قائلاً، لن نصادفَ سوى مسيحيين، وإن كانوا من النساطرة.

- لا بأس، قال باودولينو، إنهم نساطرة، من ملّة الراهب جان، ولكن من الآن فصاعداً فلنتثبّت، عندما ندخل إلى أي بلدة، وقبل أن نبس بكلمة واحدة، من وجود صلبان وقبب أجراس.»

أيّ قبب وأيّ أجراس؟ ما صادفوه كان أشبه بمجمعاتٍ لأكواخ من طين، وحتّى لو وجدت كنيسة في وسطها، كان يستحيل التعرّف إلَيها، لأنّهم أناس يكتفون بالقليل القليل لتسبيح الربّ.

«ولكن هل أنت واثق من أنّ زوسيمس قد مرّ من هنا؟» كان باودولينو يسأل تكراراً. وكان أرظروني يجيبه بأنّ عليه أن يثق به. وذات مساء رآه باودولينو يراقب الشمس عند المغيب، وبدا أنّه يقيس مسافات في السماء، باسطاً ذراعيه إلى أعلى، شابكاً كفّيه لكي يشكّل بأصابعه تفاريجَ مستطيلة يراقب الغيوم من خلالها. سأله باودولينو لماذا، فأجابه بأنّه يسعى إلى تعيين موقع جبل تحته تختفي الشمس كلّ مساء، تحت قنطرة الخيمة.

«أيتها القديسة العذراء، صاح باودولينو قائلاً، أهذا يعني أنّك، أنت أيضاً، تؤمن بحكاية الخيمة هذه مثل زوسيمس وكوسمس إنديكوبلوستس؟

- ولِمَ لا؟ قال أرظروني كأنّه يُسأل عمّا إذا كان الماء يسبب البلل. وما هي الوسيلة الأخرى التي تجعلني واثقاً، كما أنا الآن، بأننا نسلك الطريق نفسها التي سلكها زوسيمس؟

- أهذا يعني أنك تعرف خارطة كوسمس، التي وعدنا بها زوسيمس؟

- لا أدري ما الذي وعدكم به زوسيمَس، أمّا أنا فلديّ خارطة كوسمس.» وسحبَ رقّاً من خرجه وفرَّج أصدقائه عليه.

«هاكم الخارطة، هل ترون جيداً؟ هنا إطار الأوقيانس المحيط. وما وراءه تقع البقاع التي قطنها نوح قبل الطوفان. إلى أقصى الشرق منها، وفي نطاق تفصله عن المحيط مناطق تقطنها كائنات عجيبة - أي هي المناطق التي سيتعيّن علينا اجتيازها - حيث يقع الفردوس الأرضي. من اليسير أن نرى كيف أنّ الفرات ودجلة والغانج تنبع من هذه الأرض السعيدة، وتعبر من تحت المحيط لكي تجتاز البقاع التي نقصدها، ثمّ تصبّ في الخليج الفارسي، فيما يجري النيل متعرّجاً عبر بقاع ما قبل الطوفان، ويلج المحيط، ثمّ يتابع مجراه في المناطق الجنوبية المنخفضة، وتحديداً في أرض مصر، ثمّ يصبّ في الخليج الرومي، أي ما أسماه اللاتينيون أولاً بالبحر الأبيض المتوسط، ثمّ أسموه هليسبونتوس. هكذا سيكون علينا أن نسلك وجهة الشرق حتّى نلقى الفرات ثمّ دجلة ثمّ الغانج، وبعد ذلك ننحرف عبر البقاع الشرقية المنخفضة.

- ولكن، قاطعه الشاعر قائلاً، إذا كانت مملكة الراهب جان على مقربة من الفردوس الأرضي، ألن يكون علينا عبور المحيط لكي نبلغها؟

- إنها على مقربة من الفردوس الأرضي، ولكن قبل المحيط، قال أرظروني. ولكن، بالمقابل، سنضطرّ إلى اجتياز السامباتيون. . .

الفردوس الأرضي

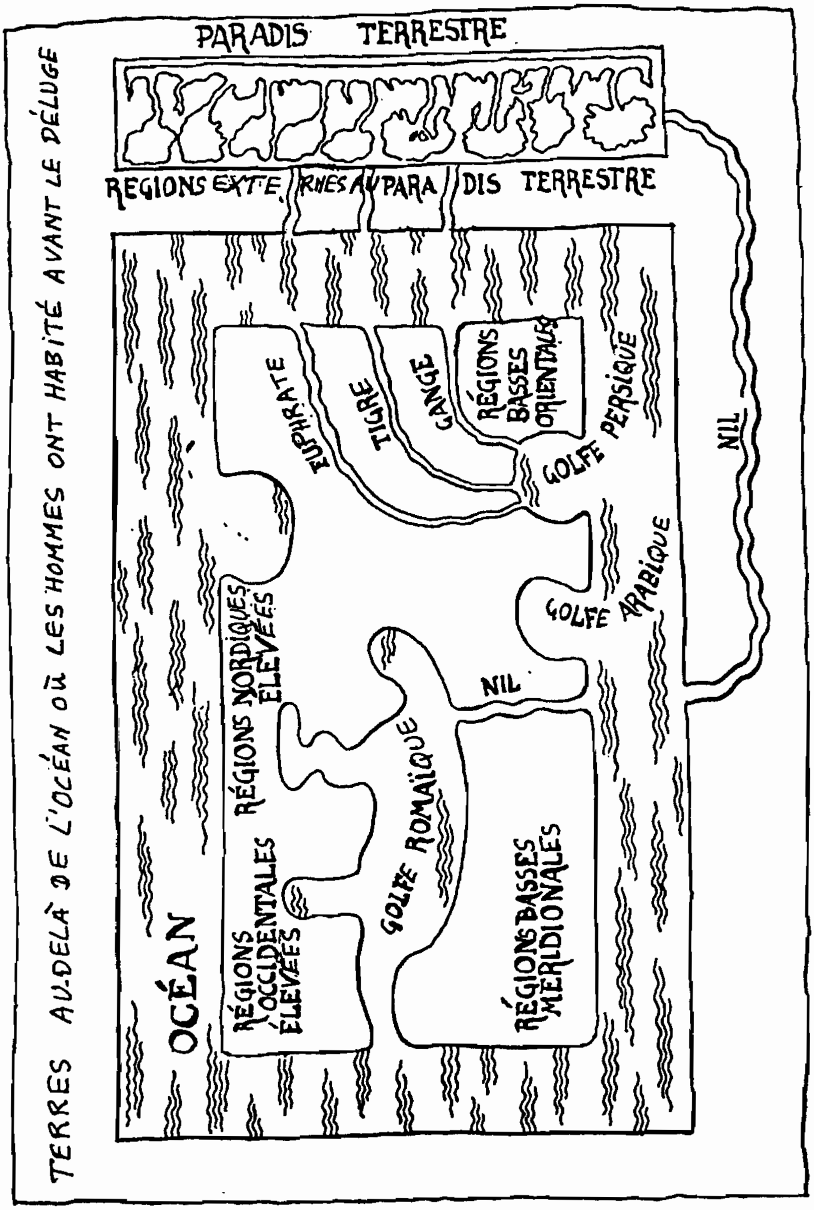

بقاع ماوراء الأوقيانس حيث أقام البشر قبل الطوفان

- السامباتيون، نهر الأحجار، قال سليمان ضاماً كفيه. لم يكذب ألداد إذاً، وهذه حقاً هي الطريق للعثور على الأسباط المفقودة.

- السامباتيون، نحن ذكرناه أيضاً في رسالة الراهب، قاطعه باودولينو بنبرة حاسمة، فبديهيّ إذاً أن يكون موجوداً في مكان ما. حسناً إذاً، لقد أسعفنا الربّ، جعلنا نفقد زوسيمس لكنّه جعلنا نعثر على أرظروني الذي يبدو أوسع علماً منه.»

ذات يوم، تراءى لهم من بعيد هيكلٌ فخم برواقه المعمّد ولوحة جبهته المزخرفة بشخوص. غير أنّهم أدركوا، لدى اقترابهم منه، أنّ الهيكل ليس سوى منظر خادع لواجهة هيكل، لأنّ البقية ليست سوى صخور، وأنّ المدخل الذي تراءى لهم، هو مسلكٌ على مرتفع، منحوت في خاصرة الجبل، وعليهم أن يتسلّقوا دربه، والله وحده يعلم كيف، إلى حيث يحلّق الطير، لكي يصلوا إليه. وإذ أمعنوا النظر قليلاً رأوا من حولهم، على طول نطاق الجبال المحيطة، واجهات أخرى، عالية، على الحواف الشديدة الانحدار المكسوة بالحمم الباردة، وأحياناً كان عليهم أن يمعنوا النظر للتمييز بين الصخر المنحوت بيد الإنسان والصخر الذي شكّلته الطبيعة: وإذ ذاك تراءت لهم تيجان عُمُدٍ منحوتة وقباب وقناطر، وأروقة من العمد البديعة. كان السكّانُ، أسفل الوادي، يتكلمون لغة شبيهة باليونانية، ويزعمون أن مدينتهم تدعى باكانور، غير أنّ ما كان ماثلاً أمام أعينهم هي كنائس يعود بناؤها إلى ألف عام، عندما كان سيّد المكان هو ألكسندروس، الملك اليوناني العظيم الذي يعبد نبياً مات على الصليب. ولكنّهم منذ ذلك الحين نسوا كيف يصعدون إلى الهيكل، وهم يجهلون ما بداخله؛ وباتوا يفضلون عبادة الآلهة (قالوا حرفياً: الآلهة وليس الربّ) في باحة مسوّرة، نُصّب في وسطها رأس ثور مُذَهَّب رُفِعَ على وتد من خشب.

في ذلك اليوم بالذات، كان أهل البلدة يقيمون الشعائر لدفنِ شاب

أحبّوه جميعاً. عند الباحة، أسفل الجبل، أعدّت وليمة هائلة، ووسط الخوان الذي جعل على شكل دائرة، أقيم مذبح سجّي عليه جثمان الفقيد. في السماء، كانت تحلّق، في حركة دائرية هابطةٍ، أعداد من النسور والعقبان والغربان وسواها من الطيور الجوارح كأنّها دعيت إلى الاحتفال. اقترب الأب، مجللاً بالبياض، من الجثة، وبواسطة فأس قطع رأسها، ثمّ وضعه على طبق من الذهب. وعلى الأثر، اقترب الأقيانُ، مجللين، هم أيضاً، بالبياض، وقطّعوا الجثة قطعاً صغيرة، فراح المدعوون يتقدّمون ليأخذ كل واحد منهم قطعة، ثمّ يقذفها لأحد الطيور الذي يلتقطها محلّقاً قبل أن يتوارى في الأفق البعيد. أحدهم قال لباودولينو مفسّراً إنّ الطيور تحمل الميت إلى الفردوس، وأنّ طقوسهم هذه أفضل بكثير من طقوس شعوبٍ أخرى درجت على ترك جثث الموتى للعفونة والتحلل تحت التراب. بعد ذلك، تحلّق الجميع حول الخوان وتذوّق كل منهم شيئاً من لحم الرأس إلى أن أضحى الرأس جمجمة منظّفة لامعة كالمعدن، فجعلوا منها كأساً شربوا منها جميعاً بحبورٍ معدّدين خصال الفقيد ومزاياه.

في واقعةٍ أخرى، اجتازوا، طيلة أسبوع، رملةً أوقيانسية، حيث كان الرمل يرتفع مثل موج البحر، حتّى بدا كل شيء متحرّكاً مائجاً تحت الأقدام وتحت حوافر الخيل. قضى سليمان، الذي عانى من دوار البحر إثر إبحارهم من غاليبولي، تلك الأيام مصاباً بالغثيان، غير أنّه لم يتقيّأ إلاّ القليل لأنّ الركبَ لم يتسنَّ له تناول الطعام إلاّ لماماً، وكان من حسن طالعهم أنّهم حملوا معهم ما يكفي من الماء العذب قبل اجتيازهم ذلك المعبر المشؤوم. كان عبدول، في الأثناء، بدأ يعاني من الحمّى التي لازمته، متفاقمةً، بقية الرحلة، وجعلته عاجزاً عن إنشاد قصائده، برغم إلحاح رفاقه، خلال استراحتهم تحت ضوء القمر.

كانوا أحياناً يتقدّمون بسرعة عبر سهول معشبة، وإذ تجنّبهم عوامل الطبيعة مشقاتها وصعابها، كان بورون وأرظروني يستأنفان نقاشهما الدهري حول المسألة التي صارت هاجسهما، أي مسألة الفراغ.

كان بورون يردّد تعليله المعتاد: إذا كان الفراغ في الكون، فما من شيء يحول دون أن تكون هناك، بعد عالمنا، أي في الفراغ، عوالم أخرى... إلخ... إلخ. غير أنّ أرظروني كان ينبّهه إلى أنّه لا يقيم أي تمييز بين الفراغ الكوني، القابل للنقاش، وبين الفراغ الذي يحلّ في الفجوات بين جسيم وآخر. ولمّا سأله بورون عن ماهية هذه الجسيمات، ذكّره مساجله أنّه بحسب الفلاسفة اليونانيين القدماء، وبعض الفقهاء العرب من ذوي الحكمة، من المتكلّمين، لا ينبغي الاعتقاد بأنّ الأجسام هي مادة كثيفة. فالكون بأسره، وكلّ ما فيه، بما في ذلك نحن، يتألّف من جسيمات لا تتجزّأ، تسمّى ذرّات، وهي بحركتها الدائمة تولّد منشأ الحياة. إنّ حركة الجسيمات هذه هي شرط كلّ توليد وفساد. وبين الذرّة والذرّة، ولأنّها، على وجه الدقّة، تستطيع، هي، أن تتحرّك بحرية تامّة، يوجد الفراغ. ومن دون الفراغ بين الجسيمات التي يتكون منها كلّ جسم، لا شيء يمكن قطعه أو كسره أو تحطيمه، كما لا يمكن امتصاص الماء، أو انتشار البرودة والحرارة. كيف للغذاء أن ينتشر في جسمنا، إن لم يكن بانتقاله عبر الفجوات الفارغة بين الجسيمات التي نتكوّن منها؟ إذا غرزت إبرة، قال أرظروني، في جراب مثانة منتفخ، وقبل أن يبدأ الجراب بالانكماش جرّاء تسرّب الهواء منه لأنّ الإبرة بحركتها قد وسّعت الثقب الذي أحدثته فيه. كيف يعقل أنّ إبرة دخلت، لهنيهةٍ، في جراب ممتلئ بالهواء؟ ذاك أنّها تندسّ في فراغ الكامن بين جسيمات الهواء.

«جسيماتك هذه بدعة، ولم يرها أحد من قبل، إلاّ أصحابك العرب المكتكلِمين، أو مهما كان اسمهم، أجاب بورون قائلاً. ففي الوقت الذي تدخل فيه الإبرة يخرج مقدار من الهواء يفسح في المجال أمام دخول الإبرة.

– إذاً خذ قمقماً فارغاً وغطّسه في الماء، مبقياً عنقه إلى أسفل. الماء لا يدخل فيه، لأنّه مليء بالهواء. امتصّ الهواء من القمقم، وسدّه بإصبعك لكي لا يعاود الدخول، وغطّسه في الماء ثمّ أبعد إصبعك عن فتحته، تجد أن الماء دخل حيث أحللتَ الفراغ.

– الماء يصعد داخل القمقم لأنّ الطبيعة تسعى لكي لا يحلّ الفراغ. الفراغ مناقض للطبيعة، ولأنّه مناقض للطبيعة لا يمكن أن يوجد في الطبيعة.

– ولكن بما أنّ الماء الذي يصعد داخل القمقم، لا يملأه دفعة واحدة، فما الذي يوجد في الجزء الذي لم يمتلئ بعد من القمقم، علماً بأنّك أفرغت منه الهواء؟

– عندما تمتص الهواء لا تزيل إلا الهواء البارد الذي يتحرّك ببطء، لكنّك تُبقي على مقدارٍ من الهواء الساخن الذي يتحرّك بسرعة. وهكذا يدخل الماء وسرعان ما يطرد الهواء الساخن.

– الآن خذ القمقم مجدداً وهو ممتلئ بالهواء، ولكن، هذه المرة، سخّنه بحيث لا يبقى في داخله سوى هواء ساخن. ثمّ غطّسه مبقياً عنقه إلى أسفل. فتجد أن الهواء لا يدخل إليه على الرغم من أنه لا يحتوي إلا على هواء ساخن. ما يعني أنّ لا صلة لحرارة الهواء بما يجري.

– حقاً؟ خذ القمقم مجدداً وأجعل فيه، من قعره، من طرفه المستدير، ثقباً. غطّسه في الماء لجهة الثقب. الماء لا يدخل لأنّ هناك هواء. بعد ذلك ضع شفتيك على عنق القمقم الذي أبقيته فوق سطح الماء، وامتصّ جيداً كلّ ما فيه من هواء. أثناء امتصاصك للهواء يصعد الماء تدريجاً من الثقب السفلي. عندئذ ارفع القمقم من الماء مبقياً فتحة العليا مقفلة، لكي لا يندفع الهواء للدخول. فتجد أن الماء يبقى في القمقم ولا يخرج من الثقب السفلي، تماشياً مع كره الطبيعة لما قد يحلّ من فراغ.

– الماء لا ينزل في المرّة الثانية، لأنّه صعد في المرّة الأولى، وما

من جسم يستطيع أن يقوم بحركة معاكسة للحركة الأولى إلاّ إذا تلقّى دفعاً جديداً. والآن، اصغِ لما يلي. أغرز إبرة في جراب منتفخ، ودع الهواء يخرج كلّه، ثمّ اعمدَ إلى سدّ الثقب الذي أحدثته الإبرة. بعد ذلك امسك الجراب من جانبيه بأصابعك، كأنّك تجذب الجلد الذي، هنا، على ظاهر يدك. فتجد أنّ الجراب انفتح. فما الموجود في هذا الجراب الذي باعدت بين جنباته؟ الفراغ.

- ومن قال إن جنبات الجراب ينفصل بعضها عن البعض؟

- جرِّب!

- لا، أنا لست ضليعاً في فنون الميكانيكا. إني فيلسوف، وأخلص إلى استنتاجاتي بما يتوافق مع تفكيري. ثمّ إذا حدث أن توسّع جراب المثانة فلأنّ فيه مساماً، وبعد أن انكمش لفراغ الهواء منه، عاد القليل من الهواء ودخل من مسامه.

- أحقاً؟ أولاً، ما هي المسام إن لم تكن مساحات فارغة؟ وكيف للهواء أن يدخل من تلقائه إنْ لم تزوّده بحركة دافعة؟ ولِمَ لا يعود الجراب، بعد أن أفرغته من الهواء، للانتفاخ مجدداً؟ وما دام الجراب له مسام، لِمَ، حين يكون منتفخاً ومسدوداً وتضغطه ناقلاً إلى الهواء حركة، لا يفرغ الجراب من الهواء الذي يحتويه؟ لأنّ المسام هي بالتأكيد مساحات فارغة لكنّها أصغر من جسيمات الهواء.

- تابع الضغط بقوة، وعندئذ سوف ترى ما سيحدث. ثمّ اترك الجراب المنتفخ لبضع ساعات في الشمس، فتجد أنّه ينكمش شيئاً فشيئاً من تلقائه، لأنّ الحرارة تحيل الهواء البارد إلى هواء ساخن يخرج بسرعةٍ أكبر.

- إذاً خذ قمقماً...

- فيه ثقب في أسفله أم لا؟

- من دون ثقب. غطّسه بأكمله في الماء. فتلاحظ أنّه كلما دخل الماء خرج الهواء محدثاً صوتاً مميزاً دلالة على وجوده. بعد ذلك ارفع

القمقم من الماء، وفرّغ ماءه، وامتص كل الهواء منه، وسدّه بإصبعك، ، ثمّ ضعه مائلاً في الماء، ونحّ إصبعك عن فتحته. يدخل الماء ولكنك لن تسمع الصوت المميز الذي سمعته من قبل، لأنّ في الداخل لم يكن هناك سوى الفراغ.»

في تلك اللحظة قاطعهما الشاعر مذكّراً أرظروني بأنّه ينبغي أن يبقى منتبهاً، وبأنّ أصوات المياه والقماقم تلك قد جعلت الجميع يشعرون بالظمأ، وبأنّ مثاناتهم أصبحت فارغة، وبأنّه قد يكون من المستحسن أن يبحثوا عن نهر أو أي مكان آخر تسوده الطراوة.

كانوا، بين الحين والحين، يصادفون أناساً يأتون على ذكر زوسيمَس. كان أحدهم يقول إنه التقاه، فيما يقول آخر إنّه سمع ذات يوم أقاويل عن رجلٍ ذي لحية سوداء يستفسر الناس عن مملكة الراهب جان. فيسارع أصحابنا إلى سؤاله بقلقٍ بادٍ: «وبِمَ أجبتموه؟»، وكان المعنيون يجيبون، في الأغلب، أنهم كانوا يقولون له إنّ الجميع في هذه النواحي يعلمون أنّ الراهب جان مقيم في نواحي الشرق، غير أنّ بلوغ مملكته يستغرق سنواتٍ.

كان الشاعر يقول، مستثاراً، حانقاً، إنّه ورد في مخطوطات مكتبة دير سان فيكتور أنّ المسافرين عبر هذه البقاع لن تقع أبصارهم إلاّ على مدن فاتنة، بهياكلها ذات الأسطح المكسوة بالزمرّد، وقصورها المسقوفة بالذهب، وعمدها ذا التيجان المرمرية، وتماثيلها التي تبدو نابضة بالحياة، ومذابحها المذهّبة ذات الدرجات الستين، وأسوارها التي من لازورد خالص، وأحجارها المشعّة المنوّرة مثل سُرُج، وجبالها البلورية، وأنهارها الماسية، وحدائقها التي تنهمر من أشجارها أطيابٌ عطرةٌ تتيح لسكانها أن يحيوا متنشقين روائحها، وأديرتها التي لا تربّى فيها إلاّ الطواويس الزاهية الألوان والتي لا يفسد لحمها، وإذا جعله المسافرون زادهم، حُفِظَ ثلاثين يوماً وأزيد، حتّى تحت شمس حارقة، من دون أن تنبعث منه روائح

كريهة، وينابيعها العذبة التي تترقرق مياهها لامعةً كالبرق والتي، إذا وضعت فيها سمكة مجفّفة محفوظة بالملح، عادت إليها الحياة مجدداً، وهي الدلالة على أنها ينبوع الشباب السرمدي - ولكن، إلى يومهم ذاك، لم تقع أبصارهم إلاّ على القفار، والعلّيق، ومرتفعات صخرية لا يستطيع المرء أن يستريح مقتعداً حجراً منها إلاّ ألهبَت السخونة إليتيه، والمدن الوحيدة التي صادفوها كانت عبارة عن أكداس من الأكواخ البائسة يقطنها رعاعٌ قذرون مقزّزون، كما في كولديوفونس حيث صادفوا الأرتقيين، وهم رجال يمشون مطأطئين مثل الحملان، في يمبت حيث أملوا في حطّ الرحال لبعض الوقت ليستريحوا من عناء اجتياز السهول الجدبة، ونساءهم اللواتي وإن كنّ غير فائقات الحسن، فإنّهنّ غير فائقات الدمامة أيضاً، لكنّهم تبيّنوا، فيما بعد، أنّهن لفرط إخلاصهنّ لأزواجهنّ، يضعنَ في فروجهنّ حيّاتٍ سامة لصون عفّتهنّ - ولكان مثل هذا الأمر المستهجن هيّناً لو أنّهنّ يجاهرنَ به في الأقلّ، غير أنهنّ يخفينه، وكادت إحداهنّ، وقد تظاهرت ببذل عفّتها لشهوة الشاعر، أن تجعله ذا عفّةٍ أبدية، غير أنّه تدارك الأمر في اللحظة الأخيرة لدى سماعه فحيحاً، فأحجم مرتداً إلى الوراء. وبجوار مستنقعات قتدرش، صادفوا رجالاً ذوي خصىً مستطيلةٍ ومتدليةٍ حتّى الركبتين، وفي نيكوفيران، رأوا بشراً عراة كالحيوانات البرّية، يتناكحون على الطرقات كالكلاب، الأب يضاجع ابنته والابن يضاجع أمه. في طنطرة، صادفوا أكلة لحوم بشر، غير أنّهم، لحسن الطالع، لا يأكلون لحم الغرباء، لأنّهم يتقززون منه، بل يأكلون فقط لحم أطفالهم. وبجوار نهر أرلون، قادتهم المصادفة إلى قرية كان أهلها يرقصون حول نصب إله، وبواسطة سكاكين مسنّنة يجرّحون أعضاءهم كلّها، ثمّ يوضع الإله على عربة يجرونها عبر الدروب فيهرع عدد من منهم إلى الارتماء، ببهجةٍ بادية، تحت دواليبها فتتحطّم عظام سيقانهم وسواعدهم حتّى الموت. وفي ساليبوت، اجتازوا غابةً تستوطنها براغيث بحجم ضفادع، وفي كاريماريا التقوا رجالاً ذوي فراء يتكلّمون بما يشبه

النباح وحتّى باودولينو لم يستطع أن يفهم لغتهم، ونساءً لهنّ أنياب خنزير بري، وشعر طويل حتّى القدمين وذيل كذيل البقرة.

تلك هي، من بين أشياء أخرى، المشاهدات المرعبة التي صادفوها، ولا شيء من عجائب الشرق، كأنّ كلّ الذين وصفوها، في مدوّناتهم، ليسوا في آخر المطاف سوى أوغاد بحقّ.

كان أرظروني يوصيهم بالصبر، فقد نبّههم من قبل أنّهم قبل بلوغ الفردوس الأرضي سوف يجتازون أرضاً شديدة التوحّش، غير أنّ الشاعر كان يردّ عليه قائلاً إنّ الأرض الموحشة مأهولة بحيوانات ضارية، وأنّهم، لحسن طالعهم، لم يلتقوا، بعد، أيا منها، ما يعني أنّ لقاءها وشيك، وإذا كان ما شهدوه إلى يومهم ذاك، هو الأرض غير الموحشة، فليس عسيراً على أي منهم أن يتخيّل الآتي. كان عبدول، الذي لم تفارقه رعدة الحمّى، يقول إنه من المستحيل أن تكون أميرته قد عاشت في أماكن تخلّى الله عنها، كتلك الأماكن، فالأرجح أنهم سلكوا الاتجاه الخاطئ: «ولكن، يا صحبي، لم يبقَ لي من القوة ما يسعفني على سلوك طريق العودة، يئنّ قائلاً، لذا أحسب أني سأموت في طريقي نحو السعادة.

- هلاّ أنعمتَ علينا بصمتك، أنت لا تدري ماذا تقول، صاح به الشاعر قائلاً، لقد جعلتنا نقضي الليالي الطوال منصتين إليك وأنت تنشد جمال حبّك المستحيل، أمّا الآن وقد أيقنتَ أنّ أشدّ استحالة من هذا المستحيل ليس ممكناً، الأحرى بك أن تكون مغتبطاً وأن تلمس السماء بإصبعك!» فجذبه باودولينو من كمّه وهمس في أذنه قائلاً إنّ عبدول بات غارقاً في هذيانه، ولا ينبغي أن نزيد من عذابه.

بعد وقتٍ بدا أنّه لن ينقضي، مرّوا بسالوباتانا، وهي مدينة على قدرٍ من البؤس، لاقاهم الناس فيها بذهولٍ بادٍ مشيرين بأصابعهم إليهم كأنّهم يحصون عددهم. كان واضحاً أنّ سبب ذهولهم هو العدد، اثنا عشر، فخرّوا ساجدين، فيما هرع أحدهم ليشيع النبأ بين ما تبقّى من السكان. ثمّ

جاء لملاقاتهم رجلٌ في حلّة أرشمندريت مردّداً صلواتٍ باليونانية، وفي يده صليب من خشب (سقى الله أيام صلبان الفضّة المرصّعة بالياقوت، راح الشاعر يغمغم في سرّه)، وقال لباودولينو إنّ الناس هنا لطالما انتظروا عودة المجوس ذوي القداسة الذين ساروا ألفاً وألف ميل، وخبِروا أهوال الترحال، بعد أن زاروا طفل بيت لحم. وكان هذا الأرشمندريت يسألهم إذا كانوا عائدين إلى مملكة الراهب جان التي لا بدّ أنهم قدموا منها، لكي يرفعوا العناءَ المزمنَ عنه، ويستعيدوا السلطان الذي كان لهم، فيما مضى، على هذه البقاع المباركة.

كان باودولينو مبتهجاً. لم يكفّوا عن التساؤل حول ما ينتظرهم، ولكنهم أدركوا أن الأهلين، هم أيضاً، يجهلون أين تقع مملكة الراهب، سوى أنّهم مؤمنون، بما لا يرقى إليه شكّ، بأنّها تقع في مكان ما ناحيةَ الشرق. لا بل كانوا يبدون دهشتهم حيال ملوكٍ مجوسٍ، يفترض أنّهم وافدون من هناك، وليس في جعبتهم أنباء مؤكدة بهذا الشأن.

«يا أسيادي أصحاب الغبطة والقداسة، قال الأرشمندريت الصالح، أنتم لستم بالتأكيد من جبلّة ذاك الراهب البيزنطي الذي مرّ ببلدتنا منذ بعض الوقت، ساعياً لبلوغ المملكة لكي يعيد للراهب ذخيرةً، لم ندرِ ما هي، كانت قد سرقت منه. كان رجلاً أفّاكاً، وزنديقاً بالتأكيد، على غرار اليونانيين، أهل البلاد الممتدة على طول الشاطئ، لأنّه كان لا يكفّ عن ذكر العذراء الكلية القداسة أمّ الله، في حين أنّ نسطور، أبانا ونور الحقّ، قد علّمنا أنّ مريم لم تكن سوى أمّ المسيح الإنسان. فكيف يعقل أن نتخيّل إلهاً في القماط، إلهاً عمره شهران، إلهاً على الصليب؟ وحدهم الوثنيون يجعلون لآلهتهم أمهات!

- وأفّاك ذلك الكاهن كما وصفته حقاً، قاطعه الشاعر قائلاً، وليكن في علمك أنّ تلك الذخيرة كانت في عهدتنا قبل أن يسرقها.

- فليُنِلْه الربّ جزاءه. لقد تركناه يتابع طريقه ولم نحذّره من الأهوال التي سيصادفها، ولذلك لم يعلم شيئاً عن أبكاسيا، فليكن جزاؤه من الله

أن يرمي به في كنف تلك الظلمة. ومن المؤكّد أنه سيصادف المانتيكور وأحجار بوبوكتور السود.

- يا أصدقائي، قال الشاعر معلّقاً بصوتٍ خفيض، من شأن هؤلاء أن يزودونا بمعلومات ثمينة، ولكنهم لن يزودونا بها إلاّ لاعتقادهم بأننا الملوك المجوس. ومع ذلك، هم لا يعتقدون أنّ هناك حاجة لتزويدنا بأي معلومات، ما دمنا نعرفها سلفاً. لذا، لو كان الأمر بيدي، لقلت لكم فلنسارع إلى الرحيل من هنا، لأننا إذا استفضنا في الحديث معهم فقد يزلّ اللسان بحماقة ما تنبئهم بأننا لا نعلم ما ينبغي للمجوس أن يعلموه. كما ليس بمقدورنا أن نعرض عليهم شراء رأس من رؤوس يوحنا المعمدان، لأنني لا أتخيّل مجوساً يزاولون الاتجار بالذخائر المقدّسة. فلنغادر بسرعة، لأنهم ربّما كانوا مسيحيين صالحين، ولكن من يضمن لنا أنّهم يُرفقون بمن يستغلّ وداعتهم.»

على ذلك، انطلقوا متابعين طريقهم بعد أن استأذنوا وتلقوا من كرمهم زاداً متنوعاً غير قليل، وفي خَلَدهم يلحّ السؤال عمّا تكون عليه أبكاسيا هذه، حيث الظلمة بحر والعابر غريق.

لم يطل بهم الأمر حتّى أدركوا ما هي أحجار بوبوكتور السود. كانوا قطعوا ما لا يحصى من الأميال سالكين ضفّة ذلك النهر، وأخبرهم بعض الرحَّل الذين كانوا التقوهم منذ بعض الوقت، أنّ من يلمسها يصير أسودَ مثلها. فقال أرظروني إنّها، على الضدّ مما قاله الرحَّل، لا بدّ أن تكون أحجاراً ثمينة، وإنّ الرحَّلَ يبيعونها في أسواق بعيدة، وإنّهم يشيعون هذه الخرافة لكي لا يلتقطها الآخرون. ثمّ هرعَ لالتقاط حفنة منها ليُري أصحابه كم هي لامعة وصقيلة بفعل المياه. ولكن فيما كان يحدّثهم، صار عنقه ووجهه ويداه سوداً مثل الأبنوس. ولمّا شقّ قميصه عن نحره ألفاه أسود وكذلك الأمر جذعه كلّه، فكشفَ عن ساقيه وقدميه، فوجد أنها، هي أيضاً، بلون الفحم.

ارتمى أرظروني عارياً في خضمّ النهر، وراح يتقلّب في مياهه، فاركاً جسمه بحصى مجراه... ولكن، عبثاً، فقد غدا أرظروني أسود كالليل، ولم يبقَ سوى عينيه البيضاوين، وشفتيه الحمراوين تحت لحيته، التي كانت سوداء، هي أيضاً.

في البداية ضحك الآخرون حتّى انقطعت أنفاسهم، بينما راح أرظروني يكيل اللعنات والشتائم لأمهاتهم، وبعد ذلك حاولوا أن يخفّفوا عنه: «ألم نشأ أن نوهم الناس بأننا المجوس؟ الحقّ أن أحدهم كان أسودَ، وأقسم انّ أحد الثلاثة المسجّين الآن في كولونيا، هو أسود البشرة. لذا أعتقد أنّ ما جرى لك يضفي على مزاعمنا بعضاً من الحقيقة التي ينبغي أن يصدّقها الناس.» أمّا سليمان فلم يراوغ في قوله، ولفتهم إلى أنّه سمع من قبل بالأحجار التي تغيّر لون البشرة، ولكن هناك أكثر من ترياق واحد، وسوف يعود أرظروني مجدداً أكثر بياضاً مما كان. «بلى، في بلاد الأوهام»، قال التشيولا ساخراً؛ فكان عليهم أن يمسكوا بالأرمني التَعِس بقوة لأنّه همّ بانتزاع أذنِ الإسكندري بقضمةٍ من أسنانه.

ذات يوم مشرق، توغلوا في كنف غابة كثيفة الأشجار ذات الأغصان المتشابكة، والمثمرة بشتّى أنواع الفواكه. يخترقها مجرى نهر مياهه بيضاء كاللبن الحليب. وكانت تطالعهم، في الغابة، بين الحين والحين، فُرَجٌ مخضوضرة بأشجار النخيل والدوالي التي تنوء تحت ثقل العناقيد وحبّاتها الكبيرة بحجم كبّادة. في إحدى تلك الفُرَج، صادفوا قريةً من الأكواخ المتواضعة المبنية من تبن خالص، والتي سرعان ما خرج منها رجالٌ عراة من الرأس حتّى أخمص القدمين، وإن كان بعضهم، وبمحض المصادفة، قد استطالت لحيته حتّى سترت عورته. وما كانت النساء على استحياءٍ من عري الثديين والبطن، غير أنّ عريهنّ هذا كان يبدو مفرطاً في عفافه: إذ رحنَ يحملقنَ في عيون الوافدين الجدد بجرأةٍ لا أثر للغواية فيها.

كان هؤلاء يتكلمون اليونانية، ولدى استقبالهم ضيوفهم بلُطفِ

وترحاب، وصفوا أنفسهم بأنّهم من مريدي حكمة العري، أي مخلوقات تسعى، بعريٍ ساذج، وراء الحكمة وتزاول الحُسنى. ودعي أصحابنا إلى التجوال بحرية تامّة في قريتهم النامية وسط غابة، وعند المساء أقيم لهم عشاء مكوّن فقط من الخيرات التي تنتجها الأرض. طرح باودولينو بضع أسئلة على أكبرهم سناً الذي كان الجميع يعاملونه بتوقير خاص. سأله عمّا يملكون، فأجاب الرجل: «نملك الأرض والأشجار والشمس والقمر والكواكب. عندما نجوع نأكل ثمار الأشجار التي تنتجها من تلقائها بتتبع الشمس والقمر. عندما نعطش نذهب إلى النهر لكي نشرب. لكلّ منا امرأته، ووفقاً للدورة القمرية، كلّ منا يخصب رفيقته حتّى تنجب ولدين، فيعطى أحدهما للأب، ويعطى الآخر للأمّ.»

أبدى باودولينو استهجانه لكونه لم يرَ لا هيكلاً ولا مقبرة، فقال العجوز: «هذا المكان الذي نحن فيه هو أيضاً قبرنا، ونحن نموت هنا مستلقين في غفلةِ الموت. الأرض تلدنا، والأرض تطعمنا، وتحت ترابها نغرق في سباتنا الأبدي. أمّا الهياكل، فنحن نعلم أنّها تشيّد في أماكن أخرى، تكريماً لمن يسمونه، هم، خالق كلّ شيء. لكننا، نحن، نؤمن بأنّ الأشياء خلِقَت بدافع الإحسان، وبفضل ذاتها، وعلى هذا النحو تستطيع بذاتها أن تلبّي حاجاتها، والفراشة تنقل الطلعَ إلى الزهرة التي بنموّها سوف تغذيها.

– أفهم مما أسلفتَ أنكم تؤمنون وتزاولون المحبّة والاحترام المتبادل، ولا تقتلون الحيوان، كما، طبعاً، لا تقتلون أشباهكم من بني البشر. ولكّنكم في ذلك تتبعون أي وصيّة؟

– نحن إنما نزاول هذه الأمور عوضاً عن غياب أيّ وصايا. إنّ في ممارسة الخير وتعليمه عزاءً لأهلنا الذين يفتقدون الآب.

– لا يعقَل أن يستغنى عن الآب، قال الشاعر هامساً في أذن باودولينو، لقد شهدتَ بأمّ العين ما حلّ بجيشنا العظيم إثر وفاة فردريك. أمّا هؤلاء فيحيون هنا في بطالة متمادية لكنّهم يجهلون ماهية الحياة...»

بالمقابل، بدا واضحاً أنّ تلك الحكمة قد أثارت فضول بورون، وراح يمطر الشيخَ بوابل من الأسئلة.

«من هم الأكثر عدداً، الأحياء أم الموتى؟

- الموتى هم الأكثر عدداً، ولكن بات مستحيلاً عدّهم. لذا فإنّ من نراهم هم أكثر عدداً من الآخرين الذين لا نستطيع أن نراهم.

- أيهما الأقوى، الموت أم الحياة؟

- الحياة، لأنّ الشمس حين تشرق تكون ساطعة متألقة وعندما تغرب تبدو أشدّ وهناً.

- أيهما أكبر من حيث الكَمّ، الأرض أم البحر؟

- الأرض، لأنّ البحر نفسه قائم على قاع الأرض.

- أيّهما كان أوّلاً، الليل أم النهار؟

- الليل. كلّ ما يولد يتشكّل في عتمة البطن، وبعد ذلك يولد إلى الضوء.

- أيهما أفضل الجهتين، اليمنى أم اليسرى؟

- اليمنى. وبرهاني على ذلك، أنّ الشمس تطلع من الجهة اليمنى ثمّ تسلك مدارها في السماء باتجاه الجهة اليسرى، والمرأة ترضع وليدها أولاً من ثديها الأيمن.

- أيّ حيوان هو الأشدّ ضراوة؟ سأله الشاعر عندئذ.

- الإنسان.

- لِمَ؟

- اسأل نفسك. أنت أيضاً حيوان ضارٍ ومن حولك حيوانات ضارية أخرى، ولشدّة تعطّشك للسلطان تريد أن تفتك بالحيوانات الضارية الأخرى.»

إذ ذاك قال الشاعر: «ولكن إذا كان الناس جميعهم مثلكم، فلن يركبَ أحدٌ بحراً، ولن يزرع أحد أرضاً، ولن تبنى الممالك العظيمة، هي

التي تضفي النظامَ والعظمة على الفوضى البائسة لأمور العالم الأرضي.»

أجاب الشيخ قائلاً: «كلّ أمر من الأمور التي ذكرتها هي بالتأكيد حظوة، لكنها تبنى على شقاءِ الآخر، ونحن لا نريد أياً من هذا كلّه.»

سأله عبدول إذا كان يعلم أين تقيم أجمل الأميرات وأبعدهنّ. «وهل تبحث عنها؟» سأل الشيخ، فأجاب عبدول بأنه، أجل، يبحث عنها. «وهل رأيتها من قبل؟»، فأجاب عبدول بلا. «أتودّ أن تراها؟»، فأجاب عبدول بأنّه لا يعلم. عندها دخل الشيخ إلى كوخه وأحضر طبقاً معدنياً، وكان الطبق صقيلاً ولامعاً تنعكس الأشياء على صفحته كما قد تنعكس على صفحة مياه عذبة. فقال: «لقد حظينا فيما مضى بهذه المرآة كهبة، وما كان يسعنا رفض الهبة احتراماً لواهبها. ولكنّ أحداً منا لا يرغب في أن ينظر إلى نفسه عبرها، لأنّ ذلك قد يوقعنا في خيلاء الجسد، أو النفور من عيب ما، فنحيا في كنف الخشية من أن يزدرينا الآخرون. وفي هذه المرآة قد ترى، ذات يوم، ما كنت تبحث عنه.»

لمّا أوى كلّ منهم إلى فراشه، قال البويدي، وقد اغرورقت عيناه بالدموع «فلنتوقف هنا.

- ستكون متعة للأبصار، عارياً كما خلقك الله، قال الشاعر ساخراً،

- لا ريب في أننا نسعى وراء ما يفوق طاقتنا، قال ربّي سليمان، لكننا لا نستطيع، بعد الآن، أن نكفّ عن تطلّبِ هذا السعي.»

وفي اليوم التالي تابعوا رحلتهم.

27

باودولينو في ظلمات أبكاسيا

إثر مغادرتهم مريدي حكمة العري ساروا طويلاً على غير قصد، وهاجسهم الاهتداء إلى طريقٍ تفضي بهم إلى السامباتيون من دون المرور بتلك الأماكن التي حذّثوهم عنها للتوّ. ولكن عبثاً. اجتازوا سهولاً، وقطعوا مساقط مياه، وتسلّقوا شعاباً جبليةً وعرة، ومعهم أرظروني المنكبّ، بين الفينة والفينة، على حساب المسافاتِ على خارطة كوسمس، لافتاً إلى أنّ دجلة أو الفرات أو الغانج، ما عادت بعيدة. ويجيبه الشاعر بأن يسدّ فمه، ناعتاً إياه بالمسخ الأسود؛ فيواسيه سليمان قائلاً إنّه سيستعيد لونه الأبيض، عاجلاً أم آجلاً، فيما الأيام والشهور تمضي رتيبةً متشابهة.

ذات يوم، حطوا الرحال بقرب بركة. لم يكن ماؤها عذباً لكنّه صالح للشرب، والمهمّ أنه روى عطش الجياد. كانوا على وشكِ النوم لمّا طلع القمر فتبيّنوا في الظلّ، تحت ضيائه الخافت، جمهرةً مخيفة. كانت أعداد لا تحصى من العقارب، وقد رفعت أذنابها ذات الإبر عالياً، تسعى نحو الماء، وتتبعها زمرة من الحيّات ذات الألوان المتنوّعة: فبعضها كان ذا حراشف حمر، وبعضها ذا حراشف سود وبيض، وأخرى لامعة ببريق مذهّب. كان الفحيح الهائل يتردّد في الأرجاء كلّها فاستبدّ بهم الهلع.

لكنّهم سرعان ما هبّوا واقفين في ما يشبه الحلقة شاهرين سيوفهم ساعين إلى النيل من تلك الآفات القاتلة قبل أن تقترب منهم. غير أن العقارب والحيّات كانت تسعى وراء الماء غير مبالية بهم، وما إن روت عطشها حتّى زحفت عائدةً إلى أوكارها عير صدوعٍ باديةٍ في الأرض.

عند منتصف الليل، وقد تراءى لهم أنهم باتوا قادرين على النوم من دون خشية، جاءتهم حيّات مقنزعة، كلّ حية منها برأسين أو ثلاثة رؤوس. كانت تكنس الأرض بحراشفها زاحفةً مبقية أشداقها فاغرةً وفي كلّ شدقٍ تلجلجت ثلاثة ألسن. أمّا الوخم المنبعث منها فقد يشتمّه المرء على بعد ميلٍ، فيما أعينها ذات البريق الغامز في الضياء الكلسيّ الباهت، تبدو وكأنها تَنفث سمّاً، كما المُلَيْكة... قاتلوها لنحو الساعةِ لأنّها كانت أشد ضراوة من سابقاتها، وربّما لأنّها كانت تسعى وراء لحم طازج. قتلوا عدداً منها فانقضّت الناجية منها على جيفها ملتهمّة إيّاها غافلةً عن البشر. كانوا موقنين أنّهم تجاوزوا تلك المحنة لمّا جاءتهم، عقب الحيّات، السرطانات، ما يزيد على المئة منها، مكسوة بحراشف تماسيح تردّ عنها ضربَ السيوف. فراحوا يجهدون في صدّها عنهم إلى أن خطرت لكولندرينو خاطرةً باعثها اليأس: فاقترب من أحدها وركله برجله عند أسفل البطن، فانقلب السرطان على ظهره محرّكاً ملقطيه بشراسة. وهكذا تمكّنوا من محاصرتها ثمّ طمرها بأوراق الشجر وإضرامها. وعلى الأثر فطنوا إلى مذاق لحمها اللذيذ بعد نزع القشرة عنه، فجعلوا من لحمها الحلو ذي الألياف، لكن اللذيذ الطعم والمغذّي، زادهم طيلة يومين.

ذات يوم آخر، صادفوا المُلَيْكة بالفعل، فألفوها تماماً كما وصفتها المدوّنات التي ذكرت أخبارها. خرجت عليهم من كتلة صخرية بعد أن شقّت الصخرة، تماماً كما ورد في أخبار بلّينُس. كان لها رأس ديكٍ ومخالب كمخالبه، وبدل القنزعة بُرزة حمراء على شاكلة تاج، وعينان صفراوان كرويتان كعيني الضفدع، وجسم ثعبان. كان لونها أخضر غامقاً

موشّىً بمشحات مفضّضة، فبدت للوهلة الأولى على قدْرٍ من الجمال، غير أنّ الشائع عنها أن أنفاسها قد تسمّم الحيوان والبشر، وهم، برغم المسافة التي تفصلهم عنها، يشتمّون الوخمَ المقزّز الذي ينبعث منها.

«لا تقتربوا منها، صاح سليمان محذّراً، وإيّاكم أن تحدّقوا مباشرةً في عينيها لأنّهما تطلقان طاقةً مهلكة!». راحت المُلَيْكة تزحف باتجاههم فتشتدّ وطأة الرائحة بما لا يطاق، إلى أن تبادر إلى ذهن باودولينو أنّ هناك وسيلة لقتلها. «هاتِ المرآة، المرآة!» صاح مخاطباً عبدول الذي ناوله المرآة المعدنية التي أعطاهم إياها مريدو حكمة العري. فأمسكها باودولينو بيمناه أمام نحره كأنّها ترس موجّه نحو الوحش، فيما غطّى بيسراه عينيه ليحجبها عن نظرة ذاك المخلوق، وراح يتقدّم بروية مهتدياً بما يراه من الأرض. توقّف أمام البهيمة، ومدّ يده بالمرآة ليقرّبها ما أمكنه منها. وإذا بالمُلَيْكة، وقد لفتها هذا البريق، ترفع رأسها وتحملق بعينيها الضفدعيتين المنعكستين في المرآة، نافثةً من أنفاسها ريحاً. لكن سرعان ما سرت رعدةٌ في أوصالها، وراحت أجفانها البنفسجية ترفّ بقوة، وأطلقت جأرة مدويةً قبل أن تخرّ صريعةً على الأرض. وعندئذ تنبّه الجميع إلى أنّ المرآة عكست للمليكة طاقة نظرتها والأنفاس التي أطلقتها، وبفعل هاتين الخارقتين وقعت ضحية ذاتها.

«بتنا على أرض الوحوش، قال الشاعر بحبورٍ بادٍ. المملكة إذاً صارت أقرب إلينا.» غير أنّ باودولينو لبثَ حائراً، لا يعلم حقّاً إذا كان الشاعر، بقوله: «المملكة»، يقصد مملكة الراهب أو مملكته الخاصة، المقبلة.

لبثوا على هذه الحال، في يومٍ يصادفون أفراس نهرٍ مفترسة، وفي آخر خفافيش بحجم حمائم أو أكبر، حتّى بلغوا أطراف مدينةٍ محاطةٍ بالجبال التي ينبسط، عند أقدامها، سهلٌ مشجّر بأشجار نادرة يبدو، عن كثب، مكتنفاً بضبابٍ خفيف، غير أنّ الضباب لا يلبث أن يزداد كثافة،

لكي يستحيل، تدريجاً، إلى سحابةٍ داكنةٍ صفيقة، تمتدّ، عند الأفق، شريطاً كالح السواد متنافراً مع مشحاتِ الغروب الحمر.

كان أهل المدينة ودودين، غير أنّ لغتهم المؤلفة من نبراتٍ حلقية استعصت على باودولينو في البداية فاستغرقه تعلّمها بضعة أيام حلّوا خلالها ضيوفاً على المدينة حيث اقتصر طعامهم على لحم الأرانب البرّية التي يكثر صيدها بين الصخور. وعندما صار التفاهم معهم ممكناً أخبروهم أنّ حدود مقاطعة أبكاسيا الشاسعة الأرجاء تبدأ عند سفح الجبل، وهي مقاطعة تتميّز بما يلي: إنها عبارة عن غابة واحدة شاسعة المساحة مكتنفة دائما بظلمة كالحة، هي، مع ذلك، ليست ظلمة الليل، ففي الليل، نحظى هنا، على الأقلّ، بضياء السماء المنجمة، ولكن هناك، الظلمة هي السواد الأشدّ سواداً، كما لو كان المرء في باطن كهفٍ أو غار، وهو مغمض العينين. هذه المقاطعة التي لا ترى النور يقطنها الأبكاسيون الذين اعتادوا العيش فيها كما يعتاد العميان الأماكن التي ترعرعوا فيها منذ صغرهم. ويبدو أنّهم اعتادوا التعرّف إلى الجهات بواسطة السمع والشمّ، ولكن لا أحد يعلم كيف هم ومن هم لأنّ أحداً لم يطأ أرضهم من قبل.

استفسروا عن احتمال عثورهم على طريق أخرى يسلكونها باتجاه الشرق، فأجابهم الأهلون بلى، إذا التفوا حول أبكاسيا وغابتها، غير أنّ هذه الالتفافة، كما علّمتنا المدوّنات القديمة، قد تستغرق عشر سنوات من السير، لأنّ الغابة المعتمة تمتدّ على طول مئة واثني عشر سلموكاً، وكان من المستحيل أن يعرفوا كم يبلغ السلموك في حسابهم، سوى أنّه بالتأكيد أطول من الميل والغلوة والفرسخ.

كانوا على وشك التخلّي، لمّا بادر البورتشيلي الذي اشتهر بأنه الصامت الدهريّ بينهم، إلى تذكير باودولينو بأنّهم معتادون، هم أهل الفراسكيتا، السير في كنف الضباب الكثيف الذي لا يشقّ حتّى بسكين، وهو أدهى من الليل البهيم، لأنّك إذا سرتَ في ذلك الرمادي المطبق

تراءت لك، بخديعةٍ من بصرك المتعب، أشكالٌ لا وجود لها في هذا العالم، لذا تجد نفسك مجبراً على التوقف حتّى حيث يكون بإمكانك متابعة الطريق، وإذا ما اغترّك سرابٌ ما وغيّرتَ وجهتك فربّما أوقعك من أعلى جرفٍ. «وما الذي قد تفعله وسط الضباب في بلدنا، أردف قائلاً، سوى السير قُدُماً مهتدياً بالحدس والغريزة وأنتَ لا تبصر أبعدَ من أنفك، على غرار الخشّاف الأعمى، ولا يسعك حتّى أن تتبع شمّك، لأنّ الضباب يسدّ منخريك والرائحة الوحيدة التي تستطيع أن تشتمّها هي رائحتك أنت؟ لذلك، خلص قائلاً، إذا كنت معتاداً الضباب، فلن تكون الظلمة الكالحة سوى رحلة في وضح النهار.»

أيّده الإسكندريون في ما قاله، وعليه سار باودولينو وأبناء مدينته الخمسة في الطليعة فيما أوثق الآخرون أنفسهم بجيادهم وتبعوهم راجينَ أن تجري الأمور على خير ما يرام.

في البداية كان الأمر أشبه بنزهةٍ ممتعة، لأنّهم شعروا بأنّهم يسيرون في كنف الضباب الذي يسود بلدهم، ولكن بمضيّ بضع ساعات حلّ عليهم ما يشبه الليل الداجي. كان السائرون في الطليعة ينصتون إلى حفيف الأغصان، وعندما يعجزون عن سماعها يدركون أنّهم باتوا عند فرجة من فُرَج الغابة. كان الأهلون قد أخبروهم أنّ في هذه الأرض تهبّ على الدوام رياح عاتية من الجنوب إلى الشمال، ولذلك كان باودولينو، بين الفينة والفينة، يبلّل إصبعاً بريقه ويرفعها لكي يتحسّس الجهة التي يهبّ منها الريح، فينحرف باتجاه الشرق.

كانوا يدركون أنّ الليل قد حلّ عندما يشعرون بأنّ الهواء صار أكثر برودة، وإذ ذاك يتوقفون لقسطٍ من الراحة - لكنّ الشاعر كان يقول إنّ التوقّفَ على هذا النحو غير مجدٍ لأنّ المرء يستطيع، في مكان مثل هذا، أن يأخذ قسطاً من الراحة متى شاء، حتّى لو كان ذلك في وضح النهار. لكن أرظروني لفته إلى أنّهم لا يسمعون أصوات الحيوانات عندما يحلّ البرد، ثمّ يسمعونها مجدداً، وخاصةً تغريد الطيور، مع تباشير الدفء.

وهذه دلالة على أنّ كلّ المخلوقات الحيّة في أبكاسيا تتبع تعاقب مواقيت اليوم بحسب تعاقب البرودة والدفء، كما لو أنّه تعاقب الشمس والقمر.

لأيام طويلة لم يلمحوا في الجوار إنسياً. وعندما نفد زادهم راحوا يمدون أيديهم متلمّسين أغصان الشجر، ليتحسسوها غصناً غصناً، وأحياناً لساعات وساعات، حتّى تعثر اليد على ثمرةٍ ما فيلتهمونها ورجاؤهم ألاّ تكون ثمرة سامة. وغالباً ما كانت الروائح المنبعثة من بعض النباتات العجيبة هي التي توحي لباودولينو (المميّز من بينهم بحاسة شمّه) بالوجهة التي ينبغي أن يسلكوها، يميناً أم يساراً. وبمضيّ الأيام كانوا يوغلون تقدماً وسط الغابة. كان آليرامو سكاكاباروتزي، الملقب بالتشيولا، لا يفارق قوسه فيصليه للصيد حتّى إذا عبر طير مبطئ في طيرانه، قصير الجناحين، كدجاج بلادنا، رماه بنبلةٍ، فيهرعون، هم، مهتدين بحشرجة نعيقه أو رفّة جناحيه، لالتقاط الطريدة، وينتفون ريشها على عجل ويشوونها على وقدةِ أغصان يابسة. كان الأمر المذهل في نظرهم أنّهم باتوا يضرمون النار في الحطب بحكّ حجرٍ على حجر: وكانت النار تستعر حاميةً حمراء كما هي النار، لكنّها لا تنير شيئاً، حتّى هم القابعين بجوارها، ثمّ تخبو تتلاشى في الموضع الذي يدسّ فيه الطير وقد شكّ بعود، لكي يشوى بلهيبها.

لم يكن العثور على الماء شاقاً، لأنهم غالباً ما كانوا يهتدون إلى خرير مياه متدفقة من نبع أو ساقية. يتقدّمون ببطء شديد، وذات مرّة ساروا طيلة يومين ليجدوا أنفسهم، في آخر المطاف، عند الموضع الذي كانوا قد انطلقوا منه، لأنّهم عثروا، وهم يتلمّسون ما حولهم، على بعض ما خلّفوه من أثر فيه، قبل رحيلهم عنه.

لكنّهم أخيراً شعروا بوجود الأبكاسيين. في البداية تناهت إلى مسامعهم أصوات أشبه بالغمغمة تحاصرهم، وكانت أصوات، برغم خفوتها، تنمّ عن انفعال، كأنّ سكان الغابة يعلمون بعضهم بعضاً بوجود هؤلاء الوافدين على نحو مباغت والذين لم ير أحدٌ شبيهاً لهم من قبل - أو ربّما الذين لم يسمع أحد بوجودهم من قبل. أطلق الشاعر صيحةً

مدوية فسكتت الأصوات، فيما وشى اهتزاز الأغصان وحفيفها المتزايد بفرار الأبكاسيين مذعورين. لكنّهم عادوا مجدداً، وتناهى همسهم إذ لم تزدهم الصيحة إلاّ ذهولاً إزاء تلك الغزوة المباغتة.

في وقتٍ ما، أحسّ الشاعر أنّ يداً قد لامسته، أو طرفاً ما مكسواً بالوبر، وأمسك فجأةً بشيء ما، وتناهت صيحات ذعر. أفلت الشاعر قبضته فتراجعت أصوات الأهلين قليلاً، كما لو أنّهم وسّعوا مجال حلقتهم ليبقوا على مسافة آمنة.

لم يطرأ جديدٌ خلال بضعة أيام. كانوا يتابعون رحلتهم والأبكاسيون يتبعونهم من بعد، والأرجح أنّهم ليسوا أولئك الذين تنبّهوا للمرّةِ الأولى إلى وجودهم، بل سواهم. وذات ليلة (هل كان الوقت ليلاً؟) تناهى، فعلاً، إلى مسامعهم قرع طبول بعيد، أو ما يشبه الطرقَ على جذع شجرةٍ أجوف. كانت ضوضاء خافتة لكنّها عمّت الأرجاء كلّها، وربّما امتدت إلى بضعة أميال، فأدركوا أنّ الأبكاسيين يتناقلون بهذه الوسيلة أخبار ما يجري في الغابة.

مع الوقت كانوا قد اعتادوا تلك الرفقة الخفيّة. كما باتوا أكثر اعتياداً على العتمة، حتّى أنّ عبدول، الذي طالما أبدى انزعاجه من أشعة الشمس، كان يقول إنّه بات في حال أفضل، وزالت عنه الحمّى، وعاود إنشاد أغانيه. وذات مساء (هل كان مساءً؟)، فيما كانوا متحلّقين حول نار أوقدوها، استلّ آلته من خرجه وعاود الإنشاد:

بحزن وفرح، في آخر الطريق
رجائي أن أرى ذلك الحبيب البعيد.
ولكن أنّى ذهبتُ إنْ رأيته ساورتني الريبة
في أني دائماً سوف أكون بعيداً جداً.
شاق هو عبوري وشائكة هي طريقي

وأبداً لن أقدر أن أتنبأ بمصيري.
فليكن قدري كما يشاء الربّ.

كم فرحتي كبيرة سوف تكون لمّا أسأله
حباً بالإله، أن يمنح الضيف البعيد ملاذاً.
فإذا ابتغى الدعةَ بقربها الدعة سوف تكون
وإن كانت تلوح من المسافة البعيدة.
ونشيدي سوف يكون عذباً ورقيقاً
إنْ رضيت بجواره مطرحاً.
وإنشادي سيكون لي أضحيةً عذبةً من القلب.

انتبهوا، فجأةً، إلى أنّ الأبكاسيين الذين لم يكفوا في السابق عن الهمس والغمغمة، قد لزموا الصمت. لقد أنصتوا بصمتٍ لإنشاد عبدول، ثمّ حاولوا أن يردّوا عليه بالمثل: كانت مئة شفةٍ (أكانت شفاهاً حقاً؟) تصفر وتغرّد بعذوبةٍ مثل الشحارير الأليفة، مردّدةً نغمات عبدول. وهكذا اهتدوا إلى وسيلة للتفاهم، من دون كلام، مع مضيفيهم، وفي الليالي التالية تخاطبوا، مداورةً، باللغة نفسها، وكان هؤلاء ينشدون فيردّ أولئك بما يشبه النفخ بالمزامير. وذات مرّة أنشد الشاعر، بسوقيةٍ بادية، إحدى أغاني الحانات التي كانت تحمرّ لها في باريس، وجنات النادلات أنفسهنّ، وشاطره باودولينو الغناء. فلم يردّ الأبكاسيون، ولكن بعد هنيهات راح واحدٌ أو اثنان منهم يردّدان نغمات عبدول، كأنهم يقولون إنّ هذه الأغنيات عذبة ومستحبة وليس الأغنيات الأخرى. ما حدا بعبدول إلى القول إنّهم يبدون بذلك رقّةً في المشاعر وقدرةً على التمييز بين الموسيقى الجيّدة والرديئة.

إنّ شعوره بأنّه هو وحده القادر على مخاطبة الأبكاسيين، كان بالنسبة

لعبدول بمثابة ولادة ثانية. نحن في مملكة الحنوّ، كان يردّد قائلاً، ما يعني أنني أصبحت قريباً جداً من مرامي. هيّا لا تقنطوا الآن. لا، أجابه البويدي، لِمَ لا نمكث هنا؟ هل يوجد في العالم مكان أجمل من هذا المكان، حيث البشاعة إن وجدت، تبقى محتجبةً عن الأبصار؟

وكان باودولينو، يشعر، هو أيضاً، بأنّ الأيام الطويلة التي قضاها في كنف الظلمة استطاعت، بعد كلّ ما شهده عبر العالم الشاسع، أن تصالحه مع نفسه. ففي العتمة كان يعود إلى ذكرياته، ويفتكر في طفولته ووالده ووالدته وكولندرينا الرقيقة التي كتب لها الشقاء. ذات مساء (هل كان مساءً؟ بلى، لأنّ الأبكاسيين يصمتون في نومهم)، وقد أرّقته الهواجس، مشى قليلاً وهو يتلمّس أغصان الشجر كأنّه يبحث عن شيء ما. فجأةً لامست يده ثمرةً، طرية الملمس وذات عطر مميّز. فبادر إلى قطفها ثمّ قضمها فسرى خدرٌ مباغت في كيانه، وما عاد يدري إذا كان في حلمٍ أم عِلْم.

فجأةً رأى، أو الأحرى خيّل إليه إنه يرى، كولندرينا بقربه. «باودولينو، باودولينو، راحت تناديه بصوتٍ فتيّ، لا تتوقف، حتّى لو بدا لك أنّ كلّ شيء ههنا فائق الجمال والروعة. يجب أن تصل إلى مملكة ذلك الراهب الذي طالما حدّثتني عنه، وأن تسلّمه تلك الكأس، وإلاّ من سيجعل من باودولينو كولندريدي الصغير دوقاً؟ أثلج قلبي، نحن هنا لا نعاني كثيراً ولكنّ شوقي إليك كبير.

- كولندرينا، كولندرينا، صاح باودولينو، أو خيّل إليه أنّه يصرخ، أصمتي، أنتِ لست سوى طيف، لست سوى مظهر خادع، ثمرة هذه الثمرة! فالموتى لا يعودون!

- في العادة لا، إنهم لا يعودون، أجابت كولندرينا، غير أني ألححت عليهم كثيراً. قلت لهم: لم تمهلوني برفقة زوجي سوى فصلٍ واحد، هنيهات. فاسدوا لي هذه الخدمة إن كنتم، أنتم أيضاً، لكم قلب. هنا، أشعر بالراحة، وأرى العذراء مريم الكلية الغبطة، وكلّ القديسين،

غير أنّي أفتقد لمسات باودولينو التي كانت تداعب جسمي. فمنحوني برهةً من الوقت، ما يكفي لأن اقبلك قبلة صغيرة. لا تتوقف يا باودولينو في الطريق بصحبة نساء هذه الأماكن اللواتي قد يكنّ مصاباتٍ بأمراض وضيعة حتّى أنا لا أعرف عنها شيئاً. امشِ في طريقك واسلك وجهة الشمس.»

تبدّد طيفها فيما شعر باودولينو بربتٍ خفيف على خدّه. فانتفضَ من حلم يقظته، ثمّ غفا قرير العين. في اليوم التالي قال لصحبه إنّه ينبغي لهم متابعة رحلتهم.

بعد أيام عديدة أخرى، لمحوا نوراً غامزاً، ضياءً كخيوط بيضٍ. ومجدداً استحالت العتمة إلى رماديّ يشبه الضباب الكثيف. وانتبهوا إلى أنّ الأبكاسيين توقفوا وراحوا يطلقون ما يشبه الزغردة بمثابة تحية. شعروا أنّهم واقفين بلا حراك عند طرف الفرجة، عند تخوم ذلك النور الذي يخشونه بالتأكيد، كأنّهم يلوّحون بأيديهم، وشعر أصحابنا من نبرة أصواتهم العذبة أنّهم كانوا يتبسمون.

عبروا الضباب وخرجوا إلى نور الشمس. لبثوا مبهورين، فيما استبدّت رعدة الحمّى مجدداً بجسم عبدول. كانوا يعتقدون أنّهم، بعد اختبار أبكاسيا، ستطأ أقدامهم الأرض الموعودة، غير أنّهم سرعان ما أدركوا خطأ اعتقادهم.

لم يمض بهم وقت طويل حتّى راحت ترفرف فوق رؤوسهم أجنحة طيور لها وجوه آدمية، وهي تصيح بهم: «أي أرض وطئتم؟ عودوا أدراجكم! لن يدنّس أحد أرضَ الأبرار! عودوا أدراجكم وطئوا الأرض التي أعطيت لكم!» فقال الشاعر إنّ في الأمرِ سحراً، ربّما كانت إحدى الوسائل المتبعة لحماية أرض الراهب، وأقنعهم بأن يتابعوا السير.

إثر أيامٍ من السير في أرض صخرية لم تنبت فيها ولو نبتة واحدة،

صادفوا ثلاث بهائم بدا لهم أنها تسير باتجاههم. إحداها كان، بالتأكيد، قطّاً مقوّس الظهر، منتفش الوبر، وله عينان مثل جمرتين متقدتين. والأخرى كان لها رأس أسدٍ يطلقُ زئيراً مرعباً، وجذع شاة ومؤخرة تنين، ولكن على ظهرها العنزي انتصبَ رأس آخر مقرّن لا يكفّ عن الثغاء. كان الذيل ثعباناً ينتصبُ مطلقاً فحيحه المرعب من حوله. أمّا البهيمة الثالثة فكان لها جذع أسد وذنب عقرب ورأس شبه آدمي، بعينين زرقاوين، وأنف مرسوم، وفم فاغرٍ يكشف، في كلّ من الفكين، عن ثلاثة صفوف من الأسنان المسننة كالحراب.

من بين تلك المخلوقات الثلاثة، كان القطّ هو أخشى ما يخشونه، لأنّ الشائع عنه أنّه ساعيَ إبليس والأثير لدى مستحضِري الأرواح، وأيضاً لأنّ قتالَ أي وحش ممكن، ما عداه هو الذي قبل أن يتاح لك أن تستلّ سيفك يقفز متمكناً من وجهك وينشب مخالبه في عينيك. كان سليمان يتمتم قائلاً إنّه لا خير يرجى من حيوان لم يرد ذكره، ولو مرة واحدة، في الكتاب المقدّس؛ وقال بورون إنّ الحيوان الثاني هو، بالتأكيد، خَيْرَم، وهو الوحيد الذي بمقدوره، إن صحّ وجود الفراغ، أن يحلّق فيه مدوّماً، ممتصّاً كلّ أفكار الكائنات البشرية. أمّا الحيوان الثالث، فلا ريب أنّ باودولينو قد رأى فيه المانتيكور الذي لا يختلف كثيراً عن الحيوان الكُريضي االعجيب الذي أتى على ذكره منذ زمن بعيد (كم سنة مضت منذ ذلك الحين؟) في إحدى رسائله لبياتريس.

كانت الوحوش الثلاثة تتقدّم نحوهم: القط بخطواتٍ صامتة، رشيقة، والآخران بتصميم مماثل ولكن بخطواتٍ أبطأ، وذلك للصعوبة التي يلقاها أي حيوانٍ ثلاثيّ التكوين في التأقلم مع أنماطٍ مختلفة من التحرّك والانتقال.

كان آليرامو سكاكاباروازي، الملقّب بالتشيولا، الذي بات لا يفارق قوسه ونباله، هو أوّل من بادر إلى التصدّي. فرمى الوحوش بنبلة أصابت القط في أمّ رأسه فخرّ صريعاً. فما كان من الخَيْرَم، حين شهد ما أصاب

القط، إلاّ أن قفز إلى الأمام. فهرع الكوتيكا دي كوارنينتو، بشجاعةٍ بادية، صائحاً أنّه تمرّس في دياره على ترويض الثيران الهائجة، ولمّا صار على مقربةٍ منه وهمّ بشكّه باغته الوحش قافزاً عليه محاولاً قضمه بفكّه، لكنّ الشاعر وباودولينو وكولندرينو سارعوا إلى مناورته وأمطروه بضربات من سيوفهم فأفلت الكوتيكا منه، قبل أن يخرّ صريعاً على الأرض هو أيضاً.

في الأثناء كان المانتيكور قد اندفع بدوره لخوض الصراع. فتصدّى له كل من بورون والبويدي والبورتشيلي، وراح سليمان يقذفه بالأحجار تالياً عليه ردحاً من اللعنات بلغته القدسية، فيما احتمى أرظروني خلفه وقد زاده الهلع سواداً، واقتعد عبدول الأرض، متقوقعاً على نفسه، وقد سرت فيه رعدة هزّت كيانه. بدت البهيمة وكأنّها تمعن النظر في الموقف الذي يعترضها بدراية بشرية وضراوةٍ في آن معاً. وبرشاقةٍ مفاجئة استطاعت أن تفلتَ ممن وقف بإزائها، وقبل أن يتمكّن الآخرون من النيل منها ولو بجرحٍ، اندفعت نحو عبدول العاجز عن حماية نفسه. وعضّت بأسنانها المثلّثة على كتف عبدول، ولم تتركه حين عاجلها الآخرون بضربات من سيوفهم لإنقاذ رفيقهم. كانت تزأر زئير الحشرجة تحت سيوفهم لكنها لم تترك كتف عبدول التي كانت تنزف دماءً غزيرة من جرحٍ فاغرٍ لا يني يتّسع. في آخر الأمر، لم تصمد البهيمة أمام ما أنزله بها خصومها الحانقون من جراح بالغة، فأطلقت نخيراً مدوياً وهوت على الأرض جثة هامدة. لكنهم بذلوا الكثير من الجهد لكي يفتحوا شدقيها ويحرّروا عبدول منهما.

كانت حصيلة تلك المعركة، إصابة الكوتيكا بجرح في ذراعه، لكنّ سليمان سارع إلى تضميده بواحدٍ من مراهمه مؤكداً أنّه سيتماثل للشفاء التام. أمّا عبدول فكان لا يكفّ عن الأنين فيما النزف لم يتوقّف. «ضمّدوا جرحه، قال باودولينو، فهو لشدّة وهنه لن يتحمّل المزيد من النزف!» سعوا جميعاً إلى وقف تدفق الدماء، مستخدمين ملابسهم لتنظيف

الجرح، غير أنّ أسنان المانتيكور كانت قد انغرزت عميقاً في اللحم وربّما طاولت أعضاءً باطنية، وقد يكون القلب مصاباً.

كان عبدول يهذي. يتمتم قائلاً إنّ أميرته لا بدّ أن تكون قريبة جداً وإنّه لا يستطيع أن يموت الآن. ويطلب منهم أن يوقفوه على رجليه، لكنّهم يسندونه في وقفته لشدّة ما يعتوره من الوهن، فالواضح أن الوحش قد نفثَ في لحمه سمّاً ما.

أرظروني، الذي آمن بكذبته، أحضر رأس يوحنا المعمدان من خرج عبدول ونزع عنه الختم وأمسك بالجمجمة المحفوظة داخل المذخر، ثمّ وضعها بين يديه قائلاً: «صلِّ، صلِّ من أجل خلاصك.

- أيها الأحمق، قال له الشاعر بازدراء، أولاً هو لا يسمعك، وثانياً هذا الرأس لا أحد يدري رأس من هو، وجلبته من مقبرةٍ ما دنّست حرمتها.

- ليس مهماً ما تكون عليه الذخيرة إذا كانت تعيد الحياة إلى نفسٍ محتَضِر»، قال أرظروني.

عند عصر ذلك اليوم، فقد عبدول بصره، وسألهم إذا كانوا قد عادوا مجدداً إلى غابة أبكاسيا. فصمّم باودولينو، مدركاً أنّ ساعة صاحبه قد أذِنت، وبحسن نيّة على جاري عادته، أن يتفوّه بكذبة أخرى.

«اصغِ يا عبدول، قال باودولينو، أنتَ الآن في منتهى رغباتك. لقد وصلت إلى المكان الذي طالما كنت تصبو إليه، ولكي تبلغه لم يكن عليك إلاّ أن تتخطّى اختبار المانتيكور. فها هي، كما ترى، امرأتك أمام ناظريك. فعندما بلغها ما كان من هواك الشقيّ، هرعت إليك، من أقصى أقاصي الأرض السعيدة، وبها انخطافٌ لوفائك ووَجْد.

- لا، همس عبدول بصوتٍ متهدّج، هذا مستحيل. أهي التي جاءت إليّ ولستُ أنا من ذهب إليها؟ كيف لي أن أحيا بعدما حبيتُ بمثل هذه

النعمى؟ قل لها أن تنتظر؛ ساعدوني على النهوض، أرجوكم، لكي أذهبَ وألقي عليها التحية. . .

– رويدك يا صديقي، إذا كانت تلك مشيئتها فما عليك إلاّ الانصياع لها. هي ذي، افتح عينيك، حانية عليك.» وفيما كان عبدول يفتح أجفانه، قرّب منه باودولينو مرآة مريدي الحكمة حيث ربّما رأى المحتضر ظلال ملامح ليست غريبة عنه.

«إني أراكِ، أيا سيّدتي، قال بصوت واهن، للمرّة الأولى والأخيرة. ما كنت أحسب أني استحقّ مثل هذه الغبطة. ولكن خشيتي أن تكوني منصرفةً عن هواي، مما يؤجّج شغفي. . . آهِ يا أميرتي، كثير عليّ كلّ هذا، لماذا انحنيتِ لتمنحيني قبلةً؟» وراح يقرّب شفتيه من المرآة. «ما الذي اشعر به الآن؟ الأسى لختام سعيي أو البهجة لنيلي ما لا استحق؟

– أحبّك يا عبدول، وهذا الأهمّ»، تجرأ باودولينو على الهمس في أذن صديقه المحتضِر، فتبسّم الصديق. «أجل، أنتِ تحبينني، وهذا هو الأهمّ. أليس هذا ما صرفتُ أيامي في طلبه، وإنْ كنت دائماً أستبعده من تفكيري خشيةَ أن يصير حقيقة؟ أو ما لم أسعَ في طلبه خشية ألاّ يكون كما أمِلتُ أن يكون؟ غير أنّ ما من شيء قد أطلبه الآن يفوق ما حظيت به. كم أنت جميلة، يا أميرتي، وكم هي خمرية شفتاك. . .» وأوقع من يده جمجمة يوحنا المعمدان وأمسك المرآة بيد مرتعدة ليلثم صفحتها المكسوة بغبش أنفاسه. «اليوم نحتفي بميتةٍ مبهجةٍ، موت ألمي. أواهِ يا سيّدتي الرقيقة، لقد كنت شمسي وقمري، حيثما حللتِ كان الربيع، وفي أيار كنت القمر الذي يؤنس لياليّ.» ثمّ عاد إلى رشده لهنيهات وقال بصوت يهدّجه الوهن: «ولكن ربّما لم يكن كلّ هذا سوى حلم؟

– يا عبدول، همس باودولينو في أذنه مستذكراً أبياتاً من الشعر كان أنشدها ذات يوم، ما الحياةُ إنْ لم تكن ظلّ حلم عابرٍ؟

– شكراً يا حبّي»، قال عبدول. بذل جهداً أخيراً فيما كان باودولينو ينهض له رأسه، وقبل المرآة ثلاث مرات. ثمّ أحنى وجهه الذي استحالَ

متربا، شمعياً، تحت ضياء الشمس الغاربة عن ذاك الخلاء الصخريّ الشاسع.

حفر الإسكندريون حفرةً عميقة. أمّا باودولينو والشاعر وبورون وكيوت الذين بكوا صديق أيام الصبا، فقد واروا الجثمان الثرى، واضعين على صدره تلك الآلة التي لن تنشد بعد ذلك اليوم مدائح الأميرة البعيدة، وغطوا وجهه بمرآة مريدي الحكمة.

التقط باودولينو الجمجمة ومذخرها المذهّب، وذهب ليضعها في خرج الصديق حيث عثر على لفافة رقّ دوّنت عليها أغانيه. ولمّا همّ بإرجاعها إلى الخرج مع الجمجمة التي وضعها مجدداً داخل المذخر، حّثته نفسه قائلةً: «إذا كان مصيره الفردوس، بحسب رجائي، فلن يكون في حاجةٍ إليها، لأنّه سيلتقي، هناك، يوحنا المعمدان الحقّ، برأسه الحقّ وما تبقّى. وبأية حال من الأفضل ألاّ يعثر عليه في هذه الأنحاء وبجنبه ذخيرة بادية الزيف. هذه الذخيرة سوف احتفظ بها، وإذا تمكّنت ذات يوم من بيعها سأنفق مالها على تشييد ضريح له، وإذا تعذّر ذلك، فسوف أقيم له، في الأقلّ، شاهد ضريح في كنيسة مسيحية.» وبعد أن أصلح، ما أمكنه، من ختمها المنزوع، وضعها في خرجه إلى جانب ذخيرته. ولم يطل به الأمر حتّى شعر بأنّه سلبَ، للتوّ، ميتاً، لكنّه بدّد تلك الخاطرة من فكره بقوله إنّه، في آخر الأمر، يستعير شيئاً سوف يعيده لمالكه على هيئةٍ أخرى. وبأية حال، كتم الأمر عن الآخرين. وجمع كل ما تبقّى في خرج عبدول ثمّ وضعه في القبر.

طمروا الحفرة، وغرسوا فوقها، بمثابة صليب، سيف صديقهم الراحل. جثا كل من باودولينو والشاعر وبورون وكيوت للصلاةِ، فيما لبث سليمان، على بعد خطوات منهم، مستغرقاً في تلاوة بعض الصلوات التقليدية لدى اليهود. أما الآخرون فلبثوا في الخلف. تظاهر البويدي بتلاوة طلبة ما، ثمّ اكتفى بالقول: «الخلاصة!

- من يصدّق أنه منذ قليل كان لا يزال هنا، قال البورتشيلي.

- يوم هنا، يوم هناك... قال آليرامو سكاكاباروتزي الملقّب التشيولا.

-... الأخيار يرحلون أولاً، قال الكوتيكا.

- إنّه القدر»، ختمَ كولندرينو قائلاً، وهو الذي كان يبدي، برغم حداثة سنّه، قدراً من الحكمة طائلاً.

28

باودولينو يعبر السامباتيون

«هلليلويا! صاح نيسيتاس إثر رحلةٍ استغرقت ثلاثة أيام. ها هي ذي سلمبريه، مزدانةً بالزينة.» وبالزينة حقّاً كانت مزدانة تلك المدينة الصغيرة ذات البيوت الوطيئة والسبُلِ المقفلة، لأنّها - كما علموا فيما بعد - كانت تستعدّ للاحتفال، في اليوم التالي، بعيدِ قديس أو رئيس ملائكةٍ ما. وكان السكّان قد زخرفوا كلّ الأرجاء بالكشاكش وحتّى رأس عمود أبيض عالٍ منتصبٍ وسط حقلٍ عند طرف المساكن، فاستفاض نيسيتاس شارحاً لباودولينو أنّ على رأس هذا العمود، ومنذ قرون وقرون من الزمن، عاش ناسكٌ، ولم ينزل عنه حتّى مماته، ومن محلّ إقامته هناك، فوق، اجترحَ عدداً من المعجزات. ولكن الرجال الذين من جبلّته، ما عادوا موجودين اليوم، ولعلّ في هذا تكمن أسباب شقاء الإمبراطورية.

ثمّ ما لبثوا أن سلكوا باتجاه دارة الصديق الذي يوليه نيسيتاس كلّ ثقته، وعليه اتكاله، فاستقبلهم تيوفيلاكتس، وهو رجل مسنّ، مضياف وبشوش، بعاطفة أخوية صادقة. واستفسر عمّا كابدوه في طريقهم إليه، وبكى معهم على القسطنطينية المدمّرة، ثمّ جال بهم على أرجاء الدار التي اشتملت على أعدادٍ من الغرف الشاغرة التي تتسع للضيوف جميعاً، وقدّم لهم على الفور ما يسدّ جوعهم من نبيذ وسلطة البقل بالزيتون والجبن. لم يكن الطعام مما اعتاد نيسيتاس تذوّقه من الأطايب المرهفة، غير أنّ تلك

الوجبة الريفية كانت كفيلة بأن تنسيهم كلّ المشقّات التي صادفوها في رحلتهم، وتنسيهم دارتهم البعيدة.

«امكثوا في الدار بضعة أيام واجتنبوا التجوال خارجها، أوصاهم تيوفيلاكتس قائلاً. لقد وفد إلى المدينة عدد كبير من اللاجئين، والناس هنا لم يتفقوا يوماً مع أهل العاصمة. إنهم يقولون إنكم جئتم الآن ساعين وراء الصَدَقات، بعد أن أبديتم ما أبديتموه من العجرفة. ومقابل كسرة خبز يطالبون بمثال وزنها ذهباً. ولكان الأمر هيّناً لو اقتصر على ذلك. الواقع أنّه منذ زمن بعيد وصل الحجاج إلى هذه المدينة. ولطالما تصرّفوا كالطغاة في السابق، فتخيّلوا ما قد يفعلون الآن وقد علموا بأنّ القسطنطينية سقطت في أيديهم، وأنّ أحد قادتهم سيصبح هو الباسيليوس. نراهم يجولون في الأرجاء وهم يرتدون ملابس الاحتفال التي استولوا عليها من ذوي المراتب الرسمية في مدينتنا، ويضعون تيجان الأساقفة التي سلبت من الكنائس على رؤوس خيلهم، وينشدون أناشيدنا بيونانية يرتجلونها هم، ويطعّمونها بما لا ندري من بذاءات لغتهم، ويطبخون طعامهم في أوانينا المباركة، ويجولون علانيةً بصحبة بغاياهم اللواتي يرتدين ملابس النساء الراقيات. عاجلاً أم آجلاً، سينتهي كل هذا، ولكن في الوقت الحاضر، ابقوا هنا، في داري، بأمان.»

رحّب باودولينو ونيسيتاس بالتدبير الذي أوصى به مضيفهما. فتابع باودولينو، خلال الأيام التالية، سرد قصّته تحت أشجار الزيتون. كان النبيذ البارد متوفراً ما طاب لهما الشراب، والزيتون، والمزيد من الزيتون، والمزيد المزيد منه، يتمزّزونه فيثير فيهم رغبةً في المزيد من الشراب. وكان نيسيتاس يريد أن يعرف، بفارغ الصبر، إذا كانوا قد وصلوا أخيراً إلى مملكة الراهب جان.

وصلنا ولم نصل، قال له باودولينو. وبأية حال قبل الحديث عن المكان الذي وصلوا إليه، كان عليهم، أولاً، أن يعبروا السامباتيون. هذا ما شرع فوراً بسرد وقائعه. وبمقدار ما كان سرده لوقائع موت عبدول رقيقاً

ورعوياً، كان سرده وقائع ذاك العبور ملحمياً ومهيباً. ومثل هذا علامة، قال نيسيتاس ذات مرّة في أعماق نفسه، على أنّ باودولينو هو أشبه بذلك الحيوان العجيب الذي لم يره هو - نيسيتاس - بل سمع أقاويل عنه، ولكن قد يكون باودولينو قد رآه، ويدعى الحرباء، وهو شبيه بالعنزة الصغيرة، ويغيّر لونه بحسب المكان الذي يحلّ فيه، وقد يراوح اختلاف لونه بين الأسود والأخضر اللوزي، لكنّه يعجز فقط عن التلون بالأبيض.

تابع الرحّالة طريقهم، وهم يغالبون حزنهم على رفيقهم الراحل، إلى أن وجدوا أنفسهم مجدداً عند تخوم منطقةٍ وعرة. ولم يطل بهم الأمر، خلال تقدّمهم، حتّى تناهت إلى مسامعهم أصداء جلبة بعيدة، تبعتها ضوضاء طقطقة، ثمّ أصوات قرقعةٍ لم تلبث أن أصبحت واضحةً مسموعة، كأنّ أحداً يرمي بكمياتٍ كبيرة من الأحجار والصخور من أعلى القمم، فيجرّ الانهيار في تدحرجه هادراً نحو الوادي، أكواماً من التراب والحصى. ثمّ لمحوا سحابة غبار متطاير مثل ضبابة أو غشاوة، لكن خلافاً لأي كتلة ضخمة من الرطوبة التي من شأنها أن تحجب أشعة الشمس، كانت السحابة تعكس باقات من الأنوار، كما لو أنّ أشعّة الشمس تنعكس على رقّافٍ من الذرات المعدنية.

هنيهات وكان ربّي سليمان أوّل من أدرك حقيقة ما يرى: «إنّه السامباتيون، صاح بهم قائلاً، لقد أصبحنا إذاً على مقربة من مقصدنا!»

كان، فعلاً، نهر الأحجار، وأيقنوا من ذلك عندما وصلوا إلى ضفافه، وقد صمّت آذانهم تلك القرقعة المدوية التي تحول دون سماعهم ما يقوله أحدهم للآخر. كان جرياناً مهيباً للصخور والطمي، دفقاً متصلاً، كانت تتراءى في مجرى الصخور الهائلة الأحجام التي لا أشكال محددة لها، بلاطات غير مستوية، حادّة كالشفار، عريضة كشواهد قبر، وفي المساحات الضيّقة فيما بينها، أكوام من الحصى، والأحافير، والشّعاف والجلاميد والنتوءات الصخرية.

في سرعة تدفّقه المنتظمة كأنّه مسوقٌ بريح عاتية، كانت أجزاء من أحجار الترافرتين الجيرية تتدحرج بعضها فوق بعض، منزلقةً على أقاسيم الصدوع، قبلَ أن ترتطمَ متطايرةً بسيول الحصى، فيما الحصباء المستديرة، كأنّما صقلت بالماء في جريانها بين الكتلة والكتلة، تتطاير عالياً، محدثةً قرقعة بلا أصداء، لتنجرفَ بعد ذلك في تلك الدوّامات نفسها التي كانت تسببها، هي، في ارتطام بعضها ببعض. وسط هذا التراكب للكتل المعدنية وفوقه كانت تتشكّل هَبوبات رمل، وغشاوات طبشور، وغمامات حصباء بركانية، وزبد خفّان، وجداول ملاط.

هنا وهناك، كانت دفقات من الجصّ، ووبْل من الفحم تتساقط على الضفّة، وكان على الرحّالة أحياناً أن يتّقوا كلّ ذلك بتغطية وجوههم.

«أيّ يومٍ من أيام الأسبوع هذا اليوم؟» صاح باودولينو برفاقه قائلاً. فلفته سليمان الذي يحرص على حساب أيّام السبت بدقّة، إلى أنّ الأسبوع ما زال في مطلعه، وأمامهم ستة أيام أخرى قبل أن يوقف النهر جريانه. «وعندما يتوقّف لن نتمكن من اجتيازه لأننا بذلك ننتهك حرمة يوم السبت، قال مضطرباً. ولكن لِمَ لَمْ تشأ حكمة القدوس، المبارك على الدوام، أن يتوقف جريان النهر يوم الأحد، فأنتم معشر الوثنيين، لستم سوى كفّار بأية حال، ولا تبالون كثيراً باستراحة يوم الأحد؟

– دعكَ من يوم السبت، صاح به باودولينو قائلاً، حين يتوقف جريان النهر لن أعدمَ وسيلةً لكي تعبر بلا خطيئة. يكفي أن أضعك على ظهر بغل وأنتَ نائم. المشكلة، كما قلت لنا، أنتَ بالذات، أنّه عندما يتوقف جريان النهر يظهر على طول الضفّة سدٌّ من النيران، ونحن متقدّمون بأشواطٍ لا بأس بها... لذا من غير المجدي أن ننتظر هنا ستة أيام. فلنذهب إلى المنبع، وقد نعثر هناك على معبر قبل منبع النهر.

– ماذا؟ ماذا؟» راح رفاقه يردّدون عبثاً لأنّهم لم يفهموا شيئاً مما قاله، لكنهم تبعوه لمّا رأوه منطلقاً، موقنين أنّه مدركٌ، بالتأكيد، تبعات ما يفعل. وتبيّن، على العكس من ذلك، إنّه غير مدرك تماماً، لأنهم ساروا

ستّة أيام، وكانوا طبعاً يلاحظون أنّهم كلّما ساروا صعداً، ضاقَ المجرى واستحال النهر سيلاً، فساقيةً، غير أنّهم لم يصلوا إلى المنبع إلاّ في اليوم الخامس، بعد أن تراءت لهم، منذ اليوم الثالث، سلسلة وعرة من الجبال الشاهقة التي باتت تحيط بهم من كلّ صوب وتحجب السماء عن أبصارهم، لشدّة ما حاصرتهم في مضيق جبليّ ضيّقة معابره وبلا مخرج، لا يُرى في أعلى جنباته سوى حزمةٍ من الغيوم الضالّة، الكابية، التي تحتّ ذرى تلك القمم.

هناك، عبر صدع، أشبه بالجرحِ بين جبلين، كان المنبع الذي منه يتدفّق السامباتيون: غَليان رملٍ، قرقرة فلَيْس، تجفاف وحل، قعقعة شظايا، هدير طمي يتجمّد، فيضان تِلاع، ووابل خزفٍ يستحيل تدريجاً إلى دفق أكثر جماداً يبدأ جريانه نحو أوقيانس ما من الرمل.

قضى أصحابنا يوماً بأكمله وهم يحاولون عبثاً الالتفاف حول الجبال والاهتداء إلى معبرٍ عند أعلى المنبع. وكانوا، بالمقابل، يجبهون في كلّ لحظة، خطر سيول الأحجار المباغتة التي غالباً ما تنكسر كالموج عند حوافر خيولهم، فاضطروا إلى سلوك درب أشدّ وعورة وتعرّجاً، وباغتهم هبوط الليل في مكان حيث، بين الفينة والفينة، تسقط، متدحرجةً من أعالي القمم، كتلٌ من الكبريت الحامي، وإذ انتقلوا إلى مكان ابعد منه حيث الحرارة شديدة لا تطاق، أدركوا أنّهم إذا تابعوا طريقهم على هذا النحو، وحتّى لو اهتدوا إلى وسيلةٍ لاجتياز الجبال، لن يجدوا في تلك الأرض الجرداء، إذا فرغ زادهم من الماء، أي شكل من أشكال الرطوبة، وقرروا أن يعودوا أدراجهم. ولكن سرعان ما أدركوا أيضاً أنّهم ضلّوا طريقهم في تلك الشِعابِ، وقضوا يوماً آخر للاهتداء مجدداً إلى المنبع.

وصلوا إليه، بحسب تقويم سليمان، بعد انقضاء السبت، أي في الفترة التي يعاود فيها النهر جريانه بعد توقّف، وكان عليهم، إذاً، أن ينتظروا ستة أيام أخرى. فعزموا، وهم يطلقون عبارات ليس من شأنها بالتأكيد أن تضمن لهم عون السماء، على السير بمحاذاة النهر ورجاؤهم

أن يعثروا في مجراه على ثغرٍ أو دلتا أو مصبٍّ، يستحيل جريانه عندها إلى صحراءٍ أقلّ عتوّاً.

ساروا على ذلك النحو بضعةَ أيام من فجرها إلى غروبها، مبتعدين عن الضفاف بحثاً عن سُبُلٍ أقلّ وعورةً، ولا بدّ أنّ السماء قد غفرت لهم تجديفهم لأنّهم اهتدوا إلى واحةٍ فيها القليل من الخضرة وتجري فيها ساقية شحيحة لكنّها كافية لريِّ عطشهم والتزوّد بالماء لأيام قليلة مقبلة. ثمّ تابعوا طريقهم مصحوبين بهدير النهر، تحت سماءٍ ملتهبة كانت توشّيها بين الفينة والفينة غيوم سوداء، رقيقة ومسطّحة كأحجار البوبوكتور.

إلى أن لاحظوا، إثر خمسة أيام تقريباً من السير، بلياليها القائظة مثل نهاراتها، أنّ أصوات الهدير لم تعد كما كانت في السابق. كان النهر يتدفّق بقوة أكبر، وارتسم في مجراه ما يشبه التيّارات، منها المتسارع الذي يجرفُ في مسراه كتلاً هائلةً من البَزَلْت كأنّها حزمٌ من القشّ، ومن البعيد كان يتناهى دويّ أشبه بقصف الرعد. . . ومن ثمّ بدأ السامباتيون، بتدفّقه العنيف نفسه، يتشعّب إلى عدد من الأنهر الصغيرة الهائجة التي تتبع في مجراها المنحدرات الجبلية كما أصابع اليد في تلعةٍ من الوحل المحبحب. أحياناً كان سيل يغوص في جوف غارٍ، ثمّ، عبر ما يشبه المسلك الصخريّ الممهّد، ينبجسُ هادراً ومتطايراً بعنفٍ إلى أعلى. فجأةً، وإثر التفافٍ طويل أُرغموا على سلوكه لأنّ الضفاف نفسها باتت عصية لشدّة ما عصفت بها أعاصير الركام، شاهدوا، من أعلى هضبةٍ، كيف يختفي السامباتيون - تحتهم - في ما يشبه مضيقَ جهنّم.

كانت شلاّلات تتساقط من عشرات الحواف الصخرية المتراصفة على هيئة مَدْرَج، في دوّامةٍ ختامية هائلة، وقذفٍ غرانيت متواصل، وانغمار القار، وارتدادٍ واحدٍ للشبّ، وفوران النضيد البلوري، وتردّدات الرَهجِ الأصفر على الحواف. وعلى المادة التي يقذفها الجوف في الفضاء، ولكن من أسفل، بعيني ناظرها كما من أعلى برجٍ، على تلك القطرات الصوّانية كانت أشعة الشمس تشكّل قوسَ قزح هائلاً تفوق ألوانه ألوان قوس القزح

الذي يتشكّل عادةً في سماء ما بعد العاصفة، لأنّ كلّ جسم فيه يعكس الأشعّة بزهوٍ مختلفٍ يتماشى وطبيعة تكوينه؛ كما أنّه، خلافاً لما هو معتاد، بدا سرمديّ التألّق لا يعتوِره زوال.

كان وهجاً أحمر من أحجار الدمّ والزَنْجَفْر، لمعان أترمنيوم كما الفولاذ، تطاير صفائح من خضاب الذهب المتراوح بين الأصفر والبرتقالي الفاقع، ازرقاق أرمينيوم، ابيضاض أصداف متكلّسة، اخضرار دهنج، تبدّد مَرْتَك في اصفرار حائل، مسحات رهج غار، انقذاف تربةٍ جافة مخضوضرة لكي تستحيلَ غباراً من لصاق الذهب ثمّ تتناسخ في تدرّجِ ألوان بين النيلي والبنفسجي، ظَفَر ذهبِ مبرنز، توقّد إسبيداج محترق، توهّج سندروس، تواشيح خزفٍ مفضّض، وشفافية بَلَقٍ فريدة من نوعها.

ما كان لصوت آدميّ أن يُسمَع في معمعة تلك الضوضاء الهائلة، ولم يكن لدى الرحالة أي رغبةٍ في الكلام. كانوا يشهدون احتضار السامباتيون الغاضبِ لاضطراره إلى الاحتجاب في باطن الأرض، والساعي إلى جرف كلّ ما في محيطه، صارفاً بأحجاره للتعبير عن عجزه.

لم يتنبّه أحد منهم إلى الوقتِ الذي قضوه متفرّجين بذهول وإعجاب على احتدامات الهوّة التي يغوص فيها النهر مرغماً، ولكن المؤكّد أنهم لبثوا هناك فترةً طويلة، فغروب يوم الجمعة قد انقضى، وحلّت تباشير السبت، والبرهان على ذلك أنّ النهر جمد فجأةً، كأنّه منصاع لأمر، وبدا في سكونٍ تام كأنّه جثّة، أمّا الدوامة في اسفل الوادي فقد استحالت وهداً قشرياً جامداً باغته الصمت المطبق على نحو مرعب.

عندها انتظروا، بحسب الروايات التي سمعوها، ريثما ينتصب على الضفاف سدّ من النيران. ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. كان النهر ساكناً، ودوّامة الجزيئات التي كانت تدوّم فوقه رسبت تدريجاً واستكانت في مجراه، كما صَفَت سماء الليل حاسرةً عن بريق نجومها التي لم تسطع من قبل.

«حيث ندرك أنّه يجب ألاّ نصغي إلى ما يقال، قال باودولينو بنيرةٍ

تبصّر. إننا نحيا في عالم يختلق فيه الناس قصصاً لا يقبلها العقل. وهذه القصّة، يا سليمان، اختلقتموها أنتم اليهود لتحولوا دون مجيء المسيحيين إلى هنا.»

لم يردّ سليمان على كلام باودولينو، فقد كان يمتلك من الذكاء وسرعة البديهة ما جعله يدرك على الفور نوايا باودولينو الذي سيرغمه على عبور النهر. «فيما يعنيني أنا، لن يغمض لي جفن هذه الليلة، سارع إلى القول.

- لا تقلق بهذا الشأن، أجابه باودولينو، خذ قسطاً من الراحة ريثما نجد معبراً.»

لو كان سليمان يستطيع الفرار لما تردّد لحظة، لكنّه في أيام السبت لا يستطيع أن يمتطي ركوبة أو يسافر فكيف إذا كان عليه أن يسلك شعاباً جبلية وعرة. لذا لبث جالساً طوال الليل، ضارباً رأسه بجماع قبضته مبرطماً لاعناً قدَرَه ومعه زمرة الوثنيين الملاعين.

في اليوم التالي، وبعد أن عاين الآخرون موضعاً يمكن العبور منه، اقترب باودولينو مجدداً من سليمان، وبادره بابتسامة عطفٍ وتفهّم، وعاجله بضربة دبّوس على مؤخّر رأسه، خلف الأذن.

وهكذا أصبح ربّي سليمان هو الوحيد الفريد من بني إسرائيل قاطبةً الذي عبر السامباتيون نائماً، يومَ سبت.

29

باودولينو يصل إلى بندابتزيم

ما كان عبورهم السامباتيون ليعني أنهم وصلوا إلى مملكة الراهب جان. بل يعني ببساطة أنّهم غادروا الأرض المعلومة التي بلغها الأكثر جرأة من بين الرحّالة. لذا كان على أصحابنا أن يسيروا أيضاً لأيام طويلة، عبر أرض ليست أقلّ وعورة من ضفاف نهر الأحجار ذاك. ثمّ وصلوا إلى سهلٍ مترامٍ لا يحدّه البصر. وفي الأفق البعيد تراءت لهم كتلة جبلية خفيضة بعض الشيء، مسنّنة بقمم رفيعة مثل الأصابع ذكّرت باودولينو بمنظر جبال الألب البيرينية عندما اجتازها، وهو طفل بعد، عند مقلبها الشرقي صعوداً من إيطاليا إلى جرمانيا - غير أنّها كانت أكثر ارتفاعاً وضخامة.

بيد أنّ الكتلة الجبلية كانت تلوح في الأفق البعيد، والخيول تتقدّم بمشقّةٍ بالغة في السهل الذي نمت فيه نباتات وافرة، كأنّه حقل قمح ناضج، لو لم تكن نباتاته أشبه بسرخسياتٍ خضرٍ وصُفرٍ، يفوق ارتفاعها قامةَ رجلٍ، ولولا امتداد تلك السهوب إلى أبعد من مجال البصر، كأنّها بحرٌ متموّجة مياهه بفعل هبوبٍ متواصل.

لدى اجتيازهم فرجة، كأنّها جزيرة وسط يمّ، رأوا في البعيد، وفي موضع واحد، مساحةً كفّت عن التموّج على نحو متسق، بل بدت مهتزّة بغير انتظام كأنّ بهيمةً ما، كأنّ أرنباً برياً عملاقاً، يشقّ طريقه بين العشب،

بيد أنّه لو كان أرنباً لسلك خطاً أكثر تعرّجاً وانحناءً، لا خطاً مستقيماً، وبسرعة تفوق سرعة أي أرنب. وبما أنّ أصحابنا المغامرين كانت لهم تجارب، غير مستحبّة، مع الحيوانات، شدّوا الأعنّة واستعدّوا لمعركة جديدة.

كان الخطّ المتعرّج يرتسمُ قُدُماً باتجاههم، وبات تقصّف السرخسيات مسموعاً بوضوح. عند طرف الفرجة، انكشفت غمار العشب فجأةً وظهر منها مخلوق كان يباعد ما بينها بيديه، كأنّها ستر معلّق.

كانت تلك، بالتأكيد، يدي وذراعي المخلوق المقبل باتجاههم. وسوى ذلك، كانت له ساق، واحدة لا غير. لم يبد أنّه بساق واحدة بسبب تشوّه أو بتر، لأنّ تلك الساق متّصلة بالجسم على نحو طبيعي كأنّ لا مجال فيه لساق أخرى، وبفضل القدم الوحيدة لتلك الساق الوحيدة كان الكائن يعدو بسرعةٍ ورشاقةٍ ملحوظتين، كأنّه اعتاد منذ طفولته أن يتنقّل على ذاك النحو. والأدهى من ذلك كلّه أنّه لم يتبيّنوا جيداً، فيما الكائن يتقدّم نحوهم بسرعةٍ كبيرة، إذا كان يتقدّم قفزاً أم أنّه يخطو، إنْ جاز القول، خطوة خطوة، وإذا كانت ساقه الوحيدة تتحرّك في الأثناء، إلى الوراء ثمّ إلى الأمام، على غرار ما نفعل نحن بقدمين اثنين، لكي يسير قُدُماً. كانت رشاقته في الحركة تحجب عن الناظر إليه تفصيل كلّ حركة في حدّ ذاتها، تماماً كما يشعر الناظر إلى الخيول التي يستحيل معها القول إذا كانت في لحظة ما ترفع حوافرها الأربعة جميعها عن الأرض، أو إذا كان اثنان منها، على الأقل، تطآن الأرض.

عندما مثل الكائن أمامهم لاحظوا أن قدمه الوحيدة أضخم من القدم الآدمية بمرّتين، لكنّها حسنة التكوين، بأظفارٍ مربّعة، وبخمس أصابع شبيهة كلّها بإبهام الرِّجل، غليظة وقوية.

سوى ذلك، كان الكائن بطول قامة ولد لم يتجاوز العشر أو الاثنتي عشرة سنة، أي أنّه ما كان ليتجاوز، بطول قامته، خاصرة أيٍّ منهم. كان رأسه حسن التكوين أيضاً كسيت قمّته بشعرٍ قصيرٍ أصفر واقف؛ أمّا العينان

فمستديرتين عطوفتين مثل عيني ثور، والأنف منمنم ممتلئ، والفم عريض يكاد يجاور الأذنين، وينفرج، بما لا بدّ أن يكون ابتسامة، عن أسنان متناسقة وقوية. لم يطل الأمر بباودولينو وصحبه حتّى تعرّفوا عليه، فقد قرأوا وسمعوا عنه الكثير: كان هو نفسه «وحيد الساق» - وقد ضمّنوا رسالة الراهب كائناتٍ من جنسه.

تبسّم وحيد الساق مرّةً أخرى ورفع يديه ثمّ شبكهما فوق رأسه بمثابة تحيّة، ومستقيماً في وقفته على قدمٍ واحدة كتمثال، بادر إلى القول ما قد يكون نصّه هو التالي: «Aleichem sabi, Iani Kála bensor.»

«هذه لغة لم أسمعها من قبل»، قال باودولينو. ثمّ خاطبه باليونانية قائلاً: «بأي لغة تتحدّث؟»

أجاب وحيد الساق بيونانية متعثّرة: «ما أعلم أي لغة تحدّثت. حسبتُ أنتم غرباء وتحدّثت لغة مختلقة كلغة غرباء. لكن أنتم تحدّثتم بلغة الراهب يوهانّس ونائبه الشمّاس. أنا حييتكم، وأنا هو غافاغاي، في خدمتكم.»

لمّا اتضح لهم أنّ غافاغاي كائن مسالم ودود، ترجّل باودولينو وأصدقاؤه عن صهوة جيادهم وجلسوا على الأرض، ودعوه لأن يحذو حذوهم وقدّموا له ما تبقّى لهم من زاد قليل. «لا، قال لهم، أشكر أنا لكم كرمكم، لكن أنا أكل جداً كثيراً هذه الصباح.» ثمّ تصرّف، بحسب ما تمليه التقاليد على كلّ وحيد ساق: فاستلقى بطوله على الأرض أولاً، ثمّ رفع ساقه بحيث يستظلّ بقدمه، وشبك كفّيه تحت مؤخّر رأسه وراح يتبسّم مبتهجاً كأنه يستظلّ بمظلّة. «ولكن أنتم من يكون؟ أسفاً، لو كنت اثني عشر لكان أنتم المجوس صاحب قداسة يعود، وأسود معكم أيضاً. أسفاً، أنت فقط أحد عشر.

- للأسف الشديد حقاً، قال باودولينو. لكننا أحد عشر نفراً. وأنت، أحقاً لا تهتمّ لأحد عشر مجوسياً؟

- أحد عشر مجوس لا يهتمّ أحد. كلّ صباح في كنيسة يصلّي عودة الاثني عشر. وإذا عاد أحد عشر، يعني صلاة باطل.

- هناك ينتظرون المجوس فعلاً، همس الشاعر في أذن باودولينو. لذا ينبغي أن نتدبّر طريقة لإقناعهم بأن الثاني عشر في مكان ما.

- ولكن من دون أن نأتي على ذكر أسماء المجوس، قال باودولينو محذّراً. نحن اثنا عشر مجوسياً، أمّا الباقي فنتركه لحسن ظنّهم وتدبيرهم. وإلاّ سيفضح الراهب جان أمرنا في النهاية ويجعلنا طعاماً لأسوده البيض أو أي شيء من هذا القبيل.»

ثمّ خاطب غافاغاي مجدداً فقال: «لقد قلت إنك أحد رعايا الراهب. هل يعني هذا أننا وصلنا إلى مملكة الراهب جان؟

- مهلاً، أنتَ. أنت لا يمكن تقول: أنا في مملكة الراهب يوهانس، ولـم إليه تقطع إلاّ مسافة قليلة. وإلاّ جاء الجميع. أنت في مقاطعة كبيرة للشمّاس يوهانّس، ابن الراهب، ويحكم كلّ هذا الأرض الذي إذا أراد أنت وصول إلى مملكة الراهب عليه أن يجتازها. زوّار كلهم يجب أولاً الانتظار في بندابتزيم، عاصمة شمّاس كبرى.

- كم من الزوّار وفد إليكم حتّى الآن؟

- لا واحد. أنتم وصل أولاً.

- أحقاً هذا؟ ألم يسبقنا رجل ذو لحية سوداء؟ سأل باودولينو.

- أنا ما رأيت أبداً، قال غافاغاي. أنتم أوّل.

- لذا سيتوجّب علينا أن نبقى في هذه المقاطعة ريثما يشرّفنا زوسيمَس بمجيئه، برطم الشاعر قائلاً، ومن يدري إذا كان سيأتي. لعلّه ما زال في أبكاسيا هائماً في ظلمتها.

- الأسوأ هو أن يكون قد سبقنا إلى هنا وسلّم الغرادال لهؤلاء القوم، لاحظ كيوت قائلاً. ومن دون غرادال كيف لنا، نحن، أن نقدّم أنفسنا؟

- عليك بالتروي قليلاً، حتّى العجلة تستغرق وقتاً، قال البويدي بنبرة حكيم. فلنرَ الآن ما الذي سنجده هناك، ثمّ نرى في أمرنا.»

قال باودولينو لغافاغاي إنّهم سيمكثون في بندابتزيم بكلّ سرور، بانتظار قدوم رفيقهم الثاني عشر الذي ضلّ الطريق أثناء عاصفة في صحراء تبعد مسيرة بضعة أيام عن هذا المكان. وسأله أين يقيم الشمّاس.

«هناك، في قصره هو. أنا يدلّكم عليه. لكن الأفضل أنا أخبر أصدقائي أنتم وصلت، حتّى يحتفل بوصولك. الضيف هبة من عند الله.

- هل هناك آخرون من قومك بين غمار العشب؟

- أنا لا أعتقد، لكن رأى من قليل بُلَيميّ يعرفه، أمر مستغرب كثير لأنّ وحيد ساق ليس عادةً أصدقاء مع بليميّ.» ودسّ أصابعه في فمه مطلقاً صفيراً متمادياً وحاداً ومنغّماً. وما هي إلاّ هنيهات حتّى ظهر من بين العشب مخلوق آخر. كان مختلفاً جداً عن وحيد الساق، غير أنّ أصحابنا، لمجرّد سماع إسم البليمي، توقّعوا أن يروا ما رأوه. فالمخلوق ذو المنكبين العريضين جداً، والقصير القامة إذاً، لكن نحيلها، كان يقف على ساقين قصيرتين مكسوّتين بوبرٍ كثيف ولم يكن له رأس ولا حتّى عنق. وعلى صدره حيث للبشر حلمتا ثدي، برزت عينان لوزيّتان، متيقظتان، وتحت انتفاخٍ ضئيل ذي منخرين ارتسمت فجوة دائرية، لكن شديدة الليونة، بحيث إنّه إذا شرع في الكلام اتخذت أشكالاً مختلفة بحسب الأصوات التي يصدرها. ذهب غافاغاي للتحدّث إليه؛ ولمّا أشار بيده إلى الزوّار بدا الآخر كأنّه يقول بلى بلى بلى إذ يقوّس كتفيه كأنّه ينحني.

اقترب من الزوّار وقال ما بدا لهم أنّ التالي: «Ouiii, ouioioioi, aoueoua!». وكعربون صداقة قدّم له الرحّالة قصعة ماء. فاستلّ البليمي من الجراب الذي كان يحمله، ما يشبه القشّة ودسّها في الفجوة التي تحت أنفه، وراح يمصّ الماء مصّاً. ثمّ قدّم له باودولينو قطعةً كبيرة من الجبن. فحملها البليمي إلى فمه، وإذا به يتسع ليصبح بحجم قطعة الجبن التي

سرعان ما اختفت داخل ذاك الثقب. قال البليمي: «Eouaoi oea!». ثمّ وضع يده على نحره، أي جبينه، كمن يقطع على نفسه عهداً، وحيّا أصحابنا بذراعيه الاثنتين مبتعداً بين غمار العشب.

«هو جاءوا قبلنا، قال غافاغاي. بليمي لا أركض سريعا مثل وحيد ساق، لكن أفضل من بهيمة يقفز عليك. وهذا ماذا هم؟

– خيول، قال باودولينو مستذكراً أنّ لا وجود للخيول في مملكة الراهب.

– وكيف يكون خيول؟ سأل وحيد الساق بفضول.

– مثل هذه، أجاب الشاعر، مثلها تماماً.

– أنا أحيي أنتم. رجال أقوياء يسافر مع بهائم هي مثل خيول تماماً.

– لكن، اصغ الآن جيداً. لقد سمعتك تقول منذ قليل إنّ وحيدي الساق ليسوا أصدقاء البليميين. ألأنهم لا ينتمون إلى المملكة أو إلى المقاطعة؟

– لا طبعاً، هم مثل نحن، رعايا الراهب، ومثلهم الخفّان والأقزام والأذن العملاقة والبلالسان والنوبيون والخصيان والساتير- الذين - لا - أحد - يراهم - قطّ. وكلّ هذا مسيحي صالح وخادم أمين للشمّاس والراهب.

– ألستم أصدقاء لأنكم مختلفون؟ سأل الشاعر.

– ماذا يعني أنتَ مختلفون؟

– أعني... كما أنتَ مختلف عنّا و...

– ولماذا أنا يختلف عنكم أنتَ؟

– بحقّ السماوات، قال الشاعر، حسناً، لنقل أولاً إنّك لا تملك سوى ساق واحدة! أمّا نحن والبليميون فلدينا اثنتان!

– أنت وبليمي إذا رفع ساقاً بقيت له واحد.

– ولكن أنت لا تملك ساقاً أخرى لتطأ بها الأرض!

– ولماذا أنا يطأ بساق لا يملكها أنا؟ هل أنت عليكَ أن يطأ بساق ثالث ليس لديك؟»

عندها تدخّل البويدي ساعياً للتوفيق بين المتحاورين: «اسمع يا غافاغاي، لا بدّ أن تقرّ بأن البليمي ليس له رأس.

– كيف ليس رأس؟ له عينان وأنف وفم، يحكي، يأكل. فكيف أنتَ يفعل هذا إذا ليس رأس؟

– ولكن ألم تلاحظ أبداً أنّه بلا رقبة، وفوق الرقبة ذلك الشيء المستدير الذي أنتَ أيضاً تملكه فوق الرقبة أمّا هو فلا؟

– ماذا أعني تلاحظ؟

– أن ترى، أن تدرك ما هو!

– ربّما أنت يقول إنه ليس تماماً أنا مثلي، وأنّ أمي لن يظنّ هو أنا. أنت أيضاً ليس مثيل صديقك هذا لأنّ هو ندب على خدّ وأنتَ ليس. وصديقك هو مختلف عن الأسود مثل مجوسي، والأسود مثل مجوسي مختلف عن ذا بلحية الربّي.

– من أين لك أن تعلم أنّ لي لحية ربّي؟ سأل سليمان وقد أشرق وجهه رجاءً ظناً منه أنّه سيسمع شيئاً عن الأسباط المفقودة، واستخلص من هذا الكلام علامة مؤكدة على أنّها مرّت بهذا المكان أو أنها استقرّت على أرض هذه المملكة. هل رأيت ربيّاً آخر من قبل؟

– أنا لا، ، لكن جميع يقول لحية ربّي هناك في بندابتزيم.»

قال بورون: «كفى. إنّ وحيد الساق هذا لا يرى الفرق بينه وبين بليمي، تماماً كما نحن لا نقيم الفرق بين البورتشيلي وباودولينو. وإن أمعنتم النظر قليلاً لوجدتم أنّ مثل هذا يحدث عندما نصادف غرباء. فهل منكم من يستطيع أن يميّز بين مسلم وآخر؟

– بلى، قال باودولينو، غير أنّ ما يصحّ على البليمي ووحيد الساق لا يصحّ علينا نحن في علاقتنا بالمسلمين الذين لا نلمحهم إلاّ عندما

نذهب إليهم. أمّا هؤلاء فيقيمون جميعاً في المقاطعة نفسها، وهو يستطيع أن يميّز بين بليمي وبليمي والبرهان على ذلك أنه قال لنا عندما التقيناه إنّه صديقه، بينما الآخرون ليسوا كذلك. اصغِ إليّ جيداً يا غافاغاي: لقد قلتَ إنّ المقاطعة يقطنها الأذن العملاقة. أنا أعلم من هم الأذن العملاقة: هم أناس مثلنا سوى أنّ لهم أذنين كبيرتين، لا بل هائلتي الاتساع بحيث إنهما تتدليان حتّى ركبهم، وعندما يحلّ البرد يغطون أجسادهم بها كالمشامل. هل الأذن العملاقة على هذه الشاكلة؟

- أجل، مثلنا. أيضاً لي أذنان أنا.

- لكنّهما، وحقّ السماء، لا تصلان حتّى ركبتيك!

- أنت أيضاً له أذنان أكبر من أذنان صديق أنت.

- لكن ليس كالأذن العملاقة!

- كلّ واحد له أذنان يصنعها أمه له.

- إذاً لِمَ قلت لنا إنّكم لستم على وفاق مع البليميين.

- هم يفكّر باطل.

- وما هو هذا الباطل؟

- هم مسيحيون يرتكب أخطاء. هم كيفيّون. هل هم يقول كما نحن إنّ ابن ليس من طبيعة آب نفسها، لأن آب موجود قبل بدء الزمان، أما ابن مخلوق من آب، ليس لأنّ حاجة بل لأن مشيئة. وتالي، ابن هو ابن تبنّي للربّ، لا؟ البليميون يقول: أجل، ابن ليس من طبيعة الآب نفسها، لكن هذا الكلمة حتّى فقط ابن بالتبنّي لا يستطيع أن يجعل نفسه هو متجسداً. إذاً يسوع أبداً كان جسداً، ويسوع الذي الرسل رأوه كان فقط... كيف يقول... فانتاسما...

- خيال صرف.

- بالضبط. هم يقول فقط طيف ابن مات على صليب، ليس وُلدَ في بيت لحم، ليس وُلدَ من مريم، في يوم على نهر أردن أمام يوحنا معمدان

ظهر له وقال الكلّ أوه. لكن إذا كان ابن ليس جسد كيف يقول لك هذا الخبز هو جسدي؟ لذاك هم لا يتناول قربان خبز وبُوْرَق.

- ربّما لأنهم لو فعلوا سيكون عليهم أن يمصّوا النبيذ، أو ما ذكرته أنتَ، بالقشّة، قال الشاعر.

- وماذا عن الأذن العملاقة؟ سأل باودولينو.

- أوه، هم لا يبالي ما يفعل ابن حين نزل على أرض. هم لا يستطيع تفكير إلاّ بروح قدس. اسمع: هم يقول إن مسيحي في غرب يعتقد روح قدس من ابن وآب. هم يعترض من زمان ويقول إن هذه من ابن أضيف في ما بعد وعقيدة قسطنطينية لا يقول هذا. هم يقول روح قدس من آب فقط. وهم يفكّر ضدّ أقزام. أقزام يقول روح قدس من ابن ليس من آب. أذن عملاقة يكره كثيراً أقزام.

- يا أصدقائي، قال باودولينو مخاطباً رفاقه. يبدو لي جلياً أنّ الأعراق المتنوعة المقيمة في هذه المقاطعة لا تقيم أي اعتبار للفروق في الجسم واللون والمظهر، كما نفعل نحن، فلمجرّد أن نلمح قزماً نحكم عليه فوراً بأنّه ثمرة خطأ في الطبيعة. بالمقابل، وعلى غرار عدد كبير من حكمائنا، بأية حال، إنهم يقيمون كلّ اعتبار للتباين في الأفكار بشأن طبيعة المسيح، أو بشأن الثالوث الأقدس، التي سمعنا عنها الكثير في باريس. إنّها طريقتهم في التفكير. فلنحاول أن نتفهّم ذلك وإلاّ استغرقنا في متاهات جدل لا ينتهي. فليكن، حسناً، سوف نتظاهر بأن البليميين هم مثل وحيدي الساق، وما يؤمنون به حول طبيعة المسيح الربّ ليس، في آخر المطاف من شأننا، ولا يعنينا.

- بحسب ما سمعت، يبدو لي أنّ وحيدي الساق هم من أتباع بدعة آريوس، قال بورون الذي طالما كان من بينهم الأكثر اطلاعاً على المدوّنات.

- وماذا لو كانوا حقاً كذلك؟ قال الشاعر. يبدو لي أنّه أمر يليق بالروم. نحن، في الشمال، كنا منهمكين بتقرير من هو البابا ومن هو البابا

الدجّال، ليتضح فيما بعد أنّ الأمر كلّه كان من تدبير سيّدي المرحوم راينالد. لكلٍّ أخطاؤه. باودولينو محقّ في ما قال، لنتظاهر بأنّ شيئاً لم يكن، ولنطلب من هذا الكائن أن يصحبنا إلى دار شمّاسه الذي قد يكون بلا شأن كبير، لكنّه، على الأقل، يدعى جان.»

طلبوا من غافاغاي إذاً أن يصحبهم إلى بندابتزيم، فانطلق في طليعتهم جاعلاً قفزه على قدر من الاعتدال بحيث يتيح للجياد أن تتبعه. بمضيّ ساعتين تمكّنوا من اجتياز بحر السرخسيات وتوغلوا في منطقةٍ مزروعة، ومشجّرة بالزيتون وأشجار مثمرة أخرى: كانت مخلوقات ذات ملامح شبه آدمية جالسةً تحت الأشجار وترمقهم بنظراتِ فضول، وتلوّح بالأيدي مرحّبةً لكنّها لا تصدر سوى أصوات نعيب. هؤلاء هم البلالسان، قال غافاغاي شارحاً، إنهم كانوا يعيشون خارج المدينة لأنّهم من أتباع الصلاة، ويؤمنون أنّ بإمكانهم الصعود إلى السماء بتلاوة صلاة صامتة ومتّصلة، من دون مقاربة الأسرار الكنسية، أو مزاولة الإحسان وأشكال الإماتة الأخرى للجسد، ومن دون شعائر عبادة. ولهذا السبب لا يتردّدون على كنائس بندابتزيم. أمّا السكّان فقد كانوا ينظرون إليهم بجفاء ويجتنبون التعاطي معهم لأنّ أتباع الصلاة الصامتة يعتقدون أنّ العمل، حتّى العمل، هو عمل خير، فهو لذلك غير مجدٍ. لذا كانوا يعيشون في فقر مدقع، ويتغذون بثمار تلك الأشجار برغم كونها ملكاً للرعيّة، فيستهلكون منها من دون حساب.

-«أمّا ما عدا ذلك فهم مثلكم، أليس كذلك؟ سأل الشاعر مشاكساً.

- هو مثلنا لمّا نحن يسكت.»

كانت الجبال تبدو أكثر فأكثر قرباً، وكلّما اقتربوا منها بانت لهم طبيعتها على نحو أفضل. عند طرف النطاق الحجري، كانت تنتصب، على نحو متدرّج، تلال مائلة إلى الاصفرار، كما لو أنّها، على ما اقترح كولندرينو، قشدة مخفوقة، لا بل حِزَمٌ من خيوط السكّر، أو الأحرى

كثبان من الرمل رصفت متجاورة كأنّها غابة. وخلفها يتراءى عالياً ما بدا لهم من بعيد أنّه يشبه الأصابع؛ قمم صخرية توّجت ذراها بما يشبه غطاء رأس من صخرٍ أشدّ دكنة، ويبدو حيناً على شكلِ إسكيم راهب، وحيناً على هيئة قلنسوة شبه مسطّحة متجاوزة حدّها من الأمام ومن الخلف. أبعد منها، بدت التضاريس أقلّ تحدّباً لكنّها منخّورة بثقوب كخلية نحل، حتّى اتضح أنّها مساكن، أو نُزُلٍ حجرية حيث حُفِرَت أغوارٌ يُفضي إلى كلّ منها بوساطة سلّم صغير من خشب مختلف، فتتصل السلالم بعضها ببعض من سطحٍ إلى سطح مشكّلةً معاً، لكلّ من هذه التضاريس، شبكةً معلّقةً في الفضاء يسلكها السكان، وهم من بعيد أشبه بالنمال، في كلّ اتجاه بيسرٍ ورشاقة.

في وسط المدينة، بدت مبانٍ منتصبة، وصروح، لكنّها هي أيضاً منحوتة في الصخر، تبرز منها بضع أذرعٍ من الجبهات الأمامية، وكلّها عمودية على قدر من الارتفاع. على مقربَةٍ منها، ينتصبُ، جانبياً، نتوء أكثر ضخامة، متعرّج التضاريس، جعلَ، هو أيضاً، خلية أغوار، لكنّها حسنة الهندسة منتظمة الخطوط كأنها نوافذ وأبواب، وفي بعض الحالات كانت تبرز، من هذه القباب، مصاطب وخِصاص وشرفاتٍ ضيّقة. بعض تلك المداخل بدت مظلّلةً ببُسُطٍ ملوّنة، وبعضها الآخر بسجفٍ من القشّ المجدول. كلّ هذا كان من شأنه أن يولّد الانطباع أنّهم حلّوا في نطاق جبلي وعر، وفي الوقت نفسه، في وسط مدينةٍ مأهولةٍ تعجّ بالحركة، غير أنّها، بالتأكيد، أقلّ روعةً مما كانوا يتوقعون.

أمّا كونها مدينة مأهولة عاجّة بالحركة، فذاك أمر دلّ عليه الحشد الذي يسعى، ليس في طرقاتها وساحاتها لأنّها كنايات لا تنطبق على الواقع، بل في المساحات المتوافرة بين قمّة وسطح، بين تضاريس وأبراج طبيعية. كان حشداً هجيناً، تختلط فيه الكلاب والحمير وكثير من الجِمال التي سبق لرحّالتنا أن رأوها في بداية تجوالهم ولكن ليس بالأعداد الكبيرة وبالتنوّع الذي شهدوه في هذا المكان، بعضها بسنام وبعضها بسنامين

وبعضها الآخر بثلاثة. حتّى أنّهم شاهدوا آكل نيران يستعرض مهاراته أمام جمع من السكان ممسكاً برسن نمر. أمّا الحيوانات التي أثارت دهشتهم أكثر من سواها فكانت من ذوات الأربع تتميّز برشاقة لافتة وتستخدم في جرّ العربات: كان لها جسم مهر، وقوائم بالغة الطول ذات حوافر شبيهة بحوافر الثور، صفراء اللون مرقّطة بالبني، واللافت أنّ لها عنقاً هائلاً ورأس جمل وقرنين صغيرين بارزين على قمّته. قال غافاغاي إنّها جمال سنورية يصعب أسرها لأنّها سريعة العدو ووحدهم وحيدو الساق يستطيعون اللحاق بها وتدجينها.

الحقّ أن تلك المدينة، التي لا طرقات فيها ولا ساحات، لم تكن سوى سوق هائلة، حيث لا تخلو مساحة خالية من خيمةٍ نصبت هنا، أو مقصورة هناك، أو بساط فردَ على الأرض أو مفرش مُدَّ، على نحو مرتجل، فوق حجرين. وحيث عرضت الفواكه وقطع اللحم (لحم الجمل السنوري، المفضّل فيما بدا)، والبُسُط المحبوكة بألوان قوس القزح، والملابس، والسكاكين المصنوعة من سَبَج أسود، والفؤوس الحجرية، وكؤوس الخزف، وعقود العظام والأحجار الحمر والصفر، والأوشحة والأغطية، والقبّعات ذات الأشكال الغريبة، وعلب الخشب المزخرف، وأدوات الزرع والفلاحة، وكرات ودمى من القماش للهو الأولاد، بالإضافة إلى قوارير ملئت بسوائل زرق وعنبرية وزهرية وليمونية، وقصعاتٍ معبّأةٍ بالفلفل.

الأشياء الوحيدة التي لم يعثر على أثر لها في تلك السوق، كانت المعادن، ولمّا استُفْسِر غافاغاي، فعلاً، عن السبب بدا أنّه لا يفهم ما معنى عبارات كالحديد والمعدن والبرونز أو النحاس، مهما حاول باودولينو أن يعدّد أسماءها بكلّ اللغات التي يجيدها.

وسط ذاك الحشد كان وحيدو ساق يسعون في حركة دؤوب، قافزين منطنطين، حاملين على رؤوسهم قدوراً تفيض بمحتواها، وبليميون، إمّا زرافاتٍ على حدة، وإما واقفين خلف بسطات عرضت عليها ثمرات جوز

الهند، وأذن عملاقة بآذانهم المتدلية، باستثناء النسوة اللواتي يسترن بها صدورهنّ، جاذبات طرفيها بيد كأنها أوشحة، وأناس آخرون كأنّهم خرجوا للتوّ من أحد كتب العجائب تلك التي طالما استحسن باودولينو رسومها المنمنمة عندما راح يستلهمها لتدوين رسائله إلى بياتريس.

لم يطل بهم الوقت حتّى تعرّفوا، بين الجموع، إلى من يسمّون الأقزام البيغمي، ذوي البشرة الداكنة، بمآزرهم القشّ وأقواسهم المدلاة من أكتافهم والتي بها، بحسب ما فطرتهم الطبيعة عليه، يخوضون حربهم الدهرية ضدّ طيور الكَرْكيّ - وهي حرب لا بدّ أنّهم أحرزوا فيها أكثر من انتصار بما أن عدداً منهم كان يعرض على المارة طرائد معلّقة بقضيب طويل اقتضى حمله أربعةً منهم، اثنين من كلّ طرف. ولمّا كان الأقزام أقصر قامة من الكراكي، كانت الطيور تلامس الأرض، ولهذا السبب كان الأقزام قد عمدوا إلى تعليقها من رقابها، بحيث تكون قوائمها هي التي تكنس الأرض وتخلّف وراءها سحابةً من الغبار.

ثمّ رأوا الخفّان، وعلى الرغم مما قرأوه عنهم في السابق، لم يكفّ أصحابنا عن النظر بفضولٍ كبير إلى تلك المخلوقات. إنّهم قوم من ذوي السيقان المستقيمة ومن دون مفصل عند الركبة، يسيرون بقامات متصلّبة واطئين الأرض بحوافر هي حوافر خيل. غير أنّ اللافت فيهم كان أنّ الرجال منهم لهم ذَكَرٌ يتدلّى من نحورهم، أمّا النساء فلهنّ، في الموضع نفسه، مهبل يبقينه، مع ذلك، مستوراً إذ يحجبنه بوشاحٍ معقودٍ لجهة الظهر. ولأنّ تقاليدهم قضت عليهم بأن يكونوا رعاة معزٍ من ذوات القرون الستّة، فقد كانوا يعرضون بعضاً من تلك الدواب في السوق.

«تماماً كما جاء في الكتب» كان بورون يردّد قائلاً، مبهوراً بما يراه. ثمّ أردف بصوتٍ عالٍ كي يسمعه أرظروني: «كما جاء في الكتبِ حقاً أن الفراغ ليس موجوداً.» فهزّ أرظروني كتفيه غير مكترثٍ بكلام بورون، منصرفاً إلى تفحّص القوارير جيّداً لعلّه يجد في محتواها سائلاً يبيّض البشرة.

ولكي لا يستحيل الازدحام تدافعاً أو مشاداتٍ بين الناس، كان نفر من الرجال يجوب، بين الفينة والفينة، أنحاء المكان للسهرِ على استتباب النظام فيه. رجال ذوو بشرة شديدة السواد وقاماتٍ مديدة، عراة حتّى الخصر، يرتدون سراويل على الطرز الشرقيّ وعمائم بيضاً، ومسلّحون فقط بدبابيس غليظة مدبّبة وذات عقد من شأن ضربة واحدة منها أن تصرع ثوراً على الفور. ولمّا كان أهل بندابتزيم يتجمهرون أمام موكب الغرباء، مشيرين بفضول وعجب إلى الخيول التي لم يلمحوا مثيلاً لها من قبل، كان الرجال السود يتدخّلون لردع الجموع، وكان يكفي أن يعمد هؤلاء للتلويح بدبابيسهم الغليظة لكي يخلي لهم الناس ممراً.

لم يَخْفَ على باودولينو أنّه كلّما ازداد عدد المتجمهرين من الناس عمد غافاغاي، بإشارة منه، إلى استدعاء الرجال السود للتدخّل. وكان واضحاً من الإيماءات التي صدرت عن عدد من الحاضرين أنهم يريدون أن يعملوا أدلاّء لضيوفهم، ذائعي الصيت، غير أنّ غافاغاي كان عازماً على الاحتفاظ لنفسه بهذه المهمة، وكأنّه يقول لهم متفاخراً: «هؤلاء هم ملك لي فلا يقربنّ أحد منهم.»

أمّا الرجال السود فكانوا، بحسب غافاغاي، حرّاس الشمّاس النوبيين الذين قَدِمَ أسلافهم من أقاصي إفريقيا، لكنّهم ما عادوا غرباء لأنّهم، منذ أجيال عديدة، يولدون في جوار بندابتزيم، ويبدون ولاءً منقطع النظير للشمّاس وقد يفدونه بأرواحهم.

أخيراً لمحوا أناساً أطول وأضخم قامة من النوبيين أنفسهم، تبدو رؤوسهم بارزة فوق الحشد ببضعة أشبار. كان أولئك هم العمالقة. وفضلاً عن كونهم عمالقة، كانوا بعين واحدة. بدوا ذوي شعور طويلة مشعّثة، مهلهلي الشياب، يزاولون، بحسب غافاغاي، إمّا بناء المساكن على الصخور، أو رعي الخراف والعجول، وفي هذا كانوا مَهَرةً لأن بإمكانهم إخضاع ثور بمسكه من قرنيه، وإذا شردت نعجة بعيداً عن القطيع لا

يحتاجون إلى كلب، بل يمدّون يدهم لالتقاطها من صوفها ويعيدونها إلى مكانها.

«وهل أنتم أعداء هؤلاء أيضاً؟ سأل باودولينو.

- هنا لا واحد عدو واحد، أجاب غافاغاي. أنتَ يراه جميعاً يبيع ويشتري كمسيحيين صالح. بعد تعود إلى بيته كلّ منهم، ولا تبقى معاً للأكل أو نوم. كل واحد يفكّر كما يشاء، حتّى لو يفكّر خطأ.

- والعمالقة فكرهم باطل...

- أوه، كم وكم وكم!... باطل أباطيل! هم أتباع الجبن. هم يقول إن يسوع في عشاء أخير بارك خبز وجبن، لأنّ هم يقول إنّ هذه هو طعام طبيعي لبطاركة قدماء. هكذا هم يتناول قربان كافر من خبز وجبن من حليب نعجة، ويعتبر زنديق كل من يتناول قربان مع بُوْرَق. لكن هنا كل ناس تفكير باطل تقريباً، إلاّ وحيد ساق.

- قلت لي إنّ من بين أهل المدينة هناك خصيان؟ هل تفكبرهم باطل هم أيضاً؟

- أنا أفضل لا كلام عن خصيان، له نفوذ كبير. هم لا يختلط بعامة. لكن تفكيره ليس تفكير أنا.

- وما عدا تفكيرهم، إنّهم مثلك على ما أعتقد...

- لماذا، بماذا يختلف أنا عنه؟

- بحقّ شيطانك ذي القدم المفلطحة، صاح الشاعر حانقاً، هل النساء مثلك؟

- نساء وحيد ساق، أجل، لأنها لا يفكّر باطل.

- ولنسائك وحيدات الساق هل تدخل بهنّ هذا الشيء الملعون ألف لعنة، ولكن أين موضعه من جسمك أنت؟

- هنا، خلف الساق، مثل جميع.

- بصرف النظر عن حقيقة أنّ خاصّتي ليس خلف ساقي، وعمّا رأينا

للتوّ من أناس جعل خاصّتهم فوق السرّة، هل تعلم، على الأقلّ، أنّ الخصيان لا يملكون هذا الشيء البتّة، وأنّهم لا يقربون النساء؟

– ربّما لأن خصيّ لا يحبّ نساء. ربّما لأني أنا لم يرَ مرّة نساء خصيان في بندابتزيم. هم مسكين ربّما يحبّ نساء لكن لا يجد نساء خصيان ولا هم يعاشر نساء بليمي أو أذن عملاقة الذين يفكّر باطل؟

– ولكن هل لاحظت أن العمالقة ليست لهم سوى عين واحدة؟

– أنا أيضاً. ترى، اغمض هذا عين لا يبقى إلاّ واحد.

– فليردعني أحد منكم وإلاّ حززت عنقه الآن، قال الشاعر محتقن الوجه غاضباً.

– في المحصلة، قال باودولينو، البليميون تفكيرهم باطل، والعمالقة تفكيرهم باطل؛ الجميع تفكيرهم باطل، ما عدا وحيدي الساق. وما هو تفكير شمّاسكم؟

– سمّاس لا تفكير. هو، يأمر.»

فيما كانوا يتبادلون أطراف الحديث، اندفع نوبيّ معترضاً طريق كولندرينو، وجثا على ركبتيه أمامه، باسطاً ذراعيه، مطأطئاً، وراح يتلفّظ بعبارات في لغة مجهولة، لكنّهم أدركوا، من نبرتها، بأنّها دعاء أليم.

«ماذا يريد؟» سأل كولندرينو. فأجاب غافاغاي بأنّ النوبي يطلب منه، باسم الربّ، أن يقطع له رأسه بهذا السيف البديع الذي تمنطق به كولندرينو.

«أيبغي أن أقتله؟ لماذا؟»

بدا غافاغاي محرجاً. «نوبي أناس غريب أطوار. أنت يعلم، هم أهل قتال. محارب شديد فقط لأن يطلب شهادة. ليس حرب وهم يرغب في الشهادة فوراً. نوبي مثل طفل، يريد فوراً ما يشتهي هو.» وخاطب النوبيّ بعبارات قليلة فابتعد الرجل مطرقاً. ولمّا طلب إليه أن يحدّثهم قليلاً عن أهل القتال هؤلاء، قال غافاغاي إنّ أهل القتال هم النوبيون. ثمّ لفتهم

إلى أنّ الغروب بات وشيكاً، وأنّ السوق يفرغ تدريجاً من الناس، وأنّه ينبغي الذهاب إلى البرج.

كان الحشد قد بدأ يتفرّق فعلاً، فشرع الباعة بجمع بضائعهم في سلال كبيرة؛ ومن أعلى القباب المطلّة على حوافّ الصخرة، تدلّت حبال، وراح أحد ما، من حيث المساكن، يرفع سلال البضائع الموضبة. كان كلّ شيء في حركة دؤوب، هبوطاً وصعوداً، ولم يمضِ وقت طويل حتّى أقفرت أرجاء المدينة بأسرها. وسرعان ما بدت كأنّها مقبرة شاسعة الأرجاء ذات مدافن لا تحصى، غير أنّ النوافذ والأبواب المنحوتة في الصخر ما لبثت أن أُنيرت، أمارةً على أنّ أهل بندابتزيم شرعوا بوقد المدافئ والسُرُج استعداداً لهبوط الليل. وعبر أنفاقٍ لا يعلم بها إلاّ الله، كان دخان تلك النيران كلّها يخرج من ذرى القمم والمصاطب، فتتشح السماء التي مالت إلى الشحوبِ بوشمٍ أسود لا يلبث أن يتبدّد في كنف الغيوم.

قطعوا المسافة القليلة المتبقية من بندابتزيم فبلغوا منصّةً لا تترك الجبال وراءها أي معبر مرئي. ومن هناك، لاح لهم، وقد غار نصفه في سفح الجبل، المبنى الوحيد الذي شيّدته أيدي البشر في المدينة كلّها. كان برجاً، أو الأحرى، القسم الأمامي من برج ذي درجات عريضة، فسيح عند القاعدة، ثمّ يضيق تدريجاً كلّما ارتفع، ولكن ليس كَعَرَم من الآجرّ كُدِّسَ بعضه فوق بعض، آجرّة صغيرة وفوقها آجرّة كبيرة، وهكذا حتّى تتشكّل طبقات، بل كان أشبه بأنبوبٍ متصلٍ من درجةٍ إلى أخرى، على نحو لولبي، إلى أن يغوص بدوره في الصخر، مغلّفاً المبنى من القاعدة حتّى القمة. كان البرج بأكمله مشكّلاً من أبواب ذات أقواس، الباب لصق الآخر، لا مساحة بينها إلاّ الدعامة التي تفصل باباً عن آخر، فبدا أشبه بوحش له ألف عين. قال سليمان لا بدّ أنّ مثيل هذا، هو البرج الذي شيّده نمرود الطاغية في بابل لكي يتحدّى القدوس المبارك على الدوام.

«وهذا، قال غافاغاي بنبرة تفاخر، هذا هو قصر الشماس يوهانّس.

الآن أنتم لا يتحرّك من هنا وينتظر، لأنّ هم يعلم بقدومك وأعدّ استقبال مهيب. أنا الآن يذهب.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا لا يقدر دخول برج. بعد أنتم يدخل وشمّاس يستقبل أنتم، أنا يعود إلى أنتم. أنا دليل أنتم في بندابتزيم، وأنا لن يترك أنتم أبداً. وأنتم احذر الخصيان، هو شاب فتي... وأشار بيده إلى كولندرينو، وهم يعشق الفتيان Evcharisto, Ave، سلام.» وحيّاهم منتصباً على قدمه، كأنّه يؤدي تحية الجند، واستدار مبتعداً على الفور.

30

باودولينو يلتقي الشمّاس جان

لمّا صاروا على بُعد خمسين قدماً من البرج، شاهدوا موكباً يغادره. في الطليعةِ كانت كوكبة من النوبيين الذين بدوا في أزياءٍ باذخةٍ لا تقارن بتلك التي كان يرتديها أترابهم في السوق: ، كانوا ملفوفين، من الخصر وحتّى القدمين، بشرائط بيض مشدودةٍ حول السيقان تغطيها تنورة قصيرة حتّى منتصف الفخذ. عراة النحور لكنّهم يرتدون مشامل حمراء انسدلت على ظهورهم، وفي أعناقهم أطواق من جلد مطعّمة بأحجار ملونة، لم تكن فصوصاً بل حصيات صغيرة من حصباءِ نهر ما، لكنّها مرصوفة كفسيفساء باهرة الألوان. وعلى الرأس اعتمروا إسكيماً أبيض مزيّناً بشرائط معقودة. أمّا السواعد والمعاصم والأصابع فقد ازدانت بأساور وخواتم وسيور مجدولة. من كانوا في الصفّ الأوّل كانوا ينفخون المزامير ويقرعون الطبول، ومن كانوا في الصفّ الثاني تنكّبوا دبابيسهم الغليظة، ومن كانوا في الصفّ الثالث لم يتقلّدوا سوى أقواسهم.

خلف النوبيين كانت تتقدّم فرقة مؤلّفة ممّن عرفوا بالخصيان، بلا ريب، مرتدين ملابس فضفاضة متهدّلة، وقد طليت وجوههم بمساحيق الزينة كالنساء واعتمروا عمائم أشبه بالكاتدرائيات. وكان الواقف في وسطهم يحمل صينية من الفطائر الفرنية. وفي مؤخّر الفرقة، كان يتقدّم محروساً، من الجانبين، بنوبيين يهزّان فوق رأسه مروحتين كبيرتين من

ريش طاووس، ما بدا أنّه الأعلى مرتبةً من بين أفراد المجموعة: كان رأسه متوجاً بعمامةٍ جعلت على هيئة كاتدرائيتين، وضفائر من شرائط الحرير بألوان متنوعة، ومن أذنيه تدلّت أقراط من حجر ملوّن، وطوّق ساعديه بأساور من أرياشٍ متعددة الألوان. كان، هو أيضاً، يرتدي ثوباً طويلاً حتّى قدميه، لكنّه مكمور عند خنصره برباط بعرض شبر من الحرير الأزرق، وعلى نحره قلادة صليب من الخشب المزخرف. كان رجلاً مسنّاً، وكان صباغ شفتيه والكحل على عينيه يبدوان متنافرين مع بشرته المتهدّلة المائلة إلى الاصفرار، والتي جعلت لذقنه ذاقنةً بارزة تهتزّ لدى كلّ خطوة يخطوها. وكانت يداه سمينتين وأظافره طويلة جدّاً ومسنّنة كنصال، ومطلية بطلاء زهري.

توقّف الموكب أمام الزائرين، واصطفّ النوبيون في صفّين فيما جثا الخصيان، الأدنى مرتبة، على ركبهم وتقدّم حامل الصينية، منحنياً، لتقديم الطعام. في البداية احتار باودولينو ورفاقه فيما يفعلون في مناسبةٍ كهذه، لكنهم سرعان ما ترجّلوا عن مطاياهم وأخذ كل منهم قطعةً من الفطير وراحوا يلوكونها، مجاملين، وهم ينحنون بمثابة تحية. فتقدّم منهم إذ ذاك، لردّ التحية، الخصيّ المسنّ والأعلى مرتبة، وانحنى راكعاً حتّى لامس وجهه الأرض، ثمّ نهض وخاطب أصحابنا باليونانية.

«منذ ولادة سيّدنا يسوع المسيح، لبثنا في انتظار عودتكم إنْ كنتم حقاً من نعتقد أنّكم هم بالفعل، وإني لشديد الأسف أنّ الثاني عشر من بينكم، وإنْ كان مثلكم أوّلَ من بين المسيحيين، قد أضلّته عن سواء الدرب عوامل الطبيعة الجائرة. فبينما أصدر أوامري لحرّاسنا بأن يبقوا متيقظين بانتظار قدومه، أتمنّى لكم إقامةً هانئة في بندابتزيم، قال بنبرةٍ محايدة. أقولها لكم باسم الشمّاس جان، أنا براكسياس، القائد الأعلى لخصيان البلاط، وكاتب المقاطعة الأوّل، والممثّل الأوحد للشمّاس لدى الراهب، والحارس الأوّل وحافظ النهج المقدّس.» قال ذلك وكأنّ الملوك المجوس أنفسهم يجب أن يوقّروا تضافر كلّ هذه الألقاب.

«هيّا، كفى، همس آليرمو سكاكاباروتزي الملقب بالتشيولا، بالله عليكم من يحسب نفسه هذا. . .»

لطالما فكّر باودولينو وقلّب الاحتمالات في ذهنه استعداداً للقاء الراهب، غير أنّه لم يفكّر يوماً في الطريقة التي قد يقدّم بها نفسه لقائد خصيان ما يعمل في خدمة شمّاسٍ راهب. وقرّر أن يلتزم بالخطّة التي أعدّها سلفاً: «مولاي، قال، اسمح لي أن أعبّر عن سرورنا لحلولنا في هذه المدينة النبيلة الرائعة البالغة الفخامة والتي تدعى بندابتزيم، والتي لم نرَ خلال رحلتنا مدينة تضاهيها من حيث الروعة والازدهار. نحن قادمون من بلاد نائية حاملين للراهب جان أثمن ذخائر المسيحية، أي الكأس التي شرب منها يسوع أثناء العشاء الأخير. ولكن للأسف، ألّب علينا الشيطان كلّ عناصر الطبيعة، فأضلّ في الطريق أحد اخوتنا، الذي كان، لسوء طالعنا، حامل الهدية وسواها من العرابين التي تعبّر عن إجلالنا العميق للراهب جان. . .

– من بينها مثلاً، أردف الشاعر قائلاً، مئة سبيكة من الذهب الخالص، ومئتا سعدان كبير، وتاج من ألفِ ليبرة من الذهب مرصّع بالزمرّد، عشرة صفوف من الماس لا تقدّر بثمن، ثمانون صندوق عاج، خمسة أفيال، ثلاثة فهود مدجّنة، ثلاثون كلباً من آكلة لحوم البشر وثلاثون ثوراً من ثيران الحلبات، وثلاثمئة ناب فيل، وألف جلد نمر وثلاثة آلاف قضيب من الأبنوس.

– لقد سمعنا من قبل عن تلك الكنوز والخيرات التي نجهلها نحن والمتوفرة بكثرة في الأرض التي تغرب فيها الشمس، قال براكسياس، مغرورق العينين، ولا أدري إذا كنت، بمشيئة السماء، سيقيض لي أن أراها قبل أن أرحل عن وادي الدموع هذا!

– ألا يستطيع هذا الرجل أن يسدّ فمه الثرثار؟ همس البويدي من خلف الشاعر وهو يضرب على ظهره بقبضته، وماذا لو وصل زوسيمس في آخر الأمر، وتبيّنوا أنه خالي الوفاض مثلنا؟

- اصمت، همس الشاعر بصريف أسنانه وفمه الملويّ، لقد استدركنا الأمر بقولنا إنّ الشيطان صنع صنيعه، واستولى عليها كلّها. ما عدا الغرادال.

- ولكننا نحتاج إلى هدية نقدّمها الآن، نحتاج إلى هدية، لكي نبرهن لهم بأننا لسنا مجرّد صعاليك، تابع البويدي هامساً.

- رأس يوحنا المعمدان، ربّما، اقترح باودولينو بصوتٍ خفيض.

- لم يبق سوى خمسة، قال الشاعر من دون أن يحرّك شفتيه، ولكن لِمَ لا، ويجب ألاّ يرى أحد الأربعة المتبقية، طيلة فترة إقامتنا في المملكة.»

كان باودولينو هو الوحيد، من بين رفاقه، الذي يعلم أنّ الرؤوس المتبقية، مع الرأس الذي أخذه من عبدول، هي ستّة وليس خمسة. فأخرج واحداً من خرجه وقدّمه لبراكسياس، قائلاً له إنّه - بانتظار وصول الأبنوس والفهود والهدايا البديعة الأخرى - يريد أن يضع بين يدي الشمّاس التذكار الوحيد الذي بقي على هذه الأرض من الرجل الذي عمّد سيّدنا.

قبل براكسياس، بتأثّر بالغ، تلك الهدية التي لا تقدّر بثمن في نظره لما رآه من بريق المذخَر ما أقنعه، من دون ريب، إنّه مصنوع من تلك المادة الصفراء التي طالما سمع عنها رواياتٍ أشبه بالأساطير. فسارع قائد الخصيان، وقد بدا متلهّفاً للخشوع أمام بقية الرفات تلك، كأنّ كلّ هدية تقدَّم للشمّاس هي ملكه الخاص، إلى فتحها من دون مشقّة (ما يعني أنّه الرأس الذي كان في عهدة عبدول، الذي سبق أن أزيل ختمه، قال باودولينو في سرّه) وأمسك بيديه الاثنتين جمجمة جافّة مائلة إلى الدكنة، صائحاً بصوتٍ هدّجه الانفعال أنّه لم يرَ في حياته قطّ ذخيرةً تضاهيها.

على الأثر سأل الخَصيّ بِمَ سيدعو ضيوفه الكرام حين يتحدّث إليهم، لأنّ الروايات المختلفة أطلقت عليهم أسماءً مختلفة ولا أحد، على

وجه الدقّة، أيّها هو الصحيح. وبمَكْرٍ ما بعده مَكْر أجابه باودولينو أنّهم يودون، ما لم يمثلوا بعد في حضرة الراهب شخصياً، أن ينادى عليهم بالأسماء المشهورة التي كانت تطلق عليهم في الغرب النائي، وعدّد أسماءهم الحقيقية. فأبدى براكسياس استحسانه النبر الموحي في اسماء كأرظروني أو البويدي، كما وجد فخامةً في أسماء كلّ من باودولينو وكولندرينو وسكاكاباروتزي، وأوحى إليه اسما البورتشيلي والكوتيكا ببلدان فاتنة غريبة. وقال إنه يحترم تكتمهم، وخاطبهم بالقول خاتماً: «الآن، ادخلوا. لقد تأخّر الوقت، ولن يتمكّن الشمّاس من استقبالكم قبل الغد. هذه الليلة ستبقون في ضيافتي، وأؤكّد لكم أننا لم نعدّ من قبل وليمة فاخرة ومتنوّعة مثل الوليمة التي أعدّت لكم، وسوف تتذوقون أطعمةً لذيذة قد تنسيكم كلّ ما تذوقتموه في البلاد التي تغرب فيها الشمس.»

«ما بالهم يرتدون هذه الأزياء البائسة التي لا ترضى بارتدائها أقلّ النساء تطلباً في بلادنا، برطم الشاعر قائلاً. لقد قطعنا المسافات ولاقينا ما لاقينا من الأهوال لكي نجد شلالات من الزمرّد. وعندما كتبنا رسالة الراهب جان، كنت أنتَ تشعر بالغثيان كلّما أتينا على ذكر الياقوت، فهاكَ ما لديهم، عشر حصياتٍ وأربع قلائد، ويحسبون أنفسهم أثرى أثرياء الكون!

– سدّ فمك، وامشِ»، أجابه باودولينو هامساً.

تقدّمهم براكسياس إلى البرج، وأدخلهم إلى ردهة فسيحة بلا نوافذ، مضاءة بسرج متوهّجة جعلت على محامل من ثلاث قوائم، وفي وسط الردهة، على الأرض، فُرِدَ بساطٌ وضعت عليه كؤوس وأطباق كثيرة من الخزف، ومن حوله رُصِفَت أرائك اقتعدها الضيوفُ متربّعين. كان الطعام يقدّمُ من قبل غلمان، هم، بلا ريب، خصيان أيضاً، شبه عراة ومطيبين بشتّى صنوف الطيب. كانوا يقدّمون للضيوف أوعية من الأخلاط المُطَيَّبة حيث يبلّ الخصيان أطراف أصابعهم ثمّ يلمسون بها شحمةَ آذانهم

وأنوفهم. وبعد التطيّب كان الخصيان يداعبون الغلمان ملامسةً ويدعونهم إلى تقديم الطيوب للضيوف الذين جاروا مضيفيهم على سبيل المجاملة، فيما راح الشاعر يتمتم حانقاً أنّه إذا مسّه أحد هؤلاء فسوف يحطّم له أسنانه بضربة واحدة.

كان العشاء مكوّناً مما يلي: أطباق كبيرة من الخبز، أي ما يسمّونه، هم، الفطير. كمية هائلة من البقل الأخضر المسلوق، غلبَ الكرنب على مكوّناته وقد خفّفت رائحته الحرّيفة بصنوف من البهارات المختلفة. قصعات من الصلصة الداكنة اللذّاعة، يسمّونها السُوْرَقْ، حيث يغمّس الفطير، ولمّا بادر البورتشيلي إلى تذوّقها، ألمّت به الكحّة والسعال كمن ينفث من أنفه ناراً، ما حدا برفاقه إلى تذوّقها من بعده بحذر (ثمّ قضوا الليل يعانون عطشاً شديداً). سمكة نهرية، ناشفة، تكاد تكون، لهزالها، حسكاً صرفاً، ويسمّونها تينسيريتا (يا للروعة، قال أصحابنا في سرّهم)، وقد تبّلت بضربٍ من الدقيق ثمّ غطّست، حرفياً، في زيتٍ مغلي لا بدّ أنّه سبق واستخدم في ولائم كثيرة سابقة. حساء بزور الكتان، ويسمونه مَرَقْ، الذي له، بحسبِ الشاعر، طعمَ الخراء، والذي كانت تطفو على سطحه نُثَرٌ من لحم الدجاج غير الناضج لأنّها بدت كسيور الجلد، وأعلن براكسياس، بكل فخر، أنّها ميثادجاجية (أحسنتَ! أحسنتَ! قال أصحابنا وكلّ واحد منهم يلكز الآخر بمرفقه)؛ عصيدة يسمونها تشنفيليك، معدّة من الفواكه المجفّفة، لكنّها مُزِجَت بقدر من الفلفل يفوق مقدار الفواكه. كان الخصيان يغرفون بنهمٍ من كلّ طبق، لائكين متلمّظين متمزّزين بشفاههم تعبيراً عن تلذّذهم واستحسانهم، غامزين ضيوفهم بتواطؤ كأنّهم يسألونهم: «هل طاب لكم؟ أليس نعمة من السماء؟» كانوا يأكلون غارفين الطعام بأيديهم، حتّى الحساء، يرتشفونه من راحة اليد التي كوّرَت كصدفة، مازجين في حفنةٍ واحدة صنوفاً مختلفةً، ثمّ يحشرونها في أفواههم دفعةً واحدة. لكنّهم لا يستخدمون لكلّ ذلك سوى اليد اليمنى، لأنّ اليسرى كانوا يبقونها ممسكة بكتف الغلام لكي يسكب لهم المزيد من

الطعام. وما كانو يرفعونها إلاّ ليشربوا، فيمسكون بالإبريق بيدين اثنين ويرفعونه فوق رأسهم ويصبّون الماء منه في أفواههم كما يشربون من نافورة.

في ختام هذه الوليمة المترفة، أشار براكسياس بيده، فاقترب نوبيون وصبّوا سائلاً أبيض في كؤوس صغيرة. تجرّع الشاعر كأسه دفعةً واحدة فما لبثَ أن صار قرمزيّ السحنة مطلقاً نخيراً مسموعاً وخرّ على الأرض كأنه ميت. عندها هرع الغلمان إليه ورطّبوا وجهه بالماء. وشرحَ لهم براكسياس إنّ شجرة النبيذ لا تنبت في بلادهم، وأن الشراب المسكر الوحيد الذي يجيدون صنعه يتأتّى من تخمير البُوْرَقْ، وهي عنبية شائعة في تلك الناحية. سوى أنّه نظراً لقوة هذا الشراب يتعيّن على محتسيه أن يتمزّزه جرعاتٍ صغيرة، لا بل بلحس القليل منه باللسان. إنّها حقاً لمأساة ألاّ يتوفر لدينا النبيذ الذي يرد ذكره في الأناجيل، ذلك أنّ كهنة بندابتزيم كلّما أقاموا القدّاس ثملوا ثمالةً لا توصف ووجدوا مشقّة في إنهاء الذبيحة الإلهية.

«بأيّة حال، كيف للمرء أن يتوخّى شيئاً آخر من قبل زمرة مسوخ تلك؟» قال براكسياس متحسّراً، وقد انتحى ركنا بعيداً برفقة باودولينو، فيما انصرف الخصيان الآخرون إلى تفحّص الأسلحة المعدنية التي يحملها الرحّالة.

«مسوخ؟ سأل باودولينو متظاهراً بالسذاجة. لقد تولّد لدي انطباع أنّ لا أحد هنا يلحظ التشوّهات المذهلة التي يعاني منها الآخر.

- هذا لأنّك أصغيت إلى ما يقوله واحد منهم، قال براكسياس بابتسامة ازدراء. إنّهم يعيشون معاً منذ قرون من الزمن، فاعتاد بعضهم بعضاً، وبرفضهم رؤية التشوّه في جيرانهم إنّما يتجاهلون التشوّه الذي يصيبهم هم. مسوخ؛ بلى؛ أشبه بالبهائم منهم بالإنسان، وقادرون على التكاثر أكثر من الأرانب. هوذا الشعب الذي علينا أن نحكمه، وبيد لا ترحم، كي لا يبيدوا بعضهم بعضاً، مدفوعينَ ببدعهم وهرطقاتهم. لهذا

السبب عمد الراهب، منذ قرون، إلى جمعهم في هذا المكان عند تخوم المملكة، كي لا يعكّروا، بمظهرهم القميء، صفو حياة رعاياه الذين - أقسم لك يا سيّد باودولينو - هم بشرٌ على قدر لافت من الوسامة. ولكن من الطبيعي أن تنجب الطبيعة حتّى المسوخ، لا بل إنّ ما قد يعصى على الأفهام حقيقة أنّ الجنس البشري بأسره لم يُمسَخ، بعد ارتكابه أكثر أفظع الجرائم قاطبة، بصلبه الله الآب.»

أدرك باودولينو أنّ الخصيان، هم أيضاً، تفكيرهم باطل، فطرح بضعة أسئلة على مضيفه. «بعض هؤلاء المسوخ، قال براكسياس، يؤمن بأنّ الابن لم يكن سوى ابن الآب بالتبنّي، وبعضهم الآخر يستميت في شرح مَنْ صَدَرَ عن من، وكل واحد منهم، برغم كونه مسخاً، ينساق وراء خطأه المسخ، معدّداً الأقانيم الإلهية، معتقداً أنّ جوهر الخير المطلق، أي الله، هو ثلاثة جواهر مختلفة أو أربعة. وثنيون. هناك جوهر إلهي وحيد يتجسّد، في سياق التقلّبات البشرية، في شتّى الأشكال والأشخاص. إنّ الجوهر الإلهي بما هو مولّد هو آب، وبما هو مولود هو ابن، وبما هو مُقَدِّس هو الروح، لكنّها، على الدوام الطبيعة الإلهية نفسها: والباقي أشبه بقناع يحتجب الله وراءه. جوهر وثالوث واحد وليس، كما يؤكّد بعض الهراطقة، ثالوثاً في جوهر واحد. ولكن إذا كان الأمر هكذا، وإذا كان الله، بكليّته، اصغ جيداً إلى ما أقول، لم يبعث بابن له بالتبنّي، وتجسّد هو، بالذات، فهذا يعني أنّ الآب نفسه هو من قضى على الصليب. صلب الآب! هل تدرك حقيقة الأمر؟ وحده عرقٌ ملعون من شأنه أن يرتكب هذا الإثم، وواجب كلّ مؤمن أن يثأر للآب. لا رحمة للنسل الملعون الذي أنجبه آدم.»

منذ أن بدأ سرد وقائع الرحلة، كان نيسيتاس يصغي بصمت، ولم يقاطع باودولينو. لكنّه قاطعه عندئذ، لأنّه لاحظ أنّ محدّثه حائرٌ في تأويل ما كان يسرده. «هل تعتقد، سأله قائلاً، إنّ الخصيان يحقدون على الجنس

البشري لأنّه تسبّب بعذاب الآب، أم أنّهم اعتنقوا هذه البدعة لأنهم يحقدون على الجنس البشري؟

- هذا ما طرحته على نفسي، في ذلك المساء، وفيما بعد، ولم أحظَ بجوابٍ شافٍ.

- أنا أعلم كيف يفكّر الخصيان. لقد عرفت الكثيرين منهم في البلاط الإمبراطوري إنّهم يسعون وراء تحصيل السلطان، والمزيد من السلطان ليطلقوا العنان لحقدهم على كلّ من قيضَ له أن ينجب. ولكن غالباً ما أحسستُ، في سياق تجربتي الطويلة، بأنّ كثيرين ممن ليسوا خصياناً يتوسّلون السلطان للتعبير عمّا لا يستطيعون الإتيان به من دونه. ولا ريبَ عندي، أنّ في هذا الأمر شغفاً مزلزلاً بالقيادة يفوق الشغف بالمضاجعة.

- أمور أخرى جعلتني في حيرة من أمري. اسمع: كان خصيان بندابتزيم يشكّلون طبقةً مغلقة تتوالد من طريق الاصطفاء، نظراً لكون طبيعتهم لا تسمح بطرقٍ أخرى. وكان براكسياس يقول إنّ القدماء منهم، ومنذ أجيال وأجيال، كانوا يختارون الغلمان الفاتنين ويجعلونهم مثلهم، بجعلهم خدماً لهم، أولاً، ومن ثمَّ ورثتهم. فمن أين كانوا يأتون بأولئك الفتيان، الوسيمين ذوي القوام الحسن إذا كانت مقاطعة بندابتزيم غير مأهولة إلاّ بعجائب المخلوقات؟

- خصيانك هؤلاء لا بدّ أنهم قدموا من بلاد أجنبية. فقد نشهد، في العديد من الجيوش والإدارات العامّة، تقليداً يقول إنّ من بيدهم السلطان لا ينبغي لهم الانتماء إلى الجماعة التي يحكمونها، بحيث لا تنشأ لديهم مشاعر تعاطف أو تواطؤ حيال رعاياهم. وربّما هذا ما أراده الراهب لكي يتمكّن من إبقاء إولئك الناس، المشوّهين والمشاغبين، خاضعين لسلطانه.

- لكي يدفعَ بهم إلى الموتِ، براحة ضمير. ذلك أني، استناداً إلى رواية براكسياس، علمتُ بأمرين آخرين. لقد كانت بنداتزيم، قبل نشأة

مملكة الراهب، آخر المعاقل المتقدّمة. ولم يكن بعدها سوى مضيق جبلي يؤدّي إلى مقاطعةٍ أخرى، وكان حرّاس نوبيون يتحصنون فوق الصخور المطلّة على المضيق، متأهبين، على الدوام، لدحرجة الصخور الضخمة على من تسوّل له نفسه عبوره. وعند مخرج المضيق كانت بداية مستنقعٍ لا يحدّه بصر، وذي طبيعة غادرة إذ يتعرّض كلّ من يغامر في اجتيازه لأن تبتلعه الأراضي الموحلة والرملية المتحرّكة على الدوام، وما إن يغوص في الأرض المتحركة إلى أعلى الركبة، لا يعود قادراً على النجاة منها، فيغوص كلّه ويختفي كمن يغرق في لجّة بحر. ولم يكن عبر المستنقع سوى مسارٍ واحد آمن يتيح اجتيازه، لكنّه مسار لا يعرفه إلاّ الخصيان الذين تمرّسوا على تبيانه من خلال عدد من العلامات. ولذلك كانت بندابتزيم هي، في الوقت نفسه، البوابة والرادع والرتاج الذي ينبغي اقتحامه إذا أردنا الوصول إلى المملكة.

– ولكن بما أنّكم كنتم أول الواصلين إليها منذ قرون لا يعلم بها إلاّ الله، فالأرجح أنّ صدّ الغرباء عن تخوم المملكة لم يكن بالأمر الشاق.

– العكس هو الصحيح. لقد كان كلام براكسياس بهذا الشأن غامضاً جداً وغير محدّد، كما لو أنّ اسم الذين يشكّلون تهديداً محرّمٌ ذكره، لكنّه، بعد ذلك، راح يضمّن كلامه بعض التلميحات، وقرّر أن يخبرني بأنّ المقاطعة بأسرها كانت تعيش تحت وطأة كابوس متمثّل بشعبٍ محاربٍ، هو شعب الهُنس البيض، الذي قد يحاول غزو المملكة بين لحظة وأخرى. ولو وصل هؤلاء إلى أبواب بندابتزيم، لدفعَ الخصيان بوحيدي الساق والبليميين وكلّ المسوخ الآخرين ليقتلوا أثناء صدّهم الغزو لبعض الوقت، ولعمدوا، بعد ذلك، إلى اصطحاب الشمّاس إلى المضيق حيث يدحرجون قدراً من الصخور يكون كفيلاً بسدّ أي ممرّ، قبل أن ينكفئوا إلى المملكة. أمّا إذا أخفقوا في ذلك فقد يتمّ أسرهم، وبما أنّ الهُنس البيض قادرون على إرغام أحدهم، تحت التعذيب، على الكشف عن طريق آمن لبلوغ مملكة الراهب، فقد لقّنوا جميعاً حتّى الاقناع بأن

يعمدوا، في حال وقوعهم في الأسر، إلى ابتلاع سمّ يحتفظ كلّ منهم بجرابٍ صغير منه معلّق في عنقه، تحت الملابس. والأمر المفزع حقّاً هو أنّ براكسياس كان مقتنعاً بأنّهم ناجون بأية حال، لأنّهم عند الحاجة يستطيعون أن يدفعوا بالنوبيين كدرع واقية لانكفائهم. إنّها لنعمة حقاً، كان يردّد براكسياس على مسامعي، أن يكون للمرء حرّاس من أهل القتال التوّاقين إلى الشهادة.

- لقد سمعتُ أقوالاً عن كلّ هذا، ولكنّ الأمر جرى منذ قرونٍ عديدة عند سواحل إفريقيا. كان هناك هراطقة من أتباع بدعة الدوناتيّة الذين كانوا يؤمنون بأنّ الكنيسة ينبغي أن تكون مجمعاً للقديسين، ولكن، للأسف، بات كلّ كهنتها فاسدين. ولهذا السبب، برأيهم، ما من كاهنٍ مؤهّل لأن يكون خادمَ أسرارها، وكانوا في حرب دائمة مع كلّ المسيحيين الآخرين. وكان الأكثر تشدّداً من بين الدوناتيين، أهل القتال، وهم برابرة من أصل مشرقي، كانوا يجوبون السهول والوديان سعياً وراء الشهادة، ويرتمون من أعلى الصخور على السابلة صائحين «تمجّد اسم الربّ»، مهدّدين بدبابيسهم الغليظة، طالبين منهم أن يقتلوهم لكي يتاح لهم أن يحظوا بمجد التضحية. وبما أنّ الناس، المروّعين، يرفضون الانصياع لطلبهم، كان أهل القتال يسلبونهم ما معهم ثمّ يحطّمون جماجمهم. غير أني كنت أحسب أنّ أمثال أولئك المتشدّدين المتحمّسين قد نضب نسلهم.

- من الواضح أنّ نوبيي بندابتزيم هم أحفادهم. لقد كانوا، على ما رواه براكسياس بتكتّمه المعتاد حيال هذه الأمور، عنصراً لا غنى عنه في الحرب، لأنّهم لا يخشون الموتَ على يدِ الأعداء، وكان الوقت الذي تستغرقه إبادتهم جميعاً، يتيح للخصيان أن يسدوا المضيق. ولكنّ أهل القتال لبثوا، لقرون طويلة من الزمن، منتظرين، مثل هذه الواقعة، إذ لم يأت أحد لغزو المقاطعة، وضاقوا بالانتظار ذرعاً، لعجزهم عن العيش في سلام. وما كان بمقدورهم أن يهاجموا ويسلبوا المسوخ الذين أنيطت بهم حمايتهم، فانصرفوا، تنفيساً لحصرهم، إلى الصيّد، وجبه الحيوانات

الضارية بأيدٍ عُزْلٍ. كما كانوا يغامرون بالذهاب إلى ما وراء السامباتيون، ويتوغلون في الأراضي الصخرية حيث يكثر حيوان الخَيْمَر والمانتيكور، فيلقى بعضهم، بغبطةٍ بادية، المصير الذي لقيه عبدول. غير أنّ ذاك كلّه ما كان يكفيهم. وبعضهم، الأكثر حماسة من بينهم، كان يفقد صوابه. وكان نميَ إلى براكسياس، أنّ أحدهم، توسّل إلينا، في فترة بعد الظهر، بأن نقطع رأسه؛ كما كان آخرون، لدى قيامهم بحراسة المضيق، يرتمون من أعلى القمّة، أي أنّه كان من العسير جداً لجمَ حماستهم وتوقهم إلى الموت. فلم يبق أمام الخصيان إلاّ أن يبقوهم في حال تأهّبٍ دائم، مهوّلين، كلّ يوم، بخطر داهم، زاعمين أنّ الهُنْس البيض على الأبوابِ فعلاً، وهكذا كان النوبيون غالباً ما يجوبون السهوب متيقظين متأهبين، مبتهجين كلّما لمحوا سحابة غبار في الأفق، متربّصين بالغزاةِ الوافدين، بلهفةٍ ورجاءٍ طالما اعتملا فيهم منذ قرونٍ، جيلاً بعد جيل. في الأثناء، وبما أنّهم لم يكونوا، جميعهم، مستعدّين فعلاً للتضحية لكنّهم يجاهرون على الملأ بتوقهم إلى الشهادة لكي يصار إلى إطعامهم أفضل الطعام وكسوهم بأفضل لباس، كان من الأجدى الرضوخ لمطلبهم بتوفير ما طابَ لهم من المآكل، والكثير الكثير من البُوْرَق. فأدركتُ مقدار حقد الخصيان، المتعاظم يوماً بعد يوم، لاضطرارهم إلى التولّي على مسوخ لا يكنون لهم سوى المقت، وإلى وضعِ حياتهم وبقائهم بين أيدي شَرِهين متحمّسين في حال سُكْرٍ دائم.»

كان الوقت متأخّراً عندما أمر براكسياس حارساً نوبياً بمرافقتهم إلى مكان إقامتهم، قبالة البرج، في مباءةٍ حجرية ليست واسعة الأرجاء لكنّها، من الداخل، تتسع لهم جميعاً. فتسلّقوا تلك السلالم المعلّقة، وما لبثوا، إثر نهار شاقٍ، أن غرقوا في سباتٍ عميق.

استيقظوا على صوت غافاغاي الذي جاء ليكون في خدمتهم. فقد أخطره النوبيون بأنّ الشماس بات، الآن، مستعداً لاستقبال ضيوفه.

عادوا إلى البرج ورافقهم براكسياس، شخصياً، أثناء صعودهم الدرجات الخارجية، حتّى الطبقة الأخيرة. وهناك، اجتازوا عتبة باب وسلكوا ممشىً دائرياً تتخلّله، على الجانبين، أبواب أخرى كثيرة، متلاصقة بعضها ببعض، كأنّها صفّ من الأسنان.

«لم أدرك النحوَ الذي صمّم عليه هذا البناء إلاّ فيما بعد، يا سيّد نيسيتاس. أجد مشقّةً في وصفه، ولكنّي سأحاول. تخيّل أنّ هذا الممشى الدائري هو محيط دائرة جعِلَت في وسطها ردهة مركزية فسيحة، ودائرية هي أيضاً. كلّ باب في الممشى يؤدي إلى مسلك، وكلّ مسلك ينبغي أن يكون شُعاعاً من شِعاعِ الدائرة، ويفضي إلى الردهة المركزية. لكنْ لو كانت المسالك مستقيمَة، لأمكن كلّ سالك للممشى الطرفي أن يرى ما يجري في الردهة المركزية، و ولأمكن كلّ من كان في الردهة المركزية أن يرى الوافد عبر أحد المسالك. والحال أنّ كلّ مسلك كان يبدأ مستقيماً، غير أنّه ينحرف، عند آخره، في خطّ قوسي، وبعد هذا الانحراف يمكن بلوغ الردهة المركزية. هكذا ما كان أحد ليستطيع أن يرى الردهة المركزية من الممشى الطرفي، ما يضمن للمقيم فيها احتجاباً تامّاً عن أنظار المتطفلين...

– لكنّ المقيم في الردهة المركزية، لا يتمكّن، هو أيضاً، من رؤية الوافدين إليه إلاّ في اللحظة الأخيرة.

– بالضبط، وهذا التفصيل، بالذات، هو ما أدهشني في الأمر كلّه. تخيّل أنّ الشمّاس، سيّد المقاطعة، كان في منأى عن أنظار المتطفلين، لكنّه في الوقت نفسه، كان معرّضاً لأن يتلقّى زيارة مباغتة من قبل خصيانه. كان سجيناً لا يستطيع حرّاسه أن يراقبوه، لكنّه لا يستطيع، هو أيضاً، أن يراقبهم.

– لا ريب في أنّ خصيانك أشدّ مكراً من خصياننا. ولكن حدّثني، الآن، عن الشمّاس.»

دخلوا. كانت الردهة الدائرية خاليةً إلاّ من بعض الصناديق حول العرش. كان العرش في وسطها من خشبٍ داكن، مظلّلاً بقبّةٍ. وعلى العرش كان شكلٌ آدمي ملتحف بثوبٍ داكن، وعلى رأسه عمامة، وخمار مسدَل يغطّي وجهه. كانت القدمان محتذيتين بابوجين داكنين، وكذلك كان القفّازان اللذان غطيا يديه، ما جعل الشكل الآدميّ الجالس على العرش محتجباً عن الأنظار لا يظهر من هيئته طرف أو ملمح.

على جانبي العرش، كان خَيّالان محتجبان آخران، جالسين القرفصاء إلى يمين الشماس وإلى يساره. وكان أحدهما يقدّم للشماس، بين الفينة والفينة، كأساً من الطيوب المحترقة، لكي ينشقَ أبخرتها. وكان الشمّاس يحاول ألاّ يفعل غير أنّ براكسياس كان يشير عليه راجياً، بإيماءة منه، بأن يفعل، فلا بدّ، إذاً، أن تكون أبخرة الطيوب وصفةً طبية.

«توقفوا على بعد خمس خطوات من العرش، وانحنوا، وانتظروا قبل إلقاء التحية ريثما يدعوكم إلى إلقائها، همس براكسياس قائلاً.

– لِمَ هو محتجب؟ سأل باودولينو.

– السؤال غير جائز؛ والحال هي الحال؛ وتلك رغبته ومشيئته.»

فعلوا كما قيل لهم. رفع الشمّاس يداً وقال باليونانية: «منذ طفولتي أعْدِدتُ ليوم مجيئكم. لقد أخبرني حافظ الأسرار كلّ شيء، وإنّه لمن دواعي سروري أن أعينكم وأستضيفكم ريثما يصل رفيقكم الموقّر. كما أني تسلّمت هديتكم التي لا تضاهى. أشعر بأني لا أستحقّها، خاصةً أنّ ذخيرةً بمثل هذه القداسة تصلني من واهبين بمثل مقامكم الموقّر.»

كان صوته متلجلجاً كأنّه يصدر عن شخص متألّم، غير أنّ النبرةَ بدت فتيّة. وإذا باودولينو يفيض في التحيّة توقيراً وتبجيلاً كيلا يتاح، إثرَ هذا الفيض، لأيّ كان أن يتهمهم بانتحال الصفة الموقّرة التي نُسبت إليهم. غير أنّ الشمّاس لفتهم إلى أنّ هذا القدر من التواضع هو علامة قداسةٍ لا تدحض، فقُضيَ الأمر.

على الأثر، دعاهم إلى الجلوس على أطْرَةٍ من إحدى عشرة أريكة، جُعِلَت على بعد خمس خطوات من العرش، وقُدِّمَ لهم البُوْرَق مع كعكٍ طريّ خالطه طعم عفونة، وقال إنّه متشوّق لأن يسمع منهم، هم الذين زاروا الغرب الأسطوريّ، إذا كانت تلك العجائب التي ورد ذكرها في الكتب التي قيضَ له أن يطالعها، موجودة كلّها هناك. سأل إذا كان حقّاً هناك أرض تدعى أونوتري حيث تنبت الشجرة التي يسيل منها الشراب الذي حوّله يسوع إلى دمِه في العشاء السرّي. وإذا كان الخبز هناك غير مرقّقٍ حقاً بل ينتفخ كلّ صباحٍ مع صياح الديك على شاكلة ثمرة حلوة الطعم ليّنة مغلّفة برقاقة محمّرةٍ. وإذا كان صحيحاً أن المرء يصادف هناك كنائس مشيّدة خارج الصخر، وإذا كانت أَسْقُف قصر كبير كهنة روما وأعمدته من خشبٍ معطّر جُلِبَت من جزيرة قبرص الأسطورية. وإذا كان ذاك القصر له أبواب من حجرٍ أزرق مُزِجَ بقرن الأفعى الحارية، ما يحول دون إدخال الزائر سمّاً إلى داخل القصر، كما له نوافذ من حجر يتخلّله الضوء. وإذا كان في تلك المدينة نفسها بناء دائري ضخم حيث المسيحيون باتوا اليوم يأكلون الأسود، وعلى قبّته يظهر مثيلان مُقَلَّدان على أكمل وجه للشمس والقمر، كبيران كما هما في الأصل، ويقطعان مسارهما في القوس السماوي وسط طيور هي صنيع يد البشر وتنشد ألحاناً بالغة العذوبة. وإذا كانت تحت البلاط، الشفيف هو أيضاً، تسبح من تلقائها أسماكٌ من حجر فلورنسا. وإذا كان صحيحاً أنّ المرء يصل إلى المبنى عبر سلّم حيث يوجد، عند قاعدة إحدى درجاته، ثَقبٌ يمكن أن تترى أمام العينَ، من خلاله، كلّ الأمور التي تحدث في الكون، كلّ مسوخ أعماق البحر، والفجر والمساء، الحشود التي تحيا في الشمال الأقصى، نسيج عنكبوت خيوطه بلون القمر وسط هرم معتم، نديفٌ من مادة بيضاء وباردة تنهمر من السماء على إفريقيا الحارّة في شهر آب، كلّ صحارى هذا الكون، كلّ حرف من كلّ صفحة من كلّ كتاب، غروب بلون الزهر فوق السامباتيون، خيمة العالم ماثلة بين لوحين لامعين

يعكسان صورتها إلى ما لانهاية، منبسطات مائية مثل بحيرات من دون ضفاف، ثيران، عواصف، كلّ النمال الدابّة في الأرض، كرة تستعيد حركة الكواكب، الخلجة الدفينة لقلبها وأحشائها، ووجه كلٍّ منا عندما يغيّر وجهنا الموت...»

«ولكن من يسرد على مسامع هؤلاء القوم مثل هذه الترهات؟» كان الشاعر يتساءل مشدوهاً، فيما كان باودولينو يسعى إلى الإجابة بفطنةٍ قائلاً إنّ عجائب الغرب البعيد كثيرة من دون شكّ وإنْ كان صيتها يميل أحياناً إلى المغالاة والتضخيم ما يجعل الحبّةَ قبّة، وإنّه شخصياً لم يرَ، هناك حيث تغرب الشمس، مسيحيين يأكلون أسوداً. وأردف الشاعر ساخراً: «على الأقل، ليس في أيّام قِطاعة...»

أدركوا أنّ حضورهم ألهبَ مخيّلة هذا الأمير الفتيّ، المنعزل على الدوام في سجنه الدائري، وأنّك إذا كنت تحيا هنا، حيث تشرق الشمس، فلا يمكنك إلاّ أن تحلم بأعاجيب المغرب - لاسيّما، تابع الشاعر همساً، وبالألمانية لحسن الحظّ، إذا كنتَ تحيا في مغاطٍ على شاكلةِ بندابتزيم.

ثمّ فطن الشمّاس إلى أن ضيوفه، هم أيضاً، يريدون الاستفسار عن بعض الأمور. ولاحظ أنّهم، بالتأكيد، ما عادوا يتذكرون، بمضيّ تلك السنوات الطويلة، طريقَ العودة إلى المملكة التي، بحسبِ الاعتقاد، انطلقوا منها، ولربّما كان السبب في ذلك أيضاً أنّه خلال قرون طرأت سلسلة من الزلازل، وتحوّلات أخرى على هذه الأرض، فغيّرت تضاريسها ومواضع جبالها وسهولها. وشرح لهم كيف كان من العسير عبور المضيق الجبلي، واجتياز المستنقع، وحذّرهم من أنّ موسم الأمطار قد حلّ، وأنّ السفر في الوقت الحالي غير مستحب. «هذا فضلاً عن أن خصياني، أردفَ قائلاً، سيبعثون برسلٍ إلى أبي ليبلّغوه بزيارتكم، وعلى هؤلاء أن يعودوا حاملين منه الإذن بمتابعة رحلتكم. فالطريق طويلة، وقد يستغرق كلّ هذا عاماً أو أكثر. وفي الأثناء سيتعين عليكم الانتظار ريثما

يصل أخوكم. واعلموا أنكم هنا ستلقون الضيافة التي تليق بمقامكم.» كان يخاطبهم بصوتٍ شبه آلي، كأنّه يستظهر درساً تعلّمه للتوّ.

سأله الضيوف عن مهمّة الشمّاس جان وقدره، فأجاب قائلاً: مما لا شكّ فيه أنّ الأمور لم تكن في زمانهم على النحو الذي آلت إليه اليوم، غير أنّ شرائع المملكة عُدّلت، على وجه الدقة، إثر رحيل الملوك المجوس. فلا يحسبنّ أحد أنّ الراهب كان شخصاً واحداً استمرّ في ملكه آلاف السنين، بل كان الراهب رتبةً. عند وفاة كلّ راهب كان شمّاس يتولّى العرش. وإذ ذاك كان ذوو المراتب في المملكة يسارعون إلى زيارة كلّ العوائل ويتعرّفون، من خلال بعض العلامات العجائبية، إلى رضيعٍ لا ينبغي أن يكون قد تجاوز الأشهر الثلاثة من العمر، ويجعلونه الوريث المستقبلي والابن المظنون للراهب. كانت العائلة تتخلّى عن رضيعها بفرح غامر فينقل على الفور إلى بندابتزيم حيث يقضي طفولته وهو يتلقّى إعداداً ملائماً لخلافة أبيه المظنون، ولأن يخشاه ويجلّه ويحبّه. كان الفتى يتحدّث بنبرة حزينة، لأنّ قدر الشمّاس، قال، ألاّ يعرف أباه أبداً، لا الحقيقي ولا المظنون الذي لا يراه حتّى على منصّة نعشه، لأنّ المدّة الفاصلة بين وفاته وبين انتقال الوريث إلى عاصمة المملكة، كما قال، لا تقلّ عن سنة.

«سوف أرى فقط، كان يقول، وأسأل الله أن يكون ذلك في مستقبل بعيد جداً، رسمه المطبوع على القُماش الذي لُفّ به جثمانه قبل الدفن، نظراً لكونه يدهن بالزيوت والمواد العجائبية الأخرى التي تطبع الأشكال على النسيج.» ثمّ قال: «سيتعيّن عليكم أن تبقوا هنا مدة طويلة، وأطلب منكم أن تأتوا لزيارتي بين وقتٍ وآخر. أعشق سماع أخبار عجائب الغرب، وروايات المعارك والحصارات التي لا تحصى والتي، يقال، إنّها هناك تجعل الحياة خليقة بأن تعاش. أرى أنكم متمنطقين بأسلحةٍ أبهى وأقوى من تلك التي تستخدم هنا، وأحسب أنّكم قدتم، بأنفسكم، جحافل الجيوش في معارك، كما يليق بملك أن يفعل، بينما عندنا، ما

زلنا، منذ أزمنة سحيقة، نعدّ العدّة للحرب، غير أنّي لم أحظَ يوماً بمتعة قيادة جيش في أرض مكشوفة.» لم يكن كلامه مجرّد دعوة، بل أشبه بالترجّي، وبنبرة فتى ألهب مخيّلته بمدوّنات المغامرات العجيبة.

«أرجو ألاّ تتعب نفسك كثيراً، يا مولاي، قال براكسياس بتوقير بالغ. لقد تأخّر الوقت، وأراكَ مرهقاً؛ الأفضل أن تأذن لزوّارك بالانصراف.» فوافق الشمّاس على نصحِ براكسياس، غير أنّ إيماءة الرضوخ التي رافقت تحيّته، بيّنت لباودولينو ورفاقه من كان الحاكم الفعلي في ذلك المكان.

31

باودولينو ينتظر أوانَ الرحيل إلى مملكة الراهب جان

كان باودولينو قد أطال في سرده، وأحسّ نيسيتاس بالجوع. فأجلسه تيوفيلاكتس إلى مائدة العشاء مقَدِّماً له الكافيار من سِرْءِ أسماك متنوّعة، أتبعه بحساء البصل المطبوخ بزيت الزيتون في طبق مليء بفتات الخبز، ثمّ مَرَق الرخويّات المفرومة المتبّل بالنبيذ والزيت والثوم والكافور والمردقوش والخردل. لم يجد نيسيتاس في كلّ هذا ما يفي برهافة ذوقه، لكنّه أطرى الوليمة التي أعدّها المضيف. وبينما كانت النساء، اللواتي تناولن عشاءهنّ على حدةٍ، يتأهّبنَ للنوم، عاود نيسيتاس إلحاحه على باودولينو بأن يكمل سرده، متلهّفاً لسماع التتمة وما إذا كانوا قد وصلوا أخيراً إلى مملكة الراهب.

«كنت تودّ، يا سيّد نيسيتاس، لو أني هرعت على الفور قاصداً مملكة الراهب، غير أننا أقمنا في بندابتزيم سنتين طويلتين، كان الوقت يمضي خلالهما برتابةٍ مميتة. لم يبلغنا أي جديد بشأن زوسيمَس، أمّا براكسياس فكان يقول لنا باستمرار إنّه من غير المجدي الشروع برحلتنا إلى المملكة قبل مجيء رفيقنا الثاني عشر، ومن دون التقدمة الموعودة للراهب. ناهيك عمّا كان يزفّه إلينا كلّ أسبوع من أنباء مستجدّة محبطة: فموسم الأمطار طال أكثر مما كان متوقعاً و أصبح اجتياز المستنقع أكثر صعوبة مما كان عليه، كما أنّهم لم يبلغهم شيء عن الرسل الذين أوفدوا

إلى الراهب، فربّما لم يهتدوا إلى سبيل المعبر الوحيد الممكن. . . بعد ذلك حلّ موسم الصحو فعلت الأصوات منبئةً بأنّ الهُنْس البيض باتوا على الأبواب، إذ تمكن أحد النوبيين من رصد تقدّمهم نحو الشمال، فما عاد ممكناً الاستغناء عن نفرٍ من الرجال لمواكبتنا في رحلةٍ بالغة المشقّة، وهكذا دواليك. ولمّا لم يكن هناك ما نتشاغل به، انصرفنا، شيئاً فشيئاً، إلى تعلّم لغات تلك البلاد المختلفة، وصار بإمكاننا أن نعرف إذا قال القزم البيغمي Hekinah degul، فها يعني أنّه مسرور، وأنّ التحية التي نتبادلها معه هي Lumus kelmin pesso desmar lon emposok، ما يعني أننا نتعهّد بعدم شنّ الحرب لا عليه ولا على شعبه؛ وإذا أجاب عملاق عن سؤال بقوله Bodh -- koom، فهذا يعني أنّه لا يدري، وأنّ النوبيين يسمون الحصان nek، ربّما محاكاةً لعبارة nekbrafpfar التي تطلق على الجمل، في حين أنّ البليميين يسمون الحصان houyhmhnm، وكانت تلك هي المرّة الأولى التي لا نسمعهم فيها يتلفّظون بأصواتٍ ليست كلّها بأحرف علّة، أمارةً على أنّهم كانوا يختلقون عبارة لم يستخدموها من قبل لدابة لم يروا مثلها من قبل. وحيدو الساق كانوا يصلّون مردّدين Hai coba، التي تعني في صلاتنا نحن «أبانا»، وكانوا يسمون النار deba، وقوس القزح deta والكلب zita. أمّا الخصيان فكانوا، في قداديسهم، يسبّحون الربّ منشدين: Khondinba Ospamerostas, kamedumas karpanemphas, kapsimunas Kamerostas perisimbas prostamprostamas.

كنا قد صرنا من أهل بندابتزيم، بحيث إننا ما عدنا نرى إلى البليميّ أو العملاق بوصفهما مختلفين جداً عنّا. وتحوّلنا إلى زمرةٍ من التنابلة، بورون وأرظروني يقضيان أيامهما في سجال متصل حول الفراغ، حتّى أنّ أرظروني أقنع غافاغاي بأن يعرّفه بأحد النجّارين من جماعة الخفّان، وراح يناقش معه إمكانية فبركة إحدى تلك المضخّات العجيبة من الخشب وحده ومن دون اللجوء إلى استخدام أي صنفٍ من المعدن. وعندما انصرف أرظروني

لإنجاز مخطّطه، التحق بورون بكيوت وراحا يجوبان السهل حالمين بالغرادال، وعيونهم شاخصة إلى الأفق مترقّبة مجيء زوسيمس. لا بدّ أنّه سلك طريقاً مختلفة، قال البويدي مخمّناً، والتقى الهُنُسَ البيض، والله أعلم بما قد يكون لفّق من أقاويل ليقنعهم، هم الوثنيين من دون شك، بغزو المملكة. . . البورتشيلي والكوتيكا وآليرامو سكاكاباروتزي الملقّب بالتشيولا، الذين أسهموا جميعاً في إنشاء الإسكندرية واكتسبوا بذلك بعض الخبرات في البناء، صمّموا على إقناع أهل تلك المقاطعة بأنّ أربعة جدران حسنة البناء هي أفضل بكثير من عشّ الحمام ذاك الذي يفاخرون به لدرءِ المخاطر، وعثروا على نفرٍ من العمالقة الذين يمتهنون حفر الأضرحة في الصخور، والقابلين لتعلّم طريقة جَبْلِ الملاط أو قولبة لِبنات الفخّار، ومن ثمّ، تجفيفها تحت أشعة الشمس. هكذا ارتفعت، عند تخوم المدينة، خمسة أو ستة أكواخ، ولكن ذات صباح، وجدوا أنّها احتلّت من قبل بشر بلا لسان، جوّالين بطبعهم، وسارقي خبزٍ يأكلونه. حاولوا أن يطردوهم بقذفهم بالأحجار، لكنّهم لم يفلحوا في ذلك. وكان البويدي ينظر كلّ مساء ناحية المضيق الجبلي ليرى إذا كان الصحو قد حلّ مجدداً. أي أنّ كلاً منّا ابتكر وسيلة لتزجية الوقت، كما اعتدنا مآكلهم المقزّزة، وأدمنّا احتساء البُوْرَق. وكان يعزّينا أنّ المملكة، بأية حال، أصبحت على بعد خطوتين، أي على مسافة سنة من السير، في احسن الأحوال، سوى أنّه ما عدنا معرّضين للأهوال ولا للسعي بحثاً عن طريق، فما علينا إلاّ الانتظار ريثما يقودنا الخصيان إليها. كنّا، إذا جاز القول، محبطين باغتباط، وضجرين بسعادة. كان لكلّ منا نصيبه غير القليل من سنوات العمر؛ أمّا أنا فجاوزت الخمسين، وفي سنّ كهذه يموت الناس عادةً، إنْ لم يموتوا قبل ذلك بسنوات. ولكن، ولله الحمد، كان المناخ مفيداً فبدونا أصغر سنّاً، والظاهر أني كنت أبدو أصغر مما كنت عليه لدى وصولي، بعشر سنوات. كنّا أشدّاء البدنِ سقيمي الروح، إذا جازت العبارة. ولفرط ما اندمجنا في حياة أهل بندابتزيم، بدأت نقاشاتهم اللاهوتية تستهوينا.

– وإلى أي رأي كنتم تميلون؟

– الحقّ أنّ الأمر برمّته بدأ لأن الشاعر كان مستثاراً لأنّه لا يستطيع العيش من دون نساء. مع أنّ كولندرينو، حتّى كولندرينو الشاب، لم يكن مبالياً بهذا الشأن، ولكن كولندرينو هذا كان بمثابة ملاك على الأرض، على غرار شقيقته الراحلة. لقد حظيتُ بالبرهان على أنّ عيوننا اعتادت، فعلاً، ذلك المكان، لمّا بدأ الشاعر يهيم بمخيّلته حول امرأة من الأذن العملاقة. كان مفتوناً بأذنيها المسبلتين، ويثيره بياض بشرتها، ويرى أنّها متلويّة بارزة الشفتين. وكان ذات يوم قد رأى اثنين من الأذن العملاقة يتضاجعان في أحد الحقول، فبدت له تجربة ممتعةً ومثيرة: كان الاثنان ملتحفين بأذنيهما كأنّهما داخل قوقعة، أو كأنّهما اللحم المفروم الذي لفَّ بورق عريش والذي سبق لهم أن تذوقوه في أرمينيا. لا بدّ أنّه أمر مدهش، قال في سرّه. ولمّا لم يلق سوى الصدّ من قبل الأذن العملاقة لدى محاولته التقرّب منها، شُغِفَ بامرأة بليمية. كان يرى، بصرف النظر عن كونها بلا رأس، أنّ لها قواماً رشيقاً وفرجاً مغرياً، فضلاً عن شعوره بأنّه قد يكون مثيراً حقاً أن يقبّل فمَ امرأة كأنّه يقبّل بطنها. لذلك سعى للاختلاط بأولئك القوم. وذات مساء، اصطحبنا إلى أحد اجتماعاتهم. ولم يكن البليميون، شأن مسوخ المقاطعة جميعاً، ليرضوا بوجود أحد من المخلوقات خلال حلقات النقاش التي يقيمونها حول شؤونهم المقدّسة، غير أننا، نحن، كنا مختلفين، وما كان أحد منهم ليحسب أنّ تفكيرنا باطل، لا بل إنّ كلّ قوم من تلك الأقوام كانوا يعتقدون أننا نفكّر كما يفكّرون هم. أمّا الشخص الوحيد الذي كان ليبدي خيبة أمله حيال تعاطينا مع البليمين، كان، بالتأكيد غافاغاي، غير أنّ وحيد الساق المخلص هذا كان يكنّ لنا من التوقير والإجلال ما جعله مقتنعاً بأنّ كل ما نقدم عليه لا بدّ أن يكون صالحاً. وربّما لسذاجته أو ربّما لحبّه لنا، أو الاثنين معاً، أقنع نفسه بأننا نذهب إلى شعائر البليميين لنعلّمهم بأنّ يسوع هو ابن الله بالتبني.»

كان الجزء البادي من كنيسة البليميين على سطح الأرض هو عبارة عن عمودين، ولوحة الجبهة، وواجهة واحدة، فيما البقية جعِلَت في عمقِ الصخر. وكان كاهنهم يدعوا المؤمنين إلى التجمّع ضارباً، بمدقّة صغيرة، على لوحٍ حجري ملفوفٍ بالحبال، فيصدر عنه صوت أشبه برنين جرس مشقوق. في الداخل لم يكن مرئياً سوى المذبح المضاء بِسُرُجٍ تنمّ الرائحة المنبعثة منها أنّ وقدها ليس زيتاً بل زبدة مستخلصة، بلا ريب، من لبن الماعز الحليب. لا يلمح في أرجائها صليب واحد، ولا رسوم أخرى، ذلك أنّهم، كما فسّر البليمي الذي تطوّع لإرشادهم، لا يستطيعون، هم (وحدهم يفكّرون الصواب) الذين يقولون إنّ الكلمة الذي هو الله لم تتجسّد، التعبّدَ لرسم رسم. كما أنهم لا يستطيعون، للأسباب نفسها، أخذ سرّ القربان المقدَّس عَلى محمل الجدّ، ولهذا السبب يكون قدّاسهم خالياً من تكريس أعراض القربان المقدّس. كما أنهم لا يستطيعون تلاوة الإنجيل، لأنّه رواية خديعة.

عندها سأل باودولينو أيّ قدّاس إذاً يستطيع البليميون أن يقيموه، فقال المرشد إنّهم، في الحقيقة، يجتمعون للصلاة، ثمّ يتناقشون فيما بينهم حول السرّ الأعظم للتجسّد المزيّف، وهي مسألة لم تتضح لهم بعد. وعلى الأثر، جثا البليميون فعلاً، وكرّسوا نصف ساعةٍ من الوقت لتبادل نبراتهم الغريبة بمثابة نقاش، وبذلك يكون الكاهن قد افتتح ما أسماه بالمحادثة المقدّسة.

نهض أحد المصلّين ولفتهم إلى أنّ يسوع الآلام ربّما لم يكن طيفاً حقيقياً، خُدِعَ الرسل به، بل طاقة علوية نابعة من الآب، طاقة دهرية، أيون، انبثّت في بدن موجود قبلاً لنجّار ما في الجليل. ولاحظ آخر أنّ مريم، كما يلمّح البعض، ربّما أنجبت، بالفعل، كائناً بشرياً، لكنّ الابن، الذي لا يُعْقَل تجسّده، قد مرّ عبرها كما يمرّ الماء عبر أنبوب، أو ربّما دخلها عبر إحدى أذنيها. فعلت، عندئذ همهمات احتجاج، وصاح الكثيرون «بولُسيّ! بوغوميلي!»، للاحتجاجِ بأنّ المتكلّم قد استلهم عقيدة

هرطوقية - ولذلك طُرِدَ من الهيكل. ثالث قال إنّ من تألّم على الصليب كان هو السيريني، الذي حلّ محلّ يسوع في اللحظة الأخيرة، غير أنّ الآخرين لفتوه إلى أنّ استبدال شخص بآخر يفترض أولاً وجود هذا الشخص الذي تمّ استبداله. كلاّ، أجابهم المتكلّم، فالشخص المستَبْدَل كان هو يسوع بوصفه طيفاً، والذي لكونه طيفاً ما كان ليتألم، ومن دون ألم ما من فِداء. علت أصوات احتجاج أخرى لأنّ هذا المتكلّم يؤكّد بقوله إنّ البشرية قد افتديت بآلام ذاك السيريني البائس. وذكّر رابع بأنّ الكلمة الذي هو الله نزل في جسد يسوع في هيئة يمامة لحظة عَمَادِهِ في نهر الأردن، ولكن على هذا النحو يسود خلط والتباس بين الكلمة الذي هو الله وبين الروح القدس، وهذا الجسد المستباح لم يكن طيفاً - إذاً لِمَ يكون البليميون، وبحقّ، متأوّلين مزاجيين؟

سأل الشاعر وقد لفته النقاش: «ولكن إذا لم يكن الابن غير المتجسّد سوى طيف، لِمَ نطقَ، في كرم الزيتون، بنفس كئيبة وصدرٍ يضيق، ولِمَ تأوّه فوق الصليب؟ فأيّ طيف إلهي قد يتوجّس من مسامير سوف تدقّ في جسمه الذي هو شفافية خالصة؟ أكان ذلك مجرّد تمثيل من قبل ممثّل فاشل؟» قال هذا وفي ظنّه أنّه بذلك يستميل إليه، برهافة ذكائه وتوقه للمعرفة، قلب المرأة البليمية التي راح يحدّق بها، غير أنّ ما جرى لم يكن في الحسبان. لقد علت أصوات المصلين جميعاً صائحةً مردّدة: «حِرم! حِرم!»، فأدرك أصحابنا أنّ الوقت قد حان ليغادروا ذلك المجلس الموقّر. وعلى هذا النحو أخفق الشاعر، نظير إفراطه في الدقّة اللاهوتية، في إشباع نزواته البدنية المحتدمة.

في الوقت الذي كان باودولينو والمسيحيون الآخرون ينصرفون فيه إلى مثل هذه التمارين الروحيّة، كان سليمان يستجوب أهل بندابتزيم، فرداً فرداً، متقصياً أي خبر عن الأسباط المفقودة. فقد أنبأه حديث غافاغاي عن أحبار اليهود، في اليوم الأول للقائهم، بأنّه يتبعُ أثراً مجدياً. ولكن إمّا

أن المسوخ، بمختلف أعراقهم، لا يعرفون شيئاً عن ذلك، حقاً، وإمّا أنّ التداول في المسألة محرّمٌ في نظرهم، فلم يحظَ منهم بأي دليل. آخر الأمر، اهتدى إلى خصيّ قال له إنّ الروايات، بلى، ذكرت أنّ جماعات من اليهود مرّوا بمملكة الراهب جان، وكان ذلك منذ قرون سحيقة، لكنّهم عقدوا العزم بعد ذلك على متابعة طريقهم، ربّما خوفاً من أن يعرّضهم غزو الهُنْس البيض المحتمل إلى شتاتٍ آخر، والله وحده يعلم إلى أين ذهبوا أو أين حلّوا. لكنّ سليمان خَلُصَ إلى أنّ الخصيّ كاذب، ولبث منتظراً أوان رحيلهم إلى المملكة: فهناك سيعثر، بالتأكيد، على أهل ملّته.

كان غافاغاي يحاول أحياناً أن يهديهم إلى سواء التفكير وسبلِه. الآبُ هو الكمال الأكمل من بين ما أمكن وجوده، ولا يقارن بما نحن عليه، وشتّان أن يقارن بما نحن عليه، أليس كذلك؟ وبالتالي كيف يمكن له أن يكون انجبَ ابناً؟ البشر ينجبون أولاداً لكي يدوموا عبر نسلهم ويحيوا فيه، حتّى في الزمن الذي لن يشهدوه لأنّ الموتَ انتقاهم قبل حلوله. غير أنّ الله الذي يحتاج إلى إنجاب ابن لن يكون كاملاً منذ دهر الدهور. وإذا وجدَ الابن منذ الأزل مع الآب، بما هو صنو جوهره الإلهي أو طبيعته الإلهية، إذا شئتم (وهنا بدا غافاغاي مشوّشاً ومرتبكاً في استخدامه عبارات يونانية على غرار ousiã hyposthasiš physis و hyposopon التي لم يستطع حتّى باودولينو إدراكَ معانيها) نجد أنفسنا أمام حالة لا يقبلها عقل، ومفادها أنّ إلهاً، غير المولود تعريفاً، هو مولود منذ أبد الدهر. إذاً كلمة الله الذي ينجبه الآب لكي يعنى بخلاص البشر ليس من جوهر الآب: إنّه مولود فيما بعد، قبل العالم بالتأكيد، وفائقٌ كلّ مخلوق آخر، لكنّه، بالتأكيد أيضاً، أدنى من الآب. المسيح ليس قوة الله، قال غافاغاي بإصرار، من المؤكّد أنّه ليس قوّة ما من دون تعلّق كالجرادة، لا بل أكثر من ذلك، إنّه قوة عظمى، لكنه مولود أوّل وليس غير مولود.

«أي أنّكم ترون، سأله باودولينو قائلاً، إنّ الابن قد تمّ تبنيه من قبل الآب، وهو، تالياً، ليس الله؟

– لا، غير أنّ هو بالغ قداسة، كما هو شمّاس بالغ قداسة وابن تبنّي للراهب. إذا كان صحيحاً لراهب لماذا لا يكون صحيحاً لله؟ أنا يعلم أنّ شاعر يسأل بليمي لماذا إذا يسوع طيف هو خاف في كرم زيتون ويبكي على صليب. بليمي تفكير باطل لا يعرف جواب. يسوع ليس طيف بل ابن الله تبني، وابن تبني لا يعرف كل شيء مثل أبيه. هل يفهم أنت؟ ابن ليس omoousios، من ذاتِ جوهر آب، بل omoiusios، من جوهر مشابه لكن ليس هو نفسه. نحن عندنا ليس هرطوقي مثل منشقين: هم يؤمن أنّ كلمة الله ليس حتى شبيه آب، بل اختلاف. لكن حسن الحظ ليس منشق في بندابتزيم. هم يفكّر باطل أكثر من جميع.»

ولمّا أردف باودولينو، في معرض سرده هذه الواقعة، قائلاً إنّهم لم يكفّوا عن السؤال عن الفرق بين omooussios و omoiusios، وعمّا إذا كان بالإمكان اختزال الله بمفردتين ضئيلتين، تبسّم نيسيتاس: «هناك فرق، هناك فرق. مما لا شكّ فيه أنّ هذه السجالات قد أصبحت منسية، عندكم في الغرب، ولكنّها، في إمبراطوريتنا، نحن الروم، استمرّت لفترة طويلة، وهناك أناس طاولهم الحِرم، أو كُفّروا أو حتّى قتلوا من أجل فروق من هذا القبيل. ما يدهشني هو أنّ هذه السجالات التي طاولها القمع عندنا منذ أمد بعيد، ما زالت محتدمة في تلك البلاد التي تحدّثني عنها.»

ثمّ قال في سرّه: ما زلت أخشى أن تكون روايات هذا الباودولينو مجرّد خرافات، غير أنّ شبه بربريّ على شاكلته، ترعرع بين الألمان والميلانيين، ويميّز بصعوبة بين الثالوث الأقدس والقديس شارلمان، لا يستطيع أن يعلم بمثل هذه الأمور إلاّ إذا سمعها فعلاً هناك. أو لعلّه سمعها في مكان آخر؟

بين وقتٍ وآخر كان أصحابنا يتلقون دعوة إلى مائدة العشاء المقزّزة

في دارة براكسياس. ولا بدّ أنّ أثر البورق كان قوياً عليهم ذات مأدبة من تلك المآدب، فصرّحوا بأمور غير لائقة لا يجوز أن تصدر عن ملوك مجوس، ومع ذلك لم يغيّر هذا الأمر شيئاً في موقف براكسياس الذي بات متآلفاً معهم ويجاريهم في ما يفعلون. هكذا قال لهم ذات ليلة، وكان ثملاً مثلهم: «يا أسيادي وضيوفي الأعزّاء، لقد فكّرت ملياً في كلّ كلمةٍ نطقتم بها منذ مجيئكم، وأيقنت أنّكم لم تؤكّدوا يوماً بأنّكم المجوس الذين كنا ننتظر قدومهم. أنا ما زلت أعتقد أنّكم هم، ولكن إذا اتضح، وأقول إذا، أنّكم لستم المجوس، فليس ذنبكم أنّ الجميع يؤمنون بأنكم هم. وبأية حال، اسمحوا لي أن أخاطبكم كأخ لكم. لقد شهدتم كم تبدو بندابتزيم بؤرةً للهرطقات والبدع، وكم هي شاقة سيطرتنا على هؤلاء الرعاع المسوخ، من جهة بسبب ما يثيره الهُنس البيض من ذعر، ومن جهة أخرى بسبب الدور الذي نؤديه كمعبّرين عن مشيئة وكلام الراهب جان الذي لم يروه، هم، قطّ. ولا بدّ أنّكم لاحظتم الدور الذي يؤديه شمّاسنا الفتي. فإذا كان لنا نحن، الخصيان، أن نستند إلى دعم المجوس و سلطانهم المعنوي، فمن المؤكّد أن نفوذنا سيتعاظم. إنّه يتعاظم ويتوطّد هنا، لكنّه قد يمتدّ... إلى هناك.

- إلى مملكة الراهب؟ سأل الشاعر.

- إن تمكّنتم من الوصول إليها، فسوف يعترف بكم كأسياد شرعيين. أنتم لكي تصلوا إلى هناك تحتاجون إلينا، ونحن، نحتاج إليكم هنا. نحن جنس غريب، لا كالمسوخ، في الأسفل، الذين يتناسلون وفق شرائع الجسد. نصبح خصياناً لأنّ الخصيان الآخرين اختارونا، وجعلونا على ما نحن عليه. ففي ما يحسبه الكثيرون مأساة نحن نشعر بأننا موحدون في أسرة فريدة، وأقول نحن مع خصيان آخرين يتولون أماكن أخرى، ونحن نعلم أنّ من بينهم أصحاب نفوذ هائل في الغرب البعيد، لكي لا نذكر عدداً كبيراً من ممالك أخرى في بلاد الهند وفي إفريقيا. يكفي أن نتمكّن، انطلاقاً من مركز قوة عظمى، من استمالة أخوتنا في

أنحاء الأرض بأسرها إلى تحالف سرّي، فنكون بذلك قد أنشأنا أوسع الإمبراطوريات قاطبةً. إمبراطورية لا يقدر أحد أن يغزوها أو أن يدمّرها، لأنّها لن تقوم على أرض وجيش، بل على شبكة من المصالح المتبادلة. وأنتم ستكونون رمز سلطاننا وضمانه.»

في اليوم التالي التقى براكسياس باودولينو وأسرّ إليه باعتقاده أنّه أفرط، خلال الليلة الفائتة، بكلام قبيح وعبثيّ، لم يخطر بباله يوماً. ورجاه أن يغفر له وينسى كلّ ما قاله. وغادره مردّداً: «أرجوك، تذكّر أن تنساه».

«براهب أو من دون راهب، قال الشاعر معلّقاً، في اليوم نفسه، براكسياس يقدّم لنا مملكة على طبق من فضّة.

- هل جننت، أجابه باودولينو، لدينا مهمّة لننجزها ولقد أقسمنا على ذلك أمام فردريك.

- فردريك مات»، أجاب الشاعر بخشونة.

كان باودولينو غالباً ما يذهب، بإذنٍ من الخصيان، لزيارة الشمّاس. لقد أصبحا صديقين، وكان باودولينو يروي له وقائع تدمير ميلانو، وتشييد الإسكندرية، وطرق تسلّق الأسوار أو ما ينبغي فعله لإحراق أبراج المحاصرين النقّالة أو مجانيقهم. وكان باودولينو ليقسم بأنّ عيني الشمّاس كانتا تلمعان بالإثارة لدى سماعه تلك الروايات على الرغم من احتجاب وجهه. بعد ذلك كان باودولينو يطلب من الشمّاس أن يحكي له عن السجالات اللاهوتية المحتدمة في مقاطعته، فيتراءى له أنّ إجابة الشمّاس تتخلّلها ابتسامة كئيبة. «مملكة الراهب، كان يقول، قديمة جداً، وكانت كلّ الفِرَق الدينية التي نُبِذَت من العالم المسيحي بأسره، على مرّ العهود، تجد فيها ملاذاً آمناً.» وكان واضحاً أنّ بيزنطية التي لا يعرف عنها إلاّ القليل، هي، أيضاً، غرب أقصى. «لم يشأ الراهب أن يرغمَ المنفيين إلى مملكته على التخلّي عن معتقداتهم، فأدّى تبشير عدد منهم إلى استمالة

الأعراق المختلفة المقيمة على أرض المملكة. ففي جوهر المسألة ما أهمية أن يعرف المرء كيف هو حقاً الثالوث الأقدس؟ يكفي أنّ هؤلاء الناس يتبعون تعاليم الإنجيل، ولن تكون جهنّم هي مآلهم فقط لأنهم يعتقدون أنّ الروح القدس ينبثق فقط من الآب. إنّهم أقوام صالحون، ولا بدّ أنّك تبينت ذلك من تلقاء نفسك، ويؤلمني جداً يقيني أنّهم سيهلكون جميعاً في صدّهم لغزوة الهُنُس البيض. أنتَ تدرك الآن أنّه ما بقي أبي على قيد الحياة، سوف أحكم مملكة الموشكين-على-الموت. ولكن ربّما متُّ أنا أولاً.

– ما هذا الكلام يا سيّدي؟ من صوتك ومن مكانتك كراهبٍ مقبل، أعلم جيّداً أنّك لست مسنّاً.» فهزّ الشمّاس رأسه. إذ ذاك حاول باودولينو، لكي يسرّي عنه، أن يضحكه سارداً على مسامعه مآثره الخاصّة ومآثر الآخرين لمّا كانوا، بعد، طلاب علم في باريس.، غير أنّه سرعان ما أيقن أنّه بذلك يستثير في فؤاد ذاك الرجل رغبات جامحة مشوبة بالحنق العارم لعجزه عن إشباعها. المهمّ أنّ ما سعى إليه باودولينو، كان يفضح حقيقة ما هو عليه وما كانه، غافلاً عن كونه أحد الملوك المجوس. لكنّ الشمّاس ما عاد، هو أيضاً، يعير هذا الأمر اهتماماً، ولمّح إلى أنّه لم يؤمن يوماً بأولاء المجوس الأحد عشر، وإنّما اكتفى بترداد الدرس الذي اقترحه عليه الخصيان.

حيال قنوطه البديهيّ لشعوره بأنّه مستثنى من المباهج التي يوفّرها الصبا لسائر الخلق، حاول باودولينو، ذات يوم، أن يقنعه بأنّ المرء قد يكون مفعم الفؤاد بالحبّ حتّى لحبيبة بعيدة المنال، وحكى له عن عشقه لامرأة من عليّة القوم والرسائل التي كان يكتبها لها. فراح الشمّاس يستفسر عن الأمر بصوت مستثار، ثمّ استرسل في ما يشبه عويل حيوان جريح: «كلّ شيء محرّم عليّ، يا باودولينو، حتّى الحبّ الذي لا يكون إلاّ في الأحلام. آهِ لو تدري كم أودّ الركوبَ على رأس جيش مستشعراً شميم الريح والدماء. أوليسَ أجدر بالفتى ألف مرّة أن يموت في معركة وهو

يردّد اسم الحبيبة من البقاء في هذا الغار منتظراً... ماذا؟ ربّما لا شيء...

- ولكن يا سيّدي، أجابه باودولينو قائلاً، أنتَ المقدَّر له أن يتولّى إمبراطورية عظيمة، وذات يوم - أطال الله في عمر أبيك - سوف تغادر هذا الغار، ولن تعود بندابتزيم سوى مقاطعة نائية وقصية من بين مقاطعات ملكك.

- ذات يوم سوف أصبح... وذات يوم سوف أفعل... تمتم الشمّاس قائلاً. من عساه يضمن ذلك؟ أوتدري يا باودولينو، إنّ ألمي الدفين، وليغفر الله لي هذا الشكّ الذي يعتمل في صدري، هو ألاّ يكون هناك مملكة البتّة. من الذي أخبرني أنها موجودة؟ الخصيان، ومنذ طفولتي. وأمام من يمثل الرسل الذين يوفدونهم هم، وهم وحدهم، إلى أبي؟ أمامهم هم، أمام الخصيان. ما الذي يؤكّد أنّ هؤلاء الرسل قد ذهبوا فعلاً إلى هناك؟ وهل عادوا حقاً من هناك؟ هل هم موجودون حقاً؟ هل وجدوا ذات يوم؟ لا شيء يبلغني إلاّ من طريق الخصيان وفقط بواسطتهم. فماذا لو كان كلّ شيء، المقاطعة، وربّما الكون بأسره، ليس سوى مؤامرة دبّرها الخصيان الذين يهزئون بي كما قد يهزئون بأي نوبيّ أو وحيد ساق؟ وماذا لو كان الهُنْس البيض لا وجود لهم أيضاً؟ البشر جميعاً يحتاجون إلى إيمان راسخ وعميق للاعتقاد بخالق السماوات والأرض وبأسرار ديانتنا المقدّسة، المستغلقة، أحياناً، على الإدراك، حتّى لو تعارضت مع أحكام العقل. غير أنّ فرض الاعتقاد بهذا الإله المستعصي إدراكه أقلّ مشقّةً بما لا يقاس مما يفرض عليّ أنا، وهو الاعتقاد فقط بما يقوله الخصيان.

- لا يا سيّدي، لا، يا صديقي، راح باودولينو يردّد قائلاً للتخفيف عنه، إنّ مملكة أبيك موجودة لأني سمعت عنها لا عن لسان الخصيان بالتأكيد، بل عن لسان أشخاص آمنوا بوجودها. الإيمان بالأشياء يجعلها حقيقة. لقد آمن أهل مدينتي بمدينةٍ جديدة من شأنها أن تثير الذعر في روع إمبراطور عظيم، وقد نشأت المدينة فعلاً لأنّهم، هم، أرادوا أن

يؤمنوا بنشأتها. ومملكة الراهب هي حقيقة لأننا، أنا ورفاقي، صرفنا ثلثي أعمارنا في البحث عنها.

– من يدري، قال الشمّاس، فربّما لن أراها أنا، حتّى لو كانت موجودة فعلاً.

– حسناً، كفاكَ الآن، قال له باودولينو، ذات يوم. خشيتك ألاّ تكون المملكة موجودة، وريثما تتاح لك رؤيتها تغرق نفسك في سقامٍ لا نهاية له قد يودي بك إلى الهلاك. الحقيقة هي أنّك لست مديناً بشيءٍ لا للخصيان ولا للراهب. هم الذين اختاروك، كنتَ طفلاً رضيعاً في حضنِ أمّك وما كنتَ تستطيع أنتَ أن تختارهم. أتودّ فعلاً حياة مليئة بالمغامرة والأمجاد؟ هيّا، اذهب، امتطِ أحد جيادنا واذهب إلى فلسطين حيث مسيحيون شجعان يقاتلون المسلمين. صِر البطل الذي تودّ أن تكونه، فقصور الأرض المقدّسة تعجّ بأميراتٍ قد يهبنَ حياتهنّ من أجل ابتسامة منك.

– وهل سبق لك أن رأيت ابتسامتي؟» سأله الشمّاس عندئذ. وبحركة مباغتة من يده نزع الحجاب عن وجهه، فتراءى لباودولينو قناعٌ شبحيّ بشفتين متآكلتين تنفرجان عن لثّتين متهرئتين وأسنانٍ نَخِرة مسوّسة. وبدا الوجه مقرّن البشرة وقد تقشّرت في مواضع منه فظهر اللحمُ زهرياً مقيتاً. أمّا العينان فباديتان من خلل الأجفان الغُمْص المقروضة، فيما الجبين فجرحٌ عريض واحد. كان طويل الشعر ولحيةٌ قليلة الشعر ومفلوقة تكسو ما تبقّى من ذقنه. ثمّ خلعَ الشمّاس قفّازيه، فبدت يدان هزيلتان مكسوتان بدمامل داكنة.

«إنّه الجذام، يا باودولينو، الجذام الذي لا يغفر لا لملوك هذه الأرض ولا لعظمائها. مُذ بلغتُ العشرين من عمري وأنا أحمل معي هذا السرّ الذي يجهله شعبي. طلبت من الخصيان أن يبعثوا لأبي من ينبئه بأني لن أحيا لأخلفه فليسارع إلى اختيار وريث آخر – أو فليبلّغه أحد بأني متّ، فأقصد مكاناً يعيش فيه أمثالي متخفياً بعيداً عن الأنظار. لكن

الخصيان يقولون إنّ أبي يريد أن أبقى. وأنا لا أصدّق ما يقولون. ذلك أنّ وجود شمّاس ضعيف أمر يستغلّه الخصيان لصالحهم، فلربّما متّ، وإذ ذاك يحتفظون بجثّتي محنّطة في هذا الغار، ويحكمون باسمها. وربّما حلّ أحدهم محلّي في حال وفاة الراهب، ولن يقدر أحد على الزعم بأنّه ليس أنا، لأنّ لا أحد هنا رأى وجهي من قبل، وفي المملكة لم يعرفني أحد إلاّ رضيعاً. لهذا كلّه، يا باودولينو، تجدني مستسلماً للموت سأماً، أنا من نخره الموت حتّى العظام. لن أكون يوماً فارساً، ولن أكون عاشقاً. حتّى أنتَ، لمّا رأيت وجهي، رجعتَ القهقرى، من دون أن تدري، ثلاث خطوات. ولا بدّ أنك لاحظت كيف يقف براكسياس، إذا أراد أن يكلّمني، على بعد خمس خطواتٍ في الأقلّ. وكما ترى إنّ الشخصين الوحيدين اللذين يجرؤان على البقاء بقربي، هما هذان الخصيّان المحتجبان، الفتيّان مثلي، والمصابان بمثل علّتي، ويستطيعان أن يلمسا الأشياء التي ألمسها من دون مجازفة. دعني أغطي وجهي مجدداً، فلربّما مجدداً لم تجدني غير جدير بعطفك، إنْ عزّت صداقتك.»

«كنت أحاول جاهداً أن أجد كلاماً يعزّيه، يا سيّد نيسيتاس، فلم أجد. ولبثتُ صامتاً. ثمّ قلت له إنّ من بين الفرسان المندفعين لاقتحام مدينة، لا ريبَ عندي بأنّه البطل الحقيقي لصبره على مصابه بهذا القدر من التكتّم والكرامة. فشكرني، وطلب منّي، في ذلك اليوم، أن أنصرف. غير أنّ الأسى الذي انتابني حيال مصير ذلك الفتى زاد في عاطفتي نحوه، ومنذها رحت أزوره كلّ يوم، فأسرد عليه ما حصّلته من قراءاتي السابقة، والنقاشات التي دارت في البلاط، كما رحتُ أصف له الأماكن التي زرتها، من راتيسبون إلى باريس، ومن فيينا إلى بيزنطية، ثمّ قونيه وأرمينيا، والشعوب التي صادفناها خلال رحلتنا. كان مقدّراً له أن يموت من دون أن يرى شيئاً ما عدا جحور بنداتزيم الصخرية، أمّا أنا فكنتُ أحاول أن أبثّ فيه الحياة من خلال ما أسرده. اختلقت أشياء كثيرة

بالتأكيد، فحدّثته عن مدن لم أزرها يوماً، عن معارك لم أخضها، عن أميراتٍ لم أعرفهنّ. وصفت له عجائب الأرض التي تغرب فيها الشمس. وجعلته يستمتع بألوان الغروب على ضفّة البروبونتس، وانعكاس اللازورد على مجاري البندقية، وبالعيش في وديان إيبيرنيا، في أقصى شمال الأرض، حيث سبع كنائس بيضٍ تنتصب على ضفاف بحيرة ساكنة، وسط قطعانِ الخراف ذات الصوف الأبيض أيضاً، ووصفت له كيف تبقى جبال الألب البيرينية مكسوة على الدوام بمادة ناصعة ليّنة تستحيل في الشتاء شلالات مهيبة قبل أن تتفرّع أنهاراً وجداول جارية عبر السفوح المشجّرة بأشجار الكستناء الباذخة، ووصفت له صحارى الملح التي تمتدّ عند سواحل أبوليا، وكم ارتعد خوفاً عندما حدّثته عن بحارٍ لم أبحر في مياهها، حيث تتقافز أسماك بحجم العجول لكنّها وديعة وقد يمتطيها البشر من غير مشقّة، ورويت له وقائع رحلة القديس براندان إلى جزر السعد وكيف حلّ، ذات يوم، ظناً منه أنّه اهتدى إلى يابسةٍ في عرض البحر، على ظهر حوت، وهو سمكة بمثل ضخامة جبل، قادرة على ابتلاع سفينة بأكملها، وإذ ذاك كان عليّ أن أشرح له ما هي السفن، أسماك من خشب تمخر العباب بأجنحة بيضٍ، وعددت له الحيوانات العجيبة في بلادي، الأيل الذي له قرنان كبيران على شكل صليب، اللَقْلَق الذي يطير من أرض إلى أرض ويُعنى بمنجبيه المسنّين فيحملهم على ظهره عبر السماوات، والدعسوقة الشبيهة بنبتة فطر، حمراء ومرقّطة بلون فاتح، والسحلية التي تشبه التمساح لكنّها من ضآلة الحجم بحيث تعبر من تحت الأبواب، والقيقب الذي يضع بيوضه في أعشاش طيور أخرى، والبومة الصمعاء ذات العينين المستديرتين اللتين تبدوان كسراجين في عتمة الليل، والتي تقتات من زيت سُرُج الكنائس، والقنفذ، وهو حيوان ذو ظهر مكسوّ بالشوك يمتصّ حليب الأبقار، والمحار، وهو علبة حيّة الذي ينتج أحياناً تحفةً ميتة لكنّها لا تقدر بثمن، والعندليب الذي يسهر الليل مغرّداً ويحيا متعبّداً للزهرة، والكَرْكَند، وهو مسخٌ مدرَّق ذو حمرة باهرة يفرّ القهقرى

أمام الصيّادين الذين يستسيغون لحمه، والأنْقَليس، أفعى المياه المرعبة ذات الطعم المميز واللذيذ، والنورس الذي يحوم فوق الماء كأنّه أحد ملائكة الربّ، لكنّه يطلق أصواتاً حادّة كشيطان، والشحرور، وهو طير اسود ذو منقار أصفر يتكلّم مثلنا، نمّام يردّد ما أسرّ به صاحبه، والتّمّ الذي يمخر بجلال مياه بحيرة وينشد قبيل الموت لحناً آيةً في العذوبة، وابن عرس الرشيق كحسناء، والصقر الذي ينقضّ كالسهم على فريسته ويحملها إلى الفارس الذي ربّاه. تخيّلت وهج الاحجار الكريمة التي لم يرها يوماً - وما رأيتها أنا أيضاً -، ورُقَش المُوْرَّهة الأرجوانية واللبنية، والعروق البيض والبنفسجية لبعض أحجار مصر، بياض الأزْخَلْق، شفافية البلّور، روعة الماس، ثمّ امتدحت له بريق الذهب، وهو المعدن الطري الذي قد يقولب على شكل وريقات رقيقة، نشيش النصل المحمّى على النار عندما يُغطّس في الماء، الذخائر التي لا تخطر ببال والتي نجدها بين كنوز الأديرة الكبرى، وكم هي عالية ومسنّنة أبراج كنائسنا، وكم هي مرتفعة ومستقيمة أعمدة الهيبودروم في القسطنطينية، وتلك الكتب التي يقرأها اليهود المزخرفة بعلامات كأنّها حشرات، وأي أصوات يصدرون حين يقرأونها، وكيف تلقّى ملك مسيحي من أحد الخلفاء المسلمين ديكاً من حديد يصيح من تلقائه عند طلوع الشمس، وما هي الكرة التي تدور وهي تنفث بخاراً، وكيف تحرق مرايا أرخميدس، وكم هي مرعبة رؤية طاحونة هواء أثناء الليل، ثمّ حكيت له عن الغرادال، والفرسان الذين لم يكفّوا عن البحث عنها في بروتاني، والتي سنسلّمها إلى أبيه فور وصول زوسيمس. وإذ تراءى لي أنّ كلّ هذه الروائع كانت تفتنه لكنّها تحزنه في الوقت نفسه لاستحالة بلوغها، ارتأيت أنّه ربّما كان من المستحسن، لكي أقنعه بأنّ مصابه ليس هو الأشدّ بين مصائب الناس، أن أحكي له العذاب الذي لقيه أندروميكس مرفقاً بتفاصيل تفوق بفظاعتها ما أصابه منها فعلاً، ومذبحة أهل كريما، الأسرى الذين جدعت أنوفهم وأيديهم وآذانهم، وجعلتُ ماثلاً أمام ناظريه وصفَ الأمراض التي لا توصف والتي يبدو

الجذام إزاءها مرضاً ثانوياً لا يستحق الالتفات، ووصفت له كم هي فظيعة كلّ الفظاعة أمراض من قبيل التهاب العُقَد السُلّي، والتهاب الجلد والرَّقْص الزِّنجي، وحرقة القديس أنطوان، ولدغة الرتيلاء، والجرب الذي يدعوك إلى حكّ جلدك سفطةً سفطة، ومفعول سمّ الصلّ الوبائي، عذاب القديسة أغاتا التي انتزع ثدياها، وعذاب القديسة لوسيا التي انتزعت عيناها، وعذاب القديس سيباستيان الذي رميَ بالنبال، والقديس إتيان الذي شجّ رأسه بالأحجار والقديس لوران الذي شويَ على نار خفيفة، واختلقتُ عدداً آخر من القديسين وعدداً آخر من الفظائع كالقديس سارابيون الذي سُلِخَ جلده وهو حيّ، والقديس موبسويت الذي أوثقت أطرافه الأربع بأربع أفراس هائجة فقطّعته أربعة أشلاء، والقديس دراكونتزي الذي أرغم على ابتلاع القار الغالي... تراءى لي أنّ تعداد كل هذه الفظائع كان من شأنه أن يشعره ببعض العزاء، ثمّ ساورتني خشية أن أكون قد غاليت قليلاً أو كثيراً فانتقلت إلى وصف روائع العالم الأخرى، والتي يكون ذكرها أحياناً عزاء السجين، قوام الحسناوات الباريسيات، الفتنة الكسولة لغواني البندقية، القرمزيّ الذي لا يضاهى في بشرة إمبراطورة، ضحكة كولندرينا الطفولية، عينا أميرة بعيدة. كان يشعر بالإثارة فيطلب أن أحكي له المزيد، يريد أن يعرف كيف هو شعر مليسنده كونتيسة طرابلس، وشفاه تلك الحسناوات الفاتنات اللواتي فَتنَّ فرسان بروسيلنده أكثر مما افتتنوا بالغرادال. كان الكلام يستثير شبقاً كامناً فيه؛ وليغفر لي الله، ولكن تراءى لي أنّه انتصبَ مرةً أو اثنتين وأبدى نشوة من يُنْزِلُ ماءه. كما أني حاولت أن أعرّفه على ما يحتويه هذا الكون من التوابل ذات النكهات المثيرة، ولأني لم أكن أحمل منها شيئاً، كنت أحاول أن أتذكّر أسماء ما عرفته منها، وأسماء ما لم أعرفه منها إلاّ بالإسم، لاعتقادي بأنّ أسماءها سوف تسكره كما روائحها، وعدّدت له الملبثرة، وصمغ جاوة واللُبان والناردين واللخنيس والسندروس والكافور والصندل والزعفران والزنجبيل والهال وسنط العنبر والزادوير والغار والمردقوش والكزبرة والشِبث وبقلة التنين

والفلفل القرنفلي والسمسم والخشخاش وجوز الطيب والأترُجية والكُركُم والكمّون. كان الشمّاس يصغي وهو على وشك الإغماء، يتحسّس وجهه وكأنّ أنفه البائس لا طاقة له على احتمال كلّ هذه الروائح، ويسأل نفسه، منتحباً، عمّا قدمه له الخصيان اللئام من الطعام حتّى يومه، متذرّعين بمرضه، سوى لبن الماعز والخبز المبلل بالبورق، زاعمين أنّه مفيد للجذام، فيقضي أيامه مخبولاً بفعل الخمرة، نائماً معظم الوقت وفي فمه ذاك الطعم الوحيد، يوماً بعد يوم.

- كنت تستعجل موته بحثّه على الهيجان الأقصى وتلف كلّ حواسّه. أمّا أنت فكنت تشبع ميولك لاختلاق القصص، وكنت فخوراً بما ابتكرته منها.

- بالتأكيد، ولكنّي جعلته سعيداً لما تبقّى له من الحياة. ثمّ إني أحكي لك ما دار بيننا من أحاديث كأنّها جرت كلّها في يوم واحد، لكنّي في الأثناء شعرتُ بأنّ شعلة جديدة تتقد في أعماقي، وكنت أحيا في حال من النشوة المتصلة التي حاولت أن أنقلها إليه، واهباً إياه، تحت غطاء زائف، بعضاً من كياني. كنت في الأثناء قد التقيت هيباسي.»

32

باودولينو يرى سيّدة بصحبةِ فارِن

قبل ذلك، جرت حكاية جيش المسوخ، يا سيّد نيسيتاس. إذ تعاظمت حال الذعر من الهُوْن البيض، وازداد القلق بشأنها أكثر من ذي قبل، ذلك أنّ وحيد ساق عادَ ذات يوم، بعد توغّله حتّى التخوم القصوى للمقاطعة (فمثل تلك المخلوقات يهوى العدو إلى ما لا نهاية، وكأنّ إرادتها منوطة بمزاج أقدامها التي لا تكلّ عن العدو)، قائلاً إنّه رآهم: كانوا، بحسب روايته، صُفر السُحَنِ، بشوارب طويلة جداً، وقامات رَبْعَة مائلة إلى القصر. وكانوا يمتطون جياداً صغيرة الأحجام مثلهم، لكنّها سريعة العدو، فبدوا معاً ككتلة واحدة. كانوا يجوبون الصحارى والسهوب لا يحملون معهم، إلى أسلحتهم، سوى قارورة من الجلد تحتوي لبناً حليباً ومقلاة فخّار لطهو الطعام الذي يصادفونه في طريقهم، غير أنّهم قادرون على السير أياماً متتالية من دون طعام أو شراب. وكانوا هاجموا قافلة خليفة ما، بعبيدها وجواريها وجمالها بعد أن حطّت رحالها الفخمة. فاندفع محاربو الخليفة لصدّ الهُوْن، وكانوا على قدر كبير من الوسامة وهيبة القوام، رجالاً جسيمين ينطلقون على ظهور جمالهم شاهرين سيوفاً ملتويةً مخيفة. حيال ذاك الاندفاع المتهوّر، تظاهر الهُوْن بالانكفاءِ مستدرجين مطارديهم في أعقابهم، ثمّ شكّلوا حلقة وراحوا يدورون حول أعدائهم، مطلقين صيحاتٍ ضارية حتّى أبادوهم. وعمدوا بعد ذلك إلى

غزو مربض الخيام وذبحوا كلّ الأحياء فيه - نساء وخدماً، جميعهم من دون استثناء حتّى الأطفال من بينهم -، مخلّفين وراءهم ناجياً وحيداً ليكون شاهداً على المقتلة. ثمّ أحرقوا الخيامَ وتابعوا طريقهم مترفّعين عن سلب المغانم أو نهبها، أمارةً على أنّهم يعمدون إلى التدمير طلباً لذيوع الصيت في أرجاء العالم: فحيث يمرّون لا ينبت العشب ثانيةً؛ وفي أية معركة مقبلة سيستبدّ الذعر بضحاياهم ويشلّهم عن الحركة. قد يكون وحيد الساق احتسى البورق حتّى الثمالة فتهيّأت له الوقائع كما رواها، ولكن من يستطيع الجزم بأنّ أقواله حقيقةٌ أو مختلقة؟ كان الخوف سائداً على بندابتزيم، نستشعره مبثوثاً في الهواء، وفي الأصوات الخفيضة الهامسة التي اعتمدها الناس في إشاعة الخبر من شخص إلى أخر كأنّ الغزاة باتوا قادرين، لقربهم، على سماعها. عندئذٍ قرّر الشاعر أن يفكّر جدياً بالعروض التي قدّمها براكسياس وإنْ حرُفت، في حينه، بهذرِ ثملٍ لا يعي جيداً ما يقول. فانتحى به جانباً وقال له إنّ الهُوْن البيض باتوا على الأبواب فمن هو القادر على صدّهم؟ النوبيون، طبعاً، وهم توّاقون للتضحية بأنفسهم، ولكن ماذا بعد ذلك؟ فما عدا الأقزام البيغمي الذين يجيدون استخدام القوس والنبال ضدّ طيور الكركيّ، هل سيقاتل وحيدو الساق عزّلاً، وهل سيهاجم الخفّان بأحاليل منتصبة، فيما يبعَثُ بالبلالسان لاستكشاف المواقع المتقدّمة ثمّ يعودون ليخبرونا بما رأوا؟ على الرغم من ذلك، باستغلالنا قدرات كلّ منهم، قد يُشكّل، من حثالة المسوخ هؤلاء، جيشٌ لا يستهان بقوّته. وإذا كان هناك من يستطيع القيام بهذه المهمّة، فإنّه، بالتأكيد، هو، أي الشاعر.

- يحقّ للقائد المظفّر أن يطمعَ بالتاج الإمبراطوري. أو هذا ما حصل مراراً في بلدنا، بيزنطية.

- كانت تلك عبارات صديقي. وسرعان ما حظي بموافقة الخصيان. برأيي، ما كان الشاعر وجيشه يشكّلان خطراً ما بقي السلم قائماً، أمّا إذا اندلعت الحرب فمن شأنه، على الأقل، أن يؤخّر دخول أولئك الموتورين

إلى المدينة، متيحاً لهم مهلةً كافية لاجتياز الجبال. ثمّ إنّ تشكيل الجيش كان كفيلاً بإبقاء الرعايا في حالٍ من اليقظة المنصاعة، وهذا، من دون شكّ، هو الأمر الذي طالما سعى الخصيان وراءه.»

باودولينو الذي طالما استفظع الحروب، رجاهم أن يبقوه خارج مخطّطهم. أمّا الآخرون فأبدوا استعداداً للمشاركة. فارتأى الشاعر أنّ الإسكندريين الخمسة من شأنهم أن يبلوا بلاءً حسناً كقادة فِرَق، نظراً لخبرتهم التي اكتسبوها إبّان حصار مدينتهم، وخاصةً أنّهم كانوا من بين المُحَاصَرين. كما وَثِقَ بأرظروني الذي يستطيع تدريب المسوخ على بناء بعض آلات الحرب. ولم يقلّل من شأن الدور الذي قد يؤديه سليمان: فالجيش، كان يقول، يجب أن يضويَ في صفوفه رجلاً خبيراً في الطبّ، فلا حربَ من دون إصابات. وفي آخر الأمر، قرّر الاستعانة أيضاً ببورون وكيوت، برغم كونهما، برأيه، شارديْ الفكر على الدوام، لأنّ من شأنهما أن يؤديا دوراً في خطّته، ذلك أنهما، بوصفهما متأدبين، يستطيعان تولي قيود الجيش، ومراقبة الإمدادات، والسهر على توفير ما يحتاجه المحاربون.

ثمّ عكف على التدقيق مليّاً بطبيعةِ وحسنات كلّ عرق من تلك الأعراق المختلفة. ولم يكن قراره معقّداً أو شاقاً بشأن النوبيين والبيغمي، ويكفي أن يتخذ قراراً حول المواقع التي سيوزّعون عليها استعداداً لأي معركة محتملة. ونظراً للسرعة الفائقة التي يتميّز بها وحيدو الساق، ارتأى أن يتمّ استخدامهم كسرية اقتحام، على أن يتمكّنوا من الاقتراب من العدو متسلّلين بسرعة بين أجمات السرخس والأعشاب البرية، آخذين ذوي السحن الصفرِ والشوارب الكثّة على حين غرّة. وكان يكفي أن يدرّبوا على استخدام السبطانة، أو الناسور أو القصبة، كما اقترح أرظروني، فهذه أدوات يسهل صنعها نظراً لكون المنطقة غنية بحقول القصب. وحبّذا لو يعثر لنا سليمان على سمّ زعاف نغمّس فيه السهام من دون تلكّؤ ذاكَ أنّ الحربَ هي الحرب. فأجاب سليمان أنّ شعبه صمدَ، في عهد مساده، في

وجه الرومان، لأنّ اليهود ليسوا ممّن يديرون الخدّ الأيسر أو الأيمن مكتوفي الأيدي، كما قد يظنّ الوثنيون.

أمكن استخدام العمالقة على نحو مفيد، ليس للتصدّي من مواقع بعيدة، بسبب العين الوحيدة التي يملكونها، بل لموقعة التحام ربّما طرأت بُعَيد الهجوم المباغت الذي سينفذه وحيدو الساق. ونظراً لطول قامتهم فإنهم سيتمكنون من السيطرة على خيول الهُوْن البيض، فيعترضونها بضربة من قبضتهم على خطمها ثمّ يمسكونها من عرفها ويهزّونها بعنف حتى يسقط فارسها عنها فيعاجلونه بركلةٍ من قدمهم التي هي، قياساً بطول قامتهم، أضخم مرّتين من قدم وحيد الساق.

بيد أنّهم احتاروا في ما قد يفعله البليميون والخفّان والأذن العملاقة. فاقترح أرظروني أن يستخدم الأذن العملاقة، نظراً لما حبتهم الطبيعة من وفرة في اتساعِ الأذن، للتحليق عالياً في سماء المعركة. إذا كانت الطيور تحلّق مرفرفةً بجناحيها فما من سبب يحول دون تحليق الأذن العملاقة مرفرفين بآذانهم، قال بورون مصادقاً على اقتراح أرظروني، ولحسن الطالع، أردف قائلاً، أنّهم لن يحلّقوا في الفراغ. لذا تمّ الاتفاق على إبقاء الأذن العملاقة بمثابة قوة احتياط لن تتدخّل إلاّ بعد اجتياز الهُوْن البيض الدفاعات الأولى ودخولهم إلى المدينة. عندئذ سيكمن لهم الأذن العملاقة من أعلى المكامن الصخرية وينقضّون عليهم تقتيلاً وذبحاً شريطة أن يتمّ تدريبهم على استعمال السكّين حتّى لو كان من سَبَج. أمّا البليميون فمن غير الوارد إطلاقاً أن يوضعوا في الصفوف الأمامية لأنّهم سيضطرون، لكي تتاح لهم الرؤية، إلى تعريض جذوعهم بأكملها وهو أمر، في منطق الحروب، يساوي الانتحار المحتوم. مع العلم أنهم إذا شكّلوا، بشيء من الدراية، في خطّ هجوم، فسوف يبلون بلاءً حسناً، لأنّ الهُوْن الأبيض اعتادَ (بحسب ما يقال) التصويب على الرأس، وعندما يرى أمامه عدواً بلا رأس فسوف يرتبك للوهلة الأولى. وعلى البليميين أن ينتهزوا وهلة الارتباك تلك للارتماءِ تحت الخيول وضربها بفؤوس حجرية.

كان الخفّان هم نقطة الضعف في خطّة الشاعر العسكرية، إذ كيف يُدفَعُ إلى ساحة القتال بأناسٍ لهم أحاليل عند بطونهم ولدى أوّل صدمة تتأذّى الخصيتان فيرتمون أرضاً مستنجدين بأمّهاتهم لشدّة الألم؟ ومع ذلك تراءى لهم أنّهم يصلحون لأعمال الاستطلاع، إذ تبيّن لهم أنّ ذاك الإحليل يؤدّي الوظيفة نفسها التي يؤديها الزباني لدى بعض الحشرات، والذي ينتصبّ ويبدأ بالاهتزاز لدى التقاطه أي ذبذباتٍ في الهواء أو في الطبيعة. بإمكاهم إذاً أن يضطلعوا بمهام المخبرين في استطلاع المواقع المتقدّمة، وما همَّ إنْ كانوا أوّل من سوف يتعرّضون للذبح، كان يقول الشاعر، فالحرب هي الحرب ولا محلّ فيها للشفقة المسيحية.

أمّا بشأن البلالسان، فكان الميل في البداية لأن يتركوا لمصيرهم، فنظراً لما يبدونه من عصيان وتمرّدٍ على القواعد والأعراف، لن يكونوا سوى مصدر متاعب لقائدهم وليس للعدو الذي يجبهونه. ثمّ قرّ الرأي على الاستعانة بهم في الخطوط الخلفية، ولو اضطروا في سبيل ذلك إلى سوقهم بالسياط، لكي يعينوا سليمان ومعه الأصغر سناً من بين الخصيان، على إسعاف الجرحى، والسهر على سلامة النساء والأطفال من الأعراق كافّة والتثبّت من بقائهم في جحورهم.

كان غافاغاي أثناء لقائهم الأوّل قد أتى على ذكر الساتير-الذين-لا-يُرون-قطّ، وارتأى الشاعر أنّ بإمكان هؤلاء أن ينطحوا بقرونهم وأن يقفزوا كالمعز على حوافرهم المشقوقة، غير أنّه لم يحظَ بإجابة واضحة حين سأل عنهم. إنّهم يعيشون في أعالي الجبل، ما وراء البحيرة (أيّ بحيرة؟) ولم يرهم أحد من قبل. على الرغم من أنّهم خاضعون، بحسب العرف، لسلطان الراهب، فإنّهم مستقلّون في عيشهم كجماعة ولا يخالطون الآخرين أو يتعاملون معهم، فكانوا إذاً كأنّهم غير موجودين. لا بأس، قال الشاعر، ثمّ قد تكون قرونهم ملتوية وأطرافها بارزة إلى الداخل أو الخارج، ولكي ينطحوا عليهم أن ينتصبوا على القائمتين الخلفيتين معرّضين أنفسهم لسهام الأعداء، أو ربّما على الأربع، فدعكَ

منهم، لن نخوض حرباً بجيش من الماعز.

«الحرب تخاض حتّى بجيش من الماعز»، قال أرظروني. وحكى قصّة قائد عظيم كان قد ربط سُرُجاً بقرون معزٍ ودفَعَ، ليلاً، بآلاف منها دفعة واحدة عبر السهب الذي يتقدّم الأعداء عبره، لكي يوهمهم بأنّ المدافعين يشكلون جيشاً جرّاراً. ولو كانت لديه معز بستة قرون لكان وَقْعْ خدعته كبيراً بما لا يقاس. «شريطة أن يصل الأعداء أثناء الليل» أجاب الشاعر مشكّكاً في جدوى خطّة مماثلة. ولكن ربّما عمد أرظروني إلى جمع بعض المعز وإعداد بعض السُرُج، فالاحتياط واجب.

بدأت التدريبات مستلهمة مبادئ مجهولة للمدعوين فيجيس وفرونتين. كان السهل مكتظّاً بوحيدي الساق الذين يتدرّبون على النفخ في نواسيرهم أو قصباتهم الحديثة الصنع، وعلى رأسهم البورتشيلي الذي يكيل الشتائم كلّما أخطأوا الهدف، ولحسن طالعه أنّه كان يكتفي بالتجديف باسم المسيح، وفي نظر أولئك الهراطقة ليس التجديف باسم من لم يكن سوى ابن بالتبنّي، بخطيئة. فيما انصرف كولندرينو إلى تدريب الأذن العملاقة على الطيران، وهو أمر لم يسبق لهم أن زاولوه، ولكنّ من يراهم يحسب أنّ الله ما خلقهم إلاّ ليطيروا. لم يكن السير في مسالك بندابتزيم وسبلها آمناً لأنّ سالكها لا يعلم متى يسقط عليه أذن عملاقة من أعالي السماء، غير أنّ الناس جميعاً اعتادوا فكرة الاستعداد للحرب وما كان لأحد منهم أن يشكو أو يتبرّم. وكان أسعدهم قاطبة هم الأذن العملاقة وبدوا مذهولين لاكتشاف قدراتهم العجيبة بحيث أراد أطفالهم ونساؤهم الانضمام إلى التدريبات، فرحّب الشاعر بالأمرِ طوعاً.

كان السكاكاباروتزي يتولّى تدريب العمالقة على اعتراض الخيول والتقاطها، غير أنّ الخيول الوحيدة المتوافرة كانت خيول الملوك المجوس، وإثر تمرينين أو ثلاثة كادت تسلم روحها لخالقها، ما اضطرّهم إلى استبدالها، خلال التدريبات، بالحمير. وكان أداء الحمير أفضل في هذا المجال لأنّها كانت ترفس ناهقةً واتضح أنّ الإمساك بها من عنقها

أصعب بكثير من التقاط جواد أثناء عدوه. وهكذا أصبح العمالقة بارعين في هذا المجال. ولكن كان يتعيّن عليهم ايضاً أن يتعلّموا العدوَ وظهورهم منحنية عبر غمار السرخسيات، كيلا يرصدهم العدو، فكان الكثبرون منهم يشكون من آلام الظهر إثر التدريبات.

البويدي تولّى تدريب الأقزام البيغمين لأنّ الهُوْن الأبيض ليس طير كركيّ، وينبغي التصويب إلى ما بين العينين. ولم يبذل الشاعر جهداً كبيراً في إقناع النوبيين وتعبئتهم من أجل المعركة، فهم لا يتوقون إلى أمرٍ أكثر من توقهم إلى الموت، فيما انهمك سليمان في البحث عن موادّ سامة كان يختبرها برأس حربة، فمرّةً تؤدي الإصابة إلى تخدير أرنب لبضع دقائق، ومرّة أخرى تحمل دجاجة على الطيران. لا بأس، كان الشاعر يقول، فالهُوْن الأبيض الذي ينام ما تستغرقه صلاة المائدة من الوقت، أو الذي يرفرف بذراعيه، هو، في آخر المطاف، هُوْنٌ ميت، فلنتابع.

كان الكوتيكا، من جهته، يشقى في تدريب البليميين على الانزلاق تحت جوادٍ ثمّ بقره بضربة فأس، غير أنّ السعي لتنفيذ ذلك باستخدام الحمير كان يبدو مهمّة عسيرة. أمّا الخفّان، فنظراً لكونهم جزءاً من خدمات التموين والإمداد، فقد أنيط تمرينهم بكلّ من بورون وكيوت.

في الأثناء كان باودولينو قد أطلع الشمّاس على حقيقة ما يجري، فبدا أنّ الفتى قد عاد، فجأة، إلى الحياة. وطلب على الفور أن يأذن له الخصيان بمغادرة محبسه ليلقى نظرة على الاستعدادات الجارية، ولمّا رافقوه إلى قُرص السلالم الخارجية، شهدَ، من أعلى، تدريبات الجيش. قال إنّه يريد أن يتدرّب على امتطاء جواد لكي يسير في طليعة رعاياه، غير أنّه سرعان ما ألمت به وعكة، لانفعاله المفرط من دون ريب، فأعاده الخصيان إلى عرشه لكي يستأنفَ تَلَفَ بدنه.

كانت المدينة تشهد تلك الأيّام العصيبة عندما سأل باودولينو، بدافع الفضول المحض وشيء من السأم، عن المكان الذي قد يكون الساتير-

الذين-لا-يُرون-قط مقيمين فيه. راح يسأل الجميع، حتّى أنّه استفسر أحد الخفّان الذين لم يتوصّل إلى فكّ طلاسم لغتهم. فأجابه المخلوق بما يلي: «Prug frest frinss sorgdmand strochdt drhds pag brlelang gravot chavygny rusth pkalhdrcg»، ولم يفقه باودولينو منه شيئاً. حتّى غافاغاي بقي كلامه غامضاً حول هذا الأمر وغير محدّد. هناك، قال، وأشار بإصبعه إلى سلسلة من الهضاب المائلة إلى زرقة فاتحة، لجهة الغرب، ومن ورائها تلوح قمم جبال شاهقة، ولكن لم يذهب أحد من قبل إلى هناك، لأنّ الساتير لا يحبّون الدخلاء. «كيف يفكّر الساتير؟» سأل باودولينو، فأجاب غافاغاي بأنّهم يفكّرون أسوأ من الجميع، لأنهم يؤمنون بأنّ الخطيئة الأصلية لم تقترف يوماً. والبشر لم يصبحوا فانين على أثر تلك الخطيئة، لأنّهم كانوا سيصبحون فانين بأية حال حتّى لو لم يأكل آدم التفّاحة. وبالتالي لا حاجة إلى الفداء المخلّص، وكلّ بشريّ يستطيع أن يحقّق خلاصه بصلاح إرادته. فحكاية يسوع برمّتها لم تكن مفيدة إلاّ باقتراحها علينا مثلاً صالحاً للحياة الفاضلة، فقط لا غير. «تقريباً كالهراطقة الذين يزعمون أن يسوع ليس سوى نبي.»

وعندما سأله لِمَ لم يذهب أحد إلى بلد الساتير قط، أجاب غافاغاي بأنّ أسفلَ هضاب الساتير هناك غابة بقربها بحيرة محظور على الناس أن يقتربوا منها لأنّها مأهولة بعرقٍ من النساء الشرسات والوثنيات جميعهنّ. الخصيان يقولون إنّ المسيحي الصالح لا يذهب إلى هناك لأنّه إذا فعل تعرّض لشرور مؤذية، ولذلك امتنع الجميع عن الذهاب. غير أنّ غافاغاي المرائي كان يصف الدرب المؤدية إليها بدقّة توحي للسامع بأنّه هو، وربّما سواه من أبناء جنسه، قد تسلّل ذات يوم، أثناء تجواله الذي لا يهدأ، إلى تلك المنطقة مدفوعاً بفضوله.

كان ذلك كفيلاً بإثارة فضول باودولينو. هكذا، تحيّن انصراف الجميع عنه فامتطى حصانه، وفي أقلّ من ساعتين من السير اجتاز منبسطاً فسيحاً من الأجمات وبلغَ أطراف الغابة. ربط لجام حصانه بجذع شجرة

وتوغّل في ذلك الدغل المورق المعطّر. متعثراً بالجذور التي برزت سوية الأرض، متلمّساً أنواعاً عملاقة من الفطر المتعدد الألوان، تمكّن أخيراً من بلوغ ضفّة بحيرة تنتصب وراءها سفوح هضاب الساتير. كان ذلك قبيل المغيب إذ راحت مياه البحيرة البالغة العذوبة تميل إلى الدكنة، عاكسةً ظلال عدد من أشجار السرو الباسقة التي تحوطها. كان صمتٌ مطبق يسود المكان، لا يعكّر سكونه حتّى تغريد طير.

بينما كان باودولينو ساهياً، مستغرقاً في التأمّل على ضفاف مرآة المياه تلك، لفته، خارجاً من كنف الغابة، حيوانٌ لم ير مثيلاً له من قبل، لكنّه يعرفه جيّداً. كان يشبه مهر حصان، أبيضَ ناصع البياض، رشيق الحركة ليّنها. على خطمه البديع التكوين، عند أعلى الجبين، برز له قرنٌ، أبيض هو أيضاً، ومنقوش على نحو لولبي، وله طرفٌ مسنّن. كان ذاك هو القارِن، أو كما درج باودولينو في صغره، على تسميته بوحيد القرن، أي ذي القرن الواحد، أو وحيد قرن تهيؤاته الصبيانية. لبثَ محملقاً به، حابساً أنفاسه، وإذا بخيال امرأة يظهر وراء القارِن من بين الأشجار.

مسلّحة برمح، ومشتملة بثوب طويل تبرز من خلاله استدارة ثدييها الناهدين، راحت تسير بخطىً متهادية، فيما ثوبها يلامس العشب الذي يزيّن ضفاف البحيرة، كأنّها تتنقل محلّقة فوق الأرض. كان شعرها طويلاً، حريرياً أشقر، مسبلاً حتّى وركيها، ولها قوامٌ صافٍ، كأنّه نُحِتَ من عاجٍ نفيس. وبشرتها مخضّبة بما يشبه الورد، ووجهها الملائكي ذاك ملتفتاً نَحو البحيرة في وقفةٍ جمّدها صمتُ الحجر. كان القارن يحمحم برفق من حولها، رافعاً، أحياناً، خطمه ذا المنخرين المهتزين ليحظى منها بلمسة.

كان باودولينو يحدّقُ، مغتبطاً.

«قد تقول في سرّك يا سيّد نيسيتاس، أنني منذ بداية الرحلة لم أرَ

امرأةً جديرة بهذا الاسم. ولكن لا يغرنّك هذا الظنّ: لم يكن الأمر، بالنسبة لي، باعث رغبة، بل كان شعوراً من التعبّد الصافي، ليس حيالها هي وحسب، بل أيضاً حيال الحيوان، والبحيرة الساكنة، والجبال، وضوء ذلك النهار الغارب. كنت أشعر بأني داخل معبد.»

كان باودولينو يبحث عن الكلمات متلعثماً، كي يصفَ رؤياه - لكنّ مثل هذا الوصف بدا مستحيلاً.

«أقصد، أنّ الكمال قد يتراءى، في لحظاتٍ معيّنة، في راحة يد أو في وجه، في تدرّج اللون على سفح هضبةٍ أو على صفحةِ بحر، لحظات يتوقّف قلبك فيها عن الخفقان إزاء مرآة الجمال... بدت لي تلك المخلوقة في تلك اللحظة في هيئة طير مائي فاتن، حيناً في هيئة مالك الحزين، وحيناً في هيئة بجعة. ذكرت لك أن شعرها كان أشقر، لا، فعندما كانت تحرّك رأسها قليلاً كان يتلوّن أحياناً بلون اللازورد، وأحياناً أخرى يبدو كأنّه توشّى بنار خابية. كان نحرها يتراءى لي جانبياً، رقيقاً رهيفاً كصدر يمامة. صرتُ بصراً بحتاً. كنت أرى شيئاً قديماً، لأني كنت أعلم أني لا أرى شيئاً جميلاً بل الجمال عينه بما هو خاطرة إلهية مقدّسة. وأدرك أنّ الكمال، إن لمحته مرّة، مرّة واحدة، هو الخفّة والرشاقة في شيء ما. كنت أرى ذلك الوجه من بعيد، غير أني كنت أعلم أنّ لا سطوة لي على تلك الصورة، كما يحدث حين تتقدّم في السنّ، ويبدو لك أنّك تميّز العلامات الواضحة على رقّ، لكنك تعلم أنك حالما تقترب منها سوف تختلط وتتداخل وأنك أبداً لن تقدر أن تقرأ السرّ الذي كان الرقّ يعدك به - أو كما في الأحلام، عندما يتراءى لك شيء تريده فتمدّ يدك وتحرّك أصابعك في الفراغ لكنّك لا تقبض على شيء.

- أحسدك على هذا الافتتان.

- لكي لا أبدّده، صرتُ تمثالاً.»

33

باودولينو يلتقي هيباسي

غير أنّ الافتتان ما لبثَ أن تبدّد. فعلى غرار مخلوقات الغابة، سرعان ما استشعرت الحسناء وجودَ باودولينو والتفتت نحوه. لم تبد خائفةً، وإنما ارتسمت على محيّاها امارات الدهشة.

خاطبته باليونانية قائلة: «ولكن من أنتَ؟» ولمّا لبث صامتاً، اقتربت منه بجرأة، ورمقته بنظرات فاحصة، من دون خشية أو مكر، وكانت عيناها أيضاً، كشعرها، تبرقان بألوان متغيّرة. وكان القارن قد اقترب، هو أيضاً، ولبث لصيقاً بها، حانياً رأسه كأنّه يبقي سلاحه الجميل مستلاً ليحاميَ عن سيّدته.

«أنتَ لستَ من بندابتزيم، أردفت قائلة، أنت لست خصياً ولستَ مسخاً، أنت. . . رجل!» وبدا أنّها تعرف الرجل كما عرف، هو، القارن، لأنّها سمعت عنه كثيراً، لكنّها لم تره من قبل. «أنت جميل، الرجل شيء جميل، هل أستطيع أن ألمسك؟» ومدّت يدها وراحت أصابعها الرقيقة تلامس ذقنه وندبة وجهه، كما فعلت بياتريس ذات يوم بعيد. «هذا أثر جرح، هل أنت رجل ممن يخوضون الحروب؟ وهذا، ما هذا؟

- إنّه سيف، أجاب باودولينو، غير أني أستخدمه لأحمي نفسي من الحيوانات الضارية، لست رجلاً محباً للحرب. أدعى باودولينو، جئتُ من البلاد التي تغرب فيها الشمس، هناك»، وأومأ بيده إيماءة لا تشير إلى أي

جهة. ولاحظ أنّ يده ترتعد. «وأنت، من أنت؟

- أنا هيباسية»، أجابت متبسّمةً لسؤاله الساذج. ثمّ قالت، وقد تذكّرت أنّ المتكلم غريب: «في هذه الغابة، ما وراء تلك الأشجار، نعيش نحن الهيباسيات، وحدنا. ألستَ خائفاً مني على غرار أهل بندابتزيم؟» فكان لباودولينو أن يتبسّم هو هذه المرّة: فهي التي تخشى أن يكون خائفاً منها. «أغالباً ما تقصدين هذا المكان، حيث البحيرة؟» سألها. «ليس غالباً، أجابت الهيباسية، فالأمّ لا تستحسن خروج إحدانا إلى الغابة بمفردها. غير أنّ البحيرة فاتنة، وأكاسيوس يحميني»، وأشارت إلى القارن. ثمّ أردفت قائلةً وقد بدت عليها أمارات القلق: «لقد تأخّر الوقت. لا ينبغي أن أبقى بعيدة كلّ هذا الوقت. كما لا ينبغي لي أن ألتقي أحداً من أهل بندابتزيم إذا غامروا بالمجيء إلى هنا. ولكنّك لست منهم، أنت رجل، ولم يوصني أحد من قبل بالابتعاد عن الرجال.

- سأعود غداً، قال باودولينو مستجمعاً جرأته، ولكن في وضح النهار. فهل سأجدك هنا؟

- لا أدري، قالت الهيباسية باديةَ الارتباك، ربّما.» وما لبثت أن توارت، بخفّة، بين الأشجار.

في تلك الليلة لم يغمض لباودولينو جفن، فهو - كان يردّد في سرّه - قد رأى حلمه، بأية حال، وهو الحلم الذي سيتذكره طيلة حياته. ومع ذلك، عند ظهر اليوم التالي، امتطى حصانه وعاد إلى البحيرة.

لبث هناك منتظراً حتّى المساء، ولم يرَ أحداً. فعاد أدراجه، قانطاً، وصادفَ، عند أطراف المدينة، نفراً من وحيدي الساق يتدرّبون على استعمال الناسور. وكان في عدادهم غافاغاي الذي قال له: «أنتَ ينظر!» وصوّب قصبته نحو الفضاء ونفخ السهم الذي أصاب طيراً سقط فوراً على مقربة. «أنا محارب عظيم، قال غافاغاي، إذا جاء هُوْن أبيض أغرز أنا فيه!» مذهل قال باودولينو، مذهل، وتابع طريقه مسرعاً ليأوي إلى فراشه.

في تلك الليلة حلم بلقاء الأمس، وعند الصباح قال في سرّه إنّ حلماً واحداً لا يكفي العمرَ كلّه.

عاد مجدداً إلى البحيرة، ولبثَ جالساً بقرب الماء منصتاً إلى تغريد الطيور المحتفية بالصباح، ثمّ صرصرة الزيزان مؤذنة بحلول الظهيرة. لكنّ الجوّ لم يكن حاراً، فالأشجار تشيعُ طراوةً منعشةٍ، ولم يشق عليه انتظار ساعات أخرى. ثمّ ظهرت مجدداً.

جلست بقربه، وقالت له إنها عادت لأنها تريد أن تعرف المزيد عن الرجال. احتار باودولينو كيف يبدأ، وراح يصف لها المكان الذي ولد فيه، والأحداث التي شهدها في بلاط فردريك، وكيف تكون الإمبراطوريات والممالك، وكيف تنظّم رحلات الصيد بواسطة الصقور، وما هي المدن وكيف تشيَّد، أي كلّ الأمور التي حكاها للشمّاس ما عدا الوقائع العنيفة والإباحية، منتبهاً، في سياق سرده، إلى أنّه من الممكن رسم صورة محبّبة للرجال. وكانت هي تصغي فيما عيناها تبرقان بما يعكس مشاعرها الدفينة.

«كم أنتَ حاذقٌ في سرد القصص. هل الرجال جميعهم يسردون قصصاً جميلة كقصصك أنت؟» لا، أقرّ باودولينو قائلاً، فهو بالتأكيد يسرد أكثر وأفضل من بني جنسه، غير أنّ من بين هؤلاء شعراء، يتفوقون عليه في فنون السرد. وراح ينشد إحدى أغنيات عبدول. لم تفقه شيئاً من معاني الكلمات البروفنسية، لكنّها، على غرار الأبكاسيين، افتتنت بالنَغَم. فاغرورقت عيناها.

«ولكن أخبرني، سألت وقد توزّد خدّاها قليلاً، أليس مع الرجال هناك أيضاً... إناثهم؟» قالت ذلك وكأنّها أدركت أن ما أنشده باودولينو لتوّه إنما يخاطب امرأة. طبعاً، أجابها باودولينو، فكما يتزاوج ذكور وحيدي الساق وإناثهم، يتزاوج الرجال والنساء وإلاّ لما أمكنهم إنجاب أولاد، وهذه، أردف قائلاً، سنّة الكون بأسره.

«هذا ليس صحيحاً، قالت الهيباسية ضاحكةً، فالهيباسيات هنّ

هيباسيات فقط، وليس فيهنّ، إذا جاز القول. . . ذَكَرْباسي!» وضحكت مجدداً، وقد راقت لها العبارة التي اشتقّتها. وراح باودولينو يتساءل عمّا عساه يفعل لكي يسمع المزيد من ضحكاتها التي كانت أعذب الأصوات التي سمعها في حياته كلّها. وكاد يسألها كيف تولد الهيباسيات إنْ لم يكن هناك ذكرباسي، لكنّه أحجم خشية أن يخدش حياءها. ومع ذلك شعر بأن لديه الشجاعة الكافية ليسألها عمّن تكون الهيباسيات.

«أوه، إنها حكاية طويلة، وأنا لا أجيد سرد الحكايات مثلك. يجب أن تعلم أنّه منذ آلاف السنين، في مدينة ما نائية وحصينة، كانت تعيش امرأة فاضلة وحكيمة تدعى هيباسي. كانت قد أنشأت مدرسة للفلسفة، التي هي عشق الحكمة. ولكنْ، في تلك المدينة كان يحيا أيضاً رجال أشرار، يدعون مسيحيين، لا يخشون الآلهة ويمقتون الفلسفة، وعلى الأخصّ لا يُطيقون أن تكون امرأة هي التي تنطق بالحقيقة. وذات يوم، قبض هؤلاء على هيباسي وقتلوها بعد أن ساموها عذاباً لا يوصف. غير أنّ عدداً من تلامذتها الحَدِثاتِ نجونَ من هذا المصير ربّما لاعتقاد جلاديها أنّهنّ مجرد فتيات صغيرات جاهلات لم يأتين إلى ذلك المكان إلاّ لخدمتها. فتمكنّ من الفرار، لكنّ المسيحيين كانوا قد أصبحوا في كلّ مكان، وكان عليهم أن يتابعوا أسفارهم لسنوات طويلة قبل أن يهتدوا إلى هذا المكان الآمن. وهنا سعينَ للمحافظة على ما تلقنوه من معلّمتهنّ، غير أنّ ما تلقنّه كنّ قد سمعنه مأثوراً عنها في صغرهنّ، ولم يكنّ حكيمات مثلها ولا يتذكّرنَ كلّ تعاليمها. فصمّمنَ عندها على أن يعشنَ وحدهنّ، في عزلة تامة عن العالم، لكي يتسنّى لهنّ أن يهتدينَ مجدداً إلى ما قالته هيباسي حقاً. ذلك، أنّ الإله خلّفَ أيضاً ظلالاً من الحقيقة في صميم قلوبنا، ولم يكن علينا إلاّ أن ندعها تزهر من جديد، وأن تثمر في ضوء الحكمة، تماماً كما ينزع اللبُّ القشرةَ عنه لكي يغدو ثمرة.»

الإله، الآلهة، الذي إنْ لم يكن إله المسيحيين كان، حتماً، مزيّفاً ودجّالاً. . . فبأي ترهات تلهج هذه الهيباسية؟كان باودولينو يردّد في سرّه

مستهجناً مثل هذا الأمر. ومع ذلك لم يهتمّ كثيراً بما تقول، كان يكفيه أن يصغي إلى صوتها، لا بل باتَ مستعداً للموت من أجل حقيقتها.

«فسّري لي أمراً واحداً، قال لها مقاطعاً. أنتنّ هيباسيات، تيمناً بهيباسي تلك، أفهم ذلك. ولكن ما اسمك أنت؟

– هيباسي.

– لا، أعني أنتِ، ما يميّزك عن الهيباسيات الأخريات... أقصد ما هي أسماء رفيقاتك؟

– هيباسي.

– لكن، أنتِ، عند المساء ستعودين إلى حيث تقيمين، وسوف تلتقين بهيباسية ما قبل الأخريات. فكيف تلقين عليها التحية؟

– أتمنى لها ليلة هانئة. هكذا أحييها.

– أجل، أجل، ولكن أنا حين أعود إلى بندابتزيم وأصادف أحداً، فلنقل إنه أحد الخصيان، فسوف يبادرني بقوله: «عِم مساءً يا باودولينو. وأنت، بالمقابل، سوف تقولين:» عِمي مساءٍ يا... ماذا؟

– إنْ شئتَ أستطيع القول: عِمي مساءً يا هيباسي.

– إذا أنتنّ كلّكن تدعين هيباسي.

– طبيعي أن تدعى الهيباسيات، جميعهنّ، هيباسي، فليس هناك ما يميّز إحدانا عن الأخرى، وإلاّ لم تكن هيباسية.

– ولكن لنفترض أنّ هيباسي ما راحت تبحث عنك، وتحديداً الآن لأنّك لست هناك، فتسأل هيباسي أخرى إذا لمحت تلك الهيباسي التي تسير بصحبة قارن يدعى أكاسيوس، فماذا تقول؟

– تماماً كما قلتَ أنت، إنّها تبحث عن الهيباسي التي تسير بصحبة القارن الذي يدعى أكاسيوس.»

لو كان مثل هذا الجواب صادراً عن غافاغاي، لما توانى باودولينو عن صفعه على الفور. ولكن مع هيباسي بدا الأمر مختلفاً، لا بل راح

باودولينو يفكّر كم كان رائعاً ذلك المكان الذي تدعى فيه كلّ الهيباسيات هيباسي.

«استغرقني الأمر بضعة أيام، يا سيّد نيسيتاس، لكي أدرك من هنّ الهيباسيات حقاً. . .

- ما يعني، على ما يخيّل إلي، أنكما التقيتما مجدداً.

- كل يوم، أو تقريباً كلّ يوم. فأن أغدو عاجزاً عن قضاء يوم واحد من دون أن أراها وأسمعها، أمر قد لا يدعوك إلى العجب، ولكن أن تدرك أنّها هي أيضاً كانت تَسَرّ لرؤيتي الاصغاء إليّ أنا، فذاكَ ما أذهلني وأشعرني بخيلاء لا توصف. كأني. . . كأني عدتُ طفلاً يتوق لثدي أمّه، وعندما تتغيّب الأم يبكي لخشيته من أنّها لن تعود ثانية.

- وهذا ما يجري أيضاً بين الكلب وصاحبه. غير أنّ حكاية الهيباسيات هذه تثير فضولي. ذلك أنّك ربّما تعلم، أو لا تعلم أنّ هيباسي هذه، أو الأصحّ هيباتيا، حقيقة وليست خرافة، وقد عاشت فعلاً، ليس منذ آلاف مؤلّفة من السنين، بل منذ ثمانية قرون تقريباً، في إسكندرية مصر، خلال الفترة التي كان فيها ثيودوسيوس على رأس الإمبراطورية ثمّ خلفه أركاديوس. وكانت، على ما يُروى، إمرأة تتمتع حقاً بقدر كبير من الحكمة، ضليعة بالفلسفة والرياضيات وعلم الفلك، وكان الرجال يؤمنون بتعاليمها. في تلك الحقبة، كانت ديانتنا القدسية قد انتشرت في أرجاء الإمبراطورية كلّها، غير أنّ بعض المرتدّين المتبقين كان يسعى للحفاظ على مبادئ الفلسفات الوثنية، كفلسفة أفلاطون الرائعة، فحسناً ما فعلوا، لأنّهم بذلك نقلوا إلينا، نحن المسيحيين، علمه الذي كان مهدداً بالضياع. ولكنّ أحد عظماء المسيحيين في عصره، وقد طوِّبَ، فيما بعد، كأحد قديسي الكنيسة، ويدعى سيريليوس، الذي اشتهر بتقواه ولكن أيضاً بتشدّده، ارتأى أنّ تعاليم هيباتيا، أو هيباسي، مناقضة لتعاليم الأناجيل، وحرّض ضدّها جمهوراً من المسيحيين الجهلة المستفرسين الذين يجهلون

كلّ شيء عنها وحتّى تعاليمها، لكنّهم باتوا يؤمنون، بشهادة سيريليوس وآخرين، إنها كاذبة ومنحلّة. ربّما كانت ضحية وشاية ما، وإن كان صحيحاً، برأيي، أنّه لا ينبغي للنساء الخوض في المسائل الإلهية. لكي لا أطيل عليك الكلام، ما جرى هو أنّ الحشود الثائرة اقتادتها إلى أحد المعابد، وهناك جرّدت من ثيابها وقتلت ومثّل بجثّتها بواسطة قطع حادة من الزجاج، ثمّ وضعت فوق محرقة... أساطير كثيرة نسجت حولها. فقيل إنها كانت فاتنة الجمال، غير أنّها نذرت نفسها للعفّة فبقيت عذراء. وذات مرّة شغف بحبّها أحد تلامذتها حتّى الجنون، فأتاحت له أن يرى قماشةً عليها دم طمثها قائلةً له إنّ هذا هو فقط مبتغى شغفه هو، وليس الجمال في حدّ ذاته... والحقيقة أن محتوى تعاليمها بقي مجهولاً، لا أحد يعلم ما كان بالضبط. لم يبقَ شيء من مدوّناتها، ومن تلقّن التعاليم شفاهةً منها، إما قتل في تلك الفترة، وإمّا سعى لنسيان ما تعلّمه. كلّ ما نعرفه عنها نقل إلينا من طريق الآباء القديسين الذين أدانوها، غير أنّي، إنْ أردتَ الصدق، أميل، بوصفي مدوّن وقائع وأخبار، إلى تَرْكِ كلّ قول ينسبه الخصم إلى خصمه.»

جرت بينهما لقاءات وأحاديث كثيرة. كانت هيباسي تتكلّم وكان رجاء باودولينو أن يكون معتقدها جامعاً شاملاً لكي يبقى منصتاً. وكانت تجيب، بلا خجل أو تحفّظ، عن كل الأسئلة التي يطرحها باودولينو بسذاجةٍ متعمّدة: فلا شيء محرّماً في عرفها، وكلّ الأمور شفّافةً لا تكتنفها شبهة.

تجرّأ باودولينو أخيراً على طرح السؤال الذي طالما ألحّ عليه: كيف حافظت الهيباسيات، عبر القرون، على بقاء نسلهنّ. فأجابت بأنّ الأمّ تختار، مع حلول الموسم، عدداً منهنّ لغرضِ الانجاب، ثمّ تصحبهنّ إلى المخصبين. ولم يكن كلامها عن هؤلاء واضحاً، فهي، من البديهي أنها لم ترهم من قبل، كما لم ترهم من قبل الهيباسيات اللواتي تمّ اختيارهن

للإخصاب. كنّ يُقتَدنَ، ليلاً، إلى مكان ما، حيث يتجرّعنَ شراباً يسكرنّهنّ ويخدّرهنّ، فيتمّ إخصابهنّ ثمّ يعدنَ إلى ديارهنّ، ومن يصرنَ حوامل منهنّ يلبثن في رعاية رفيقاتهنّ حتّى الوضع: فإذا كان وليدهنّ ذكراً يُعاد إلى المخصبين الذين يربونه لكي يصبح واحداً منهم، وإذا كان المولود أنثى تلبث في رعايتهنّ بوصفها هيباسي.

«إنّ التزاوج من طريق الجسد، كانت هيباسي تقول، على غرار ما تفعل الحيوانات، التي ليس لها روح، ليس سوى وسيلة لتكرار خطأ الخلق. فالهيباسيات اللواتي يُسَقْنَ إلى المخصِبين يتقبّلنَ هذا الهوان لسبب وحيد وهو أننا ينبغي أن نبقى في هذا الوجود لكي نفتدي العالم من ذاك الخطأ. ومن منا تخضع للإخصاب لا تذكر شيئاً من تلك العملية التي، إنْ لم تتمّ بدافع التضحية، لأفسدت فتور مشاعرنا...

- وما هو فتور المشاعر؟

- هو ما به تحيا كلّ هيباسي وتسعد بالعيش به.

- ولِمَ خطأ الخلق؟

- ولكن يا باودولينو، قالت ضاحكةً بدهشةٍ ساذجة، ألديك انطباع بأنّ العالم كامل؟ أنظر هذه الزهرة، رقّة السويقة، أنظر ما يشبه العين هذا ذا المسام الذي يتربّع في وسطها، أنظر البتلات المتساوية فيما بينها، والمقوّسة قليلاً لتستقبل، صباحاً، ماء الندى كأنّها قوقعة، أنظر البهجة التي تبديها في بذلها نفسها لتلك الحشرة التي تمتصّ رحيقها... أليس جميلاً؟

- إنّه جميل حقاً. أحسنتِ، ولكن أليس جميلاً أن يكون هذا جميلاً؟ أليس في ذلك معجزة سماوية؟

- باودولينو، هذه الزهرة سوف تذبل غداً، وبعد غد لن تكون سوى حفنة عفونة. تعالَ معي.» اصطحبته إلى نبتِ الجِراج، وأشارت إلى فطرٍ ذي قبّعة حمراء مزيّحة بتواشيح صفرٍ.

«أهو جميل؟ سألت.

- إنّه جميل.

- إنّه سام. من يأكله يموت. هل تراه كاملاً هذا الخلق الذي يتربّص به الموت؟ أوتعلم أني، أنا أيضاً، سأموت ذات يوم، وأني، أنا أيضاً، كنت لأستحيل حفنةً من العفونة لو لم أكن منذورة لفداء الإله؟

- فداء الإله؟ ولكن قولي...

- لا تقل إنّك، أنت أيضاً، مسيحي يا باودولينو، مثل مسوخ بندابتزيم؟ فالمسيحيون الذين قتلوا هيباسي كانوا يؤمنون بإله جائر خلق العالم ومعه الموت والألم، وما هو أشقى من الألم الجسماني، أي ألم الروح. الكائنات المخلوقة قادرة على الحقد والقتل والتسبّب بإيلام أشباهها من الكائنات. لا تقل إنّك مؤمن بأنّ إله عادل قد يجعل كلّ هذا البؤس مصيراً لأبنائه...

- غير أنّ من يقترف مثل هذا هم البشر الظالمون، والله يجازيهم، فلنخلّص الصالحين.

- في هذه الحال، لِمَ يخلقنا الإله ثمّ يعرّضنا لمخاطر لعنته؟

- ذاك أنّ الله الرحيم هو حرية الإتيان بالخير كما بالشرّ، ولكي ينعم أبناؤه بهذا الخير، على الله أن يقبل بأنّ عدداً منهم سوف يسيء استخدامه.

- لِمَ تقول إنّ الحرية خير؟

- لأنّه إذا انتزعت منك حريتك، وقيِّدْتِ بالأغلال، وإذا حِيْلَ بينك وبين ما تشتهين صنعه، تتألمين، لذلك فإنّ فَقْدَ الحرّية شرّ.

- بإمكانك أن تدير رأسك بمقدارٍ يتيح لك أن ترى ما وراءك، ولكن هل تستطيع أن تديره تماماً بحيث يتاح لك أن ترى ظهرك؟ أبإمكانك أن تغطس في البحيرة وتبقى تحت المياه حتّى المساء، وأقصد تحت الماء، من دون أن ترفع رأسك وتتنشق الهواء؟ كانت تقول ضاحكة.

- لا، لأني في الحالة الأولى أكسر عنقي، وفي الثانية أموت اختناقاً. لقد خلق الله لي تلك الضوابط لكي يمنعني من إيذاء نفسي.

- هذا يعني أنّه سلبك بعض الحريات لما فيه خير لك، أليس كذلك؟

- سلبني إياها كيلا أتألم.

- إذا لِمَ منحك حرية الاختيار بين الخير والشرّ، بحيث تعرّض نفسك، فيما بعد، لعذاب القصاص الأبدي؟

- لقد منحنا الله الحرية لكي نحسن استخدامها. ولكن في الأثناء كان عصيان الملائكة الذي أدخل الشرّ إلى العالم، والحيّة التي أغوت حواء، بحيث صرنا اليوم نعاني جميعاً من الخطيئة الأصلية. ليس الخطأ من الله.

- ومن خلق الملائكة العُصاة والحيّة؟

- الله، طبعاً، ولكن قبل عصيانهم كانوا جميعاً صالحين كما خلقهم.

- إذاً ليسوا، هم، الذين خلقوا الشرّ.

- لا، هم اقترفوه، لكن الشرّ كان موجوداً قبلاً كاحتمالِ عصيان الله.

- إذا الشرّ خلقه الله؟

- يا هيباسي، أنتِ تتمتعين بسرعة البداهة والرهافة والذكاء، وبإمكانك خوض أي جدلٍ بأفضل مما أقدر عليه أنا، برغم ما حصّلته من العلم في باريس، ولكن كفّي عن النطق بمثل هذا الكلام عن الله الرحيم. فلا يُعقَل أن يكون مريداً للشرّ!

- طبعاً لا، فإله مريد للشرّ يكون نقيض الإله.

- إذاً؟

- إذا كان الإله وكان الشرّ بجواره، من دون أن يشاء، كأنّه الجانب المعتم من ذات نفسه.

- لكنّ الله هو الكائن الكامل الكمال!

- بالتأكيد هو كذلك يا باودولينو، الإله هو الأكمل من بين كلّ ما هو كامل، ولكن، آهِ لو تدري، كم عظيمة هي مشقّة أن تكون كاملاً! الآن، سأقول لك يا باودولينو، ما هو الله وما ليس هو.»

كان روعها خلواً من أيّ خشية. قالت: «الله هو الأوحد، وهو على قدر من الكمال بحيث إنّه لا يشبه أيّاً من الأشياء الكائنة وأيّاً من الأشياء غير الكائنة؛ لا يسعك وصفه مستخدماً ذكاءك البشري، كما لو أنّه يغضب إذا كنتَ شريراً أو يعنى بك لطيبة فيه، كما لو أنّ له فماً وأذنين ووجها وجناحين أو كما لو أنه روح، آب أو ابن، حتّى لذات نفسه. وعن الأوحد لا يسعك القول إنّه موجود أو غير موجود، مشتمل على الكلّ لكنّه لاشيء؛ يسعك أن تسمّيه فقط من خلال التباين، لأنّه من غير المجدي أن تسمّيه الحِلْم، الجمال، العلم، اللُطْف، الجبروت، العدل، فبذلك تكون كأنّك سميته الدب، الفهد، الأفعى، التنين أو عنقاء مُغْرِب، لأنّك مهما سمّيتَ عجزتَ عن العبارة عنه. الله ليس بدناً، ليس هيئةً، ليس شكلاً، لا كمّ له، لا كيفَ له، لا وزن ولا انعدام وزن، لا يرى، لا يسمع، لا يعرف التشوّش والاضطراب، ليس روحاً ولا فاهمةً ولا وهماً ولا رأياً ولا فكراً ولا قولاً ولا عدداً ولا نسقاً ولا حجماً، ليس مساواة وليس لامساواة، ليس زمناً وليس أبداً، إنّه مشيئة بلا غاية؛ حاول أن تفهم، يا باودولينو، الله هو سراج بلا شعلة، شعلة بلا نار، نار بلا حرارة، نور معتم، هدير صامت، برق أعمى، ضباب منير جداً، شعاع عتمته الخاصة، دائرة متسعة متضامة على مركزها، كثرة شمسية، هو، هو...» تردّدت قليلاً بحثاً عن مَثَلٍ قد يقنعهما معاً، هي المعلّمة، وهو التلميذ. «إنّه حيز ليس حيّزاً، حيثُ أنتَ وأنا شيء واحد، كما اليوم، في هذا الوقت الذي لا ينقضي.»

لَهَبُ احمرارٍ خفيف خضّبَ وجنتها. صمتت، مذعورةً من المثل المتهافت التي اختارته، ولكن كيف توصف بالمتهافتة أي إضافة، مهما

كانت، على لائحة من المتهافتات؟ شعر باودولينو بحرقة لهبٍ مماثل تخترق صدره، غير أنّ خشيته كانت من حَرَجِها هي، فتصلّب في جلسته جامداً لا يتيح لملمحٍ من وجهه أن يفضح ما يجيش في قلبه، ولا أن يتهدّج صوته، وسألَ بحزمٍ لاهوتي: «ولكن ماذا عن الخلق؟ ماذا عن الشرّ؟»

استعاد وجه هيباسي شحوبه الورديّ: «واضحٌ أنّ الأوحد، بسبب من كماله، يميل، سخيّاً بذاته، إلى بذل نفسه انتثاراً وانتشاراً في دوائر أكثر فأكثر اتساعاً من تمامه الخاص، إنّ مثله مثل شمعةٍ هي ضحية النور الذي تنشره، كلّما أنارت زادت ذوباناً. على هذا النحو، يحيل الله نفسه سائلاً في ظلالِ ذات نفسه، ويغدو جمهرةً من الآلهة الرُسُلِ، دهريين حظوا بقدر من جبروته، ولكن أشدّ وَهَناً. هناك ما لا يحصى من الآلهة والأبالسة والأرخُوْنت والطغاة والقوى والشرارات والكواكب، وأولاء الذين يسميهم المسيحيون ملائكة أو رؤساء ملائكة... لكن لم يخلقهم الأوحد، بل هم تجلٍّ لذاته.

- تجلّ؟

- أترى هذا الطير؟ عاجلاً أم آجلاً سوف ينجب طيراً آخر بوساطة بيضة، كما تنجب هيباسية طفلاً من أحشائها. ولكن المخلوق، بعد أن يولد، سواء كان هيباسية أو طيراً صغيراً، يحيا من أجل ذاته، ويبقى على قيد الحياة حتّى لو ماتت الأمّ. أمّا الآن، فخُذ، بالمقابل، مَثَلَ النار. النار لا تولّد حرارة، بل تبثّها، أو تشيعها. الحرارة هي والنار شيء واحد، إنْ أخمدت النار تزول الحرارة. حرارة النار تكون قوية جداً عند أصل النار، وتخفّ كلّما استحالت النار دخاناً. وهكذا هو الله. كلّما انتشر بعيداً من مركزه المعتم الخاص، يفقد من زخمه، ثمّ يفقد منه المزيد والمزيد حتّى يغدو مادة لزجةً صمّاء، كالشمع الذي ينجم عن ذوبان الشمعة. ما كان الأوحد ليرغب في الانتشار بعيداً من ذاته، غير أنّه لا يستطيع أن يقاوم ذاك التحلّل حتّى التعدد والبلبلة.

- وإلهك ألا يتمكّن من حلّ الشرّ الذي. . . الذي يتشكّل من حوله؟

- أوه بلى، بإمكانه أن يفعل. فالأوحد يسعى، باستمرار، إلى امتصاص ذلك النفث الذي قد يستحيل سمّاً، وخلال سبعين مرّةً سبعة من آلاف السنين، استطاع، باستمرار أن يُدخِلَ في العدمِ تلك النفايات. ولأنّ حياة الله كانت تنفّساً منتظماً، كان ينفخُ من دون جَهد. هكذا، أصغِ.» وراحت تزفر أنفاسها من فمها. «ومع ذلك، لم يتمكّن، ذات يوم، من التحكّم بإحدى قواه الوسيطة، والتي نسميها، نحن، البارئ، والذي ربّما كان السباوث أو الإلداباوث، إله المسيحيين المزيّف. هذا الإله الذي هو تقليدٌ للإله عمدَ، سواء من طريق الخطأ أو الخيلاء أو الحمق، إلى خلقِ الزمن حيث لم يكن من قبل سوى الأبدية. الزمن هو أبدية متلعثمة، أوتدرك ذلك؟ ومع الزمن خلق النار التي تشيع الحرارة لكنّها أيضاً قد تحرق كلّ شيء، والماء، الذي يروي العطش لكنّه يسبب الغرق أيضاً، والتراب الذي يغذي النبات بالطبع، لكنّه قد يستحيل جُرُفاً يطمرها، والهواء الذي يتيح لنا التنفّس لكنّه قد يستحيل إعصاراً. . . لقد أخفق في كلّ شيء، البارئ البائس. صنعَ الشمسَ التي توفّر الضوء لكنّها قد تيبس الحقول، والقمر الذي لا يسود الليل إلاّ لبضعة أيام، ثمّ يتضاءل ويذوي، والأجرام السماوية الأخرى، وهي بديعة لكنّها قد تحدث تأثيراتٍ ضارّة، ثمّ الكائنات التي حُبِيَت بالذكاء غير أنها عاجزة عن إدراك الأسرار الكبرى، والحيوانات التي تارةً تكون أليفة وتارة أخرى مفترسة، والنباتات التي توفر لنا الغذاء لكنّها قصيرة الأعمار، والمعادن، البلا حياة، البلا روح، البلا ذكاء، والمقدّر لها ألاّ ترك شيئاً البتة. كان البارئ مثل طفلٍ يجبل الطين ليحاكي جمال القارِن، ويشكّل منه شيئاً أشبه بجرذ!

- إذاً العالم هو مرض الله؟

- إذا كنتَ كاملاً، لا تستطيع ألاّ أن تزفر، وإذا زفرتَ فأنتَ عليل. ثمّ حاول أن تفهم أنّ الله في كماله هو أيضاً المكان واللامكان، حيث تجتمع المتناقضات، أليس كذلك؟

- المتناقضات؟

- أجل، نحن نشعر بالحرّ والبرد، النور والعتمة، وكل هذه الأشياء هي نقائض بعضها البعض. أحياناً نضيق بالبرد ويبدو لنا سيئاً قياساً بالحرارة، ولكن في أحيان أخرى يسود الحرّ القائظ فنتوق إلى البرد. فحيال المتناقضين نحن الذين نؤمن، بحسب نزواتنا وبحسب هوانا، بأن أحدهما هو الخير والآخر هو الشر. والحال إنّ المتناقضات، في الإله، تنتظم وتهتدي إلى انسجام متبادل. ولكن عندما يبدأ الله بالزفير لا يعود متحكّماً بانسجام المتضادّات، فتتهشّم هذه ويقاتل بعضها بعضاً. فَقَدَ البارئ سيطرته على المتناقضات وخلق عالماً حيث الصمت والصخب، الإيجاب والنفي، والخير ضدّ الخير يتقاتلان. وهذا ما نشعر بأنّه شرّ.»

كانت، لشدّة حماسها، تؤمئ بيديها كطفلة، فإذا أتت على ذكرِ الجرذ أومأت محاكية شكله، وإذا قالت إعصار راحت ترسم دوّامات في الهواء.

«تتكلمين عن خطأ الخلق، يا هيباسي، وعن الشرّ، وكأنّها أمور لا تمسّك أنتِ، وتحيين في هذه الغابة وكأنّ الأشياء كلّها جميلة على صورتك ومثالك.

- ولكن حتّى لو كان الشرّ يأتينا من الله، فلا بدّ، برغم ذلك، أن يكون بعض الخير كامناً في هذا الشرّ ذاته. صدّقني، لأنّك رجل، والرجال ليسوا معتادين النظر في كلّ ما هو كائن على نحو سليم.

- كنت أعلم ذلك، فأنا أيضاً مخطئ بتفكيري.

- لا، المشكلة أنّك تفكر وحسب. وأن تفكّر ليس كافياً، ليس الوسيلة الناجعة. الآن حاول أن تتخيّل نبعاً لا بداية له ويتشعّب إلى ألف نهر، من دون أن ينضب قط. النبع يبقى على الدوام ساكناً، عذباً ورقراقاً، بينما الأنهر تجري في اتجاهات مختلفة، ويعكّر الرمل مياهها، وتتوغّل بين الصخور فتتلجلج حبيسةً، وأحياناً تنضب. هل تعلم أن الأنهر تتألم كثيراً؟ ومع ذلك فإنّ مياه الأنهر وأكثر مساقط المياه تلوّثاً بالوحل،

هي مياه، وتنبع، كما هذه البحيرة، من النبع نفسه. هذه البحيرة تتألّم أقلّ من نهر، لأنّها، بعذوبتها، تذكّر على نحو أفضل بالنبع الذي صدرت عنه، أمّا المستنقع الذي يعجّ بالحشرات فيتألّم أكثر من بحيرة وأكثر من شلاّل. غير أنّها جميعها تتألّم على نحو ما، لأنّها تودّ أن تعود إلى منبعها لكنّها نسيت كيف تكون العودة إليه.»

أمسكت هيباسي بذراع باودولينو، وجعلته يلتفت نحو الغابة. ولمّا التفت اقترب رأسها هي من رأسه، فاشتمّ العطرَ النباتي الذي يفوح من شعرها. «أنظر تلك الشجرة، جذعها يقوى ويصمد أمام كلّ الفصول، بينما تميل الأغصان إلى التقصّف واليباس، والأوراق لا تبقى إلاّ بضعة اشهر ثمّ تتساقط، البراعم تزهر لبضعة أسابيع. هناك شرّ بين الأوراق أكثر منه في الجذع. الشجرة واحدة، لكنّها تعاني من انتشارها وتفرّعها لأنّها بذلك تغدو متعدّدة، وبتعدّدها تضعف.

- لكنّ أوراقها جميلة، وأنتِ بالذات، تتمتعين بفيء...

- أرأيت، يا باودولينو، أنّك أنتَ أيضاً بإمكانك أن تغدو حكيماً؟ لو لم تكن هذه الأغصان لما استطعنا أن نبقى جالسين نتابع أحاديثنا عن الله، ولو لم تكن الغابة لما التقينا، وربّما كان هذا أشرّ الشرور.»

نطقت بتلك العبارة كأنها تنطق بحقيقة بسيطة ومسلّم بها، غير أنّ باودولينو كان يتحسّس، مجدداً، تلك الغُصّة في صدره، ولا يستطيع، أو يريد أن يظهر الرعشة التي ألمّت به.

«إذاً فسّري لي كيف يمكن للمتعدّد أن يكون خيّراً، على نحوِ ما، في الأقلّ، إذا كان كلّ متعدّد هو من مرض الأوحد؟

- أرأيت، يا باودولينو، أنك أنتَ أيضاً بإمكانك أن تكون حكيماً؟ قلتَ: على نحو ما. فعلى الرغمِ من الخطأ، لبِثَ بَعضٌ من الأوحد في كلّ منا، نحن المخلوقات المفكّرة، وفي كلّ من المخلوقات الأخرى أيضاً، من الحيوان إلى الجماد. كلّ ما يحيط بنا مسكون بالآلهة، النبات، البذور، الأزهار، الجذور، الينابيع، فكلّ منها، برغم ألمه لكونه تقليداً

سيئاً لفكرة الله، لا يصبو إلاّ للاتحاد به مجدداً. علينا أن نجد الانسجام في المتناقضات، وعلينا أن نساعد الآلهة، وعلينا أن نحيي هذا القَبَس الإلهي، ذكريات الأوحد هذه، الكامنة في أنفسنا وفي صُلْبِ الأشياء.»

أكثر من مرّة لمّحت هيباسي إلى أنّه لمن الممتع أن تكون بصحبته. ما شجّعَ باودولينو على العودة، مراراً، للقائها.

ذات يوم، شرحت له هيباسي ماذا يصنعن، هنَّ، كي يحيينَ القَبَس الإلهي في كلّ شيء، ذاك أنّهنّ كُنَّ يُحِلنَ، تعاطفاً، إلى شيء أكثر كمالاً منهنَّ، ليس إلى الإله مباشرة، بل إلى مجاليه الأقلّ إنهاكاً. واصطحبته مرّة إلى مرجة معشبة ناحية البحيرة نبت فيها عبّاد الشمس، بينما انتشرت على صفحة البحيرة أزهار اللوتس.

«- أرأيتَ ماذا يفعل دوّار الشمس؟ إنّه يتحرّك متتبعاً وجهة الشمس، إنّه يبحث عنها، يتوسّل إليها، ومن المؤسف، حقاً، أنّك بعدُ لا تحسنُ الإصغاء إلى الحفيف الذي ينشره في الهواء فيما ينجز حركته الدائرية خلال النهار. فلو كنت تحسن الإصغاء لسمعته ينشد للشمس نشيدها. والآن أنظر إلى اللوتس: إنّه يتفتّح مع طلوع الشمس، ويبذل نفسه، طوعاً، للسَمْت وينغلق على ذاته حين تغيب الشمس. إنّه يمجّد الشمس بفتحِ بتلاته وإغلاقها، كما نحن نفتح ونغلق شفاهنا عندما نصلّي. هذه الزهَرات تحيا بتآخٍ مع الكوكب، فهي تحتفظ إذاً ببعض طاقته. إنْ أثّرتَ على الزهرة، أثّرتَ على الشمس، وإن أجدت التأثير على الشمس أمكنك أن تؤثّر على فعلها، وانطلاقاً من الشمس، أمكنك أن تتحد مجدداً بشيء ما يعيش متآخياً مع الشمس، وهو أكثر كمالاً من الشمس. غير أنّ ما يصحّ على الأزهار يصحّ أيضاً على الأحجار والحيوانات. كلّ منها مسكون بإله أصغر يسعى إلى الاتحاد مجدداً، عبر آلهة أشدّ بأساً، بالأصل المشترك. نحن نتعلّم منذ الصغر أن نزاول فنّاً يتيح لنا التأثير في الآلهة الكبرى وإعادة الصلة المفقودة.

- ماذا يعني هذا؟

- إنه أمر بسيط. نتعلّم أن نخلطَ أحجاراً وأعشاباً وروائح، كاملة وإلهية الشكل، لنشكّل... كيف أقول ذلك، كيف... أوعيةً من التآخي من شأنها أن تركّز قوة العديد من العناصر. فالزهرة، الحجر، وحتّى القارن، كلّها حُبِيَت بطابع إلهي غير أنّها لا تستطيع وحدها استدعاء الآلهة الكبرى. لذلك فإنّ الأخلاط التي نصنعها تعيد، بنعمة الفنّ، توليد الجوهر الذي نريد أن نستدعيه، فهي تضاعف أضعافاً طاقة كلّ عنصر.

- وماذا بعد استدعاء هذه الآلهة الكبرى؟

- ليس الاستدعاء سوى البداية. فنحن نتعلّم أن نكون رُسُلاً بين ما هو فوق وما هو تحت، ونبرهن على أنّ المجرى الذي منه يزفر الله، يمكَنُ صعوده في الاتجاه المعاكس، أو بالكاد، غير أننا نثبت للطبيعة بأنّ الأمر ممكن. غير أنّ الواجبَ الأسمى لا يتمثّل في الجمعِ مجدداً بين عبّاد الشمس والشمس، بل في أن نتحد، نحن، بالأصل. وهنا يبدأ التزهّد. إذ نتعلّم أولاً أن نتصرّف بفضيلة، ولا نقتل مخلوقات حيّة، ونسعى إلى نشر الانسجام بين الكائنات التي تحيط بنا، وعلى هذا النحو نتمكّن من إحياء القَبَس الخفيّ في كلّ ناحية. أترى سويقات العشب هذه؟ لقد غدت مصفّرة ومالت على التراب. لكنني أستطيع أن ألمسها لكي تهتزّ بعد، فأشعرها بما نسيته. أنظر إليها، إنها تستعيد، تدريجاً، نضارتها، كما لو أنّها تنبثق، اللحظة، من التراب. غير أنّ هذا وحده لا يكفي. فلكي نحيي هذه النبتة يكفي أن نزاول الفضائل الطبيعية، بلوغ كمال السمع والبصر وصحّة الجسم والذاكرة وسهولة التعلّم ورقّة السلوك، من خلال التطهّر الدائم بالماء، وشعائر الطهور، والابتهالات والصلوات. نتقدّم خطوةً بتوقنا إلى الحكمة والقوة والاعتدال والعدل، فنتوصّل أخيراً إلى اكتساب الفضائل المطهّرة: نحاول عزل الروح عن الجسد، ونتعلّم ذِكْرَ الآلهة - لا نتحدّث عنها، كما جرت العادة مع محبّي الحكمة الآخرين، بل أن نؤثّر فيها، مستنزلين المطر بوساطة كرةٍ سحرية، واضعين التمائم لاجتناب

الزلازل، مختبرين القدرات التنبئية للمناصب، محرّكين الأصنامَ ليكونوا عرّافينا، مستدعين آسكليبيو لشفاء المرضى. ولكن حذارِ، ففي لجوئنا إلى هذه الوسائل ينبغي لنا ألاّ نكون مسكونين بإله، لأننا في حال مماثلة، نتحلّل ونستثار، أي ننأى عن الله. لذا يجب أن نتعلّم كيف نؤدي كلّ ما نؤديه في هدوء مطلق.»

أمسكت هيباسي بيد باودولينو الذي أبقاها ساكنةً لكي لا يتبدّد إحساسه بالدفءِ المنبعث من يدها. «ربّما أوحى كلامي، يا باودولينو، بأني صرتُ في مرحلة متقدّمة من التزهّد على غرار أخواتي اللواتي يكبرنني سناً... ولكن آه لو تعلم كم ما زلتُ غير كاملة. ما زلت أرتبك عندما أضع زهرة في تماسٍ مع الطاقة السامية التي تتآلف معها... ثمّ، كما تلاحظ، ما زلت أكثر في الكلام، وهذه أمارة على أني لم أبلغ الحكمة بعد، ذاك أنّ الفضيلة تكتسب بالصمت. لكنّي أتكلّم لأنّك هنا، أنتَ، وينبغي أن أعلّمك، فإذا كنت أعلّم عبّاد شمس فما الضير في أن أعلّمك أنت؟ إننا نبلغ حالاً أكثر كمالاً عندما نفلح في أن نكون معاً من دون كلام، إذ يكفي أن نلمس أنفسنا فتدرك المغزى أنتَ أيضاً. كما هي الحال مع عبّاد الشمس.» وراحت تلامس دوّار الشمس صامتة. ثمّ صامتة أيضاً راحت تلامس يد باودولينو، واكتفت بقولها أخيراً: «هل تحسّ؟»

في اليوم التالي حدّثته عن الصمت الذي تمارسه الهيباسيات كي يستطيع هو، كما قالت، أن يتعلّمه. «يجب أن يسود صمت مطلق من حولنا. عندئذ نقيم في عزلة نائية إزاء ما نفكّر فيه وما نتخيّله وما نستشعره؛ فنلقى السلام والطمأنينة. لا نعود نشعر لا بالغضب ولا بالرغبة ولا بالألم ولا بالغبطة. نكون قد غادرنا أنفسنا، منخطفاتٍ في حالٍ من العزلة المطلقة والدعة العميقة. ولا نعود ننظر إلى الأشياء الجميلة والصالحة، ، لأننا نكون أصبحنا ما وراء الجمال نفسه، ما وراء جوقة الفضائل، كمن يدخل المعبد مخلّفاً وراءه أصنام الآلهة، فلا تكون رؤياه

من صورِ الله بل من الله نفسه. وعندئذ لا يعود جائزاً لنا أن نستدعي القوى الوسيطة: فبتجاوزها نكون قد انتصرنا على سيئاتها، في هذه العزلة، في هذا المكان المحال والمقدّس، نكون قد بلغنا ما هو أبعد من سلالة الآلهة ومراتب الرسل الدهريين، ولا يبقى فينا، من كلّ هذا، سوى ما يشبه الذكرى لشيء ما شفيناه من شقاء وجوده. هناك تكون نهاية الطريق، التحرّر، والتحلّل من كلّ رابط، ، وفرار من بات وحيداً باتجاه **الوحيد**. وفي هذه العودة إلى البسيط المطلق لا نعود نرى شيئاً، إلاّ جلال الظلمة. هكذا مجرّداتٍ من النفس والعقل، نكون قد بلغنا ما وراء مملكة الروح، وهناك في الأعلى، بإجلالٍ نستريح، كما لو كنّا شمساً تشرق، بمآقٍ مقفلة نستجلي الشمس من النور، ونغدو ناراً، ناراً سوداء في هذا الظلام، وعبر دروب نار نكمل رحلتنا. و وفقط في تلك اللحظة، وبعد أن نكون صعدنا النهر بعكس مجراه، وبرهنّا ليس فقط لأنفسنا بل أيضاً للإله ولله، على أنّ النهر يمكّن صعوده بعكس مجراه، نكون قد شفينا العالم، وأزهقنا الشرّ، وأمتنا الموت، نكون قد حللنا العقدة التي أربكت أصابع البارئ. نحن، يا باودولينو، منذورة مصائرنا لشفاء الله، وبنا أنيط فداؤه: فسوف نعيد، من خلال وَجْدِنا، الخلقَ كلّه إلى قلبِ **الأوحد بالذات**. سوف نمنح **الأوحدَ** القوة على شهيقٍ هائلٍ يتيح له أن يستعيد في ذاته الشرّ الذي بثّه بزفيره.

– هل أنتم تفعلون ذلك، هل فعلت إحداكنّ ذلك؟

– نأمل أن نفلح في ذلك. فنحن، جميعنا، نستعدّ لهذا الأمر منذ قرون من الزمن، بحيث ينجح البعض من بيننا في ما أعددنا له. ما تعلّمناه منذ صغرنا هو أنّه من غير الضروري أن نتوصل جميعنا إلى اجتراح هذه المعجزة: يكفي أن تبلغ إحدانا، المصطفاة، ذات يوم، ولو بعد ألف أخرى من السنين، لحظة الكمال الأسمى، حيث تشعر بأنّها هي وأصلها السحيق لا يشكلان سوى شيء واحد وفريد، فتتم المعجزة. هكذا، ببرهاننا على أنّه انطلاقاً من تعددية العالم الذي يتألم تمكَنُ العودة إلى

الأوحد، نكون قد أعدنا إلى الله السلام والثقة، والقوة لكي يعاود تشكّله في مركزه، والطاقةَ لكي يستعيد انتظام تنفّسه.»

كانت عيناها تلمعان، وسرى فتور في بشرتها وما يشبه الرعدة في يديها، واكتنف الحزن صوتها، وبدت كأنّها تتوسّل إلى باودولينو بأن يؤمن، هو أيضاً، بهذا الوحي. قال باودولينو في سرّه إنه مما لا شكّ فيه بأنّ البارئ ارتكب أخطاءً كثيرة، غير أنّ وجود هذه المخلوقة يجعل العالم مكاناً فاتناً ومشرقاً بكلّ آيات الكمال.

لم يقاوم مشاعره، فسارع إلى الإمساك بيدها ولثمها. فأجفلت كأنّها فوجئت بما لم تختبره من قبل. قالت أولاً: «أنت أيضاً مسكون بإله.» ثمّ غطت وجهها بيديها وسمعها باودولينو تتمتم، مذهولةً: «لقد فقدت. . . لقد فقدت فتور مشاعري. . .»

ثمّ استدارت وهرعت راكضة باتجاه الغابة. لم تنبس بكلمة. ولم تلتفت إلى الوراء.

«لقد أدركت في تلك اللحظة، يا سيّد نيسيتاس، أنني كنت عاشقاً، كما لم أكن يوماً، وأني، مرّة أخرى، أهوى المرأة الوحيدة التي لا يمكن أن تكون لي. فواحدة أبعدها عني سموّ مرتبتها، والأخرى اختطفها بؤس الموت، والآن، الثالثة لا تستطيع أن تكون لي لأنّها منذورة لخلاص الله. غادرتُ مبتعداً، وفي طريق عودتي إلى المدينة رحت أفكّر بأنّه ربّما كان من الأفضل ألاّ أعود ثانيةً إلى ذلك المكان. وفي اليوم التالي، شعرت بارتياح عميق عندما أخبرني براكسياس بأنّ سكان بندبتزيم يعتبرونني الأرفع مكانةً من بين الملوك المجوس، وبأني حظيت بثقة الشماس وأن الشماس يدعوني، أنا، لقيادة ذلك الجيش الذي كان الشاعر منصرفاً، بأية حال، إلى تدريبه أحسن تدريب. لم يكن متاحاً لي التملّص من تلك الدعوة، فأي شرخ في هيبة زمرة المجوس كان من شأنها أن تضعنا في مواقف حرجة إزاء الجميع، خاصة أنّ الجميع باتوا يكرّسون أوقاتهم وبحماسة

كبيرة استعداداً للحرب الوشيكة، فقبلتُ - وكان دافعي إلى القبول أيضاً ألاّ أخيّب آمال وحيدي الساق والأذن العملاقة والبليميين وكلّ الناس الشجعان الآخرين الذين بتّ أشعر بعاطفة صادقة نحوهم. كما أني أقنعت نفسي بأنّ انهماكي بهذه المغامرة الجديدة كفيل بأن ينسيني ما خلّفته في الغابة. انهمكت، خلال يومين، بمهام لا تحصى. ومع ذلك كنت، في انهماكي وبذلي ما أستطيع من جهد، ساهياً، شارد الفكر، يرعبني مجرّد التفكير بأنّ هيباسي قد تكون عادت، في الأثناء، إلى البحيرة، ولمّا لم تجدني ظنّت أنّها أهانتني بفرارها مني، فقرّرتُ ألاّ أراها ثانية. وكانت خشيتي كبيرة أن يكون ما سبّبته لها من اضطراب قد جعلها مصمّمةً على الامتناع عن لقائي. فلو صحّ ما كنت أخشاه ولحقتُ بها، وتتبعتُ أثرها حتّى المكان الذي تقيم فيه الهيباسيات، فماذا كنت سأفعل عندها؟ هل أختطفها وأقوّض الدعة التي يعيشون في كنفها؟هل أفسد براءتها فأقنعها بما لا ينبغي أن تقتنع به؟ أو لا أفعل أياً من هذا، بل أدعها لغبطة المهمّة المنوطة بها وقد باتت طليقة من أسر لحظة الشغفِ الأرضي، الضئيلةِ بما لا يقاس؟ ولكن هل شهدَتْ حقاً تلك اللحظة؟ كنت أستعيد كلّ كلمة نطقت بها، وكلّ حركة من وجهها أو من يدها. لمرّتين ذكرت لقاءنا كمثلٍ في معرض شرحها لما هو الله، ولكن ربّما لم يكن دافعها إلى ذلك سوى أسلوبها الطفولي، والبريء، لإفهامي مضمون كلامها. لمرّتين لمست يدي، ولكن كما كانت تلمس دوّار الشمس. ولمّا لامست يدها بشفتي أجفلت مرتعدة، كنت أعلم ذلك، لكنّه أمر طبيعي: إذ لم يمسّها فمٌ بشري من قبل، وكان ذلك بالنسبة لها كالتعثّر بجذور بارزة وانعدام التوازن الذي طالما لُقّنته ومنذ الصغر؛ لقد انقضى الأمر الآن، وما عاد يخطر لها ببال... كنت أناقش مع رفاقي بعض الخطط الحربية، وكان عليّ أن أقرّر، مثلاً، في أي موقع أضع النوبيين وأنا لا أدري حتّى أين أنا. كان ينبغي أن أبدّد تلك الحيرة، كان ينبغي أن أعلم حقيقة ما آل إليه الأمر بيننا. ولهذا الغرض كان عليّ أن أضع حياتي وحياتها بين يدي وسيط من

شأنه أن يعيد الصلة بيننا. ونظراً لما خبرته من إخلاص غافاغاي، انتحيت به جانباً، وبعد أن أقسم أيماناً معظمة بكتمان السرّ، أطلعته على أقلّ قدر ممكن من الوقائع، ولكن ما يكفي منها لكي يهرع إلى البحيرة وينتظر هناك. وكان وحيد الساق أريحياً ومدبّراً وكتوماً بالفعل. سأل القليل، وأحسب أنّه فهم الكثير، فكان يعود، خلال اليومين التاليين، عند المغيب، ليقول لي إنّه لم يرَ أحداً، ويبدو حزيناً لما يلحظه من شحوب سحنتي وخيبة أملي. في اليوم الثالث جاءني وقد ارتسمت على شفتيه إحدى ابتساماته العريضة التي تشبه هلالاً وقال لي إنّه فيما كان مستلقياً مستفيئاً بمظلّة قدمه، لمح تلك المخلوقة التي ظهرت فجأة. ثمّ اقتربت واثقةً متعجّلة، كأنّها كانت تتوقع أن تجد أحداً هناك. تلقّت الرسالة بتأثر شديد («يبدو أنّه تريد كثيراً أن ترى أنت»، قال غافاغاي بنبرة لا تخلو من المكر) وهي تبلغني، بالمقابل، أنها ستأتي إلى البحيرة كلّ يوم، كلّ يوم. («هي قال مرّتين»). ربّما كانت هي أيضاً، قال غافاغاي بنبرة مراوغة، تنتظر قدوم الملوك المجوس منذ زمن بعيد. كان عليّ أن أمكث في بندابتزيم طيلة اليوم التالي، لكنّي انصرفت إلى أداء واجبي كقائد بحماسة أذهلت الشاعر الذي يعلم جيّداً كم أمقت السلاح والحرب، كما ألهبت همم أفراد جيشي. كنت أشعر بأني سيّد العالم، ولما تردّدت، في ذلك اليوم، من قتال مئةٍ من الهُوْن البيض دونما خشية. وبعد يومين عدتُ مرتعداً من الخوف إلى ذاك المكان القاتل.»

34

باودولينو يكتشف الحبّ الحقيقي

«في غضون أيام الانتظار تلك، لبثْتُ، يا سيّد نيسيتاس، عرضةً لشتّى المشاعر المتناقضة. كنت في أحرّ الشوق للقائها، وفي الوقت نفسه، أخشى ألاّ أراها مجدداً، ويتهيأ لي أنّها تواجه ألفاً من المخاطر المحدقة، ومثل هذا كلّه يوصف بأنّه من مشاعر الحبّ، غير أني ما كنتُ أشعر بالغيرة.

- ألم يخطر لكَ، مثلاً، أن تكون الأمّ قد أرسلتها إلى المُخصِبين؟

- مثل هذا الأمر لم يخطر ببالي على الإطلاق. فلربّما ظننتُ، لشدّة تعلّقي بها، أنّها تعلّقت بي هي أيضاً بالقدر نفسه وأنها، بالتالي، لن تقبل أن يمسّها أحد سواي. لقد فكّرت في الأمر ملياً، بعد ذلك، وأيقنت أنّ الحبّ المثالي لا يترك متّسعاً للغيرة. فالغيرة شكّ وخشية ونميمة بين المحبّ والحبيبة، والقديس يوحنا قال إنّ الحبّ المثالي يبدّد كلَّ خشية. لم أكن أشعر بالغيرة غير أني كنت أسعى، في كلّ لحظة، لأن أستعيد ملامح وجهها في ذهني، فلا أستطيع. كنت أذكر المشاعر التي كانت تنتابني حين أنظر إليها، سوى أني كنت عاجزاً عن تخيّل ملامحها. مع أني كنت لا أكفّ، خلال لقاءاتنا، عن التحديق بوجهها، لا أفعل شيئاً آخر...

- قرأت ذات يوم أنّ مثل هذا يصيب من كان حبّه ولهاً... قال

نيسيتاس بحَرَجِ من لم يسبق له أن شعرَ بمثل ذاك الوَلَه. ألم تكن مشاعرك مماثلة حيال بياتريس أو كولندرينا؟

- لا، لم تكن لتسبب لي مثل ذاك العذاب. أعتقد أني مع بياتريس كنت شغوفاً بفكرة الحبّ لا أكثر، وتلك الفكرة ما كانت تحتاج إلى صورة أو قوام، ثمّ إن أي محاولة مني لتخيّل استدارات قوامها وجسدها كان بالنسبة لي بمثابة انتهاك للحُرُمات. أمّا كولندرينا فقد أدركت - بعد أن التقيت هيباسي - أنّ شعوري نحوها لم يكن شغفاً، بل كان حبوراً وحناناً وعاطفةً غامرة هي أشبه بما قد أشعر به، وليغفر لي الله قولي، تجاه ابنة أو أخت صغيرة. أعلم جيداً أنّ كلّ العاشقين يتراءى لهم ما تراءى لي، ولكني، في تلك الأيام، كنت مقتنعاً بأنّ هيباسي هي المرأة الأولى التي أحببتها حقاً، وهذا صحيح اليوم، وسيبقى صحيحاً غداً وإلى الأبد. أدركت فيما بعد أن الحبّ الحقيقي يحلّ في صميم القلب، وهناك يلقى الدَعَة، منصتاً إلى أسراره الأكثر نبلاً، ونادراً ما يعود إلى ردهات التخيّل. ولهذا السبب يعجز عن توهّم القوام الجسماني للحبيبة الغائبة. وحده الحبّ النزوي، اللّهوي، الذي لا يحلّ في صميم القلب ولا يغتذي إلاّ بالشهوات، قادرٌ على توهّم صوَرٍ مماثلة.»

لبثَ نيسيتاس صامتاً، يكاد لا يتمالك شعوراً عابراً بالحسد.

كان لقاؤهما خجولاً ومؤثراً. كانت عيناها تلمعان حبوراً، لكنّها لا تلبث أن تغضي استحياءً. جلسا بين العشب. كان آكاسيوس يرعى، مطمئناً، على مقربة منهما؛ وبدت الأزهار من حولهما عَطِرةً أكثر مما مضى، أمّا باودولينو فكأنّه غمّس شفتيه بثمالة البورق. خانته جرأته فلم يقدر على الكلام، لكنه قرّر أن يتكلّم كيلا يغويه ثقلُ الصمتِ بتصرّفٍ قد يندم عليه لاحقاً.

كان قد أيقن، عندئذ فقط، لِمَ يُقال دائماً إنّ العاشقين، في لقائهم الغرامي الأوّل، تبهت سحنهم ويرتعدون ويلبثون بكماً عاجزين عن

الكلام. ذاك أنّ الحبّ، وهو سلطان مملكتين، الطبيعة والروح، يجذب إليه كلّ طاقاتهما، مهما كان السعي الذي ينجم عنه. لذلك، عندما ينصرف العاشقان إلى المسارّة بمكنون قلبيهما، يعطّل الحبّ، لا بل يشلّ تقريباً، كلّ وظائف الجسد، الجسمانية منها كما الروحانية: وهذا ما يسبّب انعقاد اللسان وغشي الأبصار وصمّ الآذان، فيخلّ كلّ عضوٍ من أعضاء الجسم بأداء وظيفته. ما يعني أنّ حلول الحبّ طويلاً في صميم القلب يجعل الجسم فاقداً قواه، واهناً، فيهلك. غير أنّ القلبَ، إذ يضيق، وقد بلغَ الحدّ، باحتدام الشوقِ فيه، يطرد عنه هواه، متيحاً للجسم أن يستعيد وظائفه. وإذ ذاك ينطق العاشق.

«إذاً، قال باودولينو كاتماً كلّ مشاعره وما أدركه لتوّه، كلّ تلك الأمور الجميلة والمرعبة التي حدّثتني عنها، قد تناقلتموها عن هيباسي. . .

- لا، طبعاً، قالت، لقد أخبرتك أنّ جدّاتنا قد فررنَ ناسياتٍ كلّ تعاليم هيباسي، ما عدا واجب المعرفة. ولم نهتدِ إلى ما بلغناه من الحقيقة إلاّ عبر التأمّل. فخلال هذه الآلاف المؤلفة من السنين، راحت كلّ واحدة منا تمعن التفكير في العالم الذي يحيط بنا، وفي ما تشعر به في أعماق نفسها، فاغتنى وعينا يوماً بعد يوم، ولم يبلغ السعي ختامه إلى الآن. قد يكون في ما حكيته لك أشياء لم تدركها رفيقاتي بعد، وأدركتها أنا من خلال سعيي لأن أفسّرها لك. وهكذا تسعى كلّ منا إلى أن تغدو حكيمة فتعلّم رفيقاتها ما تشعر به، وتتعلّم هي في معرض تعليمها الأخريات. فربّما لو لم تكن معي لما اتضحت لي أمور كثيرة. لقد كنت شيطاني، ووليَّ الصالح، يا باودولينو.

- ولكن هل رفيقاتك كلّهن بمثل بيانك ووضوح أفكارك، يا هيباستي العذبة؟

- ربّما كنتُ أقلّهن بياناً ووضوحاً. أحياناً يسخرن مني لأني لا أجيد التعبير عمّا أستشعره. ألا ترى أني ما زلتُ في مقتبل العمر وأمامي الكثير

مما سأختبره؟ ومع ذلك، في الأيام الأخيرة كنت أشعر باعتدادٍ بالنفس لم أعرفه من قبل، كأني أمتلك سرّاً لا يعرفنه، وآثرتُ - لا أدري لماذا - أن يبقى سراً. لا أعرف ماذا يصيبني، كأنني... كأنني آثرتُ أن أسرّ بالأشياء إليك أنتَ وليس إليهنّ. أتعتقد أنّ هذا السلوك مشين، وأني غير مخلصةٍ لهنّ؟

- أنت مخلصة لي.

- معك يبدو الأمر يسيراً. ولك أستطيع أن أسرّ بمكنون قلبي. حتّى لو لم أكن واثقة من صحّة ما أقول. هل تعلم، يا باودولينو، ما جرى لي في الآونة الأخيرة؟ كنت أحلم بك. عندما أستيقظ كنت أشعر بأنّ اليوم جميل لأنّك موجود، هنا، في مكان ما. ثمّ أشعر بأنّ اليوم سقيم لأني لا أراك. أمر غريب حقاً، في العادة نبكي عندما نتألم ونضحك عندما نفرح، ولكن قد أجدني، في هذه الآونة، ضاحكةً وباكيةً في وقتٍ معاً. أتكون بيَ علّة؟ إذا كانت علّة فهي علّة جميلة. هل من الصواب أن يهوى المرء مرضه؟

- أنتِ معلّمتي ورفيقتي، قال باودولينو متبسماً، ولا يجدر أن تسأليني أنا، فأنا أحسب أنّ بي مثل مرضك.»

مدّت هيباسي يدها، ولامست ندبته مرّةً أخرى: «لا بدّ أنّك شيء صالح يا باودولينو، لأني أحبّ أن ألمسك، كما أحبّ أن ألمس آكاسيوس. المسني أنتَ أيضاً، فربّما أحييت فيّ بعضاً من القبَس المتبقي فيّ دون أن أدري.

- لا، يا حبي الأرقّ، أخاف عليك من أي أذىً.

- المسني هنا، خلف أذني. أجل، هكذا، المسني بعد... من المؤكّد أن من خلالك يمكن استحضار إله. لا بدّ أن يكون فيك، في موضعٍ ما، علامة تربطك بشيء آخر...»

كانت قد دسّت يديها تحت ملابسه، وراحت تمرّر أصابعها على وبرِ

نحره. اقتربت لكي تشمّه. «أنت مفعمٌ بالعشب، بالعشب الصالح»، قالت. ثمّ راحت تقول أيضاً: «كم أنتَ جميل من تحت ثيابك، ناعم كحيوان فتيّ. هل أنت فتيّ؟ لا علم لي بأعمار الرجال. فهل أنتَ فتيّ؟

- أجل، يا حبّي، إني أولد الآن.»

راح يداعب شعرها بلهفةٍ لا تخلو من عنفِ الشوق، وطوّقت باليدين عنقه، ثمّ راحت تمرّر لسانها على وجهه، تلحسه كأنّه جدي حديث الولادة، ثمّ تضحك محدّقةً بعينيه، قائلةً إنّ له طعمَ الملح. لم يكن باودولينو قديساً، فضمّها بقوة إلى صدره، وراح يتلمّس بشفتيه شفتيها. فتأوّهت في البداية مجفلةً وحاولت أن تصدّه، لكنّها سرعان ما استسلمت. كان لفمها طعم الدرّاق والمشمش، وبلسانها تتحسّس لسانه هو الذي كانت تتذوّق طعمه للمرّة الأولى.

أبعدها باودولينو عنه قليلاً، لا لتعفّفٍ منه بل لينزع عنه كسوةَ جسمه، فرأت ذَكَره، ومسّته بأصابعها، وإذ أَلْفَته راعفاً بنبض قالت إنّها تريده: وكان واضحاً أنها لا تدري لا كيفَ ولا لماذا تريده، غير أنّ طاقةً ما، ربّما كان مصدرها الغابة أو الينابيع، قد أملت عليها رغبتها تلك. عاود باودولينو ضمّها إليه، وغمْرَها لثماً وتقبيلاً، متأنياً في انتقاله من الشفتين إلى العنق إلى الكتفين، بينما يداه تعرّيانها من مشملها، رويداً، فإذا انحسر عن ثدييها غمرهما بوجهه، ثمّ تابعت يداه حسرَ الثوب عن الوركين، فإذا بانت سرّتها داعبها بإصبع، ثمّ راح يملّي العين ببطنها الأملس، متحسّساً ما ينبغي أن يكون الشِعرة التي تحجب حياءها الأسمى. وكانت تدعوه هامسةً: أيا رسولي، أيا طاغيتي، أيا هاويتي، أيا...

دسّ باودولينو يديه تحت الغلالة التي كانت لا تزال تغطي أسفل بطنها، وأحسّ بأنّ تلك الشعرة التي ينبغي أن تغطّي العانة تزداد كثافةً وتكسو أعلى الفخذين، والفرجَ وما بين الفخذين، وتمتدّ حتّى الإليتين...

«نزعتُ عنها الغلالة يا سيّد نيسيتاس، ورأيت. من البطن وما دونه، كان لهيباسي جسم شاةٍ، وفي طرف ساقيها حافران بلون العاج. عندها أدركت على الفور لِمَ بدت لي، وهي مسربلةً بمشملها الطويل، أنّها لا تطأ الأرض حين تمشي، بل كأنّها تحوم، خفيفةً، فوقها. كما عرفت أخيراً من هم المخصِبون: الساتير-الذين-لا يُرون-قط، الذين لهم رأس آدمي مقرّن وجسم كَبش، الساتير الذين يعيشون، منذ قرون في خدمة الهيباسي، يتركون لهنّ الإناث ويتولون تربية الذكور، هؤلاء بسحنهم المريعة، وأولاء اللواتي يذكّرنَ بالرشاقة المصرية لهيباسي الحسناء، القديمة، واليتيمات من تلامذتها الأوَل.

- أمر فظيع! قال نيسيتاس.

- فظيع؟ لا، ليس هذا هو الشعور الذي انتابني في تلك اللحظة. بل كان إحساساً بالدهشة، ولكن لهنيهة عابرة. ثمّ قرّرتُ، جسدي قرّر عوضاً عن نفسي أو نفسي قرّرت عوضاً عن جسدي، أنّ ما كنت أراه وألمسه هو رائع الجمال، لأنّ تلك كانت هيباسي، وحتّى طبيعتها الحيوانية كانت بعضاً من مزايا حسنها، فشعر البدن المجعّد ذاك بدا لي أشهى ما اشتهيتُ، برائحة الطحالب التي تفوح منه، وأطرافها المحتجبة في البداية كأنها مرسومة بيد فنان. كنت أعشق، كنت أريد تلك المخلوقة المطيّبة بأريج الغابة، ، وكنت لأعشق هيباسي حتّى لو كان لها جسم حَيْرم أو نمس أو أفعى مقرّنة.»

هكذا اتحد جسدا باودولينو وهيباسي في نشوة حبّهما حتّى المغيب، ولمّا أنهكت قواهما، لبثا مستلقيين جنباً إلى جنب، ينادي أحدهما الآخر بأعذب النعوت والأسماء، غافلين تماماً عن كلّ ما يحيط بهما.

كانت هيباسي تقول: «لقد حلّقت روحي مثل نفث نار. . . ويتراءى لي إني صرتُ قبساً من السماء المنجمة. . .» ولم تكفّ عن استكشاف

جسد حبيبها: «كم أنت جميل يا باودولينو. مع أنكم، أنتم الرجال، مسوخ أيضاً، أردفت قائلة بنبرة مشاكسة. لك ساقان طويلتان وبيضاوان بلا فرو، وقدمان أضخم من قدمي وحيد الساق! ومع ذلك، أنت جميل، لا بل أجمل من جميل...» وكان يقبّل عينيها بصمت.

«ألديهنّ سيقان مثل ساقيك، نساء الرجال؟ سألت غاضبةً. هل... هل اختبرت النشوة مع مخلوقات لهنّ سيقان مثل ساقيك؟

– لأني لم أكن أعلم، يا حبّي، أنّك، أنتِ، موجودة.

– لا أريدك أن تنظر، بعد الآن، إلى سيقان نساء الرجال.» فراح يقبّل حافريها بصمت.

هبط الليل وكان عليهما أن يفترقا. «أعتقد، قالت هيباسي هامسةً وهي تلثم شفتيه، بأني لن أخبر رفيقاتي شيئاً مما جرى. فالمؤكّد أنهنّ لن يفهمن، وهنّ لا يعلمنَ أنّ هذه أيضاً طريقة لمزيدٍ ومزيد من التسامي. إلى الغد، يا حبّي. أسمعت؟ سميّتك كما تسميني. إني في انتظارك.»

«انقضى شهران ونحن على تلك الحال، شهران هما أعذب وأرقّ ما شهدت في حياتي كلّها. كنت أذهب للقائها كلّ يوم، وإذا تعذّر ذلك، كان المُخْلِص غافاغاي هو جنيّة المراسيل بيننا. كنت آمل ألاّ يصل الهُوْن البيض أبداً، وأن يدوم انتظارنا في بندابتزيم حتّى مماتي، وما بعد مماتي. فعلى نحوٍ ما كنت أشعر بأني هزمت الموت.»

إلى أن جاء يوم، بعد ذلك بشهور عديدة، إثر هدأة جسديهما من نشوة اتحادهما، قالت هيباسي لباودولينو: «أشعر بشيء ما. أعلم ما هو، فقد سمعت مراراً من بعض رفيقاتي عمّا يشعرن به بعد ليلتهنّ مع المخصبين. أعتقد أنّي أحمل طفلاً في أحشائي.»

لدى سماعه النبأ لم يشعر باودولينو إلاّ بفرح غامر لا يوصف، وراح

يقبل بطنها المبارك، من الله أو من الأرخونت لا فرق. ثمّ ساوره القلق: فهيباسي لا يمكنها أن تخبر جماعتها بالأمر، فما العمل إذاً؟

«سأعترف للأمّ بالحقيقة، قالت. وسوف تتفهّم الأمر. هناك أحد ما أو شيء ما أراد أن أفعل معك أنتَ ما تفعله الأخريات مع المُخْصِبين. وكان ذلك عملاً صالحاً، بحسبِ الناحية الخيّرة للطبيعة. فلن تلومني على ما فعلت.

– ولكن سوف يبقينك في رعايتهنّ التامة لتسعة أشهر، وبعد ذلك لن أتمكن من رؤية المولود!

– سأواصل المجيء إلى هذا المكان لوقتٍ طويل بعد. لن ينتفخ بطني على نحو ملحوظ إلاّ بعد وقت. ولن نكفّ عن التلاقي إلاّ في الأشهر الأخيرة، وبعد أن أطلع الأمّ على حقيقة الأمر. أمّا بشأن المخلوق الذي سيولد، فإذا كان ذكراً سوف يتخلين عنه لك، أمّا إذا كان أنثى، فالأمر لا يعنيك بشيء. تلك هي مشيئة الطبيعة.

– تلك مشيئة بارئك المزعوم، وأنصاف المعز اللواتي تحيين في كنفهنّ! صاح باودولينو وقد استشاط غضباً. المولود هو خاصتي أنا أيضاً، سواء كان ذكراً أو أنثى!

– كم تكون جميلاً حين تغضب يا باودولينو، وإن كان الغضب لا يليق بأي منا، قالت وهي تقبّل أنفه.

– ولكن ألا تدركين أنّهنّ لن يسمحن لك، بعد الوضع، من المجيء إليّ، تماماً كما لم تر أيٌّ من رفيقاتك مخصِبها مرة ثانية؟ أليس هذا، برأيكنّ، ما تريده الطبيعة؟»

أدركت فجأةً أنّه محقّ في ما يقول، عندئذٍ جعلت تبكي، بتأوّهات خافتة كتلك التي كانت تصدر عنها في لحظات اتحاد جسديهما، وقد حنت رأسها على صدر رَجُلِها، بينما ضمّت ذراعيه فأحسّ باختلاجِ

نهديها. راح باودولينو يربّت براحته على شعرها، هامساً بعبارات عذبة ليخفّف عنها، ثمّ اقترح عليها الخيار الوحيد الذي رأى أنّه قد يكون منطقياً: سوف تهرب هيباسي معه. وإذ رمقته بنظراتٍ مذعورة، طمأنها إلى أنها بذلك لن تخون جماعتها. كلّ ما في الأمر أنّها حُبِيَت بحظوة مختلفة، ومختلفاً صار واجبها. هو سيصحبها إلى مملكة بعيدة، وهناك سوف تنشيء متّحداً جديداً للهيباسيات، وتكون بذلك قد أخصبت نسل أمهنّ القديمة، وحملت رسالتها إلى مكان آخر، والفرق الوحيد أنّه، هو، سيكون معها، إلى جانبها، وسيجد جماعةً جديدة من المُخْصِبين، لهم هيئة آدمية كما ستكون آدمية ثمرة أحشائهنّ. بفرارك لا تقترفين شرّاً، قال لها، بل، على العكس من ذلك، تنشرين الخير...

«في هذه الحال سوف أستأذن الأم.

- مهلاً، ما زلت لا أدري من أي طينة جبلت هذه الأمّ. دعيني أفكّر قليلاً، سوف نذهب سوياً لنستأذنها، وسأعرف كيف أقنعها؛ إمهليني بضعة أيام فقط لكي أهتدي إلى أسلوبٍ ناجعٍ معها.

- يا حبّي، لا أريد أن أفقدك، قالت هيباسي منتحبة. سأفعل ما تشير عليّ به، سأغدو إمرأة رجل، وسوف أصحبك إلى المدينة الجديدة التي حدّثتني عنها، سأتصرّف كما يتصرّف المسيحيون، وسأقول إنّ الله كان له ابن مات مصلوباً، وإذا كنت أنت لن تكون ههنا فلا أريد بعد الآن أن أكون هيباسية!

- اهدئي قليلاً، يا حبّي. سوف أجد حلاً. لقد جعلت من شارلمان قديساً، وعثرت على الملوك المجوس، وسأعرف، بالتأكيد، كيف أحتفظ بزوجة!

- زوجة؟ ماذا يعني زوجة؟

- سوف أخبرك فيما بعد. الآن اذهبي، لقد تأخّر الوقت. وإلى الملتقى، غداً.»

«ولم يكن هناك غد، يا سيّد نيسيتاس. لدى عودتي إلى بندابتزيم هرع الجميع إليّ، وقد بحثوا عنّي لساعاتٍ وساعات. لم يعد هناك أدنى شك: الهُوْنُ البيض قادمون لا محالة، ويستطيع أيّ كان أن يرى، عند الأفق، سحابة الغبار التي تثيرها خيولهم. وسيبلغون أطراف سهل السرخسيات عند مطالع الفجر. فلم يبقَ إذاً سوى بضع ساعات للاستعداد لصدّهم. هرعت على الفور إلى الشماس لأخبره أني سأتولى قيادة رعاياه. ولكن بعد فوات الأوان. فلا بدّ أن الأشهر الأخيرة الزاخرة بالتوتر في انتظار المعركة، والجهد الذي كان يبذله للمشاركة في إعداد الخطّة، وربّما النسغ الجديد الذي حقنته في عروقه من خلال قصصي، قد عجّلت في أوان موته. لم أخشَ البقاء بقربه عندما كان على الرمق الأخير، لا بل شددت على يده فيما كان يحييني ويدعو لي بالظَفَر. قال لي إنني إذا خرجت منتصراً من المعركة، ربّما قيض لي أن أصل إلى مملكة أبيه، ولذا رجاني أن أسديه خدمةً أخيرة. فما إن يلفظ أنفاسه الأخيرة سوف يأتي تابعاه المحتجبان ليعدّا جثمانه كأنّه جثمان راهب، فيُدهَن بزيوتٍ سوف تطبع صورة الجثمان على النسيج الذي سيغطّى به حتّى الدفن. فليحمل باودولينو هذا النسيج إلى أبيه الراهب لكي يرى الرسمَ لأنّه أقلّ دمامةٍ مما هو عليه بالفعل. ولفظ أنفاسه بعيد ذلك، وجاء التابعان لإنجاز ما ينبغي إنجازه. قالا إنّ انطباع رسم الجثمان على القماش سيستغرق بضع ساعات، وأنّهما سيضعانه، مثنياً بعناية، في مغلّف يليق به. ثمّ اقترحا عليّ، بكياسة وحرج، أن أبلغ الخصيان بوفاة الشمّاس. غير أني ارتأيت ألاّ أفعل. لقد أناط بي الشمّاس قيادة جيشه، وتلك كانت ضمانتي الوحيدة للتثبّتِ من أنهم لن يعصوا أوامري. كنت في حاجةٍ إلى مشاركتهم، هم أيضاً، في المعركة، لجهّة إعداد المدينة لاستقبال الجرحى. وإذا علموا بوفاة الشمّاس فسيعمدون، في أحسن حال، إلى بلبلة صفوف المحاربين من الناحية المعنوية بإشاعة الخبر، ثمّ إلهائهم بمراسم الجنازة والدفن. أمّا في أسوأ حال، فربّما سوّغ لهم ما طبعوا عليه

من المكر والخداع، إلى الاستيلاء على السلطان، وإلى زعزعة الخطّة التي أعدّها الشاعر للمعركة. فلنذهب إلى الحرب، قلت في سرّي. حتّى لو أني لطالما كنت رجل سلام، لكن الأمر مختلف الآن، هناك مخلوق سوف يولد وينبغي الذود عنه.»

35

باودولينو يتصدّى للهُوْن البيض

كانوا قد تدارسوا الخطّة، في أدقّ تفاصيلها، طيلة شهور. وإذا كان الشاعر قد برهن، من خلال تدريبه المقاتلين، على كونه قائداً ميدانياً بارعاً، فإنّ باودولينو برهنَ على امتلاكه قدرات هائلة في مجال التخطيط. فعند أطراف المدينة كانت تنتصب هضبة الأكثر ارتفاعاً من بين تلك الهضاب الشبيهة بأكوام الزبدة المخفوقة، والتي لفتت أنظارهم لدى وصولهم. من أعلى قمّتها أمكنَ الإشراف على السهل، امتداداً حتّى الجبال من جهة، وإلى ما بعد منبسط السرخسيات الفسيح. ومن أعلى تلك القمّة كان باودولينو والشاعر سيتوليان قيادة المحاربين وتحريك التشكيلات القتالية. وإلى جانبهما مجموعة مختارة من وحيدي الساق، بقيادة غافاغاي، ستتولّى مهمّة الاتصال السريع بالوحدات المختلفة.

كانت مهمّة الخفّان، الموزّعين على مكامن متفرّقة في السهل، تتمثّل برصد تحرّكات الخصوم، بواسطة زوائد الاستشعار عند بطونهم، ثمّ الإبلاغ عنها، كما هو مخطّط سلفاً، بإشارات دخانية.

في المواقع الأكثر تقدّما، أي عند أطراف سهل السرخسيات البعيدة، ستكمن مجموعات من وحيدي الساق، بقيادة البورتشيلي، جاهزة للانقضاض على الغزاة، بنواسيرهم وأسهمهم المسمومة. وما إن ينجح هؤلاء في ضعضعة صفوف المهاجمين، حتّى يتدخل العمالقة،

المتمركزين خلف وحيدي الساق، بقيادة آليرامو سكاكاباروتزي الملقب بالتشيولا، للقضاء على خيولهم. غير أنّ أوامر الشاعر إليهم كانت واضحة، عليهم أن يتنقلوا على الأيدي والأرجل حتّى تلقّيهم الأمر بالتدخّل.

أمّا إذا نجح قسم من قوات العدو باجتياز خطّ العمالقة، فعندئذ سيتعيّن على الأقزام البيغمي بقيادة البويدي، من جهة، وعلى البليميين، بقيادة الكوتيكا، من الجهة الأخرى، التدخّل عند الأطراف المقابلة من السهل. فسيضطرّ الهُوْن، تحت وابل من سهام البيغمي، إلى التقدّم نحو الجهة المقابلةن حيث يكمن البليميون الذين سينقضّون على خيول الأعداء على نحو مباغت قبل أن تنكشف مكامنهم.

ومع ذلك، كانت أوامر القادة واضحة، فالإفراط في المجازفة غير مستحبّ. فالهدف هو تكبيد الأعداء خسائر فادحة، ولكن مع الحرص على أن يتكبّدوا، هم، أقل قدر ممكن من الخسائر. والواقع أنّ العصب الحقيقي للخطّة كان متمثلاً بالنوبيين، المتمركزين في مواقع قتالية في وسط السهل. فمن المؤكّد أنّ الهُوْن سيتخطون الدفاعات الأولى، وعندها سيصطدمون بالنوبيين بأعداد أقلّ إثر الخسائر التي تكبّدوها، وبعزيمة أوهن نظراً لإصاباتهم العديدة، وبخيول عاجزة عن التقدّم بسرعة وسط غمار الأعشاب العالية. وهناك سيتصدى لهم الانتحاريون، أهل القتال، بدبابيسهم القاتلة وازدرائهم الأسطوري بالمخاطر.

«حسناً إذاً، أضرب واهرب، كان البويدي يقول، فخطّ الدفاع المنيع سيكون عند مواقع هؤلاء المقاتلين الانتحاريين الشجعان.

– وأنتم، كان الشاعر يوصيهم قائلاً، سوف يتعيّن عليكم، إثر عبور الهُوْن، العمل على جمع قواتكم وصفّهم في تشكيل نصف دائري لا يقلّ طوله عن نصف ميل. فإذا لجأ العدو إلى خدعته المعتادة المتمثّلة بالتظاهر بالفرار لكي يتاح له، على الأثر، محاصرة الذين يطاردونه، سوف تطبقون عليه كفكي كمّاشة. احرصوا على إبادتهم جميعاً، ولا تبقوا أحداً منهم

على قيد الحياة. فالعدو المهزوم إذا بقي على قيد الحياة، ، سوف يسعى، عاجلاً أو آجلاً، للانتقام. أمّا إذا نجا بعضهم وتمكّنوا من اختراق صفوفكم وصفوف النوبيين، وتقدّموا باتجاه المدينة، فسيقف لهم الأذن العملاقة بالمرصاد محلّقين فوقهم على نحو مباغتٍ لا يقاومه أشدّ الأعداء بأساً.»

لم تترك الخطّة التي أعدّت بإحكام أيّ هامش للمفاجآت، ولمّا هبط الليل احتشدت مجموعات المحاربين في وسط المدينة وانطلقت باتجاه السهل لدى سطوع النجمات الأولى، وكانت كلّ مجموعة يتقدمها موكب مؤلّف من كهنة الطائفة المعنية، ومنشدون بلغتها يتلون «فعل الإيمان»، بإيقاع نغمي جليل لم يسبق له مثيل، حتّى في روما، في أكثر المواكب جلالاً ومهابة:

Mael nio, kui vai o les zeal, aepseno lezai tio mita. Veze lezai tio tsaeleda.

O fat obas, kel binol in sus, paisalidumoz nemola. Komomod monargan ola.

Pat isel, ka bi ni sieloes. Nom al zi bi santed. Klol alzi komi.

O baderos noderos, ki du esso in seluma, fakdade sankadus harnominanda duus, adfenal ha rennanda duus.

Amy Pornio dan chin Orhnio viey, gnayjorhe sai lory, eyfodere sai bagalin, johre dai domion.

Hai coba ggia rild dad, ha babi io sgymta, ha salta io velca...

كان البليميون آخر المنطلقين إلى ساحة المعركة، ما حدا بباودولينو والشاعر إلى التساؤل حول سبب تأخرهم. ولمّا وصلوا كان كلّ منهم يحمل على كتفيه، ومثبتّة برباط من تحت الإبط، توليفة من القصب، ثبّت على قمتها رأس طير. وقال أرظروني بفخر واعتزاز أنّ تلك هي آخر اختراعاته. فالهُوْن سيرون رأساً بارزاً فيرمونه بأسلحتهم فينقض عليهم

البليميون، أصحّاء سالمين، بلمح البصر. فاستحسن باودولينو الفكرة لكنّه حثّهم على التقدّم بسرعة فلم يبقِ أمامهم سوى ساعات قليلة للتمركز في مواقعهم. لم يبدُ على البليميين أنّهم مرتبكون حيال الرأس الذي اكتسبوه بفضل أرظروني واختراعاته، بل كانوا يسيرون بخيلاء كأنّهم يعتمرون خوذاً حديدية مزيّنة بالريش.

تسلّق باودولينو والشاعر، وبرفقتهم أرظروني، المرتفع الذي من قمّته سيشرفون على سير المعركة، ولبثوا هناك ريثما يبزغ الفجر. وأرسلوا غافاغاي إلى الخط الأمامي، ليكون على أهبة لإبلاغهم بأي طارئ. فهرع وحيد الساق الشجاع إلى موقعه القتالي صائحاً «فليحيَ الملوك المجوس المقدّسون، فلتحيَ بندابتزيم!»

كانت الجبال، لجهة الشرق، تستقبل أولى طلائع الفجر، لمّا تراءى عمود من الدخان الذي أطلقه الكشّافون الخفّان، للتحذير من أنّ طلائع الهُوْن البيض على وشك الظهور عند خطّ الأفق.

لم تمضِ هنيهات حتّى ظهروا، فعلاً، في خطّ مواجهة طويل، عند الأفق؛ كان الناظر إليهم ليحسب أنّ ذاك الصفّ الطويل لا يتقدّم البتّة، بل يراوح في مكانه متموّجاً، مرتجّاً، ولوقتٍ بدا لهم دهراً من الساعات. ثمّ تبدّد ذلك الانطباع وبدا أنّهم يتقدّمون فعلاً لأنّ قوائم خيولهم احتجبت عن الأنظار وقد غطّتها غمار السرخسيات، حتّى صاروا على مقربة من مكامن وحيدي الساق، وبمضيّ وقتٍ غير طويل سوف ينقضّ ذوو الساق الوحيدة الشجعان عليهم. لكن الوقت يمضي، والهُوْن يتقدمون في المرج، وشعورٌ بأنّ طارئاً ما طرأ يخيّم على الأجواء.

بينما كان الهُوْن يتابعون تقدّمهم وقد باتوا مرئيين بالعين المجرّدة بوضوح، وبينما لبث وحيدو الساق محتجبين عن الأنظار لا يحركون ساكناً، تراءى أنّ العمالقة قد هبّوا من مكامنهم، قبل الوقت المحدّد لهم، منتصبين بين الأعشاب بقاماتهم الضخمة، سوى أنّهم عِوَضَ الانقضاض على العدوّ، ارتموا بين غمار العشب خائضين معركة مع من يفترض أنهم

وحيدو الساق. لم يكن باستطاعة باودولينو والشاعر، التثبّت، من بعيد، مما يجري بالضبط هناك، ولكن أمكنَ ترتيب وقائع المعركة المفاجئة بحسب ما نقله إليهما غافاغاي المتنقّل، بلمح البصر، من طَرَفِ السهل إلى طرفه الآخر. وملخّص ذلك أنّ وحيدي الساق اعتادوا، بفطرتهم، على الاستلقاءِ لدى طلوع الشمس ورفع أرجلهم ليستظلوا بها. وهذا ما فعله مقاتلو وحدات الهجوم. ولمّا شعر العمالقة، على الرغم من أن النباهة ليست أولى فضائلهم، بأنّ شيئاً ما لا يسير بموجب الخطّة المحدّدة، راحوا يحثّونهم على النهوض مستخدمين، وفقاً لعاداتهم الهرطقية، النعوت النابية من قبيل «نفايات الكفّار» و«غائط آريوس».

«وحيد ساق صالح ومخلص، كان غافاغاي يردّد قائلاً، لدى نقله ما استجدّ حول المسألة، هو شجاع وليس شرير، لكن لا يحتمل شتيمة الزنديق آكل جبن، حاول أنت تتفهّم!» المهمّ أن المعركة بدأت بشجار لفظي ذي طابع لاهوتي، ثمّ تفاقم إلى تدافع وتضارب بالأيدي، لم يلبث العمالقة أن أحرزوا الغلبة فيه. كان آليرامو سكاكاباروتزي الملقّب بالتشيولا، يحاول في الأثناء، ثني العمالقة عن خوض تلك المجابهة البلهاء، غير أنّ هؤلاء بدوا فاقدين صوابهم وراحوا يبعدونه بضربات من قبضاتهم كانت الواحدة منها كفيلة بقذفه عشرة أمتار إلى الوراء. وهكذا لم يتنبّهوا إلى أن الهُوْن كانوا، في الأثناء، قد وصلوا إليهم، وما جرى بعد ذلك كان مجزرة بحقّ. فقضي على وحيدي الساق، وقضي على العمالقة وإن استطاع بعض هؤلاء أن يقاوموا، عبثاً، ممسكين بوحيد ساقٍ من قدمه، مستخدمينه كدبّوس أو عصا. وكان البورتشيلي والسكاكاباروتزي قد خاضا المعمعة في محاولة منهما لحثّ رجالهما على القتال، لكنّهما حوصرا من قبل الهُوْن. فقاتلا ببسالة، ضاربين بسيفيهما في كلّ اتجاه، وسرعان ما اخترق جسديهما مائة سهم فقضيا على الفور.

على الأثر، بدا الهُوْن يشقون طريقهم، ويمهدونها بسحق الأعشاب، متقدّمين بين جثث ضحاياهم. ولم يكن باستطاعة البويدي والكوتيكا، من

جهتي السهل، أن يفهما حقيقة ما يجري، فتعيّن إرسال غافاغاي لحثّهما على المباشرة بخطة الالتفاف الجانبي من قبل البليميين والبيغمي. فتعرّض الهُوْن للهجوم على جناحي قواتهم، غير أنّهم اتبعوا خطّة عبقرية قضت بأن تتابع طليعة قواتهم تقدّمها إلى ما بعد الوحدات الهالكة من عمالقة ووحيدي ساق، فيما يتراجع مؤخّر هذه القوات، بحيث يؤدي اندفاع البيغمي من جهة والبليميين من الجهة المقابلة، إلى صدام فيما بينهم. فلمّا رأى البيغمي رؤوس الطيور بارزة من بين الأعشاب، وهم يجهلون طبيعة الخدعة التي ابتكرها أرظروني، صاحوا جميعاً: «الكراكي، الكراكي!»، ولاعتقادهم أنّه يتعيّن عليهم قتال عدوّهم الدهري هذا، غفلوا عن الهُوْن، وأمطروا البليميين بوابل من نبالهم. وهكذا أمسى البليميون في حالٍ من المجابهة مع البيغمي، ولاعتقادهم بأنّهم تعرّضوا لخيانة، راحوا يصيحون بأعلى صوتهم: «الموت للزنديق!»فاعتقد البيغمي بدورهم أنهم يتعرّضون لخيانة من قبل البليميين، وإذ سمعوا نعتهم إياهم بالزندقة، هم الذين يعتبرون أنفسهم حماة المعتقد الحقّ، استشاطوا غضباً وراحوا يصرخون بدورهم: «اقتلوا الفانتازيين! اقتلوا المتأولين!». وانقضّ الهُوْن عليهم وأمعنوا فيهم تقتيلاً، وهم، في المعمعة، يقتتلون فيما بينهم. وقد روى غافاغاي أنّه رأى الكوتيكا وهو يحاول صدّ الأعداء بمفرده. غير أنّ عدم التكافؤ العددي لم يكن في صالحه، طبعاً، وانتهى الأمر بأن داسته الخيول بسنابكها.

لـمّا شهد البويدي مصرع صديقه، أدرك أنّ الفرقتين هالكتان لا محالة، وسعى إلى الانكفاء باتجاه خطّ النوبيين لتحذيرهم، غير أنّ غمار العشب كانت تعرقل تقدّمه، كما تعرقل تقدّم الهُوْن، لحسن الحظ. تمكّن البويدي، بمشقّة كبيرة، من الالتحاق بصفوف النوبيين، فلبث وراءهم حاثّاً إياهم على الاندفاع ككتلة واحدة باتجاه الهُوْن. ولكن ما إن صار هؤلاء قبالة الأعداء المتعطّشين للدماء، حتّى انصاعوا إلى فطرةِ طباعهم، أي توقهم للشهادة. وارتأوا أن أوان التضحية قد حان، أخيراً، وخير لهم أن

يستبقوا اللحظة المنتظرة. فخرّوا راكعين متوسّلين: «اقتلني، اقتلني!» فلم يصدّق الهُوْن آذانهم واستلوا سيوفاً قصيرة مسنّنة وشرعوا بتقطيع رؤوس أهل القتال المتدافعين نحوهم حاسرين عن رقابهن منحنين، مهلّلين للاغتسال المطهّر.

عندما رأى البويدي ما رأى، سارع إلى الفرار، رافعاً قبضتيه باتجاه السماء، سالكاً طريق الهضبة التي بلغها قبيل احتراق السهل.

الواقع أنّ بورون وكيوت اللذين لبثا في المدينة، كانا قد فكّرا، إثر اطلاعهما على مجريات المعركة، باستخدام المعز وفق الخطّة التي كان أرظروني اقترحها ولن تلقَ قبولاً لعدم جدواها خلال النهار. وهكذا دفعوا بمئات من هذه الحيوانات التي ثبّتت سُرُجٌ في قرونها، باتجاه السهل. ولمّا كان الموسم في آخره والعشب بات جافاً اندلعت فيه النيران بلمح البصر. وهكذا استحال بحر العشب بحراً من النيران. لم يكن هذا ما قصد إليه بورون وكيوت، فهما، في أغلب الظنّ، إنما أرادا استحداث جدار فاصلٍ من النيران، أو إرغام خيّالة العدو على الانكفاء، غير أنّهما لم يأخذا اتجاه الرياح وسرعتها في الحسبان. كانت النيران تستعر موسّعةً رقعة انتشارها، ولكن باتجاه المدينة. وكان الأمر، بالتأكيد، في صالح الهُوْن الذين لم يبقَ عليهم سوى الانتظار ريثما يحترق العشب ويبرد الرماد، لكي ينقضّوا، بهجوم أخير، على المدينة. غير أنّ النار كانت ستعرقل تقدمهم، بأية حال، لأكثر من ساعة. ومع ذلك، كان الهُوْن يدركون جيّداً أنّ أمامهم متسعاً من الوقت. فاكتفوا بالاصطفاف عند تخوم الحريق وسدّدوا أقواسهم باتجاه السماء ورموا وابلاً من السهام كان كافياً لحجب نور الشمس بحيث يبلغ مداها الطرف الآخر من بقعة النيران، من دون أن يدروا، حقاً، إذا كانت هناك أعداد أخرى من العدو ما زالت ترابط هناك.

سقط سهمٌ مندفعاً من الأعلى، صافراً بقوة، واخترق عنقَ أرظروني الذي خرّ على الأرض مطلقاً نحيباً مكتوماً، نازفاً من فمه. ولمّا رفع يديه

إلى عنقه محاولاً نزع السهم، لاحظ أنهما قد شرعتا تكتسيان ببقعٍ بيضٍ. فانحنى فوقه باودولينو والشاعر وهمسا في أذنه بأن بقعاً مماثلة بدأت تظهر على وجهه. «أرأيت أن سليمان كان على حق، قال له الشاعر، هناك ترياق. ربّما كانت سهام الهُوْن مشبّعة بسمٍّ هو علاجك المنشود ومن شأنه أن يزيل لعنة الأحجار السود.

- سيّان عندي إنْ متُّ أبيض أو أسود»، غمغمَ أرظروني بما يشبه الحشرجة، وماتَ قبل أن تستقرّ بشرته على لونٍ محدّد. غير أنّ سهاماً أخرى راحت تتساقط حزماً متضامّة ومتقاربة، فكان عليهم أن يخُلوا قمّة الهضبة. فرّوا باتجاه المدينة، وكان الشاعر يردّد في الطريق قائلاً: «انتهى الأمر. راهنت على مملكة وخسرت. يجب ألاّ نتوقع معجزة من مقاومة الأذن العملاقة. أملنا الوحيد هو المهلة التي تتيحها لنا النيران ما بقيت مشتعلة. فلنسارع إلى جمع أمتعتنا والفرار بأسرع وقت. فطريق الغرب ما زالت سالكة.»

- في تلك اللحظات كانت فكرة واحدة تتردّد في رأس باودولينو كالهاجس. فالهُوْن سيدخلون إلى بندابتزيم ويدمّرونها، غير أنّ غزوتهم الضارية لن تقف عند هذا الحدّ، بل سيتابعون حتّى البحيرة، ويغزون غابة الهيباسيات. لذا يجب أن يسبقهم إلى هناك. لكنّه لا يستطيع الابتعاد عن رفاقه، الآن، يجب أن ينضمّ إليهم لجمع أمتعتهم وبعض المؤن استعداداً لرحلة فرار طويلة. «غافاغاي، يا غافاغاي! صاح منادياً، وإذا بتابعه المخلص ماثل بين يديه. اهرع إلى البحيرة واعثر على هيباسي، لا أدري كيف ولكن اعثر عليها وبلّغها بأن تعدّ العدّة للرحيل، سأذهب إليها لاحقاً وأنقذها!

- أنا لا يدري كيف لكن سوف يعثر عليه»، قال وحيد الساق قبل أن يعدو منطلقاً كالبرق.

عاد باودولينو بصحبة الشاعر إلى المدينة. كانت أخبار الهزيمة قد بلغتها، وغصّت طرقاتها وأزقّتها بالنساء من مختلف الأعراق هلعاتٍ،

متراكضاتٍ وقد ضممنَ صغارهنّ في أحضانهنّ. أمّا الأذن العملاقة، فلشدّة ذعرهنّ، فقد كانوا يقذفون بأنفسهم من علوّ شاهق ظنّاً منهم أنّهم قادرون على التحليق عالياً. لكنّهم في الحقيقة لا يستطيعون ذلك. لقد درّبوا على التحويم باتجاه الأسفل وليس على التحليق عالياً في الفضاء. ومن كان منهم يحاول خَفْقَ أذنيه للتنقّل في الفضاء، يهوي على الفور، منهوكاً، وينسحق على الصخور. هناك التقيا كولندرينو مغتمّا لإخفاقه في تدريبهم، وسليمان وكيوت وبورون الذين سارعوا إلى الاستفسار عن الآخرين. «لقد ماتوا، فلتنعم أرواحهم بالسلام، قال الشاعر بحنقٍ بادٍ. هيّا بنا، لنسرعَ إلى مهاجعنا ريثما نجمع متاعنا، ولنهرع، من ثمّ، باتجاه الغرب!»

لدى وصولهم إلى مسكنهم جمعوا ما أمكنهم من المتاع والمؤن. وبينما كانوا يهبطون السلّم بسرعة، لاحظوا أن الخصيان في حركة دؤوب أمام البرج، منهمكين بتحميل أمتعتهم على ظهور البغال. اقترب براكسياس منهم، مترباً: «الشماس مات، وأنت كنت تعلم ذلك، خاطب باودولينو قائلاً.

- سواء كان حياً أو ميتاً، ما الفرق؟ فأنتَ كنت ستهرب بأية حال.

- نحن سنرحل. وعندما نصل إلى المضيق الجبلي سنردم الممرّ بجرف صخري، ونقطع الطريق المؤدية إلى مملكة الراهب، إلى الأبد. هل تريدون أن تأتوا معنا؟ فإذا أردتم أن ترافقونا سيكون عليكم الالتزام بشروطنا.»

لم يسأله باودولينو حتّى ما هي الشروط. «وما شأني أنا براهبك اللعين جان، صاح به قائلاً، هناك أمور أخرى تشغلني الآن! هيا بنا، يا رفاق!»

لبث الآخرون مذهولين. ثمّ أقرّ كلّ من كيوت وبورون بأنّ الهدف الفعلي ما زال العثور على زوسيمَس ومعه الغرادال، ومما لا شكّ فيه أنّ زوسيمَس ليس في المملكة، ولم يصل إليها بعد، ولن يصل إليها قط.

كولندرينو والبويدي اكتفيا بالقول إنهما جاءا مع باودولينو، ومعه سوف يعودان. أمّا سليمان فقال إنّ أسباطه المفقودة قد تكون ما وراء هذه الجبال كما قد تكون ما قبلها، ولذا سيّان عنده أي اتجاه يسلكون. الشاعر لزمَ الصمت، بدا كأنّه فقدَ كلّ عزيمة، وطلب من أحدهم أن يمسك بلجام حصانه لكي يصحبهم اقتياداً.

بينما كانوا على وشك الانطلاق، لمح باودولينو أحد التابعين المحتجبين للشمّاس. وكان يحمل بيده مظروفاً: «إنّها القماشة التي تحمل رسمه، قال. وأوصى بأن تكون لك. فاحسن التصرّف بها.

- هل أنت راحل أيضاً؟»

قال المحتجب: «إمّا هنا وإمّا هناك، إذا كان هنالك هناك، الأمر سيّان عندنا. إنّ مصير سيّدنا ينتظرنا. سوف نبقى هنا وننقل عدوى الطاعون إلى الهُوْن.»

ما كادوا يغادرون المدينة حتّى شاهد باودولينو مشهداً مروّعاً. كانت نيران تشتعل عند الهضاب الزرق. لقد تمكّن بعض الهُوْن، بطريقةٍ أو بأخرى، من الالتفاف حول ساحة القتال، ووصلوا إلى البحيرة.

«هيا بنا، صاح باودولينو، لنهرع إلى هناك!» لم يفهم الآخرون. «لِمَ هناك، إذا كانوا، هم، قد أصبحوا هناك؟ سأل البويدي. الأجدر أن نسلك هذه الوجهة، وربّما كان الممرّ الوحيد المتبقي لنا لجهة الجنوب.

- افعلوا كما يحلو لكم، أمّا أنا فسأذهب إلى هناك» صاح باودولينو حانقاً. «لقد جُنَّ جنونُه، فلنتبعه لكي لا يعرّض نفسه للأذى»، قال كولندرينو مترجياً.

غير أنّ باودولينو كان قد تقدّمهم بمسافةٍ لا يستهان بها. كان في اندفاعه المجنون إلى موت محتوم يلهج باسم هيباسي.

توقّف إثر نصف ساعة من العدو المحموم إذ لمح خيالاً مقبلاً

لملاقاته. كان الوافد إليه هو المُخْلِص غافاغاي.

«أنتَ يكون مطمئن، بادره قائلاً. أنا يرى هي. الآن هي أمان.» ولكن سرعان ما تحوّلت هذه البشرى السارة إلى مصدرٍ للشقاء والغمّ، لأنّ غافاغاي أردفَ قائلاً: لقد نبّهت الهيباسيات إلى الخطر الداهم قبيل وصول الهُوْن، وتوخياً للدقّة، ينبغي القول إنّ الساتير الذين هبطوا من أعالي هضابهم، هم الذين بادروا إلى تحذيرهنّ، ومن ثمّ جمعهنّ، وعندما وصل غافاغاي كانوا يصطحبوهنّ إلى حيث يقيمون، هناك في الأعالي، ما وراء الجبال، حيث هم وحدهم يهتدون إلى الدروب وحيث لا يستطيع الهُوْن اللحاق بهم. وكانت هيباسي آخر من بقيَ منهنّ، على الرغم مما أبدته رفيقاتها من إصرار على اصطحابها أولاً، في انتظار أي خبرٍ من باودولينو، ولم تشأ الرحيل قبل أن تطمئنّ إلى مصيره. ولمّا بلغتها الرسالة التي حملها غافاغاي، هدأ روعها قليلاً وتبسّمت من خلل دموعها وأوصته أن يبلغه تحيتها، وأن يشير عليه بالفرار، لأنّ حياته في خطر، وكانت رسالتها الأخيرة إليه: أنها تحبّه، وأنهما لن يلتقيا ثانية.

فأجابه باودولينو بأنّه لا بدّ فَقَدَ صوابه، فهو لن يدع هيباسي تذهب إلى أعالي الهضاب، وأنه يريد أن يصطحبها معه. لكن غافاغاي أجابه بأنّ الأوان قد فات، وأنه قبل أن يصل هناك ستكون الهيباسيات قد رحلنَ إلى مكان لا يعلم به إلاّ الله، فضلاً عن أن الهُوْن يجوبون تلك النواحي محكمين قبضتهم على المسالك كافة. ثمّ ربّتَ براحته على ساعد سيّده، متجاوزاً ما تقتضيه هيبة التعاطي مع أحد الملوك المجوس، وردّد على مسامعه رسالة هيباسي الأخيرة: كانت لتنتظر قدومه برغم كلّ شيء لو لم يكن واجبها الأول أن تحمي مخلوقهما: «قال هي: «أنا إلى أبد لديه مخلوق يذكر أنا بباودولينو.» ثمّ عاينه من أعلى إلى أسفل بنظرات متخابثة وسأله: «أنتَ يفعل مخلوق مع هذه أنثى؟

- هذا ليس شأنك»، أجابه باودولينو جاحداً. فصمتَ غافاغاي.

كان باودولينو لا يزال حائراً في أمره عندما انضمّ إليه رفاقه. وأدرك

أنّه لن يستطيع أن يفسّر لهم حقيقة ما جرى، لأنهم لن يتفهّموا شيئاً منه. فلا شيء مما جرى ينافي العقل: الغابة صارت الآن أرض غزوات، ولحسن الطالع أن الهيباسيات قد انتقلنَ إلى القمم الوعرة حيث خلاصهنّ، وهيباسي ضحّت بحبّها لباودولينو حبّاً بذلك الشيء الذي سيولد والذي منحها إياه. كل ما جرى كان مؤلماً ومعقولاً على حدّ سواء، ولم يكن هناك أي خيار ممكن آخر.

«مع أني نُبِّهتُ، يا سيّد نيسيتاس، إلى أنّ البارئ لم ينجز إلاّ أنصافَ الأمور.»

36

باودولينو وطيور الرُخّ

«كم أنتَ مسكين وسيئ الحظّ يا باودولينو» قال نيسيتاس وقد بلغ به التأثّر مبلغاً أنساه رأس الخنزير، المسلوق بالماء والملح، والمتبّل بالثوم والبصل، والذي كان تيوفيلاكتس قد حفظه، طيلة الشتاء، في برميل صغير مليء بمياه البحر. «مرّة أخرى، لا تكاد تُشغَف بشيء واقعي، حتّى يبتليك القدر جزاء شغفك.

- بدءاً بذلك المساء، سرنا طيلة ثلاثة أيام بلياليها، من دون توقف أو طعام أو شراب. وعلمتُ فيما بعد أنّ رفاقي بذلوا الكثير من الدراية والدهاء لاجتناب الهُوْن المنتشرين في النواحي على مساحاتٍ شاسعة من حولنا. كنتُ قد أسلمت لهم قيادي، أتبعهم، وأفكّر بهيباسي. وكنت أردّد في سرّي، إنّ ما جرى هو عين الإنصاف. فهل كنت قادراً على اصطحابها؟ وهل كانت لتألفَ العيش في عالم تجهله، منفية عن براءة الغابة، وعن ألفة شعائرها وصحبة رفيقاتها؟ وهل كانت لتتخلّى عن كونها مصطفاة، منذورة لفداء الإله؟ لو أني فعلتُ لجعلتُ منها عبدة، أو كائناً تعِساً. ثمّ إني لم أسألها يوماً كم عُمْرها، ويقيني أنّها لما كانت حتّى بمثل عُمرِ ابنتي لو قيضَ لي أن أنجبَ بنتاً في شبابي. عندما غادرت بندابتزيم كنتُ، على ما أظنّ، في الخامسة والخمسين. وإذا بدوت في عينيها فتياً وقوياً فلأني كنت أوّل رجل تلتقيه، والحقيقة أني كنت أسير بخطى ثابتة

نحو الشيخوخة. كنت سأمنحها القليل مقابل الكثير الذي سأنتزعه منها أو أنتزعها منه. في ذلك الوقت كنت أسعى لإقناع نفسي بأنّ المجرى الذي سلكته الأمور هو الأصحّ: ما يجلب لي التعاسة إلى الأبد. وربّما لو تقبّلت الأمر، كما هو، استطعت أن أتصالح مع نفسي.

- ألم تفكّر في الرجوع إليها؟

- في كلّ لحظة، بعد انقضاء الأيام الثلاثة الأولى التي بدوت خلالها بلا ذاكرة. غير أننا كنّ قد ضللنا طريقنا. فالوجهة التي سلكناها لم تكن هي الوجهة ذاتها التي قدمنا منها، وتهنا في دروبٍ والتفافات لا حصر لها، واجتزنا الجبل نفسه ثلاث مرّات، أو لربّما كانت ثلاثة جبال مختلفة، لكننا لم نميّز فيما بينها. لم تكن الشمس كافية للاهتداء إلى وجهة، وأرظروني ما عادَ معنا، لا هو ولا خارطته. ربّما التففنا حول ذلك الجبل الهائل الذي يحتلّ نصفَ خيمة الكون، وبلغنا الجانب الآخر من الأرض. ثمّ فقدنا خيولنا. فالدواب البائسة رافقتنا منذ بداية رحلتنا، وشاخت معنا، وما كنا لنفطن لذلك، لأنّ بندابتزيم مدينة خالية من الخيول التي قد نقارنها بها. وكنّا قد أنهكناها خلال فرارنا المتواصل لثلاثة أيام من دون راحة. ونفقت جميعها، وكان في موتها نعمة لنا، ذلك أنّها أحسنت صنيعاً عندما نفقت تباعاً، أحدها تلو الآخر، وفي أماكن لا نجد فيها طعاماً، فنأكل لحمها، أو القليل الذي بقي من لحمها عالقاً بعظامها. تابعنا الطريق سيراً على أقدامنا التي كستها الخدوش، وكان غافاغاي وحده من بيننا الذي لا يشكو أو يتذمّر، لأنّه لا يحتاج إلى الخيول، وله عند باطن قدمه الوحيدة طبقة يابسة بسَمْكِ إصبعين. وكنّا نأكل الجراد، فعلاً، ولكن من دون عسل، خلافاً لآباء الكنيسة. ثمّ فقدنا كولندرينو.

- هو بالذات؟ أصغركم سنّاً...

- أقلّنا خبرة. كان يبحث عن طعام بين الصخور، ودسّ يده في تجوّف بينها فنَهَشَتْه أفعى. ولم يمهله السمّ إلاّ لتوديعي والهمس في أذني موصياً بأن أبقى وفياً لذكرى شقيقته الحبيبة، لذكرى زوجتي الغالية،

بحيث أجعلها، أنا على الأقلّ، حيّة في ذاكرتي. كنت قد نسيت كولندرينا، فلم يزدني ذلك إلاّ شعوراً بأني زانٍ وخائن حيال كولندرينا وحيال كولندرينو.

– وبعد ذلك؟

– بعد ذلك، صرنا نرى الدنيا سواداً. بحسب تقديري، يا سيّد نيسيتاس، كنتُ قد غادرت بندابتزيم خلال صيف عام الربّ 1197. ووصلت إلى القسطنطينية في شهر كانون الثاني المنصرم. وبين هذين الحدثين انقضت ست سنوات ونصف السنة من الخواء، خواء روحي أنا، وربّما خواء العالم.

– ستّ سنوات من التَيَهان في الصحارى؟

– سنة، أو ربّما سنتين، فمن كان يبالي بحساب الوقت؟ على أثر وفاة كولندرينو، ربّما بعد وفاته ببضعة أشهر، ألفينا أنفسنا عند سفح سلسلة من الجبال لا ندري كيف نتسلّقها. من مجموعة الاثني عشر الذين شرعوا بالرحلة في البداية، لم يبق منا سوى ستة أنفار ووحيد ساق، رثّي المظهر، هزيلي القامات، مُلْتاحي البشرة من لَفْحِ الشمس، لم يبقَ لنا سوى أيدينا والخِرَجَة التي نحملها. كنا مقتنعين فيَ قرارة أنفسنا أننا بلغنا نهاية رحلتنا، والأجدر بنا أن نموت هناك، حيث وصلنا. ولكن فجأة، لمحنا رهطاً من الرجال مقبلين على خيولهم. كانوا يرتدون ملابس فاخرة ويحملون أسلحةً لامعة، ولهم جسم آدميّ ورأس كلب.

– إنّهم السينوسيفالوس، الكائنات الكلبية الرؤوس. هم حقيقةٌ إذاً.

– حقيقة كما الله حقيقة. راحوا يطرحون علينا الأسئلة وهم يطلقون نباحاً لم نفقه منه شيئاً، ثمّ افترّ خطم من بدا أنّه قائدهم، عن ابتسامة – ربّما كانت ابتسامة أو لعلّها زأرة غضب، كشفت عن أنيابٍ طويلة حادة، وأصدر أمراً لأتباعه فقيّدونا في صفٍّ أحادي. واقتادونا عبر الجبل سالكين أحد الدروب التي لا يعرفها أحد سواهم. وبعد ساعات من السير هبطنا إلى وادٍ يحوطه من كلّ صوبٍ جبل شاهقٌ آخر، وعلى سفحه حصن منيع

تحوّم فوقه طيور كاسرة، وتبدو، برغم البعد، هائلة الأحجام. وتذكّرت وصفَ عبدول، وأيقنت أنّه حصن علاء الدين.»

كان ذلك فعلاً. اقتادهم السنوسيفالوس صُعُداً عبر سلّم شديد التعرّج منحوت في الصخر، وصولاً إلى ذاك الملاذ الحصين، وأدخلوهم إلى القصر الذي بدا باتساع مدينة، حيث تراءت، بين الأبراج والأسطح، حدائق معلّقة وممرّات محمية بحواجز مشبّكة متينة. من هناك تولّى أمرهم رهط آخر من السينوسيفالوس حاملي السياط. وأثناء اجتيازهم أحد الممرّات، لمح باودولينو عبر نافذة، وعلى نحو خاطفٍ، ما يشبه الفِناء بين جدران عالية حيث يستلقي نفرٌ من الفتيان المقيَّدين بالسلاسل فتذكّر كيف يربي علاء الدين قتلته المأجورين على الجريمة، باستلاب إرادتهم عبر إدمانهم العسل الأخضر. أدخلهم حرّاسهم إلى رَدهةٍ فخمة حيث مثلوا أمام شيخ بدا، في جلسته على الطنافس المزركشة، كأنّه بلغ من العمر مائةً من السنين، بلحيته البيضاء وحاجبيه الأسودين ونظرته الواجمة. كان ذاك هو علاء الدين، ما زال حيّاً يرزق، متولّياً على عبيده، كما كان حيّاً يرزق وذا سلطان عندما أسر عبدول منذ قرابة نصف قرن من الزمن.

رمقهم بازدراء، إذ بدا واضحاً من مظهرهم البائس أنّهم لا يصلحون لأن يكونوا في عداد فتيانه القتلة. حتّى أنّه لم يخاطبهم بكلمة، واكتفى، ملولاً، بإشارة من يده لأحد الخدم لديه، كأنّه يقول له: اصنع بهم ما شئت. ولم يلفته حقاً إلاّ وحيد الساق منتصباً على قدمه الوحيدة خلفهم. فأمره بأن يمشي، ودعاه ضاحكاً، بشاراتٍ من يديه، لأن يضع رِجْلَه على رأسه. ثمّ اقتيد الرجال الستّة، واستبقى غافاغاي بجواره.

هكذا بدأت فترة الأسر الطويلة لكلّ من باودولينو وبورون وكيوت وربّي سليمان والبويدي والشاعر، التي قضوها مكبّلي القدمين بسلسلة ثبّتَ طرفها بقلّةٍ من الصخر، مسخّرين لأعمال وضيعة، كغسل بلاط الأرضيّة والجدران حيناً، ودفع رحى المطاحن، حيناً آخر، أو حمل شِقاق لحم الخِراف لطيور الرُّخ.

«كانت تلك، قال باودولينو مفسّراً، حيوانات طيّارة كبيرة الحجم يبلغ أحدها حجم عشرة نسور مجتمعة، ولها منقار معقوف وقاطع، تستطيع به أن تنهشَ عِجْلاً بأكمله في هنيهات. ولقوائمها مخالب شبيهة بحيزوم السفن الحربية. كانت تلك الطيور تسعى، مجفلةً على الدوام، داخل قفص فسيح جُعِلَ على سطحِ أحد الأبراج الرئيسية، متأهّبةً للانقضاض على أيِّ كان باستثناء خصيٍّ بدا أنّه يجيد لغتها، وكان يرعاها ويجول بينها كأنّه بين دجاجات خمّه. كما كان الوحيد القادر على استخدامها كمراسيل في خدمة علاء الدين: كان يضع على ظهر أحدها وعنقه أحزمةً متينة يلفها من تحت الجناحين، ثمّ يربط بهذه سلّةً أو أي وعاء آخر، ثمّ يفتح مشربية غي جدار القفص ويعطي العصفور المحمّل أمراً، فلا يلبث هذا أن ينطلق، هو وليس أي طائر سواه، من سطح البرج، محلّقاً في السماء. كما شهدنا إياب بعضها، فيهرع الخصيّ لإدخالها إلى القفص ثمّ يفكّ من أحزمتها الجراب أو المظروف المعدني الذي يحتوي رسالة موجّهة إلى سيّد المطرح.»

في أحيان أخرى، كان السجناء يقضون أياماً وأياماً في بطالة تامّة، لأنّ ليس هناك ما يفعلونه؛ فيطلب منهم أحياناً أن يمدوا يد العون للخصيّ الذي يحضر العسل الأخضر إلى الفتيان المقيّدين، فيستبدّ بهم الهلع حين يشاهدون سحنهم المعتلّة بحلم اليقظة الذي ينهك قواهم. وحين لا يكون حلم اليقظة علّتهم، يتكفّل السأم الخبيث بأصحابنا الأسرى الذين يتحايلون على الزمن المتباطئ في تصرّمه، باستعادة أحداث الماضي وسردها مراراً وتكراراً. كانوا يستعيدون ذكريات باريس والإسكندرية، وسوق غاليبولي المبهج، والأيام المشرقة التي قضوها في ضيافة مريدي حكمة العري. كانوا يتحدّثون عن رسالة الراهب جان، بينما الشاعر يزداد تجهماً، يوماً بعد يوم، مردّداً أقوال الشمّاس كأنه سمعها: «إنّ الشكّ الذي يؤرقني هو ألاّ يكون هناك مملكة. فمن الذي حدثنا عنها في بندابتزيم؟ الخصيان.

وإلى من كان يعود الرسل الذين يبعثون بهم إلى الراهب؟ يعودون إليهم هم، إلى الخصيان. وهل كان الرسل يذهبون، حقاً، إلى المملكة؟ وهل كانوا يعودون منها؟ الشماس لم يرَ يوماً أباه. كلّ ما عرفناه عنه بلغنا عن لسان الخصيان. وربّما لم يكن الأمر سوى مكيدة أعدّها الخصيان الذين لا يبالون لا بالشمّاس ولا بنا ولا بأي من النوبيين وحيدي الساق وسواهم. حتّى أني أتساءل أحياناً إذا كان الهُوْن البيض هم حقيقة أم خيال. . .» وكان باودولينو يذكّره برفاقهم الذين قضوا في المعركة، وكان الشاعر يهزّ رأسه غير مبالٍ بهذا البرهان. فلعلّه كان يؤثر، عِوَض الاعتراف بأنّه هُزِمَ، أن يصدّق بأنّه كان ضحية شعوذة أو سحر ساحر.

ثمّ كانوا يستعيدون وقائع وفاة فردريك، فيبتكرون لها، في كلّ مرّة، تفسيراً جديداً لكي يهتدوا إلى سبب مقنع لتلك الوفاة التي يعجزون عن تفسيرها. الجاني هو زوسيمَس، فالأمر واضح لا يحتمل الشك. ولكن لا، زوسيمَس سرق الغرادال، فعلاً، ولكن بعد وفاة الإمبراطور. فثمّة من سبقه إلى ارتكاب فعلته، على أمل الاستيلاء على الغرادال. فمن عساه يكون؟ أرظروني؟ مَنْ يدري؟ أيكون أحد رفاقهم الذين قضوا في المعركة؟ يا لهذا الظنّ الجائر. أيكون أحدهم، هم المتبقين على قيد الحياة؟ ولكن ألاّ يكفي ما يكابدونه من الهوان، كان باودولينو يردّد قائلاً، فهل عليهم أن يكابدوا أيضاً عذاب الارتياب المتبادل؟

«لم يساورنا أيّ من تلك الشكوك طوال رحلتنا، ربّما لفرط ما كنا نبديه من توق وحماسة لاكتشاف مملكة الراهب. وكان كلّ واحد منا لا يبخل بمساعدة الآخر بروحية الصداقة التي جمعتنا. فالأسر هو الذي جعلنا أناساً حاقدين، لا ينظر أحدنا إلى وجه الآخر، ولسنوات طويلة تبادلنا الحقد والكراهية فيما بيننا. كنت أحيا منكفئاً على ذاتي. لا أكفّ عن التفكير بهيباسي، غير أني لم أفلح يوماً في استعادة ملامح وجهها، فقط كنت أذكر البهجة التي منحتني إياها. وفي بعض الليالي، كنت أمدّ

يديّ القلقتين لأضعهما على شعر عانتي، حالماً بأني أداعب شِعْرَتها التي تفوح بأريج الطحلب. كنتُ قادراً على استثارة شهوة جسدي، ذلك أنّه إذا كانت أذهاننا تذوي مقيمة على السهو والشرود، فإنّ أجسادنا، بالمقابل، كانت تتعافى تدريجاً من تبعات تجوالنا الطويل الشاق. لقد كانوا يطعموننا جيداً في الأسر، فنأكل مرّتين في اليوم ما يزيد عن حاجتنا. وربّما كان ذلك أسلوب علاء الدين الذي رفض إشراكنا في أسرار عسله الأخضر، لإرضائنا وإبعادنا عمّا لا يريدنا أن نحشر أنوفنا فيه. والواقع أننا في تلك الفترة استعدنا نشاطنا وقوانا، وعلى الرغم من الأشغال الشاقة المنوطة بنا، كنّا نسمن على نحو لافت. وكم كنت أنظر إلى بطني الذي صار منتفخاً وبارزاً، وأردّد في سرّي: أنت جميل يا باودولينو، هل الرجال كلّهم بمثل جمالك؟ ثمّ يغلبني ضحكٌ صُهالٌ كالمسطول.»

كان عزاؤهم الوحيد هي اللحظات التي يزورهم فيها غافاغاي. فصديقهم المخلص كان قد أصبح مهرّج علاء الدين المخصوص. كان يسرّي عنه ويسليه بحركاته المضحكة، وفي الوقت نفسه، يسديه بعض الخدمات منطلقاً عبر الممرّات مبلّغاً رغباته وأوامره، كما تعلّم اللغة العربية، وصار يتمتّع بهامش كبير من الحرية. كان يحمل لهم بعض الأطايب من مطابخ سيّده، وأخبار الحصن والصراعات الدفينة بين الخصيان لنيل حظوة السيّد، وأخبار الاغتيالات التي يكلّف بها فتيانه المُهَلّسين.

ذات يوم، أعطى باودولينو عسلاً أخضر، ولكن قليلاً منه، قال، وإلاّ أصابك ما يصيب أولئك الفتيان القَتَلة. تناول باودولينو بعضه فقضى ليلة حب مع هيباسي. ولكن قبيل نهاية الحلم كان مظهر الصبيّة قد تبدّل، إذ غدت ساقاها رشيقتين بيضاوين جميلتين على غرار نساء البشر، وصار لها رأس شاة.

نبّههم غافاغاي إلى أن أسلحتهم وخِرَجَتهم قد رميت في محرزٍ ما، وأنه سيعثر عليها عندما سيحاولون الفرار. «ولكن، أتعتقد حقاً يا

غافاغاي، أننا سنتمكّن من الفرار ذات يوم؟» سأله باودولينو. «أنا يعتقد بلى. أنا يعتقد هناك وسيلة كثير لفرار. لكن أنا فقط يعثر على أفضل وسيلة. ولكن أنت يصير سمين مثل خصيان، وإذا سمين لا يستطيع فرار. أنت يجب تحرّك جسم أنت، كما أنا، أنتَ تضع رِجْل فوق رأس وأنت يصير رشيق حركة.»

لا، طبعاً لن يضع باودولينو رِجْلَه فوق رأسه، لكنّه أدرك بأنّ الأمل بالفرار، ولو كان وهماً، سيعينه على مكابدة الأسر من دون أن يفقد صوابه، ولذا راح يستعدّ للحدث المرتقب بتحريك ذراعيه وثني جذعه فوق ساقيه مراراً وتكراراً حتّى يقع منهوكاً على بطنه المكوّر البارز. كما أوصى رفاقه بأن يحذوا حذوه، وراح يتمرّن مع الشاعر على منازلات القتال، ويقضي كلّ ما بعد الظهيرة أحياناً، متمرّناً على الارتماء أرضاً. لم يكن الأمر يسيراً عليهم مع السلاسل التي تقيّد أرجلهم، وليونة أجسادهم الذين فقدوها منذ بعض الوقت. ليس فقط بسبب الأسر. بل أيضاً بسبب التقدّم في السنّ. غير أنّ مزاولة تلك التمارين كان يريحهم ويقوي من عزيمتهم.

كان ربّي سليمان، هو الوحيد من بينهم، الذي غفل تماماً عن جسمه. كان يأكل القليل، وبلغ جسمه من الوهن مقداراً صار معه عاجزاً عن القيام بأي عمل، فيتولى رفاقه إنجازها بالنيابة عنه. كان يصرف الساعات مردّداً ذكر الله بنبرات وأصوات مختلفة. فقد أسنانه كلّها فلم تبقَ سوى اللثّة، فكان يتناول الطعامَ مُضَغْضِغاً بتمهّلٍ ويصاحب لفظَه صفرٌ مسموع. كما كان أقنع نفسه، في الأثناء، بأنّ الأسباط المفقودة لا يمكن أن تكون استقرّت في مملكةٍ نصف رعاياها من النساطرة، وهؤلاء قد يشفع لهم، في نظر اليهود، رأيهم بأنّ تلك المرأة الصالحة مريم لا يعقل أن تكون أنجبت أي إله، غير أنّ النصف الآخر منهم عبّاد أوثان يقللون أو يزيدون من عدد الآلهة كما يحلو لهم. لا، كان يردّد في سرّه، قانطاً، لا بدّ أن الأسباط العشرة قد مرّت بالمملكة، لكنها تابعت طريقها إلى شتاتٍ

ما. نحن اليهود نسعى على الدوام وراء أرض موعودة ما، شريطة أن تكون في مكان آخر، فمن يدري اليوم أين أصبحت، ربّما كانت على مقربة من هذا المكان الذي سيشهد أيامي الأخيرة، غير أني فقدتُ كلّ أمل بالعثور عليها. فلنصبر على التجارب التي يدخلنا فيها القدوس، المبارك على الدوام. لقد كابد أيوب ما هو أشقى وأمرّ.

«لقد فقد صوابه، الأمر واضح لا ريب فيه. وكيوت وبورون فقدا صوابهما هما أيضاً لفرط ما جعلا الغرادال وهاجس العثور عليه محور تفكيرهما، لا بل باتا يعتقدان اليوم، أنّ الغرادال نفسها ستقودهما للعثور عليها، وكلّما استغرقا في الحديث عنها ازدادت قدراتها العجائبية إعجازاً، وتفاقم هاجسما بضرورة أن يمتلكاها. وكان الشاعر يردّد باستمرار: دعوني أضع يدي على زوسيمَس فأغدو سيّد العالم، كان يقول: إنّه لم يصل حتّى إلى بندابتزيم، ولا بدّ أنّه ضلّ الطريق، وصارت عظامه تراباً في مكان ما من ذلك الوعر الشاسع، ولا بدّ أن بعض الكفّار الرُحَّل استولى على غراداله واستخدموها وعاءً لبولهم. سدّ فمك، أصمت، كان بورون يصيح بي مترب السحنة حانقاً.

– كيف تمكّنتم من النجاة من ذاك الجحيم؟ سأل نيسيتاس.

– ذات يوم، جاءنا غافاغاي ليخبرنا بأنّه اهتدى إلى سبيل الفرار. مسكين غافاغاي، كان، في الأثناء، قد شاخَ هو أيضاً. لم أعرف يوماً ما هو العمر الذي قد يبلغه وحيد الساق، غير أنّه بات عاجزاً عن الانطلاق كالبرق، كسابق عهدنا به. كان يأتينا كالرعد، متأخراً بعض الشيء، لاهثاً باديَ التعب.»

كانت الخطة تتلخّص بما يلي: أن ننقضّ، مسلّحين، على الخصيّ الذي يعنى بطيور الرخّ على حين غرّة، ثمّ نرغمه على تحزيمها، على جري عادته، وأن يربط الفارين بأحزمتها، وليس السلال المعتادة. وبعد

ذلك يصدر لها أمراً بالتحليق حتّى القسطنطينية. كان غافاغاي قد تحدّث ذات مرّة إلى الخصيّ وعلم منه أنه غالباً ما يطلق الرخّ باتجاه تلك المدينة محمّلة برسائل لأحد عملائهم الذي يقيم عند قمّة إحدى الهضاب بقرب بيرا. كان باودولينو وغافاغاي يجيدان اللغة العربية ويستطيعان، بالتالي، التثبّت من مضمون الأوامر التي سيعطيها الخصيّ للطيور. «كيف لم يفكر أنا بهذا من قبل؟» راح غافاغاي يردّد قائلاً وهو يلطم رأسه براحته على نحو مضحك.

«أجل، قال باودولينو، ولكن كيف لنا أن نطير وقدمنا مقيّدة بسلسلة؟

– أنا يتدبّر مبرد»، قال غافاغاي.

في تلك الليلة، عثر غافاغاي على اسلحتهم وخِرَجَتهم وأحضرها لهم إلى المهجع. كانت السيوف والخناجر صدئةً فانكبوا، لياليَ طويلة، على تنظيفها وتلميعها وسنّها من خلال حفّها بأحجار الجدران. حصلوا أيضاً على المبرد الذي لم يكن أفضل المبارد قاطبةً، واستغرقهم قطع الحلقات التي تكبّل أرجلهم أسابيع وأسابيع من العمل. وأفلحوا أخيراً في ذلك، فمرّروا حبلاً تحت الحلقة المشقوقة وربطوها بالسلسلة بحيث أمكنهم التجوال كعادتهم في أرجاء القصر كأنّ شيئاً لم يكن. لم يكن مستحيلاً على من يدقّق النظر أن يتبيّن خدعتهم، غير أنّ أسرهم طال لسنوات وما عاد أحد ليعيرهم انتباهاً خاصاً وبات السنوسيفالوس ينظرون إليهم بوصفهم حيواناتٍ أليفة.

ذات مساء علموا أنّ إحدى مهامهم لليوم التالي هي أن يذهبوا إلى المطابخ لإحضار اللحم الفاسد ثمّ رميه للطيور. ولفتهم غافاغاي إلى أن تلك هي فرصتهم المرتقبة.

عند الصباح ذهبوا لإحضار الأجربة كأنّهم ينفذون ما يطلب منهم بكثير من الامتعاض، ثمّ عرجوا على المهجع حيث خبّاوا الأسلحة بين شِقاق اللحم. ولمّا وصلوا إلى القفص كان غافاغاي هناك محاولاً إلهاء الخصيّ الحارس ببعض ألعابه البهلوانية. لم يكن تنفيذ ما تبقّى من الخطّة

بالأمر العسير، ففتحوا الأجربة واستلوا خناجرهم وما لبثت نصال ستّة منا أن لامست رقبة الحارس (فيما لبث سليمان لا يحرّك ساكناً كأنّ الأمر لا يعنيه البتة) وشرح باودولينو للخصيّ ماذا ينبغي أن يفعل. في البداية قال لهم إنّ عدد الأحزمة المتوافر غير كافٍ، غير أن الشاعر همّ بقطع أذنيه فسارع الخصيّ الذي شقّت أذنه بالفعل، إلى القول بأنّه مستعدّ للتعاون معهم. أعدّت سبعة طيور لحمل سبعة رجال، أو الأحرى ستة رجال ووحيد ساق. «أنا أريد أشدّ الطيور وأضخمها، قال الشاعر، لأنّك للأسف الشديد، قال مخاطباً الخصيّ، لن تتمكّن من البقاء هنا، فقد تحذّر الآخرين أو تصدر للطيور أمراً بالعودة إلى القفص. لذا سوف نربط سيراً إضافياً بحزامي لكي أحملك معي. وعليه، يجب أن يكون الطائر الذي سيحلّق بي قادراً على حمل شخصين اثنين.»

تولّى باودولينو ترجمة اقوال الشاعر، فأبدى الخصيّ سروره بمرافقة خاطفيه إلى آخر الدنيا، لكنه أراد أن يعلم ما المصير الذي ينتظره بعد ذلك. فطمأنوه: ما إن يصلوا إلى القسطنطينية حتّى يطلق سراحه وليذهب حيثما يريد. «هيّا بنا، لنسرع قليلاً، فالوخم المنبعث من هذا القفص لا يطاق.»

استغرقهم ربط الأحزمة كما ينبغي قرابة الساعة. وربط كل منهم بإحكام إلى طيره، أما الشاعر فتثبّت من السير الإضافي الذي سيحمل الخصيّ. لم يبقَ سوى غافاغاي الذي كان يتولّى المراقبة عند طرف الممشى لكي لا يباغتهم أحد محبطاً خطّتهم.

ثمّة من أتى فعلاً. حرّاس لاحظوا أن المساجين الذين ذهبوا لإطعام الطيور لم يرجعوا بمضيّ ساعة أو أكثر. فهرع رهط من السنوسيفالوس عبر الممرّ نابحين متوجّسين. «إنه قادم رأس كلب! صاح غافاغاي محذراً. أنتم يرحل فوراً!

- نحن يذهب فوراً، هراء، صاح باودولينو قائلاً. هيّا تعال، هناك متسع من الوقت لنعدّ أحزمتك!»

لم يكن صحيحاً ما قاله باودولينو، وكان غافاغاي مدرك ذلك. فلو غادر موقعه لتمكّن السنوسيفالوس من بلوغ القفص قبل أن يتسنّى للخصي فتح المشربية وإطلاق الطيور. صاح بالآخرين أن يفتحوا القفص ويسرعوا بالانطلاق فوراً. واستلّ من جراب اللحم ناسوره ومعه ثلاثة سهام. «وحيد ساق يموت، لكن يبقى وفيا لملوك مجوس»، قال. استلقى على الأرض رافعاً رجله ووضع طرف الناسور عند فمه ونفخ فيه فخرَّ من كان في طليعة السينوسيفالوس صريعاً. وبينما سعى الآخرون إلى التراجع تمكّن غافاغاي من قتل اثنين آخرين. ولكي يحول دون تقدّمهم مجدداً أبقى الناسور على فمه متظاهراً بأنه سيردي كلّ من يتقدّم نحوه. لكنّ خدعته تلك لم تنطلِ على المهاجمين لوقت طويل، فانقضوا عليه وأعملوا سيوفهم في جسمه حتّى قضى.

في الأثناء كان الشاعر يغرز نصل خنجره قليلاً تحت ذقن الخصيّ، ولمّا نزف قليلاً، أدرك على الفور ما يتعيّن فعله، وعلى الرغم من القيود التي طوقته تمكّن من فتح المشربية. وعندما رأى الشاعر غافاغاي صريعاً على الأرض، صرخ بهم: «قضي الأمر، هيا، هيا!» فأصدر الخصي أمراً للطيور فانطلقت من القفص وحلّقت عالياً. في تلك اللحظة دخل السينوسيفالوس إلى القفص غير أن الطيور المتبقية المجفلة وسط المعمعة تصدّت لهم بمناقيرها الصلبة الحادة.

ألفى الستّة أنفسهم محلّقين في الفضاء. «هل أعطاها الأمر الصحيح بالتوجّه إلى القسطنطينية؟» سأل الشاعر باودولينو صارخاً بأعلى صوته، فأجابه باودولينو بإشارة من رأسه أنّه فعل. «إذاً ما عدنا في حاجة إليه»، قال الشاعر. وبضربة من خنجره قطع السير الذي يربطه بالخصيّ فهوى سابحاً في الهواء. «هكذا سيكون تحليقنا أفضل، قال الشاعر. وحظي غافاغاي بثأره.»

«لقد حلّقنا عالياً، يا سيّد نيسيتاس، فوق السهول المقفرة التي لا أثر

فيها لشيء إلاّ صدوع الأنهر الجافّة منذ ما يعلم الله وحده، وفوق حقول مزروعة، وبحيرات وغابات، متشبّثين بقوائم الطيور خشية ألاّ تصمد السيور طويلاً تحت ثقل أجسادنا. حلّقنا لفترة من الوقت لا يمكنني تحديدها، وغطّت القروح راحاتنا. كانت تترى من تحتنا المنبسطات الرملية، والأراضي الخصبة والحقول وسفوح الجبال. كنا نحلّق تحت الشمس ولكنْ مظللين بتلك الأجنحة الهائلة الخافقة في الهواء فوق رؤوسنا. لا أدري كم من الوقت استغرقت رحلتنا، حتّى أثناء الليل، وعلى ارتفاعٍ لا تبلغه الملائكة. في وقتٍ ما، تسنّى لنا أن نلمح، تحتنا، في منبسط مُقفرٍ، عشر قوافل - أو ذاك ما تراءى لنا - من البشر (أم أنها كانت مجرّد نمال؟) تسير في وجهاتٍ متوازية نحو ما لا يعلم إلاّ الله وحده. فراح ربّي سليمان يصرخ قائلاً إنّها الأسباط العشرة المفقودة، وإنّه يريد الانضمام إليهم. كان يحاول إرغام طائره على الهبوط بجذب قائمتيه وتوجيه طيرانه على نحو ما تدار الأشرعة بجذب حبالها، أو كما يجذب مقبض الدفّة، ما أثار غضب الطائر فحاول أن يغرز مخالبه في رأسه. يا سليمان دعك من هذا الحَمَق، كان البويد يخاطبه صائحاً، هؤلاء ليسوا قومك، إنّهم جماعات من البدو الرحّل الذين ليست لهم وجهة محددة! ولكن عبثاً. لقد استبدّ بسليمان ما يشبه الوجد الصوفي المُهَلّس، فراح يتخبط ويتمطّى حتّى انقطعت سيور رباطه وهوى، لا بل حلّق، باسطاً ذراعيه، عبر السماوات كأنّه أحد ملائكة الربّ، تقدّس اسمه، وقد جذبته أرض ميعاد. رأيناه هابطاً متضائلاً حتّى اختلط رسمه برسم النمال التي تراءت لنا، هناك، في الأسفل.»

بعد وقت ليس بطويل، بلغت طيور الرخّ، الأمينة للأوامر التي تلقتها، مشارفَ القسطنطينية، وتراءت لهم قبابها المتألّقة تحت الشمس. هبطوا حيث كان ينبغي أن يهبطوا، وحلّوا السيور التي تربطهم. هرع شخص، ربّما كان هو جاسوس علاء الدين، لاستقبالهم مبدياً دهشته لهذا

العدد الكبير من المراسيل. فبادره الشاعر بابتسامة وعاجله بضربة على الرأس بصَفْحِ سيفه. «أباركك باسم علاء الدين»، قال باللاتينية ساخراً، فيما تهالكَ الآخر على الأرض مثل جراب ممتلئ. «بششششت، أوسسست!» صاح بعد ذلك مخاطباً الطيور. وبدا أنها تعرّفت إلى نبرة الصوت فانطلقت محلّقةً ثمّ تلاشت في الأفق البعيد.

«نحن الآن في ديارنا، قال البويدي مبتهجاً، مع أنّ دياره تبعد آلافاً مؤلّفة من الأميال.

- لنأمل أن يكون أصدقاؤنا الجنويون ما زالوا في الجوار، قال باودولينو. فلنبحث عنهم.

- سوف ترون كم ستغدق علينا رؤوس المعمدان هذه، قال الشاعر الذي بدا فجأةً مستعيداً سبابه. لقد عدنا إلى ديار المسيحيين. صحيح أننا خسرنا بندابتزيم، لكن القسطنطينية ملك يدينا.»

«ما كانوا يدرون، قال نيسيتاس بابتسامةٍ حزينة، أنّ مسيحيين آخرين كانوا في الأثناء يسعون لأن تكون القسطنطينية ملك ايديهم.»

37

باودولينو يُغْني كنوز بيزنطية

«ما إن حاولنا اجتياز القرن الذهبي ودخول المدينة حتّى أدركنا حقيقة الأمر: إذ ألفينا أنفسنا في موقف عجيب لم نشهد مثيله من قبل. لم تكن مدينة محاصرة، لأنّ الأعداء، وإن كانت سفنهم راسية في الميناء، قد عسكروا في بيرا، وكان عدد منهم يجوب طرقات المدينة. ولم تكن مدينة محتلّة، لأنّنا صادفنا، إلى جانب الغزاة ذوي الصلبان المخيطة على قمصانهم، رجالاً مسلّحين من رجال الإمبراطور. ما يعني، في الخلاصة، أنّ حاملي شارة الصليب كانوا في القسطنطينية، لكنّ القسطنطينية لم تكن لهم. ولمّا التقينا مجدداً أصدقاءنا الجنويين، أولئك الذين أقمت، أنت أيضاً، في ضيافتهم لبعض الوقت، ألفيناهم، لا يدرون، هم أيضاً، حقيقة ما جرى وما سوف يجري.

- كان الأمر عصياً على الفهم حتّى بالنسبة لنا، نحن ايضاً، قال نيسيتاس بشيء من الحسرة والرضوخ. ومع ذلك، ينبغي أن أدون، ذات يوم، أخبار تلك الحقبة. فعلى أثر إخفاق الحملة لاستعادة أورشليم التي أطلقها صاحبك فردريك وملكا فرنسا وانكلترا، أراد اللاتينيون، بعد عشر سنوات، أن يعيدوا الكرّة بقيادة أمراء كبار كبودوان الفلندري أو بونيفاس دو مونفيرا. غير أنّهم كانوا يحتاجون إلى أسطولن فأقنعوا أهل البندقية ببنائه. لقد سمعتك ذات يوم وأنت تسخر من بخل الجنويين، ولكن

بالمقارنة مع أهل البندقية، يمكن القول إنّ أهل جنوى هم الجود في ذاته. حظي اللاتينيون أخيراً بسفنهم لكنّهم بالمقابل لم يملكوا المال فطالبهم، دوج البندقية، داندولو (الذي شاء القدر أن يكون أعمى، هو أيضاً، لكنّه من بين عميان تلك الواقعة، كان هو صاحب البصيرة الأكثر نفاذاً) سداداً لدينه المتوجّب عليهم، أن يعينوه، قبل التوجّه إلى الأراضي المقدّسة، على إخضاع زارا. فقبل الحجّاج بالأمر، وكانت تلك أولى جرائمهم، إذ لا يعقل امتشاق الصليب ثمّ العمل على غزو مدينة إرضاءً لأهل البندقية. وفي الأثناء، كان ألكسيس، شقيق اسحق آنج الذي استولى على عرش أندروميكس، بعد أن أعمى شقيقه ونفاه إلى الساحل، قد أعلن نفسه باسيليوس.

- هذا ما سمعته، فور عودتي، عن لسان الحنويين. وهي قصّة معقّدة بعض الشيء، لأنّ شقيق اسحق أصبح الباسيليوس ألكسيس الثالث، ولكن كان هناك ألكسيس آخر هو ابن اسحق الذي تمكّن من الفرار وقصد زارا التي أصبحت في يد أهل البندقية، وطلب من الحجاج اللاتينيين أن يساعدوه على استعادة عرش أبيه مقابل مساعدتهم في غزو الأراضي المقدسة.

- إنّ أيسر الوعود هو الوعد بما لا تملكه. فلا بد أنّ ألكسيس الثالث أدرك، من جهته، أنّ إمبراطوريته مهدّدة. صحيح أنه لم يكن أعمى، لكنّ الكسل والفساد المستشري من حوله كانا قد أعميا بصيرته. أراد، ذات يوم، أن يبني أساطيل حربية أخرى، غير أنّ خَفَر الأحراش الإمبراطورية لم يسمحوا له بقطع الأشجار. ومن ناحية أخرى، كان ميكائيل ستريفانو، قائد الجيوش، قد باع الأشرعة وكَبْل الصواري ومقابض الدفّة وأجزاء أخرى من السفن المتوافرة، لكي يملأ خزائنه بالمال. في تلك الأثناء، كان ألكسيس الابن يعامل في زارا على أنّه إمبراطور، وفي شهر حزيران من العام المنصرم، وصل اللاتينيون إلى هنا، على أبواب المدينة. مائة وعشر غاليّة وسبعون سفينة شراعية تحمل

نحو ألف ضابط وثلاثين ألف جندي، مجهّزة بالتروس عند كوى الرمي، شاهرةً أعلامها وبيارقها، منتشرةً في ما يشبه استعراض القوة بمحاذاة دلتا السان جورج، صادحة بنفخ الأبواق وقرع الطبول، فيما وقف جماعتنا على الأسوار متفرّجين. راح البعض يقذف بالأحجار لا لغرض الإيذاء بل لما يثيره وقعها من القرقعة. ولم يخرج ألكسيس الثالث بجيشه إلاّ عندما رست السفن اللاتينية قبالة بيرا. أنت تعلم بلا ريب أنّ مدخل القرن محميّ بسلسلة مدعّمة تصل ما بين الضفتين، غير أنّ رجالنا لم يحسنوا الدفاع عنها، فحطّموا السلسلة ودخلوا الميناء وأنزلوا قواتهم قبالة قصر البلاشيرن الإمبراطوري. سار جيشنا إلى خارج الأسوار وعلى رأسه الإمبراطور، وكانت نساؤنا يراقبن المشهد من أعلى الأسوار مردّدات أنّ رجالنا أشبه بالملائكة في دروعهم اللامعة تحت الشمس. غير أنّهنّ لم يدركنَ أنّ في الأمر خطباً إلاّ عندما عاد الإمبراطور أدراجه، عِوَض خوضه المعركة، إلى داخل أسوار المدينة، ثمّ ازددنَ علماً بحقيقة ما جرى، بعد ذلك ببضعة أيام، عندما هاجم أهل البندقية أسوار المدينة من البحر، وتمكّن اللاتينيون من تسلّقها وإضرام النيران في المنازل المجاورة. بدأ أهل مدينتي يدركون الحقيقة إثر الحريق الأول. فماذا فعل ألكسيس الثالث؟ خلال الليل، حمّل عشرة آلاف ذهبية على متن أحد المراكب وفرّ من المدينة.

- واستعاد اسحق عرشه.

- أجل، ولكن بعد أن أصبح عجوزاً، لا بل عجوزاً وأعمى، وذكّره اللاتينيون بأنّه سيتقاسم الإمبراطورية مع ابنه الذي أصبح ألكسيس الرابع. إلى اليوم ما زلنا نجهل ما العهود والمواثيق التي أقامها اللاتينيون مع ذلك الفتى: كانت الإمبراطوري البيزنطية تعود إلى طاعة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، كما بذل الباسيليوس للحجّاج مئتي ألف مارك فضّي، ومؤناً لعام بأكمله، وعشرة آلاف خيّال للزحف على أورشلم، وحامية من خمسمئة خيّال في الأراضي المقدّسة. لاحظ اسحق بأنّه لا يوجد ما يكفي من المال في الخزانة الإمبراطورية، كما أنّه لا يستطيع أن يعلن، من دون

سابق إنذار، لرجال الإكليروس ولعامة الشعب، بأنهم أصبحوا خاضعين لبابا روما. . . ما أدّى إلى قيام تلك المهزلة التي دامت بضعة أشهر. فمن جهة، كان اسحق وابنه، في معرض سعيهم لجمع ما يكفي من المال، ينهبان الكنائس، ويقطّعون صور رسوم المسيح بالفؤوس ثمّ يرمون بها في النار بعد تجريدها من زينتها، ويصهرون كلّ ما يقع بين أيديهم من ذهب وفضّة. ومن الجهة الثانية، كان اللاتينيون، الذين عسكروا في بيرا، غالباً ما يتوغلون إلى الناحية المقابلة من القرن، ويحلون ضيوفاً على مائدة اسحق ويتصرّفون كأسياد أينما حلّوا، ساعين قدر المستطاع لتأجيل رحيلهم. كانوا يتذرّعون بأنّهم باقون حتّى سداد آخر صُلٍ مستحقٍ لهم، وكان أكثرهم تطلباً على هذا الصعيد الدوج داندالو وأهل البندقية، ولكن في اعتقادي أنّ سبب بقائهم الوحيد هو أنهم وجدوا فردوسهم ههنا، حيث يحيون متبطّلين عيلةً علينا. ومع ذلك كلّه، لم يبد أنهم اكتفوا بابتزاز المسيحيين أنفسهم، وربّما لتبرير تقاعسهم عن مواجهة مسلمي أورشليم، عمد بعضهم إلى نهب دور مسلمي القسطنطينية الذين طالما أقاموا هنا بأمان، وفي معركتهم تلك أضرموا الحريق الثاني الذي خسرت خلاله إحدى أبهى الدور التي أملكها.

- ألم يبدِ أيّ من حامِلَي لقب الباسيليوس أي نقمة على حلفائهما؟

- كانا قد اصبحا رهينتين بيد اللاتينيين الذين جعلوا من ألكسيس الرابع أضحوكتهم: ذات مرّة، وفيما كان في معسكرهم منصرفاً إلى اللهو مثله مثل أي جندي آخر، نزعوا عنه غطاء رأسه المذهّب ووضعوه على رؤوسهم هم. لم يحدث يوماً أن تعرض باسيليوس بيزنطية لإهانة مماثلة! أمّا اسحق فكان دأبه الهذر في مجالس الرهبان الشرهين، متفاخراً بما يشبه الهذيان بأنّ سيغدو إمبراطور العالم قاطبةً وبأنّه سيستعيد بصره. . . إلى أن ثار الشعب واختار نيكولاس كَنّابوس قيصراً وباسيليوس. كان كنّابوس رجلاً صالحاً، غير أنّ الرجل القويّ كان يدعى ألكسيس دوكاس مورسوفل الذي يحظى بدعم قادة الجيش. ولذلك كان يسيراً عليه أن يستولي على

السلطة. فمات اسحق من الحسرة، وأمر مورسوفل بقطع رأس كنّابوس وخنق ألكسيس الرابع، وأصبح هو ألكسيس الخامس.

- بالضبط، نحن وصلنا في تلك الأيام التي كان يستحيل القول فيها من هو الحاكم الفعلي، أهو اسحق أم ألكسيس أم كنّابوس أم مورسوفل أم الحجّاج، حتى إذا ذكر أمامنا اسم ألكسيس لم نفطن إلى المقصود بالتسمية أهو الثالث أم الرابع أم الخامس. ولاقينا مجدداً الجنويين الذين كانوا لا يزالون مقيمين حيث لاقيتهم، في السابق، أنت أيضاً، في الوقت الذي احترقت فيه دور أهل البندقية وأهل بيزا خلال الحريق الثاني، فلجأ هؤلاء إلى بيرا. وفي مدينة منكوبة مثل هذه، قرّر الشاعر بأنّنا ينبغي أن نجني الثروة التي فقدناها.»

عندما تسود الفوضى، لن يُعدَمَ أيّ كان وسيلةً لأن يصير ملكاً، كان الشاعر يقول. ولكن في الأثناء، كانوا يحتاجون إلى المال. فالناجون الخمسة من أصحابنا، ألفوا أنفسهم في حالٍ رثّة، قذرين، وليس لهم أيّ مورد للرزق. صحيح أنّ الجنويين لاقوهم بالترحاب، غير أنّهم لطالما ردّدوا في سرّهم أنّ الضيفَ كالسمكة، ينتِنُ بمضيّ ثلاثة أيّام. اغتسل الشاعر بعناية، وقصّ شعره ولحيته، واستعار من مضيفيه ثوباً لائقاً، غادر، ذات صباح، إلى المدينة لتقصّي ما يجري فيها.

رجع عند المساء وقال: «بدءاً بهذا اليوم، صار مورسوفل هو الباسيليوس، لقد تخلّص من الآخرين جميعاً. والظاهر أنّه استرضاءً لرعاياه سيعمد إلى استفزاز اللاتينيين، وهؤلاء، من جهتهم، يعتبرونه غاصباً، ذلك أنهم أقاموا العهود والمواثيق كلّها مع المسكين ألكسيس الرابع، رحمه الله، الذي كان في ريعان شبابه، طبعاً، لكنّه آلَ إلى بئس المصير. اللاتينيون يلبثون في حال من الترقّب ريثما يقترف مورسوفل غلطته الأولى. وفي الانتظار يواصلون ارتياد الحانات، غير أنّهم يعلمون يقيناً أنّهم، عاجلاً أم آجلاً، سوف يركلون مؤخّرته لاسقاطه عن العرش،

وسينقضّون على المدينة لسلبها ونهبها. باتوا يعلمون كم من الذهب تحتويه كلّ كنيسة، كما باتوا يعلمون أنّ المدينة تعجّ بالذخائر المخبّأة، غير أنهم مدركون تماماً أنّ موضوع الذخائر لا يحتمل أي تلاعب، لأنّ قادتهم سيستولون عليها لحملها إلى مدنهم. وبما أنّ هؤلاء الروم ليسوا أفضل من أولئك، راح الحجاج يتوددون لمن يصادفونه منهم، لكي يتمكّنوا، منذ الآن، الحصول على أنفس الذخائر مقابل مبالغ تافهة من المال. العبرة مما سبق: من يريد أن يثرى في هذه المدينة، فليبع الذخائر، ومن يريد أن يثرى لدى عودته إلى بلده، فليشترِ الذخائر.

- حان الوقت لأن نعرض رؤوس يوحنا المعمدان للبيع! قال البويدي وقد برقت عيناه بالأمل.

- يا بويدي، يتراءى لي أحياناً أنك لا تنطق إلاّ لأنّ لكَ فماً، قال الشاعر. أولاً، أنت لا تستطيع أن تبيع أكثر من رأس واحد في المدينة نفسها، لأنك لو فعلت يفتضح أمرك. ثانياً، قيل لي أنّ، هنا في القسطنطينية، يوجد رأس ليوحنا المعمدان، وربّما وُجِدَ رأسان منها. لنفترض أنهما قد بيعا، ثمّ نأتي نحن حاملين الرأس الثالث؛ عندئذ صدقوني لن يبقوا على أحد منا. لذا فلندع جانباً رؤوس المعمدان في الوقت الحاضر. مع أنّ البحث عن ذخائر أخرى هو الآن مضيعة لوقتنا الثمين. فالمشكلة لا تكمن في أن نجد ذخائر بل أن نصنع منها، أن نصنع مثيلَ الموجود منها والذي لم يهتدي إليه أحد بعد. خلال تجوالي، سمعت عن رداء المسيح القرمزي، وعن السوط الذي ضرب به السيّد والعمود الذي أوثق به، والإسفنجة التي بللت بالخلّ والمرّ ومدّت إليه على رأس حربة، سوى أنّها غدت اليوم جافّة، وعن إكليل الشوك، وعن مذخر احتوى على كسرة من الخبز المبارك أثناء العشاء السرّي، وشعيرات من لحية المصلوب، وعن ثياب يسوع التي اقتسمها الجنود بالقرعة، وعن رداء العذراء. . .

- يجب أن نختار من بينها ما يسهل علينا تقليده، قال باودولينو ساهياً.

- أحسنتَ، أجاب الشاعر. السوط، هناك منه الكثير، أمّا عمود التعذيب فالأجدر عدم التفكيربه لأنك لن تستطيع أن تبيع عموداً في الخفاء.

- ولكن لِمَ المخاطرة بالتعاطي في ما يوجد منه اثنان، فماذا لو عثر من نبيعه ذخيرة ما على الذخيرة الحقيقية في مكان ما، ألن يأتي إلينا عندها ويطالبا بما بذله لنا من النقود؟ قال بورون بشيء من التعقّل. ليس علينا سوى التفكير في الكمّ الهائل من الذخائر التي قد تكون موجودة. لنفكّر في الاثنتي عشرة سلّة التي استخدمت لتكثير السمك والخبز، فالسلال موجودة في كل مكان، ويكفي أن نوسّخها قليلاً لتبدو قديمة. لنفكّر في الفأس التي استخدمها نوح لبناء سفينته، فلا بدّ أنّ هناك واحدة رماها أصدقاؤنا الجنويون بعد أن تفلّلت.

- هذه فكرة لا بأس بها، قال البويدي، تذهب إلى المقبرة مثلاً وتعثر على فكّ القديس بولس، ليس رأس يوحنا المعمدان بل ساعده الأيسر، وهكذا. . . رفات القديسة آغاتا، مثلاً، أو رفات أليعازر، أو رفات الأنبياء دانيال أو صموئيل أو اشعيا، جمجمة القديسة هيلانة، وشظية من جمجمة القديس فيلِبُّس الرسول.

- إذا كان الأمر على ما تفضّلتم، قال بيفيري منساقاً إلى سهولة ما يقترح عليهم، يكفي أن نحفر، هنا، في التراب، وسوف أعثر لكم على بقية من المِذود بيت لحم، جزء منه صغير، بحيث لا يدري أحد من أي موضعٍ من المذود قد يكون.

- سوف نصنع ذخائر لم يرها أحد من قبل، قال الشاعر، لكننا سنصنع أمثالاً للذخائر الموجودة التي يعرفها الجميع، لأنّ هذه هي التي ذاع صيتها، وأسعارها في ازدياد يوماً بعد يوم.»

تحوّلت دارة الجنويين، طيلة أسبوع، إلى مَشْغَلٍ للعملِ المثابر. إذ فبرك البويدي المتعثّر بين برود الحديد والنشارة، مسماراً من مسامير الصليب القدسي، كما استيقظ بوياموندو، إثر ليلة من الأوجاع المؤرقة، ليربط خيطاً بسنّه القاطعة المسوّسة، ثمّ يخلعها كزهرة، فتصير سنّ القديسة آن، فيما راح غريلو يجفّف خبزاً تحت أشعة الشمس ثمّ يضع فتاته في علب صغيرة من خشب قديم كان تارابورلو قد صنعها لتوّه. أما بيفيري فقد أقنعهم بالتخلّي عن فكرة سلال الخبز والسمك، لأنّ جموع الناس، قال، لا بدّ أن تكون قد تدافعت إثر المعجزة، لتخاطفها بغية الاحتفاظ بها، وما كان لقسطنطين نفسه أن يتمكّن من جمعها مجدداً. وعرض واحدة منها فقط للبيع لن يكون أمراً مربحاً، هذا فضلاً عن صعوبة نقلها خلسة من يد إلى يد، أو حملها خلسةً تحت الرداء. حسناً إذاً، دعكَ من السلال، قال الشاعر، ولكن فأس نوح، أنا سأجدها. لا تكلّف نفسك عناء البحث، أجابه بيفيري، فهذه واحدة ذات حدّ مفلول، وقد بلي مقبضها كأنّها وجدت منذ بدء الخليقة.

على الأثر، خرج أصحابنا، في زيّ تجار أرمن (فقد تبرّع الجنويون، إلى ذلك الحين، بتمويل المخطّط) وراحوا يجولون، بتكتّم، في نواحي المدينة، متنقلين بين الحانات والمعسكرات المسيحية، ملمّحين، متذرّعين بالمشقّة التي يتكبّدونها في صفقات مماثلة، مساومين على الثمن الأعلى لأنّ في سعيهم ذاك مخاطر على حياتهم، وهكذا. . .

عاد البويدي ذات مساء قائلاً إنّه عثر على أحد فرسان مونفيران الذي أبدى استعداده لشراء فأس نوح، إذا تثبّت من أنّها الفأس الحقيقية. «طبعاً، هذا أمر بسيط، قال باودولينو، نذهب إلى نوح ونطلب منه صكّاً يصادق على ذلك ممهوراً بختم.

- ولكن، هل كان نوح يجيد الكتابة؟ سأل بورون.

- لم يكن نوح ليجيد إلاّ معاقرة النبيذ، والفاخر منه وحسب، قال

البويدي، ولا بدّ أنه كان متعتعاً عندما حمّل سفينته بالحيوانات، فأكثر من البعوض ونسيَ القارِن، ولهذا السبب ما عدنا نرى منها الآن.

- بلى نرى منها، نرى منها. . .» تمتم باودولينو هامساً، مغتمّاً على نحوٍ مفاجئ.

قال بيفيري إنّه خلال أسفاره تعلّم قليلاً من أصول الكتابة اليهودية، وإنّه يستطيع أن يحفر بسكين على مقبض الفأس واحدةً أو اثنتين من خربشاتهم. «نوح كان يهودياً، أليس كذلك؟» كان يهودياً، يهودياً، بلى، قال رفاقه مجمعين: مسكين سليمان شاء القدر ألاّ يكون بينهم، في تلك اللحظة، وإلاّ لكان ألمه عظيماً. ولكن هكذا تمكّن البويدي من بيع الفأس.

في بعض الأيام كانوا يجدون صعوبة بالغة في العثور على زَبون، لأنّ المدينة كانت تشهد حالاً من البلبلة، وكان الحجاج غالباً ما يستدعون، فجأة، مستنفرين، إلى معسكراتهم. فعلى سبيل المثال، راجت شائعة بأنّ مورسوفل قد هاجم فيليا، هناك عند الساحل، وأنّ الحجاج تدخّلوا بأعدادٍ كبيرة، وجرت معركة، أو ربّما مجرّد مناوشات، لقي مورسوفل، على أثرها، هزيمةً نكراء، وانتزع منه بيرق العذراء، وهو البيرق الذي ينضوي تحته جيشه. وقيل إنّ مورسوفل عاد إلى القسطنطينية بعد أن نبّه جميع من معه، بالتكتّم على ما جرى. وعلم اللاتينيون بهذا الأمر، فإذا بهم، ذات صباح، يستعرضون، بعض وحداتهم، عند السور، حاملين البيرق المذكور عالياً على مرأى الجميع، وراحوا يومئون للروم بإشارات بذيئة، كأن يضمّ أحدهم كفيّه على شكل مهبل، أو يضرب آخر بكفّ يده اليسرى على ذراعه اليمنى. كانت تلك مهانة مضاعفة لمورسوفل جعلت منه أضحوكة حتّى في نظر الروم أنفسهم، فراحوا يرتجلون أغنيات تسخر منه كانوا ينشدونها في الطرقات.

الخلاصة أنّه بين الوقت الذي يستغرقه صنع ذخيرة مقنعة والوقت الذي يستغرقه العثور على زَبون، قضى أصحابنا الفترة بين كانون الثاني

وآذار، لكنّهم بين عظمة ذقن القديسة إيوبان، وعضد ساعد القديسة كونيغوند، استطاعوا جمع ثروة لا يستهان بها مكّنتهم من سداد ما يتوجّب عليهم للجنويين، والاحتفاظ لأنفسهم بمبالغ كبيرة من المال.

«ما يفسّر، يا سيّد نيسيتاس، لماذا شهدت مدينتك، خلال الأيام المنصرمة، هذا العدد من الذخائر المقلّدة وغير المقلّدة، والله وحده يعلم أيّها الحقيقي. ولكن، بالمقابل، حاول أن تتفهّم تصرّفنا، كنّا نسعى للبقاء وسط اللاتينيين المستعدين على الدوام للنهب والسلب، ووسط أشباه اليونانيين، أقصد، وأرجو منك المعذرة، جماعتك من الروم، الذين لا يتوانون عن الغشّ. ففي آخر الأمر، جُلّ ما فعلناه أننا غششنا الغشّاشين.

- بأية حال، قال نيسيتاس بشيء من الرضوخ، لعلّ بعض هذه الذخائر يُلهِم الأفكار المقدّسة لهؤلاء اللاتينيين الذين استحالوا برابرة إذا تعبّدوا لها في كنائسهم البربرية. فإذا كان الفكر مقدّساً كانت الذخيرة مقدّسة. إنّ سُبُلَ الربّ لا حصرَ لها.»

راجت تجارتهم حتّى جمعوا من المال ما يبقيهم في مأمن من العوزِ لردحٍ من الزمن طويل، وما يعينهم، لو شاءوا، على العودة ميسورين إلى ديارِهم. كيوت وبورون لم تكن لديهما أي خطط محدّدة للمستقبل، خصوصاً بعد أن تخليا، أخيراً، عن هاجس البحث عن الغرادال وعن زوسيمس. البويدي كان يقول إنّه بالمال الذي جمعه، يستطيع أن يستملك في الإسكندرية كروماً من العنب، ويقضي أيامه الأخيرة سيّداً في ملكه. ولكن، من بينهم جميعاً، كان باودولينو هو الأكثر قنوطاً: فبعد أن انتهى السعي لإيجاد مملكة الراهب جان، وبعد أن فقد هيباسي، ما عاد يبالي بأن يبقى حياً أو يموت ههنا. وحال باودولينو تلك كانت نقيض ما بدا على الشاعر، الغارق في أحلام السطوة والنفوذ، الذي يوزّع أعراض الربّ على العالم بأسره، وصار قادراً على التقرّب من ذوي السلطان بذخائره، وليس فقط من عامة الحجّاج الذين لا شأن لهم.

ذات يوم، جاء ليخبرنا أنّ المنديل، وجه إديسّا، موجود في القسطنطينية، وهو ذخيرة لا تقدّر بثمن.

«ما قصّة هذا المنديل؟ سأل بوياموندي.

- إنّه قطعة صغيرة من القماش يستخدم لمسح الوجه، قال الشاعر مفسّراً، وعليه طابعُ وجه المسيح. ليس رسماً، بل طابع، بفعل الطبيعة: إنّه رسم acheiropoieton، أي لم تصنعه يد إنسان. كان أبغار الخامس، ملك إديسا، مصاباً بالجذام، فأوفد حافظ ديوانه هنّان لكي يدعو يسوع للمجيء إليه لشفائه. ولم يكن يسوع قادراً على الذهاب، فأمسك بهذا المنديل ومسح به وجهه فبقيت قسماته مطبوعةً عليه. طبعاً شفي الملك حين تلقّى المنديل، واعتنق العقيدة الحقة. بعد ذلك بقرون من الزمن، كان الفرس يحاصرون إديسا، فعلّق المنديل على أسوار المدينة وخلّصها. فيما بعد، اشترى الإمبراطور قسطنطين المنديل وجاء به إلى هنا، ووضع أولاً في كنيسة البلاشيرن، ثمّ في كنيسة القديسة صوفيا، ثمّ في كنيسة فاروس الصغيرة. وهو المنديل الحقيقي وإن قيل إنّ هناك مناديل أخرى: في كامولیا في كبدوقية، وفي مَنَف في مصر، وفي نبطية في نواحي أورشليم. ومثل هذا التعدّد لا ينافي العقل وليس مستحيلاً، فلا بدّ أن يسوع، خلال حياته، قد مسح وجهه مراراً بقماشة أو بمنديل. غير أنّ ذاك الموجود هنا هو، بالتأكيد، الأكثر إعجازاً من بينها، لأنّ طابع الوجه عليه، يتبدّل يوم الفصح بحسب ساعات النهار، فعند الفجر يكون وجه يسوع الرضيع، وفي الثالثة يصير وجه يسوع الطفل، وهكذا دواليك، حتّى يتحوّل، بعد الظهر، إلى وجه يسوع الراشد، في أوان عهده بالآلام.

- كيف لك أن تعلم كلّ هذا؟ سأل البويدي.

- لقد أخبرني بذلك أحد الرهبان. الحال إذاً أننا بصدد ذخيرة أصلية، وبحصولنا على شيء مماثل يمكننا العودة إلى ديارنا محاطين بكلّ أشكال التكريم والعِوَض، يكفي لذلك أن نعثر على أسقفٍ يستجيب لدعوانا كما عثر باودولينو على راينالد بشأن المجوس الثلاثة. إلى اليوم لم

نفعل سوى بيع الذخائر، وقد حان الوقت لنشتري واحدة، لكنّها الواحدة التي ستجلب لنا السعد.

- وممن ستحصل على هذا المنديل؟ سأل باودولينو وقد أسقمه انغماسهم كلّ ذلك الوقت في تجارة المقدّسات.

- لقد ابتاعه رجل سوري كنت قضيت بصحبته ليلةً من الشراب والمسامرة، وهو يعمل لحساب دوق أثينا. غير أنّ الرجل قال لي أيضاً إنّ الدوق قد يتخلّى عن المنديل ومعه أشياء ثمينة أخرى مقابل حصوله على الكفن.

- أخبرنا ما هو الكفن الآن، قال البويدي.

- يقال إنّه كان محفوظاً في السانت ماري دي بلاشيرن الضريح المقدّس، وعليه يظهر طابع جسم المسيح كلّه. الناس يتحدّثون عنه في المدينة، وقيل إنّه شوهد هنا من قبل أملريك، ملك أورشليم، عندما زار مانويل كومنين. ثم قال لي آخرون إنّه وهب كحرز لكنيسة العذراء الكلية الغبطة في بوكوليون. ولكن لم يره أحد من قبل، وإذا كان حقاً قد حفظَ هنا ذات يوم، فلا بدّ أنّه فُقِدَ منذ أَمَدٍ بعيد.

- لا أدري ما الغرض من هذا الشرحِ كلّه، قال باودولينو. هناك من يمتلك المنديل، هذا واضح، وقد يتخلّى عنه مقابل الكفن، ولكنّك لا تملك الكفن، ولا أعتقد أننا نستطيع أن نطبع هنا رسماً كاملاً لجسد سيّدنا المسيح. فما العبرة؟

- أنا لا أملك الكفن، قال الشاعر، ولكن أنتَ تملكه.

- أنا؟

- هل تذكر لمّا سألتك عمّا يحتويه المظروف الذي سلّمك إياه تابعا الشمّاس قبيل فرارنا من بندابتزيم؟ قلت لي، عندها، إنّه يحتوي رسم ذاك الشمّاس البائس مطبوعاً على كفنه بعيد موته. أرني الكفن.

- لا بدّ أنك فقدت رشدك، إنّها تركة مقدّسة، لقد ائتمنني الشماس عليها لكي أسلّمها للراهب جان!

- يا باودولينو يا صديقي، لقد جاوزت الستين من عمرك بسنواتٍ، فهل حقاً ما زلتَ تؤمن بالراهب جان؟ لقد لمسنا لَمس اليد أنّه غير موجود. أرني هذا الشيء.»

انصاعَ باودولينو مرغماً، وأحضر المظروف من خرجه، ثمّ سحب منه لفافة وبسطها تحت الضوء فإذا هي نسيجٌ من حجم كبير، فهرع من معه لإزاحة الموائد والمقاعد لأنّ بسطه على الأرض يتطلّب مساحةً لا بأس بها.

كان غطاءً من حجم كبير جداً، ظهر عليه طابع جسم بشري مزدوج، وكأنّ الجثة التي لفّت به تركت عليه رسمها مرّتين، مرّة لجهة الصدر ومرّة لجهة الظهر. وكان ظاهراً بوضوح طابع الوجه والشعر المرسل حتّى الكتفين، والشاربين واللحية والعينين المغمضتين. كان الشمّاس البائس، بعد أن مسّته نعمة الموت، قد خلّف على النسيج رسمَ قسماتٍ رضية وجسم متعافٍ، يكاد يكون خالياً من علامات الجراح الغائمة أو الخدوش أو القرَوح، علامات ذاك الجذام الذي أودى به.

لبث باودولينو خاشعاً باديِ التأثّر، وأيقن أنّ الراحل استعاد، على ذاك النسيج، كلّ علامات الجلالة المطمئنّة. ثمّ تمتم قائلاً: «ليس بإمكاننا أن نبيع رسم رجل مجذوم، فضلاً عن كونه نسطورياً، على أنّه رسم سيّدنا المسيح.

- أولاً، دوق أثينا لا يعلم ذلك، أجاب الشاعر قائلاً، وهو الذي سيحظى به وليس أنت. ثانياً، نحن هنا لا نبيع بل نُقايض، لذا ليس في الأمر أي متاجرة. سأذهب الآن للقاء السوري.

- سوف يسألك السوري لماذا ترغب في المقايضة، نظراً لكون الكفن أثمن بكثير من المنديل، قال باودولينو.

- لأنّه سوف يصعب علينا نقله خلسةً إلى خارج القسطنطينية. ولأنّه ثمين جداً ولا يقدر سوى ملك على امتلاكه، أمّا المنديل فبإمكاننا أن نجد له زَبوناً أقلّ مرتبةً وشأناً، لكنّه يبذل ثمناً باهظاً. ذلك أننا لو عرضنا الكفن

على أمير مسيحي، لاعتقد بأننا سرقناها من هنا، وأمر بشنقنا على الفور، أما وجه إديسّا، فقد يكون مصدره كامولياً أو منَف أو نبطية. وسوف يقتنع السوري بحججي لأننا من جبلّة واحدة.

– ليكن إذا، قال باودولينو، تريد أن تعطي هذا النسيج لدوق آثينا، وأنا، شخصياً، لا أبالي البتّة بأنّه سيحمل إلى دياره رسماً ليس هو رسم المسيح. غير أنك تعلم جيداً أنّ هذا الرسم أغلى عندي من رسم المسيح، وتعلم جيداً بمَ يذكرني، كما لا تجوز المتاجرة بشيء جليل كهذا...

– يا باودولينو، قال له الشاعر، نحن لا ندري ما ينتظرنا هناك عندما نعود إلى ديارنا. لكن بفضل وجه إديسّا سوف نسترضي أحد كبار الأساقفة ونجعله حليفاً لنا فنستعيد ما كان لنا من جاه ومال. ثمّ يا باودولينو، لو لم تحمل معك هذا الكفن من بندابتزيم، لكان الهُوْن الآن يستعملونه لمسح أقفيتهم. لقد كان الرجل عزيزاً على قلبك، وكنت تروي لي حكايته أثناء تَيْهنا في البراري والصحارى، وخلال فترة أسرنا، ولطالما بكيت موته غير المجدي والمنسي. وها إنّ رسمه سوف يحظى بالتعبّد والإجلال كرسم المسيح. فأي مثوىً لعزيزٍ أفضل من هذا المثوى؟ إننا لا نهين ذكرى جسده، لا بل... كيف أعبّر عن ذلك يا بورون؟

– إننا نجلّيه.

– أحسنت.»

«لا أدري إذا كان السبب هو سأم تلك الأيّام الذي أفقدني أي شعور بما ينبغي أن يكون خيراً وما ينبغي أن يكون شراً؛ أم هو القنوط الذي ألمّ بي، يا سيّد نيسيتاس. لكنّي قبلت. وذهب الشاعر ليقايض الكفن، خاصتنا، لا بل خاصتي، لا بل الأحرى خاصة الشمّاس، بالمنديل.»

استغرق باودولينو في الضحك، ونيسيتاس لم يدرِ لماذا.

«لقد علمنا بتفاصيل الخدعة عند المساء. ذهب الشاعر إلى الحانة التي يعرفها، وعقد صفقته المشينة، ولكي يحثّ السوري على السكر سَكِر هو أيضاً، ثمّ غادر الحانة وتبعه شخصٌ مدركٌ لأحابيله، ربّما كان السوريّ نفسه - ألم يقل الشاعر إنّه من جبلّته - وهوجم في زقاق ما فضرب حتّى فقدَ وعيه، ثمّ عاد إلينا، متعتعاً كنوح، داميَ الوجه، رضيضاً، خالي الوفاض لا يحمل لا كفناً ولا منديلاً. ودِدتُ لو أنقضّ عليه ركلاً حتّى أقتله، لكنّ من سبقني كان قد أجهز عليه تقريباً. للمرّة الثانية، كان الشاعر يخسر مُلْكاً. في الأيام التي تلت الحادثة كان علينا أن نطعمه بالقوة. وكنت لا اخفي ارتياحي، في قرارة نفسي، لأني لم أملك يوماً كثيراً من الطموحات، إذ اتضح أنّ إخفاق طموحٍ قد يودي بالمرء إلى حالٍ مماثلة. ثمّ أيقنت أنني، أنا أيضاً، كنت عرضةً لعدد من الطموحات الخائبة. لقد فقدتُ أبي الحبيب ولم أعثر له على المملكة التي طالما حلم بها، كما اني فقدت إلى الأبد المرأة التي أحببت... والفرق أنني، فيما يعنيني، أدركت أنّ البارئ لم ينجز سوى أنصاف الخلق، بينما كان الشاعر لا يزال يؤمن بأنّ الظَفَرَ ممكنٌ على هذه الفانية.»

في مطلع نيسان، أدرك أصحابنا أنّ أيّام القسطنطينية أصبحت معدودة. كان قد وقع خلاف مفاجئ بين الدوج داندولو، المنتصب على مقدّم إحدى سفنه، وبين مورسوفل الذي راح يصرخ به، من اليابسة، طالباً من اللاتينيين الجلاء عن أراضيه. كان واضحاً أن موقف مورسوفل هو محض جنون وأنّ اللاتينيين، إذا أرادوا، قادرون على ابتلاعه لقمةً سائغة. على الأثر بدت الاستعدادات على أشدّها، عند الطرف المقابل من القرن الذهبي، في معسكر الحجاج، وبدت متون السفن الراسية عاجّة بحركة الملاحين والجنود الذين يعدّون العدّة للهجوم الوشيك.

قال البويدي وباودولينو إنّه من الأفضل لهم أن يغادروا القسطنطينية ما داموا يملكون بعض المال، ذلك أنهما شهدا من حياتهما الكثير من

المدن التي تتعرّض للهجوم. وكان بورون وكيوت يوافقانهما الرأي، لكنّ الشاعر استمهلهم بضعة أيام. كان قد تعافى من إخفاقه وبديهي أنّه يريد انتهاز الساعات الأخيرة ليضرب ضربته الختامية، من دون أن يدري، حقاً، ما هي الضربة أو كيف سينفذها. حتّى لو بدا فاقداً رشده وارتسمت على وجهه سمات الجنون، فلم يكن أحد منهم مستعداً لخوض أي جدال معه، إذ كيف يعقل أن يُساجَل، بالعقل، مجنون. فجاروه في طلبه وعينهم على السفن حتّى إذا تراءى لهم أن الساعة قد حانت سلكوا طريق البرّ مبتعدين عن الساحل.

غاب الشاعر يومين، وكانت تلك فترة طويلة. وصبيحة يوم جمعة الشعانين لم يظهر، فعلاً، فيما باشر الحجاج هجومهم من البحر، بين البلاشيرن ودير أورجت الواقع ضمن النطاق المسمّى بيتريون، إلى الشمال من أسوار قسطنطين.

فات الأوان على خروجهم عبر الأسوار التي باتت تعجّ بالجنود. ولم يبق أمامهم إلاّ أن يلعنوا رفيقهم الشارد وأن يلبثوا مختبئين في دارة الجنويين لأنّها تقع في المنطقة التي لا تتعرّض للهجوم. لبثوا منتظرين يتقصّون، ساعة بساعة، أخبار المعركة في بيتريون.

كانت سفن الحجّاج مزوّدة بكلّ آلات الحرب التي يتطلّبها حصار مدينة. أمّا مورسوفل فاختار موقعاً على ربوةٍ خلف الأسوار، محاطاً بقادة جيشه وحاشية بلاطه وحملة البيارق ونافخي الأبواق. وعلى الرغم مما بدا أنّه مجرّد استعراض، كان رجال الإمبراطور يبلون حسناً في القتال. حاول اللاتينيون عدداً من خطط الهجوم لكنّهم رُدّوا، في كلّ محاولة، على أعقابهم، الأمر الذي كان يلهب حماسة الروم الواقفين على الأسوار فيعرّون أقفيتهم ويديرونها صوب المهزومين، فيما تدبّ الحمية بمورسوفل كأنّ ما جرى من صنيعه هو، ويأمر بنفخ أبواق النصر.

على ذاك النحو بدا أنّ داندالو والقادة الآخرين قد تخلّوا عن اقتحام المدينة، وساد يومي السبت والأحد هدوء مشوب بالتوتّر والحذر. لكنّ

باودولينو انتهز الفرصة للتجوال في أنحاء القسطنطينية، طولاً وعرضاً، بحثاً عن الشاعر. ولم يثمر سعيه.

عاد رفيقهم الضال عند حلول ليل الأحد. كان ساهمَ العينين مستلباً أكثر مما سبق. لم ينبس بحرف، بل راح يحتسي الشراب، صامتاً، حتّى صباح اليوم التالي.

عند بزوغ فجر الاثنين، استأنف الحجاج هجومهم الذي استمرّ طيلة النهار: كانت سلالم السفن قد تمكّنت أخيراً من بلوغ بعض أبراج السور، وعبرها دخل المحاربون ذوو الصلبان، لا بل كان محارباً وحيداً، ذا قامة عملاقة ومعتمراً خوذةً مبرّجةً، أشاع الذعر في روع المدافعين وأرغمهم على الفرار. أو ربّما بلغ الأسوار رجلٌ واحد وعثر في السور على باب سرّي مسدود، فأعمل به رمحه محدثاً فجوة فيه، بلى، غير أنهم رُدّوا على أعقابهم، على الرغم من سيطرتهم على بضعة أبراج. . .

كان الشاعر يذرع أرض الحجرة جيئةً وذهاباً كحيوانٍ في قفص. بدا منتظراً بفارغ الصبر أن تحسم المعركة لصالح أحد الطرفين، وكان يرمق باودولينو كأنّه يود أن يسرّ إليه بأمر ما، لكنّه، لسبب ما، لا يفعل، ثمّ يرمق بنظرات واجمة رفاقه الثلاثة الآخرين. إلى أن بلغهم نبأ فرار مورسوفل تاركاً جيشه لمصيره، وتضعضع صفوف المدافعين الذين فقدوا ما تبقّى لهم من شجاعة، كما بلغهم أنّ الحجاج أحرزوا تقدماً وتجاوزوا الأسوار، غير أنّهم متردّدون في دخول المدينة لحلول الظلام، فعمدوا إلى إضرام النيران في المنازل المحاذية لكشف مواقع من تبقّى من المدافعين.

«إنّه الحريق الثالث في غضون بضعة اشهر، قال الجنويون بحسرة، هذه لم تعد مدينة، إنها كومة حطب وهناك دائماً من يهوى إحراقها!

– ألا فليطحن السفلس عظامك! صاح البويدي مخاطباً الشاعر، لولاك أنت لكنّا غادرنا هذه المحرقة منذ أيام! فما العمل الآن؟

– الآن سُدَّ فمك، وأنا أعلم جيداً لماذا» أجابه الشاعر ملمّحاً.

خلال الليل تراءت لهم ألسنة اللهب الأولى المنبعثة من الحرائق.

وعند الفجر، كان باودولينو قد استيقظ لكنّه لم ينهض من فراشه، فإذا بالشاعر يدنو أولاً من البويدي ثمّ من بورون وكيوت أخيراً، هامساً في آذانهم كلاماً ما غير مسموع. وغادر على الأثر. ولم تمضِ لحظات حتّى رأى كيوت وبورون يتشاوران همساً، ثمّ يتناولان شيئاً ما من خرجيهما ويغادران الدار خلسةً لكي لا يوقظانه.

بعد قليل دنا منه البويدي وهزّه من ذراعه. كان الاضطراب بادياً عليه: «يا باودولينو، لا أدري ما الذي يجري هنا، غير أنّ الجميع فقدوا رشدهم. لقد دنا مني الشاعر وهمس في أذني حرفياً ما يلي: عثرت على زوسيمَس، والآن بتّ أعلم أين أجد الغرادال، لا تحاول أن تخدعني، خذ رأس المعمدان خاصّتك ووافني إلى كاتاباتس، المكان الذي استقبل فيه زوسيمس القيصر، تلك المرّة، في فترة ما بعد الظهر، أنت تعرف طريقه. ولكن ما هو الكاتاباتس هذا؟ وعن أي قيصر يتكلّم؟ ألم يقل لك شيئاً؟

– لا، أجابه باودولينو، ويخيّل إلي أنه يريد أن يبقيني خارج المسألة برمّتها. لا بدّ أنه كان شديد الاضطراب فلم يتذكّر أن بورون وكيوتو كانا معنا، منذ سنوات بعيدة، وليس أنت، عندما قصدنا كاتاباتس للقبض على زوسيمَس. أمّا الآن، فلنرَ قليلاً.»

بحث عن بايموندو ولمّا وجده قال له: «أصغِ، هل تذكر تلك الليلة، منذ سنوات طويلة، عندما أرشدتنا إلى ذلك المدفن تحت دير كاتاباتس؟ أريد أن أذهب إلى هناك.

– إذا كانت هذه رغبتك... يجب أن تصل إلى المقصورة قرب كنيسة الرسل القديسين. بإمكانك أن تصل إلى هناك لأني أعتقد أنّ الحجاج لم يصلوا إليها بعد. وبأية حال، إن عدتَ سالماً أكون، أنا، على حقّ.

– أجل، أجل، ولكن ينبغي أن أصل إلى هناك من دون أن أصل إلى هناك. أقصد أني لا أستطيع أن أفسّر لك، ولكن يجب أن أتبع أو أن

أسبق شخصاً سيسلك الطريق نفسه، ولا أريد أن يراني أحد. أذكر أن هناك، تحت الأرض، سراديب مؤدية... فهل نصل إلى المكان من جهة أخرى؟»

- راح باودولينو يقهقه ضاحكاً: «هذا إذا كنت لا تخشى الموتى... بالإمكان الدخول عبر مقصورة أخرى بقرب الهيبودروم، ومن هناك يمكن بلوغ المكان المقصود أيضاً. وبعد ذلك تتابع سيرك قليلاً، تحت الأرض، فتصل إلى مقبرة رهبان كاتاباتس التي لا أحد يعلم إذا كانت لا تزال هناك، لكنّها هناك. أنفاق المقبرة تفضي إلى مدفن الدير، ولكن إذا شئت أمكنك التوقف قبل ذلك.

- وهل ترافقني؟

- يا باودولينو، صحيح أن الصداقة مقدّسة، لكنّ حياة المرء مقدّسة هي أيضاً. سأشرح لك كلّ شيء وبدقّة، وأنت فتى ألمعي لا يفوته شيء، وستتمكّن من الوصول إلى هناك بمفردك. هل توافق؟»

رسم له بايموندي الطريق التي ينبغي أن يسلكها، كما زوّده بعودي خشبٍ مشبعين بالقار. عاد باودولينو إلى البويدي وسأله إذا كان يخاف من الموتى. دعكَ من هذا المزاح، قال، أنا لا أخشى سوى الأحياء. «إذاً إليك ما سنفعله، قال باودولينو، سوف تأخذ رأس المعمدان خاصّتك، وسنذهب سوياً إلى هناك. أنت ستذهب إلى موعدك المرتقب أما أنا فسأبقى محتجباً عن الأنظار، لكي أرى ما الذي يدبّره هذا الممسوس.

- إذاً هيّا بنا»، قال البويدي.

كانا يهمّان بمغادرة الحجرة لمّا توقّف باودولينو صافناً، ثمّ عاد أدراجه ليحمل معه رأس المعمدان خاصّته الذي غطاه بقطعة قماش وتأبّطه تحت ذراعه. ثمّ صفن مجدداً، ودسّ تحت حزامه الخنجرين العربيين اللذين كان قد ابتاعهما من غاليبولي.

38

باودولينو يُقِيْمُ الحِساب

بينما اتسعت رقعة الحرائق وازدادت النيران اضطراماً، كان باودولينو والبويدي قد بلغا محيط الهيبودروم بعد أن شقّا طريقهما، بصعوبة، بين جموع الرومانيين الهلعين المتراكضين في كلّ اتجاه لأنّ منهم من كان يصرخ بأنّ الحجاج قادمون من هذه الناحية، فيما يصرخ آخرون أنهم قادمون من الناحية المعاكسة. عثرا على المقصورة، واقتحما بالقوة باباً مقفلاً بسلسلة متهرّئة، ثمّ سلكا سرداباً حاملين المشعلين اللذين زوّدهما بهما بايموندو.

مشيا مسافة طويلة، إذ كان واضحاً أنّ السرداب يصل ما بين الهيبودروم وأسوار قسطنطين. بعد ذلك تسلّقا سلالم مشبعة بالرطوبة، وبدأت تتسرّب إلى أنفيهما روائح موت. لم تكن روائح جثث متحلّلة لتوّها أو منذ بعض الوقت: بل كانت، إذا جاز القول، روائح لبقية روائح، روائح لجثث تحلّلت ثمّ جفّت أو يبست على نحو ما.

سلكا ممراً (وعبره، من أوّله إلى آخره، تتفرّع ممرات أخرى على الجانبين) حُفِرَت في جداريه، كوى طولية متلاصقة مأهولة بسكّانٍ جوفيين من الموتى شبه الأحياء. موتى كانوا، بالتأكيد، أولئك الأشخاص المجلّلين بملابسهم كاملةً، المستقيمين في وقفتهم داخل التجاويف المخصّصة لهم، كأنّ قضباناً من الحديد جعلت مساند لظهورهم لكي تُبقى

على استقامتها. لم يكن بادياً أنّ الزمن قد ترك أثره المدمّر عليهم، أو أنّه لم يفعل تماماً، ذلك أنّ تلك الوجوه المتيبسة بدكنة الجلد، حيث المحاجر فارغة، والمفترّة الشفاه بهَزْءٍ أدرد، كانت توحي بالحياة. لم تكن هياكل عظمية، بل كانت أجساداً ممصوصة تكراراً من قبل قوة ما عملت، من الداخل، على تجفيفها وفتِّ أحشائها، ومن دون أن تمسّ بسوء لا الهيكل العظمي ولا الجلد، وربّما أجزاءَ من العضل.

«لقد ألفيتُ نفسي، يا سيّد نيسيتاس، داخل شبكة من المدافن حيث عمد رهبان كتاباتس، لقرونٍ وقرون من الزمن، إلى وضع إخوانهم، من دون أن يدفنوهم، وحيث تضافرت عوامل عجيبة في التراب والهواء وبعض ما يرشح من جنبات ذاك الجوف الفليسية، لكي تحفظهم على نحو كامل تقريباً.

- كنت أحسب أنّ مثل هذه التقاليد ما عادت متبّعة اليوم، كما كنت أجهل وجود مقبرة كتاباتس، وهذا برهان إضافي على أنّ هذه المدينة ما زالت تحفظ بعض الأسرار التي لا يعرفها أحد منا. غير أني سمعت كثيراً عن لجوء الرهبان، في حقب سابقة، واعتقاداً منهم أنهم بذلك يسهمون في تمام عمل الطبيعة، إلى مَرثِ جثث إخوانهم الرهبان بمواد الفليس لثمانية أشهر، قبل أن يعمدوا إلى استردادها ثمّ غسلها بالخلّ وتعريضها للهواء الطلق لبضعة أيام، ثمّ كسوها بالثياب ووضعها في كواها، بحيث يحوطها الهواء البلسمي لذاك المكان ويُسْلِمها لخلودها المجفَّف.»

خلال تقدّمهما بين مواكب الرهبان المتوفين، المرتدين حللهم الكنسية، كما لو أنّهم على أهبة إحياء القداديس لاثمين بشفاههم المتربة الأيقونات المتألّقة ببريقها، كانا يريان وجوهاً ذات ابتسامة ممطوطة متقشّفة، وأخرى أضاف إليها ورع الأحياء لحى وشوارب بحيث تبدو كهنوتية كما في سابق عهدها، مغمضين أجفانها لكي تبدو نائمة، وأخرى

لم يبق من رأسها سوى القحف ولكن مع أشلاء يابسة من الجلد عالقة بالوجنتين. بعض الجثث لشدّة ما أفسده الزمان، بدا أشبه بعجائب الطبيعة، أجنّة مشوّهة، وكائنات غير آدمية لها أجساد منقبضة وتكسوها حلّة مقصّبة وذات ألوان حائلة، ودلماسيّات تبدو مطرّزة لكنّها في الحقيقة نُخِرت بمرّ السنين ودود المقابر. بعض الجثث الأخرى سقطت عنها الملابس وقد استحالت خرقاً منذ قرون، وتحت الحلل البالية تتراءى أجساد هزيلة بائسة، كسيت أضلاعها ببشرة مشدودة ككسوة طبل.

«إنْ كانت التقوى هي الدافع لإيجاد ذاك المكان، قال باودولينو، فكم كانت بالغة قسوة الأحياء إذ فرضوا ذكرى أولئك الراحلين كوعيد دائم وداهم، وليس في غايته، البتّة، مصالحة الأحياء والأموات. فكيف يمكنَ الصلاة لراحة نفسٍ من يحملق بك من تلك الجدران قائلاً لك أنا هنا، وأبداً لن أبرح هنا، وكيف لك أن تأمل في انبعاث الجسد، وفي تجلي أجسادنا الترابية بعد القيامة، إذا كانت هذه الأجساد لا تزال هنا، ولا تزيدها الأيام إلاّ فساداً؟ فيما يعنيني أنا، لقد رأيت في حياتي، للأسف الشديد، ما لا يحصى من الجثث، غير أني، في الأقلّ، كان يحدوني الأمل بأنّها، بعد أن تتحلّل في التراب، سيمكنها، ذات يوم، أن تُبْعَث جميلة وقرمزية مثل وردة. فإذا كان ما ستشهده السماء، هناك في الأعالي، بعد نهاية الزمان، هو جمهرة من الناس على هذا الغرار، كنت أقول في سرّي، فما أحلاكِ إذاً يا جهنّم؛ تحريق وتقطيع أوصال: ففي الأقلّ، ما يجري فيها أشبه بما يجري هنا على الأرض. أمّا البويدي وهو أقلّ انهماكاً مني بعواقب الإنسان ومآله، فراح يرفع تلك الحلل، من أسفل، للتثبّت من حال العضو المتدلّي أسفل البطن، ولكن إذا أصرّ أحد ما على أن يريك كلّ هذا، فهل يلام شخص إذا أراد التثبّت من حال أعضاء كهذه؟»

قبل بلوغهما نهاية شبكة الأنفاق، ألفيا نفسيهما في نطاق دائري حيث

القبّة كانت مثقوبة بمجرى تظهر منه، في الأعلى، سماء ما بعد الظهر. فالمؤكّد أنّ بئراً على مستوى الأرض يوفّر التهوية اللازمة لذاك. أخمدا مشعليهما. وإذ تلاشى نور الشعلتين، جعلت تلك الإضاءة الكابية المنتشرة بين التجاويف جثثَ الرهبان أكثر غموضاً، تثير في الروع قدراً أكبر من الخشية والحيرة. لقد تراءت، وقد غشيها ضوء النهار، أنّها على وشك أن تبعث حيّة. فارتسم البويدي بشارة الصليب.

أخيراً أفضى السرداب الذي سلكاه إلى الرواق المسقوف، خلف العُمُد التي تتوج مدفن الدير حيث التقوا زوسيمَس للمرّة الأولى. اقتربا على أصابع رِجْلَيهما لأنهما لمحا نوراً. كان المدفن، كما في تلك الليلة، مضاءً بسراجين على أثفيّتين. وحده الحوض المستدير الذي استخدمه زوسيمَس لاستحضار الموتى لم يكن هناك. وأمام الفاصل الأيقوني كان بورون وكيوت واقفين، مشدودي الأعصاب، ينتظران. فاقترح باودولينو على البويدي أن يوافيهما حيث هما، مقبلاً عليهما من بين العمودين المحاذيين للفاصل الأيقوني، كما لو أنّه سلك نفس الطريق التي سلكاها، بينما يلبث هو مختبئاً في مكانه.

وهذا ما فعله البويدي بالضبط، فلاقاه الآخران ولم يبد عليهما أنهما فوجئا به. «إذاً فسّر لك الشاعر، أنت أيضاً، كيف السبيل للوصول إلى هنا، قال بورون. نعتقد أنّه لم يطلع باودولينو على الأمر، وإلاّ لم هذا القدر من التكتّم؟

- أتى على ذكر زوسيمس، والغرادال، وراح يتوعّدني على نحو مستهجن، قال البويدي.

- كذلك كان شأنه معنا»، قال كيوت وبورون.

تناهى إلى مسامعهم صوت، وبدا أنّه صوت الرسم الأيقوني على الفاصل. انتبه باودولينو إلى أنّ العينين في رسم المسيح على هيئة لوزتين سوداوين، ما يعني أنّ شخصاً يقف وراء الأيقونة مراقباً ما يجري في المدفن. وعلى الرغم من تشوّش نبرته بدا الصوت مألوفاً، وأدركوا جميعاً

أنه صوت الشاعر. «أهلاً بكم، قال الصوت. أنتم لا ترونني، أمّا أنا فأراكم. إني أحمل قوساً، وبإمكاني أن أرميكم بالسهام قبل أن تتمكنوا من الفرار.

- ولكن لِمَ، أيها الشاعر، ماذا فعلنا بك؟ سأل بورون مذعوراً. ما فعلتموه بي، تعرفونه أكثر مني. ولكنْ ما جدوى الكلام الآن، فلننتقل إلى الفعل. هيّا، ادخل أيّها البائس.» وتناهى أنين مكتوم، ومن وراء الفاصل الأيقوني ظهر خيال شخصٍ مترنّح.

على الرغم من أنّ ردحاً طويلاً من الزمن كان قد انقضى، وعلى الرغم من أنّ الرجل بدا مترنّحاً منحنياً مكوّماً على ذاته، وأنّ شعر رأسه ولحيته صار أبيض، استطاعوا أن يتعرّفوا فيه على زوسيمَس.

«أجل، إنه زوسيمَس، قال الشاعر. التقيته أمسِ، بمحض الصدفة، متسوّلاً في أحد الأزقّة. إنه أعمى، وأطرافه مشوّهة، لكنّه هو. هيّا يا زوسيمَس، احكِ لأصدقائنا ما جرى لك عندما لذتَ بالفرار من قصر أرظروني.»

وشرع زوسيمَس يروي بصوتٍ نائح. بعد سرقة الرأس الذي خبّأ الغرادال بداخله، لاذ بالفرار من دون أن تكون لديه، ولا أقول لم تكن لديه قط، لا بل لم ير قط خارطة كوسمس المزعومة، فما كان يدري إلى أين يتجه. راح يجوب الأنحاء إلى أن نفق بغله، توغل في أكثر بقاع الأرض وعورة، وغشيت عيناه من لفحِ الشمس فما عاد يبصر لا الشرق ولا الغرب، لا الشمال ولا الجنوب. وذات يوم قادته قدماه إلى مدينة يقطنها مسيحيون فأسعفوه. وأخبرهم بأنّه آخر الملوك المجوس لأنّ الآخرين تغمّدهم الربّ برحمته وهم مسجّون الآن في كنيسة بعيدة في بلاد الغرب النائية. وقال لهم، بنبرة كهنوتية، إنّه يحمل في مذخره الغرادال المقدّسة التي سيسلمها للراهب جان. وكان مضيفوه قد سمعوا، على نحوٍ أو آخر، بالأمرين معاً، فانحنوا أمامه وأدخلوه في موكب جليل إلى معبدهم حيث صار يعتلي منبراً أسقفياً، ويغدق بالتنبؤات كلّ يوم، باذلاً

النصحَ حول مجريات الأمور، آكلاً شارباً ما طاب له الأكل والشرب، متمتعاً باحترام الجميع.

باختصار، يمكن القول إنّه بوصفه آخر الملوك المجوس الأبرار، وحارس الغرادال القدسي، أصبح السلطة الروحية السامية لهذه الطائفة من الناس. وكان يقيم القداس كلّ صباح، وعند رفع كأس القربان والأعراض المقدّسة، كان يظهر أيضاً مذخره، فيركع المصلون مردّدين أنهم يتنشقون الطيوب السماوية.

كان المصلّون أيضاً يأتون إليه بالنساء الضالاّت لكي يهديهنّ سواءَ السبيل. وكان يقول لهنّ إنّ رحمة الله لا حدود لها، ثمّ يستدعيهنّ إلى الكنيسة، عند هبوط الليل، لكي يقضي معهنّ، بحسب قوله، ليلة من الصلوات المتواصلة. راجت شائعات بأنّه جعل من تلك البائسات مجدلياتٍ لا يحصى عددهنّ كرّسنَ أنفسهنّ لخدمته. كنّ، أثناء النهار، يطبخن له أشهى المآكل، ويحضرن له أفخر نبيذ ويطيبنه بالزيوت العطرة. وأثناء الليل، كنّ يسهرن معه أمام المذبح، بحسب رواية زوسيمَس، ويطلن السهر حتّى إذا جاء الصباح ظهرت على أعينهنّ علامات ذلك القصاص. وهكذا وجد زوسيمَس فردوسه، وأقسم ألاّ يغادر في حياته ذاك المكان المبارك.

أطلق زوسيمَس زفرة تحسّر عميقة، ثمّ مسح عينيه براحتيه، كأنه يبصر، في غمرة العتمة المطبقة، مشهداً مروّعاً. «يا أصدقائي، قال، حيال كلّ فكرة تراودكم، اسألوا دائماً: هل أنت من أفكارنا، أم أنّ العدوّ ألهمك؟ ولقد غفلت عن اتباع هذا المأثور المقدّس، وقطعت وعداً أمام أهل المدينة كلّها بأنني يومَ أحد الفصح سأفتح المذخر وأريهم الغرادال المقدّسة. في يوم الجمعة العظيمة فتحت المذخر وكنت بمفردي: وجدت في داخله أحد رؤوس الموتى المقزّزة من تلك التي وضعها أرظروني في المذاخر. أقسم بأني أخفيت الغرادال داخل المذخر الأول، لجهة اليسار، وهو الذي حملته معي لدى فراري. غير أنّ أحداً، وهو أحدكم بالتأكيد،

كان قد عمد إلى تغيير ترتيب المذاخر، والمذخر الذي أخذته أنا لم يكن هو الذي يحتوي الغرادال. من يطرق كتلة حديد ينبغي له أن يفكّر أولاً ما الذي يريد أن يصنع منها، منجلاً أو سيفاً أو فأساً. فقرّرت أن ألزم الصمت. لقد عاش الأب أغاثون ثلاث سنوات وهو يضع حصاة في فمه لعجزه عن مزاولة الصمت طوعاً. لذا قلت للجميع إنّ أحد ملائكة الربّ زارني وبلّغني بأنّ المدينة ما زالت تعجّ بالخطأة ولهذا السبب لم يستحقّ أحد فيها، بعد، أن يرى هذا الشيء المقدّس. وليلة سبت النور قضيتها، كما ينبغي لكاهن صالح أن يقضيها، في إماتة الجسد على ما اعتقد، لأنني شعرت، في اليوم التالي، بأني منهوك القوى كأني قضيت ليلتي تلك، وليغفر لي الله حتّى الخاطرة، في المضاجعة ومعاقرة الخمر. كنت أقيم شعائر القداس مترنّحاً، وفي اللحظة التي كان ينبغي لي فيها أن أرفع المذخر عالياً أمام أعين المصلّين، وعثرت قدمي عند أعلى درجات المذبح، ووقعت على الأرض متدحرجاً حتّى أسفل الدرجات. ووقع من يدي المذخر وانفتح غطاؤه لدى ارتطامه بالأرضية، ورأى الجميع أنّ ما بداخله ليس الغرادال، بل جمجمة يابسة. ما من قصاصٍ، يا رفاق، يعدل بقسوته قصاص الرجل الصالح إذا أخطأ، ذلك أنّ المغفرة قد ينالها الخاطئ على كلّ خطاياه، أمّا الصالح فلا تغفر له حتّى أولى خطاياه. واعتقد أولئك الأبرار بأني خدعتهم، وهم الذين كانوا، لثلاثة أيام خلت، يجلّون ما أقول وما أفعل. وانقضّوا عليّ، وانتزعوا عني ثيابي، وانهالوا عليّ ضرباً بالعصي حتّى أعطبوا ساقيّ وذراعي وظهري، ثمّ اقتادوني للمثول أمام محكمتهم حيث حكموا عليّ بأن تفقأ عيناي. ثمّ طردوني إلى خارج أبواب المدينة مثل كلب أجرب. آهٍ لو تدرون كم ذقت من هوان العذاب. همتُ على وجهي متسولاً، أعمى ومعوقاً، معوقاً وأعمى، لسنوات وسنوات، إلى أن آوتني قافلة من التجار المسلمين القادمين من القسطنطينية. لم يرأف بي أحد، والرأفة الوحيدة التي نلتها جاءتني من كفّارٍ، جازاهم الله بتجنيبهم اللعنة التي يستحقّها أمثالهم. ثمّ رجعت، منذ

سنوات، إلى هنا، إلى مدينتي، حيث عشتُ من الإحسان، ولحسن طالعي أن يدَ أحد المحسنين قد قادتني ذات يوم إلى خرائب هذا الدير، حيث تعرّفتُ، متلمّساً، إلى أرجائه، وصار بإمكاني، منذ ذلك الحين، أن ألوذ بسقفه اتقاء للبرد والحرّ والليالي المطيرة.

- تلك هي حكاية زوسيمَس، قال الشاعر. وحاله تشهد، لهذه المرّة في الأقلّ، على صدق ما يقول. إذاً أحدنا رأى صنيع زوسيمَس، فعمد إلى تبديل ترتيب الرؤوس لكي يدفع بزوسيمَس إلى الهلاك، ويبعد عن نفسه كلّ الشبهات. غير أن ذاك الذي استولى على المذخر الذي يحتوي الغرادال، هو نفسه الذي قتل فردريك. وأنا أعلم من يكون.

- لِمَ تقول هذا يا شاعر؟ سأل كيوت. لِمَ لم تستدعِ سوى نحن الثلاثة، ولم تستدعِ باودولينو أيضاً؟ لِمَ لم تقل لنا شيئاً من هذا القبيل هناك، في دارة الجنويين؟

- لقد استدعيتكم إلى هنا لأنّه كان يستحيل أن أذهب إليكم جارّاً خلفي هذه الخرقة الآدمية البالية، وسط مدينة تعجّ بالأعداء. ولأني لا أريد أن نتكلّم بهذا الشأن لا أمام باودولينو ولا أمام الجنويين. إذ لم يعد لباودولينو شأن في مسألتنا. إنّ أحدكم سيعطيني الغرادال، وعندئذ لا تعود المسألة برمّتها إلاّ من شأني أنا وحدي.

- ولِمَ لم تشتبه بأن يكون باودولينو هو الذي سرق الغرادال؟

- لأنّه لا يعقل أن يكون باودولينو هو قاتل فردريك. كان يحبّه. ولم تكن لباودولينو أي مصلحة في سرقة الغرادال لأنّه الوحيد من بيننا الذي كان يريد فعلاً أن يحملها إلى الراهب جان كهدية من قبل الإمبراطور. وأخيراً، حاولوا أن تتذكروا ماذا جرى للرؤوس الستة المتبقية إثر فرار زوسيمَس. لقد اخذ كلّ واحد منا رأساً؛ أنا وبورون وكيوت والبويدي وعبدول وباودولينو. في ما يعنيني أنا، فلقد فتحت مذخري أمس، بعد لقائي زوسيمَس. ولم أجد فيه سوى رأس متفحّم. أما الرأس الذي كان بحوزة عبدول، فأنتم تذكرون جيداً أنّ أرظروني فتحه ووضع

الجمجمة بين يدي رفيقنا المحتضر كحرز، أو طلسم، أو أي شيء من هذا القبيل، وهو الآن مدفون معه. باودولينو أعطى الرأس الذي كان بحوزته لبراكسياس الذي فتح المذخر أمامنا جميعاً ولم يكن بداخله سوى جمجمة. لم يبقَ إذاً إلاّ مذاخركم أنتم الثلاثة. وأنا بتّ أعلم من منكم يحتفظ بالغرادال. وأعلم أنّه هو يعلم. كما أعلم بأنّه لم يحظَ بها بمحض المصادفة، بل لأنّه دبّر الأمر كلّه منذ البداية، ومنذ اللحظة التي قتل فيها فردريك. غير أني، مع ذلك، أريد أن تكون لديه الجرأة على الاعتراف، الاعتراف أمامنا جميعاً بأنّه خدعنا طيلة سنوات وسنوات. وبعد أن يعترف، سأقتله. لذا قرّروا فيما بينكم. ومن ينبغي أن يتكلّم، فليتكلّم الآن. لقد بلغنا نهاية رحلتنا.»

«في تلك اللحظة، طرأ أمر عجيب، يا سيّد نيسيتاس. كنتُ، أنا، من مخبئي أحاول أن أضع نفسي في الموقف الذي يواجهه أصدقائي الثلاثة. لنفترض أنّ أحدهم، ولنسمّه فلاناً، علم بأنّ الغرادال بحوزته، وبأنّه مذنب على نحو ما. ففي تلك الحال لا بدّ أنه كان سيقرّر المخاطرة بكلّ شيء، فيندفع شاهراً سيفه أو خنجره سالكاً الوجهة التي قَدِمَ منها، حتّى يبلغ الخزّان الجوفي، ثمّ الهواء الطلق. وأعتقد أنّ الشاعر كان يتوقّع أمراً من هذا القبيل. من المؤكّد أنه لم يكن يدري، حتّى تلك اللحظة، من هو سارق الغرادال من بين الثلاثة. غير أنّ فرار المعني كان من شأنه أن يثبت التهمة عليه. ولكن لنفترض أنّ فلاناً هذا لم يكن واثقاً من امتلاكه الغرادال، لأنّه، لسبب ما، لم يفتح المذخر للتثبّت مما بداخله، ومع ذلك يشعر ببعض الذنب لصلةٍ ما بمقتل فردريك. كان فلان إذاً ليتريّث قليلاً لعلّ أحد الآخرين يعمد إلى الفرار مؤكّداً بذلك أنّ الغرادال بحوزته. كان فلان إذاً ليقفَ مترقباً، ساكناً بلا حراك. غير أنّه يرى أنّ الآخَرَين لم يتحركا هما أيضاً. إذاً، سيقول في سرّه، ليست الغرادال بحوزة أيّ منهما. ولا يشعر أي منهما بأنّ الشبهات تحوم من حوله. وعندئذ

سيستنتج بأنّ الشاعر يقصده هو، ولذا ينبغي له الفرار. في غمرة حيرته تلك، يهمّ باستلال سيفه أو خنجره، ويخطو خطوته الأولى موشكاً على الفرار. وإذ ذاك يلاحظ أنّ الآخرين فعلا مثله. فيقف على الفور، لاشتباهه بأنّ الآخرين يشعران بأنّهما مذنبان أكثر منه. وهذا ما حدث بالضبط بين جدران ذلك المدفن. في البداية، لبث كلّ واحد من الثلاثة، إذ فكّر تماماً كما فكّر من أسميته بفلان، في مكانه ساكناً بلا حراك، ثمّ خطا خطوة، ثمّ توقّف مجدداً. وكان ذلك دليلاً واضحاً على أنّ أياً منهم لم يكن واثقاً تماماً من أنّ الغرادال بحوزته، كما كان دليلاً واضحاً على أنّهم، جميعاً، لديهم ما يجعلهم يعتقدون أنهم موضع اشتباه. وقد أدرك الشاعر ذلك على نحوٍ واضح، وشرح لهم ما كنت قد أدركته، أنا، بدوري، وشرحته، للتوّ، لك.»

عندها سمع صوت الشاعر قائلاً: «بئس الثلاثة. كلّ واحد منكم يعلم أنّه مذنب. وأنا أعلم - ولطالما كنت أعلم - أنّكم، ثلاثتكم، سعيتم لقتل فردريك، وربّما قتلتموه، أنتم الثلاثة، فعلاً، بحيث إنّ الرجل مات ثلاث مرّات. في تلك الليلة، خرجتُ باكراً من ردهة الحراسة، وكنت آخر من عاد إليها. جافاني النوم، ليلتها، ربّما لأني أفرطت في الشراب، وبلتُ في الفِناء ثلاث مرّات، وآثرتُ أن أبقى في الخارج لكي لا أزعجكم. في الأثناء، سمعت بورون يغادر الردهة. كان يهبط السلّم المفضي إلى الطبقة السفلية، وتبعته. دخل إلى حجرة الآلات، ودنا من الاسطوانة التي تُحدِثُ الفراغ، وحرّك مقبضها مِراراً. لم أدرِ عندها ما الغرض مما فعله. لكنّي أدركت حقيقة الأمر في اليوم التالي. فإمّا أن يكون أرظروني قد أسرّ إليه بشيءٍ حول وظيفة تلك الأسطوانة، وإمّا أنّه أدرك الأمر من تلقاء نفسه، لكنّ المؤكّد أنّ الحجرة التي تحدث الأسطوانة الفراغ فيها، كانت هي الحجرة التي نام فيها فردريك، والتي كان أرظروني يستخدمها للتخلّص من خصومه الذين كان يستضيفهم في دارته بخبثٍ لم يسبق له مثيل. أنت يا بورون حرّكت مقبض هذه الآلة حتّى حلّ الفراغ في

حجرة الإمبراطور، أو في الأقلّ، لأنك ما كنت تؤمن بالفراغ، حتّى امتلأت أجواء الغرفة بذلك الهواء الكثيف واللزج الذي، كما تعلم، يطفئ شعلة الشمعة ويخنق الحيوانات. شعر فردريك بأنّه صار عاجزاً عن التقاط أنفاسه، فاعتقد أولاً أنّ السبب هو سمّ دسّ له، فهرع إلى الغرادال ليشرب منها الترياق الذي كانت تحتويه. لكنّه خرّ على الأرض مختنقاً. في اليوم التالي، كنت تعدّ العدّة لسرقة الغرادال منتهزاً حال البلبلة والاضطراب، لكن زوسيمَس كان هو السبّاق. فرأيته ورأيت أين خبّأها. وكان يسيراً عليك أن تغيّر ترتيب الرؤوس في مواضعها، ولمّا حان وقت الرحيل انتقيتَ الرأسَ المطلوب.»

لبثَ بورون مذهولاً، يتصبّب عرقاً. وقال: «أيّها الشاعر، لقد رأيتَ حقاً ما جرى. فأنا ذهبت إلى حجرة المضخّة بافع الفضول الذي أثاره في روعي ذلك النقاش المطوّل مع أرظروني. وحاولت تشغيل الذراع، لكني اقسم لك بأني لم أكن أعلم أي حجرة هي التي تفرغها المضخّة من الهواء. ثمّ إني كنتُ واثقاً من أنّ المضخّة لا تعمل. لعبت، هذا صحيح، فقط لعبتُ من دون نية القتل. ثمّ لو أني فعلت كما قلتَ أنتَ، كيف تفسّر احتراق الحطب في مدفأة الحجرة؟ فإذا أحدثنا فراغاً في مكان ما كفيلاً بقتل إنسان، فكيف تشتعل نار وتحرق الحطب كلّه، إذا كان لا سبيل لاشتعال نار في الفراغ...

- دعكَ من المدفأة الآن، قال الشاعر، بجفاء، فهذا الأمر له تفسير آخر. الأحرى بك أن تفتح مذخرك إذا كنت مقتنعاً حقاً بأنّ الغرادال ليست بداخله.»

انصاع بورون، مبرطماً، لطلب الشاعر، ونزع بخنجره الختم عن غطاء المذخر، فإذا بجمجمة تتدحرج منه على الأرضية، أصغر حجماً من سابقاتها، ذلك أنّ أرظروني ما كان ليتردّد في نهب قبور الأطفال.

«حسناً، الغرادال ليست معك، قال صوت الشاعر، غير أنّ هذا لا يبرّئ ساحتك مما اقترفت يداك. والآن، لنتحدّث عنكَ أنتَ يا كيوت.

لقد غادرت الردهة بعد أن غادرها بورون بهنيهات، كمن يحتاج إلى استنشاق الهواء الطلق. كنت تحتاج فعلاً للهواء الطلق لأنّك سرتَ حتّى وصلتَ إلى الأسوار، حيث وضعت مرايا أرخميدس. لحقتُ بك إلى هناك، ورأيتك. رحت تلمسها ثمّ حرّكت تلك التي تسدّد على مسافات قريبة، كما شرح لنا أرظروني، وأحنيتها إلى الأسفل، لا بحركةٍ عفوية بل مدروسة. لقد أعددتَ المرآة بحيث تتركّز حزم الأشعة، عند طلوع الشمس على نافذة الحجرة التي نام فيها فردريك. وهذا ما جرى بالضبط، فأدّى ذلك إلى اشتعال حطب المدفأة. فالفراغ الذي كان بورون قد أحدثه في الحجرة تبدّد مع الوقت وحلّ فيها هواء جديد ما أتاح للنار أن تشتعل في الحطب. وكنت تعلم جيّداً ما سيفعله فردريك حين يستيقظ وهو يحسّ بالاختناق جرّاء الدخان الذي تطلقه المدفأة. كان سيعتقد بأنّ أحداً ما دسّ له السمّ، فيهرع إلى الغرادال ليشرب الترياق منها. أعلم أنّك، شربتَ منها أنت أيضاً، في ذلك المساء، غير أننا لم نعركَ انتباهاً حين وضعتها في العلبة. ولكن مهما كان من أمر ما كان، المؤكّد أنك اشتريت سمّاً، في وقتٍ سابق، من سوق غاليبولي، وأفرغت منه بضع قطرات في الغرادال. كانت خطتك مثالية. باستثناء كونك لم تعلم شيئاً عمّا فعله بورون. لقد شرب فردريك من كأسك المسمومة، ولكنّ ذلك لم يحدث بعيدَ اشتعال الحطب، بل قبل ذلك، أي عندما أفرغ بورون الحجرة من هوائها.

- لقد جننتَ، أيها الشاعر، صاح كيوت قائلاً، وقد بدا مترباً كميت، لا صلة لي بما جرى للغرادال، أنظر، سأفتح مذخري... أترى، بداخله جمجمة!

- الغرادال ليست بحوزتك، حسناً، قال صوت الشاعر، غير أنّك لا تنكر واقعة تحريك المرآة.

- كنت أشعر بضيق، كما قلتَ أنتَ، وخرجت لتنشّق هواء الليل المنعش. لقد لعبت بالمرايا، ولكن ليسحقني الله في الحال لو أني كنت

أعلم بأنّها ستشعل النار في مدفأة فردريك! ألا تعتقد أني، طيلة هذه السنين، قد قلّبت الاحتمالات كلّها، وفكّرت ملياً بما جرى، وكم سألت نفسي، وشعرت بالذنب لظنّي بأني تسببت بإشعال النار في حجرة الإمبراطور، وربّما أكون تسببت بموته. سنوات من الشكّ القاتل. وها أنتَ اليوم، تشعرني ببعض الارتياح، عندما تقول إنّ فردريك كان، بأية حال، ميتاً حين اشتعل الحطب! أمّا بشأن السمّ، فكيف لك أن تتفوّه بمثل هذه الاتهامات المشينة؟ لقد شربت من الكأس، في ذلك المساء، طوعاً وبطيب خاطر، لأنني كنت أشعر عندها بأنني قد أكون أضحية الفداء...

- كلّكم نعاج بريئة، أليس كذلك؟ نعاج بريئة عاشت، مع ذلك، خمسة عشر عاماً، وهي يساورها الشكّ بأنّها قتلت فردريك، أليست هذه هي حالك أنتَ أيضاً يا بورون؟ ولكن لننتقل إلى صديقنا البويدي. اصبح مؤكداً الآن أنّك الوحيد الذي قد تكون الغرادال بحوزته. أنتَ، في تلك الليلة، لم تغادر الردهة. وشاهدت فردريك، كما شاهده الجميع، قتيلاً على أرض حجرته في اليوم التالي. لم تكن لتتوقّع ما حدث، ومع ذلك انتهزت الفرصة. كان الأمر يراودك منذ بعض الوقت بإلحاح. هذا فضلاً عن كونك الوحيد الذي تتوفر لديه أسباب وجيهة لكي يحقد على فردريك. فهو، في آخر الأمر، قتل أثناء حصار الإسكندرية، عدداً كبيراً من رفاقك واهلك. لقد قلتَ في غاليبولي إنّك اشتريت ذاك الخاتم الذي يحتوي فصّه ترياقاً منشّطاً. غير أننا لم نرك تساوم التاجر على شرائه. فمن يؤكّد لنا أنّه ترياق منشّط؟ كنت مستعداً، منذ بعض الوقت، لاستخدام سمّك، ثمّ سنحت لك الفرصة المواتية. فلربّما كان فردريك فاقداً وعيه، لا أكثر، قلتَ في سرّك. فسكبت له السمّ في فمه زاعماً إنّ الترياق سينعشه، وبعد ذلك، فقط بعد ذلك، إنْ لاحظتم، أدرك سليمان أنّه ميت.

- ايها الشاعر، قال البويدي جاثياً على ركبتيه، آهِ لو تعلم كم وكم راودتني الشكوك، طيلة هذه السنين، في أنّ الترياقَ الذي حملته في فصّ

الخاتم هو سمّ زعاف. غير أنك تقول لي اليوم، إنّ فردريك كان ميتاً قبل أن أسقيه الترياق، وقد قتله أحد هذين، أو قتلاه معاً، فالحمد لله.

- وما الفرق، قال صوت الشاعر، ما يقام عليه الحساب هو النيّة. غير أنّ لا شأن لي بنواياك، الله وحده هو الديّان عليها. أمّا أنا، فما أريده هو الغرادال. فافتح مذخرك.»

حاول البويدي أن يفتحه، مرتجفاً، غير أنّه أخفق في نزع الختم ثلاث مرات. وكان كيوت وبورون قد ابتعدا عنه، في الأثناء، إذ بدا، في انكبابه منحنياً على فتح المذخر، كأنّه المذنب الذي لا يرقى إلى ذنبه أدنى شكّ. فتح المُذْخَر في المحاولة الرابعة، وبدت جمجمة بداخله.

«بحقّ شياطين الأرض والسماء!» صاح الشاعر مندفعاً من وراء الفاصل الأيقوني.

«كانت سحنته رسماً حيّاً للحَنَقِ والعَتَه، يا سيّد نيسيتاس، لم أتمكّن أن أتعرّف فيها إلى صديقي الذي طالما عرفته. غير أني في تلك اللحظة، تذكّرت اليومَ الذي ذهبت فيه لمعاينة المذاخر، بعد أن اقترح علينا أرظروني أن نحملها معنا، وبعد أنّ خبّأ زوسيمَس، في غفلةٍ منا، الغرادال داخلَ واحدٍ منها. أمسكت بيدي رأساً، كان الأوّل لجهة اليسار إنْ لم تخنّي الذاكرة، وتفحّصته بدقّة. ثمّ أعدته إلى مكانه. والآن، أستعيد تلك اللحظة التي عشتها منذ نحو خمسة عشر عاماً، فأذكر فجأةً أنني حين أعدت الرأس وضعته لجهة اليمين، آخر الرؤوس السبعة. وعندما نزل زوسيمَس بنية الفرار بالغرادال، تذكّر جيداً أنه وضعه في المقدّمة لجهة اليسار، وأخذ الرأس الأوّل، الذي لم يكن، في الحقيقة، سوى الثاني لجهة اليسار. ولمّا اقتسمنا الرؤوس فيما بيننا، قبيل رحيلنا، كنت آخر من انتقى واحداً، فكان نصيبي أن آخذ الرأس الأخير. حيث كان زوسيمَس قد خبّأ الغرادال. كما أنك تعلم بأني احتفظت، بعد وفاة عبدول، بالرأس الذي كان بحوزته، وأخفيت الأمر عن الجميع. ولمّا قدّمت أحد الرأسين

لبراكسياس، كان واضحاً أنّه الرأس الذي كان بحوزة عبدول فقد نزع عنه الختم بسهولة، لأنّ أرظروني فتحه من قبل. ما يعني، إذاً، أنني حملت الغرادال معي، طيلة خمسة عشر عاماً، من دون أن أدري. وكنت واثقاً من هذا الأمر فلا أحتاج إلى فتح المذخر للتثبّت من ذلك. ومع ذلك، فعلت، وفتحته من دون أن أحدث أي جلبة. وعلى الرغم من العتمة السائدة وراء العمود، رأيت أنّ الغرادال بداخله، وقد دسّت بحيث يبدو الجانب المجوّف منه، فيما يبدو الجانب المكوّر كأنّه جمجمة.»

كان الشاعر قد أمسك بحلّةِ كلٍّ من الثلاثة الآخرين، شاتماً، لاعناً، صائحاً بأنه لن يسمح لأحد منهم بالهزء به، كأنّ مسّاً ألمّ به. وعندئذ وضع باودولينو مذخره وراء العمود وغادر مخبأه: «الغرادال بحوزتي»، قال.

ذهل الشاعر لما سمعه. وقال محتقنَ الوجه: «لقد كذبت علينا كلّ هذا الوقت. وأنا لغبائي كنت أحسب أنك أكثرنا نقاء!

– لم أكذب. الليلة فقط اكتشفت هذه الحقيقة. أنت أخطأت في عدّ الرؤوس.»

بسط الشاعر يده باتجاه صديقه وقال له، مزبدَ الفَم: «أعطنيه!

– ولِمَ لك أنت؟ سأل باودولينوز

– الرحلة تنتهي هنا، ردّد الشاعر قائلاً. كانت رحلة مشؤومة، وهذه فرصتي الأخيرة. أعطني الغرادال أو أقتلك.»

تراجع باودولينو خطوة إلى الوراء، ممسكاً بمقبضي خنجريه العربيين. «أنت قادر على القتل فعلاً، فمن أجل هذا الشيء قتلتَ فردريك.

– هذه ترهات، قال الشاعر. لقد سمعتَ باذنيك اعتراف هؤلاء الثلاثة بأنّهم قتلوه.

– ثلاثة اعترافات هي أكثر بكثير مما تحتاجه جريمة قتلٍ واحدة، قال باودولينو. بإمكاني القول إنّه حتّى لو اقترف كلّ منهم ما اقترفه، فأنتَ من

سهّل لهم أفعالهم. كان يكفي أن تعمد إلى منع بورون من تشغيل ذراع الآلة لمّا رأيته. وكان يكفي أن تهرع لتنبيه فردريك لمّا رأيت كيوت يحرّك المرايا. لكنك لم تحرّك ساكناً. كنت تودّ أن يقتل أحد ما فردريك، لكي تستغلّ الأمر فيما بعد لما فيه مصلحتك. غير أني لا أعتقد، شخصياً، أنّ أحد هؤلاء الأصدقاء البائسين قد تسبب فعلاً بمقتل الإمبراطور. لدى سماعي صوتك وأنتَ تتكلّم من وراء الفاصل الأيقوني، تذكّرت رأس الميدوزا الذي يتيح للمقيم في حجرة فردريك أن يسمع ما يدور من أحاديث في الردهة الحلزونية في الأسفل. والآن دعني أخبرك، أنا، بما جرى. منذ ما قبل الحملة على أورشليم، وأنت لا تطيق صبراً على تحيّن الفرصة للانطلاق نحو مملكة الراهب جان، حاملاً له الغرادال، لمنفعتك الخاصّة. كنت تتحيّن الفرصة المواتية للتخلّص من الإمبراطور. وما كان وجودنا معك ليشكّل أي فرق بالنسبة لك. أو ربّما كنت تعتزم أن تفعل ما سبقك زوسيمَس إليه. هذا ما لا أستطيع الجزم بشأنه. ولكن، كان ينبغي لي أن ألاحظ منذ زمن بعيد، انّك بتّ تعمل لحسابك الخاص ولما فيه مصلحتك، أنتَ وحدك، ولم أنتبه لأنّ صداقتي لك أعمت بصيرتي.

- تابع، قال الشاعر بنبرة استهزاء.

- سأتابع. عندما ابتاع سليمان الترياق من سوق غاليبولي، أذكر أنّ التاجر عرض علينا دورقاً مماثلاً لكنه يحتوي سماً. وبعد مغادرتنا المكان، غبتَ عن الأنظار لبعض الوقت. ثمّ ظهرت فجأة من دون مال، وقلتَ لنا إنّك تعرّضتَ للسلب. لكن الحقيقة هي أنك انتهزت فرصة تجوالنا في السوق لكي تعود إلى التاجر وتشتري السمّ. ولم يكن عسيراً عليك أن تستبدل دورق سليمان بدورقك أنتَ خلال رحلتنا الطويلة عبر بلاد سلطان قونية. وفي الليلة التي سبقت مقتله، أشرتَ، أنت نفسك، وبصوت عالٍ، على فردريك أن يبقي إلى جانبه ترياقاً مضاداً للسمّ. ما حدا بسليمان إلى تقديم دورقه للإمبراطور - أي ما كان، في الحقيقة، دورقك أنت، أي سمّك. ولا بدّ أنك شعرت بهلعٍ كبير حين تطوع كيوت لتذوق الترياق

أولاً، غير أنك كنت تعلم، من دون شكّ، أنّ كمية قليلة منه لن تقتل رجلاً، وأنّ الجرعة بأكملها كفيلة بأن تقتله. وأعتقد أنّ الجرعة الصغيرة التي تناولها كيوت كانت هي سبب توعّكه خلال الليل، وحاجته إلى تنشّق الهواء الطلق. غير أني لا أستطيع الجزم بهذا الشأن أيضاً.

- وبأي شأنٍ تستطيع الجزمَ إذاً؟ سأل الشاعر متمادياً باستهزائه.

- أستطيع الجزم بأنّك كنت قد أعددت مخططاً كاملاً للتنفيذ، حتّى قبل أن تشاهد ما شاهدته من أمر بورون وكيوت. لقد قصدتَ الحجرة التي يقع فيها طرف الأنبوب الحلزوني والذي من خلاله يتردّد الصوت في حجرة فردريك. ولا أحتاج هنا إلى البرهان على إعجابك بتلك اللعبة، لأنّ ما فعلته الليلة خير برهان، وهذا بالضبط ما أرشدني إلى حقيقة ما حصل. اقتربتَ من أذن دنيس وخاطبت فردريك منادياً باسمه. وأعتقد أنك حاولت إيهامه بأنك أنا، لأنّ الصوت لا يصل على حاله من طبقة إلى أخرى. وزعمتَ أنّك أنا لكي يصدّق ما تقول. وحذّرت فردريك من أننا اكتشفنا بأنّ أحداً ما دسّ له السمّ في طعامه، لا بل ربّما قلت له أيضاً إن أحدنا بات يعاني أوجاعاً مبرحة من جرّاء ذلك، وأنّ أرظروني قد أطلق قتلته المأجورين. ثمّ أشرت عليه بأن يفتح العلبة وأن يتجرّع على الفور الترياق الذي أحضره سليمان. وصدّقك أبي المسكين فشرب ومات.

- قصّة مشوّقة، قال الشاعر. ولكن ماذا عن المدفأة؟

- ربّما أشعلتها أشعّة المرايا المركّزة، ولكن بعد وفاة فردريك. لا صلة للمدفأة بكلّ ما جرى، ولم تكن جزءاً من مخططك، ومن أشعلها يكون قد ساعدك لأنّه أربك تفكيرنا. لقد قتلتَ فردريك، واليوم فقط أعنتني على اكتشاف الحقيقة. ألا فلتنصبّ عليك لعنات الله: كيف استطعت أن ترتكب جريمة مثل هذه، جريمة قتل الأب الذي أحسن إليك، لا لسبب بل لأنّك متعطّش للجاه والسلطان؟ ألم تفطن للحظة واحدة، أنك بما فعلت إنّما تنسب لنفسك سلطانَ آخر وصيته ومجده، تماماً كما نسبت قصائدي لنفسك؟

- هذه حكاية مشوّقة فعلاً، قال البويدي ضاحكاً، وقد زال عنه الذعر. الشاعر العظيم كان ينسب لنفسه قصائد نظمها له آخرون!»

كانت تلك المذلّة، بعد كلّ الحرمان الذي قاساه في حياته، مقرونة برغبته اليائسة في الاستيلاء على الغرادال، بمثابة القطرة التي فاضَ بها الكيل، وحدت به إلى القيام بخطوته الأخيرة. فاستلّ سيفه وانقضّ على باودولينو صائحاً: «إني لقاتلك الآن، إني لقاتلك!»

«لطالما ردّدتُ على مسامعك، يا سيّد نيسيتاس، بأني رجل مسالم. والحقّ أني بقولي هذا إنّما أتسامح في وصف نفسي. الحقيقة أني جبان، وكان فردريك محقّاً، ذاكَ اليوم. فقد كنتُ في تلك اللحظات أمقت الشاعر وأحقد عليه من أعماق نفسي، وكنت أودّ لو يموت، غير أني لم أفكّر بقتله، وإنّما سعيت ألاّ يقتلني هو. فقفزت إلى الوراء باتجاه الهمود، ثمّ سلكت الممرّ الذي قَدِمت منه. كنت أفرّ متخبطاً بالعتمة، وأسمع وعيده المدوّي خلفي، وهو يطاردني. كان الممرّ غارقاً في الظلمة، وإذا حاولت تلمّس طريقي، وقعت يداي على جثث الموتى في الجنبات. ولمّا اهتديت إلى ممرّ متفرّع لجهة اليسار سلكته مبتعداً، وكان هو يتبع أصداء خطوي. أخيراً، لاح لي بصيص نور، وألفيت نفسي عند قعر البئر المكشوفة من فوق، والتي مررت بها عند مجيئي. كان المساء قد حلّ، وألفيت القمر، كما بأعجوبة، فوق رأسي، منيراً أرجاء المكان الذي كنت فيه، مرسلاً ضياءه الفضيّ عاكساً لألاءه على وجوه الموتى. ولعلّهم هم من أسرّوا إليّ بأنّ المرء لا يستطيع أن يخدعَ موته الخاص حين يكون هذا الموت مقتفياً خطواته. فتوقّفت. ورأيت الشاعر مقبلاً، وغطّى عينيه بيده اليسرى لكي لا ينظر إلى مضيفيه المفاجئين. فتشبّثت بواحدة من تلك الحلل المتهرئة وجذبت بقوة. سقطت جثّة بيني وبين الشاعر، رافعةً بسقوطها سحابة من الغبار ومِزق صغيرة من الثوب الذي تحلل فور ارتطامه بالأرض. انفصل رأس الجثة عن جذعها وتدحرج حتّى قدمي

مطاردي، وبدا الرأس متبسّماً تحت ضوء القمر. توقّف الشاعر لهنيهةٍ مذعوراً، ثمّ ركل برجلِهِ الجمجمة. فسارعت للإمساك بجثتين، في الجهة المقابلة، وجذبتهما نحوه. أبعد عنّي هذا الموت، كان الشاعر يصيح قائلاً، فيما نتف من الجلد اليابس تتطاير حول رأسه. لم يكن باستطاعتي الاستمرار طويلاً بلعبة رمي الجثث تلك، وإلاّ خرجت من بقعة الضوء وعدت ثانية إلى عتمة الممرّ. لذا استللت خنجري العربيين، وسدّدت نصليهما إلى الأمام كأنّهما درع واقية، أو حيزوم مركب. اندفع الشاعر نحوي شاهراً سيفه ممسكاً مقبضه بيديه الاثنتين، لكي يشقّ به رأسي، غير أنه تعثّر بالجثة الثانية التي تدحرجت عند قدميه، وسقط عليّ فوقعتُ أرضاً بدوري مستنداً إلى مرفقيّ، لكنّ الشاعر كان قد أفلت سيفه أثناء سقطته... ورأيت وجهه لصيقاً بوجهي، وعينيه المحتقنتين دماً لصيقتين بعينيّ، وشممتُ رائحة غضبه، وضراوة حيوان ينشب أنيابه في لحم فريسته، وأحسست بيديه تطبقان على عنقي، وسمعتُ صريف أسنانه... كان ردّ فعلي غريزياً، فأنهضت مرفقي وطعنته بخنجري، طعنةً في كلّ جنب. سمعت صوت تمزّق القماش، وتراءى لي أنّ نصلي الخنجرين تقاطعا في أحشائه. ثمّ رأيته مترباً، وسالت الدماء من فمه. التصق جبينه بجبيني، وسال دمه على فمي. لا أذكر كيف خلّصت نفسي من ذلك العناق، لكني فعلت ذلك تاركاً الخنجرين في بطنه. ألفيته بقربي، ممدداً على ظهره، وعيناه تحملقان بالقمر، هناك، في الأعالي، وكان ميتاً.

- كان أوّل من قتلت في حياتك كلّها.

- وليجعله الله الأخير. كان صديق صباي، رفيق ألف مغامرة ومغامرة، لأكثر من أربعين عاماً. ودِدتُ لو أبكي، لكني تذكّرت ما فعل، فودِدتُ لو أقتله مجدداً. نهضت بمشقّة بالغة، ذلك أني باشرت قتل الناس لمّا خانتني لياقة السنوات الخوالي. تقدّمت متلمساً حتّى طرف الممرّ، ولاهثاً عدت إلى المدفن حيث ألفيت الثلاثة الآخرين شاحبي السحن، مرتعدين، فشعرت بأني حظيت أخيراً بشرف أن أكون تابعاً من حاشية

فردريك، وابناً له بالتبنّي. كان ينبغي لي ألاّ أظهر أي بادرة ضعف. فوقفت منتصب القامة أمام الفاصل الأيقوني، كأني ملاك من بين الملائكة، وقلت بصوت مسموع: كان قصاصاً عادلاً، لقد أزهقت روح قاتل الإمبراطور الروماني المقدّس.»

ذهب باودولينو ليلتقط المذخر عن الأرض، وأخرج منه الغرادال، ثمّ رفعه أمام الآخرين كأنّه يرفع أعراض القربان المقدّس. واكتفى بقوله: «ألدى أحدكم أيّ مطلب؟

- يا باودولينو، قال بورون وهو ما زال مرتجفَ اليدين، لقد عشت هذا المساء وشهدت ما لم أشهده طيلة السنوات التي قضيناها معاً. ليست غلطتك بالتأكيد، ولكنّ شيئاً ما انقطع فيما بيننا، بينك وبيني، بين كيوت وبيني، بين البويدي وبيني. فمنذ وقت غير بعيد، كان كلّ واحد منا يودّ من صميم فؤاده، ولو لهنيهاتٍ وجيزة، أن يكون المذنب هو الآخر، لكي ينتهي هذا الكابوس. ومثل هذا لا يُعدّ صداقة. بعد سقوط بندابتزيم، لم نبقَ سوياً إلاّ بمحض المصادفة. كان ما يجمع بيننا هو السعي وراء هذا الشيء الذي تحمله بيدك. أقول السعي، وليس الشيء. والآن أعلم أنّ الشيء لطالما كان بحوزتنا، ولم يحل ذلك دون سعينا أحياناً وراء هلاكنا. أدركت هذا المساء، أنّ الغرادال لا ينبغي أن يكون بحوزتي، كما لا ينبغي أن يعطى لأحد، بل أن تبقى جذوة البحث عنه. لذا، احتفظ بها أنتَ، هذه القصعة التي لا طاقة لها على اجتذاب البشر إلاّ إذا لم يُعْثَر عليها. فيما يعنيني، أنا شخصياً، فلسوف أرحل. إن تمكّنت من مغادرة المدينة فسأفعل بأسرع وقت، وسأشرع بالكتابة عن الغرادال، وسوف يكمن سلطاني في سردي هذا. سأروي حكاية فرسانٍ أفضل منا، ومن سيقرأني سوف يحلم بالنقاء، لا ببؤسنا نحن. أستودعكم الله جميعاً، يا من تبقّى لي من أصدقاء. كان جميلاً أن أحلم بصحبتكم، مراراً.» وتوارى عبر الممرّ الذي كان سلكه قادماً.

«يا باودولينو، قال كيوت. أعتقد أنّ خيار بورون هو الأفضل. أنا لست عالماً مثله، ولذا لن أكتب قصّة الغرادال، غير أني سأجد، حتماً، من أقصّها على مسامعه، لكي يعمد، هو، إلى تدوينها. وبورون محقّ في ما قال. فسأبقى وفياً لرحلة البحث التي دامت سنوات طويلة إنْ تمكّنت من حثّ الآخرين على السعي وراء الغرادال. ولن أذكر هذه الكأس التي تحملها الآن. لا بل ربّما رويت، كما كنت أقول دائماً، إنّها حجر سقط من السماء. حجر أو كأس أو حربة، ما الفرق. المهمّ ألاّ يعثر عليها أحد، وإلاّ كفّ الآخرون عن السعي وراءها. وإنْ شئت النصح، أخفِ هذا الشيء: لكي لا يقتل أحد حلمَه بالعثور عليها. أمّا ما تبقّى، فأنا أيضاً لن أشعر بارتياح إن بقيت معكم، فوجودي معكم يؤلّب عليّ ذكريات مؤلمة. وأنتَ يا باودولينو لقد صرتَ ملاك ثأر. ربّما كان ينبغي لك أن تفعل ما فعلت. ولكني ما عدت أريد أن أراك. وداعاً.» وغادر، هو أيضاً، المدفن.

عندئذ تكلّم البويدي، وبعد تلك السنوات كلّها، خاطبه بلهجة الفراسكيتا: «يا باودولينو، قال، أنا لست حالماً على غرار هذين، كما أني لا أجيد سرد القصص. أمّا أن يهلك الناس بحثاً عن شيء غير موجود، فأمر يضحكني حقاً. الأشياء المهمّة هي الأشياء الموجودة، شريطة أن تحجبها عن أعين الآخرين لأنّ الحسد أشرّ الشرور. هذه الغرادال هي شيء مقدّس، صدّقني، لأنّها بسيطة كالأشياء المقدّسة قاطبة. لا ادري في أي مكان ستحفظها، فلتحفظها في أي مكان، لا فرق، إلاّ في المكان الذي سأحدّثك عنه، فهو لن يكون المكان الملائم. أصغِ لما خطر ببالي. إثر وفاة والدك الصالح، المغفور له غالياودو، أنت تذكرَ جيداً أن أهل الإسكندرية كلّهم راحوا يشيعون ويردّدون بأنّ من ينقذ مدينة يستحقّ أن تخلّد ذكراه بتمثال. ولكن أنت أدرى بما تجري عليه الأمور: كلام بكلام، ولا أحد عند التنفيذ. غير أني، خلال تجوالي في النواحي لبيع محصولي من القمح، عثرت في كنيسة صغيرة

متداعية، بقرب فيلا ديل فلورو، على تمثال رائع لا أدري ما الذي أتى به إلى هناك. تمثال لرجلٍ عجوز محنيّ الظهر، يحمل على رأسه، ممسكاً به بين يديه، ما يشبه حجر الرحى، أو ربّما كان حجر بناء أو قرصاً من الجبن، الله أعلم، وبدا محنيّ الظهر لأنّ حمله ثقيل ويكاد يعجز عن حمله. فقلت في سرّي إنّ رسماً كهذا لا بدّ أن يعني شيئاً وإنْ كنتُ، أنا، لا أفهم مغزاه، ولكن، كما تعلم، هناك الرسم، دائماً، ثمّ يأتي فيما بعد من يحمّله المعاني. ولكنّ المصادفة الغريبة هي أني فكّرت، منذ ذلك الحين، بأنّ ذاك التمثال قد يصلح لأن يكون تمثال غالياودو، وقد ينصّب في كوة فوق الباب أو على جدار كاتدرائية ما، كعمود تاجه الحجر المحمول على الرأس، وهو، أي شبيهه، الذي يتحمّل عبء الحصار كلّه. فأحضرت التمثال ووضعته في مخزن الحبوب خاصتي. وعندما كنت أخبر الآخرين بما ارتأيت كان الجميع يقولون إنّها فكرة حسنة حقاً. ثمّ جاءت الفكرة القائلة بأن المسيحي الصالح يجب أن يذهب إلى أورشليم، واقتنعت أنا أيضاً بالفكرة، وصار ما صار. الآن سوف أعود إلى داري وسوف يحتفي من أعرفه، وبقي على قيد الحياة، بعودتي، وقد أغدو قدوة لصغار السنّ لأني تبعت الإمبراطور إلى أورشليم، وربّما عيّنت، قبل وفاتي، حاكناً للمدينة، فمن يدري؟ لكني سأعود إلى داري، وأجد التمثال، وبطريقة ما سأحفر فجوة في هذا الشي الذي يحمله على رأسه، أدسّ فيه الغرادال، ثمّ بقليل من الملاط وبعض كسور الحجر أسدّ الفجوة، وأحمل التمثال إلى الكاتدرائية. وهناك نرفعه ونثبّته جيّداً في أحد الجدران بحيث يبقى «إلى دهر الداهرين»، per omnia saecula saecularum، فلا ينزله أحد ولا يأتي أحد للتثبّت مما يحمله على رأسه. إنّ مدينتنا حديثة النشأة، والخفّة فيها هي السائدة، غير انّ بركة صغيرة من السماء لن تضرّ بأحد. أنا سأموت، وأولادي سيموتون، ودائماً ستبقى الغرادال هناك، لتشفع للمدينة ومن دون أن يعلم أحد بذلك، سوى الله عزّ وجل. فما رأيك؟»

«وكانت تلك، يا سيّد نيسيتاس، خاتمة عادلة للقصعة التي كنت، أنا وحدي، أعلم، وإنْ تظاهرت بنسيان مصدرها، من أين جئتُ بها بالضبط. ولم أكن أدري، إثر ما اقترفته يداي للتوّ، لِمَ رأيت النور حقاً، علماً بأني لم آتِ بعمل صالح طولَ عمري. وبامتلاكي هذه الغرادال أكون قد ارتكبت حماقاتٍ أخرى. البويدي المخلص كان محقّا في قوله. وكنت أود فعلاً أن أعود معه، ولكن ماذا أفعل في الإسكندرية، وسط ألفٍ وألفٍ من الذكريات مع كولندرينا، وحلم هيباسي الذي يعاودني كلّ ليلة؟ شكرت البويدي على فكرته المذهلة، وغلّفت الغرادال بخرقة من القماش، كما فعلت حين أحضرته في البداية، لكنّي لم أضعه في مذخر. فإذا كنت مضطراً للسفر مع احتمال أن تصادف قطاع طرق، فالأحرى بك ألاّ تحمل مذخراً، يبدو للناظر كأنّه من ذهب خالص، أمّا إذا حملت قصعةً حقيرة ملفوفة بالقماش، فلن يعيرها اللصوص بالاً. هيّا، يا بويدي، انطلق، في حفظ الله ورعايته. اتركني هنا، فأنا أحتاج لأن أبقى وحيداً. وهكذا رحل هو أيضاً.

تطلّعت من حولي، وتذكّرت زوسيمَس. لم أجد له أثراً في الجوار. لا بدّ أنّه فرّ هارباً حين سمع، ولا أدري متى بالضبط، أحدنا يهدّد الآخر بالقتل، فالحياة كانت قد علّمته أنّ العاقل هو من يجتنب المواقف المتأزّمة. ومتلمّساً، تمكّن الأعمى الذي يعرف المكان جيّداً، من الفرار بينما انهمكنا، نحن، في أن يقيم الحساب، بعضنا على البعض الآخر. أذنب كثيراً، ونال ما استحقّ من جزاء. فليواصل تسوّله في الطرقات، وليرأف به الله. هكذا يا سيّد نيسيتاس، سلكت ممرّ الموتى، وخطوت من فوق جثّة الشاعر، وصعدت إلى نور الحرائق بقرب الهيبودروم. وما جرى لي بعيد ذلك تعرفه جيّداً. فبعيد ذلك التقيتكَ أنتَ.»

39

باودولينو العمودي

لبث نيسيتاس صامتاً. وصامتاً لبث باودولينو، الذي كان قد شبكَ كفّيه فوق حِجرِه، كأنّه يقول: «هذا كلّ شيء.»

«هناك أمر في حكايتك، قال نيسيتاس بعد وقت، لم يقنعني. لقد أطلق الشاعر اتهامات مخيفة في حقّ رفاقك، كأنّ كلاً منهم قد قتل فردريك فعلاً، ثمّ طويت الاتهامات كأنها لم تكن. لقد حاولتَ أن تنشئ سياقاً منطقياً لما جرى في تلك الليلة، وإذا كان ما سردته على مسامعي هو الحكاية كلّها، فإنّ الشاعر لم يقل البتّة إنّ الوقائع جرت على ذلك النحو.

– لقد حاول قتلي!

– بعد أن جُنّ جنونه، وهذا أمر واضح؛ كان يريد الحصول على الغرادال بأي ثمن، ولكي يحصل أقنع نفسه بأنّ مالكه هو المذنب. أمّا فيما يعنيك أنتَ، فجلّ ما قد يتهمك به هو أنك أخفيت عنه امتلاكك الغرادال، وهذا أمر، برأيه، يبرّر عبوره فوق جثّتك لكي يحصل على الكأس. غير أنه لم يقل بتاتاً أنّه قاتل فردريك.

– من يكون قاتله إذاً؟

– لقد عشتم خمس عشرة سنة وأنتم تحسبون أنّ مقتل فردريك كان مجرّد حادثة...

– كنّا نصرّ على مثل هذا الاعتقاد لكي لا يشتبه بعضنا بالبعض الآخر. ثمّ كان هناك شبح زوسيمَس، المذنب الذي نبحث عنه.

- أمر محتمل. ولكن صدّق إذا قلت لك، وقد شهدت في البلاطات الإمبراطورية الكثير من الجرائم. حتّى لو كان أباطرتنا يبدون ما يبدونه من الحماسة لاستعراض ما يمتلكونه من الاختراعات والآلات العجيبة أمام زوارهم الأجانب، فأنا لم أرَ أحداً يستعمل هذه الاختراعات لغرض القتل. ألم أقل لك حين ذكرت اسم أرظروني لأوّل مرّة، إني تعرّفت إلى هذا الرجل في القسطنطينية، وإنّ أحد أصدقائي، من أهل سلمبريه، حلّ ضيفاً على قصره أكثر من مرّة؟ هذا الصديق، ويدعى بافنوزيو، هو خبير بكلّ الآلات الشيطانية التي يصنعها أرظروني، لأنّه هو أيضاً أنشأ مثيلها في عدد من القصور الإمبراطورية. وهو يعرف جيّداً حدود هذه الأشياء الغريبة، لأنّه ذات مرّة، وكان ذلك في عهد أندروميكس، قطع وعداً على نفسه أمام الإمبراطور، بأن يفبرك آلة في هيئة رجل يدور على نفسه ملوحاً ببيرق عندما يصفّق الباسيليوس بكفّيه. ولم يخلّ بوعده، فصنعه، وذات يوم كان أندروميكس يتباهى أمام ضيوف أجانب خلال إحدى المآدب، وصفق بكفيه لكنّ الرجل الآلي لم يتحرّك، وأمر القيصر بأن تُفقأ عينا بافنوزيو. سأسأله غداً إذا كان لا يمانع في زيارتنا. فلا بدّ أنّه، في منفاه هنا، في سلمبريه، يشعر بضجرٍ كبير.

أتى بافنوزيو لزيارتهم وبصحبته فتى في مقتبل العمر. بدا، برغم سنّه وبرغم ما قاساه، رجلاً محبّب الشخصية، زاخراً بالحيوية. وبعد أن تحدّث طويلاً مع نيسيتاس الذي لم يره منذ زمن بعيد، سأل باودولينو بِمَ يستطيع أن يفيده.

حكى له باودولينو الحكاية، في أبرز محطّاتها في البداية، ثمّ تفاصيلها الدقيقة، من تجوالهم في سوق غاليبولي حتّى وفاة فردريك. وإذ ألفى نفسه مرغماً على التصريح بذكر أرظروني، آثر، بالمقابل، أن يكتم هوية أبيه بالتبني، زاعماً أنّه كونت فلمنكي، يكنّ له معزّة خاصة. ولم يأتِ على ذكر الغرادال، بل حدّثه عن كأس مرصّعة بالأحجار الكريمة كان

القتيل ضنيناً بها، غير أنّ الجميع كانوا طامعين بها. وبينما كان باودولينو مسترسلاً في سرد الوقائع، كان بافنوزيو يقاطعه بين الفينة والفينة، مستوضحاً ومستفسراً. «أنتَ من الفرنكة، أليس كذلك؟» كان يسأل، موضحاً أنّ ذلك الأسلوب في نطق بعض المفردات اليونانية خاصّ بأهل بروفانس. أو يسأل: «لِمَ دائماً تلمس الندبةَ على خدّك حين تتكلّم؟» ويشرح لباودولينو الذي بات مقتنعاً بأنّه أعمى مزيّف، كيف يفقد صوته حدّة النبرة أحياناً، كأنما يمرّر يده أمام فمه. فلو أنّه يلمس ذقنه، كما يفعل الكثيرون، لما غطّى فمه بيده. فهو إذاً يتحسّس وجنته، وإذا عمد أحد ما إلى تحسّس وجنته فلأنّ أسنانه تؤلمه، أو مصاب بجرحٍ أو له ندبة. وبما أنّ باودولينو كان رجل سلاح، فقد بدا له أنّ فرضية الندبة على الخدّ هي الأرجح.

أنهى باودولينو سرده، فقال بافنوزي: «والآن تريد أن تعلم ما جرى فعلاً في تلك الحجرة المقفلة حيث أقام الإمبراطور فردريك.

- وكيف علمت أنّ من أتحدّث عنه هو فردريك؟

- كُفّ يا رجل عن التذاكي، العالم أجمع يعلم أنّ فردريك غرق في نهر كاليكادنوس، على بعد أمتار من قلعة أرظروني، حتّى أنّ أرظروني توارى إثر الحادثة، لأنّ أميره، لاوُن، توعّد بقطع رأسه باعتباره المسؤول عن سلامة ضيفه المبجّل. أمّا أنا فلطالما أذهلني نبأ غرق إمبراطورك الذي يؤثر عنه شغفه بالسباحة في مياه الأنهار وبراعته في هذا المجال، في مياهٍ شبه ضحلة خالية من التيارات الكبيرة، كمياه كاليكادنوس، غير أنّ سردك أوضح لي بعض الأمور. فلنتبصّر قليلاً في الوقائع.» كان يقول ذلك بنبرة خالية من السخرية، كما لو أنّه يتابع، فعلاً، مشهداً تترى أحداثه أمام ناظريه المطفأين.

«لنستبعد، بدايةً، أي شبهةٍ في أن يكون فردريك قد مات بسبب الاختراع الذي يحدِثُ الفراغ. فأنا أعرف هذا الاختراع جيداً. وهو، أولاً، مجهّز لأن يحدث الفراغ في غرفةٍ ضيقة بلا نوافذ في الطبقة

العلوية، ليست هي بالتأكيد حجرة الإمبراطور، حيث هناك بُرْقُع للمدخنة وعدد لا يحصى من الفُرَج والفجوات التي يدخل منها الهواء كيفما اتفق. وثانياً، الاختراع نفسه لم يكن شغّالاً. لقد جرّبته بنفسي. ذلك أنّ الاسطوانة لا تحتلّ تماماً جوف الاسطوانة الخارجية، ما يؤدي أيضاً إلى تسرّب الهواء من كلّ حدبٍ وصوب. لقد جرّب علماء في الميكانيكا، أوسع خبرةً وعلماً من أرظروني في هذا المجال، ومنذ قرون سحيقة، مثل هذا الاختراع، ولم يتوصّلوا إلى نتيجة مرضية. أمّا تركيب تلك الكرة التي تدور أو ذلك الباب الذي يفتح بتأثير الحرارة، فهذه أمور بسيطة، ومن قبيل اللهو، يعفها المشتغلون في هذا المجال، منذ أيام كتيسيبيوس وهيرون. وهكذا فإن إحداث الفراغ، يا أصدقائي الأعزّاء، لم يكن ممكناً. أرظروني كان متفاخراً، ويهوى إدهاش ضيوفه، لا أكثر. لننتقل إلى مسألة المرايا: فأن يكون أرخميدس قد أحرق بوساطتها سفن الرومان، هو أمر يتردّد في الأسطورة، غير أننا لا ندري يقيناً إذا كان حقيقة. لقد أتيح لي أن اتحسّس مرايا أرظروني، وألفيتها أصغر مما ينبغي، ومصقولةً بارتجالٍ على نحو غير متقن. ولكن لنسلّم جدلاً بأنّها كانت ممتازة، فالمشهور في هذه الحال أنها تعكس بقوة أشعة الشمس، في فترة الظهيرة، لا فترة الصباح حين تكون أشعّة الشمس واهنة. أضف إلى ذلك أنّ الأشعة كانت ستخترق زجاج إحدى النوافذ وهو زجاج ملوّن، وبذلك يتضح أنّ رفيقك، حتّى لو سدّد المرآة باتجاه حجرة الإمبراطور، لما تسبّب بأي ضرر يذكر. هل اقتنعت؟

- لننتقل إلى الوقائع المتبقية.

- تقصد السموم وترياق السموم... أنتم اللاتينيون على قدر كبير من السذاجة حقاً. هل تتخيّلون حقاً أنّه يمكن لأي كان أن يبيع ويشتري، في سوق غاليبولي، مثل هذه المواد ذات التأثير الحاسم والتي لا يستطيع أن يحصل عليها إلاّ من كان قيصراً أو باسيليوس ومن يدِ عطّار ثقةٍ، وبأثمان باهظة تفوق الخيال والتصوّر؟ كلّ ما يباع هناك مزيّف، ولا يشتريه عادةً إلاّ

البرابرة الوافدون من قونيه أو من البراري البلغارية. لم يكن في الدورقين اللذين عرضا عليكم سوى ماء عذب، وسيّان إذا كان فردريك قد شرب السائل الذي في دورق صاحبك اليهودي، أو ذاك الذي في دورق صاحبك الذي تسمّيه الشاعر، فهذا ماء لا يضرّ ولا ينفع. وكذلك الأمر بالنسبة لذاك الشراب المنعش، أو المنشّط. فلو كان مثل هذا الشراب موجوداً حقاً لاستولى عليه كلّ قائد حرب، لكي ينعش به جرحاه ويطلقهم إلى المعركة مجدداً. هذا فضلاً عن الأثمان البخسة التي دفعتموها مقابل هذه العقاقير العجيبة، فهي تكاد لا تغطي كلفة من يتكبّد مشقّة إحضار الماء من النبع ثمّ دلقها في القوارير. أمّا الآن فدعني أحدّثك عن أذن دينيس. فتلك التي ابتكرها أرظروني لم تكن مجدية إطلاقاً. ذلك أنّ أدوات من هذا القبيل قد تؤدّي الغرض منها إذا كانت المسافة قصيرة بين مصدر الصوت وبين الفجوة التي يخرج منها، كما عندما تحيط فمك بجماع كفّيك كقمع، لكي توصل صوتك إلى أبعد قليلاً. لكنّ المجرى الذي يوصل طبقةً بأخرى، في القصر، كان متعرّجاً ومعقّد الاتجاهات، كما أنه يخترق جدراناً سميكة... فهل أتاح لكم أرظروني أن تجرّبوا اختراعه؟

- لا.

- أليس الأمر واضحاً إذاً؟ كان يتباهى باختراعه أمام الضيوف، يتفاخر بما ينجزه، لا أكثر. فحتّى لو حاول صاحبك الشاعر أن يتحدّث إلى فردريك، ولو سلّمنا جدلاً، في مثل هذه الحال، أنّ هذا الأخير كان صاحياً، فإنّ الصوت الذي سيتناهى إلى مسامعه لن يكون أكثر من طنين يصدر عن فم الميدوزا. قد يكون أرظروني استخدم أحياناً هذه الآلة لإثارة الخوف في روع من يستضيفهم في تلك الحجرة وإيهامهم بأنّها مسكونة بالأشباح، وهذا كلّ شيء. لم يكن باستطاعة صاحبك الشاعر، إذاً، أن يتحدّث إلى فردريك أو يبلّغه أي رسالة.

- ولكن ماذا عن الكأس الفارغة المرمية على الأرض، وماذا عن النار في المدفأة...

- لقد قلتَ لي إنّ فردريك كان متوعّكاً في تلك الليلة؛ كان يُخيّل طيلة النهار، تحت شمس تلك البقاع الحارقة التي تؤذي من لم يألف قيظها، ومن جاء إليها إثر أيّام وأيام من التجوال المتواصل وخوض المعارك الضارية. . . كان متعباً إذاً، واهناً، ومحموماً بالتأكيد. فما قد تفعل أنتَ إذا شعرت برعدة الحمّى أثناء الليل؟ تحاول أن تلتحف بالأغطية جيداً، ولكن إذا كنت محموماً فسوف تشعر بالرعدة تحت أغطيتك. لذا أضرم صاحبنا الإمبراطور النار في حطب المدفأة. فازداد شعوره بالضيق، واستبدّ به الخوف من أن يكون مسموماً، فتجرّع الترياق الذي لا نفعَ منه.

- ولكن لِمَ ازداد توعّكه؟

- حول هذه المسألة لم أعثر على جوابٍ شافٍ، ولكن إذا أمعنّا النظر قليلاً في الأمر، لم نجد سوى استنتاج وحيد. صِف لي تلك المدفأة بالتفصيل بحيث أقدر أن أبصرها.

- كانت فيها حزمة من الحطب فوق طبقة من الأغصان اليابسة، وكانت فيها أغصان عنبيّاتٍ ذات روائح مطيّبة، وقطع من مادة داكنة، أحسب أنها فحم، لكنّه مطليّ بمادة أشبه بالزيت. . .

- أكان نِفطاً، أو قاراً، كذاك الذي نعثر عليه متوافراً بكثرة في فلسطين مثلاً، في المنطقة التي تسمّى البحر الميت، حيث يتضح أنّ ما تحسبه ماءً هو كثيف وثقيل فإذا خوّضتَ فيه لا تغرق بل تعوم على صفحته مثل زورق. لقد ذكر بلّينُس أنّ هذه المادة وثيقة القرابة بالنار بحيث إنّها إذا قُرِّبَت منها أضرمتها. أمّا الفحم فنحن، جميعاً، نعلم، بحسب بلّينُس أيضاً، ما هو؛ إنّه مستخرج من شجر السنديان الذي تحرق أغصانه اليابسة بعد تكديسها على نحو مخروطي، وتطمر بالطين الرطب الذي تجعلُ فيه ثقوبٌ لكي تخرج منها، أثناء الاحتراق، كلّ ما تختزنه الأغصان من رطوبة. ولكن قد يستخرج أحياناً من خشبٍ آخر لا تعرف دائماً خواصّه. والحال أنّ أطبّاءَ كثيرين أشاروا إلى المضارّ التي قد يتعرّض لها من يستنشق أبخرة الفحم الرديء، خاصّة إذا أضيفت إليه بعض صنوف

القار. ففي مثل هذه الحال تنبعث أبخرة ضارّة غير مرئية ولا رائحة لها خلافاً للدخان الذي ينبعث من نار مضرمة، لأنّ مثل هذا الدخان يمكن التخلّص منه بفتح النوافذ وطرده إلى الخارج. ومثل هذه الأبخرة الضارة تترسّب إذا كان المكان مغلقاً. ويمكن للمرء أن يلاحظ وجودها من خلال شعلة السراج التي تستحيل زرقاء فاتحة حين تمسّها. ولكن لا يتنبّه المرء إلى وجودها إلاّ بعد فوات الأوان، أي بعد أن تمتصّ تلك الأبخرة هواء الحجرة. من يتنشّق هذه الأبخرة السامّة يشعر أوّلاً بثقلٍ في الرأس، وطنين في الأذنين، ويصير تنفّسه شاقاً وتنسدل غشاوة على عينيه... وهذه كلّها قد تقنع المصاب بها بأنّها فعل سمّ، فيلجأ إلى تجرّع ترياق مضاد، وأحسب أنّ هذا بالضبط ما فعله صاحبنا الإمبراطور. ولكن إن لم يسارع فوراً إلى مغادرة المكان، أو لم يسارع أحد إلى إخراجه منه، فالعواقب قد تكون أسوأ. فجأةً يشعر بالمرء بأنه يغرق في سبات عميق، ويسقط أرضاً، ويبدو، في عيني من يعثر عليه فيما بعد، ميتاً، لا يتنفّس، بارداً، لا نبض فيه، متصلّب الأطراف، ومترب الوجه تماماً... حتّى أكثر الأطباء خبرةً لن يجد فيه سوى جثّة بلا حياة. ويحكى عن أشخاص دفنوا على هذه الحال، وكان علاجهم ممكناً، بضمادات باردة على الرأس، ونقع الرجلين بالماء، وفرك أجسامهم بزيوت تنعش الأنفاس.

- هل تعني، قال باودولينو مترب الوجه كوجه فردريك في ذلك اليوم، أننا حَسِبْنا الإمبراطور ميتاً، وأنّه كان حياً؟

- أجل، وهذا أمر شبه مؤكّد، يا صديقي البائس. لقد مات عندما رميتموه في النهر. فالمياه الباردة ربّما تكون قد أنعشته قليلاً، فمثل هذا كان ليعتبر علاجاً ناجعاً لحالته، ولكنّه لم يستعد رشده، ولبث فاقد الحواس، ولمّا استعاد تنفّسه ابتلع ماءً وغرق. وكان باستطاعتكم أن تلحظوا عليه بوضوح سمات الغرق عندما تمكّنتم من سحب جثّته إلى الضفّة...

- كان منتفخاً. وكنت أعلم جيّداً أنّ الأمر مستهجن، ولكني

حسبت، إزاء ذاك الجسد الذي حطّمته صخور النهر، أنّ ما رأيته هو مجرّد انطباع. . . أو أنّه ما يخيّل إليّ وحسب. . .

- الجثة لا تنتفخ إذا بقيت تحت الماء. مثل هذا لا يصيب إلاّ الحيّ الذي يموت في حال بقائه تحت الماء.

- إذاً، لم يكن فردريك إلاّ ضحية توعّك مفاجئ مجهول المصدر، وهو لم يقتل غيلةً؟

- لقد أزهقت روحه، غير أنّ المذنب هو من رماه في الماء.

- من رماه هو أنا!

- للأسفِ الشديد. أراك مضطرباً. فلتهدأ. لقد فعلتَ بحسن نية، ومن المؤكّد أنّك لم تكن راغباً في موته.

- ولكن ما فعلت أدى إلى موته!

- أنا لا أعتبر ذلك قتلاً.

- أمّا أنا فبلى، صاح باودولينو قائلاً. أنا أغرقت أبي الحبيب حين كان لا يزال حياً! أنا. . .» وازداد شحوباً قبل أن يتمتم بعبارات أخرى غير مترابطة، ثمّ يغمى عليه.

عاد إلى رشده فيما كان نيسيتاس يمسح جبينه بفوطٍ باردة رطبة. كان بافنوزيو قد غادر ربّما لأنّه شعر بالذنب بعد أن كشف لباودولينو، متباهياً بنفاذ بصيرته، عن حقيقة مرعبة.

«حاول الآن أن تتمالك نفسك، أن تهدأ قليلاً، راح نيسيتاس يردّد قائلاً، أدرك جيّداً سبب اضطرابك، غير أنّ ما جرى كان مقدّراً؛ لقد سمعت جيداً ما قاله بافنوزيو، فكلّ من يرى الرجل كان ليظنّه ميتاً. وأنا أيضاً سمعت عن حالات موت ظاهري خدعت أكثر الأطباء براعةً.

- لقد قتلت أبي، ردّد باودولينو قائلاً، وقد سرت في جسمه رعدة الحمّى، وما كنت ادري أني أحقد عليه، لأني اشتهيت زوجته، أمي بالتبنّي. كنت زانياً أولاً، ثمّ صرت قاتلاً لأبيه، وإذ حملت في داخلي هذا

الطاعون، عمدت فيما بعد إلى تدنيس أطهر العذارى، ببذرة المحارم، بعد أن جعلتها تؤمن بأنّ دنسي ذاك هو الوجد الذي نذرت لأجله. إني قاتل، لأني قتلت الشاعر وهو بريء...

– لم يكن بريئاً؛ كان مدفوعاً بطمعٍ جامح؛ وهو من حاول قتلك، وليست فعلتك إلاّ من قبيل الدفاع عن النفْس.

– لقد اتهمته زوراً بجريمة قتل أنا مرتكبها؛ قتلته، هو، لكي لا أعترف بأني، أنا، من يستحقّ الموت؛ عشتُ حياتي كلّها في كذبةٍ؛ وكم أودّ أن أموت، أن تبتلعني جهّنم وليكن فيها عذابي مخلّداً...»

عبثاً كان أي سعي للتهدئة من روعه، وعبثاً كانت محاولات شفائه. طلب نيسيتاس من تيوفيلاكتس أن يعدّ له نقيعاً من الأعشاب المنوّمة وأن يسقيه بعضه. وبمضيّ دقائق كان باودولينا غارقاً في نومٍ شديد الاضطراب.

عندما استيقظ في اليوم التالي، رفض تناول الحساء الذي قُدِّم له، ثمّ غادر الدار وجلس تحت شجرة، ولبثَ هناك صامتاً، وقد أسند جبينه إلى راحتيه، مقيماً على حاله تلك طوال النهار، وصبيحة النهار الذي تلا. ارتأى نيسيتاس أنّ النبيذ، في أحوال كهذه، هي خير علاج؛ فأقنعه أن يحتسي منه الكثير كأنّه ترياق. ولبثَ باودولينو، تحت الشجرة، في حالٍ من الخدر المتواصل، ثلاثة أيام بلياليها.

قبيل فجر اليوم الرابع، ذهب نيسيتاس ليتفقّد ما آلت إليه حاله، فلم يجده. بحث عنه في نواحي الجنينة وفي الدار، ولم يعثر على أثرٍ له. كان أخشى ما يخشاه أن يدفعه يأسه إلى ارتكاب فعلة ما لا تحمد عقباها، فسارع نيسيتاس إلى إيفاد تيوفيلاكتس وأبنائه للبحث عنه في أنحاء سلمبريه والحقول المجاورة. فعادوا، بمضيّ ساعتين، صائحين طالبين من نيسيتاس أن يأتي ليرى بنفسه. واصطحبوه إلى ذاك الحقل، المجاور المدينة، حيث شاهدوا، لدى مجيئهم، عمود النسّاك القدماء.

كانت جمهرة من الفضوليين عند أسفل العمود، وراح بعضهم يشير

بيده إلى قمّته. كان العمود من حجر أبيض، وعلوّه عِدْلَ ارتفاع دارة من طبقتين. وعند قمّته تتسع حوافّه على شكل منصّة مربّعة يحوطها درابزين مؤلّف من عُمُدٍ قصيرة غير لصيقٍ بعضها ببعض تعلوها متّكآت هي أيضاً من الحجر. وفي الوسط ما يشبه المقصورة. لم تكن قاعدة المقصورة أوسع بكثير من تاج العمود، فيضطرّ الجالس عليها أن يدلّي ساقيه، كما أنّها بالكاد تتسع لرجلٍ مقرفصٍ منطوٍ على نفسه. كان باودولينو جالساً هناك، فوق، مدلّياً ساقيه، عارياً كما خلقه الربّ.

ناداه نيسيتاس، وصاح به أن ينزل على الفور، وحاول أن يفتح الباب الضيّق الذي يفضي، من الأسفل، كما في كلّ المنشآت المماثلة، إلى سلّم حلزوني صاعدٍ حتّى المنصّة. واتضح أنّ الباب الذي لم يكن، مع ذلك، محكم الإقفال، قد سُنِدت درفته من الداخل بحيث يستحيل فتحه.

«انزل يا باودولينو، ماذا تفعل فوق؟» أجاب باودولينو بعبارات لم يفهمها نيسيتاس. فطلب أن يؤتى بسلّم طويل. ولمّا أتوا بالسلّم، تسلّقه بمشقّة بادية حتّى صار رأسه لصيقاً بِرِجْلَي باودولينو. «ما الغرض من جلوسك هنا؟ سأله مجدداً.

- أن أبقى هنا. الآن يبدأ تكفيري عمّا ارتكبته من ذنوب. سأصلّي، سأستغرق في التأمّل، سوف أفني نفسي بالصمت. سوف أسعى لبلوغ العزلة القصوى، الأبعد من أي خاطرٍ أو تخيّل، حيث لا حَنَق ولا رغبة، حيث لا علّة ولا فكرة، متجرّداً من كلّ آصرة، مرتدّاً إلى الغاية في البساطة لكي لا أعود مبصراً إلاّ جلال العتمة. سوف أتجرّد من النفس والفكر، وأرتقي إلى ما وراء مملكة الروح، وفي العتمة سوف استكمل مسيرتي عبر دروبٍ من نار...»

أدرك نيسيتاس أنّه إنما يردّد أقوالاً سمعها عن لسان هيباسي. فلشدّة ما يريد هذا البائس التجرّد من هواه، قال في سرّه، عزل نفسه، فوق، سعياً منه لأن يصير مساوياً لتلك التي ما زال يحبّها. غير أنّه لم يقل له ما راودَ تفكيره. واكتفى بسؤاله كم يظنّ أنه سيبقى على قيد الحياة هناك.

«لقد قلتَ لي إنّ النسّاك كانوا يدلّون سلالهم بحبلٍ، قال باودولينو، فيضع فيها المؤمنون على سبيل الإحسان، فضلات طعامهم، والأفضل إذا كانت تلك فضلات طعام بهائمهم. مع القليل من الماء، وإنْ كان حقّاً على الناسكِ ظمأه ريثما يهطل المطر بين وقتٍ وآخر.»

تنهّدَ نيسيتاس، ثمّ نزل عن السلّم وأرسل من يحضر سلّةً وحبلاً. ملأه خبزاً وخضاراً مطبوخة وزيتوناً وبضعَ قطعٍ من اللحم. وقذف أحد أبناء تيوفيكلاتس طرف الحبلَ إلى الأعلى، فالتقطه باودولينو ورفع السلّة. لم يحتفظ إلاّ بالخبز والزيتون وأعاد الباقي. «والآن، دعني وشأني، رجاءً، صاح مخاطباً نيسيتاس. ما أردت أن أفهمه من خلال سردي حكايتي على مسامعك، فهمته الآن. ولم يعد هناك ما نقوله. شكراً لك لأنّك ساعدتني في الوصول إلى حيث أراني الآن.»

كان نيسيتاس يأتي إليه كلّ يوم، فيحييه باودولينو بحركة من يده ثمّ يلبث صامتاً. وبمضيّ الوقت، لاحظ نيسيتاس أنّ لا حاجة به لإحضار الطعام لأنّ الناس دأبوا، بعد أن شاع خبر الرجل البار الذي عزل نفسه على قمّة عمود، على المجيء للصلاة هناك وتركِ بعض الطعام والماء في السلّة. وكان باودولينو يرفع السلّة كلّ يوم ويأخذ منها حاجته ليومه ذاك، ثمّ يبذل ما تبقّى طعاماً للطيور الكثيرة التي كانت تأتي إليه وتلبث جاثمةً على الدرابزين. وغدتِ الطيور هي محطّ اهتمامه الوحيد.

مكث باودولينو فوق العمود طيلة فترة الصيف من دون أن يتفوّه بحرف، معرّضاً لأشعّة الشمس، ولشدّة الحرّ على الرغم من لجوئه، في أغلب الأحيان، إلى حشر جسده داخل المقصورة. كان يتغوّط ويبول ليلاً، من أعلى المنصّة، وكان غائطه يبدو للزائرين، في وضح النهار، ضئيلاً كروث شاة. طال شعره واسترسل، وكذلك أمر لحيته، وغطّاه الوسخ، وراحت تنبعث منه الروائح الكريهة التي لم تكن لتخطئها الأنوف حتّى من أسفل العمود.

اضطرّ نيسيتاس إلى التغيّب مرّتين عن سلمبريه. ففي القسطنطينية كان بودوان الفلندري قد أُعْلِنَ قيصراً، واللاتينيون يتوسّعون في احتلال الإمبراطورية شيئاً فشيئاً، وكان على نيسيتاس أن يعنى بأملاكه. في الأثناء، كان آخر معقل للإمبراطورية البيزنطية يتشكّل في نيقيا، وفكّر نيسيتاس أن ينتقل إلى هناك حيث قد يحتاج قومه إلى مستشار بمثلِ خبرته. ولهذا الغرض كان عليه أن يجري بعض التشاور والتداول والاتصال للإعداد لمثل تلك الرحلة التي تحفّ بها المخاطر.

كان كلّما عاد إلى المدينة يرى أعداداً متزايدةً من الناس عند العمود. فالاعتقاد الراسخ كان يوهم الناس بأنّ عمودياً تطهّر بتضحياتٍ متصلة مثل تلك، لا يعقل إلاّ أن يكون على قدرٍ من الحكمةِ غير المعهودة، فكانوا يتبارون بتسلّق السلّم إلى مقامه طلباً للنصحِ وراحة البال. وكان من يجد إلى مقامه، المرتفعِ، سبيلاً يشكو له تعسَ أحواله، فيجيب باودولينو، على سبيل المثال، قائلاً: «إذا كنتَ صَلِفاً، فأنتَ الشيطان. وإذا كنتَ حزيناً فأنتَ ابنه الحبيب. وإذا كان في روعكَ ألف همٍّ، فأنتَ خادمهُ الذي لا يستجدي عزاء.»

آخر يسأله رأيه لحلّ نزاع مع جاره. فيقول باودولينو: «كن كما الجمل: احمل عبء خطاياك، واتبع من يدرك سُبُلَ الربّ.»

آخر أيضاً كان يشكو أنّ كنّته لا تنجب. وباودولينو يقول: «كلّ ما قد يدركه عقل آدميّ في أمور ما تحت السماء وما فوق السماء، هو عبث بلا جدوى. ولن يكون في صلب الحقّ إلاّ المقيم على ذكر المسيح.»

«بوركَ الذي ينطق بالحكمة»، كانوا يردّدون، تاركين مالاً قليلاً، حاملين عزاءً كبيراً.

حلّ الشتاء، فكان باودولينو يصرف أوقاته كلّها تقريباً، منطوياً على نفسه داخل المقصورة. ولكي لا يشقى في سماع هذر الشكاوى المطوّلة، كان يستبق الشكوى بالنصح. «أنتَ تعشق شخصاً حتّى الهيام، ولكن،

أحياناً ترتاب بأنّ من تعشقه لا يبادلك هواك»، كان يقول. فيجيب الآخر: «كم أنت حكيم! لقد قرأتَ مكنون مكنون نفسي كأنّه العَلَن المشهور! فماذا أفعل؟» فيقول باودولينو: «اصمت، ولا تصدّق جهالة نفسك.»

ولرجلٍ سمين جاءه فيما بعد، متسلّقاً سلّم مقامه ببالغ المشقّة، قال: «أنت تستيقظ كلّ صباحٍ وفي عنقكَ وجعٌ، وتجدُ مشقة في انتعال خفّيك.» «صحيحٌ هذا»، يقول الرجل، وفي عينيه سيماء العجب. فيردف باودولينو قائلاً: «امتنع عن طعام لثلاثة أيام. ولكن لا تعلن صيامكَ افتخاراً. لأنّ الافتخارَ مساوٍ لأكل أكل الحم. فالأحرى أن تأكل لحماً عِوَضَ الفخار. واصبر على أوجاعك جزاء خطاياك.»

جاء أب يشكو حال ابنه الذي كسته القروح المؤلمة. فقال: «اغسله ثلاثاً كلّ يوم بالماء والملح، وكلّما غسلته انطق بالعبارات التالية: أيتها العذراء هيباسي، اشفعي لابنك.» فغادر الرجل وعاد بعد أسبوع قائلاً إنّ القروحَ آيلةٌ للشفاء. وأعطاه نقوداً وحمامةً وقارورة نبيذ. صاح الجميع: معجزة، ومن منهم كان معتلاً قصد الكنيسة مبتهلاً: «أيتها العذراء هيباسي، اشفعي لابنك.»

تسلّق السلّم رجلٌ رثّ الثياب متجهماً. فقال باودولينو: «أعلم ما بكَ. في قلبك حقدٌ على أحد ما.

- علمتَ كلّ شيء»، قال الآخر.

قال له باودولينو: «من أراد الشرّ من أجل الشرّ، قد يؤذي أخاه، ولو بِشارةٍ. أبقِ يديك دائماً وراء ظهرك.»

جاء آخر، مكتئب العينين، فقال له: «لا أدري ما هو مصابي.

- أنا أدري، قال باودولينو. أنتَ أسيان.

- وما سبيلي إلى الشفاء منه؟

- يتبدّى الأسى أوّل ما يتبدّى عندما نلاحظَ البطءَ الشديد في حركة الشمس.

- وماذا أفعل؟

- لا تنظر البتّة إلى الشمس.»

«لا يخفى عنه شيء»، كان أهل سلمبريه يردّدون.

«ما الذي يلهمكَ الحكمة؟» سأله بعض الناس. فقال: «لأني أحتجب.»

«وما سبيلك إلى الاحتجاب؟»

فمدّ باودولينو يداً وأراه راحتها. «ما الذي تراه؟» سأل قائلاً. «يداً»، أجاب الرجل.

- إذاً أنتَ ترى جيداً أنني أستطيع الاحتجاب»، قال باودولينو.

حلّ الربيع مجدداً، وباودولينو على حاله من كثاثة الشعر. كان مكسواً بالطيور التي تسارعُ إليه أسراباً وتنقد الدود الذي بات ينخر جسمه. ولمّا كان عليه أن يطعمَ كلّ هذه المخلوقات جاء الناس لملء السلّة مراراً في اليوم الواحد.

ذات صباح جاء رجلٌ ممتطياً جواداً، لاهثاً ويكسوه الغبار. قال له إنّه خلال رحلة صيد أخطأ فارس نبيل في تسديد سهمه وأصاب ابن اخته. اخترق السهم عينه وخرج من قذاله. ما زال بالصبيّ رمقٌ، ورجاء السيّد المذكور من باودولينو أن يبذل ما وَسِعَ أولياء الربّ أن يفعلوا.

قال باودولينو: «حَتْمٌ على العموديّ أن يبصر أفكاره وافدةً إليه من بعيد. كنت أعلم أنّك ستأتي غير أنّ رحلتك استغرقت ردحاً من الوقتِ مديداً، وكذا رحلتكَ في طريق العودة. الأمور في هذه الدنيا تجري كما ينبغي لها أن تجري. واعلم أنّ الصبيّ يموت في هذه اللحظة، لا بل، رويداً، ها هو قد مات. تغمّد الله روحه برحمته.»

لدى عودة الفارس كان الصبيّ قد فارق الروح. وعندما شاع الخبر بين الناس كثيرون من أهل سلمبريه قالوا إنّ لباودولينو القدرة على التنبؤ وإنّه أبصر ما يجري على بعدِ أميال. مع ذلك، كانت هناك، على مقربة

من العمود، كنيسة القديس ماردوان، وكان كاهنها يحنق على باودولينو لأنّه يستأثر بكلّ قرابين المؤمنين. فقال الكاهن في سرّه إنّ معجزة باودولينو كانت مجزية حقاً، وإنّ المعجزات من هذا النوع قد يجترحها أيّ كان. فذهب إلى العمود وصاح بباودولينو قائلاً إنّه إذا لم يتمكّن عموديّ حتّى من نزع سهم من عين شخصٍ ما، فذلك يعني أنّه هو الذي قتل الصبيّ.

أجاب باودولينو: «إنّ السعي لنيل رضى البشر يحول دون أيّ ارتقاء روحيّ.»

فرماه الكاهن بحجر، وسرعان ما هبّ لمؤازرة الكاهن كثيرون من المتشدّدين، فأمطروا المنصّة بالأحجار وكتل التراب. تابعوا رمي الأحجار طيلة النهار، وباودولينو قابع في مقصورته وقد غطّى وجهه براحتيه. لم يذهبوا حتّى هبوط الليل.

في اليوم التالي ذهب نيسيتاس ليطمئنّ إلى حال صديقه، لكنّه لم يجده هناك. وألفى العمود مهجوراً. هرع عائداً إلى تيوفيكلاتس وعلمَ أنّ باودولينو في الإسطبل. وكان باودولينو قد ملأ برميلاً بالماء وراح يكشط الأوساخ عن جسمه بسكّين. وكان قد قصّ شعره وشذّب لحيته. لم يبدُ، برغم لفح الشمس، نحيلاً، غير أنّه كان يجد مشقّة في الوقوف منتصباً، فيحرّك ذراعيه وكتفيه لكي يمسّد عضلات ظهره.

«لقد رأيتَ بأمّ العين. لمّا نطقتُ بالحقيقة، لمرّة وحيدة في حياتي، تعرّضتُ للرجم.

- مثل هذا تعرّض له الرُسُل. فهل يحبطكَ ذلك بعد أن صِرتَ واحداً من الأبرار؟

- ربّما كنت أنتظر علامة من السماء. ففي الأشهر المنصرمة جمعت مبلغاً من المال. وقد أرسلت أحد أبناء تيوفيلاكتس لكي يشتري لي ثياباً

وحصاناً وبغلاً. ولا بدّ أن أسلحتي ما زالت هنا في مكان ما من هذه الدار.

- إذاً، صمّمتَ على الرحيل؟ سأل نيسيتاس.

- أجل، قال. إنّ إقامتي على العمود قد جعلتني أدرك بعض الأمور. أدركت أنني أخطأت ولكن ليس من أجل سلطان أو ثروة. وأدركت أنني إذا كنت أسعى لغفران فعليّ أن أفي بثلاثة ديون. الدين الأول هو أنني قطعت وعداً بإقامة شاهد قبرٍ لعبدول، ولهذا الغرض احتفظت برأس المعمدان الذي كان بحوزته. صحيح أنّ المالَ جاء من سعيٍ آخر، ولعلّ خيراً ما جرى، لأنّ المالَ لا يأتي من المتاجرة بالمقدّسات بل من أعطيات المسيحيين. سوف أهتدي إلى المكان الذي دفن فيه عبدول وسوف أسعى لأن أبني هناكَ كنيسة صغيرة للصلاة.

- لكنّك لا تذكر حتّى أين قُتِل!

- من الله هدايتي، وما زلتُ أذكر، عن ظهر قلب، خارطة كوسمَس. الدين الثاني: لقد قطعتُ وعداً لأبي، الصالح، المقدّس، فردريك، فضلاً عن الوعد الذي قطعته للأسقف أوتون، ولم أفِ به إلى اليوم. يجب أن أصل إلى مملكة الراهب جان. ومن غير ذلك أكون، إلى الآن، قد بذلت حياتي عبثاً.

- ولكنّك أيقنتَ أنّ المملكة لا وجود لها!

- لقد أيقنتُ أننا لم نصل إليها. وهذا أمر آخر.

- غير أنك أيقنتَ أنّ الخصيان يكذبون.

- وما قد يعني كذبهم. مهما كذبوا فهم لن يكذّبوا لا الأسقف أوتون ولا مقول الكتب بأنّ الراهب موجود في مكانٍ ما.

- لم تعد فتياً كما كنت في محاولاتك الأولى!

- لم اعد فتياً ولكني صرتُ أكثر حكمة. الدين الثالث: لديّ ابن، أو ابنة، هناك. وهناك، لديّ هيباسي. أريد أن ألقاهم، وأن أحميهم، كما ينبغي لكلّ رجل أن يفعل.

- انقضى أكثر من سبع سنوات!

- يكون المخلوق قد بلغ الآن السادسة من عمره. وإذا كان المولود في السادسة من عمره ألا يكون طفلك؟

- ولكنّه قد يكون ذكراً، وعندها يكون أحد الساتير-الذين-لا-يرون-قط!

- وقد يكون هيباسيّة. وبأية حال سوف أحبّ المخلوق أيا كان.

- أنتَ لا تدري حتّى إلى أيّ الجبال لجأت؟

- سأبحث عنها.

- ربّما نسيتكَ هيباسي؛ وربّما ما عادت تريد أن تلتقي مَنْ أفقدها برودة المشاعر!

- أنتَ لا تعرف هيباسي. إنها تنتظرني.

- عندما أحبّتكَ كنتَ مسناً، أمّا الآن فسوف تلقاكَ كهلاً!

- هي لم ترَ من قبل رجالاً أصغر سناً.

- غير أنّك لن تصل إلى هناك إلاّ بعد أعوام وأعوام، فكيف إذا أردتَ أن تصلَ إلى أبعد من هناك؟

- نحن، أهل فراسكيتا، بمثل عناد التيس.

- ومن قال لك إنّك ستبقى حياً حتّى ختام رحلتك؟

- الرحلة تجعلكَ فتياً.»

لم يجد النقاش نفعاً. في اليوم التالي، ودّع باودولينو نيستاس وأفراد عائلته ومضيفيه. امتطى حصانه بمشقّة بادية، جارّاً خلفه البغل المحمّل بالمؤن، وسيفه المعلّق بسرج ركوبته.

رآه نيسيتاس مبتعداً، ملوّحاً بيده، لا يلتفت إلى الوراء؛ يحثّ السير إلى مملكة الراهب جان.

40

باودولينو كانَ أو ما كان

ذهب نيسيتاس لزيارة بافنوزيو. وروى له كلّ ما جرى منذ لقائه باودولينو في كنيسة القديسة صوفيا، وكلّ ما حكاه له هذا الأخير.

«ماذا ينبغي أن أفعل؟ سأله قائلاً.

- لأجله هو؟ لا شيء، إنّه ذاهبٌ لملاقاة قَدَرِه.

- ليس لأجله، بل لأجلي أنا. فأنا مدوّن أخبار، وسيتعيّن عليّ، عاجلاً أو آجلاً، أن أدوّن وقائع الأيّام الأخيرة لبيزنطية. فأينَ موضع الحكاية التي سردها باودولينو من كلّ هذه الوقائع.

- لا محلَّ لها في أي موضع. إنّها حكاية خاصّة به. ثمّ هل أنت واثقٌ من صحّتها؟

- لان كلّ ما أعرفه عنها سمعته منه، كما علمتُ منه، هو، أنّه كذّاب.

- الأمر واضح إذاً، قال بافنوزيو الحكيم، لا يجوز لمدوّن أخبارٍ أن يعتمدَ رواية غير مؤكّدة. إحذف باودولينو من سردِك.

- ولكن في الأيام الأخيرة، على الأقلّ، كانت لنا، معاً، في دارة الجنويين، حكاية مشتركة.

- أحذف أيضاً الجنويين، وإلاّ اضطررتَ إلى ذكر الذخائر التي كانوا يصنعونها، فيفقد قراؤك إيمانهم بالأشياء المقدّسة. لن يقتضيكَ ذلك سوى

تحريف بسيط للحوادث، كأن تذكر مثلاً أنّ من ساعدوك كانوا من أهل البندقية. بلى، أعلم جيّداً أنّها ليست الحقيقة، ولكنْ، في ثبتِ الخَبَر العظيم قد يطمس المدوّن الحقائق الصغيرة لكي يبرز الحقيقة الأكبر. يجب أن تسردَ التاريخَ الحقيقي للإمبراطورية الروماني، وليس الحكاية التافهة التي نشأت في مستنقعِ ناءٍ، في بلاد بربرية وبين أناسٍ من البرابرة. فهل تودّ حقاً أن ترسّخ في أذهان قرائك المحتملين فكرةَ أن الغرادال موجودة بين بقاع الثلجِ والصقيع وبين مملكة الراهب جان في بقاعٍ يلهبها القيظ؟ فمن يدري لو فعلتَ كم من المعتوهين سيجوبون أرجاء الأرض بحثاً عنها، طوال دهور ودهور.

- كانت حكاية جميلة. وإنّه لمؤسف حقاً ألاّ يعلم بها أحدٌ، ذاتَ يومٍ.

- لا تحسبنّ أنّك مدوّن الأخبار الوحيد في الكون. فعاجلاً أو آجلاً، سوف يأتي من هو أكذب من باودولينو، ويرويها.»

الفهرس

1 ـ باودولينو يبدأ بالتدوين 7

2 ـ باودولينو يلتقي نيسيتاس خونياتس 21

3 ـ باودولينو يفسّر لنيسيتاس ما كان يكتبه، نمنمة 39

4 ـ باودولينو يتحدّث الى الإمبراطور ويقع في غرام الإمبراطورة ... 56

5 ـ باودولينو يبذل من حكمته نصحاً سديداً لفردريك 66

6 ـ باودولينو يذهب الى باريس 79

7 ـ باودولينو يكتب رسائل حبّ ينسبها الى بياتريس وقصائد ينسبها الى الشاعر 97

8 ـ باودولينو في الفردوس الأرضي 105

9 ـ باودولينو يوبّخ الإمبراطور ويغوي الإمبراطورة 123

10 ـ باودولينو يعثر على الملوك المجوس ويطوّب شارلمان قدّيساً .. 132

11 ـ باودولينو يُشيّد قصراً للراهب جان 147

12 ـ باودولينو يكتب رسالة الراهب جان 160

13 ـ باودولينو يشهد ولادة مدينة جديدة 175

14 ـ باودولينو ينقذ الإسكندرية ببقرة أبيه 201
15 ـ باودولينو في معركة لينيانو 233
16 ـ زوسيمَس يخدع باودولينو 243
17 ـ باودولينو يكتشف أنّ الراهب جان يراسل عدداً كبيراً من الناس . 259
18 ـ باودولينو وكولَندرينا 269
19 ـ باودولينو يغيّر اسمَ مدينته 275
20 ـ باودولينو يلتقي زوسيمَس مجدّداً 283
21 ـ باودولينو ومباهج بيزنطية 298
22 ـ باودولينو يفقد أباه ويعثر على الغرادال 310
23 ـ باودولينو في الحملة الصليبية الثالثة 323
24 ـ باودولينو في قصر أرظروني 338
25 ـ باودولينو يشهد موت فردريك مرّتين 358
26 ـ باودولينو ورحلة الملوك المجوس 377
27 ـ باودولينو في ظلمات أبكاسيا 397
28 ـ باودولينو يعبر الساماباتيون 413
29 ـ باودولينو يصل إلى بندابتزيم 421
30 ـ باودولينو يلتقي الشمّاس جان 439
31 ـ باودولينو ينتظر أوانَ الرحيل إلى مملكة الراهب جان 457
32 ـ باودولينو يرى سيّدة بصحبةِ قارِن 475

33 ـ باودولينو يلتقي هيباسي 485
34 ـ باودولينو يكتشف الحبّ الحقيقي 507
35 ـ باودولينو يتصدّى للهُوْن البيض 518
36 ـ باودولينو وطيور الرُخّ 530
37 ـ باودولينو يُغْني كنوز بيزنطية 544
38 ـ باودولينو يُقِيْمُ الحِساب 563
39 ـ باودولينو العَمودي 586
40 ـ باودولينو كانَ أو ما كان 603

أُمبرتو إيكو

ولد أمبرتو إيكو في ألكسندريا، في مقاطعة البييمونت في إيطاليا. استاذ محاضر ومدير المعهد العالي للعلوم الإنسانية في جامعة بولونيا. له عدد كبير من الدراسات الأدبية واللغوية من بينها " حدود التأويل " و " القارىء في الحكاية ".

باودولينو

إثر لقاءٍ قد يوصف بأنّه مأثرةٌ من مزاجِ إيكو الكتابي، يحظى باودولينو بعطفِ الإمبراطور فردريك بربروس، بعد أن يثير فضوله، ويجعله ابناً له بالتبنّي.

فتان خبيثٌ وحاذقٌ وكذّابٌ أشِر، عاشقُ لغاتٍ عِشقَ الحِرباء الألوان، يتنقّل باودولينو بين بلدانٍ وأصقاع. أولاً، باريس حيث يحصّل العلمَ من دروس الأساتذة ومن ليالي القَصفِ والمجون؛ ثمّ إيطاليا وألمانيا حيث يتنقّل بصحبة فردريك، بعد أن صار حافظ سرّه ومستشاره الأريب. غير أنّه لا يكفّ عن الحلمِ، وعن التخريف، حتّى يصنع ما يتخيّله التاريخ. وعلى هذا النحو يزيّف الرسالة الأسطورية للراهب جان الذي لطالما قيل إنّ مملكته تقع في شرقٍ ناءٍ ويستحيل بلوغها، حيث يسود السحر والمخلوقات العجيبة.

يقنع باودولينو الإمبراطور بالاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة التي لن تكون سوى ذريعة لبلوغ مملكة الراهب جان ومنحه، أمارة ولاء، أثمن الذخائر المسيحية قاطبةً. وعندئذٍ تتحوّل حكاية باودولينو إلى سلسلة من الروايات المشوّقة . إنّها رحلةٌ طويلة تتراوح بين الضحك والانفعال في غمرة الغمز الفلسفي أو التاريخي بين جموح الخيال والفكاهة.

في هذه الرحلة إلى أقاصي الشرق، إلى أقاصي الأنوار، يستعيد أمبرتو إيكو كلّ مفاتيح الرواية الساحرة : قصة حبّ مع الأكثر غرابة من بناتِ حوّاء؛ مغامرات شطارية وسط المجازر وساحات القتال؛ أشبه بجدارية تاريخية تنعكس من خلالها كلّ النزاعات السياسية والحربية لعالم اليوم؛ ورواية بوليسية تدور حول جريمةٍ ربّما كانت هي الجريمة الكاملة؛ وسجّل من الثارات ومآثر الابتكار الألسني الضاحك.

بعد عشرين عاماً على صدور روايته الأولى " إسم الوردة " (١٩٨٠)، التي استغرقت في استلهام جذور اللاهوت الغربي والفلسفة الدينية، ربّما جاءت روايته الرابعة " باودولينو " لتشكّل الصيغة العلمانية من تلك العودة البارعة إلى جذور المعرفة البشرية، ولكن هنا، في صيغة اللعب.

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص .ب 4006 - الدار البيضاء- المغرب

جميع كتبنا متوفرة أيضاً على الانترنت في
مكتبة النيل والفرات
www.neelwafurat.com
علي مولا